جواهر البحار

في

فضائل النبي المختار ﷺ

تأليف

الشيخ يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني

المتوفى سنة ١٣٥٠ هـ

ضبطه وصححه وخرج آياته وأحاديثه

محمد أمين الضناوي

الجزء الثاني



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بسم الله الرحمن الرحيم

[من جواهر الشيخ يوسف النبهاني]

القائل:

للمصطفى نصبت في المجد رايات ... من نحتها الخلق أحياء وأموات

روح الوجود مُمِدُّ الخلق قاطبة ... لو زال لحظةَ عينٍ عنهمُ ماتوا

لا تعجبَنَّ لكفار به جهلوا ... أمَا بأرواحهم منهم جهالات

نور الورى في جميع الكائنات سرى ... مصباحها وهي للمصباح مشكاة

سقى جميع البرايا نور فطرتهم ... فنوعته لديها القابليات

لا غرو أن صار ناراً بالجحود فقد ... تغير الوصف في الشيء استحالات

مثاله الماء أنواع النبات سقى ... ألحلو منها ومنها الحنظليات

صفاته في العلا ما مثلها صفة ... وذاته في الورى ما مثلها ذات

له المعاريج في الدنيا لها خضعت ... كل المعالي وفي الأخرى الشفاعات

أبعد ما عبر العرش العظيم علا ... تفي بوصف معاليه العبارات

ماذا أقول به من بعدما وردت ... في مدحه من كلام الله آيات

وكل أمداحنا مهما علت وغلت ... فإنما هي أخبار صحيحات

نحكي بها حالة من فضله ثبتت ... بقدر ما ساعدت منه العنايات

وخير أوصافه عبد الإله وإن ... تمت لديه على الخلق السيادات

[ومنهم الإمام أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني[(١)] المتوفى سنة ٩٢٣ هـ]

بسم الله الرحمٰن الرحيم

[خطبة كتاب المواهب اللدنية]

الحمد لله الذي أطلع في سماء الأزل شمس أنوار معارف النبوة المحمدية، وأشرق من أفق أسرار الرسالة مظاهر تجلي الصفات الأحمدية. أحمده على أن وضع أساس نبوته على سوابق أزليته، ورفع دعائم رسالته على لواحق أبديته، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، الفرد المنفرد في فردانيته بالعظمة والجلال، الواحد المتوحد في وحدانيته باستحقاق الكمال، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمداً عبده ورسوله أشرف نوع الإنسان، وإنسان عيون الأعيان، المستخلص من خالص خلاصة ولد عدنان، الممنوح ببدائع الآيات، المخصوص بعموم الرسالة، وغرائب المعجزات، السر الجامع الفرقاني، المخصص بمواهب القرب من النوع الإنساني، مورد الحقائق الأزلية، ومصدرها، وجامع جوامع مفرداتها، ومنبرها، وخَطيبها إذا حضر حظائر قدسها ومحضرها، بيت الله المعمور الذي اتخذه لنفسه، وجعله ناظماً لحقائق قدسه، مدة مداد نقطة الأكوان، ومنبع ينابيع الحكم والعرفان، المفيض من بحر مدد الوفاء، على القائل من أهل المعارف والاصطفاء. (هو سيدي محمد وفا) حيث خاطب ذاته الأقدسية. بالمنح الأنفسية فقال:

فأنت رسول الله أعظم كائن	وأنت لكل الخلق بالحق مرسل
عليك مدار الخلق إذ أنت قطبه	وأنت منار الحق تعلو وتعدل
فؤادُك بيت الله دار علومه	وباب عليه منه للحق يُدخَلُ
ينابيع علم الله منه تفجرت	ففي كل حي منه لله منهل
منحت بفيض الفضل كل مفضل	فكل له فضل به منك يفضل

(١) هو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين من علماء الحديث مولده سنة ٨٥١ هـ، وتوفي سنة ٩٢٣ هـ. في القاهرة.

نظمت نثار الأنبياء فتاجهم ... لديك بأنواع الكمال مكلل
فيا مدة الأمداد نقطة خطه ... ويا ذروة الإطلاق إذ يتسلسل
محال يحول القلب عنك وإنني ... وحقك لا أسلو ولا أتحول
عليك صلاة الله منه تواصلت ... صلاة اتصال عنك لا تتنصل

شخصت أبصار بصائر سكان سدرة المنتهى لجلال جماله، وحنت أرواح رؤساء الأنبياء إلى مشاهدة كماله، وتلفتت لفتات أنفس الملأ الأعلى إلى نفائس نفحاته، وتطاولت أعناق العقول إلى أعين لمحاته ولحظاته، فعرج إلى المستوى الأقدس، وأطلعه على السر الأنفس، في إحاطته الجامعة، وحضرات حظيرة قدسه الواسعة، فوقفت أشخاص الأنبياء في حرم الحرمة، على أقدام الخدمة، وقامت أشباح الملائكة في معارج الجلال على أرجل الإجلال، وهامت أرواح العشاق في مقامات الأشواق.

اشتاق القمر لمشاهدته فانشق، فشق مرائر الأشقياء المشاقين، وحن لمفارقته الجذع فتصدع فانصدعت قلوب الأغبياء المنافقين، وبرقت من مشكاة بعثته بوارق الحقائق، وانقادت لدعوته العامة خاصة خلاصة الخلائق، ولم يزل يجاهد في سبيل الله بصادق عزماته، وينظم شتات الإسلام بعد افتراق جهاته حتى كملت كمالات دينه وحججه البالغة، وتمت على سائر أمته الأمية نعمته السابغة، وخيّر فاختار الرفيق الأعلى، وآثر الآخرة على الأولى، فنقله الله تعالى قائماً على قدم السلامة، إلى دار الكمال وفردوس الكرامة، وبوأه أسنى مراقي التكريم في دار المقامة، ومنحه أعلى مراتب الشرف في اليوم المشهود، فهو الشاهد، المشهود، المحمود بالمحامد التي يلهمها للحامد المحمود، ذو المنزلة العلية، والدرجة السنية، في حظائر القدس الأقدسية، والمشاهد الأنفسية، واصل الله عليه فواضل الصلوات، وشرائف التسليم ونوامي البركات، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأبرار، صلاة وسلاماً لا ينقطع عنهما أمد الأمد، ولا يحصرهما العدد أبد الأبد.

انتهت خطبة كتاب المواهب اللدنية للإمام القسطلاني، ثم ذكر كيفية تأليفه وترتيبه، وأنه رتبه على عشرة مقاصد:

فمن جواهره رضي الله عنه

[الحقيقة المحمدية]

قوله في المقصد الأول: اعلم يا ذا العقل السليم، المتصف بأوصاف الكمال والتتميم. وفقني الله وإياك بالهداية إلى الصراط المستقيم أنه لما تعلقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه،

وتقدير رزقه، أبرز الحقيقة المحمدية، من الأنوار الصمدية، في الحضرة الأحديّة، ثم سلخ منها العوالم كلها، علوها وسفلها، على صورة حكمه، كما سبق في سابق إرادته وعلمه، ثم أعلمه تعالى بنبوته، وبشره برسالته، هذا وآدم لم يكن إلا كما قال ﷺ بين الروح والجسد، ثم انبجست منه ﷺ عيون الأرواح فظهر بالملأ الأعلى، وهو بالمنظر الأجلى، فكان لهم المورد الأحلى، فهو ﷺ الجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس، ولما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه، وارتباط الروح به انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر فظهر محمد ﷺ بكليته جسماً وروحاً، فهو ﷺ وإن تأخرت طينته، فقد عرفت قيمته، فهو خزانة السر، وموضع نفوذ الأمر، فلا ينفذ أمر إلا منه، ولا ينقل خبر إلا عنه، ولله در القائل، وهو سيدي محيي الدين بن العربي رضي الله عنه:

ألا بأبي من كان مَلْكاً وسيداً ... وآدم بين الماء والطين واقف
فذاك الرسول الأبطحيّ محمد ... له في العلى مجد تليد وطارف
أتى بزمان السعد في آخر المدى ... وكان له في كل عصر مواقف
أتى لانكسار الدهر يجبر صدعه ... فأثنت عليه ألسن وعوارف
إذا رام أمراً لا يكون خلافه ... وليس لذاك الأمر في الكون صارف

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[الأسماء النبوية الشريفة]

قوله في المقصد الثاني: في شأن أسمائه الشريفة ﷺ: قد تعرض جماعة لتعدادها، وبلغوا بها عدداً مخصوصاً، فمنهم من بلغ تسعة وتسعين موافقة لعدد أسماء الله الحسنى الواردة في الحديث.

قال القاضي عياض وقد خصه الله تعالى بأن سمّاه من أسمائه الحسنى بنحو من ثلاثين اسماً، وقال ابن دحية في كتابه المستوفى إذا فحص عن جملتها من الكتب المتقدمة والقرآن والحديث وفّى الثلاثمائة، قال في المواهب: ورأيت في كتاب أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي.

قال: بعض الصوفية لله تعالى ألف اسم وللنبي ﷺ ألف اسم والمراد الأوصاف، فكل الأسماء التي وردت أوصاف مدح، وإذا كان كذلك فله ﷺ من كل وصف اسم، ثم إن منها ما هو مختص به أو الغالب عليه، ومنها ما هو مشترك، وكل ذلك بيِّن بالمشاهدة لا يخفى، وإذا جعلنا له من كل وصف من أوصافه اسماً بلغت أوصافه ما ذكر بل أكثر، قال: والذي رأيته في

كلام شيخنا يعني الحافظ السخاوي في القول البديع، والقاضي عياض في الشفا، وابن العربي في القبس والأحكام له؛ وابن سيد الناس وغيرهم، يزيد على الأربعمائة، ثم سردها مرتبة على الحروف، وأكثرها جمع شيخه السخاوي في القول البديع وما زاده لغيره قليل جداً، وزاد عليهم نحو ضعفها الحافظ الشامي تلميذ الحافظ السيوطي، كما نقله عنه الزرقاني في شرح المواهب، قد جمعت جميع ذلك وزدت عليه من غيرهم، فبلغت ثمانمائة ونيفاً وعشرين اسماً، ونظمتها في مزدوجة سميتها أحسن الوسائل في نظم أسماء النبي الكامل ﷺ، وأفردتها منثورة مرتبة على الحروف مع شرح قليل لما يلزمه الشرح منها، وذكر فوائد مهمة تتعلق بها في كتاب مستقل سميته الأسمى فيما لسيدنا محمد ﷺ من الأسماء.

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[خَلقُه وخُلقُه ﷺ]

قوله في المقصد الثالث: من المواهب اعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله تعالى جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي مثله، فيكون ما يشاهد من خلق بدنه آيات على ما يتضح من عظيم خلق نفسه الكريمة، وما يتضح من عظيم أخلاق نفسه آيات على ما تحقق له من سر قلبه المقدس ولله در البوصيري[1] حيث قال:

فهو الذي تم معناه وصورته ... ثم اصطفاه حبيباً بارئ النسم
منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم

يعني حقيقة الحسن الكامل كائنة فيه لأنه الذي تم معناه دون غيره ﷺ، وهي غير منقسمة بينه وبين غيره، وإلا لما كان حسنه تاماً، لأنه إذا انقسم لم ينله إلا بعضه فلا يكون تاماً، وفي الأثر أن خالد بن الوليد خرج في سرية من السرايا، فنزل ببعض الأحياء فقال له سيد ذلك الحي صف لنا محمداً ﷺ. فقال: أما أني أفصل فلا، فقال الرجل: أجمل. فقال رضي الله عنه: الرسول على قدر المرسِل.

وقد حكى القرطبي في كتاب الصلاة عن بعضهم، أنه قال: لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ، والتشبيهات الواردة في حقه ﷺ إنما هي على سبيل التقريب والتمثيل، وإلا فذاته ﷺ أعلى ومجده أعلى. كان ﷺ عظيم الهامة أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير البائن.

---

(١) ورد في الأصل «الأبوصيري» ولعل هذا تحريف.

قال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه، وفي البخاري سئل البراء: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف، فقال: لا بل مثل القمر، وفي رواية مسلم من حديث جابر بن سمرة أنه قال له رجل: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر وكان مستديراً.

وكثير من الصحابة وصفوه كذلك بأن وجهه الشريف مثل القمر وأحسن من القمر، ويتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، وكأنه قطعة قمر وكأن وجهه المرآة لشدة صفائه، ومثل الشمس وكأن الشمس تجري فيه، وإذا رأيته رأيت الشمس طالعة وغير ذلك.

وذكر جملة روايات صحيحة في هذا المعنى من رواية الشيخين وغيرهما، وأطال الكلام على شمائله الشريفة ﷺ.

ثم قال: ومن تأمل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحش الشارد، بالطبع المتنافر المتباعد، وكيف ساسهم واحتمل جفاهم، وصبر على أذاهم، إلى أن انقادوا إليه، واجتمعوا عليه، وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم، واختاروه على أنفسهم وهجروا في رضاه أوطانهم وأحياءهم، من غير ممارسة سبقت له ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين، تحقق أنه أعقل العالمين.

ولما كان عقله ﷺ أوسع العقول لا جرم اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعاً لا يضيق عن شيء، فمن ذلك اتساع خلقه العظيم في الحلم والعقل مع القدرة، وصبره على ما يكره، وحسبك صبره ﷺ على الكافرين به، المقاتلين المحاربين له في أشد ما نالوه منه، بحيث كسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف وحتى شق ذلك على أصحابه شديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: «**إني لم أبعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة، اللهم اغفر لقومي واهد قومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[دلائل نبوته ومعجزته ﷺ]

قوله رضي الله عنه في المقصد الرابع: اعلم أن دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ كثيرة، والأخبار بظهور معجزاته شهيرة، فمن دلائل نبوته ما وجد في التوراة والإنجيل، وسائر كتب

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (٢٠٠٧). وابن كثير في التفسير (٥ : ٣٨٠). والطبراني في المعجم الكبير (١٩ : ١٨٩). والقاضي عياض في كتاب الشفا (١ : ٢٢١). والسيوطي في الدر المنثور (٤ : ٣٤٢).

الله المنزلة من ذكره ونعته وخروجه ﷺ بأرض العرب، وما خرج بين يدي أيام مولده ومبعثه من الأمور العجيبة الغريبة القادحة في سلطان الكفر، الموهنة لكلمتهم، المؤيدة لشأن العرب، المنوهة بذكرهم كقصة الفيل؛ وما أحلَّ الله تعالى بأصحابه من العقوبات والنكال وخمود نار فارس وسقوط شرفات إيوان كسرى وغيض ماء بحيرة ساوه(١) ورؤيا الموبذان، وما سمع من الهواتف الصارخة بنعوته وأوصافه ﷺ، وانتكاس الأصنام المعبودة وخرورها لوجهها من غير دافع لها من أمكنتها إلى سائر ما روي وما نقل في الأخبار المشهورة من ظهور العجائب في ولادته وأيام حضانته ﷺ وبعدها إلى أن بعثه الله تعالى نبياً، ولم يكن له ﷺ ما يستميل به القلوب من مال فيطمع فيه ولا قوة فيقهر بها الرجال، ولا أعوان على الرأي الذي أظهره، والدين الذي دعا إليه.

وكانوا يجتمعون على عبادة الأصنام وتعظيم الأزلام، مقيمين على عادة الجاهلية في العصبية والحمية والتعادي والتباغي وسفك الدماء وشن الغارة لا تجمعهم ألفة دين ولا يمنعهم عن سوء فعالهم نظر في عاقبة ولا خوف عقوبة ولائمة، فألف ﷺ بين قلوبهم وجمع كلمتهم حتى اتفقت الآراء وتناصرت القلوب وترادفت الأيدي فصاروا قلباً واحداً في نصرته، وعنقاً واحداً إلى طلعته، وهجروا بلادهم وأوطانهم وجفوا قومهم وعشائرهم في محبته، وبذلوا مهجهم وأرواحهم في نصرته، ونصبوا وجوههم لوقع السيوف في إعزاز كلمته ﷺ فلا دنيا بسطها لهم، ولا أموال أفاضها عليهم، ولا عوض في العاجل أطمعهم في نيله يرجونه، أو ملك أو شرف في الدنيا يحوزونه، بل كان من شأنه ﷺ أن يجعل الغني فقيراً والشريف أسوة الوضيع، فهل يلتئم مثل هذه الأمور أو يتفق مجموعها لأحد هذا سبيله من قبل الاختيار العقليّ، والتدبير الفكري.

لا والذي بعثه بالحق وسخر له هذه الأمور ما يرتاب عاقل في شيء من ذلك وإنما هو أمر إلٰهي، ووحي غالب سماويّ، ناقض للعادات يعجز عن بلوغه قوي البشر، ولا يقدر عليه إلا من له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

ثم ذكر رحمه الله تعالى كثيراً من معجزاته ودلائل نبوته ﷺ، وابتدأ بالقرآن فقال: ومن ذلك القرآن العظيم فقد تحدى ﷺ بما فيه من الإعجاز ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله فنكلوا عنه وعجزوا عن الإتيان بشيء منه.

---

(١) بعد الألف واو مفتوحة بعدها هاء ساكنة. مدينة حسنة بين الرى وهمذان [معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٠١].

قال بعض العلماء: إن الذي أورده ﷺ على العرب من الكلام الذي أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب في الآية وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لأنه ﷺ أتى أهل البلاد وأرباب الفصاحة ورؤساء البيان والمتقدمين في السن بكلام مفهوم المعنى عندهم، فكان عجز عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح عليه السلام عند أحياء الموتى، لأنهم لم يكونوا يطمعون فيه ولا في إبراء الأكمه والأبرص ولا يتعاطون علمه، وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة فدل على أن العجز عنه إنما كان ليصير علماً على رسالته وصحة نبوته، وهذه حجة قاطعة وبرهان واضح.

قال أبو سليمان الخطابي: قد كان ﷺ من عقلاء الرجال عند أهل زمانه، بل هو أعقل خلق الله على الإطلاق، وقد قطع القول فيما أخبر به عن ربه تعالى بأنهم لا يأتون بمثل ما تحداهم به من القرآن، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٤]، فلولا علمه ﷺ بأن ذلك من عند الله علام الغيوب وأنه لا يقع فيما أخبر عنه خلف، وإلا لم يأذن له عقله أن يقطع القول في شيء إنه لا يكون وهو يكون.

قال القسطلاني: بعده وهذا من أحسن ما يقال في هذا المجال وأبدعه وأكمله وأبينه فإنه نادى عليهم بالعجز قبل المعارضة، وبالتقصير عن بلوغ الغرض في المناقضة، صارخاً بهم على رؤوس الأشهاد، فلم يستطع أحد منهم الإلمام به مع توفر الدواعي وتظاهر الاجتهاد، فقال تعالى: «وكان بما ألقى إإليهم من الأخبار عليماً خبيراً»، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] فرضيت هممهم السرية، وأنفسهم الشريفة الأبية، بسفك الدماء وهتك الحريم.

ثم نقل فوائد كثيرة تتعلق بوجوه إعجاز القرآن وقال في آخرها، فلم يقدر أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن في زمن رسول الله ﷺ ولا بعده على نظمه وتأليفه وعذوبة منطقه وصحة معانيه وما فيه من الأمثال والأشياء التي دلت على البعث، وآياته والإنباء، بما كان، وبما يكون وبما فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والامتناع من إراقة الدماء وصلة الأرحام إلى غير ذلك، فكيف يقدر على ذلك أحد، وقد عجزت عنه العرب الفصحاء والخطباء البلغاء والشعراء والفهماء من قريش وغيرها، وهو ﷺ في مدة ما عرفوه قبل نبوته وأداء رسالته أربعين سنة لا يحسن نظم كتاب، ولا عقد حساب، ولا يتعلم سحراً، ولا ينشد شعراً، ولا يحفظ خبراً، ولا يروي أثراً، حتى أكرمه الله بالوحي المنزل، والكتاب المفصل، فدعاهم إليه وحاجهم به قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦] وشهد له في كتابه بذلك فقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟

﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] ، وأما ما عدا القرآن من معجزاته ﷺ كنبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام ببركته، وانشقاق القمر، ونطق الجماد فمنه ما وقع التحدي به أي طلب المعارضة منه، ومنه ما وقع دالاً على صدقه من غير سبق تحد ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير كما يقطع بجود حاتم وشجاعة علي.

ثم قال رحمه الله تعالى، وأنت إذا تأملت معجزاته وباهر آياته وكراماته ﷺ وجدتها شاملة للعلوي والسفلي والصامت والناطق والساكن والمتحرك والمائع والجامد والسابق واللاحق والغائب والحاضر والباطن والظاهر والعاجل والآجل، إلى غير ذلك مما لو عد لطال كالرمي بالشهب الثواقب، ومنع الشياطين من استراق السمع في الغياهب، وتسليم الحجر والشجر عليه، وشهادتها بالرسالة بين يديه، ومخاطبتها له بالسيادة، وحنين الجذع ونبع الماء من كفه في الميضأة والقدح والمزادة، وانشقاق القمر، ورد العين بعد العور، ونطق البعير والذئب والجمل، وكالنور المتوارث من آدم إلى جبهة أبيه من الأزل، وما سوى ذلك من المعجزات التي تداولتها الحملة، ونقلتها النقلة، مما لو أعملنا أنفسنا في حصرها، لفني المدى في ذكرها، ولو بالغ الأولون والآخرون في إحصاء مناقبه، لعجزوا عن استقصاء ما حباه الكريم من مواهبه، ولكان الملم بساحل بحرها، مقصراً عن حصر بعض فخرها، ولقد صح لبعض محبيه. أن ينشدوا فيه:

وعلى تفنن واصفيه بوصفه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وإنه لخليق بأن ينشد فيه ﷺ:

فما بلغت كف امرئ متناولاً ... من المجد إلا والذي نال أطول

ولا بلغ المهدون في القول مدحة ... ولو حذقوا إلا الذي فيه أفضل

ولله در إمام العارفين سيدي محمد وفا، فلقد شفى بقوله وكفى:

ما شئت قل فيه فأنت مصدق ... فالحب يقضي والمحاسن تشهد

ولقد أبدع الإمام الأديب شرف الدين البوصيري حيث قال:

دع ما ادعته النصارى في نبيهمُ ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدر ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

يعني أن المداح وإن انتهوا إلى أقصى الغايات والنهايات لا يصلون إلى شأوه إذ لا حد له، ويحكى أنه رؤي الشيخ عمر بن الفارض في المنام فقيل لم مدحت النبي ﷺ؟ فقال:

أرى كــل مــدح فــي النبــي مقصــراً وإن بــالــغ المثنــي عليــه وأكثــرا
إذا الله أثنــى بــالــذي هــو أهلــه عليــه فمــا مقــدار مــا يمــدح الــورى

قال الشيخ بدر الدين الزركشي ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء المتقدمين كأبي تمام والبحتري وابن الرومي مدحه ﷺ، وكان مدحه عندهم من أصعب ما يحاولونه فإن المعاني دون مرتبته والأوصاف دون وصفه، وكل غلو في حقه تقصير فيضيق على البليغ مجال النظم.

وعند التحقيق إذا اعتبرت جميع الأمداح التي فيها غلو بالنسبة إلى من فرضت له وجدتها صادقة في حق النبي ﷺ حتى كأن الشعراء على صفاته يعتمدون وإلى إمداحه يقصدون، ثم ساق كثيراً من معجزاته ﷺ.

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[فضائله ﷺ]

قوله رحمه الله تعالى في المقصد الرابع أيضاً: اعلم نور الله قلبي وقلبك وقدس سري وسرك إن الله تعالى قد خص نبينا ﷺ بأشياء لم يعطها لنبي قبله، وما خص نبي بشيء إلا وكان لسيدنا محمد ﷺ مثله فإنه أوتي جوامع الكلم، وكان نبياً وآدم بين الروح والجسد وغيره من الأنبياء، لم يكن نبياً إلا في حال نبوته وزمان رسالته، ولما أعطي هذه المنزلة علمنا إنه ﷺ الممد لكل إنسان كامل مبعوث، ويرحم الله الأديب شرف الدين البوصيري فلقد أحسن حيث قال:

وكــل آي أتــى الــرســل الكــرام بهــا فــإنمــا اتصلــت مــن نــوره بهــم
فــإنــه شمــس فضــل هــم كــواكبهــا يظهــرن أنــوارهــا للنــاس فــي الظلــم

قال العلامة ابن مرزوق: يعني أن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل، فإنما اتصلت بكل واحد منهم من نور محمد ﷺ، وما أحسن قوله فإنما اتصلت من نوره بهم فإنه يعطى أن نوره ﷺ لم يزل قائماً به، ولم ينقص منه شيء، وإنما كانت آيات كل واحد من نوره ﷺ لأنه شمس فضل هم كواكب تلك الشمس يظهرن أي تلك الكواكب أنوار تلك الشمس للناس في الظلم، فالكواكب ليست مضيئة بالذات، وإنما هي مستمدة من الشمس فهي عند غيبة الشمس تظهر نور الشمس، فكذلك الأنبياء قبل وجوده ﷺ، كانوا يظهرون فضله، فجميع ما ظهر على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام من الأنوار، إنما هو من نوره الفائض ومدده الواسع ﷺ من غير أن ينقص منه شيء.

وأول ما ظهر ذلك في آدم عليه السلام حيث جعله الله خليفة وأمده بالأسماء كلها من مقام جوامع الكلم التي لمحمد ﷺ، فظهر بعلم الأسماء كلها على الملائكة القائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم توالت الخلائف في الأرض إلى أن وصل إلى زمان وجود صورة جسم نبينا ﷺ الشريف لإظهار حكم منزلته، فلما برز ﷺ كان كالشمس اندرج في نوره كل نور وانطوى تحت منشور آياته كل آية لغيره من الأنبياء، ودخلت الرسالات كلها في صلب نبوته والنبوات كلها تحت لواء رسالته، فلم يعط أحد منهم كرامة أو فضيلة، إلا وقد أعطي ﷺ مثلها، فآدم عليه الصلاة والسلام أعطي أن الله تعالى خلقه بيده، فأعطي سيدنا محمد ﷺ شرح صدره تولى الله تعالى شرح صدره بنفسه، وخلق فيه الإيمان والحكمة وهو الخلق النبوي، فتولى تعالى من آدم عليه السلام الخلق الوجودي، ومن سيدنا محمد ﷺ الخلق النبوي مع أن المقصود من استخلاف آدم خلق نبينا في صلبه، فسيدنا محمد ﷺ المقصود وآدم عليه السلام الوسيلة والمقصود سابق على الوسيلة.

وأما سجود الملائكة لآدم فقال الفخر الرازي في تفسيره: إن الملائكة أمروا بالسجود لآدم لأجل أن نور محمد ﷺ كان في جبهته ولله در القائل:

تجليت جل الله في وجه آدم ... فصلى له الأملاك حين توسلوا

وعن أبي عثمان الواعظ فيما حكاه الفاكهاني قال: سمعت الإمام سهل بن محمد يقول هذا التشريف الذي شرف الله تعالى به محمداً ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية. أتم وأجمع من تشريف آدم عليه السلام لأمر الملائكة له بالسجود لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف، فتشريف يصدر عنه تعالى وعن الملائكة والمؤمنين أبلغ من تشريف تختص به الملائكة.

ثم ذكر معجزات بعض الأنبياء وفضائلهم وذكر في مقابلة وكل واحدة منها للنبي ﷺ من معجزاته وفضائله ما هو مثلها أو أعظم منها، ولكوني نقلت ذلك في هذا الكتاب عن الحافظ أبي نعيم فيما تقدم لم أرَ لزوماً لنقله هنا من المواهب.

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[ما اختص به ﷺ]

ما ذكره في المقصد الرابع أيضاً: مما اختص به ﷺ من الفضائل والكرامات، أنه ﷺ

أول النبيين خلقاً، ومنها أنه ﷺ كان نبياً وآدم بين الروح والجسد رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، ومنها أنه ﷺ أول من أخذ عليه الميثاق.

ومنها: أنه ﷺ أول من قال: «بلى» يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. رواه أبو سهل القطان.

ومنها: أن آدم وجميع المخلوقات خلقوا لأجله. رواه البيهقي وغيره.

ومنها: أن الله تعالى كتب اسمه الشريف على العرش وعلى كل سماء وعلى الجنان وما فيها. رواه ابن عساكر عن كعب الأحبار.

ومنها: أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به وينصروه قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ [آل عمران: ٨١]. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهود في محمد ﷺ لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأخذ العهد لذلك على قومه.

ومنها: أنه وقع التبشير به في الكتب السالفة، ومنها: أنه لم يقع في نسبه من لدن آدم سفاح. رواه البيهقي وغيره.

ومنها: أنه نكست الأصنام لمولده رواه الخرائطي وغيره، ومنها: أنه ولد مختوناً مقطوع السرة. رواه الطبراني.

ومنها: أنه خرج نظيفاً ما به قذر رواه ابن سعد، ومنها أنه وقع للأرض ساجداً رافعاً إصبعيه كالمتضرع المبتهل. رواه أبو نعيم من حديث ابن عباس، ورأت أمه ﷺ عند ولادته نوراً أخرج منها أضاء له قصور الشام، كذلك ترى أمهات الأنبياء. رواه الإمام أحمد.

وكان مهده ﷺ يتحرك بتحريك الملائكة كما ذكره ابن سبع في الخصائص، وكان القمر يحدثه في مهده ويميل حيث أشار إليه. رواه ابن طغرل بك في النطق المفهوم وغيره، وتكلم في المهد. رواه الواقدي وابن سبع. وظللته الغمامة في الحر رواه أبو نعيم والبيهقي. ومال إليه في الشجر إذ سُبق إليه. رواه البيهقي.

ومنها: شق صدره الشريف. رواه مسلم وغيره، ومنها: أن الله تعالى ذكره في القرآن عضواً عضواً.

فقلبه: بقوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

ولسانه: بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، [النجم:٣] وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم:٩٧].

وبصره: بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧].

ووجهه: بقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٤٤].

ويده وعنقه: بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء:٢٩]. وظهره وصدره: بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:١ - ٣].

واشتق اسمه من اسم الله المحمود، ويشهد له ما أخرجه البخاري في تاريخه الصغير من طريق علي بن يزيد قال: كان أبو طالب يقول:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

وهو مشهور لحسان، وسمي ﷺ أحمد، ولم يسم به أحد قبله. رواه مسلم، ومنها: أنه ﷺ كان يبيت جائعاً ويصبح طاعماً يطعمه ربه ويسقيه من الجنة، وكان ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه. رواه مسلم.

ويرى في الليل وفي الظلمة كما يرى بالنهار والضوء. رواه البيهقي. وكان ريقه ﷺ يعذب الماء الملح. رواه أبو نعيم، ويجزي الرضيع. رواه البيهقي.

ومنها أنه ﷺ كان إذا مشى في الصخر غاصت قدماه فيه، ثم قال: وكان ﷺ يبلغ صوته وسمعه ما لا يبلغه صوت غيره ولا سمعه.

وكان ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه. رواه البخاري. وما تثاءب ﷺ قط. رواه ابن أبي شيبة وغيره وكذا الأنبياء، وما احتلم ﷺ قطّ، وكذلك الأنبياء. رواه الطبراني.

وكان عرقه ﷺ أطيب من المسك. رواه أبو نعيم وغيره، وكان ﷺ إذا مشى مع الطويل طاله. رواه البيهقي، ولم يقع له ظل على الأرض ولا رؤي له ظل في شمس ولا في قمر.

وكان ﷺ لا يقع على ثيابه ذباب قط. نقله الفخر الرازي، ولا يمتص دمه البعوض. نقله الحجازي وغيره، وما آذاه القمل. قاله ابن سبع والسبتي.

ومنها: انقطاع الكهنة عند مبعثه ﷺ وحراسة السماء من استراق السمع والرمي بالشهب.

قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة، فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام منعوا من ثلاث سمٰوات،

فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السموات كلها، فما منهم أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب: وهو الشعلة من النار، فلا يخطئ أبداً.

ومنها: أنه ﷺ أتي بالبراق ليلة الإسراء مسرجاً ملجماً قيل وكانت الأنبياء إنما تركبه عرياً، ومنها: أنه أسري به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى المحل الأعلى، وأراه من آيات ربه الكبرى، وحفظه في المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى، وأحضر الأنبياء له وصلى بهم وبالملائكة إماماً، وأطلعه على الجنة والنار. عزيت هذه للبيهقي.

ومنها: أنه ﷺ رأى الله تعالى بعينيه وجمع الله تعالى له بين الكلام والرؤية وكلمه الله تعالى في الرفيع الأعلى وكلم موسى بالجبل.

ومنها: أن الملائكة تسير معه حيث سار يمشون خلف ظهره، وقاتلت معه في غزوة بدر وحنين، ومنها: أنه يجب علينا أن نصلي ونسلم عليه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٦] إلخ. ولم ينقل أن الأمم المتقدمة كان يجب عليهم أن يصلوا على أنبيائهم.

ومنها: أنه أوتي الكتاب العزيز وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة.

ومنها: حفظ كتابه القرآن من التبديل والتحريف حتى سعى كثير من الملحدة والمعطلة ولا سيما القرامطة في تغييره وتبديل محكمه، فما قدروا على إطفاء شيء من نوره، ولا تغيير كلمة من حكمه، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]. وكتابه ﷺ يشتمل على ما اشتملت عليه الكتب جامعاً لأخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك ويسر الله حفظه لمتعلميه وقربه على متحفظيه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]. وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم فكيف بالجم الغفير على مرور السنين عليهم والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة.

ومنها: أنه أنزل على سبعة أحرف تسهيلاً علينا وتيسيراً وشرفاً ورحمة وخصوصية بفضلنا، ومنها كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، ومنها أنه تعالى تكفل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] أي من التحريف والزيادة والنقصان، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

واختلفوا فيه كيف يحفظ؟ قال بعضهم: حفظه بأن يجعله معجزاً مبايناً لكلام البشر

لعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان منه لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا منه تغير نظم القرآن، فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن.

وقال آخرون: أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده، بل قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف.

وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحداً لو حاول أن يغيره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا هذا كذب حتى إن الشيخ المهيب لو اتفق له تغيير في حرف منه لقال له الصبيان كلهم: أخطأت أيها الشيخ، وصوابه كذا، ولم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الكتاب، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتغيير والتحريف، وقد صان الله تعالى هذا الكتاب العزيز [من][1] جميع ذلك، مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده، وقد انقضى الآن ثمانٍ وتسعون سنة وثمانمائة سنة (يعني في عصر المؤلف القسطلاني وقد انقضى الآن ١٣٢٥ سنة)، وهو بحمد الله في زيادة من الحفظ.

ومنها: أنه ﷺ خص بآية الكرسي وبالمفصل وبالمثاني وبالسبع الطوال، كما في حديث ابن عباس بلفظ: **«وأعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز العرش، وخصصت به دون الأنبياء وأعطيت المثاني مكان التوراة والمئين مكان الإنجيل والحواميم مكان الزبور وفضلت بالمفصل»**[2] رواه أبو نعيم في الدلائل، وأم القرآن هي السبع المثاني يعني الفاتحة كما رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

ومنها: أنه ﷺ أعطي مفاتيح الخزائن، قال بعضهم: وهي خزائن أجناس العالم ليخرج لهم بقدر ما يطلبونه لذواتهم فكل ما ظهر من رزق العالم فإن الاسم الإلهي لا يعطيه إلا عن محمد ﷺ الذي بيده المفاتيح، كما اختص تعالى بمفاتيح الغيب فلا يعلمها إلا هو وأعطي لهذا السيد الكريم منزلة الاختصاص بإعطائه مفاتيح الخزائن، ومنها أنه أوتي جوامع الكلم.

ومنها: أنه بعث إلى الناس كافة قد شملت شريعته ﷺ جميع الناس فلا يسمع به أحد إلا لزمه الإيمان به ﷺ، ولما سمع الجن القرآن يتلى قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١] الآية فعمت شريعته الإنس والجن، وعمت رحمته التي أرسل بها العالم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فمن لم تنله رحمته ﷺ فما ذلك من

(١) ورد في الأصل «عن» والصحيح «من».
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣: ١٨٨) وابن كثير في التفسير (١: ٥٠٦). والبخاري في الصحيح (٣: ٣٩٨). والسيوطي في الدر المنثور (١: ٣٧٨).

جهته وإنما ذلك من جهة القابل فهو كنور الشمس أفاض شعاعه على الأرض، فمن استتر عنه في كُنّ أو ظل جدار فهو الذي لم يقبل انتشار النور عليه وعدل عنه، فلم يرجع إلى الشمس من ذلك منع.

ومنها: نصره ﷺ بالرعب مسيرة شهر، والشهر قدر قطع القمر درجات الفلك المحيط، فهو أسرع قاطع لعموم رعبه ﷺ في قلوب أعدائه، وإنما جعلت الغاية شهراً لأنه لم يكن بين بلده ﷺ وبين أحد من أعدائه أكثر من شهر.

ومنها: إحلال الغنائم ولم تحل لأحد قبله.

ومنها: جعل الأرض له ولأمته مسجداً وطهوراً، والمراد موضع سجود، أي لا يختص السجود منها بموضع دون غيره، وزاد في رواية عمرو بن شعيب وكان من قبلي إنما كانوا يصلون في كنائسهم. ومنها أن معجزته ﷺ مستمرة إلى يوم القيامة، ومعجزات سائر الأنبياء انقرضت لوقتها فلم يبق إلا خبرها والقرآن العظيم لم تزل حجته قاهرة ومعارضته ممتنعة، ومنها أنه أكثر الأنبياء معجزة قال القاضي عياض: أما كونها كثيرة فهذا القرآن وكله معجز وأقل ما يقع الإعجاز فيه سورة: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ [الكوثر: ١]، وآية في قدرها وإذا كان هذا ففي القرآن من الكلمات نحو سبع وسبعين ألف كلمة ونيف وعدد كلمات إنا أعطيناك الكوثر عشر كلمات فيتجزأ القرآن على نسبة إنا أعطيناك الكوثر أزيد من سبعة آلاف جزء وكل واحد منها معجز في نفسه، ثم إعجازه بوجهين: طريق بلاغته، وطريق نظمه، فصار في كل جزء من هذا العدد معجزتان فتضاعف العدد من هذا الوجه.

ثم فيه وجوه إعجاز آخر من الأخبار بعلوم الغيب فقد يكون في السورة الواحدة من هذه التجزئة الأخبار عن أشياء من الغيب كل خبر منها بنفسه معجز فتضاعف العدد كرة أخرى، ثم وجوه الإعجاز الآخر توجب التضعيف هذا في حق القرآن فلا يكاد يأخذ العد معجزاته ولا يحوي الحصر براهينه، ومن ذلك انشقاق القمر وتسليم الحجز وحنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، ولم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك، كما ذكره ابن عبد السلام وغيره، ومنها أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ومنها أنه ﷺ شرعه مؤبد إلى يوم الدين وناسخ لجميع شرائع النبيين، وأنه أكثر الأنبياء تابعاً، ومنها أنه لو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتباعه.

ومنها: أنه ﷺ أرسل إلى الجن اتفاقاً، ومنها أنه أرسل إلى الملائكة في أحد القولين، ورجحه السبكي قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ولا نزاع في أن المراد بالعبد هنا محمد ﷺ، والعالم هو ما سوى الله تعالى فيتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة، ومنها أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء

بأسمائهم في القرآن فقال: يا آدم يا نوح يا إبراهيم يا دواود يا زكريا يا يحيى يا عيسى، ولم يخاطب هو فيه إلا بيا أيها الرسول، يا أيها النبي، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، ومنها أنه حرم على الأمة نداءه باسمه ﷺ قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] أي لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه، ورفع الصوت به والنداء وراء الحجرات، ولكن قولوا يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوفير والتواضع وخفض الصوت، ومنها أنه يحرم الجهر له بالقول قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

قال ابن عباس لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] كان أبو بكر لا يكلم النبي ﷺ إلا كأخي السرار، وروي أنه ﷺ ما كان يسمع كلام عمر حتى يستفهمه مما يخفض صوته، ومنها أنه يحرم نداؤه ﷺ من وراء الحجرات قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة.

ومنها: أنه حبيب الله وجمع له بين المحبة والخلة. ومنها: أنه تعالى أقسم على رسالته وبحياته وببلده وعصره، ومنها أنه كلم بجميع أصناف الوحي.

ومنها: أن إسرافيل هبط عليه ولم يهبط على نبي قبله، أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لقد هبط علي ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي ولا يهبط على أحد بعدي وهو إسرافيل فقال: أنا رسول ربك إليك أمرني أن أخيرك إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملكاً فنظرت إلى جبريل فأومأ إلي أن تواضع فلو أني قلت نبياً ملكاً لسارت الجبال معي ذهباً»**. (١)

ومنها أنه سيد ولد آدم يوم القيامة رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»** وعند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر»**(٢)، وإنما قال ذلك إخباراً عما أكرمه الله تعالى به من الفضل والسؤدد وتحدثاً بنعمة الله عنده وإعلاماً لأمته ليكون إيمانهم به على حسبه وموجبه، ولهذا أتبعه بقوله ولا فخر أي أن هذه الفضيلة التي نلتها كرامة من الله لم أنلها من قبل نفسي ولا

---

(١) رواه أحمد في المسند (٦: ١٤٠). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ٨٣). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤١٨). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٣٦٤).

(٢) رواه أحمد في المسند (٦: ١٤٠). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ٨٣). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤١٨). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٣٦٤).

بلغتها بقوتي، فليس لي أن أفتخر بها، ومنها أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام من خصائصه ﷺ أنه أخبره الله تعالى بالمغفرة ولم ينقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك، ويدل له قولهم في الموقف نفسي نفسي، وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية يعني آية الفتح لم يشاركه فيها غيره.

وأخرج أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء قالوا: فما فضله على أهل السماء قال: إن الله تعالى قال لأهل السماء: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وقال لمحمد ﷺ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ١ - ٢] فقد كتب له براءة قالوا: فما فضله على الأنبياء قال: إن الله تعالى قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال لمحمد ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨].

ومنها: أنه ﷺ أكرم الخلق على الله تعالى فهو أفضل من كل المرسلين وجميع الملائكة المقربين، ومنها إسلام قرينه يعني من الشياطين رواه مسلم عن ابن مسعود.

ومنها: أنه لا يجوز عليه ﷺ الخطأ، كما ذكره ابن أبي هريرة والماوردي، وقال قوم: ولا النسيان. حكاه النووي في شرح مسلم.

ومنها: أن الميت يسأل عنه ﷺ في قبره، فعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ، قال: «وأما فتنة القبر فبي يفتنون وعني يسألون فإذا كان الرجل الصالح أجلس فيقال له: ما هذا الرجل الذي كان فيكم فيقول محمد رسول الله» الحديث رواه أحمد والبيهقي.

ومنها: أنه حرم نكاح أزواجه من بعده قال الله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] أي هن في الحرمة كالأمهات حرم نكاحهن عليهم بعده تكرمة له ﷺ وخصوصية ولأنهن أزواج له في الآخرة، وقيل إنما حرمن لأنه ﷺ حي في قبره، ومنها ما عدّه ابن عبد السلام أنه يجوز أن يقسم على الله به ﷺ، وليس ذلك لغيره قال ابن عبد السلام: وهذا ينبغي أن يكون مقصوراً على النبي ﷺ لأنه سيد ولد آدم، وأن لا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء؛ لأنهم ليسوا في درجته، وإن يكون هذا مما خص به لعلو درجته ومرتبته، ومنها إن أولاد بناته ينسبون إليه ﷺ قال في الحسن: «إن ابني هذا سيد»[1] رواه أبو يعلى.

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل ٣). والترمذي في السنن (٣١٤٨، ٣٦١٥). وأحمد في المسند (١: ٨١). والقاضي عياض في الشفا (١: ٣٩٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٤١، ٥٧٦١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٠٤).

=

ومنها: إن كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه قال ﷺ: «**كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي**»[١] النسب بالولادة والسبب بالزواج، ومنها أنه لا يتزوج على بناته ﷺ، ومنها أنه لا يجتهد في محراب صلى إليه يمنة ولا يسرة، ومنها أن من رآه في المنام فقد رآه حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل به ﷺ. وفي رواية مسلم: «**من رآني في المنام فسيراني في اليقظة**»[٢]، ثم أطال الكلام في المواهب على رؤيته ﷺ مناماً ويقظة.

قال ومما اختص به ﷺ أن التسمي باسمه ميمون ونافع في الدنيا والآخرة، روينا عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**يوقف عبدان بين يدي الله تعالى فيؤمر بهما إلى الجنة فيقولان ربنا بما استأهلنا الجنة ولم نعمل عملاً تجازينا به الجنة فيقول الله تعالى أدخلا الجنة، فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد ولا محمد**»[٣] وليس لأحد أن يتكنى بكنيته أبي القاسم سواءٌ كان اسمه محمداً أم لا، ومنهم من كره الجمع وجوز الإفراد ويشبه أن يكون هو الأصح.

قال النووي: في هذه المسألة مذاهب الشافعي منع مطلقاً، وجوزه مالك، والثالث يجوز لمن ليس اسمه محمداً، ومن جوز مطلقاً خص النهي والتطيب ولا ترفع عنده الأصوات، بل تخفض كما في حياته إذا تكلم وأن يقرأ على مكان مرتفع.

روينا عن مطرف قال: كان الناس إذا أتوا مالكاً رحمه الله تعالى خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل، فإن قالوا المسائل خرج إليهم في الوقت وإن قالوا الحديث دخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً وتعمم ولبس ساجه (والساج: الطيلسان) وتلقى له منصة، فيخرج ويجلس عليها وعليه الخشوع، ولا يزال يبخّر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ، ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث.

قال ابن أبيّ أويس فقيل له في ذلك فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً، ويقال: إنه أخذ ذلك عن سعيد بن المسيب، وقد كره قتادة ومالك وجماعة التحديث على غير طهارة، حتى كان الأعمش إذا كان على غيرها تيمم، ولا

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣: ١٤٢). وفيه: «نسب وسبب».

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٩: ٤٢). ومسلم في الصحيح (١٧٧٥). وأبو داود في السنن (٥٠٢٣). وأحمد في المسند (٥: ٣٠٦). والطبراني في المعجم الكبير (١٩: ٢٩٧).

(٣) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (١: ١٥٧). وابن عراق في تنزيه الشريعة (١: ١٧٣). والسيوطي في اللآلىء المصنوعة (١: ٥٥). وفيه: «عبدان الله».

شك أن حرمته ﷺ وتعظيمه وتوقيره بعد مماته، وعند ذكره، وذكر حديثه، وسماع اسمه وسيرته، كما كان في حياته ﷺ.

ومنها: أنه يكره لقارئ حديثه أن يقوم لأحد قال ابن الحاج في المدخل: لأنه قلة أدب مع النبي ﷺ، وقلة احترام وعدم مبالاة أن يقطع حديثه لأجل غيره، فكيف لبدعة وقد كان السلف لا يقطعون حديثه ﷺ ولا يتحركون، وإن أصابهم الضرر في أبدانهم ويتحملون المشقة التي تنزل بهم إذ ذاك احتراماً لحديث نبيهم ﷺ، وحسبك ما وقع لمالك، رحمه الله تعالى في لسع العقرب له سبع عشرة مرة، وهو لم يتحرك، وتحمله للسعها توقيراً لجناب حديثه ﷺ أن يكون يقرأ وهو يتحرك لضر أصابه مع أنه معذور، فيما وقع به فكيف بالحركة والقيام إذ ذاك لا لضرورة بل للبدعة لا سيما إذا انضاف إلى ذلك ما لا ينبغي من الكلام المعتاد.

ومنها: أنه تثبت الصحبة لمن اجتمع به ﷺ في حياته لحظة بخلاف التابعي مع الصحابي، فلا تثبت إلا بطول الاجتماع معه على الصحيح عند أهل الأصول والفرق عظم منصب النبوة ونورها، فبمجرد ما يقع بصره الشريف ﷺ على الأعرابي الجلف ينطق بالحكمة، ومنها أن قراء حديثه ﷺ لا تزال وجوههم نضرة، ومنها أن أصحابه كلهم عدول لظواهر الكتاب والسنة، فلا يبحث عن عدالة أحد منهم كما يبحث عن سائر الرواة قال الله تعالى خطاباً للموجودين حينئذٍ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] أي عدولاً، وقال ﷺ: «ولا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[1] وقال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[2] في آيات وأحاديث كثيرة تقتضي القول بتعديلهم ولذلك أجمع من يعتد به على ذلك سواء في التعديل من لابس الفتنة منهم وغيره لوجوب حسن الظن بهم حملاً للملابس على الاجتهاد، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر من امتثال أوامره ﷺ، وفتحهم الأقاليم وتبليغهم عنه ﷺ الكتاب والسنة وهدايتهم الناس ومواظبتهم على الصلوات والزكوات وأنواع القربات مع الشجاعة والبراعة والكرم والأخلاق الحميدة التي لم تكن في أمة من الأمم المتقدمة ولا تكون لأحد بعدهم مثلهم في ذلك كل ذلك بحلول نظره الشريف عليهم ﷺ.

ومنها: أن المصلي يخاطبه ﷺ بقوله السلام عليك أيها النبي ولا يخاطب غيره، ومنها أنه كان يجب على من دعاه وهو في الصلاة أن يجيبه، ومنها أن الكذب عليه ﷺ ليس كالكذب

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٤٦٥٨). والترمذي في السنن (٣٨٦١). والحاكم في المستدرك (٢: ٤٧٨).
(٢) رواه أحمد في المسند (١: ٤١٧). وفيه: «أقراني الذين يلوني».

على غيره بل هو فاحشة عظيمة وموبقة كبيرة. وقيل يكفر ولا تقبل توبته وصحح النووي قبولها وعدم كفره إلا إذا استحله.

ومنها: أنه لا يجوز عليه الجنون لأنه نقص، ولا الإغماء الطويل الزمن وكذلك الأنبياء، وقد ورد أنهم إنما تنام أعينهم دون قلوبهم فإذا حفظت قلوبهم وعصمت من النوم الذي هو أخف من الإغماء، فمن الإغماء بطريق الأولى قال السبكي ولا يجوز عليهم العمى لأنه نقص ولم يعم نبي قط، وأمّا ما ذكر عن شعيب أنه كان ضريراً فلم يثبت وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت.

ومنها: أن من سبه ﷺ أو تنقَّصه قتل. واختلف هل يتحتم قتله في الحال، أو يوقف على استتابته، وهل الاستتابة واجبة أم لا؟ فمذهب المالكية: يقتل حداً، لا ردة ولا تقبل توبته، ولا عذره إن ادعى سهواً، أو غلطاً، وعبارة شيخهم العلامة خليل في مختصره: وإن سب نبياً أو ملكاً وإن عرّض به أو لعنه، أو عابه، أو قذفه، أو استخف بحقه، أو غير صفته، أو ألحق به نقصاً وإن في دينه أو خصلته، أو غض من مرتبته، أو وفور علمه، أو زهده، أو أضاف له ما لا يجوز عليه، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو قيل له بحق رسول الله، فلعن، وقال: أردت العقرب. قُتِل، ولم يستتب حداً. إلا أن يسلم الكافر وإن ظهر أنه لم يرد ذمه لجهل أو سكر أو تهور، وهذا ذكره القاضي عياض في الشفاء وغيره، واستدلوا له بالكتاب والسنة والإجماع.

قال القسطلاني بعد أن ساق أدلة المالكية ومذهب الشافعية: إن ذلك ردة يخرج من الإسلام إلى الكفر، فهو مرتد كافر قطعاً لا نزاع في ذلك عند الجمهور من أئمتنا والمرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل. وأطال الكلام في الاستدلال لذلك.

ومما عد من خصائصه ﷺ أنه إذا قصده ظالم وجب على من حضره أن يبذل نفسه دونه ﷺ حكاه النووي في زيادة الروضة عن جماعة من الأصحاب.

ومن خصائصه ﷺ إنه كان يخص من شاء بما شاء من الأحكام كجعله شهادة خزيمة بشهادة رجلين روى أبو داود عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عمه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ ابتاع من أعرابي فرساً فاستتبعه ليقبضه ثمن الفرس فأسرع النبي ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي يساومونه بالفرس ولا يشعرون أن رسول الله ﷺ قد ابتاعها حتى زادوا على ثمنه، فذكر الحديث قال: فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني قد بعتك فمن جاء من المسلمين يقول ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا الحق حتى جاء خزيمة بن ثابت فاستمع المراجعة، فقال: أنا أشهد أنك قد بايعته. الحديث. وفيه قال: فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة برجلين.

ثم ذكر رواية أخرى من حديث النعمان بن بشير وفيها فقال النبي ﷺ: «**يا خزيمة إنا لم نشهدك كيف تشهد قال أنا أصدقك على خبر السماء ألا أصدقك على خبر الأعرابي**»[١] فجعل رسول الله ﷺ يقول: «شهادته بشهادة رجلين» فلم يكن في الإسلام من تعدل شهادته بشهادة رجلين غير خزيمة، ومن ذلك ترخيصه ﷺ في النياحة لأم عطية، ومن ذلك ترك الإحداد لأسماء بنت عميس، ومن ذلك الأضحية بالعناق لأبي بردة بن نيار رواه الشيخان، ومن ذلك إنكاح ذلك الرجل بما معه من القرآن.

منها: أنه ﷺ كان يوعك كما يوعك رجلان لمضاعفة الأجر يعني في الحمى. **ومنها**: أن جبريل عليه السلام أرسل ثلاثة أيام في مرضه يسأله عن حاله ﷺ. ذكره البيهقي وغيره.

ومنها: أنه ﷺ صلى عليه الناس أفواجاً أفواجاً بغير إمام وبغير دعاء الجنازة المعروف. ذكره البيهقي وغيره. وترك بلا دفن ﷺ ثلاثة أيام، وفرش له في لحده الشريف قطيفة، والأمران مكروهان في حقنا، وأظلمت الأرض بعد موته ﷺ.

منها: أنه لا يبلى جسده الشريف ﷺ، وكذلك الأنبياء عليهم السلام رواه أبو داود، وابن ماجه. **ومنها**: أنه لا يورث ﷺ، فقيل ببقائه على ملكه وقيل لمصيره صدقة، وكذلك الأنبياء لا يورثون لما رواه النسائي من حديث الزبير مرفوعاً: «**إنا معاشر الأنبياء لا نورث**»[٢]، وورث سليمان داود المراد به إرث النبوة والعلم.

ومنها: أنه حي في قبره ﷺ ويصلي فيه بأذان وإقامة وكذلك الأنبياء عليهم السلام، وقد حكى ابن النجار وغيره أن الأذان ترك في أيام الحرة ثلاثة أيام وخرج الناس وسعيد بن المسيب في المسجد النبوي قال سعيد: فاستوحشت فدنوت إلى القبر الشريف فلما حضرت الظهر سمعت الأذان في القبر فصليت الظهر، ثم مضى ذلك الأذان والإقامة في القبر لكل صلاة حتى مضت الثلاث ليال ورجع الناس وعاد المؤذنون، فسمعت آذانهم كما سمعت الأذان في قبر النبي ﷺ، وقد ثبت أن الأنبياء يحجون ويلبون، فإن قلت كيف يصلون ويحجون ويلبون وهم أموات في الدار الآخرة، وليست دار عمل.

فالجواب: أنهم كالشهداء، بل أفضل منهم، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وقد تحصل الأعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها، ولهذا ورد: أنهم يسبحون ويقرؤون القرآن.

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤: ٢: ٩١). وفيه: «يا خزيمة بمَ تشهد».
(٢) رواه ابن حجر في فتح الباري (١٢: ٨). وابن عبد البر في التمهيد (٨: ١٧٥).

ومنها: أنه وكل بقبره ﷺ ملك يبلغه صلاة المصلين عليه. رواه أحمد والنسائي والحاكم، وصححه بلفظ: «**أن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام**»[١]. وعند الأصبهاني عن عمارة: «**أن لله ملكاً أعطاه الله سمع العباد كلهم فما من أحد يصلي عليّ إلا أبلغنيها**»[٢].

ومنها: أنه تعرض أعمال أمته عليه ويستغفر الله لهم ﷺ، روى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب ليس من يوم إلا وتعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوة وعشياً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم، ومنها أن منبره ﷺ على حوضه كما في الحديث، وفي رواية: «**ومنبري على ترعة من ترع الجنة**»[٣] (وأصل الترعة الروضة على المكان المرتفع خاصة فإذا كان في المطمئن فهي روضة)، ولم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره، وأنه حق محسوس موجود فإن القدرة صالحة لا عجز فيها وكل ما أخبر به الصادق ﷺ من أمور الغيب فالإيمان به واجب.

ومنها: أن ما بين منبره وقبره ﷺ روضة من رياض الجنة. رواه البخاري بلفظ: «**ما بين بيتي وقبري**»[٤] وهذا يحتمل الحقيقة والمجاز.

أما الحقيقة فبأن يكون ما أخبر عنه ﷺ بأنه من الجنة مقتطعاً منها، كما أن الحجر الأسود منها، وكذلك النيل والفرات من الجنة، وكذلك الثمار الهندية من الورق التي هبط بها آدم عليه السلام من الجنة فاقتضت الحكمة الإلٰهية أن يكون في هذه الدار من مياه الجنة، ومن ترابها، ومن حجرها، ومن فواكهها حكمة حكيم جليل.

وأما المجاز فبأن يكون من إطلاق اسم المسبب على السبب فإن ملازمة ذلك المكان للصلاة والعبادة سبب في نيل الجنة أو أن البقعة تنقل بعينها فتكون من الجنة روضة من رياضها. قال ابن أبي جمرة: والأظهر الجمع بين الوجهين معاً.

ومنها أنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر وفي رواية مسلم: «**أنا أول من تنشق عنه**

---

(١) رواه النسائي في السنن (٣: ٤٣). وأحمد (١: ٤٤). والدارمي في السنن (٢: ٣١٧).

(٢) رواه السيوطي في جمع الجوامع (٦٩٤٨). واللآلئ المصنوعة (١: ١٤٧). وصاحب ميزان الاعتدال (٨٢٩).

(٣) رواه أحمد في المسند (٢: ٤٠٢). والطبراني في المعجم الكبير (٦: ١٧٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (٤: ٩).

(٤) رواه البخاري في الصحيح (٢: ٧٧). ومسلم في الصحيح (الحج: ٩٢). والترمذي في السنن (٣٩١٥).

الأرض»[١]، وهو ﷺ أول من يفيق من الصعقة قال عليه الصلاة والسلام «**أنا أول من يرفع رأسه بعد النفخة فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور**» رواه البخاري.

قال في المواهب والظاهر أنه ﷺ لم يكن عنده علم بذلك حتى أعلمه الله تعالى فقد أخبر عن نفسه الكريمة أنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر، وهو ﷺ أول من يجيز على الصراط رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

ومنها: أنه ﷺ يحشر في سبعين ألفاً من الملائكة كما روي عن كعب الأحبار ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألف ملك يحفون بقبره ﷺ يضربون بأجنحتهم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه ﷺ الحديث رواه النجار في تاريخ المدينة.

ومنها: أنه ﷺ يحشر راكب البراق رواه الحافظ السِّلَفي كما ذكره الطبري. منها: أنه ﷺ يكسى في الموقف أعظم الحلل من الجنة. رواه البيهقي بلفظ: «**فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر**»[٢]، ورواه كعب بن مالك بلفظ: «**يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني حلة خضراء**»[٣] رواه الطبراني، ورواه الطبراني أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ: «فيرقى هو ـ يعني محمداً ﷺ ـ وأمته على كوم فوق الناس»[٤].

ومنها: أنه ﷺ يقوم على يمين العرش رواه ابن مسعود عنه ﷺ وفيه: لا يقومه غيره يغبطه فيه الأولون والآخرون.

ومنها: أنه يعطى المقام المحمود. قال مجاهد هو جلوسه ﷺ على العرش. وعند عبد الله بن سلام على الكرسي، ذكرهما البغوي وسيأتي ما قيل في ذلك في ذكر تفضيله ﷺ بالمقام المحمود إن شاء الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٣١٤٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والحاكم في المستدرك (٢: ٤٦٥).

(٢) رواه أبو داود في السنن (بعث: ٢). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٤١٩). وفي مناهل الصفا (٣٤).

(٣) رواه أبو داود في السنن (بعث ٢٧) وفي مشكل الآثار للطحاوي (١: ٤٤٩). وفي الشفاعة للقاضي عياض (١: ٤١٩). وفي مناهل الصفا (٣٤).

(٤) رواه أبو داود في السنن (بعث: ٢). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٤١٩). وفي مناهل الصفا (٣٤). وأبو داود في السنن (بعث ٢٧) وفي مشكل الآثار للطحاوي (١: ٤٤٩). وفي الشفاعة للقاضي عياض (١: ٤١٩). وفي مناهل الصفا (٣٤).

ومنها: أنه يعطى الشفاعة العظمى في فصل القضاء بين أهل الموقف، حين يضرعون إليه بعد الأنبياء والشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب وفي رفع درجات ناس في الجنة، ومنها أنه ﷺ صاحب لواء الحمد يوم القيامة آدم فمن دونه تحته رواه البزار، ومنها أنه ﷺ أول من يقرع باب الجنة، روى مسلم من حديث المختار بن فلفل عن أنس قال: قال ﷺ: «**أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة**»[1]، وعنده أيضاً عن أنس قال ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة، فاستفتح فيقول الخازن بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**»[2].

ورواه الطبراني بزيادة فيه قال: «**فيقوم الخازن فيقول لا أفتح لأحد قبلك ولا أقوم لأحد بعدك**».

وهذه خصوصية أخرى له ﷺ وهي أن خازن الجنة لا يقوم لأحد غيره ﷺ فقيامه له ﷺ فيه إظهار لمزيته ومرتبته ولا يقوم لأحد بعده، بل خزنة الجنة يقومون في خدمته وهو كالملك عليهم وقد أقامه الله تعالى في خدمة عبده ورسوله حتى مشى وفتح له الباب.

ومنها: أنه ﷺ أول من يدخل الجنة قال ﷺ: «**وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر**»[3] رواه الترمذي.

ومن خصائصه ﷺ: الكوثر نهر في الجنة يسيل في حوضه مجراه على الدر والياقوت وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج، ومنها الوسيلة وهي أعلى درجة في الجنة.

[خصائص أمته ﷺ]

وأما خصائص أمته ﷺ: فاعلم أنه لما أنشأ الله سبحانه وتعالى العالم على غاية من الإتقان، وأبرز جسد نبينا ﷺ للعيان، وظهرت عنايته بأمته الإنسانية بحضوره وظهوره فيها وإن كان العالم الإنساني والناري كل أمته، ولكن لهؤلاء خصوص وصف، فجعلهم خير أمة أخرجت للناس وجعلهم ورثة الأنبياء وأعطاهم الاجتهاد في الأحكام، فيحكمون بما أدى إليه اجتهادهم، وكل من دخل في زمان

---

(١) رواه مسلم (١٨٨).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (الإيمان: ٣٣٣). وأحمد في المسند (٣: ١٣٦). والبغوي في شرح السنة (١٥: ١٦٧). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤: ٥٢١).

(٣) رواه السيوطي في الدر المنثور (٢: ٢٣٠). وابن كثير في التفسير (٢: ٣٧٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٦).

هذه الأمة من الأنبياء بعد نبيها كعيسى عليه السلام، أو قدر دخوله كالخضر، فإنه لا يحكم في العالم إلا بما شرعه محمد ﷺ في هذه الأمة، فإذا نزل سيدنا عيسى عليه السلام فإنما يحكم بشريعة نبينا ﷺ بإلهام أو اطلاع على الروح المحمدي أو بما شاء الله تعالى فيأخذ عنه ما شرع الله له أن يحكم به في أمته فلا يحكم في شيء من تحريم وتحليل إلا بما كان يحكم به نبينا ﷺ، ولا يحكم بشريعته التي أنزلت عليه في أوان رسالته ودولته، فهو عليه السلام تابع لنبينا ﷺ، وقد نبه على ذلك الترمذي الحكيم في كتاب «ختم الأولياء» وأعرب عنه صاحب «عنقاء مغرب» وكذا الشيخ سعد الدين التفتازاني في «شرح عقائد النسفي» وصح أنه يصلي بالناس ويؤمهم ويقتدي به المهدي، لأنه أفضل منه فإمامته أولى. فهو عليه السلام وإن كان خليفة في الأمة المحمدية فهو رسول ونبي كريم على حاله لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحداً من هذه الأمة، نعم هو واحد من هذه الأمة لما ذكر من وجوب اتباعه لنبينا ﷺ والحكم بشريعته، وكذلك من يقول من العلماء بنبوة الخضر وأنه باق إلى اليوم، فإنه تابع لأحكام هذه الملة، وكذلك إلياس على ما صححه أبوعبد الله القرطبي أنه حي أيضاً، وليس في الرسل من يتبعه رسول له كتاب إلا نبينا ﷺ، وكفى بهذا شرفاً لهذه الأمة المحمدية زادها الله شرفاً، فالحمد لله الذي خصنا بهذه الرحمة، وأسبغ علينا هذه النعمة، ومنّ علينا بما عمنا به من الفضائل الجمة، ونوه بنا في كتابه العزيز بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] فتأمل قوله ﴿كُنتُمْ﴾ أي في اللوح المحفوظ وقيل: ﴿كُنتُمْ﴾ في علم الله فينبغي لمن هو من هذه الأمة المحمدية أن يتخلق بالأخلاق الزكية، ليثبت له ما لهذه الأمة الشريفة من الأوصاف المرضية، ويتأهل لما لها من الخيرية.

قال مجاهد كنتم خير أمة أخرجت للناس إذا كنتم على الشرائط المذكورة أي تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. وقيل إنما صارت أمة محمد ﷺ خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى، وقيل هذا لأصحاب محمد ﷺ كما قال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[1]، وهذا يدل على أن أول هذه الأمة خير ممن بعدهم وإلى هذا ذهب معظم العلماء، وأن من صحبه ﷺ ورآه ولو مرة من عمره أفضل من كل من يأتي بعده وإن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل. هذا مذهب الجمهور.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١: ٣١٧). وفيه: «أقراني الذين يلوني».

وذهب أبو عمر بن عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة، وأن قوله ﷺ: «خير الناس قرني» ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول، وقد جمع قرنه ﷺ جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهل الكبائر الذين أقام على بعضهم الحدود، وقد روى أبو أمامة أنه ﷺ قال: **«طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى سبع مرات لمن لم يرني وآمن بي»**[١].

وفي مسند أبي داود الطيالسي عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فقال: **«أتدرون أيّ الخلق أفضل إيماناً؟** قلنا: الملائكة. قال: **«وحق لهم بل غيرهم»**. قلنا: الأنبياء. قال: **«وحق لهم بل غيرهم»** ثم قال ﷺ: **«أفضل الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني فهم أفضل الخلق إيماناً»**[٢].

وروي أنّ عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن اكتب إلي بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها فكتب إليه سالم إن عملت بسيرة عمر فأنت أفضل من عمر لأن زمانك ليس كزمان عمر ولا رجالك كرجال عمر قال: وكتب إلى فقهاء زمانه فكلهم كتب بمثل قول سالم، قال أبو عمر فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها في فضل العمل إلا أهل بدر والحديبية ومن تدبر هذا الباب بأن له الصواب والله يؤتي فضله من يشاء.

وإسناد حديث أبي داود الطيالسي عن عمر ضعيف فلا يحتج به، لكن روى أحمد والدارمي والطبراني عن أبي عبيدة أي ابن الجراح أنه قال: يا رسول الله، أأحد أفضل إيماناً منا أسلمنا معك وجاهدنا معك؟ قال: **«قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني»**[٣] وإسناده حسن وصححه الحاكم، والحق ما عليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ والدلائل على أفضلية الصحابة على غيرهم كثيرة متظاهرة لا نطيل بذكرها، وقد خص الله تعالى هذه الأمة الشريفة بخصائص لم يؤتها أمة قبلهم أبان بها فضلهم والأخبار والآثار ناطقة بذلك.

وروى أبو نعيم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن موسى عليه الصلاة والسلام لما نزلت عليه التوراة وقرأها فوجد فيها ذكر هذه الأمة، قال: يا رب إني لأجد في الألواح أمة**

---

(١) رواه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٤١).

(٢) رواه ابن حجر في فتح الباري (٧: ٦). وابن عبد البر في الاستذكار (١: ٢٣٨).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤: ٨٥). وابن حجر في فتح الباري (٧: ٦). وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣: ٢٧).

هم الآخرون السابقون فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها ظاهراً فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يجعلون الصدقة في بطونهم يؤجرون عليها فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وإن عملها كتبت له عشر حسنات فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت سيئة واحدة فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يؤتون العلم الأول والعلم الآخر فيقتلون المسيح الدجال فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب فاجعلني من أمة أحمد فأعطي عند ذلك خصلتين. فقال: يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين. قال: قد رضيت يا رب» (والمراد بالناس الموجودون في زمانه على نبينا وعليه الصلاة والسلام).

وفي الحلية لأبي نعيم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إلى موسى نبي بني إسرائيل أنه من لقيني وهو جاحد بأحمد أدخلته النار، قال: يا رب ومن أحمد. قال: ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منه كتبت اسمه مع اسمي في العرش قبل أن أخلق السمٰوات والأرض، إن الجنة محرمة على جميع خلقي حتى يدخلها هو وأمته. قال: ومن أمته. قال: الحمادون يحمدونني صعوداً أو هبوطاً وعلى كل حال يشدون أوساطهم ويطهرون أطرافهم صائمون بالنهار رهبان بالليل أقبل منهم اليسير وأدخلهم الجنة بشهادة أن لا إلٰه إلا الله. قال: اجعلني نبي تلك الأمة قال: نبيها منها. قال: اجعلني من أمة ذلك النبي. قال: استقدمت واستأخر ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال».

وعن وهب بن منبه قال: «أوحى الله تعالى إلى شعياء أني باعث نبياً أمياً أفتح به آذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، مولده بمكة ومهاجره طيبة وملكه بالشام، عبدي المتوكل المصطفى المرفوع الحبيب المتحبب المختار لا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، رحيماً بالمؤمنين يبكي للبهيمة المثقلة ولليتيم في حجر الأرملة، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا متزين بالفحش ولا قوال للخنا، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ولو يمشي على القصب الرعراع لم يسمع من تحت قدميه، ابعثه مبشراً ونذيراً واجعل أمته خير أمة أخرجت للناس أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وتوحيداً لي وإيماناً بي وإخلاصاً لي وتصديقاً لما جاءت به رسلي وهم رعاة الشمس والقمر، طوبى لتلك القلوب والوجوه والأرواح التي أخلصت لي، الهمهم التسبيح والتكبير والتحميد والتوحيد في

مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم وتقلبهم ومثواهم، ويصفون في مساجدهم كما تصف الملائكة حول عرشي، هم أوليائي وأنصاري انتقم بهم من أعدائي عبدة الأوثان يصلون لي قياماً وقعوداً أو ركّعاً وسجوداً، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً ويقاتلون في سبيلي صفوفاً، أختم بكتابهم الكتب وبشريعتهم الشرائع وبدينهم الأديان، فمن أدركهم فلم يؤمن بكتابهم ويدخل في دينهم وشريعتهم فليس مني وهو مني بريءٌ، واجعلهم أفضل الأمم وأجعلهم أمة وسطا شهداء على الناس إذ اغضبوا هللوني وإذ تنازعوا سبحوني، يطهرون الوجوه والأطراف ويشدون الثياب إلى الأنصاف ويهللون على التلال والأشراف قربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم رهباناً بالليل ليوثاً بالنهار طوبى لمن كان معهم وعلى دينهم ومنهاجهم وشريعتهم، وذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم». رواه أبو نعيم.

وقد ذكر الإمام فخر الدين الرازي أن من كانت معجزاته أظهر يكون ثواب أمته أقل. قال السبكي: إلا هذه الأمة فإن معجزات نبيها أظهر وثوابها أكثر من سائر الأمم.

ومن خصائص هذه الأمة: إحلال الغنائم ولم تحل لأمة قبلها: وجعلت لهم الأرض مسجداً ولم تكن الأمم تصلي إلا في البيع والكنائس، وجعل لهم ترابها طهوراً وهو التيمم.

ومن خصائص هذه الأمة أيضاً: الوضوء فإنه لم يكن إلا للأنبياء دون أممهم ذكره الحليمي واستدل بحديث البخاري: **«إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء»**[١] والظاهر أن الذي اختصت به هذه الأمة هو الغرة والتحجيل لا أصل الوضوء فقد كان في الأمم السالفة، ومنها مجموع الصلوات الخمس ولم تجتمع لأحد غيرهم.

ومنها: الأذان والإقامة، **ومنها**: التأمين، **ومنها**: الاختصاص بالركوع، **ومنها**: تحية الإسلام، **ومنها**: الجمعة قال ﷺ: **«نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد»**[٢]. رواه البخاري.

ومنها: ساعة الإجابة التي في الجمعة وفي تعيينها أقوال قال الزرقاني: سردها في فتح الباري اثنين وأربعين قولاً، وذكرها واحداً واحداً، ومنها أنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله تعالى إليهم ومن نظر إليه لم يعذبه أبداً، ثم ذكر لهذه الأمة المحمدية خصائص أخرى إلى أن قال: ومنها أن شريعتهم أكمل من جميع شرائع الأمم المتقدمة وهذا مما لا يحتاج إلى بيانه

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٥٣٤).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٨: ١٥٩). وأحمد في المسند (٢: ٢٤٩). والبيهقي في السنن الكبرى (١: ٢٩٨). وأبو نعيم في دريل النبوة (١: ٩). وابن حجر في فتح الباري (١: ٣٤٥).

لوضوحه، وانظر إلى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فقد كانت شريعة جلال وقهر، أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، وعجلت لهم العقوبات، وحملوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم. وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله تعالى هيبة ووقاراً وأشدهم بأساً وغضباً لله تعالى، وبطشاً بأعداء الله، فكان لا يستطاع النظر إليه، وعيسى عليه السلام كان في مظهر الجمال وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان، وكان لا يقاتل ولا يحارب وليس في شريعته قتال ألبتة، والنصارى يحرم عليهم في دينهم القتال، وهم به عصاة فإن الإنجيل يأمر فيه أن من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك، ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين، ونحو هذا، وليس في شريعتهم مشقة ولا أصر ولا أغلال، والنصارى هم الذين ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا ﷺ فكان مظهر الكمال الجامع لتلك القوة والعدل والشدة في الله واللين والرأفة والرحمة، فشريعته ﷺ أكمل الشرائع وأمته أكمل الأمم وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات ولذلك تأتي شريعته ﷺ بالعدل إيجاباً له وفرضاً وبالفضل ندباً إليه واستحباباً وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين ووضع السيف في موضعه ووضع الندى في موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويأمر به والفضل ويندب إليه في بعض آياته كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل. ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا فضل. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا تحريم للظلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: ١٢٦] هذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وندب إلى الفضل، وكذلك تحريم ما حرم على هذه الأمة صيانة ورحمة حرم عليهم كل خبيث وضار وأباح لهم كل طيب ونافع فتحريمه عليهم رحمة وعلى من كان قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم كيوم الجمعة، ووهب لهم من علمه وحلمه وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم، كما كمل لنبيهم ﷺ من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله وكمل في كتابهم من المحاسن ما فرقه في الكتب قبله، وكذلك في شريعته ﷺ.

فهذه الأمة هم المجتبون كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨] وجعلهم شهداء على الناس فأقامهم في ذلك مقام الرسل الشاهدين على أممهم.

ومنها: أنهم لا يجتمعون على ضلالة، رواه الإمام أحمد وغيره في حديث: **«سألت ربي أن لا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها»**(١).

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم. (٢: ٤٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤: ٣٧٩). =

ومنها: أن إجماعهم حجة، وأن اختلافهم رحمة وكان اختلاف من قبلهم عذاباً رواه البيهقي، ومنها أن الطاعون لهم شهادة ورحمة وكان على الأمم عذاباً، رواه الإمام أحمد، ومنها أنه إذا شهد اثنان منهم لعبد بخير وجبت له الجنة وكان الأمم السالفة إذا شهد منهم مائة، ومنها أنهم أقل الأمم عملاً وأكثرهم أجراً وأقصرهم أعماراً، وأوتوا العلم الأول والآخر وكانوا آخر الأمم فافتضحت الأمم عندهم ولم يفتضحوا، ومنها أنهم أوتوا الإسناد وهو خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسنة بالغة من السنن المؤكدة.

قال في المواهب: قد روينا من طريق أبي العباس الدغولي قال: سمعت محمد بن حاتم بن المظفر يقول: إن الله قد أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد، إنما هو صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل، وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي اتخذوها عن غير الثقات، وهذه الأمة الشريفة زادها الله شرفاً بنبيها، إنما ينص الحديث عن الثقة المعروف في زمانه بالصدق، والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا، الأحفظ، فالأحفظ الأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقصر مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهاً وأكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه ويعدوه عدّاً فهذا من فضل الله على هذه الأمة فنستودع الله تعالى شكر هذه النعمة وغيرها من نعمه، وقال أبو حاتم الرازي، لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله تعالى آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة. انتهى.

ومنها أنهم أوتوا الأنساب والأعراب. ومنها أنهم أوتوا تصنيف الكتب، ولا تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله، رواه الشيخان. ثم ذكر في المواهب خصائص أخرى للأمة المحمدية، لم أر لزوماً إلى نقلها.

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[إسراؤه ومعراجه ﷺ]

قوله في المقصد الخامس الذي ذكر فيه تخصيصه ﷺ بخصائص المعراج والإسراء، وتعميمه بعموم لطائف التكريم في حضرة التقريب بالمكالمة والمشاهدة الكبرى، اعلم أن قصة الإسراء والمعراج من أشهر المعجزات وأبهر البراهين البيّنات، وأقوى الحجج

= والعجلوني في كشف الخفا (٢: ٤٨٨). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٨٧).

المحكمات، وأصدق الأنباء وأعظم الآيات، والحق أنه إسراء واحد بروحه وجسده يقظة في القصة كلها، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عنه والإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العليّة، لم يكن لأحد سواه من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، والمعاريج ليلة الإسراء عشرة، سبعة إلى السمٰوات والثامن إلى سدرة المنتهى والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه ﷺ صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة والكشف الحقيقي وقد ورد حديث الإسراء عن كثير من الصحابة، عد منهم في المواهب ستة وعشرين ثم قال: وبالجملة فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون وذكره بطوله مع رواياته وما يتعلق به من فرائد الفوائد.

وقد اختصرت ذلك في كتابي «الأنوار المحمدية» مختصراً المواهب اللدنية أبدع اختصار أثبت فيه ما يلزم إثباته وحذفت ما لا ضرورة له وما فيه تكراراً بحيث لخصت القصة فيه تلخيصاً حسناً صارت به في حالة يحسن قراءتها معه، وتفضل وتفوق جميع قصص المعراج التي ألفت في هذا الشأن وقصدت بذلك تسهيل قراءتها لمن أراد، إذ لا حاجة معها إلى الازدياد ولم أر ضرورةً لنقل ذلك هنا لشهرته وانتشاره بين العباد.

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[الآيات الواردة في تعظيم قدره ﷺ]

قوله في المقصد السادس فيما ورد في آي التنزيل من تعظيم قدره ورفعه ذكره ﷺ قال الله تعالى: ﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣] قال المفسرون يعني موسى عليه السلام، وقد ثبت أنه تعالى كلم نبينا أيضاً ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] يعني محمداً ﷺ رفعه الله تعالى من ثلاثة أوجه بالذات، في المعراج، وبالسيادة على جميع البشر، وبالمعجزات لأنه ﷺ أوتي من المعجزات ما لم يؤته نبي قبله، قال الزمخشري: وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ﷺ ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه ﷺ العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس، وقد بينت هذه الآية، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥].

إن مراتب الرسل والأنبياء متفاوتة، قال بعض أهل العلم، فيما حكاه القاضي عياض، والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال أن تكون آياته ومعجزاته أظهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه

الله تعالى به من كرامته وتفضيله بكلام، أو خلة، أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه.

وتحف ولايته واقتصاصه فلا مرية أن آيات نبينا ﷺ ومعجزاته أظهر وأبهر وأكثر وأبقى وأقوى، ومنصبه أعلى، ودولته أعظم وأوفر، وذاته أفضل وأظهر، وخصوصياته على جميع الأنبياء أشهر من أن تذكر، فدرجته أرفع من درجات جميع المرسلين، وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين.

قال الفخر الرازي في المعالم: أنه تعالى وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقد أتى بجميع ما أتوا به من الخصال الحميدة، فقد اجتمع فيه ما كان مفرقاً فيهم، فيكون أفضل منهم، وإن دعوته ﷺ وصلت إلى أكثر بلاد العالم، بخلاف سائر الأنبياء. فظهر أن انتفاع أهل الدنيا بدعوته ﷺ أكمل من انتفاع سائر الأمم بدعوة سائر الأنبياء، فوجب أن يكون أفضل من سائر الأنبياء.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة»(١) وهذا يدل على أنه أفضل من آدم عليه السلام، ومن كل أولاده، ولم يقل ﷺ ذلك افتخاراً، حاشاه من ذلك، وإنما قاله إظهاراً لنعمة الله تعالى عليه، وإعلاماً للأمة بعلو قدر إمامهم ومتبوعهم الأعظم ﷺ عند الله تعالى لتعرف نعمة الله تعالى عليها وعليه، وقال الله تعالى: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ [الشرح: ٤] روى ابن خزيمة وغيره وصححه ابن حبان من حديث أبي سعيد أنه ﷺ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: إن ربي وربك يقول تدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله أعلم قال: إذا ذكرت ذكرت معي»(٢).

قال البيضاوي وأي رفع مثل أن قرن اسمه تعالى باسمه ﷺ في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته، يشير إلى قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ [النساء: ٨٠] وما أشبهها من الآيات، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

أخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة، وإن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، فيجتمع الثناء عليه ﷺ من الله تعالى، وأهل العالمين العلوي والسفلي جميعهم.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٤: ١٦٣). ومسلم في الصحيح (الإيمان: ٣٢٧). والترمذي في السنن (٢٤٣٤). وأحمد في المسند (٢: ٤٣٥).

(٢) رواه الطبري في التفسير (٣٠: ١٥١). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٥٤). وابن كثير في التفسير (٨: ٤٥٢).

وقال تعالى: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ - ٢] أي ما أنزلناه عليك لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة وما بعثت إلا بالحنفية السمحة، وقد صلى ﷺ بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل عليه السلام: أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً. ونزلت الآية.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] أي أعطيناك المناقب المتكاثرة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها، والمشهور في معنى الكوثر، أنه نهر في الجنة، وهو معناه المستفيض عن السلف والخلف وورد ذلك في الحديث.

ثم ذكر أشياء كثيرة تقدم بعضها، ويأتي بعضها لغيره، ثم قال: وبالجملة فقد تضمن الكتاب العزيز من التصريح بجليل رتبته، وعظيم قدره، وعلو منصبه، ورفعة ذكره ﷺ ما يقضي بأنه استولى على أقصى درجات التكريم.

ثم قال في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] قال أبو بكر بن طاهر: زين الله تعالى محمداً ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب.

وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر. لأن كل نبي كان إذا كُذِّبَ أهلك الله من كذبه، ومحمد ﷺ أخر من كذبه إلى الموت أو إلى القيامة، وأما من صدقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة.

وقال السمرقندي: رحمة للعالمين، يعني الجن والإنس. وقيل لجميع الخلق للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب، فذاته ﷺ رحمة تعم المؤمن، والكافر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»(١) رواه البيهقي وغيره، وقال بعض العارفين: لأنبياء خلقوا كلهم من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة. وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأنبياء: ٤٠]، وقال ﷺ: «أرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»(٢). رواه مسلم عن أبي هريرة.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

---

(١) رواه ابن كثير في التفسير (٥: ٣٨١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢١٣). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٨٠٠).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢: ٤١٢).

﴿وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧] هذا يدل على كمال صدقه ﷺ، لأنه لو لم يكن مكتوباً، لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى، عن قبول قوله ﷺ، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول مقاله، وهو ﷺ كان أعقل الناس، فلما قال لهم ذلك دل على أن هذا النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته ﷺ، والكتب السماوية هي بعد تحريفها وتبديلها لم تزل بدلائل نبوته ﷺ طافحة، وإعلام شريعته ورسالته فيها لائحة، ثم ذكر كثيراً من عباراتها الموجودة إلى الآن، المعلنة برسالة نبينا ﷺ، في كتابي حجة الله على العالمين من ذلك شيء كثير ولذلك لم أر ضرورة لنقله هنا.

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[وجوب محبته واتباع سنته ﷺ]

قوله في المقصد السابع: في وجوب محبته واتباع سنته والاهتداء بهديه ﷺ.

اعلم أن محبة رسول الله ﷺ هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإليها يشخص العاملون، وعليها يتفانى المحبون، وبروح نسيمها يتروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، وهي روح الإيمان والأعمال والأحوال والمقامات، وإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفاً فانياً منقطعاً، أو استنقذه من مهلكة أو مضرة لا تدوم، فما بالك بمن منحه ﷺ منحاً لا تبيد ولا تزول، ووقاه من العذاب الأليم ما لا يفنى ولا يحول، وإذا كان المرء يحب غيره على ما فيه من صورة جميلة، وسيرة حميدة، فكيف بهذا النبي الكريم والرسول العظيم، الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم، المانح لنا جوامع المكارم والفضل العميم، فقد منحه الله به منح الدنيا والآخرة، وأسبغ علينا نعمة باطنة وظاهرة، فاستحق ﷺ أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأموالنا والناس أجمعين، بل لو كان في منبت كل شعرة منا محبة تامة له ﷺ، لكان ذلك بعض ما يستحقه علينا، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»**[1].

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٠). والنسائي في السنن (٨: ١١٤). وأحمد في المسند (٣: ٢٠٧).

وروى البخاري عن عمر رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبيّ. فقال النبي ﷺ: «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إليّ من نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي ﷺ: «الآن يا عمر»[1]، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

وروى ابن إسحاق أن امرأةً من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ، فقالت بعد أن أخبروها بموتهم ما فعل رسول الله ﷺ، قالوا خيراً هو بحمد الله كما تحبين، فقالت: «أرونيه حتى أنظر إليه» فلما رأته قالت: «كل مصيبة بعدك جلل» أي صغيرة.

ولما أخرج مشركو مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب، وذلك قبل أن يسلم: أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا نضرب عنقه وأنك في أهلك، فقال زيد: والله ما أحب، إن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً».

وذكر أحاديث أخرى في لزوم محبته ﷺ وقال: ولمحبته ﷺ علامات، أعظمها الاقتداء به، واستعمال سنته، وسلوك طريقته، والاهتداء بهديه وسيرته، والوقوف على ما حده لنا من شريعته ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل تعالى متابعة الرسول ﷺ آية محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله تعالى إياه، وبحسب هذا الاتباع تحصل المحبة والمحبوبية معاً، ولا يتم الأمر إلا بهما، فليس الشأن أن تحب الله فقط بل الشأن أن يحبك الله، ولا يحبك إلا إذا اتبعت حبيبه ﷺ ظاهراً وباطناً، وصدقته خبراً وأطعته أمراً وأجبته دعوةً، وآثرته طوعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم تكن كذلك فلا تتعن، فلست على شيء، وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] أي الشأن في أن الله يحبكم لا في أنكم تحبونه وهذا لا ينالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ.

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من أحيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة»[2].

---

(١) رواه القاضي عِياض في كتاب الشفا (٢: ٤٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٣٨٦).

(٢) رواه الترمذي في السنن (٢٦٨٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١: ١١٨). والمتقي الهندي=

وقال ابن عطاء: من ألزم نفسه آداب السنة نوّر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره ونواهيه وأفعاله وأخلاقه ﷺ.

ومن علامات محبته ﷺ أن يرضى المؤمن بما شرعه الله تعالى على لسانه ﷺ حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] فسلب اسم الإيمان عمن وجد في صدره حرجاً من قضائه، ولم يسلم له ﷺ.

قال تاج الدين بن عطاء الله: في هذه الآية دلالة على أن الإيمان الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكم الله ورسوله ﷺ على نفسه، قولاً، وفعلاً، وأخذاً، وتركاً وحباً، وبغضاً، ثم أنه سبحانه لم يكتف بنفي الإيمان عمن لا يحكمه، أو حكمه ووجد الحرج في نفسه، حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسول الله ﷺ رأفة وعناية، وتخصيصاً ورعاية، لأنه لم يقل فلا والرب إنما قال: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ففي ذلك تأكيد بالقسم، وتأكيد في القسم، علماً منه سبحانه بما النفوس منطوية عليه من حب الغلبة ووجود النصرة، سواء كان الحق عليها أولها، وفي ذلك إظهار لعنايته برسوله ﷺ، إذ جعل حكمه حكمه وقضاءه قضاءه، فأوجب على العباد الاستسلام لحكمه والانقياد لأمْره، ولم يقبل منهم الإيمان بإلهيته حتى يذعنوا لأحكام رسوله ﷺ، لأنه كما وصفه ربه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤] فحكمه حكم الله وقضاؤه قضاء الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وأكد ذلك بقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] قال سهل بن عبد الله: من لم ير ولاية رسول الله ﷺ في جميع أحواله، ويرى نفسه في ملكه ﷺ لم يذق حلاوة سنته. ومن علامات محبته ﷺ نصر دينه بالقول والفعل، والذب عن شريعته، والتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار، والحلم والصبر، والتواضع وغيرها، فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان ومن وجدها استلذ الطاعات، وتحمل المشقات، وآثر ذلك على أعراض الدنيا الفانيات.

ومن علامات محبته ﷺ، تعظيمه عند ذكره، وإظهار الخشوع، والخضوع، والانكسار مع سماع اسمه، فكل من أحب شيئاً خضع له، كما كان كثير من الصحابة بعده، إذا ذكروه ﷺ

= في كنز العمال (٩٣٣). والعقيلي في الضعفاء (٢: ٣).

خشعوا، واقشعرت جلودهم، وبكوا، وكذلك كان كثير من التابعين، فمن بعدهم يفعلون ذلك محبة له، وشوقاً إليه، وتهيباً وتوقيراً.

ثم ذكر أخلاق بعض الصحابة والسلف الصالح في تعظيمه وتوقيره ﷺ إذا ذكر وقال: ومن علامات محبته ﷺ كثرة الشوق إلى لقائه، ومن علامات محبته ﷺ حب القرآن الذي أتى به وإذا أردت أن تعرف ما عندك من محبة الله ورسوله فانظر محبة القرآن من قلبك، ومن علامات محبته ﷺ محبة سنته وقراءة حديثه، ومن علامات محبته ﷺ أن يلتذ محبه بذكره، وعند سماع اسمه الشريف ﷺ.

ومن علامات محبته ﷺ محبة دينه وآله وأصحابه وبلده، ومحبة كل شيء ينسب إليه ﷺ وإذا اشتدت محبة العبد للنبي ﷺ شغلته عن كل شيء، واستغرقت قلبه وروحه وسمعه أي فتكثر رؤيته له في المنام، ولا يذهب من خاطره، وقد يراه ﷺ يقظةً، فيكون من أكابر الأولياء، وخيرة الأصفياء.

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[إنباؤه ﷺ بالمغيبات]

أنه ذكر في آخر المقصد الثامن: كثيراً من إنبائه ﷺ بالمغيبات: وقال: اعلم أن علم الغيب يختص به تعالى، وما وقع منه على لسان رسوله ﷺ وغيره فمن الله تعالى، إما بوحي، أو بإلهام لإثبات نبوته ﷺ.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «والله إني لا أعلم إلا ما علمني ربي» وقد اشتهر أمره ﷺ بالاطلاع على الغيوب، حتى كأن بعضهم يقول لصاحبه: اسكت فوالله لو لم يكن عندنا من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء. ويشهد له قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات إن ما قال واقع

وقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مشهد
فإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في ضحوة اليوم أو غد

ثم ذكر كثيراً من الأحاديث الواردة في وقائع مخصوصة أخبر ﷺ فيها بالمغيبات، وظهر الأمر كما أخبر، وهي من أكثر أنواع معجزاته ﷺ:

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[عبادته ﷺ قبل البعثة]

قوله في المقصد التاسع: قد اختلف العلماء، هل كان عليه الصلاة والسلام قبل بعثته متعبداً بشرع من قبله أم لا؟ فقال جماعة: «لم يكن متعبداً بشيء» وهو قول الجمهور. وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٣] فإنما المراد باتباعه في التوحيد.

وقال شيخ الإسلام البلقيني في شرح البخاري: لم تجيء في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده ﷺ، لكن روى ابن إسحاق وغيره أنه ﷺ كان يخرج إلى حراء في كل عام شهراً من السنة يتنسك فيه، حتى إذا انصرف من مجاوراته، لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة، وحمل بعضهم التعبد على التفكر.

وذكر أحاديث كثيرة في أنواع عباداته ﷺ، وختمها في ذكر نبذة من أدعيته وأذكاره وقراءته. ثم ذكر كثيراً من أدعيته التي استجابها الله تعالى، منها أنه ﷺ دعا لأنس رضي الله عنه فقال: «**اللهم أكثر ماله وولده، وأطل عمره، وأغفر له**»[١]. قال أنس: فقد دفنت من صلبي مائة واثنين، وإن ثمرتي لتحمل في السنة مرتين، ولقد بقيت حتى سئمت الحياة وأرجو الرابعة. رواه ابن سعد.

ودعا ﷺ لمالك بن ربيعة السلولي أن يبارك له في ولده، فولد له ثمانون ذكراً رواه ابن عساكر. وأرسل ﷺ إلى علي يوم خيبر، وكان أرمد، فتفل في عينيه وقال: «**اللهم أذهب عنه الحر والبرد**»[٢]، قال: فما وجدت حراً، ولا برداً، منذ ذلك اليوم، ولا رمدت عيناي. وذكر من ذلك شيئاً كثيراً، ثم قال: ولم ينقل أنه ﷺ دعا بشيء فلم يستجب.

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[وفاته ﷺ]

قوله في المقصد العاشر: وهو آخر الكتاب اعلم أن الموت لما كان مكروهاً بالطبع، لم يمت نبي من الأنبياء حتى يخير.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٨: ٩١). والترمذي في السنن (٣٨٢٩:). وأحمد في المسند (٣: ١٩٤). ومسلم في الصحيح (٤٥٨:). وفيه: «وبارك له».

(٢) رواه ابن ماجة في السنن (١١٧). وأحمد في المسند (١: ٩٩). وابن حجر في فتح الباري (٧: ٤٧٧). وابن كثير في البداية والنهاية (٧: ٣٤).

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده»[1]، فبكى أبو بكر رضي الله عنه، وقال: يا رسول فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فعجبنا له وقال الناس انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال، فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا به رواه الشيخان.

وما زال ﷺ يعرض باقتراب أجله في آخر عمره، وذكر من ذلك في المواهب عدة أحاديث إلى أن قال: ذكر الواحدي بسند وصله بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال: «نعى لنا رسول الله ﷺ نفسه قبل موته بشهر، فلما دنا الفراق، جمعنا في بيت عائشة، فقال: «حياكم الله بالسلام، رحمكم الله، جبركم الله، رزقكم الله، نصركم الله، رفعكم الله، آواكم الله، أوصيكم بتقوى الله، واستخلفه عليكم، واحذركم الله، إني لكم منه نذير مبين أن لا تعلوا على الله في بلاده وعباده، فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] قلنا: يا رسول الله متى أجلك؟ قال: «دنا الفراق والمنقلب إلى الله تعالى، وإلى جنة المأوى». قلنا: يا رسول الله من يغسلك؟ قال: «رجال أهل بيتي، الأدنى فالأدنى»، قلنا: يا رسول الله فيم نكفنك؟ قال: «في ثيابي هذه، وإن شئتم، في ثياب بياض مصرية، أو حلة يمنية»، قلنا: يا رسول الله من يصلي عليك؟ قال: «إذا أنتم غسلتموني وكفنتموني، فضعوني على سريري هذا على شفير قبري، ثم أخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي علي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت، ومعه جنود من الملائكة، ثم ادخلوا علي فوجاً فوجاً فصلوا علي، وسلموا تسليماً، وليبدأ بالصلاة علي رجال أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم، ثم اقرؤوا السلام علي، من غاب من أصحابي، ومن تبعني على ديني من يومي هذا إلى يوم القيامة» قلنا: يا رسول الله ومن يدخلك قبرك؟ قال: «أهلي مع ملائكة ربي»[2]. وكذا رواه الطبراني.

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير، فلما اشتكى ﷺ وحضره

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٥: ٧٣). والترمذي في السنن (٣٦٦٠:). التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٩٥٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٢٨٧).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٢٩٠). وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٤٦).

القبض ورأسه على فخذي، أغشي عليه، فلما أفاق، شخص بصره نحو سقف البيت، ثم قال: «اللهم في الرفيق الأعلى»[١]. فقلت: إذاً لا يختارنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح.

ولما تغشاه ﷺ الكرب، قالت فاطمة رضي الله عنها: «واكرب أبتاه»، فقال ﷺ لها: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»[٢] رواه البخاري.

قال العلماء: إن ذلك الألم والوجع زيادة في رفعة منزلته ﷺ، وأخرج الطبراني من حديث ابن عباس قال: جاء ملك الموت إلى النبي ﷺ في مرضه ورأسه في حجر عليّ، فاستأذن فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال له عليّ: ارجع فإننا مشاغيل عنك، فقال ﷺ: «هذا ملك الموت، أدخل راشداً»[٣]، فلما دخل قال: إن ربك يقرؤك السلام، فبلغني أن ملك الموت لم يسلم على أهل بيت قبله ولا يسلم بعده.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه، قال: لما بقي من أجل رسول الله ﷺ ثلاث، نزل عليه جبريل، فقال: يا محمد إن الله قد أرسلني إليك إكراماً لك، وتفضيلاً لك، وخاصة لك، ليسألك عما هو أعلم به منك، يقول: كيف تجدك؟ فقال: «أجدني يا جبريل مغموما، وأجدني يا جبريل مكروباً»، ثم أتاه في اليوم الثاني فقال له مثل ذلك، ثم جاءه في اليوم الثالث فقال له مثل ذلك، ثم استأذن عليه ﷺ ملك الموت، فقال جبريل: يا محمد هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدمي قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال: «إئذن له»، فدخل ملك الموت فوقف بين يديه فقال: يا رسول الله إن الله عزَّ وجل أرسلني إليك، وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمر، إن أمرتني أن أقبض روحك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها، فقال جبريل: يا محمد إن الله قد اشتاق إلى لقائك، فقال ﷺ: «فامض، يا ملك الموت لما أمرت به»[٤]، فقال جبريل: يا رسول الله هذا آخر موطئي من الأرض، إنما كنت حاجتي من الدنيا، فقبض روحه ﷺ.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٦: ١٢). وأحمد في المسند (٦: ٢٠٠). وابن كثير في التفسير (٢: ٣١٠).

(٢) رواه ابن ماجة في السنن (١٦٢٩). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢٠: ٢٦٣). والبيهقي في دلائل النبوة (٧: ٢١٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٨٨١٨:).

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩: ٣٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٢٩٦).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣: ١٣٩). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٢٩٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٨٨٢٥). وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٤٨). واليافعي في بدائع المنن (١٨٢٠).

فلما توفي ﷺ، سمعوا صوتاً من ناحية البيت [يقول]: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإنما المصاب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال عليّ: أتدرون من هذا؟ هو الخضر عليه السلام، رواه البيهقي في كتاب دلائل النبوة، وروى الحاكم من حديث أنس، قال: آخر ما تكلم به ﷺ: «جلال ربي الرفيع»، وعن سالم بن عبد الله الأشجعي، قال: لما مات رسول الله ﷺ، كان أجزع الناس كلهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخذ بقائم سيفه وقال: لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ، إلا ضربته بسيفي هذا، قال: فقالت الناس: يا سالم اطلب لنا صاحب رسول الله ﷺ، قال: فخرجت إلى المسجد فإذا أنا بأبي بكر، فلما رأيته أجهشت بالبكاء، أي تهيأت، فقال: يا سالم أمات رسول الله ﷺ؟. فقلت: إن هذا عمر بن الخطاب يقول لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي هذا.

قال: فأقبل أبو بكر حتى دخل على النبي ﷺ وهو مسجى، فرفع البرد عن وجهه، ووضع فاه على فيه، واستنشى الريح، ثم سجّاه، والتفت إلينا فقال: « ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]الآية، وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] يا أيها الناس، من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. قال عمر: فو الله، لكأني لم أتل هذه الآيات قط. رواه الترمذي. ومعنى استنشى الريح: شمها.

وقال ابن المنير: لما مات رسول الله ﷺ، طاشت العقول، فمنهم من خبل، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام، ومنهم من أضني، وكان عمر ممن خبل وكان عثمان ممن أخرس، يذهب ويجيء، ولا يستطيع كلاماً، وكان علي ممن أقعد فلم يستطع حراكاً، وأضني عبد الله بن أنيس فمات كمداً، وكان أثبتهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعنهم، جاء وعيناه تهملان، وزفراته تتردد، وغصصه تتصاعد، وترتفع فدخل على النبي ﷺ فأكب عليه، وكشف الثوب عن وجهه، وقال: طبت حياً وميتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء، فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختياراً لجدنا لموتك بالنفوس، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك.

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها، عن الإمام أحمد: أن أبا بكر رضي الله عنه أتى النبي ﷺ من قبل رأسه فحدر فاه، وقبل جبهته الشريفة، ثم قال: وانبياه، ثم رفع رأسه، فحدر

فاه وقبل جبهته ﷺ، ثم قال: واصفياه، ثم رفع رأسه، فحدر فاه وقبل جبهته، وقال: واخليلاه.

ولما توفي ﷺ، قالت فاطمة رضي الله عنها: يا أبتاه، أجاب رباً دعاه، يا أبتاه مَن جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه من إلى جبريل ننعاه، رواه البخاري.

وأخرج أبو نعيم عن علي رضي الله قال: لما قبض رسول الله ﷺ، صعد ملك الموت باكياً إلى السماء، والذي بعثه بالحق نبياً، لقد سمعت صوتاً من السماء ينادي، وامحمداه كل المصائب تهون عند هذه المصيبة، وفي سنن ابن ماجه أنه ﷺ قال في مرضه: «أيها الناس إن أحد من المؤمنين أصيب بمصيبة، فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي».

وكانت وفاته ﷺ يوم الإثنين بلا خلاف، ودفن يوم الأربعاء للاختلاف الذي وقع في موته، وفي محل دفنه ﷺ.

وأخرج ابن عساكر عن أبي ذويب الهذلي قال: بلغنا أن النبي ﷺ عليل، فأوجس أهل الحي خيفة، وبت بليلة طويلة، حتى إذا كان قرب السحر نمت، فهتف بي هاتف وهو يقول:

خطب أجل أناخ بالإسلام بين النخيل ومقعد الآطام
قبض النبي محمد فعيوننا تبدي الدموع عليه بالتسجام[1]

فوثبت من نومي فزعاً، فنظرت إلى السماء، فلم أر إلا سعد الذابح (اسم نجم)، فعلمت أن النبي ﷺ قبض، وهو ميت فقدمت المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا بالإحرام، فقلت: مه فقيل: قبض رسول الله ﷺ.

ولقد أحسن حسان بقوله يرثيه عليه الصلاة والسلام.

كنت السواد لناظري فعمي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

وأخرج أبو داود وصححه والحاكم، عن علي رضي الله عنه، قال: غسلته ﷺ، فذهبت أنظر ما يكون من الميت، فلم أر شيئاً، وكان طيباً حياً وميتاً.

وفي رواية ابن سعد: وسطعت ريح طيبة لم يجدوا مثلها قط. وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما) أنهم لما فرغوا من جهازه ﷺ يوم الثلاثاء، وضع على سريره في

(١) سجمت العين: سال دمعها قليلاً كان أو كثيراً. [لسان العرب، مادة: سجم].

بيته، ثم دخل الناس عليه ﷺ ارسالاً يصلون عليه، حتى إذا فرغوا دخل النساء، حتى إذا فرغن، دخل الصبيان، ولم يُرمن الناس أحد.

وفي رواية: إن أول من صلى عليه ﷺ الملائكة أفواجاً، ثم أهل بيته، ثم الناس فوجاً فوجاً، ثم نساؤه آخراً.

ولما دفن ﷺ في موضع فراشه في حجرة عائشة رضي الله عنها، جاءت فاطمة رضي الله عنها فقالت: كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟ وأخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها، وأنشدت تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد   أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليّ مصائب لو أنها   صبت على الأيام عدن لياليا

وروى الدارمي عن أنس رضي الله عنه قال: ما رأيت يوماً كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ المدينة، وما رأيت يوماً كان أقبح، ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ.

وفي رواية الترمذي عنه أيضاً: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه ﷺ، أظلم منها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من التراب، وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

ومن جواهر الإمام القسطلاني أيضاً

[تفضيله ﷺ الآخرة]

قوله في تفضيله ﷺ في الآخرة: اعلم أن الله تعالى كما فضل نبينا محمداً ﷺ في البدء بأن جعله أول الأنبياء في الخلق، وأولهم في الإجابة في عالم الذر، يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] جعله في العود أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول مشفع، وأول من يؤذن له بالسجود، وأول من ينظر إلى رب العالمين، وأول الأنبياء يقضي بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وأول داخل إلى الجنة، وأمته أول الأمم دخولاً إليها.

وزاده من لطائف التحف، ونفائس الطرف، ما لا يحد، ولا يعد، فمن ذلك أنه يبعث راكباً، وتخصيصه بالمقام المحمود، ولواء الحمد، تحته آدم، فمن دونه من الأنبياء، واختصاصه أيضاً بالسجود لله تعالى أمام العرش، وما يفتحه الله عليه في سجوده من التحميد والثناء عليه مما لم يفتحه على أحد قبله، ولا على أحد بعده، زيادة في كرامته وقربه، وقول

الله تعالى له: «يا محمد، ارفع رأسك وقل: يسمع لك، وسل تعطَ، واشفع تشفع»[(١)]، ولا كرامة فوق هذا، إلا النظر إليه تعالى.

ومن ذلك تكراره ﷺ الشفاعة، وسجوده ثانية وثالثة، وتجديد الثناء عليه سبحانه بما يفتح الله عليه من ذلك، وكلام الله تعالى له في كل سجدة: «يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط، واشفع تشفع»[(٢)].

ومن ذلك قيامه عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيره، يغبطه فيه الأولون والآخرون، وشهادته بين الأنبياء وأممهم بأنهم بلغوهم وسؤالهم منه ﷺ الشفاعة ليريحهم من غمهم، وعرقهم، وطول وقوفهم، وشفاعته في أقوام قد أمر بهم إلى النار.

ومنها: الحوض روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، ورائحته أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه شربة لا يظمأ أبداً»[(٣)].

قال القرطبي في المفهم مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به: إنه تعالى قد خص نبينا محمداً ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه، في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، إذ روى ذلك عنه ﷺ من الصحابة نيف على الثلاثين، منهم في الصحيحين ما يزيد على العشرين، ثم رواه عن الصحابة أمثالهم من التابعين، ومن بعدهم أضعاف أضعافهم وهلم جرًا، واجتمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف، ومن أحاديث الحوض ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ترد عليّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل عن إبله»، قالوا: يا رسول الله، تعرفنا؟، قال: «نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون عليّ غراً محجلين من آثار الوضوء»[(٤)].

وأما الكوثر فقد روى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه، قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءةً، ثم رفع رأسه متبسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟،

---

(١) رواه أحمد في المسند (١: ٢٨٢). الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٠). دون «يُسمع لك».

(٢) رواه أحمد في المسند (١: ٢٨٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٠). دون: «يُسمع لك».

(٣) رواه أحمد في المسند (٣: ٣٨٤). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٥٠٠). بمعناه.

(٤) رواه مسلم في الصحيح (٢١٧). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٤٢٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٩١٢٨).

قال: «أنزلت علي آنفاً سورة»، فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ - ٣]، ثم قال: «أتدرون ما هو الكوثر»، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنه نهر وعدنيه ربي عزَّ وجل»[(١)] الحديث.

وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟»[(٢)]، قال: هذا الكوثر. وذكر أحاديث كثيرة تتعلق بالكوثر، وقال: في آخرها قال الحافظ ابن كثير: «قد تواتر»، يعني حديث الكوثر، من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث، وكذلك أحاديث الحوض.

ومنها: أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته ﷺ، ومنها: أنه يشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، إلى غير ذلك مما يزيده الله تعالى به جلالة وتعظيماً وتبجيلاً وتكريماً على رؤوس الأشهاد، من الأولين والآخرين والملائكة أجمعين، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقد ساق أحاديث كثيرة في أنه ﷺ أول من تنشق عنه الأرض، وأنه سيد ولد آدم، وأنه حامل لواء الحمد تحته آدم فمن دونه.

وروى الدارمي والترمذي والبيهقي، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا آيسوا الكرامة. والمفاتيح يومئذٍ بيدي، ولواء الحمد يومئذٍ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي، يطوف عليّ ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور»[(٣)].

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلةً من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الصلاة: ٥٣). والنسائي في السنن (٢: ١٣٤). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٤٣). والبغوي في شرح السنة (٣: ٥٠). وابن كثير في التفسير (٨: ٥١٩). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٨).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٦: ٢١٠). وابن كثير في التفسير (٨: ٥٢٠).

(٣) رواه القاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٨). وابن كثير في التفسير (٧: ١٢). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٦٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٦). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٧٨:).

(٤) رواه الترمذي في السنن (٣١٤٨:). وابن ماجة في السنن (٤٣٠٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). =

وروى الترمذي وحسنه عن أنس قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «**أنا فاعل إن شاء الله**»، قلت: فأين أطلبك؟. قال: «**أول ما تطلبني على الصراط**»، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «**فاطلبني عند الميزان**»، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «**فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن**»[1].

وأما تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود فقد قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، واتفق المفسرون على أن كلمة عسى من الله واجب، والراجح في تفسير المقام المحمود قال الفخر الرازي: وأجمع عليه المفسرون أنه مقام الشفاعة، ووردت الأخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى، كما في البخاري من حديث ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ عن المقام المحمود، فقال: «**هو الشفاعة**»[2]. وقال حذيفة: يجمع الله الناس في صعيد واحد، فلا تكلم نفس فأول مدعو محمد ﷺ، فيقول: «**لبيك، وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهتدي من هديت، وعبدك بين يديك، وبك، وإليك، ولا ملجأ منك إلا إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت**»[3].

وذكر أحاديث كثيرة في الشفاعة وأقوالاً أخرى في المقام المحمود، ومنها حديث البخاري ومسلم الطويل الشهير في الشفاعة العظمى: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد الناس يوم القيامة هل تدرون مم ذلك**»[4] الحديث.

وذكر كرب الناس الشديد، وشدة غضب الله تعالى، والتجاؤهم إلى سادات الرسل واحداً بعد واحد للشفاعة، وكل يذكر ذنباً، ويقول: نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، ويحيلهم على من بعده، إلى أن يصلوا إلى سيدنا عيسى عليه السلام فيقول لهم كذلك: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ألا ترى ما نحن فيه؟ اشفع لنا إلى

= والحاكم في المستدرك (٢: ٤٦٥). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ١٩٨. وابن حجر في فتح الباري (١١: ٤٣٣). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٤٤٢).

(١) رواه الترمذي في السنن (٢٤٣٣). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٩٥). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٧٠). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٥).

(٢) رواه ابن حجر في فتح الباري (١١: ٢٤٧). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ١٩٧).

(٣) رواه أحمد في المسند (١٢٢).

(٤) رواه مسلم في الصحيح (١٤٨). وفيه: «بِمَ ذلك».

ربك. قال رسول الله ﷺ: «فانطلق، فآتي تحت العرش، فاقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعط، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»[1]. وفي مسند البزار فأقول: «يا رب عجل على الخلق الحساب».

وذكر الأنبياء لأنفسهم ذنوباً في الاعتذار، وهي في الحقيقة صورة ذنوب لا ذنوب حقيقية. وذكر أحاديث أخرى في معنى الشفاعات، لم أر ضرورة لنقلها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم، سمعهم يتذاكرون، قال: فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً، اتخذ إبراهيم خليلاً. وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى، كلمه تكليماً، وقال آخر: فعيسى روح الله، وقال آخر: فآدم اصطفاه الله، فخرج عليهم ﷺ فسلّم وقال: «قد سمعت كلامكم وعجبكم، إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وهو كذلك، وموسى كليماً وهو كذلك، وعيسى روح الله وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، إلا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة، ولا فخر وأنا أول شافع، وأول مشفع، ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على ربي ولا فخر»[2]، رواه الترمذي.

وأما تفضيله ﷺ بالوسيلة والدرجة الرفيعة والفضيلة، فروى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، إن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإن من صلى عليّ صلاة، صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عبادالله، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»[3]، قال الحافظ ابن كثير: الوسيلة علم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، ولما كان رسول الله ﷺ

---

(١) رواه أحمد في المسند (١: ٢٨٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٠). دون: لا يُسمع لك».

(٢) رواه الترمذي في السنن (٣٦١٦). والدارمي في السنن (١: ٢٦). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٦). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٦٢) والسيوطي في الدر المنثور (٢: ٢٣).

(٣) رواه مسلم في الصحيح (الصلاة: ١١). وأبو داود في السنن (٥٢٣). والترمذي في السنن (٣٦١٤). والنسائي في السنن (٢: ٢٥). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١: ٣١٢). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٦: ٤١٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٠٩٩٨).

أعظم الخلق عبودية لربه، وأعلمهم به وأشدهم له خشية، وأعظمهم له محبة، كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله تعالى، وهي أعلى درجة في الجنة، وأمر ﷺ أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء الزلفى، وزيادة الإيمان وأيضاً فإن الله تعالى قدرها له ﷺ بأسباب: منها دعاء أمته له بها بما نالوه على يده من الهدى والإيمان. وأما الفضيلة فهي المرتبة الزائدة على سائر الخلائق، ويحتمل أن تكون منزلة أخرى.

ثم قال في المواهب، وانظر قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد:٢٩]، وطوبى اسم شجرة غرسها الله بيده، أي قدرته، تنبت الحلي والحلل، وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة، وإن أصلها في دار النبي ﷺ، وفي دار كل مؤمن منها غصن، فما من جنة من الجنان إلا وفيها من شجرة طوبى، ليكون سر كل نعيم، ونصيب كل ولي من سره ﷺ، وإنه ﷺ ملأ الجنة، فلا ولي يتنعم في جنته إلا والرسول ﷺ متنعم بنعمته، لأن الولي ما وصل إلى ما وصل إليه من النعيم إلا باتباعه لنبيه ﷺ، فلهذا كان سر النبوة قائماً به في تنعمه، وكذلك إبليس ملأ النار، فلا عذاب لأحد من أهلها إلا وإبليس لعنه الله سر تعذيبه، ومشارك له فيه.

وفي البحر لأبي حيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦]، قيل هي عين في دار رسول الله ﷺ تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين.

قال في المواهب: وإذا علمت هذا فاعلم أن أعظم نعيم الجنة وأكمله التمتع بالنظر إلى وجه الرب تبارك وتعالى ورسوله ﷺ، وقرة العين بالقرب من الله ورسوله، مع الفوز بكرامة الرضوان التي هي أكبر من الجنان وما فيها، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، ولا ريب إن الأمر أجل مما يخطر ببال، أو يدور في خيال، ولا سيما عند فوز المحبين في روضة الأنس وحظيرة القدس، بمعية محبوبهم الذي هو غاية مطلوبهم، فأي نعيم، وأي لذة، وأي قرة عين، وأي فوز، يداني تلك المعية ولذتها، وقرة العين بها، وهل فوق نعيم قرة العين بمعية الله ورسوله نعيم؟ فلا شيء، والله أجل، ولا أكمل، ولا أجمل، ولا أجلى، ولا أحلى، ولا أعلى، ولا أغلى من حضرة يجتمع فيها المحب بأحبابه في مشهد مشاهد الإكرام، حيث يتجلى لهم حبيبهم ومعبودهم الإله الحق جل جلاله خلف حجاب واحد باسمه الجليل اللطيف، فينفهق[1] عليهم نور يسري في ذواتهم فيبهتون من جمال الله تعالى، وتشرق ذواتهم بنور ذلك الجمال الأقدس بحضرة الرسول الأنفس ﷺ، ثم يرفع الحجاب، ويتجلى لهم تعالى، فيخرون سجداً، فيقول لهم عزَّ وجل: «ارفعوا رؤوسكم، فليس هذا

---

(١) ينفهق: من الفَهْق وهو الامتلاء والاتّساع. [لسان العرب، مادة: فهق].

موضع سجود، يا عبادي، ما دعوتكم إلا لتتمتعوا بمشاهدتي، يا عبادي، قد رضيت عنكم، فلا أسخط عليكم أبداً».

فما أحلاها من كلمة، وما ألذها من بشرى، فعندها يقولون: «**ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ، وَأَدْخَلَنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ، لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ، وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ، وَأَوْرَثَنَا ٱلأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ، فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ، دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ٱللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُم فِيهَا سَلاَمٌ، وَآخِرُ دَعْوَاهُم أَنِ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**».

ومنهم الإمام العارف بالله سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني(١) المتوفى سنة ٩٧٣ هـ

ومن جواهره رضي الله عنه

[ثبوت رسالة النبي ﷺ]

ما ذكره في كتابه اليواقيت والجواهر في المبحث الثالث والثلاثين منه، في ثبوت رسالة نبينا محمد ﷺ، وبيان أنه أفضل خلق الله على الإطلاق، وغير ذلك ذكر نقولاً كثيرة في هذا الشأن، وكثير منها من الفتوحات المكية، نقلت معظمها فيما تقدم عن سيدي محيي الدين في الفتوحات، ولذلك تركت هنا كثيراً مما نقله عنه وأثبت فوائد أخرى ذكرها الشعراني عن نفسه وعن غيره. وهي وإن تكرر شيء منها مع ما ذكرته قبلاً فهو قليل.

قال رضي الله عنه: اعلم أن رسالة محمد ﷺ ثابتة بالكتاب المعجز، والسنة، والإجماع وكذلك أجمعت الأمة على أنه بلغ الرسالة بتمامها وكمالها، وكذلك نشهد لجميع الأنبياء بأنهم بلغوا رسالات ربهم، وقد خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فحذر، وأنذر، وأوعد، وما خص بذلك أحد دون أحد، ثم قال: «ألا هل بلغت؟» فقالوا: بلغت يا رسول الله، فقال: «اللهم اشهد»(٢).

وقال رضي الله عنه: فإن قيل فما أول ما ظهر من الموجودات بعد فتق العمى؟ الجواب كما قاله الشيخ تقي الدين بن منصور: إن أول ما ظهر بعد فتق العمى هو محمد ﷺ، فاستحق بذلك الأولية للأوليات، فهو أبو الروحانيات كلها، كما كان آدم عليه الصلاة والسلام أبا

---

(١) هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي نسبة إلى محمد ابن الحنفية الشعراني من علماء المتصوفين. ولد بقلقشندة في مصر ونشأ بساقية أبي شعرة وإليها نسبته الشعراني.

(٢) رواه البخاري في الصحيح (١: ٣٨). ومسلم في الصحيح (القسامة٢٩). وابن ماجة في السنن (٣٩٣١). وأحمد في المسند (٣: ٨٠). والبيهقي في السنن الكبرى (٣: ٣٢٢). والبغوي في شرح السنة (٧: ٢١٦). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٦: ٥٨). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦: ١٦٤).

الجسمانيات كلها». قال: فإن قلت فما معنى قوله ﷺ كنت نبياً وآدم بين الماء والطين؟ والنبي هو المخبر عن الله، وكيف صح إخباره ﷺ قبل أن يخلق؟ وقبل وجود من يخبرهم؟

فالجواب: كما قاله الشيخ في الباب الخامس وثلاثمائة من الفتوحات، معناه أن رسول الله ﷺ كان يعرف ذاته بذاته بإذن الله في غير مجلى قبل أخذ الميثاق، وهو الحال التي كان فيها ﷺ يعرف نبوته، وذلك قبل خلق آدم كماأشار إليه الحديث المذكور، فكان له ﷺ التعريف في ذلك الحال. فإن النشأة الإنسانية كانت مبثوثة في العناصر ومراتبها إلى حين وجودها، لكن من الناس من أعطى في ذلك الموطن شهود نفسه، ومرتبته إما على غاياتها بكمالها، وإما بأن يشهد صورة ما من صوره، وهي عين تلك المرتبة التي له في الدنيا، فيعلمها ليحكم على نفسه بها، وهنا شاهد ﷺ نبوته، ولا ندري هل شهد صور جميع أحواله أم لا، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ [فصلت:١٢]، فما من فلك من الأفلاك التسعة إلا وللإنسان صورة فيه، فيحفظها ذلك الفلك إلى وصول وقتها، فوجودها كوجود الصورة الواحدة في المرائي الكثيرة المختلفة الأشكال من طول وعرض، واستقامة وتعويج، واستدارة وتربيع، وتثليث، وصغر وكبر، فتختلف صور الأشكال باختلاف المجلى، والعين واحدة فلذلك قلنا أنه ﷺ كان يعرف ذاته بذاته من غير مجلى بإذن الله تعالى، وإذا كان بهذه المثابة لم تؤثر فيه المراتب إذا نالها قال ﷺ وهو في المرتبة العليا: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1]، فلتحكم فيه المرتبة، وقال في وقت آخر وهو في مرتبة الرسالة والخلافة: «**إنما أنا بشر مثلكم**»[2].

فلم تحجبه المرتبة عن معرفة نشأته، وسبب ذلك أنه رأى لطيفة ناظرة إلى مركبها العنصري وهو متبدد فيها، فشاهد ذاته العنصرية، فعلم أنها تحت قوة الأفلاك العلوية، ورأى المشاركة بينها وبين سائر الخلق الأناسي والحيوان والنبات والمعدن، فلم ير لنفسه من حيث نشأته العنصرية فضلاً على أحد ممن تولد عنها، بل رأى نفسه مثلاً لهم ورآهم أمثالاً له فقال: «**إنما أنا بشر مثلكم**»[3]، وكان يتعوذ من الجوع، فما افترق عنا إلا بقوله يوحى إليّ، فقد عرفت معنى قوله ﷺ: كنت نبياً وآدم بين الماء والطين، وإن هذا القول إنما كان بلسان تلك

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (المساجد: ٩٢). والربيع بن حبيب في المسند (٢: ٤٦). والشافعي في المسند (٢٦٥). وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٤٥).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (المساجد: ٩٢). والربيع بن حبيب في المسند (٢: ٤٦). والشافعي في المسند (٢٦٥). وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٤٥).

(٣) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٣١٠). وفيه: «نور نبيك يا جابر».

الصورة التي هو فيها مما هو معدود من صور تلك المراتب فترجم لنا في هذه الدار عن تلك الصورة.

فإن قلت: فهل أعطي أحد النبوة وآدم بين الماء والطين غير محمد ﷺ؟ فالجواب لم يبلغنا أن أحداً أعطي ذلك، إنما كانوا أنبياء أيام رسالتهم المحسوسة.

فإن قلت: فلم قال كنت نبياً وآدم بين الماء والطين، ولم يقل كنت إنساناً، أو كنت موجوداً؟

فالجواب: إنما خص النبوة بالذكر دون غيرها، إشارة إلى أنه أعطي النبوة قبل جميع الأنبياء، فإن النبوة لا تكون إلا بمعرفة الشرع المقدر عليه من عند الله تعالى.

فإن قلت: فما معنى قولهم إنه ﷺ أول خلق الله؟ هل المراد به خلق مخصوص، أو المراد به الخلق على الإطلاق؟.

فالجواب: كما قاله الشيخ في الباب السادس: إن المراد به خلق مخصوص وذلك أن أول ما خلق الله الهباء، وأول ما ظهر فيه حقيقة محمد ﷺ قبل سائر الحقائق.

وإيضاح ذلك: أن الله تبارك وتعالى لما أراد بدء ظهور العالم على حد ما سبق في علمه انفعل العالم عن تلك الإرادة المقدسة بضرب من تجليات لتزيه إلى الحقيقة الكلية، فحدث الهباء، وهو بمنزلة طرح البنّاء الجص ليفتتح فيه من الأشكال والصور ما شاء، وهذا هو أول موجود في العالم، ثم إنه تعالى تجلى بنوره إلى ذلك الهباء والعالم كله فيه بالقوة، فقبل منه كل شيء في ذلك الهباء على حسب قربه من النور، كقبول زوايا البيت نور السراج، فعلى حسب قربه من ذلك النور يشتد ضوءه وقبوله، ولم يكن أحد أقرب إليه من حقيقة محمد ﷺ فكان أقرب قبولاً من جميع ما في ذلك الهباء، فكان ﷺ مبدأ ظهور العالم وأول موجود.

ثم قال: فعلم كما قاله الشيخ محيي الدين في الفتوحات، إن مستمد جميع الأنبياء والمرسلين من روح محمد ﷺ، إذ هو قطب الأقطاب، فهو ممد لجميع الناس أولاً وآخراً، فهو ممد كل نبي وولي سابق على ظهوره حال كونه في الغيب، وممد أيضاً لكل ولي لاحق به، فيوصله بذلك الإمداد إلى مرتبة كماله في حال كونه موجوداً في عالم الشهادة وفي حال كونه متنقلاً إلى الغيب الذي هو البرزخ والدار الآخرة، فإن أنوار رسالته ﷺ غير منقطعة عن العالم من المتقدمين والمتأخرين.

فإن قلت: قد ورد في الحديث: «أول ما خلق الله نوري». وفي رواية: «أول ما خلق الله العقل» فما الجامع بينهما؟.

فالجواب: إن معناهما واحد، لأن حقيقة محمد ﷺ تارة يعبر عنها بالعقل الأول، وتارة بالنور.

فإن قلت: فما الدليل على كونه ﷺ ممد الأنبياء السابقين في الظهور عليه من القرآن؟.

فالجواب: من الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، أي أن هداهم هو هداك الذي سرى إليهم منك في الباطن فإذا بهداهم فإنما ذلك اهتداء بهداك، إذ الأولية لك باطناً والآخرية لك ظاهراً، ولو أن المراد بهداهم غير ما قررنا، لقال تعالى له ﷺ فبهم اقتده وتقدم حديث: «**كنت نبياً وآدم بين الماء والطين**»[1]، فكل نبي تقدم على زمن ظهوره ﷺ فهو نائب عنه في بعثته بتلك الشريعة، ويؤيد ذلك قوله ﷺ في حديث: «**وضع الله تعالى يده بين ثديي**»، أي كما يليق بجلاله فعلمت علم الأولين والآخرين أن المراد بالأولين هم الأنبياء الذين تقدموه في الظهور عند غيبة جسمه الشريف، وإيضاح ذلك أنه ﷺ أعطي العلم مرتين: مرة قبل خلق آدم عليه السلام، ومرة بعد ظهور رسالته ﷺ، كما أنزل عليه القرآن أولاً من غير علم جبريل، ثم نزل عليه به جبريل مرة أخرى، ولذلك قال تعالى له: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ [طه: ١١٤]. أي لا تعجل بتلاوة ما عندك منه قبل أن تسمعه من جبريل، بل اسمعه من جبريل وأنت منصت إليه كأنك ما سمعته قط، وقد عملت التلامذة الموفقون بذلك مع أستاذيهم. ذكر ذلك الشيخ في الباب الثاني عشر من الفتوحات وفي غيره من الأبواب.

قال بعده الإمام الشعراني قلت وفي تصريح الشيخ بأن القرآن أنزل على رسول الله ﷺ قبل جبريل، نظر ولم أطلع على ذلك في حديث فليتأمل، فإن قلت: فإذاً روح محمد ﷺ هي روح عالم الخير كله، وهي النفس الناطقة فيه كله.

الجواب: نعم والأمر كذلك كما ذكره الشيخ في الباب السادس والأربعين وثلاثمائة. فحال العالم المذكور قبل ظهوره ﷺ بمنزلة الجسد السوي، وحاله بعد موته ﷺ بمنزلة النائم، وحال العالم حين يبعث ﷺ يوم القيامة بمنزلة الانتباه من النوم فالعالم اليوم كله نائم من حين مات رسول الله ﷺ إلى أن يبعث.

ثم بعد أن ذكر فوائد تقدم نقلها تتعلق بأفضليته ﷺ على آدم وإبراهيم وموسى وعيسى

---

(١) رواه السيوطي في الدرر المنتثرة (١١٢٦). وابن العراق في تنزيه الشريعة (٢: ٣٤١). والفتني في تذكرة الموضوعات (٨٦). والعجلوني في كشف الخفا (٢: ١٩١). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٧١).

وغيرهم من النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، قال: فإن قلت قوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس»(١). الحديث، هل هو منسوخ أو قاله تواضعاً؟.

فالجواب: هو تواضع منه ﷺ، وإلا فهو يعلم أنه أفضل خلق الله تعالى، وذلك ليصح له تمام الشكر، فإنه أشكر خلق الله تعالى لله، ولا يكون ذلك إلا بمعرفته كل ما أنعم الله به عليه، فافهم، ومعنى الحديث «لا تفضلوني» من ذوات نفوسكم لجهلكم بالأمر، وليس معناه لا تفضلوني مطلقاً، فإن من فضله ﷺ بتفضيل الله عزَّ وجل له فقد أصاب.

فإن قلت: فهل للعارف أن يفضله ﷺ بحسب ما تحتمله الألفاظ؟.

فالجواب نعم له ذلك، ولكن الكامل لا يعتمد في جميع ما يقوله إلا على ما يلقيه الله تعالى عنده، لا على ما تحتمله الألفاظ والله أعلم.

فإن قلت فهل جميع مقاماته ﷺ تورث لاتباعه من الأنبياء والأولياء، أم يختص ﷺ بمقامات لا يصح لأحد منهم أن يرثها منه؟.

فالجواب: كما قاله الشيخ في الباب السابع والثلاثين وثلاثمائة، يختص ﷺ بمقامات لا يشاركه فيها أحد من الأنبياء، ثم عد منها الإمام الشعراني ما نقلته عن سيدي محي الدين فيما نقلته عنه فيما تقدم فلا حاجة لإعادته، ثم تكلم على لواء الحمد والوسيلة ومنزلة النبي ﷺ يوم الموقف الأعظم بما تقدم أيضاً.

ومن جواهر العارف الشعراني أيضاً

[قصة إسرائه ﷺ في كتاب اليواقيت]

قوله رضي الله عنه في المبحث الرابع والثلاثين من كتابه المذكور في بيان صحة الإسراء وتوابعه: اعلم أن الأصل في قصة الإسراء قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

قال الشيخ محيي الدين والضمير في قوله إنه راجع إلى رسول الله ﷺ، لا إلى الباري جلَّ وعلا، وأطال في ذلك ثم قال: فما نقل الحق تعالى محمداً ﷺ من مكان إلى مكان إلا

---

(١) رواه القاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٢٦٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢: ١٠٥). ومناهل الصفا للحمزاوي (٢٢).

ليريه ما خص تعالى به ذلك المكان من الآيات والعجائب الدالة على قدرته تعالى، من حيث وصف خاص لا يعلم من الله تعالى إلا بتلك الآية كأنه تعالى يقول ما أسريت بعبدي إلا لرؤية الآيات لا إليّ لأنه لا يحويني مكان، ونسبة الأمكنة إليّ نسبة واحدة، وكيف أسري بعبدي إليّ وأنا معه حيث كان.

فإن قلت فما بقي إلا أن رؤية الملك في دسكرة ملكه وجنوده أعلى في التعظيم، وحصول الهيبة من رؤيته وهو متنكر، وإنما كان تعالى لا يحويه المكان، لأن المكان المعقول هو من سقف العرش إلى تخوم الأرض وذلك كالذرة بالنسبة لما فوق العرش.

ولما تحت التخوم، فإن صعد العرش إلى أبد الآبدين لا يجد بعده سقفاً، أو نزل العرش أبد الآبدين لا يجد له أرضاً، ومن رأى الوجود هذه الرؤية بمد في القول بالجسمية تعالى الله رب العالمين عن ذلك.

ثم بعد أن ذكر قصة المعراج كما قدمته عن سيدي محيي الدين في محله قال: فإن قلت: فهل ثم في المعراج إلى السماء بالجسم أو الروح فائدة أخرى غير رؤية الآيات؟

فالجواب: نعم، منها أنه إذا مر على حضرات الأسماء الإلهية صار متخلقاً بصفاتها، فإذا مر على الرحيم كان رحيماً أو على الغفور كان غفوراً أو على الكريم كان كريماً أو على الحليم كان حليماً أو على الشكور كان شكور أو على الجواد كان جواداً، وهكذا فما يرجع من ذلك المعراج إلا وهو في غاية الكمال، ومنها شهود الجسم الواحد في مكانين في آن واحد كما رأى محمد ﷺ نفسه في أشخاص بني آدم السعداء حين اجتمع بآدم في السماء الأولى، ثم قال تعالى في حق سيد العبيد على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١]، فأقامه في العبودية المطلقة، ونزع منه الدعوى والربوبية على شيء من العالم، وجرده عن كل شيء حتى عن الإسراء، وجعله يسري به، وما أضاف السري إليه، فإنه لو قال سبحان الذي دعا عبده لأن يسري إليه، أو إلى رؤية آياته، لكان له تعالى أن يقول ذلك، ولكن المقام لا يقتضي ذلك فجعله مجبوراً لاحظ له ﷺ في الدعوى لفعل من الأفعال.

ومن فوائد الإسراء أيضاً التنويه بشرف مقام رسول الله ﷺ ومدحه نظير تمدحه تعالى بالاستواء على العرش والثناء بذلك على نفسه عزَّ وجل، فإن العرش أعظم الأجسام لاحتوائه على جميع الموجودات، فما فوقه سقف في العلو، ولا أرض في السفل، وإنما خص الاستواء به لأنه غاية مطمح أبصار المؤمنين.

وأما العارفون من الأنبياء وكمل أتباعهم فيرون هذا العرش بالنسبة لاتساع الوجود

كالذرة الطائرة في الهواء ليس لها سقف ترسي عليه ولا أرض تنزل عليها فسبحان من لا يعرف قدره غيره.

وقال الشيخ محيي الدين في الباب السادس عشر وثلاثمائة، اعلم أنه لما كان الاستواء على العرش تمدحاً لله عزَّ وجل جعل الله تعالى لنبيه ﷺ كذلك نسبة على طريق التمدح عليه، حيث كان العرش أعلى مقام ينتهي إليه من أسري به من الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال: وهذا يدل على أن الإسراء كان بجسمه ﷺ، ولو كان الإسراء رؤيا لما كان الإسراء، ولا الوصول إلى هذا المقام تمدحاً، ولا وقع من الأعراب في حقه إنكار على ذلك، لأن الرؤيا يصل الإنسان فيها إلى مرتبة رؤية الله تعالى، وهي أشرف الحالات، ومع ذلك فليس لها ذلك الموقع من النفوس، إذ كل إنسان، بل كل حيوان، له قوة الرؤيا.

قال: وإنما قال ﷺ على سبيل التمدح: «**حتى ظهرت لمستوى سمعت فيه صريف الأقلام**» وأتى بحرف الغاية الذي هو حتى إشارة لما قلناه من أن منتهى السير بالقدم المحسوس العرش والله تعالى أعلم.

ومن جواهر العارف الشعراني أيضاً

[أنه ﷺ خاتم النبيين]

قوله رضي الله عنه في المبحث الخامس والثلاثين اعلم أن الإجماع قد انعقد على أنه ﷺ خاتم المرسلين، كما أنه خاتم النبيين وإن كان المراد بالنبيين في الآية هم المرسلين. وعبارة الشيخ محيي الدين في الباب الثاني والستين وأربعمائة من الفتوحات، قد ختم الله تعالى بشرع محمد ﷺ جميع الشرائع، فلا رسول بعده يشرع ولا نبي بعده يرسل إليه بشرع يتعبد به في نفسه، إنما يتعبد الناس بشريعته ﷺ إلى يوم القيامة.

ثم قال: وقال الشيخ أيضاً في الباب الحادي والعشرين من الفتوحات: من قال إنَّ الله تعالى أمره بشيء فليس ذلك بصحيح، إنما ذلك تلبيس لأن الأمر من قسم الكلام وصفته وذلك باب مسدود دون الناس، فإنه ما بقي في الحضرة الإلٰهية أمر تكليفي إلا وهو مشروع، فما بقي للأولياء وغيرهم إلا سماع أمرها، ولكن لهم المناجاة الإلٰهية، وتلك لا أمر فيها، وإنما هو حديث وسمر، وكل من قال من الأولياء أنه مأمور بأمر إلٰهي في حركاته وسكناته مخالف لأمر شرعي محمدي تكليفي، فقد التبس عليه الأمر وإن كان صادقاً فيما قال أنه سمعه فليس ذلك عن الله وإنما هو عن إبليس، فظن أنه عن الله لأن إبليس قد أعطاه الله تعالى أن يصور عرشاً وكرسياً وسماءً ويخاطب الناس منه، فقد بان لك أن أبواب الأرامر الإلٰهية والنواهي قد سدت

وكل من ادعاها بعد محمد ﷺ فهومدع شريعة أوحي بها إليه، سواء وافق شرعنا أو خالف، فإن كان مكلفاً ضربناعنقه وإلا ضربنا عنه صحفاً.

فإن قيل فهل كان قبل بعثة رسول الله ﷺ تحجير في ادعاء النبوة؟ فالجواب: لم يكن في ادعائها تحجير. ولذلك قال العبد الصالح خضر عليه السلام وما فعلته عن أمري فإن زمانه أعطى ذلك وهو على شريعة من ربه أوحي إليه بها على لسان ملك الإلهام، وقيل بلا واسطة، وقد شهد له الحق تعالى بذلك عند موسى، وعندنا، وزكاه.

وأما اليوم فإلياس والخضر عليهما السلام على شريعة محمد ﷺ، إما بحكم الوفاق، وإما بحكم الاتباع وعلى كل حال فلا يكون لهما ذلك إلا على سبيل التعريف، لا على طريق النبوة، وكذلك عيسى عليه السلام إذا نزل إلى الأرض لا يحكم فينا إلا بشريعة سيدنا محمد ﷺ، يعرّفه الحق تعالى بها على طريق التعريف، وإن كان نبياً.

واعلم أن أمر الحق عزَّ وجل حكمه العموم إلا أن يخصه دليل وقد قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[النساء:٥٩] فلم يجعل لأحد بعد بعثة محمد ﷺ أن يخالف شرعه إنما أوجب عليه الاتباع، وجعل لمحمد ﷺ أن يشرع فيأمر وينهي.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩][(١)]، فالمراد بطاعتنا لهم فيما إذا أمرونا بمباح ونهونا عنه، لا أنهم يشرعون لنا شريعة تخالف شرع محمد ﷺ الثابت، فإذا أمرونا بمباح أو نهونا عنه فأطعناهم فقد أجرنا في ذلك أجر من أطاع أمر الله تعالى فيما أوجبه من أمر ونهي، وهذا من كرم الله تعالى بنا ولا يشعر به غالب الناس بل ربما استهزؤا به والله أعلم.

فإن قلت فما الحكم في تشريع المجتهدين؟

فالجواب: إن المجتهدين لم يشرعوا شيئاً من عند أنفسهم، وإنما شرعوا ما اقتضاه نظرهم في الأحكام فقط من حيث أنه ﷺ قرر حكم المجتهدين، فصار حكمه من جملة شرعه الذي شرعه فإنه ﷺ هو الذي أعطى المجتهد المادة التي اجتهد فيها من الدليل، ولو قدر أن المجتهد شرع شرعاً لم يعطه الدليل الوارد عن الشارع، رددناه عليه، لأنه شرع لم يأذن به الله والله أعلم.

قال الإمام الشعراني بعد ما ذكر ومما يؤيد كون محمد ﷺ أفضل من سائر المرسلين وأنه خاتمهم، وكلهم يستمدون منه.

---

(١) وردت في الأصل: ﴿أولو الأمر منكم﴾ في حين أنها لم ترد في القرآن بهذا اللفظ، بل الصحيح ما أثبتناه في المتن.

ما قاله الشيخ في علوم الباب الثاني والتسعين وأربعمائة، من أنه ليس لأحد من الخلق علم يناله في الدنيا والآخرة، إلا وهو من باطنية محمد ﷺ، سواء الأنبياء والعلماء المتقدمون على زمن بعثته والمتأخرون عنها، وقد أخبرنا ﷺ بأنه أوتي علم الأولين والآخرين ونحن من الآخرين بلا شك، وقد عم محمد ﷺ الحكم في العلم الذي أوتيه، فشمل كل علم منقول ومعقول ومفهوم وموهوب، فاجهد يا أخي أن تكون ممن يأخذ العلم بالله تعالى عن نبيه ﷺ، فإنه أعلم خلق الله بالله على الإطلاق، وإياك أن تخطئ أحداً من علماء أمته من غير دليل، وهذا سر نبهتك عليه فاحتفظ به، ولا تقل حجرت واسعاً، وتقول قد يعطي الله تعالى عبده من الوجه الخاص الذي بين كل مخلوق وبين ربه عزَّ وجل من غير واسطة محمد ﷺ ما شاء من العلوم بدليل قصة الخضر عليه السلام مع موسى الذي هو رسول زمانه، لأنا نقول نحن ما حجرنا عليك أن لا تعلم مطلقاً وإنما حجرنا عليك أن يكون لك علم ذلك، إلا من باطنية محمد ﷺ شعرت بذلك، أم لم تشعر.

قال الشيخ ووافقنا على ذلك الإمام أبو القاسم بن قسي في كتابه خلع النعلين، وهو من روايتنا عن ابنه عنه بتونس سنة ٥٩٠ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن جواهر العارف الشعراني أيضاً

[إرساله إلى الخلق كافة]

قوله رضي الله عنه في المبحث السادس والثلاثين قد ورد في صحيح مسلم وغيره: «وأرسلت إلى الخلق كافة»[1]، وفسره بالإنس والجن، كما فسروا بهما أيضاً من بلغ في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي بلغه القرآن، وكما فسروا بذلك أيضاً العالمين في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، قاله الجلال المحلي رحمه الله.

ثم قال: والحاصل أن كلام الأصوليين يرجع إلى قولين:

الأول: أنه ﷺ أرسل إلى الملائكة.

والثاني: لم يرسل إليهم.

والذي صححه السبكي وغيره أنه أرسل إليهم وزاد البارزي رحمه الله أنه ﷺ أرسل إلى

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢: ٤١٢).

الحيوانات والجمادات والشجر والحجر، ذكره الجلال السيوطي في أوائل كتاب الخصائص، ونقل أيضاً عن السبكي أنه كان يقل أن محمداً ﷺ نبي الأنبياء، فهو كالسلطان الأعظم، وجميع الأنبياء كأمراء العساكر، ولو أدركه جميع الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، إذ هو ﷺ مبعوث إلى جميع الخلق من لدن آدم إلى قيام الساعة، فكانت الأنبياء كلهم نوابه مدة غيبة جسمه الشريف، وكان كل نبي يبعث بطائفة من شرعه ﷺ لا يتعداها، وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: كان ﷺ مبعوثاً إلى الخلق أجمعين في عالم الأرواح الأجسام من لدن آدم إلى قيام الساعة. وسمعته يقول: الملائكة على ثلاثة أقسام:

قسم أرسل إليهم محمد ﷺ بالأمر والنهي معاً وهم الملائكة الأرضيون وما بين الأرض والسماء الأولى.

وقسم أرسل إليهم بالأمر فقط وهم ملائكة السموات فإنهم لا يذوقون للنهي طعماً، إنما هم في الأمر فقط قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقسم لم يرسل إليهم أصلاً لا بأمر ولا نهي، وهم الملائكة العالون المشار إليهم بقوله تعالى لإبليس [استفهام][1] إنكار: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٣٨] فإن هؤلاء الملائكة عابدون لله تعالى بالذات التي جبلهم عليها، لا يحتاجون إلى رسول، بل هم مهيمون في جلال الله تعالى، لا يعرفون أن الله تعالى خلق آدم ولا غيره.

قال بعده الإمام الشعراني: فليتأمل القسم الأول ويحرر، فإنه غريب في كلامهم والله أعلم. ونقل بعده عن شيخه الخواص والعارف القاشاني: أن ملائكة الأرض غير معصومين، ولذلك أرسل إليهم النبي ﷺ بالأمر والنهي. ثم قال بعد عبارة القاشاني، قال بعضهم، ولعل مراده بهؤلاء الملائكة القاطنين بين السماء والأرض نوع من الجن سماهم ملائكة اصطلاحاً له.

ومن جواهر العارف الشعراني أيضاً

[وجوب الطاعة والإذعان لما جاء به ﷺ]

قوله رضي الله عنه في المبحث السابع والثلاثين في بيان وجوب الإذعان والطاعة لكل ما جاء به ﷺ من الأحكام وعدم الاعتراض على شيء منه، اعلم أنه يجب على كل مؤمن أن

---

(١) في الأصل: «استفهم» ولعل هذا تحريف.

ينشرح لكل ما شرعه رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، قال وقد ذكر الشيخ محيي الدين أواخر الحج من الفتوحات ما نصه، إياك أن ترى أموراً قد أباحها الشارع ﷺ فتكره ذلك ويقع في نفسك من فعلها حزازة، وتقول لو أن الحكم لي فيها لحجرتها وحرمتها على الناس، فترجح نظرك في ذلك على نظر الشارع، وتجعل نفسك أرجح ميزاناً منه وتنخرط في سلك الجاهلين. قال: وهذا واقع كثير من بعض الناس الذين لم يمارسوا الأدب مع الشارع ﷺ، فيغضب على الناس إذا فعلوا بعض المباحات التي أباحها الشارع.

ويقول: إذا عجز عن كف الناس عنها، أي شيء أصنع هذا قد أباحه الشارع، ومن يقدر يتكلم فتراه يصبر على حنق وكره في نفسه على استعمال الناس شرع ربهم، وهذا من أعظم ما يكون من سوء الأدب، وصاحبه ممن أضله الله على علم قال: وقد ظهر ذلك من بعض الناس في العصر الأول، وأما اليوم فقد فشا في غالب الناس، ويقولون لو أدرك ذلك رسول الله ﷺ لمنع الناس منه، ونحن نعلم أن الشارع هو الله تعالى ولا يعزب عن علمه شيء، ولو كانت إباحة ذلك الأمر خاصة بقوم دون آخرين لبينها تعالى على لسان رسول ﷺ، فإنه ﷺ مبلغ عن الله أحكامه فيما أراده الله تعالى لا ينطق قط عن هوى نفسه، ولا ينسى شيئاً مما أمره بتبليغه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] [و] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وما قرر الله تعالى من الشرائع إلا ما تقع به المصلحة في العالم، فلا يزاد فيه ولا ينقص منه، ومهما زيد فيه، أو نقص منه، أو لم يعمل بما قرره الشارع، فقد اختل نظام المصلحة المقصودة للشارع فيما نزله وقدره من الأحكام.

ومن جواهر العارف الشعراني أيضاً

[سيد ولد آدم]

قوله رضي الله عنه في المبحث السبعين في بيان أن نبينا محمداً ﷺ أول شافع يوم القيامة وأول مشفع وأولاه، فلا أحد يتقدم عليه، قال ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول شافع وأول مشفع»**[1] زاد في رواية: **«ولا فخر»**[2] قال العلماء وإنما خص يوم القيامة بالسيادة

(١) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). والترمذي في السنن (٣١٤٨:). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والقاضي عياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٩).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). والترمذي في السنن (٣١٤٨:). وأحمد في المسند (١: =

لأنه يوم ظهورها لكل أحد، كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] بخلاف شرفه ﷺ في الدنيا وسيادته فإنها لا تخلو من منازع.

قال: قال الشيخ محيي الدين: وإنما أخبرنا ﷺ بأنه أول شافع، وأول مشفع، شفقة علينا لنستريح من التعب الحاصل بالذهاب إلى نبي بعد نبي في ذلك اليوم العظيم وكل منهم يقول نفسي نفسي، فأراد إعلامنا بمقامه يوم القيامة لنصبر في مكاننا مستريحين حتى تأتي نوبته ﷺ ويقول: «أنا لها، أنا لها»[1]، فكل من لم يبلغه هذا الحديث أو بلغه ونسيه، لا بد من تعبه وذهابه إلى نبي بعد نبي بخلاف من بلغه ذلك، ودام معه إلى يوم القيامة فـ ﷺ ما أكثر شفقته على الأمة وإنما قال في آخر الحديث ولا فخر، أي لا أفتخر بكوني سيد ولد آدم من الأنبياء، فمن دونهم، وإنما قصدت بذلك راحتكم من التعب يوم القيامة بحكم الوعد السابق لي من الله عز وجل أن أكون أول شافع وأول مشفع، فما زكى ﷺ نفسه إلا لغرض صحيح، وكذلك تزكية جميع الائمة لأنفسهم، لا يكون إلا لغرض صحيح فإنهم منزهون عن رؤية فخر نفوسهم على أحد من الخلق. قال الجلال السيوطي وغيره وله ﷺ يوم القيامة ثمان شفاعات.

أولها: وأعظمها شفاعته ﷺ في تعجيل حساب الخلائق وإراحتهم من طول ذلك الموقف وهي مختصة به ﷺ.

ثانيها: في إدخال قوم الجنة بغير حساب قال النووي وهي مختصة به ﷺ.

ثالثها: فيمن استحق دخول النار أن لا يدخلها. وتردد النووي في كون هذه مختصة به ﷺ.

رابعها: في إخراج من أدخل النار من الموحدين حتى لا يبقى فيها أحد منهم وتخلو طبقتهم وينبت فيها الجرجير كما ورد، وهذه الشفاعة يشاركه ﷺ فيها الأنبياء والملائكة والمؤمنون، وقد حكى القاضي عياض في ذلك تفصيلاً فقال: إن كانت هذه الشفاعة لإخراج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فهي خاصة به ﷺ ليست لأحد من الأنبياء ولا الملائكة ولا المؤمنين وإن كانت لغير من ذكر فقد يشاركه في ذلك غيره ﷺ.

خامسها: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وجوز الإمام النووي رحمه الله اختصاص هذه به ﷺ.

سادسها: في جماعة من صلحاء أمته ﷺ ليتجاوز عنهم في تقصيرهم في الطاعات كما ذكره القزويني في العروة الوثقى.

= ٢٨١). والقاضي عياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٩).

(١) رواه ابن كثير في التفسير (٨: ٤٢١). وفي البداية والنهاية (١: ١٧١).

سابعها: فيمن خلد من الكفار في النار أن يخفف عنهم العذاب في أوقات مخصوصة جمعاً بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف:٧٥] كما ورد ذلك في الصحيحين في حق أبي طالب، وكما ذكره ابن دحية في حق أبي لهب من أنه يخفف عنه العذاب في كل يوم إثنين، لسروره بولادة رسول الله ﷺ، وإعتاقه ثويبة حين بشرته به ﷺ.

قال الجلال السيوطي رحمه الله تعالى: ولا يرد علينا شفاعته ﷺ لبعضهم أن يخفف عنه عذاب القبر لأن هذه شفاعة في المؤمنين، وفي البرزخ. وكلامنا إنما هو في شفاعته ﷺ يوم القيامة على وجه فيه عموم لسائر الموحدين ولغيرهم على وجه التخفيف فقط كما مر.

ثامنها: في أطفال المشركين أن لا يعذبوا.

وهذه الثلاث الأخيرة ذكرها بعضهم وأضاف إليها من دفن بالمدينة، رواه الترمذي وصححه. قال: قال الشيخ محيي الدين في الباب الأحد وسبعين وثلاثمائة: واعلم أن الشفاعة الأولى من محمد ﷺ تكون في فتح باب الشفاعة للناس، فيشفع في كل شافع أن يشفع فإذا شفع الشافعون قبل الحق تعالى من شفاعاتهم ما شاء ورد منها ماشاء.

قال: يبسط الله تعالى الرحمة ذلك اليوم في قلوب الشفعاء، فمن رد الله تعالى شفاعته من الشافعين في ذلك اليوم لا يردها انتقاصاً ولا عدم رحمة بالمشفوع فيه، وإنما أراد تعالى بذلك إظهار المنة الإلٰهية على بعض عبيده، فيتولى الله تعالى سعادتهم ويرفع الشقاء عنهم بإخراجهم من النار إلى الجنان بشفاعة الاسم أرحم الراحمين عند الاسم المنتقم والجبار فهي، أي شفاعة الحق تعالى مراتب أسماء إلٰهية لا شفاعة محققة، لأن الله تعالى يقول سبقت رحمتي غضبي، شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، وبقي أرحم الراحمين، فدل بالمفهوم أنه لم يشفع فيتولى بنفسه إخراج من شاء من عصاة الموحدين من النار إلى الجنة ويملأ الله تعالى جهنم بغضبه وعقابه كما يملأ الله الجنة برضاه ورحمته.

وقال في الباب الرابع والسبعين وثلاثمائة مانصه: اعلم أن لكل من أرحم الراحمين والملائكة والنبيين والمؤمنين جماعة مخصوصة يشفع فيهم، فشفاعة أرحم الراحمين خاصة بمن لم يعملوا خيراً قط غير توحيدهم لله عز وجل فقط، قال وهؤلاء هم الذين شهدوا مع شهادة الله والملائكة أنه لا إله إلا هو، وشفاعة الملائكة خاصة بمن كان على مكارم الأخلاق من العصاة، قال وتكون شفاعة الملائكة على الترتيب الذي جعله الله لهم وآخرهم شفاعة التسعة عشر التي على جهنم. وأما شفاعة النبيين فتكون في المؤمنين خاصة. والمؤمنون قسمان:

مؤمن عن نظر وتحصيل دليل، فالشافع فيه النبيون فإن الأنبياء جاؤوا بالخبر إلى الأمم والخبر هو متعلق الإيمان.

والقسم الثاني، مؤمن مقلد لما أعطاه أبواه وأهل الدار التي نشأ فيها، فالشافع في هذه المؤمنون الذين هم فوقه في الدرجة، بعد أن خلص هؤلاء الشافعون بأنفسهم ونجوا بشفاعة محمد ﷺ، ثم إن الشفعاء كلهم لا يشفعون إلا إذا انتهت مدة المؤاخذة لعصاة الموحدين.

وقال في الباب السابع والسبعين وثلاثمائة في قوله ﷺ: «**سُحقاً سُحقاً**»[1] في حق قوم ارتدوا على أدبارهم بعده ﷺ، وإنما قال ﷺ ذلك طلباً لموافقة الحق تعالى في غضبه عليهم، إذ العالم بالأمر لا يزيد على حكم ما يقضي به الوقت، فلهذا قال ﷺ مع شفقته ورحمته: «**سحقاً سحقاً**»[2]، ثم إنه ﷺ بعد زوال ذلك الحال يتلطف في المسألة ويشفع فيمن كادت تهوي به الريح في مكان سحيق، فهي شفاعة فيمن ارتد عن فعل شيء من فروض الإسلام لا فيمن ارتد عن أصل الدين.

وقال في الباب الثالث والسبعين إنما كان ﷺ صاحب المقام المحمود في الشفاعة يوم القيامة بين يدي الله عز وجل، لأنه أوتي جوامع الكلم، فيحمده في ذلك المقام الأولون والآخرون، ويرجع إلى مقامه ذلك جميع مقامات الخلائق، وكما كانت بعثته ﷺ عامة، وشريعته جامعة، لجميع الشرائع، كانت شفاعته كذلك عامة، فكما لا يخرج عن شريعته ﷺ عمل يصح أن يشرع، كذا لا يصح أن يخرج عن شفاعته أحد، وأطال في ذلك.

ثم قال في الجواب الثامن والسبعين من الباب السابق إنما سجد ﷺ يوم القيامة بين يدي الله عز وجل من غير أن يتقدمه إذن من الله عز وجل في ذلك السجود، لأن السجود في ذلك اليوم هو المأمور بالتكون في عين جسم محمد ﷺ، إذ هو طريق إلى فتح باب الشفاعة التي ليست لأحد غيره، فلذلك يتقدم محمد ﷺ بين يدي الرب جل وعلا كما يليق بجلاله في ذلك اليوم الأعظم، ويسجد من غير أمر ورد عليه بالسجود، فيقال له: ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع ﷺ.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢: ٤٠٨). والبيهقي في السنن الكبرى (٤: ٧٨). وابن حجر في فتح الباري (١٣: ٤).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢: ٤٠٨). والبيهقي في السنن الكبرى (٤: ٧٨). وابن حجر في فتح الباري (١٣: ٤).

ومن جواهر العارف الشعراني أيضاً

[الخلق كلهم بالنسبة إليه ﷺ كالعبيد والغلمان]

قوله رضي الله عنه في كتابه درر الغوّاص من فتاوى شيخه سيدي علي الخواص رضي الله عنهما ما نصه. وسألته رضي الله عنه في سنة ٩٤١: هل أدخل في حملات الناس أم امتنع؟ فقال: لا أرى الامتناع من ذلك إلا أولى لك، لأن غالب الناس قد استحقوا نزول البلاء والمحن والخسف والمسخ وإيش جهد ما تعمل، فقلت له قد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فقال: صحيح ولكن فيما يقدرون ثم قال: جميع الأولياء الأحياء والأموات قد تزحزحت أبوابهم للغلق وما بقي مفتوحاً إلا باب رسول الله ﷺ، فأنزل كل شيء توجه به الناس، إليك برسول الله ﷺ، فإنه شيخ الناس كلهم وحكم الخلق كلهم بالنسبة إليه كالعبيد والغلمان الذين في خدمته فهو يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون والله أعلم.

ومن جواهر العارف الشعراني أيضاً

[النبي ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق]

قوله رضي الله عنه في الباب الرابع عشر من كتابه المنن الكبرى: ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ، شهودي بنور الإيمان وسر الإيقان أن نبينا محمداً ﷺ أفضل خلق الله تعالى على الإطلاق، فلا أحد من أهل السموات وأهل الأرض يساويه في مقام من المقامات، ثم لا يتوقف على دليل في ذلك إلا من أعمى الله بصيرته وصار بصره كبصر الخفافيش، لأن نور شريعته ﷺ أضوأ من نور الشمس وقت الظهيرة، ويكفي في بيان فضله ﷺ إجماع أمته كلهم في سائر الأقطار على تفضيله على الأولين والآخرين بالبديهة من غير توقف، مع أن أحداً منهم لم يره، وإنما رأى شرعه وسمع هديه فقط، وقد قال ﷺ «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[1].

وقد وقع في سنة إحدى وأربعين وتسعمائة أن شخصاً زعم أن سيدنا إبراهيم عليه السلام أفضل من سيدنا محمد ﷺ، مستنداً إلى تعليمه ﷺ الصحابة كيفية الصلاة عليه في الصلاة، وقوله في حديث التشهد كما صليت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم، بناء على قاعدة أهل المعاني من أن المشبه به أعلى من المشبه، وغاب عن هذا الشخص أن المسألة واردة على

---

(١) رواه السيوطي في الدرر المنتثرة (١٨٠). والعجلوني في كشف الخفا (٢: ٤٨٨). والبغوي في شرح السنة (٦٨). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٨٦).

سبب، وذلك إن الصحابة لما قالوا: يارسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا؟ فقال: «**قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم**»[١]، إلى آخره، فالنكتة في قوله ﷺ كما صليت على إبراهيم كونه ﷺ مسؤولاً في تعليم الكيفية، وتأمل إذا قلت لإنسان من الأولياء والعلماء مثلاً علمني تحية أعظمك بها وأمدحك بها وأفضلك بها بين الناس، كيف لا يسعه إلا السكوت أو النطق بما فيه تواضع.

ولذلك جاء في حديث كعب ابن عجزة أنه قال: لما سألنا رسول الله ﷺ: كيف نصلي سكت، وتمعر وجهه، حتى تمنينا أن لم نكن سألناه، يعني من شدة حيائه ﷺ.

وقوله ﷺ «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع**»[٢]، صريح في تفضيله على جميع الخلق حتى آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم:٣] وانما تأدب ﷺ مع أبيه آدم، لأنه لا ينبغي للولد أن يقول: أنا أفضل من أبي. إلا فيما ورد به الإذن الالٰهي، كما في حديث «**آدم فمن دونه تحت لوائي**»[٣]، وقد انتصر علماء مصر وصنفوا مصنفات في الرد على هذا الشخص بتقدير ثبوت ذلك عنه، كسيدي محمد البكري، وسيدي محمد الرملي، والشيخ ناصر الدين الطبلاوي، والشيخ نور الدين الطنتدائي وقرئت تلك المصنفات على رؤوس الأشهاد بحضرة خلائق لا يحصون، فافهم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ويشبه حكاية هذا الشخص المنكر المخذول ما ذكره رضي الله عنه في طبقاته الكبرى في ترجمة العارف بالله سيدي أبي المواهب الشاذلي قال فيها: وكان يقول، يعني أبا المواهب رضي الله عنه، وقع بيني وبين شخص من الجامع الأزهر مجادلة في قول صاحب البردة رحمه الله تعالى:

فمبلـــغ العلـــم فيـــه أنـــه بشـــر ... وأنـــه خيـــر خلـــق الله كلهـــم

وقال: ليس له دليل على ذلك، فقلت له: قد انعقد الإجماع على ذلك، فلم يرجع، فرأيت النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر جالساً عند منبر الجامع الأزهر وقال لي: «**مرحباً بحبيبنا**»، ثم قال لأصحابه: «**أتدرون ما حدث اليوم**»؟ قالوا: لا يا رسول الله، فقال: «**إن فلاناً**

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٤٨٣). والنسائي في السنن (٣: ٤٥). وأحمد في المسند (٥: ٢٧٤). البيهقي في السنن الكبرى (٢: ١٤٦).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). والترمذي في السنن (٣١٤٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٩).

(٣) رواه أحمد في المسند (١: ٢٨١). والعجلوني في كشف الخفا (١: ١٦).

التعيس يعتقد أن الملائكة أفضل مني». فقالوا بأجمعهم: يارسول الله ما على وجه الأرض أفضل منك. فقال لهم: «فما بال فلان التعيس الذي لا يعيش، وإن عاش عاش ذليلاً خمولاً مضيقاً عليه خامل الذكر في الدنيا والآخرة، يعتقد أن الإجماع لم يقع على تفضيلي، أما علم أن مخالفة المعتزلة لأهل السنة لا تقدح في الإجماع»؟ انتهى، ورأيت هذه الرؤيا مبسوطة في كتاب المرائي النبوية لأبي المواهب.

ومن جواهر الإمام الشعراني أيضاً

[خصائصه ﷺ]

ماذكره في كتابه كشف الغمة عن جميع الأمة، من خصائص النبي ﷺ، ناقلاً ذلك من خط شيخه الحافظ السيوطي كما ذكره في آخرها، وقد راجعت كتاب الحافظ السيوطي أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب، الذي لخصه من كتابه الخصائص الكبرى، فوجدت ما ذكره الإمام الشعراني هو نفسه، إلا في مواضع قليلة ولزيادة بعض الفوائد ذكرت الخصائص النبوية في كتابي هذا مراراً أولها عن الإمام النووي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات.

ونقلت ما اختص منها بالفضائل عن الإمام المقري اليمني في كتابه الروض مع شرحه لشيخ الإسلام وحاشيته للشهاب الرملي، ونقلتها مبسوطة بأحاديثها ورواياتها عن الخصائص الكبرى للحافظ السيوطي، ولما كانت ملخصة تلخيصاً حسناً صحيحاً فيما نقله الإمام الشعراني ذكرتها هنا أيضاً بعبارته اعتناء بشأنها وتسهيلا لضبطها.

قال رضي الله عنه كتاب النكاح وفيه أبواب الأول في بيان جملة من خصائص رسول الله ﷺ. اعلم أن جميع الكرامات والخصائص الواقعة في هذا العالم منذ خلق الله تعالى الدنيا لنبينا محمد ﷺ بحكم الأصالة، وإن وقع شيء منها لخواص الخلق فذلك بحكم التبعية في الإرث له ﷺ، ثم اعلم أن كل ما مال إلى تعظيم رسول الله ﷺ لا ينبغي لأحد البحث فيه، ولا المطالبة بدليل خاص فيه، فإن ذلك سوء أدب فقل ماشئت في رسول الله ﷺ على سبيل المدح لا حرج، وما ضبط العلماء رضي الله عنهم هذه الخصائص إلا تنبيهاً على علو مقامه ﷺ عن التحجير الواقع على أمته وصيانة لغيره أن يدعي ما ليس له، وقد سب رجل مرة أبا بكر رضي الله عنه، عن عمر رضي الله عنه أن يضرب عنقه، فقال أبو بكر رضي الله عنه إنها لم تكن لأحد بعد رسول الله ﷺ من أمته.

واعلم أن العلماء رضي الله عنهم قد قسموا الخصائص إلى ثمانية أقسام، فلنذكر من كل قسم منها طرفاً صالحاً فأقول وبالله التوفيق.

القسم الأول: فيما اختص به في ذاته في الدنيا

خص رسول الله ﷺ بأنه أول النبيين خلقاً، وبتقديم نبوته، وكان نبياً وآدم بين الماء والطين، وبتقديم أخذ الميثاق عليه، وإنه أول من قال: «بلى»، يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وخلق آدم وجميع المخلوقات لأجله، وكتابة اسمه الشريف على العرش، وكل سماء والجنان وما فيها وسائر ما في الملكوت وذكر الملائكة له في كل ساعة، وذكر اسمه في الأذان في عهد آدم وفي الملكوت الأعلى، وأخذ الميثاق على النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به، وينصروه، والتبشير به في الكتب السابقة، ونعته فيها، ونعت أصحابه، وخلفائه، وأمته، وحجب إبليس من السموات لمولده، وشق صدره، وجعل خاتم النبوة بظهره، بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان وسائر الأنبياء، كان الخاتم في يمينهم وبأن له ألف اسم، وباشتقاق اسمه من اسم الله تعالى، وبأنه سمي من أسماء الله تعالى بنحو سبعين اسماً، وبأنه سمي أحمد، ولم يسم به أحد قبله، وبإظلال الملائكة له في سفره، وبأنه أرجح الناس عقلا، وبأنه أوتي كل الحسن، ولم يؤت يوسف إلا شطره وبغطه ثلاثاً عند ابتداء الوحي، وبرؤيته جبريل في صورته التي خلق عليها، وبانقطاع الكهانة لمبعثه، وحراسة السماء من استراق السمع، والرمي بالشهب، وبإحياء أبويه حتى آمنا به، وبوعده بالعصمة من الناس وبالإسراء، وما تضمنه من اختراق السموات السبع والعلو إلى قاب قوسين، ووطئه مكاناً ما وطئه نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وإحياء الأنبياء له وصلاته إماماً بهم وبالملائكة، واطلاعه على الجنة والنار، ورؤيته من آيات ربه الكبرى، وحفظه حتى مازاغ البصر وما طغى، ورؤيته للباري سبحانه وتعالى مرتين، وقتال الملائكة معه، وسيرهم معه حيث سار يمشون خلف ظهره، وبإيتاء الكتاب وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، وبأن كتابه معجز ومحفوظ من التبديل والتحريف على مر الدهور، ومشتمل على ما اشتملت عليه جميع الكتب، وزيادة وجامع لكل شيء ومستغن عن غيره، وميسر للحفظ، ونزل منجماً، وعلى سبعة أحرفٍ ومن سبعة أبواب وبكل لغة ويكتب لقارئه بكل حرف عشر حسنات، وبأنه فضل على سائر الكتب المنزلة بثلاثين خصلة لم تكن في غيره.

منها أنه دعوة وحجة، ولم يكن مثل هذا لنبي قط، إنما كان لكل منهم دعوة ثم يكون له حجة غيرها فالقرآن العظيم دعوة بمعانيه حجة بألفاظه وكفى الدعوة شرفاً أن تكون حجتها معها وكفى الحجة شرفاً أن لا تنفصل الدعوة عنها، وأعطي ﷺ من كنز تحت العرش، ولم يعط منه أحد، وخص بالبسملة والفاتحة وآية الكرسي وخواتم سورة البقرة والسبع الطوال والمفصل وبأن معجزته مستمرة الى يوم القيامة وهي القرآن، ومعجزات سائر الأنبياء انقرضت

لوقتها، وبأنه أكثر الأنبياء معجزات، وبأنه جمع له كل ما أوتيه الأنبياء من معجزات وفضائل ولم يجمع ذلك لغيره، بل اختص كل بنوع، وأوتي انشقاق القمر وتسليم الحجر وحنين الجذع ونبع الماء من بين الأصابع، وبكلام الشجر، وشهادتها له بالنبوة، واجابتها دعوته، وبأنه خاتم النبيين وبعموم الدعوة للناس كافة، وأرسل إلى الجن بالإجماع، وبأن الله أقسم بحياته واقسم على رسالته، وتولى الرد على أعدائه عنه، وقرن اسمه باسمه في كتابه، وفرض على العالم طاعته والتأسي به فرضاً مطلقاً، لاشرط فيه ولا استثناء ووصفه في كتابه عضوا عضوا، ولم يخاطبه باسمه في القرآن، بل يا أيها النبي، يا أيها الرسول، وحرم على الأمة نداؤه باسمه، وخاطبه بألطف مما خاطب به الأنبياء قبله، ولم يره الله تعالى في أمته شيئاً يسوؤه حتى قبضه، بخلاف سائر الأنبياء، وبأنه حبيب الرحمن، وجمع له بين المحبة والخلة، وبين الكلام والرؤية.

وكلمه عند سدرة المنتهى، وكلم موسى بالجبل، وجمع له بين القبلتين والهجرتين، وجمع له بين الحكم بالظاهر والباطن معاً، ونصر بالرعب مسيرة شهر أمامه، وشهر خلفه، وأوتي جوامع الكلم، وأوتي مفاتيح خزائن الأرض على فرس أبلق عليه قطيفة من سندس، وكلمه بجميع أصناف الوحي وهبط إسرافيل عليه ولم يهبط على نبي قبله، وجمع له بين النبوة والسلطان، وأوتي علم كل شيء حتى الروح والخمس التي في آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] وبين له في أمر الدجال ما لم يبين لأحد، ووعد بالمغفرة وهو يمشي حياً، صحيحاً، فقال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لم يؤمن الله تعالى أحداً من خلقه إلا محمداً ﷺ، ورفع ذكره فلا يذكر الله جل جلاله في أذان، ولا خطبة، ولا تشهد، إلا ذكر معه وعرض عليه أمته بأسرهم، حتى رآهم وعرض عليه ما هو كائن في أمته إلى يوم القيامة، بل عرض عليه سائر الأمم كما علم آدم أسماء كل شيء، وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلق على الله تعالى فهو أفضل من سائر المرسلين وجميع الملائكة المقربين.

وكان أفرس العالمين، وأيد بأربعة وزراء: جبريل وميكائيل وأبي بكر وعمر، واعطي من أصحابه أربعة عشر نجيباً، وكل نبي أعطي سبعة، وأسلم قرينه.

وكان أزواجه عوناً لله، وزوجاته وبناته أفضل نساء العالمين، وثواب أزواجه وعقابهن مضاعف، وأصحابه أفضل العالمين إلا النبيين، ويقاربون عدد الأنبياء، وكلهم مجتهدون مصيبون ولهذا قال: **«أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»**(١).

---

(١) رواه صاحب الميزان (١٥١١). وابن حجر في الميزان (٢: ٤٨٨). والعجلوني في كشف الخفا (١: =

وأحلت له مكة ساعة من نهار وحرم ما بين لابتي المدينة وتربتها مؤمنة من العذاب، وغبارها يبرئ الجذام، ويسأل عنه الميت في قبره، ولما دخل عليه ملك الموت استأذن عليه، ولم يستأذن على نبي قبله، ويحرم نكاح أزواجه من بعده، وأمة وطئها والبقعة التي دفن فيها، أفضل من الكعبة ومن العرش، ويجوز أن يقسم على الله به وليس ذلك لأحد، ولم تر عورته قط، ولو رآها أحد طمست عيناه، وبأنه ما من نبي له خاصة نبوة في أمته إلا وفي أمة محمد ﷺ من علمائها من يقوم في قومه مقام ذلك النبي في أمته، وينحو منحاه في زمانه، ولهذا ورد علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل.

وورد أن العالم في قومه كالنبي في أمته وسماه الله عبد الله ولم يطلقها على أحد سواه، وإنما قال عبداً شكوراً، نِعْمَ العَبْدَ، وليس في القرآن ولا غيره أمر بالصلاة على غيره، واسماؤه توقيفية كأسماء الله تعالى بحكم التبعية والله اعلم.

القسم الثاني: فيما اختص به في شرعه وأمته في دار الدنيا

اختص ﷺ بإحلال الغنائم، وجعل الأرض كلها مسجداً، ولم تكن الأمم تصلي إلا في البيع والكنائس، وبجعل التراب طهوراً، وهو التيمم، وبالوضوء فإنه لم يكن إلا للأنبياء دون أممهم، وبمسح الخف، وبجعل الماء مزيلاً للنجاسة، وإن كثير الماء لا تؤثر فيه النجاسة والاستنجاء بالجامد، وبالجمع في الاستنجاء بين الماء والحجر، وبمجموع الصلوات الخمس، ولم تجمع لأحد، وبأنهن كفارات لما بينهن، وبالعشاء ولم يصلها، أحد، وبالأذان، والإقامة، وافتتاح الصلاة بالتكبير، وبالتأمين، وبقول: اللهم ربنا لك الحمد، وبتحريم الكلام في الصلاة، وباستقبال الكعبة، وبالصف في الصلاة كصفوف الملائكة، وبتحية السلام، وهي تحية الملائكة وأهل الجنة، وباتخاذ يوم الجمعة عيداً له ولأمته، وبساعة الإجابة، وبعيد الأضحى، وبصلاة الجمعة وصلاة الجماعة وصلاة الليل ـ على الهيئة المشروعة الآن ـ وبصلاة العيدين، والكسوفين، والاستسقاء، والوتر وبقصر الصلاة في السفر وبالجمع بين الصلاتين في السفر، وفي المطر، وفي المرض، وبصلاة الخوف، ولم تشرع لأحد من الأمم قبلنا، وبصلاة شدة الخوف عند التحام القتال إيماءً، وحيثما توجه، وبشهر رمضان على هذه الكيفية من الشروط، وبتصفيد الملائكة للشياطين فيه.

وإن الجنة تزين فيه وأن خلوف فم الصائمين أطيب من ريح المسك، وتستغفر لهم

= ١٤٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢: ٢٢٣).

الملائكة حين يفطرون، ويغفر لأجمعهم في آخر ليلة منه، وبالسحور، وتعجيل الفطر، وبإباحة الأكل والشرب والجماع ليلاً إلى الفجر وكان محرماً على من قبلنا بعد النوم، وبتحريم الوصال في الصوم، وكان مباحاً لمن قبلنا وبإباحة الكلام في الصوم، وكان محرماً على من قبلنا عكس الصلاة، وبليلة القدر وبيوم عرفة، ويجعل صوم يوم عرفة كفارة سنتين، لأنه سنته ﷺ، وصوم عاشوراء، كفارة سنة واحدة لأنه سنة موسى عليه السلام، وغسل اليدين بعد الطعام بحسنتين لأنه شرعه، وقبله بحسنة لأنه شرع التوراة، وبالاستغسال من العين وانه يدفع ضررها وبالاسترجاع[1] عند المصيبة، وبالحوقلة[2]، وباللحد، وكان لأهل الكتاب الشق، وبالنحر ولهم الذبح، وبفرق شعر الرأس ولهم السدل، وبصبغ الشعر، وكانوا لا يغيرون الشيب، وبتوفير اللحى وتقصير السبال، وكانوا يقصرون لحاهم ويوفرون سبالهم، وكانوا يعقون عن الذكر دون الأنثى وشرع ذلك لنا معاً، وبترك القيام للجنازة، وبتعجيل المغرب والفجر، وبكراهة اشتمال الصماء، وبكراهة صوم يوم الجمعة منفرداً، وكان اليهود يصومون يوم عيدهم منفرداً، وبضم تاسوعاء الى عاشوراء في الصوم، وبالسجود على الجبهة وكانوا يسجدون على حرف، وكراهة التمثيل في الصلاة وكانوا يتميلون.

وبكراهة تغميض البصر فيها والاختصار والمقام بعدها للدعاء، وقراءة الإمام فيها في المصحف والتعلق فيها بالحبال، وبالأكل يوم العيد قبل الصلاة وكان أهل الكتاب لا يأكلون يوم عيدهم حتى يصلوا، وبالصلاة في النعال والخفاف.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: كانت بنو إسرائيل إذا قرأت أئمتهم جاوبوهم فكره الله ذلك لهذه الأمة فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ونهى رسول الله ﷺ رجلاً رآه جالساً في الصلاة معتمداً على يده اليسرى. وقال: «**إنها صلاة اليهود**»[3]، وأذن لنساء هذه الأمة في الصلاة في المساجد، ومنعت نساء بني إسرائيل.

وكان في شرعهم فسخ الحكم إذا رفعه الخصم إلى حاكم آخر يرى خلافه، وبالعذبة في العمامة، وهي سيما الملائكة، وبالاتتزار في الأوساط، وبكراهة السدل والطيلسان المقوّر، وشد الوسط على القميص الواحد والقزع، وبالأشهر الهلالية، وبالوقف، وبالوصية بالثلث عند موتهم، وبالإسراع بالجنازة، وبأن أمته ﷺ خير الأمم وآخر الأمم، ففضحت الأمم عندهم ولم يفضحوا، واشتق لهم اسمان من أسماء الله تعالى المسلمون والمؤمنون، وسمي

---

(١) الاسترجاع: إن لله وإن إليه راجعون.
(٢) الحوقلة: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.
(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢: ١٣٦).

دينهم الإسلام، ولم يوصف بهذا إلا الأنبياء دون أممهم. ورفع عنهم الإصر الذي كان على الأمم قبلهم، وأبيح لهم الكنز إذا أدوا زكاته، ولم يجعل عليهم في الدين من حرج.

وأبيح لهم أكل الإبل والنعام وحمار الوحش والأوز والبط وجميع السمك والشحوم والدم الذي ليس بمسفوح كالكبد والطحال والعروق، ورفع عنهم المؤاخذة بالخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، وحديث النفس، وإن من هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب سيئة بل تكتب حسنة، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، وإن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت حسنة، فإن عملها كتبت عشر إلى سبعمائة ضعف ووضع عنهم قتل النفس في التوبة وفقوء العين من النظر، إلى ما لا يحل، وقرض موضع النجاسة، وربع المال في الزكاة ونسخ عنهم تحرير الأولاد والتحصر والرهبانية والسياحة، وفي الحديث: **«ليس في ديني ترك النساء ولا اللحم ولا اتخاذ الصوامع»**[1].

وكان من عمل من اليهود شغلاً يوم السبت يصلب ولم يجعل علينا يوم الجمعة مثل ذلك، وكانوا لا يأكلون طعاماً حتى يتوضئوا كوضوء الصلاة، وكان من سرق استرق عبداً، ومن قتل نفسه حرمت عليه الجنة، وكان إذا ملك الملك عليهم اشترط عليهم أنهم رقيقه، وإن أموالهم له ما شاء أخذ منها وما شاء ترك.

وشرع لهم نكاح أربع والطلاق ثلاثاً، ورخص لهم في نكاح غير ملتهم، وفي نكاح الأمة وفي مخالطة الحائض، سوى الوطء، وإتيان المرأة في قبلها على أي هيئة شاؤوا، وشرع لهم التخيير بين القصاص والدية.

وشرع لهم دفع الصائل، وكانت بنو إسرائيل كتب عليهم إذا الرجل بسط يده إلى الرجل لا يمتنع منه حتى يقتله أو بدعه، وحرم عليهم كشف العورة، والنوح على الميت، والتصوير، وشرب المسكر، وآلات الملاهي، ونكاح الأخت، وأواني الذهب والفضة، والحرير وحلي الذهب على رجالهم والسجود لغير الله.

وكان ذلك تحية لمن قبلنا فأعطينا مكانه السلام، وكرهت لهم المحاريب وعصموا من الاجتماع على الضلالة، ومن أن يظهر أهل الباطل على أهل الحق. ومن أن يدعو عليهم نبيهم بدعوة فيهلكها، واجتماعهم حجة، واختلافهم رحمة، وكان اختلاف من قبلهم عذاباً، والطاعون لهم شهادة ورحمة، وكان على الأمم عذاباً وما دعوا به استجيب لهم، ويؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويحجون البيت الحرام، لا ينأون عنه أبداً، ويعجل لهم

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور (٢: ٣٠٨). والطبري في التفسير (٧: ٧).

الثواب في الدنيا، مع إدخاره في الآخرة وتباشر الجبال والأشجار بممرهم عليها لتسبيحهم وتقديسهم، وتفتح أبواب السماء لأعمالهم وأرواحهم وتتباشر بهم الملائكة ويصلي عليهم الله وملائكته، كما صلى على الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

ويقبضون على فرشهم وهم شهداء عند الله، وتوضع المائدة بين أيديهم فما يرفعونها حتى يغفر لهم، ويلبس أحدهم الثوب فما ينفضه حتى يغفر له، وصديقهم أفضل الصديقين وهم علماء حكماء كادوا لفقههم أن يكونوا كلهم أنبياء ولا يخافون في الله لومة لائم، وأذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، وقربانهم الصلاة وقربانهم دماؤُهم وستر على من لم يتقبل عمله منهم، وكان من قبلهم يفتضح إذا لم تأكل النار قربانه، وتغفر لهم الذنوب بالاستغفار والندم لهم توبة.

وروي أن آدم عليه السلام قال: إن الله عزَّ وجل أعطى أمة محمد ﷺ أربع كرامات لم يعطنيها كانت توبتي بمكة، وأحدهم يتوب في أيّ مكان كان، وسلبت ثوبي حين عصيت وهم لا يسلبون، وفرق بيني وبين زوجتي، وأخرجت من الجنة.

وكان بنو إسرائيل إذا أخطأ أحدهم حرم عليه طيب الطعام وأصبحت خطيئته مكتوبة على باب داره، ووعدوا أن لا يهلكوا بجوع ولا بعدو من غيرهم يستأصلهم، ولا بغرق ولا يعذبوا بعذاب عذب من قبلهم، وإذا شهد اثنان منهم لعبد بخير وجبت له الجنة.

وكان الأمم السالفة لا يجب لأحد منهم الجنة إلا إن شهد له مائة، وهم أقل الأمم عملاً وأكثرهم أجراً وأقصر أعماراً، وكان الرجل من الأمم السالفة أعبد منهم بثلاثين ضعفاً، وهم خير منه بثلاثين ضعفاً ووهب لهم عند المصيبة الصلاة والرحمة والهدى، وأوتوا العلم الأول، والعلم الآخر.

وفتح عليهم خزائن كل شيء، حتى العلم، وأوتوا الإسناد والأنساب والإعراب وتصنيف الكتب، وحفظ سنة نبيهم في كل دور حتى ينزل عيسى بن مريم عليه السلام، ومنهم أقطاب وأوتاد ونجباء وأبدال ومنهم من يصلي إماماً بعيسى عليه السلام، ومنهم من يجري مجرى الملائكة في الاستغناء عن الطعام بالتسبيح، ويقاتلون الدجال، ويسمع الملائكة أذانهم في السماء، وتلبيتهم، وهم الحمادون لله على كل حال، ويكبرون على كل شرف، ويسبحون عند كل هبوط، ويقولون عند إرادة الأمر أفعله إن شاء الله وإذا غضبوا هللوا، وإذا تنازعوا سبحوا، وإذا أرادوا أمراً قدموا الاستخارة ثم فعلوه، وإذا استووا على ظهور دوابهم حمدوا الله تعالى، ومصاحفهم في صدورهم، وسابقهم سابق ويدخل الجنة بغير حساب، ومقتصدهم

ناج ويحاسب حساباً يسيراً، وظالمهم مغفور له وليس منهم أحد إلا مرحوماً، ويلبسون ألوان ثياب أهل الجنة ويراعون الشمس للصلاة، وهم أمة وسط عدول بتزكية الله عزَّ وجل، وتحضرهم الملائكة إذا قاتلوا، وافترض عليهم ما افترض على الأنبياء والرسل، وهو الوضوء والغسل من الجنابة.

وكذلك الحج والجهاد، وأعطوا من النوافل ما أعطي الأنبياء ونودوا بيا أيها الذين آمنوا ونودي غيرهم من الأمم في كتبها بيا أيها المساكين وخوطبوا بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢] فأمرهم أن يذكروه بغير واسطة، وخوطبت بنو إسرائيل بقوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، فإنهم لم يعرفوا الله إلا بآلائه فكانت النعم موصلة إلى ذكر المنعم وهم أكثر الأمم أيامى ومملوكين ولما نزلت: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

قال رسول الله ﷺ هذا لأمتي كلها وليس بعد الرضى سخط وسموا أهل القبلة وشهادتهم تجوز على من سواهم، وكانت الأمم لا تجوز لهم شهادة على غير ملتهم.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: لا يحل في هذه الأمة التجريد، ولا مد، ولا غل، ولا صفد، يعني لا تجرد ثيابه، ولا يمد عند إقامة الحدود بل يضرب قاعداً، وعليه ثوبه.

قال العلماء وكان بدء الشرائع على التخفيف، ولا يعرف في شرع نوح وصالح وإبراهيم تثقيل، ثم جاء موسى عليه السلام بالتشديد والإثقال وتبعه عيسى على نحو ذلك، وجاءت شريعة نبينا محمد ﷺ بنسخ تشديد أهل الكتاب، وفوق تسهيل من كان قبلهم فهي على غاية الاعتدال والله أعلم.

القسم الثالث: فيما اختص به في ذاته في الآخرة

اختص ﷺ بأنه أول من تنشق الأرض عنه وأول من يفيق من الصعقة، وبأنه يحشر في سبعين ألف ملك ويحشر على البراق، ويؤذن باسمه في الموقف، ويكسى في الموقف أعظم الحلل من الجنة، وبأنه يقوم عن يمين العرش، وبالمقام المحمود وإن بيده لواء الحمد.

وآدم فمن دونه تحت لوائه، وأنه إمام النبيين يومئذ وقائدهم وخطيبهم، وأول من يؤذن له في السجود، وأول من يرفع رأسه، وأول من ينظر إلى الله تعالى، وأول شافع، وأول مشفع، ويسأل الله في حق غيره وكل الناس يسألون في أنفسهم، وبالشفاعة العظمى في فصل القضاء، وبالشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وبالشفاعة في حق من استحق النار أن

لا يدخلها، وبالشفاعة في رفع درجات ناس في الجنة، وبالشفاعة في إخراج عموم أمته من النار حتى لا يبقى منهم أحد، وبالشفاعة لجماعة من صلحاء المسلمين، ليتجاوز عنهم في تقصيرهم في الطاعات، وبالشفاعة في الموقف تخفيفاً عمن يحاسب، وبالشفاعة فيمن خلد في النار من الكفار أن يخفف عنه العذاب، وبالشفاعة في أطفال المشركين أن لا يعذبوا، وسأل ربه أن لا يدخل النار أحد من أهل بيته فأعطاه ذلك.

وأنه أول من يجوز على الصراط إلى الجنة، وأن له في كل شعرة من رأسه ووجهه نوراً، وليس للأنبياء إلا نوران، ويؤمر أهل الجمع بغض أبصارهم حتى تمر ابنته على الصراط، وإنه أول من يقرع باب الجنة، وأول من يدخلها، وبعده فاطمة رضي الله عنها، وخص بالكوثر وبالحوض الأعظم. ولكل نبي حوض، ولكن حوضه أعرض الحياض، وأكثرها وارداً، وخص بالوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة، وقوائم منبره رواتب في الجنة، ومنبره على ترعة من ترع ا لجنة، وما بين منبره وقبره روضة من رياض الجنة، ولا يطلب منه شهيد على التبليغ ويطلب ذلك من سائر الأنبياء، ويشهد لجميع الأنبياء بالبلاغ.

وكل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه ويكنى آدم عليه السلام في الجنة به دون سائر ولده تكريماً له، فيقال له أبو محمد.

ووردت أحاديث في أهل الفترة أنهم يمتحنون يوم القيامة، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، والظن بآل بيته كلهم أن يطيعوا عند الامتحان لتقربهم عينه ﷺ، وورد أن درجات الجنة بعدد آي القرآن، وأنه يقال لصاحبه اقرأ وارقأ فآخر منزلته عند آخر آية يقرؤها، ولم يرد في سائر الكتب مثل ذلك، ولا يقرأ في الجنة إلا كتابه ﷺ دون سائر الكتب، ولا يتكلم أحد في الجنة إلا بلسانه وكان ﷺ يقول: «**أنا أول من يقرع باب الجنة فيقوم الخازن فيقول من أنت؟ فأقول: أنا محمد، فيقول: أقوم فافتح لك، ولم أقم لأحد قبلك، ولا أقوم لأحد بعدك**»[1]. والله أعلم.

القسم الرابع: فيما اختص به في أمته في الآخرة

اختص ﷺ بأن أمته أول من تنشق عنهم الأرض من الأمم، ويأتون يوم القيامة غراً

---

(١) رواه النسائي في السنن (الإيمان: ٣٣١). وابن حجر في فتح الباري (١١: ٤٣٦). والسيوطي في الحبائك في الملائك (٥٦:). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٧). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٩٥).

محجلين من آثار الوضوء، ويكونون في الموقف على كوم عال ولهم نوران كالأنبياء، وليس لغيرهم إلا نور واحد.

ولهم سيما في وجوههم من أثر السجود وتسعى ذريتهم بين أيديهم، ويؤتون كتبهم بإيمانهم، ويمرون على الصراط كالبرق والريح ويشفع محسنهم في مسيئهم، وعجل عذابها في الدنيا وفي البرزخ لتوافي القيامة ممحصة، وتدخل قبورها بذنوبها وتخرج بلا ذنوب، تمحص عنها باستغفار المؤمنين لها، ولها ما سعت وما سعى لها، وليس لمن قبلهم إلا ما سعى، ويقضى لهم قبل الخلائق، ويغفر لهم المقحمات، وهم أثقل الناس ميزاناً، ونزلوا منزلة العدول من الحكام يشهدون على الناس أن رسلهم بلغتهم، ويعطى كل منهم يهودياً أو نصرانياً، فيقال له يا مسلم هذا فداؤك من النار، ويدخلون الجنة قبل سائر الأمم ويدخل منهم الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، ومع كل واحد من السبعين ألفاً سبعون ألفاً وأطفالهم كلهم في الجنة، وأهل الجنة مائة وعشرون صفاً، سائر الأمم أربعون وهذه الأمة ثمانون، ويتجلى الله عليهم فيرونه ويسجدون له بإجماع أهل السنة، وفي الحديث: «**كل أمة بعضها في الجنة وبعضها في النار، إلا هذه الأمة فإنها كلها في الجنة**»[١] والله أعلم.

القسم الخامس: فيما اختص به من الواجبات التي هي تخفيف على غيره وربما شاركه في بعضها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

خص ﷺ بوجوب صلاة الضحى والوتر والتهجد والسواك والأضحية والمشاورة، وركعتي الفجر وغسل الجمعة وأربع قبل الزوال وبالوضوء لكل صلاة، وكلما أحدث ثم نسخ بالسواك وبالاستعاذة ومصابرة العدو وإن كثر عددهم، وإذا بارز رجلاً في الحرب لم ينكشف عنه قبل قتله، وإظهار تغيير المنكر وعدم سقوطه عنه بالخوف، ووجوب الوفاء بوعده، وقضاء دين من مات من المسلمين معسراً وتخيير نسائه في فراقه واختياره وإمساكهن بعد أن اخترته، وعدم التزوج عليهن والتبدل بهن مكافأة لهن، ثم نسخ ذلك لتكون المنة له ﷺ، وأن يؤدي فرض الصلاة كاملة لا خلل فيها وأن يدفع بالتي هي أحسن وكلف من علم السياسة وحده ما كلفه الناس بأجمعهم.

وكلف بمشاهدة الحق مع معاشرة الناس، وكلف من العمل بما كلف به الناس أجمعون،

---

(١) رواه النسائي في السنن (الإيمان ٣٣١). وابن حجر في فتح الباري (١٠: ٤٣٦). والسيوطي في الحبائك في الحلائك (٥٦). والزبيدي في اتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٧).

وكان يؤخذ عن الدنيا حالة الوحي، ولا تسقط عنه الصلاة والصوم وسائر الأحكام، وكلف بالاستغفار كل يوم سبعين مرة وكانت جميع نوافله التابعة للفرائض زيادة في الأجر لا جبراً لخلل الفرائض، فإنها كلها منه تامة ﷺ. وخص بصلاة خمسين صلاة في كل يوم وليلة على وفق ما كان في ليلة الإسراء.

وأورد بعض العلماء الأحاديث في صلاته غير الخمس، فبلغت مائة ركعة، وخص بوجوب إيقاظ النائم وقت الصلاة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾[النحل: ١٢٥]، وخص بوجوب العقيقة والإثابة على الهدية، وأوجب عليه التوكل وحرّم عليه الادخار، وكان يمون عيال من مات معسراً، ويؤدي الجنايات عمن لزمته وهو معسر، وكذلك الكفارات، وخص بوجوب الصبر على ما يكره، وصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ، وخطاب الناس بما يعقلون ﷺ.

القسم السادس: فيما اختص به من المحرمات تشريفاً له ﷺ

اختص رسول الله بتحريم الزكاة والصدقة والكفارة عليه وعلى آله ومواليه، إن كان لهم ما يكفيهم، وعلى زوجاته بالإجماع، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: إنما كان حراماً عليه صدقات الأعيان دون العامة كالمساجد ومياه الآبار، وخص بتحريم جعل آله عمالاً، وصرف النذر والكفارة إليهم، وأكل ثمن أحد من ولد إسماعيل،.ومما خص به تحريم الكتابة والشعر والقراءة في الكتاب.

وكان يحرم عليه نزع لامته إذا لبسها، حتى يقاتل أو يحكم الله بينه وبين عدوه، وكذلك الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام، والمنّ ليستكثر، أي أن يهدي هدية ليثاب بأكثر منها وخائنة الأعين ونكاح الكتابية ومد الأعين إلى ما متع به الناس وتحريم الإغارة إذا سمع التكبير، وحرم عليه الخمر من أول ما بعث قبل أن يحرم على الناس بنحو عشرين سنة، ولم يشربه قط، ولا أبو بكر لا في جاهلية ولا إسلام ونهى عن التعري وكشف العورة قبل مبعثه بخمس سنين.

القسم السابع: فيما اختص به من المباحات

اختص رسول الله ﷺ بإباحة المكث في المسجد جنباً، وبجواز صلاة الوتر على الراحلة وقاعداً مع وجوبه عليه، وبالجهر في القراءة فيه، وغيره يسر وبجواز صلاة الركعة الواحدة بعضها من قيام وبعضها من قعود عند بعضهم، والقبلة في الصوم مع قوة الشهوة لعصمته،

والوصال وقهر من شاء على طعامه وشرابه ولباسه إذا احتاج، ويجب على مالك ذلك بذله وإن هلك، ويفدي بمهجته مهجة رسول الله ﷺ، وبإباحة النظر إلى الأجنبيات والخلوة بهن وارداً فهن ونكاح أكثر من أربع نسوة، وكذلك الأنبياء، والنكاح بلا مهر ابتداءً وانتهاءً وبلا ولي وبلا شهود، وفي حال الإحرام، وبغير رضى المرأة، وإذا رغب في نكاح امرأة حرم على غيره خطبتها بمجرد الرغبة.

وإذا رغب في مزوجة وجب على زوجها طلاقها لينكحها، وكان له أن يخطب على خطبة غيره، وأن يزوج المرأة ممن شاء بغير إذنها وإذن وليها، وتزوجها لنفسه وتولي الطرفين بغير إذنها ولا إذن وليها، وزوج ابنة حمزة مع وجود عمها العباس، فقدم على الأقرب، وقال لأم سلمة: مري ابنك أن يزوجك فزوجها وهو يومئذٍ صغير لم يبلغ، وزوجه الله تعالى زينب فدخل عليها، بتزويج الله تعالى بغير عقد من نفسه.

وكان له أن يستثني في كلامه بعد حين منفصلاً وأن يصطفي من الغنيمة قبل القسمة ما شاء، وكان له أن يشهد لنفسه ولولده وأن يقبل شهادة من شهد له ولولده، وقبول الهدية بخلاف غيره من الحكام.

وكان له قتل من اتهمه بالزنا من غير بينة ولا يجوز ذلك لغيره، وكان له أن يدعو لمن شاء بلفظ الصلاة وليس لنا أن نصلي إلا على نبي أو ملك، وضحى عن أمته وليس لأحد أن يضحي عن الغير بغير إذنه، وله أن يجمع في الضمير بينه وبين الله بخلاف غيره وله قتل من سبه أو هجاه.

وكان يقطع الأراضي قبل فتحها لأن الله ملكه الأرض كلها، وله أن يقطع أرض الجنة من باب أولى ﷺ والله أعلم.

القسم الثامن: فيما اختص به من الكرامات والفضائل

اختص ﷺ بمنصب الصلاة وبأنه لا يورث وكذلك الأنبياء فلهم أن يوصوا بكل ما لهم صدقة، وكان إذا خرج للغزاة بنفسه يجب على كل أحد الخروج معه لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ١٢٠]، ولم يبق هذا الحكم مع غيره من الخلفاء وخص بتحريم رؤية أشخاص أزواجه وبناته في الإزر، وبتحريم كشف وجوههن وأكفهن لشهادة أو غيرها، وسؤالهن مشافهة وصلاتهن على ظهور البيوت، وأنهن أمهات المؤمنين، ووجوب جلوسهن بعده في البيوت.

وأباح لهن ولآله الجلوس في المسجد مع الحيض والجنابة، وكان تطوعه قاعداً كتطوعه قائماً بلا عذر، وكان يجب على المصلي إجابته وكذلك الأنبياء، وكان جابر رضي الله عنه يقول: ليس على من ضحك في الصلاة وضوء، إنما وجب على الصحابة لكونهم ضحكوا خلف رسول الله ﷺ.

ويحرم نداؤه من وراء الحجرات، والصياح به من بعيد، وخص بطهارة دمه وبوله وسائر فضلاته، بل شرب بوله شفاء، من سبه قتل ومن استهان به كفر، ومحبته فرض على الأمة وكذلك محبة أهل بيته وأصحابه، ولم تبغ امرأة نبيّ قط وأولاد بناته ينسبون إليه وفي حديث: **«أن الله تعالى لم يبعث نبياً قط إلا جعل ذريته من صلبه غيري، فإن الله تعالى جعل ذريتي من صلب عليّ ولا يجوز التزوج على بناته»**[1].

ومنع بعض العلماء التزوج على ذرية بناته، وإن سفلن إلى يوم القيامة ووجهه ظاهر، ومن صاهره من الجانبين لم يدخل النار، ولا يجتهد في محراب صلى إليه لا في يمنة ولا يسرة ويجل منصبه عن الدعاء له بلفظ الرحمة، وليس لأحد أن ينقش محمد رسول الله على خاتمه كما كان خاتمه ﷺ.

وكان لا يقول في الغضب والرضى إلا حقاً، ورؤياه وحي، وكذلك الأنبياء ولا يجوز على الأنبياء الجنون، ولا الإغماء الطويل الزمن على أن إغماءهم بخلاف إغماء غيرهم، كما خالف نومهم نوم غيرهم، وبالجملة فيجب تنزيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن كل نقص، بنفر النفوس.

وكان له أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام، كجعله شهادة خزيمة بشهادة رجلين، وكما رخص في النياحة لخولة بنت حكيم، وفي الإحداد لأسماء بنت عميس، وأسلم رجل على أنه لا يصلي إلا صلاتين فقبل منه ذلك، وخص نساء المهاجرين بأن يرثن دور أزواجهن لكونهن غرائب لا مأوى لهن كما تقدم في كتاب الفرائض بيانه.

وكان أنس رضي الله عنه يصوم من طلوع الشمس لا من طلوع الفجر، فالظاهر أنها خصوصية له، وأصام أطفال أهل بيته وهم رضعاء، وكان يرى من خلفه كما ينظر أمامه، وعن يمينه وعن شماله، ويرى بالليل وفي الظلمة كما يرى بالنهار وفي الضوء، وريقه يعذب الماء المالح، ويجزي الرضيع، ويبلغ صوته وسمعه ما لا يَبلغه غيره، وتنام عينه ولا ينام قلبه، وما تثاءب قط ولا احتلم قط، وكذلك الأنبياء في الثلاثة وعرقه أطيب من المسك.

---

(١) رواه الفتني في تذكرة الموضوعات (٩٩).

وكان إذا مشى مع الطويل طاله، وإذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين، ولم يقع ظله على الأرض ولا رؤي له ظل في شمس ولا قمر، لأنه كان نوراً، ولم يقع على ثيابه ذباب قط، ولا آذاه القمل، وكان إذا ركب دابة لا تروث، ولا تبول وهو راكبها، ولم تكن لقدمه أخمص، وكانت خنصر رجله متظافرة، وكانت الأرض تطوى له إذا مشى، وأوتي قوة أربعين في الجماع، والبطش كل رجل قوته قوة مائة رجل، وكان أقنع الناس في الغذاء تقنعه اللعقة، وكانت الأرض تبتلع ما يخرج منه ويشم من مكانه رائحة المسك وكذلك الأنبياء ولم يقع في نسبه من لدن آدم سفاح قط وتقلب في الساجدين حتى خرج نبياً، ولم يلد أبواه غيره، ونكست الأصنام لمولده، وولد مختوناً ومقطوع السرة ونظيفاً ما به قذر، ووقع إلى الأرض ساجداً رافعاً إصبعه كالمتضرع المبتهل، ورأت امه عند ولادته نوراً خرج منها أضاء له قصور الشام، وكذلك أمهات النبيين يرين، ولم ترضعه مرضعة إلا أسلمت.

وكان مهده يتحرك بتحريك الملائكة، ويميل القمر إليه حيث أشار إليه، وتكلم في المهد، وكان ما تكلم به أن قال الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً أوردت إليه الروح بعدما قبض ثم خير بين البقاء في الدنيا والرجوع إلى الله، فاختار الرجوع إليه، وكذلك الأنبياء، وأرسل إليه ربه جبريل ثلاثة أيام في مرضه يسأله عن حاله.

ولما نزل إليه ملك الموت نزل معه ملك يقال له إسماعيل يسكن الهواء لم يصعد إلى السماء ولم يهبط إلى الأرض قبل ذلك اليوم قط، وسمعوا صوت ملك الموت يبكي وينادي عليه وامحمدا، وصلى عليه ربه والملائكة وصلى عليه الناس أفواجاً بغير إمام وقالوا هو إمامكم حياً وميتاً وبغير دعاء الجنازة المعروف، ودفن في بيته حيث قبض، وكذلك الأنبياء، والأفضل في حق غيرهم الدفن في المقبرة، وأظلمت الأرض بعد موته وهو حي في قبره يصلي فيه بأذان وإقامة.

وكذلك الأنبياء، وقراءة أحاديثه عبادة يثاب عليها كقراءة القرآن، ويستحب الغسل لقراءة حديثه، والطيب ولا ترفع عنده الأصوات كما هو في حياته ﷺ ويكره لقارئ حديثه أن يقوم لأحد، وحملة الحديث لا تزال وجوههم نضرة وأصحابه كلهم عدول.

ومن خصائصه أن الإمام بعده لا يكون إلا واحداً ولم تكن الأنبياء قبله كذلك، وأن آله لا يكافئهم في النكاح أحد من الخلق، ويطلق عليهم الأشراف وهم ولد علي وعقيل وجعفر والعباس كذا مصطلح السلف رضي الله عنهم، وإنما حدث تخصيص الشرف بولد الحسن والحسين في مصر خاصة من عهد الخلفاء الفاطميين.

ومن خصائص ابنته فاطمة رضي الله عنها أنها كانت لا تحيض، وكانت إذا ولدت طهرت

من نفاسها بعد ساعة حتى لا تفوتها صلاة، ولذلك سميت الزهراء، ولما جاعت وضع ﷺ يده على صدرها فما جاعت بعد، ولما احتضرت غسلت نفسها وأوصت أن لا يكشفها أحد فدفنها علي رضي الله عنه بغسلها ذلك.

وكان ﷺ إذا مسح بيده رأس أقرع نبت شعره في وقته. وغرس نخلاً فأثمرت من عامها، وكان إذا تبسم في الليل أضاء البيت، وأنه كان يسمع حفيف أجنحة جبريل وهو بعدُ في سدرة المنتهى، ويشم رائحته، إذا توجه بالوحي إليه وكان له قراءة القرآن بالمعنى، واهتز العرش لموت بعض أصحابه فرحاً بلقاء روحه، ولم يكن يمر ﷺ في طريق فيتبعه فيها أحد إلا عرف أنه سلكها من طيبه وحسن رائحته، وبالجملة فأوصافه ﷺ الحسنة لا تحصى ولا تحصر وفي هذا القدر كفاية وتنبيه على ما سواه.

قال الإمام الشعراني رضي الله عنه: وقد كتبت هذه الخصائص من خط سيدنا وشيخنا خاتمة الحفاظ الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله ونفعنا بعلمه والمسلمين.

وكان رضي الله عنه يقول تتبعت هذه الخصائص حتى أنهيتها إلى هذا الحد مدة عشرين سنة ولم أعلم أحداً أنهاها إلى هذا الحد والله أعلم.

ومنهم الإمام الشهاب أحمد بن حجر الهيتمي[1] المتوفى سنة ٩٧٣ هـ رضي الله عنه

[من جواهره رضي الله عنه]

[تفضيله ﷺ على الخلق]

فمن جواهره قوله في شرح الهمزية عند قول المصنف الإمام البوصيري في مطلع الهمزية:

كيف ترقى رقيك الأنبياء   يا سماء ما طاولتها سماء

ترقى رقيك الحسي وهو رقيه ﷺ ببدنه يقظة بمكة ليلة الإسراء قبل الهجرة إلى السماء، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، ثم إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكالمة والكشف الحقيقي وغير ذلك مما لم يصل إليه ملك مقرب ولا نبي مرسل والمعنوي، وهو التنقل من كل صفة كاملة وخلق عظيم إلى صفة أخرى، وخلق آخر أكمل وأعظم وهكذا إلى ما لا غاية له ثم ذكر اختصاص نبينا ﷺ بذلك الرقي بمعنييه السابقين وأنه المنفرد بغاية كمال الشرف والرفعة، قال رحمه الله تعالى.

أما المعنى الأول يعني انفراده ﷺ بالمعراج على الوجه المذكور فواضح، وأما الثاني يعني انفراده ﷺ بالكمالات فكذلك عندما تأمل آي القرآن وما اشتملت عليه إما تصريحاً أو تلويحاً من الإشارة إلى إنافة قدرة العلي عنده، وإنه لا مجد يساوي مجده، وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، يعني محمداً ﷺ.

قال الزمخشري في هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس، ومن تلك الدرجات أن آياته

---

(١) هو أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام أبو العباس. ولد سنة ٩٠٩ في محلة أبي الهيتم من إقليم الغربية بمصر وإليها نسبته. وتوفي سنة ٩٧٤هـ. كما في الأعلام ـ للزركلي.

ومعجزاته أكبر وأبهر، إذ ما من معجزة لنبي قبله إلا وله مثلها أو أبهر منها، كما بينته الأئمة وزاد عليهم بمعجزات لم يقع نظيرها لأحد منهم وناهيك بكتابة القرآن فإنه لا تتناهى معجزاته ولا تنقضي آياته، وإن أمته أزكى وأكثر وأخير وأطهر من بقية الأمم بنص: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وخيرية الأمة تستلزم خيرية نبيها، وأفضلية دينها إذ لا شك أن خيريتهم بحسب كمال دينهم المستلزم لكمال نبيهم، وإن صفاته أعلى وأجل وذاته أفضل وأكمل، كما يصرح به قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، لأنه تعالى وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالأوصاف الحميدة.

ثم أمره أن يقتدي بجميعهم، وذلك يسلتزم أن يأتي بجميع ما فيهم من الخصال الحميدة، فاجتمع فيه ما تفرق فيهم.

وفي حديث الشفاعة العظمى وانتهائها إليه بعد تنصل كل منها واعترافه بأنه ليس أهلاً لها التصريح بذلك أيضاً وكذلك الحديث الصحيح: «**أنا سيد ولد آدم**»[١]، وفي رواية: «**أنا أكرمهم على ربي**»[٢].

وفي حديث الترمذي: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي**»[٣]. وهو صريح في دخول آدم، كحديث البخاري وغيره: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[٤].

وحديث: «**أنا سيد العالمين**»[٥]. صححه الحاكم وبذلك تعلم أفضليته على الملائكة، لأن آدم أفضل منهم بنص الآية، ويؤيده الحديث الآتي على الأثر ليس أحد من الملائكة، وحديث الترمذي الحسن كما بينه البلقيني في فتاويه رداً على الترمذي، «**وأنا أكرم الأولين والآخرين**»[٦] وهذا صريح في شموله الأنبياء والملائكة جميعهم.

---

(١) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (١: ١٣). وابن أبي شيبة في المصنف (١١: ٤٧٧). وابن أبي عاصم في السنة (٢: ٣٧٠).

(٢) رواه السيوطي في الحاوي للفتاوي (٢: ٤٥٢). واللآلئ المصنوعة (١: ١٤٨). وفيه: «أكرم».

(٣) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). والترمذي في السنن (١٣٤٨:). أحمد في المسند (١: ٢٨١). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٧٥٤١).

(٤) رواه البخاري في الصحيح (٤: ١٦٣). ومسلم في الصحيح (الإيمان: ٣٢٧). والترمذي في السنن (٢٤٣٤:). وأحمد في المسند (٢: ٤٣٥). والحاكم في المستدرك (٤: ٥٧٣). والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٥٥٧٥:).

(٥) رواه السيوطي في الدر المنثور (٤: ٢٧٣). وفيه «الخلائق».

(٦) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٧). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ٥٣٠). =

وحديث آدم: يا رب أسألك بحق محمد ﷺ لما غفرت لي. الحديث، وفيه أنه تعالى قال: «يا آدم كيف عرفته ولم أخلقه». قال: «يا رب لما خلقتني بيدك، أي بقدرتك الباهرة، ونفخت فيّ من روحك، أي سرك العجيب، الذي لا يعلم حقيقته أحد غيرك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك». قال الله تعالى: «صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ، وإذا سألتني بحق محمد فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك»[١]، صححه الحاكم واعترض، لكن صح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وله حكم المرفوع، ولولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله، فسكن.

وفي روايات أُخر: «لولاه ما خلقت السماء والأرض ولا الطول ولا العرض ولا وضع ثواب ولا عقاب ولا خلقت جنة ولا ناراً ولا شمساً ولا قمراً».

وصح: «أنا أول من تنشق عنه الأرض فألبس الحلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الملائكة يقوم ذلك المقام غيري»[٢].

وفي رواية ذكرها السراج البلقيني في فتاويه أنه تعالى قال له: «قد مننت عليك بسبعة أشياء: أولها أني لم أخلق في السموات والأرض أكرم عليَّ منك»، وفي أخرى ذكرها أيضاً أن جبريل عليه السلام قال له: «أبشر فإنك خير خلقه وصفوته من البشر، حباك الله بما لم يحبُ به أحداً من خلقه، لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً»: الحديث. وصح عن بحيرا الراهب، وهو من علماء أهل الكتاب الذين لا يقولون شيئاً إلا عنه: «هذا سيد العالمين».

وصح عن عبد الله بن سلام الصحابي الجليل، إمام أهل الكتاب، بشهادته ﷺ أنه ذكر بالمسجد يوم الجمعة أموراً منها، وإن أكرم خليقة الله على الله أبو القاسم ﷺ، فقيل له: فأين الملائكة؟ فضحك وقال للسائل: يا ابن أخي هل تدري ما الملائكة؟ إنما الملائكة خلق كخلق السموات والأرض والرياح والسحاب والجبال وسائر الخلق التي لا تعصي الله شيئاً، وإن أكرم الخلق على الله أبو القاسم ﷺ.

= وابن كثير في التفسير (٢: ٣٧٥).

(١) رواه الألباني في التوسل (١٠٦).

(٢) رواه الترمذي في السنن (٣١٤٨). وابن ماجة في السنن (٤٣٠٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والحاكم في المستدرك (٢: ٤٦٥). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ١٩٨). وابن حجر في فتح الباري (٤: ١٩٨).

وبين السراج البلقيني أن هذا له حكم المرفوع، وهو كذلك، فإنه من أجل الصحابة، فلا يقول إلا عنه ﷺ أو عما صح من التوراة، قال: واختيار الباقلاني والحليمي أفضلية الملائكة يمكن حمله على غير نبينا ﷺ، أي وبهذا جزم بعض أجلاء تلامذته كالبدر الزركشي، أو على تفضيل في نوع خاص، أي لأنه قد يوجد في المفضول مزية بل مزايا لا توجد في الفاضل.

ثم قال: ولا يظن بأحد من أئمة المسلمين أنه يتوقف في أفضلية نبينا على جميع الملائكة، وكذلك سائر الأنبياء، وأطال في الحط والرد على من توقف في ذلك وزعم أن هذا ليس مما كلفنا بمعرفته.

ثم قال: وهذا الزعم باطل فإن هذا من مسائل أصول الدين الواجبة الاعتقاد على كل مكلف، والبيان بسوق أدلتها وإيضاحها على كل من تأهل لذلك وقد صح في الحديث المشهور «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[1]، فتأمل قوله مما سواهما تجده ظاهراً بل صريحاً في كل ما ذكرناه.

ومنها ما أفاده كلامه من جواز التفضيل بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو ما عليه عامة العلماء لما مر من الأدلة الصريحة فيه. وأما قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٣٦]، فهو باعتبار الإيمان بهم وبما أنزل إليهم. وأما الأحاديث الصحيحة «لا تفضلوا بين الأنبياء». «لا تفضلوني على الأنبياء».[2] «لا تخيروا بين الأنبياء».[3] فهي إما قبل علمه بالتفضيل وإنه أفضلهم.

وإما محمولة على التواضع منه ﷺ، لتصريحه بالتفضيل، أو على تفضيل يؤدي إلى تنقيص أو إلى غض من مقام أحدهم. وعليهما يدل سياق الحديث، أو على التفضيل في ذات النبوة، أو الرسالة، فإنهم كلهم مشتركون في ذلك لا يتفاوتون فيه، وإنما يتفاوتون في زيادة الأحوال والمعارف والخصوصيات والكرامات.

وزعم حملها على التفضيل بآرائنا ليس في محله، لأن تفضيل ذلك بالرأي المحض مجمع على منعه، وبالدليل الدال عليه لا وجه لمنعه.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٠). والبغوي في شرح السنة (١: ٤٩). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (٢: ٤٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ٥٥).

(٢) رواه ابن كثير في البداية والنهاية (١: ١٧١).

(٣) رواه أبو داود في السنن (٤٦٦٨:). وأحمد في المسند (٣: ٣١). وابن أبي شيبة في المصنف (١١: ٥٠٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٠٩). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٣٧٤:). وابن حجر في فتح الباري (١٢: ٢٦٣).

وأما الحديثان الصحيحان «**ما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**»[١]، «**من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب**»[٢]. فحكمة التخصيص فيهما بيونس نفي توهم التفاوت بينهما في القرب من الحق، لاختلاف محلها الصوري برفع نبينا ﷺ إلى قاب قوسين، ونزول يونس ﷺ إلى قعر البحر، أي لا تتوهموا من هذا التفاوت الصوري تفاوتاً في القرب والبعد من الله تعالى، بل نسبة كل إليه واحدة وإن تفاوت مكانهما لتعاليه عن الجهة والمكان، فهو نهي عن تفضيل مقيد بالمكان لا مطلقاً.

ومنها إن قوله الأنبياء يشمل من عرف منهم ومن لم يعرف، قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

واختلفوا في عدد من عرف منهم، والمشهور فيه ما في حديث أبي ذر عند ابن مردويه في تفسيره قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟، قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً**»، قلت: يا رسول كم الرسل منهم؟ قال: «**ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير**»، قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: «**آدم**»، ثم قال: «**يا أبا ذر أربعة سريانيون: آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو إدريس، وهو أول من خط بالقلم، وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من بني إسرائيل، أي من بعد أولاد إسرائيل وهو يعقوب صلى الله على نبينا وعليه وسلم وموسى وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك**»[٣]. وروى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم ابن حبان في كتابه «الأنواع والتقاسيم»، وصححه، لكن خالفه ابن الجوزي فذكره في موضوعاته واتهم به إبراهيم بن هشام.

قال الحافظ ابن كثير: ولا شك أنه تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث فالله أعلم.

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: وبينت في شرح المنهاج في الخطبة إن حديث كون الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً وحديث كون الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر صحيحان فاعلمه.

---

(١) رواه ابن حجر في فتح الباري (٨: ٢٦٧).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٦: ٦٤). والحاكم في المستدرك (٢: ٥٨٣). والبغوي في شرح السنة (٥: ١٦٠). وابن حجر في فتح الباري (٨: ٢٦٧). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٤٣٩). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ٣٣٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٤١٩:).

(٣) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٤٤١٥٨:). وابن كثير في التفسير (٢: ٤٢٢). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ٢٤٦). وأبو نعيم في حلية الأولياء (١: ١٦٧). والطبري في تاريخ الأمم والملوك (١: ١٧١). والهيثمي في موارد الظمآن (٩٤).

ومن جواهر ابن حجر أيضاً

[فضل نسبه وشرف أجداده وأبويه ﷺ]

قوله رحمه الله تعالى في شرح الإمام البوصيري في الهمزية:

لم تزل في ضمائر الكون تختا ... ر لك الأمهاتُ والآباء

أي كما طابت ذاتك بما أوتيته من الكمال الأعلى، كذلك طاب نسبك، فلم يكن في أمهاتك من لدن حواء إلى أمك آمنة، ولا في آبائك من لدن آدم إلى أبيك عبد الله، إلا من هو مصطفى مختار، وشاهد ذلك حديث البخاري: «**بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنتُ من القرن الذي كنتُ منه**»(١).

وحديث مسلم: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»(٢).

وحديث الترمذي بسند حسن: «**إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم، ثم تخير القبائل فجعلني في خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً، أي روحاً وذاتاً، وخيرهم بيتاً، أي أصلاً**»(٣).

وحديث الطبراني: «**إن الله اختار الخلق فاختار منهم بني آدم، ثم اختار من بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختارني من العرب فلم أزل خياراً من خيار ألا من أحب من العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فيبغضني**»(٤).

واعلم أن آدم عليه الصلاة والسلام ولد من حواء أربعين ولداً في عشرين بطناً، إلا شيثاً وصيه فإنه ولد منفرداً كرامة لكون نبينا ﷺ من نسله، ثم لما توفي وصى ابنه بوصية أبيه له أن لا يضع هذا النور الذي كان بجبهة آدم، ثم انتقل إلى شيث إلا في المطهرات من النساء، ولم تزل هذه الوصية معمولاً بها في القرون، إلى أن وصل ذلك النور إلى جبهة عبد المطلب، ثم ولده عبد الله، وطهر الله تعالى هذا النسب الشريف من سفاح الجاهلية كما ورد في الأحاديث

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٤: ٢٢٩). وأحمد في المسند (٢: ٣٧٣). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٣٩:). والسيوطي في الدر المنثور (٣٢٠٠٥:). والألباني في السلسلة الصحيحة (٧٠٩). وابن كثير في التفسير (٣: ٣٢٥). والبغوي في شرح السنة (١٣: ١٩٥).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ١). والترمذي في السنن (٣٦٠٦:). وأحمد في المسند (٤: ١٠٧). والبخاري في التاريخ الكبير (١: ٤).

(٣) رواه السيوطي في الدر المنثور (٣: ٢٩٥). وأحمد في المسند (١: ٢٠١).

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٧: ١٣٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٦٢٦).

كحديث في سنن البيهقي: **«ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ما ولدني إلا نكاح الإسلام»**.[١] وسفاحهم بكسر السين زناهم كانت المرأة منهم تسافح الرجل مدة ثم يتزوجها.

وروى ابن سعد وابن عساكر عن محمد بن السائب بن الكلبي عن أبيه قال: كتبت للنبي ﷺ مائة أم، فما وجدت فيهن سفاحاً، ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية. وروى الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر عنه ﷺ قال: **«خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم، إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء»**.[٢] وروى أبو نعيم قوله ﷺ: **«لم يلتق أبواي قط على سفاح، ولم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفىً مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما»**.[٣] وروى ابن مردويه أنه قرأ ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفَسِكُمْ﴾[التوبة:١٢٨]، بفتح الفاء وقال: **«أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ليس في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح»**.[٤] قال ابن حجر بعدما ذكر.

تنبيه: لك أن تأخذ من كلام الناظم الذي علمت أن الأحاديث مصرحة به لفظاً في أكثره ومعنى في كله، إن آباء النبي ﷺ وأمهاته، إلى آدم وحواء، ليس فيهم كافر، لأن الكافر لا يقال في حقه أنه مختار، ولا كريم، ولا طاهر، بل نجس كما في آية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]، وقد صرحت الأحاديث السابقة بأنهم مختارون، وأن الآباء والأمهات طاهرات، وأيضاً فهم إلى إسماعيل، كانوا من أهل الفترة، وهم في حكم المسلمين بنص الآية الآتية، وكذا من بين كل رسولين وأيضاً قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٩].

على أحد التفاسير فيه أن المراد تنقل نوره ﷺ من ساجد إلى ساجد وحينئذ فهذا صريح في أن أبوي النبي ﷺ آمنة وعبد الله من أهل الجنة، لأنهما أقرب المختارين له ﷺ، وهذا هو الحق بل في حديث صححه غير واحد من الحفاظ، ولم يلتفتوا لمن طعن فيه. إن الله تعالى أحياهما له، فآمنا به خصوصية لهما، وكرامة له ﷺ، فقول ابن دحية يرده القرآن والإجماع ليس في محله، لأن ذلك ممكن شرعاً وعقلاً على جهة الكرامة والخصوصية، فلا يرده قرآن

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٧: ١٩٠). والبغوي في شرح السنة (٣: ١٧١). والهيثمي في مجمع الزوائد (٩: ٢١٤). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٢٩٤).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٧: ١٩٠). والألباني في إرواء الغليل (٦: ٣٣٠). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢١٤).

(٣) رواه السيوطي في الدر المنثور (٣: ٢٩٤، ٥: ٩٨). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٣٤٩).

(٤) رواه السيوطي في الدر المنثور (١: ١٤٩).

ولا إجماع، وكون الإيمان به ﷺ لا ينفع بعد الموت، محله في غير الخصوصية والكرامة، وقد صح أنه ﷺ ردت عليه الشمس بعد مغيبها، فعاد الوقت حتى صلى علي رضي الله عنه العصر أداء كرامة له ﷺ، فكذا هنا، وطعن بعضهم في صحة هذا بما لا يجدي أيضاً، وخبر أنه تعالى لم يأذن لنبيه ﷺ في الاستغفار لأمه، إما كان قبل إحيائها له وإيمانها به أو أن المصلحة اقتضت تأخر الاستغفار لها عن ذلك الوقت فلم يؤذن له فيه حينئذ (فإن قلت): إذا قررتم أنهما من أهل الفترة وأنهم لا يعذبون فما فائدة الإحياء؟

قلت: فائدته اتحافهما بكمال لم يحصل لأهل الفترة، لأن غاية أمرهم أنهم ألحقوا بالمسلمين في مجرد السلامة من العقاب، وأما مراتب الثواب العلية فهم بمعزل عنها، فأتحفا بمزية الإيمان زيادة في شرف كمالهما لحصول تلك المراتب لهما، وفي هذا مزيد ذكرته في الفتاوي، ولا يرد على الناظم آزر فإنه كافر مع أن الله تعالى ذكر في كتابه العزيز أنه أبو إبراهيم ﷺ، وذلك لأن أهل الكتابين أجمعوا على أنه لم يكن أباه حقيقة، وإنما كان عمه، والعرب تسمي العم أبابل في القرآن ذلك قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾ [البقرة:١٣٣]، مع أنه عم يعقوب، بل لو لم يجمعوا على ذلك وجب تأويله بهذا جمعاً بين الأحاديث. وأما من أخذ بظاهره كالبيضاوي وغيره فقد تساهل، واستروح. وحديث مسلم قال رجل: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «في النار»، فلما قفا دعاه قال: «إن أبي وأباك في النار».[1]، يتعين تأويله، وأظهر تأويل له عندي أنه أراد بأبيه عمه أبا طالب، لما تقرر عند العرب تسمي العم أباً، وقرينة المجاز فيه الآية الآتية الشاهدة بخلافه على أصح محاملها عند أهل السنة، وأن عمه الذي كفله بعد جده عبد المطلب، أو أنه إنما قصد بذلك أن يطيب خاطر ذلك الرجل، خشية أن يرتد للوقوع في سمعه أولاً أن أباه في النار، بدليل أنه إنما قاله له بعد أن ولى أو كان ذلك قبل أن ينزل عليه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، كما وقع له أنه ﷺ سئل عن أطفال المشركين، فقال هم مع آبائهم، ثم سئل عنهم فذكر أنهم في الجنة.

وأما قول النووي رحمه الله تعالى في حديث مسلم: إن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهم في النار، وليس في هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره عليهم الصلاة والسلام انتهى.

فبعيد جداً للاتفاق على أن إبراهيم ومن بعده لم يرسلوا للعرب، ورسالة إسماعيل إليهم

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الإيمان ٣٤٧). وأبو داود في السنة (ب ١٧).

انتهت بموته، إذ لم يعلم لغير نبينا ﷺ عموم بعثة بعد الموت، وقد يؤول كلامه بحمله على عباد الأوثان الذين ورد فيهم أنهم في النار، وبهذا يرد كلام الفخر الرازي القريب من كلام النووي.

ثم رأيت الأبي شارح مسلم بالغ في الرد على النووي بأن كلامه متناف حكمه عليهم بأنهم أهل فترة، وبأن الدعوة بلغتهم، ومن بلغتهم الدعوة ليسوا أهل فترة، لأنهم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول ولا أدركوا الثاني. ثم قال: ولما دلت القواطع على أن لا تعذيب حتى تقوم الحجة، علمنا أن أهل الفترة غير معذبين انتهى. وهو موافق لما ذكرته.

وما أحسن قول بعض المتوقفين في هذه المسألة الحذر الحذر من ذكرهما بنقص. فإن ذلك يؤذيه ﷺ لخبر الطبراني: لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات انتهى.

وأما الذين صح تعذيبهم مع كونهم من أهل الفترة، فلا يردون نقضاً على ما عليه الأشاعرة من أهل الكلام والأصول، والشافعية من الفقهاء، من أن أهل الفترة لا يعذبون وسبب ذلك أننا عهدنا في الغلام الذي قتله الخضر أنه حكم بكفره مع صباه لأمر يعلمه الله تعالى وحده، فكذا هؤلاء يحكم بكفرهم بخصوصهم، وإن لم تبلغهم الدعوة لأمر يعلمه الله تعالى ورسوله، فلا يرد هؤلاء نقضاً على ما استفيد من الآية، ومشى عليه أولئك الأئمة أن أهل الفترة لا يعذبون، وهذا الذي ذكرته في الجواب، أولى من الجواب، بأن أحاديثهم أخبار آحاد، فلا تعارض القطع بأن أهل الفترة لا يعذبون، أو بأن التعذيب المذكور في الأحاديث مقصور على من بدل أو غير من أهل الفترة بما لا يعذر به، كعبادة الأوثان وتغيير الشرائع، وكأن قائل هذا ممن يرى وجوب الإيمان بالعقل، والذي عليه أكثر أهل السنة والجماعة أنه لا يجب توحيد، ولا غيره إلا بعد إرسال الرسل إليهم. ومن المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل ﷺ، وأن إسماعيل انتهت رسالته بموته عليه الصلاة والسلام، فلا فرق بين من غير وبدل وغيره، ما عدا من صح تعذيبه فيقصر ذلك عليه، لأنه لا قياس في ذلك. وقول أبي حيان إن الرافضة هم القائلون إن آباء النبي ﷺ مؤمنون مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٩]، فلك رده بأن أبا حيان إنما يرجع إليه في علم النحو وما يتعلق به.

وأما المسائل الأصولية، فهو عنها بمعزل، كيف والأشاعرة، ومن ذكر معهم فيما مر آنفاً، على أنهم مؤمنون، ونسبة ذلك للرافضة وحدهم، مع أن هؤلاء الذين هم أئمة أهل السنة قائلون به قصور، وأي قصور، وتساهل وأي تساهل.

ومن جواهر الإمام ابن حجر رضي الله عنه

[تبشير الأنبياء به ﷺ]

قوله في شرح قول الهمزية:

ما مضت فترة من الرسل إلا بشرت قومها بك الأنبياء

وهذا استدلال واضح على كمال شرفه ﷺ ورفعته على ألسنة الرسل، وأنه نبي الأنبياء المقدم عليهم التابعون له هم وأممهم، وشاهد ذلك قول الله تعالى عن عيسى ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] ومن ثَمَّ قال ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»[1]، أي في آية: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، و«**بشارة عيسى**»، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، أي وأممهم، وحذف استغناء بذكر المتبوعين عن ذكر الإتباع لَمَا مفتوحة توطئة للقسم الذي تضمنه أخذ الميثاق، ولتؤمنّن به سد مسد جوابه وجواب ما الشرطية ومكسورة، أي لأجل ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: ٨١]، أي وهو محمد ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]، الآية. وقد اختلف المفسرون فيها، والذي قاله علي وابن عباس رضي الله عنهم وتبعهم الحسن وطاوس وقتادة رحمهم الله، إنه تعالى أخذ على كل نبي بعثه من لدن آدم إلى محمد ﷺ، وأن من أدرك محمداً ﷺ وهو حي ليؤمن به ولينصرنه، ويلزم من هذا أن الأنبياء كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنهم إن أدركوا محمداً ﷺ آمنوا به ونصروه.

ودعوى أن هذا هو معنى الآية دون الأول مردودة، ولا ينافي الأول العلم بأن الأنبياء لا يدركون حياته ﷺ ولا الحكم في آخر الآية بالفسق على من تولى عن ذلك، لأن التعليق في مثل ذلك لا يستلزم الوقوع. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، [و] ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٥] والمقصود إنه لو فرض أنه بعث وهم أحياء لزمهم ذلك، كما إن القصد من هاتين الآيتين الفرض والتقدير أيضاً، ومن ثم قال الإمام التقي السبكي: دلت الآية على أنهم لو أدركوا زمنه ﷺ كان مرسلاً إليهم فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق الأنبياء وأممهم من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، وحينئذٍ يدخلون في قوله: «**وأرسلت للناس كافة**». وحكمة أخذ هذا الميثاق على الأنبياء إعلامهم وأممهم بأنه المتقدم عليهم، وأنه نبيهم ورسولهم، وقد ظهر ذلك في الدنيا بكونه أمهم ليلة

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور (١: ١٣٩). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٣٣). والألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤٥).

الإسراء، ويظهر في الآخرة بأنهم كلهم تحت لوائه، بل وفي آخر الزمان بكون عيسى ينزل حاكماً بشريعة محمد ﷺ دون شريعة نفسه،

ومن جواهر الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى

[شرف العصور]

قوله في شرح قول الهمزية:

تتباهى بك العصور وتسمو بك علياءُ بعدها علياءُ

أي تتفاخر بوجودك الأزمنة الطويلة من لدن آدم إلى يوم القيامة، وما بعده، فكل عصر يفخر على العصر الذي قبله لوجودك فيه بكمال أعلى مما قبله، ولو في ضمن آبائك، لكن أعظمها افتخاراً عصر بروزك إلى هذا العالم، ثم عصر نشأتك، ثم عصر رضاعك، ثم شق بطنك، فتعبدك بحراء وغيره، ثم عصر نبوتك، ثم عصر رسالتك، ثم عصر دعائك الخلق إلى دين الله تعالى، ثم عصر إقبالهم عليك، ثم عصر معارجك، ثم عصر هجرتك، ثم عصر جهادك، ثم عصر سراياك، وبعوثك، وفتوحك، ثم عصر دخول الناس في دين الله تعالى أفواجاً، ثم عصر حجك، ثم عصر أتباعك على تفاوتهم إلى يوم القيامة. كما دل عليه الحديث المشهور، «لا تزال طائفة من أمتي»[١]، فمزاياه تتزايد في كل عصر من أعصار حياته ﷺ على ما قبله، وبحسب ذلك يكون افتخار ذلك العصر على غيره، وكذلك عصر أتباعه يتفاوت مزاياهم المستمدة من مزاياه، فيفخر كل عصر على غيره بحسب ذلك أيضاً، وأعمالهم المتضاعفة له تضاعفاً يفوق الحصر، لأن كل عامل يتضاعف له ﷺ بحسب عمله، وكذلك كل واسطة بينه وبينه، لأنه الدال للكل ومن دل على خير فله مثل أجر فاعله، بكل حال يتضاعف له بحسب تضاعف من بعده ويتضاعف للنبي ﷺ بحسب تضاعف الجميع وهذا شيء يقصر عن إدراك كثرته العقل، ثم عصر مقامه المحمود وشفاعته العظمى في فصل القضاء، ثم عصر بقية شفاعاته، ثم عصر حوضه، ثم عصر وسيلته وفضيلته التي يعطاها في الجنة مما لا تدرك غايته ولا تحد نهايته، فكل هذه العصور تفتخر وتسمو به بحسب ما يقع فيها من كماله، لأن الأزمنة والأمكنة تشرف بشرف من يكون فيها، وما يكون فيها من المزايا والكمالات، ولذا قال بعضهم: «إن ليلة مولده ﷺ أفضل من ليلة القدر». وهو صحيح لولا النص على خلافه على أن ليلة القدر من خصوصياته فتفضيلها إنما هو لأجله أيضاً.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٧١). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٠٥٤).

«وتسمو بك علياءُ بعدها علياءُ»، أي تعلو وترتفع لك في كل عصر من العصور المذكورة مرتبة أعلى مما قبلها وأعلى منها ما بعدها وهكذا إلى ما لا نهاية له.

ودليل تفاوت مراتبه ﷺ كما ذكر قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ولا شك أن علومه ومعارفه متزايدة متفاوتة إلى ما لا نهاية له، وقوله ﷺ: «**إنَّه ليغان على قلبي فاستغفر الله**»[١]، قال العارف القطب أبو الحسن الشاذلي: هذا غين أنوار لا غين أغيار، أي لأنه ﷺ كان دائم الترقي، فكان كلما توالت أنوار العلوم والمعارف على قلبه ارتقى إلى مرتبة أعلى مما هو فيها، ورأى أن ما قبلها دونها فيستغفر الله تواضعاً طلباً لتزايد كماله.

وفي قول الناظم: وتسمو إلخ من المدح ما لا يخفى عظيم وقعه، لأنه جعل تلك المراتب هي التي تسمو وترتفع به ﷺ ولم يجر على ما هو المتبادر أنه الذي يسمو ويرتفع بها لما هو الحق إنه تعالى خلقه في عالم الأمر على أكمل كمال لم يمكن أن يوجد لمخلوق، ثم أبرزه في عالم الخلق مندرجاً في تلك المراتب لتتشرف به لا ليتشرف هو بها لما علمت إنه كامل قبلها ﷺ.

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[مولده الشريف ﷺ]

قوله عند قول صاحب الهمزية رضي الله عنهما:

ليلة المولد الذي كان للدين سرور بيومه وازدهاء

أي هذه الليلة الغراء هي ليلة ولادتك، وأنت أشرف مولود فلأجل ذلك سر الدين وأهله اليوم الذي برزت فيه إلى هذا الوجود على الوجه الأكمل وافتخر به على سائر الأديان والأيام.

تنبيه: أضاف الناظم كلا من اليوم والليلة إلى المولد، فاحتمل أن يكون من القائلين بأنه ولد ليلاً، واستدلوا بما رواه ابن السكن من حديث عثمان بن العاص عن أمه فاطمة بنت عبد الله الثقفية أنها شهدت ولادة رسول الله ﷺ ليلاً، قالت: فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور، وأني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى أني لأقول يقعن عليّ.

رواه البيهقي ولم يذكر فيه إلا النور وتدلي النجوم، وبتصريح عائشة رضي الله عنها أيضاً

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في السنن (١٥١٥). وابن حنبل في المسند (٤: ١١، ٢، ٢٦٠). والبيهقي في السنن الكبرى (٧: ٥٢).

بذلك، كما رواه الحاكم. وأن يكون من القائلين بأنه ولد نهاراً وهو ما يصرح به قوله الآتي.

يوم نالت بوضعه ابنة وهب. وهذا هو الأصح كما صرح به حديث مسلم وغيره، لكن بُعيد الفجر كما في [الحديث] وإن كان فيه ضعف، لأن الضعيف في الفضائل والمناقب حجة. اتفاقاً.

فمن أطلق أنه ولد ليلاً أراد بالليل ما قبل طلوع الشمس، أو أراد مجاز المجاورة، وليس في رواية أن النجوم تدلت عند ولادته الآتية، ما يدل على أن ذلك كان قبل الفجر، لأنها تكون بعد الفجر، فيمكن تدليها حينئذٍ، بل بعد طلوع الشمس خرقاً للعادة للمبالغة في إكرامه ﷺ.

وعلى أنه ولد ليلاً قبل ليلة مولده أفضل من ليلة القدر، واستدل قائله بوجوه كثيرة، كلها مدخولة، كما يعلمه الواقف عليها إن حقق ودقق وعلى أنه ولد نهاراً فهو يوم الإثنين اتفاقاً وصح به خبر مسلم.

ثم قيل: إنه في شهر غير معين والمشهور إنه معين، وهو صفر، أو ربيع الأول، أو الآخر، أو رجب، أو رمضان، أو يوم عاشوراء أقوال، والأصح أنه في شهر ربيع الأول، فقيل: إن اليوم فيه غير معين، والأصح أنه معين، فقيل: لليلتين منه، وقيل: لثمان، واختاره أكثر أهل الحديث وغيرهم، بل أجمع عليه أهل التاريخ، وقيل: لعشر، وقيل: لثنتي عشرة وهو المشهور وعليه العمل، وقيل: لسبع عشرة، وقيل: لثمان بقين منه، وإنما لم يكن في يوم الجمعة، ولا في بعض الأشهر الحرم أو رمضان، لئلا يتوهم أنه ﷺ تشرف بذلك الزمن الفاضل.

فجعل في المفضول لتظهر مزيته به على الفاضل، ونظير ذلك دفنه ﷺ بالمدينة دون مكة، لأنه ﷺ لو دفن فيها لكان يفضل تبعاً لها، فانفرد ﷺ بموضع مفضول عند أكثر العلماء ليتشرف به، بل ليفوق به الفاضل عند كثيرين منهم، وليقصد قبره ومسجده بطريق الاستقلال لا التبعية إظهاراً لمزيد كرامته على ربه.

واختلفوا في عام ولادته ﷺ، فالأكثرون على أنه عام الفيل، بل حكى الاتفاق عليه والمشهور أنه ولد بعده بخمسين يوماً، ووراء ذلك أقوال أُخر: خمسة وخمسون شهراً، أربعون شهراً، عشر سنين، خمس عشرة سنة، وأيد كونه بعده بأنه إرهاص لنبوة هذا الذي ولد بمكة، ومقدمة لظهوره ﷺ، وفي مكانها، والصواب أنه ولد في مكة، قيل: بالشعب، وقيل: بالردم، والمشهور أنه بالمسجد المشهور الآن بالمولد، وزعم أنه بعسفان شاذ لا يعول عليه، فقد صرح بعض أئمتنا أن أول واجب على الأولياء أن يعلموا صبيانهم أن نبينا محمداً ﷺ ولد

بمكة، ودفن بالمدينة، بل قيل إن إنكار ذلك كفر، لاستلزامه إنكار وجود النبي ﷺ:

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[كرامة وعفة والده ﷺ]

رحمه الله تعالى في شرح قول الهمزية:

يوم نالت بوضعه ابنة وهب ... من فخارها ما لم تنله النساء

ومما نالته ما أخرجه أبو نعيم والخرائطي وابن عساكر، أن عبد المطلب لما خرج بعبد الله ليزوجه للرؤيا التي رآها، رأته كاهنة قرأت الكتب فرأت نور النبوة في وجهه، ومن ثمَّ كان أجمل رجل ربي في قريش، فسألته أن يقع عليها وتعطيه مائة من الإبل فأبى وقال: أما الحرام فالممات دونه، فمر به أبوه حتى أتى به وهباً أبا آمنة فزوجه بها، وهي يومئذٍ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، فوقع عليها يوم الإثنين أيام منى عند الجمرة.

ثم خرج ومر على تلك المرأة فلم تكلمه، فسألها: لِمَ لم تعرفي نفسك الآن عليّ، قالت: فارقك النور الذي سألتك لأجله.

وذكروا أنه لما استقرت تلك النطفة الكريمة فيها أصبحت أصنام الدنيا منكوسة، واخضرت الأرض وحملت الأشجار، وكانت قريش في جدب شديد فسميت تلك السنة سنة الفتح، ونودي في الملكوت: أن النور المكنون قد انتقل إلى بطن آمنة ذات العقل الباهر والفضل الظاهر، وقد خصها الله تعالى بهذا الحبيب لأنها أفضل قومها حسباً وأزكاهم أصلاً وفرعاً.

وفي حديث ابن إسحاق أنها حدثت: أنها لما حملت به ﷺ قيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، وقالت: ما شعرت بحمله، ولا وجدت له ثقلاً، ولا وحماً، أي في الابتداء ـ لرواية أنها وجدته وحملت على غير الابتداء. جمعاً بين الأحاديث ـ وأتاني آت وأنا بين النائمة واليقظانة فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام؟ ثم أمهلني حتى دنت ولادتي، أتاني فقال: لي قولي:

أعيذه بالواحد ... من شر كل حاسد

ثم سميه محمداً وبعد هذا البيت أبيات أخر مشهورة، ولا أصل لها كما قاله الزين العراقي.

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: كان في دلالة حمل آمنة

برسول الله ﷺ، إن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة وقالت قد حمل برسول الله ﷺ، ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا، وسراج العلماء، ولم يبق سرير ملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذا أهل البحار بشر بعضهم بعضاً، وله في كل شهرمن شهور حمله نداء في الأرض ونداء في السماء، أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم ﷺ ميموناً مباركاً.

وروى أبو نعيم أن آمنة أتاها آت بعد ستة أشهر من حملها وقال: يا آمنة إنك قد حملت بخير العالمين فإذا وضعتهِ فسميه محمداً، واكتمي شأنك.

ثم لما أخذها الطلق وكانت وحدها رأت كأن طائراً أبيض قد مسح فؤادها فذهب روعها، ثم أُتيت بشربة بيضاء فتناولتها فأضاء لها نور عال، ثم رأت نسوة كالنخل طولاً فأحدقن بها، فقالت: من أين علمتن بي؟

وفي رواية: فقلن لي: نحن آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وهؤلاء الحور العين، ثم رأت ديباجاً أبيض مد بين السماء والأرض، ورجالاً بأيديهم أباريق فضة، وقطعة من الطير أقبلت حتى غطت حجرتها مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من الياقوت، ورأت مشارق الأرض ومغاربها وثلاثة أعلام منصوبات علماً بالمشرق وعلماً بالمغرب وعلماً على ظهر الكعبة، فأخذها النفاس فوضعته ﷺ فإذا هو ساجد قد رفع إصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل.

ثم رأت سحابة بيضاء غشيته فغيبته عنها، فسمعت منادياً يقول: طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها، وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته ويعلموا أنه سمي الماحي، لأنه لا يبقى شيء من الشرك إلا محي في زمنه ﷺ، ثم انجلت عنه في أسرع وقت.

وروى الخطيب البغدادي بسنده: أنها لما وضعته رأت سحابة عظيمة لها نور عظيم، يسمع فيها صهيل الخيل وخفقان الأجنحة وكلام الرجال، حتى غشيته وغيب عنها، فسمعت منادياً يقول: طوفوا به جميع الأرض، واعرضوه على كل روحاني من الجن والإنس والملائكة والطيور والوحوش، واغمسوه في أخلاق النبيين.

ثم انجلت عنه وقد قبض على حريرة بيضاء مطوية طياً شديداً ينبع منها ماء، وإذا قائل يقول: بخ بخ قبض محمد ﷺ على الدنيا كلها حتى لم يبق أحد من أهلها إلا دخل طائعاً في قبضته.

ثم رأت ثلاثة نفر بيد أحدهم إبريق فضة، والثاني طشت من زبرجد أخضر، والثالث

حريرة بيضاء أخرج منها خاتماً، يحار الناظرون دونه فغسله سبع مرات ثم ختم به بين كتفيه، ثم احتمله فأدخله بين أجنحته ساعة ثم رده إلى أمه ﷺ.

هداية

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[ابتداء بعثته ﷺ]

قوله عند قول الإمام البوصيري رضي الله عنهما:

فاستبانت خديجة أنه الكنز الذي حاولته والكيمياء

أشار بذكر ما وقع لخديجة إلى سبب ذلك، وهو قصة ابتداء بعثه ﷺ وحاصلها، أنه ﷺ لما بلغ أربعين سنة قيل: وكسراً بعثه الله تعالى يوم الإثنين كما في خبر مسلم لسبع عشرة من رمضان، وقيل: لثمان من ربيع الأول، وقيل: كان في رجب رحمة للعالمين ورسولاً إلى كافة الخلق أجمعين كما قال ﷺ: **«وأرسلت إلى الخلق كافة»**(١).

روى البخاري وغيره، أول ما بدئ به، من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وابتدئ بها لأن الملك لو فجأه بغتة لم تحتمله قواه البشرية، وكان يأتي حراء فيتعبد فيه الليالي الكثيرة، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق، أي جاءه جبريل وهو بغار حراء فقال له: إقرأ، قال: **«ما أنا بقارئ»**، أي لست بقارئ قاله امتناعاً، لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فغطه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له: إقرأ، قال: **«ما أنا بقارئ»**، قاله إخباراً بالواقع، فغطه ثم أرسله كذلك وقال له: **«إقرأ»**، قال: **«ما أنا بقارئ»**، أي ما الذي أقرؤه، فغطه وأرسله كذلك، وحكمة الغط ثم تكريره مزيد التأهل إلى لقاء الملك لما بين البشرية والملكية من التباين، ثم إلى التلقي منه، ثم قال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، فرجع بها يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة، فقال: **«زملوني زملوني»**، فزملوه ﷺ حتى ذهب عنه الروع، فقال: **«يا خديجة ما لي»**. وأخبرها الخبر، ثم قال: **«قد خشيت على نفسي»**(٢)، أي قبل أن يحصل له العلم الضروري، بأن الجائي جبريل عليه الصلاة والسلام، أو خشيت أن لا أقدر على حمل أعباء الرسالة، أو أن يقتلني قومي، ولا بدع فإنه ﷺ بشر، فقالت له: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢: ٢٢٢).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٣). ومسلم في الصحيح (الإيمان ب ٧٣ رقم ٢٥٢). والبيهقي في السنن الكبرى (٧: ٥١). والبغوي في شرح السنة (٧: ٢٦٨). والحاكم في المستدرك (٣: ١٨٣). والسيوطي في الدر المنثور (٦: ٣٦٨).

أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة، وكان شيخاً كبيراً قد عمي وهو ممن تنصر من العرب وعرف الإنجيل، فقالت له: اسمع من ابن أخيك.

فأخبره ﷺ ما رأى، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها، أي في ملتك، جذعاً، أي شاباً، لأبالغ في نصرتك إذ يخرجك قومك. قال: «أو مخرجيّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به، إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن ﷺ، وتكرر ذهابه ﷺ إلى رؤوس شواهق الجبال ليرمي نفسه، فيبرز له جبريل ويقول: يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه.

وأخرج الشيخان وغيرهما أنه ﷺ قال: «جاورت بحراء شهراً ـ أي لا لطلب النبوة فإنها موهبة لا تنال بكسب ـ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، **فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت، فنظرت، فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً لم أثبت له، فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني. فدثروني وصبوا علي ماءً بارداً، فنزلت:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]. **الآية وهذا بعد نزول:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، **وبعد فترة الوحي»**[1]، إذ أول ما نزل اقرأ على الأصح، بل الصواب، وصح عن الشعبي أنه قال: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل عليه بالقرآن على لسانه عشرين سنة، وحكمة الفترة ذهاب الروع الذي وجده ﷺ ومزيد تهييجه إلى الاشتياق للعود.

وروى أصحاب السير أنه ﷺ لما أخبر خديجة رضي الله تعالى عنها الخبر، قالت له ﷺ: ألا تستطيع أن تخبرني بهذا الذي يأتيك إذا جاءك؟، قال: «نعم». فلما جاءه جبريل أخبرها به، فقالت له: اجلس على فخذي الأيسر، ففعل، فقالت: أتراه؟ قال: «نعم». قالت: فعلى الأيمن ففعل فقالت أتراه قال نعم قالت: فاجلس في حجري. ففعل، فقالت: أتراه؟، قال: «نعم». فألقت خمارها ثم قالت: أتراه؟ قال: «لا». قالت: أثبت وأبشر فو الله إنه لملك ما هذا شيطان.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣: ٣٧٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٥٢٨:).

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[شمائله الشريفة]

قوله في شرح هذا البيت:

كـل وصـف لـه ابتـدأت بـه استـو عـب أخبـار الفضـل مـن ابتـداء

أي كلما ابتدأت بوصف له ﷺ وتأملت ما اشتمل عليه صريحاً، وإيماء، وجدت ذلك الوصف المبتدأ به جمع الفضل، وغايات الكمال، ولا يستبعد ذلك، فإن كل وصف من أوصافه ﷺ آخذ بحجز بقية تلك الأوصاف، إذ لا يتحقق كمال وصف من صفات الإنسان كالحلم مثلاً، إلا إن كمل في بقية أوصافه كالعلم، والكرم، والشجاعة، والخلق الحسن، وغيرها. وحينئذ فكل من صفاته ﷺ يدل على ما وضع له مطابقة، وعلى ما عداه منها إيماءً، والتزاماً، كما لا يخفى على من سبر ذلك وتأمله، وبما قررته يعلم أنه يجب عليك أن تعتقد أن من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله تعالى أوجد خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله، ولا بعده في آدمي مثله ﷺ، وسر ذلك، أن محاسن الذوات دليل على ما بطن فيها من بدائع الأخلاق، وجلائل الصفات ونبينا محمد ﷺ قد بلغ الغاية التي لم يصل إليها غيره في كل من ذينك، ومن ثم قال الناظم في بردة المديح: «فهو الذي تم معناه وصورته»، البيتين، فتبين أن حقيقة الحسن الكامل كملت فيه وحده، ولم تنقسم بينه وبين غيره لأنه الذي تم معناه دون غيره، ولو شورك لم يتم معناه، وما أحسن قول بعضهم، لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ، وإلا لما أطاقت أعيننا النظر إليه.

تنبيه: شرح الناظم بيان تمام معناه بما مر، ويأتي، ولم يشرح تمام حسن ذاته كذلك، وإنما أشار لذلك بقوله برؤية وجه الخ. . . ضحكه التبسم الخ. . . ، وبتقبيل راحة الخ. . . فتعين علينا أن نشير إلى شيء من ذلك فنقول: «أما وجهه الشريف فصح عن البراء رضي الله أنه ﷺ كان أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت شيئاً أحسن منه ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه ﷺ». وعن البراء رضي الله عنه أنه قيل له: «أكان وجه رسول الله ﷺ كالسيف؟» قال: «لا بل كالقمر»، أي لم يكن كالسيف في الطول ولا في اللمعان، بل كالقمر في التدوير وفوق لمعان السيف، وصح عن جابر بن سمرة رضي الله عنه لم يكن كالسيف، بل كالشمس والقمر وكان مستديراً، فنبه بهذا أنه جمع بين الحسن، والإشراق، والملاحة، والاستدارة، وجاء عن علي رضي الله تعالى عنه لم يكن بالمكلثم، أي شديداً استدارة الوجه، بل فيه تدوير قليل، وهو أحلى عند العرب، وهو معنى قول أبي هريرة: «كان أسيل الخدين»، أي فيهما طول

وسلامة من ارتفاع الوجنة ومد. وتشبيه غير واحد لوجهه ﷺ بشقة القمر، أي عند التفاته، وقيل احترازاً عما في القمر من السواد، ويرده تشبيه أبي بكر رضي الله تعالى عنه وغيره: «له بدارة القمر».

وفي النهاية أنه ﷺ كان إذا سر صار وجهه كالمرآة فيرى خيال الجدر فيه. وفي رواية يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، وإنما كان الأكثر تشبيهه بالقمر دون الشمس لأن من شاهده ينظره كمال النظر، ويستأنس به لا يتأذى منه بخلاف الشمس في الكل ولذا كان من أسمائه ﷺ. ومن ثم قال الخارجون لملاقاته حين مرجعه من تبوك:

طلـــع البـــدر علينـــا مـــن ثنيـــات الـــوداع
وجـــب الشكـــر علينـــا مـــادعـــا لله داع

ثم هذه التشبيهات جرت على عادة العرب، وإلا فلا مُحَدث يعادل صفاته ﷺ الخَلقية والخِلقية. وأما بصره ﷺ فيكفيك فيه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]، وصح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «كان ﷺ يرى بالليل في الظلمة، كما يرى بالنهار في الضوء». وصح أنه كان في الصلاة يرى من خلفه، كما يرى من أمامه، أي رؤية إدراك كما هي بالبصر، إذ الرؤية الواقعة على جهة الكرامة لا تتوقف عليه، ولا على شعاع، ولا على مقابلة عند أهل السنة، وما قيل كان له عينان بين كتفيه كسم الخياط يرى بهما ولا يحجبهما الثياب، لم يثبت ما يدل عليه، والأصل عدمه كما زُعم أن صورهم كانت تنطبع في قلبه، أو أنها رؤية قلب، أو أن المراد بها العلم بوحي، أو إلهام، وحديث: «إني لأعلم ما وراء جداري»، لم يعرف له سند، وإنما ذكره ابن الجوزي في بعض كتبه بلا إسناد، وبفرض وروده، فهذا غير ما نحن فيه، لأن المنفى علم الغيب بما وراء الجدار، حيث لم يعلم به بوحي أو إلهام، ومن ثم قال: لما ضلت ناقته، وقال بعض المنافقين هو يزعم علم الغيب، والله إني لا أعلم إلا ما علمني ربي، وقد دلني ربي عليها، وهي في موضع كذا احتسبتها شجرة بخطامها، فذهبوا فوجدوها كما أخبر ﷺ، وبفرض التعارض فما مر في حالة الصلاة وهذا خارجها، وجاء أنه كان إذا التفت التفت جميعاً، أي لا يسارق النظر ولا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة كالطائش الخفيف، وأن جل نظره النظر بلحاظه ﷺ وهو جانب العين الذي يلي الصدغ، وإنه ﷺ عظيم العينين، أهدب الأشفار، مشرب العينين بحمرة، وروى مسلم أشكل العينين، والشُكلة الحمرة في بياض العين وهي محمودة، والشُهلة حمرة في سوادها، وفي رواية أدعج العينين، أي شديد سوادهما، أهدب الأشفار أي طويلهما، وأما سمعه ﷺ فحسبك فيه خبر الترمذي: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماء، وحق لها أن تئط، ليس فيها موضع أربع

أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى»[1]، وفي رواية لأبي نعيم «أو قائم».

وأما شعره ﷺ فصح أنه كان بين شعرين لا رَجِل، أي بفتح فكسر، وهو ما يتكسر قليلاً، ولا سَبِط، ولا جَعْد قَطِط، وكان بين أذنيه وعاتقه.

وإنه رجل ليس بالسبط ولا الجعد، ولا تخالف لأن فيه رجولة قليلة، فالأولى لنفي كثيرها، وأنه إلى شحمة أذنيه، وأنه إلى أسفلها، وأنه إلى الكتفين، ولا تخالف أيضاً، لأنه ربما ترك تقصيره فيطول، وربما تداركه فيقصر، وكان إذا انفرق انفرق بنفسه، وإلا تركه معقوصاً، ولعل هذا كان أولاً، وإلا فالذي صح، أنه كان ﷺ يسدله، أي يرسله، ثم فرق، ثم رأيت إن العلماء قالوا: «إن الفرق سنة». لأنه الذي رجع إليه ﷺ. وكان في عنفقته ﷺ وصدغيه شعرات بيض دون العشرين، وإنما لم يكثر فيه، مع إنه نور ووقار لرواية ما شانه الله بالشيب، أي لأن النساء يكرهنه غالباً، ومن كره منه ﷺ شيئاً فقد خاب وكفر.

واختلفت الروايات في تغييره ﷺ لشيبه بنحو الحناء، ولا مخالفة، لأنه ﷺ فعله كثيراً وتركه أكثر، ومن ثم كان سنة عندنا، وصح أنه ﷺ كان كثير شعر اللحية الكريمة. وجاء أنه ﷺ كان يكثر دهن شعر رأسه، وتسريح لحيته، وكان أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، ولم يرد فيه أنه ﷺ حلق رأسه في غير حج أو عمرة، ورواية أنه كان يأخذ من عرض لحيته وطولها غريبة بخلاف رواية واعفوا اللحى، فمن ثم أخذ بها ائمتنا رضي الله عنهم. ورد أنه ﷺ كان ينظر في المرآة إذا سرح لحيته، وأنه ﷺ كانت له مكحلة يكتحل منها بالأثمد في كل عين ثلاثة قبل النوم.

وأما جبينه ﷺ، وحاجباه، وأنفه، ورأسه، فقد جاء أنه واضح الجبين مقرون الحاجبين، أي شعرهما متصل، وأنه غير متصلهما، ورجحه ابن الأثير، وقد يجمع بأنهما كانا كثيري الشعر كما في رواية: «سابغين» كما في أخرى: «دقيقتين» كما في أخرى»: فهما مع كثرة شعرهما فيهما سبوغ إلى آخر العين، ودقة في طرفيهما فلكثرة شعرهما يريان من بعيد كأنهما متصلان وليسا في الحقيقة كذلك.

وصح أنه ضخم الرأس، ضخم الكراديس، أي رؤوس العظام. وجاء، أنه ﷺ أقنى الأنف، أي طويلة طويلة، مع دقة أرنبته وحدب في وسطه، وعبر بعضهم بأنه سائل مرتفع

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٢٣١٢). وابن ماجه في السنن (٤١٩٠). وأحمد في المسند (٥: ١٧٣). والحاكم في المستدرك (٢: ٥١٠).

وسطه، وإنه ﷺ دقيق العرنين، أي أعلى الأنف، وإن من لم يتأمله يحسبه أنه أشم، أي طويل قصبة الأنف.

وأما فمه ﷺ فقد صح أنه واسعه يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، أي لسعة فمه والعرب تمدحه وتذم ضده. وأنه ﷺ أشنب، أي لأسنانه غاية البريق واللمعان، وأنه إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه، وأنه ﷺ مفلج الأسنان أي متفرقها، وفي رواية أنه مفلج الثنيتين، أي أكثر من البقية، وأما ريقه ﷺ فقد صح أنه يوم خيبر تفل في عيني علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه وكان به رمد فبرئ منه لوقته، وأعطاه الراية ففتح الله على يديه، وجاء أنه ﷺ مج في بئر ففاح منه رائحة المسك، وأنه ﷺ بزق في أخرى فلم يكن في المدينة أطيب ماء منها، وأنه ﷺ كان في يوم عاشوراء يبصق في فم رضعائه ورضعاء فاطمة، وينهى عن رضاعهم فيجزئهم ريقه إلى الليل، وأنه ﷺ مضغ قطعة لحم وأعطاها لخمس نسوة فمضغها كل فمتن ولم يوجد لأفواههن ريح خُلوف، وكان في أفواههن نتن، وأما فصاحة لسانه ﷺ، وجوامع كلمه، وبديع بيانه، وحكمه، فأمر أظهر من أن يذكر، وأشهر من أن ينشر، كيف وقد ارتقى في كل ذلك الغاية التي لم يدركها مخلوق، حتى قال بعض العلماء إن كلامه معجز كالقرآن.

وأما صوته ﷺ فروى ابن عساكر خبر ما بعث الله نبياً قط إلا بعثه حسن الوجه، حسن الصوت، حتى بعث الله نبيكم ﷺ، فبعثه حسن الوجه حسن الصوت. والبيهقي خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في خدورهن. وأبو نعيم أنه ﷺ قال للناس يوم الجمعة على المنبر: اجلسوا، فسمعه عبد الله بن رواحة وهو في بني تميم فجلس في مكانه. وابن سعد إنه ﷺ خطب بمنى ففتح الله أسماعهم فسمعوه وهم بمنازلهم، وأما ضحكه ﷺ فهو أنه (سيد) العالمين الأولين والآخرين، كما مر مبسوطاً أول الكتاب (ضحكه)، أي الذي يظهر به سروره هو (التبسم)، كما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها ما رأيته مستجمعاً قط ضاحكاً، أي مقبلاً على الضحك بكليته، إنما كان يتبسم ولا ينافيه خبر البخاري أيضاً في المواقع أهله في رمضان فضحك حتى بدت نواجذه، وهي بالجيم والذال المعجمة الأضراس، وهي لا تكاد تظهر إلا عند المبالغة في الضحك، لأن عائشة رضي الله تعالى عنها إنما نفت رؤيتها، وذلك لا ينافي وقوع غير التبسم منه.

نعم الذي دل عليه مجموع الأحاديث، أن أكثر أوقاته ﷺ هو التبسم، وربما ضحك، والمكروه إنما هو الإكثار والإفراط من الضحك، سواء كان معه قهقهة أم لا، ومن ثم روى البخاري في أدبه وابن ماجه النهي عن كثرته، وأنه يميت القلب. والفرق أن التبسم مبادي

الضحك من غير صوت، والضحك انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفي، فإن كان فيه صوت يسمع من بعيد فهو القهقهة. وأما بكاؤه ﷺ فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ولا برفع صوت، ولكن تدمع عيناه حتى تهملان، ويسمع لصدره أزيز أي غليان يبكي رحمة للميت، وخوفاً على أمته، وشفقة من خشية الله تعالى، وعند سماع القرآن، وأحياناً في صلاة الليل، وجاء أنه ﷺ حفظ من التثاؤب، بل جاء أن كل نبي كذلك.

وأما يده ﷺ فقد وصفه غير واحد كما في عدة طرق بأنه شثن الكفين أي غليظ أصابعهما، وبأنه عبل الذراعين، رحب الكفين، ووصف أيضاً بأن يده ﷺ ألين من الحرير والديباج، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك، ولا ينافي هذا اللين ما مر آنفاً، لأنه جمع له مع لين الجلد غلظ العظام وقوتها. وتفسير الأصمعي الشثن بغلظ في خشونة مردود، بل نقل ابن خالويه عنه أنه قيل له ورد في صفته ﷺ أنه لين الكفين فأقسم أن لا يفسر شيئاً في الحديث وبتسليمه، فهو ﷺ كان ربما حصلت له خشونة في كفيه من جهاد أو عمل في مهنة أهله، وتفسير أبي عبيد له بغلظ الأصابع مع قصرها يرده ما جاء أنه كان سائل الأطراف، فالتحقيق أن الشثن الغلظ من غير خشونة ولا قصر.

روى الحاكم وغيره أنه ﷺ مسح بيده الشريفة الدم عن وجهه، أي الراوي من الصحابة، وصدره من جرح في وجهه، فكان أثر يده الشريفة غرة سائلة كغرة الفرس، وصح أنه ﷺ مسح رأس لحية أبي زيد الأنصاري ثم قال: «اللهم جمله»، فبلغ بضعاً ومائة سنة وما في لحيته بياض ولا في وجهه انقباض. وروى أحمد وغيره أنه مسح رأس عتبة بيده وقال: «بورك فيك»، فكان يمسح بمحل يده ﷺ الورم فيذهب.

وأما إبطاه ﷺ فكانا أبيضين كما جاء عن عدة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، لكن تعارضه الرواية الصحيحة كنت أنظر إلى عفرة إبطيه، والعفرة بياض ليس بالناصع، وقد يجمع بحمل البياض في الأول على البياض غير الناصع، وذكر بعضهم أنه لا شعر بإبطيه، ورد بأنه لم يثبت بوجه، وكان يسيل منهما مثل ريح المسك، وكانت له مسربة، وهي خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة، بل في رواية له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب ليس على صدره ولا على بطنه غيره.

وأما بطنه وظهره ﷺ فجاء أنه مفاض البطن، أي واسعه، وقيل مستوي الظهر مع الصدر، وأن بطنه ﷺ كالقراطيس المثنى بعضها على بعض، وأنه بعيد ما بين المنكبين، أي عريض الصدر.

وأما قلبه ﷺ فهو أول قلب أودع الأسرار الإلٰهية والمعارف الربانية، لأنه أول الخلق كما مر.

وصورته ﷺ آخر صور الأنبياء ﷺ وعليهم أجمعين، فهو أولهم وآخرهم في حيازة أعلى الكمالات الخلقية والخلقية، وما ينبئك بأن قلبه أودع ما لم يودعه غيره، وتكرر شقه وملؤه إيماناً وحكمة، وإخراج حظ الشيطان منه كما مر ذلك مبسوطاً في مبحث رضاعه ﷺ، ومحاسنه الظاهرة التي هي أعلام على الأخلاق الباطنة، فكما أن تلك لم يساوه فيها مخلوق، فكذلك هذه.

وأما جماعه ﷺ فقد صح عن أنس: كنا نتحدث أنه ﷺ أعطي قوة ثلاثين رجلاً في الجماع. وروى الإسماعيلي: أنه أعطي قوة أربعين رجلاً. زاد أبو نعيم عن مجاهد كلهم من رجال أهل الجنة، والرجل في الجنة يعطى قوة مائة، كما صححه الترمذي. وقال غريب وأربعون في مائة بأربعة آلاف. ومع ذلك كان ﷺ على جانب عظيم من تقليل الغذاء، ليخرق الله له العادة في الأمرين ولم يحتلم قط، وكذا الأنبياء لأنه من الشيطان، لكن ظاهر قول عائشة رضي الله عنها يصبح صائماً جنباً من جماع من غير احتلام أنه يحتلم وبتسليه، فالأول محمول على ما إذا كان عن رؤية وقاع، لأن هذا هو الذي من الشيطان بخلاف مجرد نزول المني في النوم.

وأما قدمه ﷺ فجاء عن غير واحد أنه شثن القدمين، أي غليظ أصابعهما، وكانت سبابة قدميه أطول من بقية أصابعهما، ومن روى ذلك في اليد فقد غلط كما بينه غير واحد، وكانت خنصرهما متظاهرة، وكانا لا أخمص لهما، أي ليس في باطنهما كبير انخفاض بحيث يطأ به كله، فهو معتدل الخمص، ومعنى رواية مسح القدمين أن فيهما مع ذلك ليناً وملاسة دون تكسر وتشقق.

وأما طوله ﷺ فكان ربعة، لكنه إلى الطول أقرب كما جاءت به الأحاديث الكثيرة، وفي حديث ما يفيد أن هذا إن مشى وحده أو مع قصير وإلا طال على من ماشاه، وهو ﷺ ينسب إلى الطول، بل لو اكتنفه طويلان طالها، فإذا فارقاه نسب إلى الربعة.

وأما مشيه ﷺ فقد صح عن علي كرم الله وجهه أنه كان إذا مشى تكفأ تكفؤاً، كأنما ينحط من صبب، وفي رواية عنه كان إذا مشى تقلع، والتقلع والانحدار من الصبب قريب، أراد به أنه كان يستعمل التثبت، ولا يتبين منه في هذه الحالة استعجال ومبادرة بالمشي، وهذا هو مراد الناظم بقوله (والمشي) الكائن منه (الهوينا) تصغير الهون وهو السكينة والوقار للتعظيم. وقد مدح الله من يمشون كذلك فقال عز قائلاً: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ

هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ولا ينافي ذلك رواية الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أسرع من مشية رسول الله ﷺ كأن الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث». لأن عجزهم عن لحوقه ليس لأنه كان يجهد نفسه في المشي كما يدل عليه قوله غير مكترث، بل لأنه كان يبارك له في مشيه كما يدل عليه قوله كأن الأرض تطوى له، فهو مع هون مشيته لا يلحق، ومعنى رواية ذريع المشي، أي واسع الخطوة. وقال ابن القيم في رواية: كان إذا مشى تقلع، والتقلع الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط في الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، فكثير من الناس من يمشي دفعة واحدة، كأنه خشبة محمولة، فهي مذمومة كالمشي بالانزعاج كالجمل الأهوج وهذه تدل على قلة عقل صاحبها، لا سيما إذا أكثر فيها الالتفات. وكان ﷺ إذا مشى مع أصحابه قدمهم أمامه وقال: **«خلوا ظهري للملائكة»**[1]، وكان إذا مشى في قمر أو شمس لا يظهر له ظل، وسره قوله ﷺ في دعائه: **«واجعلني نوراً»**.

وأما لونه ﷺ فقد وصفه جمهور أصحابه بالبياض، كما صح عنهم من طرق متعددة، ولا ينافيه رواية «مشرب بحمرة» لأنه مع ذلك يسمى أبيض، وذهب بعض المالكية إلى أن من زعم أنه ﷺ كان أسود كفر، وفي رواية: يقتل، أي لأن السواد يشعر بالنقص.

وأما طيب ريحه ﷺ وعرقه وفضلاته فكان في ذلك الغاية العليا، وإن لم يمس طيباً كما صح عن أنس وغيره، وروى أبو يعلى والطبراني أن رجلاً استعان به ﷺ في تجهيز ابنته، فاستدعى ﷺ بقارورة وسلّت فيها من عرقه وقال: **«مرها فلتطيب به»**، فكانت إذا تطيبت به شم أهل المدينة ذلك الطيب، فسموا بيت المطيبين.

ومر أنه ﷺ كان إذا مر بطريق فمر الناس به وجدوا رائحته وعرفوا بذلك أنه مر منه، وجاء من وجه غريب أن ما كان يخرج منه ﷺ تبتلعه الأرض، وأيده الحافظ عبد الغني بأن أحداً من الصحابة لم يذكر أنه رآه بخلاف البول، فإنهم كانوا يستشفون به كدمه ﷺ، ومن ثم اختار جماعة من أئمتنا رضي الله عنهم طهارة جميع فضلاته ﷺ.

(ونومه) ﷺ (الإغفاء)، أي أ-نف النوم بحيث لا يستغرق، لأن الاستغراق إنما يتولد عن نوم القلب وغفلته المتولدين عن الشبع المفرط، وهو ﷺ كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كان تنام عينه ولا ينام قلبه، كما صح عنه ﷺ، ومن ثم لم ينتقص. وضوؤه بالنوم، وسر ذلك كمال حياة قلبه ﷺ ويقظته ودوام شهوده لربه عزَّ وجل، ومن ثم كان ﷺ إذا نام لا

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣: ٣٩٨). والطحاوي في مشكل الآثار (٣: ١٠).

يوقظ، لأنه لا يدري ما هو فيه، ولا ينافيه نومه ﷺ بالوادي عن صلاة الصبح، حتى حميت الشمس، لأن رؤيتها من وظيفة العين، والقلب إنما يدرك نحو الحدث والألم مما يتعلق به دون العين، فهي نائمة والقلب يقظان، وكأنه إنما لم يدرك مرور الوقت الطويل، فإنه ﷺ نام قبل الفجر إلى أن حميت الشمس، لأنه ﷺ كان مستغرقاً في شهود ربه، وما يفيضه عليه من معارفه، وإنما لم ينبه على ذلك ليقع التشريع بتلك الأحكام الكثيرة جداً التي استفيدت من تلك الواقعة، كسهوه ﷺ في الصلاة، وقيل كان له نوم ينام فيه قلبه أيضاً، وهو الذي كان حينئذ وردّوه بأنه لم يثبت، فهو مردود على قائله كتأويل بعضهم قوله ﷺ: «لا ينام قلبي» بما يخرجه عن ظاهره من غير دليل.

وإذ قد انتهى الكلام على شيء من محاسن ذاته ﷺ التي لم يخلق الله تعالى ذاتاً أشرف منها، فلنذكر شيئاً مما يتعلق بمحاسن أخلاقه وصفاته، التي لم يخلق الله تعالى أشرف منها أيضاً فنقول: **(ما سوى)**، أي ليس غير **(خلقه النسيم)**، أي الريح التي في غاية اللطافة واللين والطيب، يعني لا يشبهها خلق أحد إلا خلقه الكريم العظيم ﷺ. ولما اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال وصفات الجلال والجمال ما لا يحصره حد ولا يحيط به عد، أثنى الله تعالى عليه في كتابه العزيز فقال عزَّ من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤]، فوصفه بالعظم وزاد في المدحة بإتيانه بعلى المشعرة، بأنه ﷺ استعلى على معالي الأخلاق واستولى عليها، فلم يصل إليها مخلوق غيره، ووصف بالعظم دون الكرم الغالب في وصفه، لأن كرمه يراد به السماحة والدماثة، وخلقه ﷺ غير مقصور على ذلك، بل كما عنده غاية الرحمة للمؤمنين، كان عنده الغلظة والشدة على غيرهم، فاعتدل فيه الإنعام والانتقام، ولم تكن له همة سوى الله تعالى، فعاشر الخلق بخلقه وباينهم بقلبه. ومن ثم ورد بسند فيه ضعف **«إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال»**[1]، وفي رواية الموطأ بلاغاً **«بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**[2]، فكل خلق حميد اندرج تحت خلقه ﷺ.

ومن ثم قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن. قال السهروردي رحمه الله تعالى ونفع به في عوارفه في قولها: ذلك رمز غامض وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت من الحضرة الإلٰهية أن تقول كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى، فعبرت عن المعنى بقولها كان خلقه القرآن استحياءً من سبحات الجلال، وستراً للحال، بلطيف المقال، وهذا من وفور عقلها وكمال أدبها. انتهى.

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ١٨٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٤٧).

(٢) رواه القاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٢٠٧). والسيوطي في الدر المنثور (٥٨). ومالك في الموطأ (٩٠٤).

وقال بعض العارفين لما كان خلقه ﷺ أعظم خلق بعثه الله تعالى إلى جميع العالمين، وعلم من كلام عائشة رضي الله تعالى عنها، إن كمالات خلقه ﷺ لا تتناهى، كما أن معاني القرآن لا تتناهى، وأن التعرض لحصر جزئياتها غير مقدور للبشر. ثم ما انطوى عليه ﷺ من كريم الأخلاق، لم يكن باكتساب ورياضة، وإنما كان في أصل خلقته بالجود الإلٰهي والإمداد الرحماني الذي لم تزل تشرق أنواره في قلبه إلى أن وصل لأعظم غاية وأنهى نهاية. واعلم أن كمال الخلق إنما ينشأ عن كمال العقل، لأنه الذي به تقتبس الفضائل، وتجتنب الرذائل، والعقل لسان الروح وترجمان البصيرة، فهو جوهر الإنسان ولكن جوهره البصيرة. والحديث المشهور «**أول ما خلق الله العقل**»، قال له: اقبل الخ... موضوع. وعقل نبينا ﷺ وصل في الكمال إلى غاية لم يصل إليها ذو عقل. ومن ثم روى أبو نعيم وابن عساكر عن وهب أنه وجد في أحد وتسعين كتاباً: إن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال جميع الدنيا، ومما يقطع بصحة ذلك سياسته ﷺ للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة، وصبره على طباعهم المتنافرة والمتباعدة حتى قاتلوا دونه أهاليهم وهجروا في رضاه أوطانهم وأحبابهم، مع أنه لم يطلع على سير الماضين ولا تعلم من العقلاء المعاصرين.

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[عظيم فضله وبعض معجزاته ﷺ]

قوله عند قول الإمام البوصيري رضي الله عنهما:

كل فضل في العالمين فمن فضل النبي استعاره الفضلاء

لأنه الممد لهم إذ هو الوارث للحضرة الإلٰهية والمستمد منها بلا واسطة دون غيره، فإنه لا يستمد منها إلا بواسطته ﷺ، فلا يصل لكامل منها شيء إلا وهو من بعض مدده، وعلى يديه ﷺ، فآيات كل نبيّ إنما هي مقتبسة من نوره، لأنه ﷺ كالشمس وهم عليهم الصلاة والسلام كالكواكب، فهي غير مضيئة بذاتها، وإنما هي مستمدة من نور الشمس، فإذا غابت أظهرت أنوارها، فهم قبل وجوده ﷺ إنما كانوا يظهرون فضله، وأنوارهم مستمدة من نوره الفائض ومدده الواسع. ألا ترى أن ظهور خلافة آدم وإحاطته بالأسماء كلها إنما هو مستمد من جوامع الكلم المخصوص بها نبينا ﷺ.

ثم توالت الخلائق إلى زمن برُز جسمه الشريف، فلما برز كان كالشمس اندرج في نوره كل نور. وانطوى تحت منشور آياته كل آية لغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلم يعط

أحد منهم كرامة أو فضيلة إلا وقد أعطي مثلها أو أعظم منها، كما سبره الأئمة ووضحوه. ومنه أن آدم لما أعطي خلق الله تعالى إياه بيده أعطى نبينا ﷺ أنه شق صدره وملأه ذلك الخلق النبوي، فتولى من آدم الخلق الجسمي، ومن نبينا ﷺ الخلق النبوي، ولذا كان هو المقصود من خلق آدم، ومن ثم لم يكن سجود الملائكة إلا لنور محمد ﷺ الذي في جبهة آدم كما قاله الفخر الرازي.

وإدريس لما أعطي المكان العلي، أعطي لنبينا المعراج الأفخم الأعظم، ونوح لما أن نجا هو وقومه، أعطي لنبينا ﷺ أن الله تعالى لم يهلك أمته بعذاب عام. ووقع في تفسير الرازي أنه ﷺ أعطي مكان السفينة، وأنه ﷺ دعا حجراً وهو على شط ماء فانقلع وسبح إلى أن جاء إليه وشهد له بالرسالة، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لما نجا من النار، نجا نبينا ﷺ من نار الحرب، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

وروى النسائي أنه احترق جلد طفل كله فمسحه، ﷺ فصار صحيحاً، ولما أعطي إبراهيم مقام الخلة، أعطي نبينا ﷺ ذلك، وزاد عليه بمقام المحبة الأرفع من كل مقام، ومن ثم يقول إبراهيم في الموقف: لما يسأل في الشفاعة العظمى، إنما كنت خليلاً من وراء وراء، ولما أعطي بناء الكعبة، أعطي نبينا ﷺ وضع الحجر الذي هو روحها في محله لما اشتد خلاف قريش، ولما أعطي موسى عليه الصلاة والسلام قلب العصا حية، أعطي نبينا ﷺ حنين الجذع الذي هو أبهر وأغرب، وذكر الرازي وغيره: أن أبا جهل أراد أن يرميه ﷺ بحجر فرأى على كتفه ثعبانين فانصرف مرعوباً، واليد البيضاء التي بياضها يغشي البصر، أعطي نبينا عليه الصلاة والسلام أنه كان عنده عباد بن بشر وأسيد بن حضير ليلاً فخرجا وبيد كل واحد عصا فأضاء لهما عصا أحدهما فمشيا في ضوئها، فلما افترقا أضاءت عصا الآخر صححه الحاكم. وأخرج البخاري في تاريخه والبيهقي وأبو نعيم عن حمزة الأسلمي قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فتفرقنا في ليلة ظلماء، فأضاءت أصابعي حتى جمعوا عليها ظهرهم وما هلك منهم، وإن أصابعي لتنير.

وانفلاق البحر، أعطي نبينا ﷺ انشقاق القمر الذي هو أبهر، لأنه تصرف في العالم العلوي، على أنه نقل أن بين السماء والأرض بحراً يسمى المكفوف، بحر الأرض بالنسبة إليه كقطرة من البحر المحيط، فعليه يكون انفلق لنبينا ﷺ ليلة الإسراء.

وتفجير الماء من الحجر، أعطي نبينا ﷺ تفجيره من بين أصابعه وهو أبلغ، لأن الحجر من جنس الأرض التي ينبع منها الماء، والكلام أعطي نبينا ﷺ مثله ليلة الإسراء وزيادة الدنو والرؤية بعين البصر، وشتان ما بين جبل الطور الذي نوجي به موسى عليه الصلاة والسلام، وما فوق العرش الذي نوجي به نبينا ﷺ. وهارون الفصاحة أعطي نبينا أبلغ منها وأبهر على أنها في العبرانية، والعربية أفصح منها، ومن ثم لم تكن فصاحته معجزة بخلاف فصاحة نبينا فإنها

معجزة عند بعضهم، وكذا عند الكل، لكن بالنسبة لما اشتملت عليه من الأخبار بالمغيبات، ولم يتحدّ نبي بها إلا نبينا ﷺ، ولقد قال له بعض أصحابه: «ما رأينا الذي هو أفصح منك». فقال ﷺ: «وما يمنعني وإنما نزل القرآن بلساني لسان عربي مبين».

ويوسف شطر الحسن، وتأويل الرؤيا، أعطي نبينا ﷺ الحسن كله كما في الحديث، وعبر من المرائي فوقعت، كما عبر ما لا يدخله الحصر، وتعبير يوسف عليه الصلاة والسلام إنما كان في [ثلاثة][1] مراء كما في سورته. وداود تليين الحديد، أعطي نبيينا أن العود اليابس اخضرّ بين يديه، وأن شاة أم معبد درت ببركة يده ولم تلد قط. وسليمان كلام الطير: أعطي نبينا ﷺ أنه كلمه الحجر، وسبح الحصا في كفه، وحلمه ذراع الشاة المسمومة، والظبي، وشكا إليه البعير، والريح التي غدوها شهر ورواحها شهر، أعطي نبينا ﷺ البراق، وهو أسرع من الريح بل من البرق الخاطف فحمله من الفرش إلى العرش في لحظة واحدة، وأقل مسافة في ذلك سبعة آلاف سنة وما فوق العرش إلى المستوى والرفرف لا يعلمه إلا الله تعالى. وأيضاً الريح سخرت لسليمان عليه الصلاة والسلام لتحمله إلى نواحي الأرض، ونبينا ﷺ زويت له الأرض، أي جمعت له حتى رأى مشارقها ومغاربها.

وفرق بين من يسعى إلى الأرض ومن تسعى له الأرض. وتسخير الجن، أعطي نبينا ﷺ أن الله مكنه من شيطان تفلت عليه في صلاته فأراد أن يربطه بسارية في المسجد، وسخر له الجن حتى أسلموا، ولم يسخروا لسليمان إلا في العمل. وعد الطير من جملة جنوده تقاومه حمامة الغار وعنكبوته، بل هذا أعجب، لأن فيه الحماية من العدد الكثير بالشيء القليل. وعيسى عليه الصلاة والسلام أبرأ الأكمه، والأبرص، وأحيا الموتى، أعطي ﷺ رد العين إلى محلها بعدما سقطت، فعادت أحسن ما كانت. وذكر الرازي أنه ﷺ مسح برصاء فشفيت. والبيهقي أن رجلاً قال: لا أؤمن بك حتى تحيي لي ابنتي، فأتى قبرها فخاطبها فأجابته. وتسبيح الحصا، وحنين الجذع، أبلغ من تكليم الموتى، لأن هذا من جنس ما لا يتكلم. وبالجملة فقد أوتي ﷺ مثلهم وزاد بخصائص لا تحصى إعلاماً أنه ﷺ الممد لهم دائماً.

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[كلام أنه لم يجتمع في أحد من المحاسن قدر ما اجتمع فيه ﷺ]

قوله في أول شرح الشمائل عند قول الترمذي باب ما جاء من الأحاديث الواردة في خَلْق

(١) ورد في الأصل «ثلاث» لأن «مَرَاءٍ» مفردها «مرأى».

رسول الله ﷺ اعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ اعتقاد أنه لم يجتمع في بدن آدمي من المحاسن الظاهرة ما اجتمع في بدنه ﷺ، وسر ذلك أن المحاسن الظاهرة آيات على المحاسن الباطنة والأخلاق الزكية، ولا أكمل منه ﷺ، ولا مساوي له في هذا المدلول، فكذلك في الدال، ومن ثم نقل القرطبي عن بعضهم أنه لم يظهر تمام حسنه ﷺ وإلا لما أطاقت أعين الصحابة النظر إليه ﷺ.

واعلم أن الكلام على خَلْقه ﷺ يستدعي الكلام على ابتداء وجوده، فاحتيج إلى ذكره وإن أغفله المصنف، وملخصه أنه صح في مسلم أنه ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»(١)، ومن جملة ما كتب في الذكر، وهو أم الكتاب: أن محمداً خاتم النبيين. وصح أيضاً: «**إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته**»(٢)، أي لطريح ملقى قبل نفخ الروح فيه. وصح أيضاً: يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ فقال: «**وآدم بين الروح والجسد**». ويروى «**كتبت من الكتابة**».

وخبر: «**كنت نبياً وآدم بين الماء والطين**»(٣)، قال بعض الحفاظ: لم نقف عليه بهذا اللفظ. وحسن المصنف خبر: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**»(٤). ومعنى وجوب النبوة كتابتها: ثبوتها وظهورها في الخارج نحو كتب الله لأغلبنّ، كتب عليكم الصيام، والمراد ظهورها للملائكة، وروحه ﷺ في عالم الأرواح إعلاماً بعظيم شرفه وتميزه على بقية الأنبياء كما يأتي، وخص الإظهار بحالة كون آدم بين الروح والجسد، لأنه أوان دخول الأرواح في عالم الأجساد والتمايز حينئذٍ أتم وأظهر، فاختص ﷺ بزيادة إظهار شرفه حينئذٍ ليتميز على غيره تمييزاً أعظم وأتم.

وأجاب الغزالي عن وصفه ﷺ نفسه بالنبوة قبل وجود ذاته، وعن خبر «**أنا أول الأنبياء خَلقاً وآخرهم بعثاً**»: بأن المراد بالخلق هنا التقدير لا الإيجاد، فإنه قبل أن تحمل به أمه لم يكن مخلوقاً موجوداً، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير لاحقة في الوجود، فقوله ﷺ: «**كنت نبياً**»، أي في التقدير قبل تمام خلقة آدم، إذ لم ينشأ إلا لينتزع من ذريته

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١: ٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٤٤).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٤١٨). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٤٤). والطبراني في المعجم الكبير (١٨: ٢٥٣).

(٣) رواه السيوطي في الدرر المنتثرة (١٢٠٦). وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢: ٣٤١).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٩). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٧).

[محمداً][١] ﷺ وتحقيقه أن للدار في ذهن المهندسين وجوداً ذهنياً سبباً للوجود الخارجي وسابقاً عليه، فالله تعالى يقدر ثم يوجد على وفق التقدير ثانياً. انتهى أي كلام الغزالي ملخصاً.

وذهب السبكي إلى ما هو أحسن وأبين وهو أنه جاء أن الأرواح خلقت قبل الأجساد، فالإشارة بـ «كنت نبياً» إلى روحه الشريفة أو حقيقة من حقائقه ﷺ ولا يعلمها إلا الله ومن حباه بالاطلاع عليها، ثم إنه تعالى يؤتي كل حقيقة منها ما شاء في أي وقت شاء، فحقيقته ﷺ قد تكون من حين خلق آدم آتاها ذلك الوصف بأن خلقها متهيئة له وأفاضه عليها من ذلك الوقت فصار نبياً وكتب اسمه على العرش، ليعلم ملائكته وغيرهم كرامته عنده، فحقيقته ﷺ موجودة من ذلك الوقت وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها. فحينئذٍ إيتاؤه النبوة والحكمة وسائر الأوصاف حقيقة.

وكمالاتها كلها معجل لا تأخر فيه، وإنما المتأخر تكونه ونقله في الأصلاب والأرحام الطاهرة إلى أن ظهر ﷺ، ومن فسر ذلك بعلم الله بأنه سيصير نبياً لم يصل إلى هذا المعنى لأن علمه تعالى حينئذ محيط بجميع الأشياء فالوصف بالنبوة في ذلك الوقت ينبغي أن يفهم منه أنه أمر ثابت له فيه، وإلا لم يختص بأنه نبي حينئذ، إذ الأنبياء كلهم كذلك بالنسبة لعلمه تعالى. وأخرج ابن سعد عن الشعبي: متى استنبئت يا رسول الله؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد حين أخذ مني الميثاق**»[٢]. وهو يدل على أن آدم عليه الصلاة والسلام لما صور طيناً استخرج منه محمد ﷺ، ونبئ وأخذ منه الميثاق، ثم أعيد إلى ظهره ليخرج أوان وجوده، فهو أولهم خلقاً وخلق آدم السابق كان مواتاً لا روح فيه وهو ﷺ كان حياً حين استخرج ونبئ، وأخذ منه ميثاقه، ولا ينافي هذا أن استخراج ذرية آدم، إنما كان بعد نفخ الروح فيه، لأنه ﷺ خص من بني آدم بذلك الاستخراج الأول.

وفي تفسير العماد بن كثير عن علي وابن عباس رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران]، الآية. إن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ، لئن بعث وهو حي ليؤمنَن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه. وأخذ السبكي من الآية أنه على تقدير مجيئه في زمانهم مرسل إليهم، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء والأمم كلهم من أمته ﷺ، فقوله:

---

(١) ورد في الأصل «محمد».

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٩). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٢٩٢). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ٩٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٧:). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١: ٤٥٣).

«بعثت إلى الناس كافة»[١]. يتناول من قبل زمانه أيضاً، وبه يتبين معنى: **«كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»**[٢].

وهذا حكمة كون الأنبياء في الآخرة تحت لوائه وصلاته بهم ليلة الإسراء. وروى عبد الرزاق بسنده أن النبي ﷺ قال: **«إن الله خلق نور محمد قبل الأشياء من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم»**. الحديث بطوله، واختلفوا في أول المخلوقات بعد النور المحمدي، فقيل العرش، لما صح من قوله ﷺ: **«قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»**[٣].

وصح أول ما خلق الله القلم، قال له: **«اكتب» قال: «رب وما أكتب؟» قال: اكتب مقادير كل شيء»**[٤].

لكن صح في حديث مرفوع: **«أن الماء خلق قبل العرش»**[٥]. فعلم أن أول الأشياء على الإطلاق النور المحمدي، ثم الماء، ثم العرش، ثم القلم، لما علمت من حديث أول ما خلق القلم، مع ما قبله الدالون على أن التقدير وقع بعد العرش، والتقدير وقع عند خلق القلم، فذكر الأولية فيه بالنسبة لما بعده.

وورد لما خلق الله آدم جعل ذلك النور في ظهره، فكان يلمع في جبينه، ولما توفي كان ولده شيث وصيه، فوصى ولده بما وصاه به أبوه أن لا يضع هذا النور إلا في المطهرات من النساء، ولم يزل العمل بهذه الوصية، إلى أن وصل ذلك النور إلى عبد الله مطهراً من سفاح الجاهلية كما أخبر ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث، ثم زوج عبد المطلب ابنه عبد الله بآمنة بنت وهب وهي يومئذٍ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً فدخل بها وحملت بمحمد ﷺ، وظهر

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣: ٣٠٤). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٤٣٣). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٥٩). وابن كثير في التفسير (٢: ١١٢). والطبراني في المعجم الكبير (١٢: ٤١٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٠٠٤:).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٩). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٢٩٢). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ٩٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١: ٤٥٣).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١: ٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٤٤).

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠: ٢٠٤). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٥: ٣٠٠). وابن أبي عاصم في السنة (١: ٤٨).

(٥) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٣١٢).

في حمله ومولده عجائب تدل لما يؤول إليه أمر ظهوره ورسالته، وقد أكثر الناس من الأخبار والآثار الموضوعة والشديدة الضعف فيما يتعلق بحمله ومولده ورضاعه وغيرها، ولم يصح في ذلك إلا أخبار قليلة، كقوله ﷺ من جملة حديث: «وأن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاء[1] قصور الشام، وخصت بذلك لأنها خيرة الله من أرضه»، كما في حديث صحيح: «فهي أفضل الأرض بعد الحرمين» وأول إقليم ظهر فيه ملكه ﷺ. وكولادته مختوناً، فإن الضياء في المختارة صححه، وقال الحاكم تواترت به الأخبار، ولكن تعقبه الذهبي فقال: لا أعلم صحة ذلك، فكيف يكون متواتراً ويؤيده إقرار الزين العراقي بتضعيف غيره أحاديث ولادته مختوناً ﷺ.

واختلف في عام ولادته، فالأكثرون أنه عام الفيل، وحكي الاتفاق عليه والمشهور أنه بعده بخمسين يوماً، وقيل: بأربعين، وقيل: بعشر سنين، وقيل غير ذلك.

ثم الجمهور على أنه ﷺ ولد في شهر ربيع الأول، فقيل: ثانيه، وقيل: ثامنه وانتصر له كثيرون، قيل: وهو اختيار أكثر المحدثين، وقيل: عاشره، وقيل: ثاني عشره، وهو المشهور وقيل غير ذلك.

ولم يكن بالأشهر الحرم ولا بيوم الجمعة إشارة إلى أنه لا يتشرف بالزمان، بل الزمان هو الذي يتشرف به، فلو ولد فيها لتوهم أنه ﷺ تشرف بذلك الزمان الفاضل. ثم الأصح، بل الصواب لصحة حديثه في مسلم أنه ﷺ ولد يوم الإثنين، وهو صحيح في أنه ولد نهاراً، أي عقب الفجر كما في رواية ضعيفة، ومن ثَمَّ قال البدر الزركشي الصحيح أنه ﷺ ولد نهاراً، وتضعيف ابن دحية رواية سقوط النجوم عند مولده بذلك غير صحيح، لأن سقوطها خارق للعادة فلا فرق فيه بين الليل والنهار، أي على أنه بعد الفجر، وللنجوم حينئذٍ سلطان كما في الليل ولا ينافي سقوطها. ثم هل مدة حمله ﷺ تسعة أشهر أو عشرة أو ثمانية أو سبعة أو ستة، أقوال؟

قيل: وولد ﷺ بعسفان والصحيح، بل الصواب بمكة بمولده المشهور الآن وهو الأصح، وقيل: بالشعب، وقيل: بالردم، ثم ارضعته ﷺ حليمة. والمشهور موت أبيه ﷺ بعد حمله بشهرين، ودفن بالمدينة عند أخواله بني النجار، وقيل: وهو في المهد.

وماتت أمه ﷺ ودفنت بالأبواء، وقيل بالحجون، ويدل عليه خبر إحيائها له حتى آمنت به وإن كان فيه ضعف، لا وضع، خلافاً لمن زعمه، على أن بعض متأخري الحفاظ صححه،

---

(١) ورد في بعض المواضع من الأصل «له».

وهل ماتت بعد أربع سنين، أو خمس سنين، أو ست، أو سبع، أو تسع، أو اثني عشر شهراً، أو عشرة أيام، أقوال.

ومات جده ﷺ كافله عبد المطلب وله ثمان سنين، أو تسع، أو عشر، أو ست، أقوال. ثم كفله ﷺ عمه شقيق أبيه أبو طالب، ثم بعد اثنتي عشرة سنة خرج به إلى الشام فرآه ببصرى بحيرا الراهب فأخذ بيده وقال: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. واستدل بأنه لما أشرفوا به من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ ساجداً ولا تسجد إلا لنبي، وبأن بين كتفيه خاتم النبوة، وأمر عمه برده خوفاً عليه من اليهود. رواه ابن أبي شيبة. وفيه: أنه أقبل ﷺ وعليه غمامة تظلله.

ثم خرج ومعه ميسرة غلام خديجة وعمره خمس وعشرون سنة إلى بصرى تاجراً، لها ثم تزوجها بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر وعمرها أربعون سنة، وهدمت قريش الكعبة وعمره ﷺ خمس وثلاثون سنة، فكان ينقل معهم الحجارة، ثم لما بلغ ﷺ أربعين سنة وأربعين يوماً أو شهرين بعثه الله رحمةً للعالمين يوم الإثنين خير مسلم في رمضان، وقيل في ربيع، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشر سنين ﷺ.

وقد تقدم شيء مما في عبارة الإمام ابن حجر هذه في بعض عباراته السابقة المنقولة عن شرحه على الهمزية ولم أتصرف بها بالاختصار محافظة على تمام الفائدة بذكر عباراته كما جرى ذلك في بعض كلامه الآتي أيضاً.

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[طيب ريحه ﷺ]

ما قاله في شرحه على الشمائل عند قول الترمذي باب ما جاء في تعطر رسول الله ﷺ، أي استعماله العطر وهو الطيب، واعلم أنه ﷺ كان طيب الريح دائماً، وإن لم يمس طيباً، ومن ثم قال أنس ما شممت ريحاً قط ولا مسكاً ولا عنبراً أطيب من ريح رسول الله ﷺ، رواه أحمد والبخاري بلفظ مسكة ولا عنبرة، والمصنف في باب الخلق بلفظ مسكاً قط، ولا عطراً، كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. وروى الطبراني أنه ﷺ نفث في يده ثم مسح ظهر عتبة وبطنه فعبق به طيب حتى كان عنده أربع نسوة كلهن تجتهد أن تساويه فيه فلم تستطع مع أنه كان لا يتطيب. وروى هو وأبو يعلى أنه ﷺ سلت لمن استعان به على تجهيز بنته من عرقه في قارورة وقال مرها فلتطيب به، فكانت إذا تطيبت به شم أهل المدينة ذلك الطيب فسموا بيت المطيبين. والدارمي والبيهقي وأبو نعيم أنه لم يكن ﷺ يمر بطريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه

سلكه من طيب عرقه وعرفه، ولم يكن يمر بحجر إلا سجد له. وأبو يعلى والبزار بسند صحيح أنه كان إذا مر بطريق وجدوا منه رائحة الطيب وقالوا: مر رسول الله ﷺ من هذا الطريق. ومسلم أنه ﷺ نام عند أم أنس فعرق فسلت عرقه في قارورتها، فاستيقظ ﷺ وقال: «ما هذا الذي تصنعين يا أم سليم؟»[1] فقالت: هذا عرقك نجعله لطيبنا وهو أطيب الطيب. ثم ذكر الإمام ابن حجر أحاديث تدل على طهارة فضلاته ﷺ، وقال في آخرها وبهذا استدل جمع من أئمتنا المتقدمين يعني الشافعية وغيرهم على طهارة فضلاته ﷺ، وهو المختار وفاقاً لجميع المتأخرين فقد تكاثرت الأدلة عليه، وعده الأئمة من خصائصه ﷺ، قيل وسببه شق جوفه الشريف وغسله.

• ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[جوامع كلمه ﷺ]

ما قاله عند قول الترمذي في الشمائل في حديث ابن أبي هالة: كان ﷺ يتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير، أي كلامه فاصل بين الحق والباطل لا زيادة فيه على المحتاج إليه ولا تقصير فيه عن أداء المراد، بل هو على الغاية المطابقة لما اقتضاه المقام من إيجاز وإطناب أو مساواة، إذ هو شأن الفصيح ولا أفصح منه بل لا مساوي له في فصاحته ﷺ، وقد جمع الناس من كلامه المفرد الموجز البليغ الذي لم يسبقه إليه أحد دواوين كقوله: **«المرء مع من أحب»**[2]. **«أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين»**[3]. **«السعيد من وعظ بغيره»**[4]، **«ليس الخبر كالمعاينة»**[5] رواه أحمد. **«الجالس بالأمانة»** رواه العقيلي **«البلاء موكل بالمنطق»**[6] رواه جماعة. ولم يصب ابن الجوزي في حكمه عليه بالوضع، **«أي داء**

---

(١) رواه النسائي في السنن (٨: ٢١٨). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٤٧). وابن حجر في فتح الباري (١١: ٧٢).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٨: ٤٨). أحمد في المسند (١: ٣٩٢). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٠٠٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٤٦٨٤).

(٣) رواه ابن ماجه في السنن (٨٧). والحاكم في المستدرك (٣: ٤٦). وأحمد في المسند (١: ٢٦٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٠٤).

(٤) رواه السيوطي في الدر المنثور (٢: ٢٢٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٢٣٥).

(٥) رواه أحمد في المسند (١: ٢٧١). والمتقي الهندي في كنز العمال (٥٧٣٨:). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٣٨).

(٦) رواه السيوطي في الدرر المنتثرة (٥٨). وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢: ٢٩٦).

أدوى من البخل»[1] رواه البخاري. «لا ينتطح فيها عنزان»[2]، أي لايقع فيها نزاع. «الحياء خير كله»[3]، «الخيل في نواصيها الخير»[4]. «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[5]. «الحرب خدعة»[6]، «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[7]، متفق عليها. «يا خيل الله اركبي»[8] رواه جماعة. «كل الصيد في جوف الفرا وهو مرسل جيد»[9]. والفرا بفتح الفاء حمار الوحش، «إياكم وخضراء الدمن»[10] المرأة الحسناء في المنبت السوء، رواه جماعة. «لا يجني جان إلا على نفسه»[11] رواه أحمد وغيره. «استعينوا على الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»[12]، الطبراني. «المستشار مؤتمن»[13]. «الندم توبة»[14] الطبراني، «الدال على الخير كفاعله»[15] العسكري وغيره، «حبك الشيء يعمي ويصم» أبو داود وغيره وهو حسن خلافاً لمن زعم وضعه، «لا ترفع عصاك عن أهلك أدباً»[16] رواه أحمد وغيره. «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[17] رواه مسلم. «زر غباً تزدد

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣: ٢١٩). والسيوطي في الدر المنثور (٦: ١٩٧).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ١: ١٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٤١٣١).

(٣) رواه أبو داود في السنن (٤٧٩٦). وأحمد في المسند (٤: ٤٢٦). والمتقي الهندي في كنز العمال (٥٧٦٢).

(٤) رواه أحمد في المسند (٢: ١٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٠٧٦٢).

(٥) رواه البخاري في الصحيح (٥: ١٩٢). وابن ماجه في السنن (٢٠٠٦). وأحمد في المسند (١: ٥٩).

(٦) رواه أبو داود في السنن (٢٧٣٦). والترمذي في السنن (١٦٧٥). وأحمد في المسند (١: ٩٠). وابن ماجه في السنن (٢٨٣٣).

(٧) رواه البخاري في الصحيح (٨: ٣٤). وأحمد في المسند (٢: ٢٣٦).

(٨) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ١: ٥٨). وابن حجر في فتح الباري (٧: ٤١٣). والطبري في التفسير (٦: ١٣٣).

(٩) رواه الفتني في تذكرة الموضوعات (١٦٨). والعجلوني في كشف الخفا (٢: ١٧٧).

(١٠) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٣٤٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٤٥٨٧). والفتني في تذكرة الموضوعات (١٢٧).

(١١) رواه أحمد في المسند (٣: ٤٩٩). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٠١٠٦).

(١٢) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (٢: ١٦٥). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٢: ٧٧١).

(١٣) رواه أبو داود في السنن (٥١٢٨:). والترمذي في السنن (٢٨٢٢). وابن ماجه في السنن (٣٧٤٥). وأحمد في المسند (٥: ٢٧٤).

(١٤) رواه ابن ماجه في السنن (٤٢٥٢). وأحمد في المسند (١: ٣٧٦). والبيهقي في السنن الكبرى (١٠: ١٥٤). والحاكم في المستدرك (٤: ٢٤٣).

(١٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٦: ٢٣٠). والقرطبي في التفسير (٦: ٤٦).

(١٦) رواه الطبراني في المعجم الصغير (١: ٤٤).

(١٧) رواه أبو داود كتاب العلم، باب ١. وأحمد في المسند (٢: ٢٥٢). والقرطبي في التفسير (١: ٨).

حباً»[١] رواه الطبراني وغيره. «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم**»[٢] رواه أبو يعلى والبزار. «**من شادّ هذا الدين غلبه**» رواه العسكري، «**إن الدين يسر ولم يشادّ الدين أحد إلا غلبه**»[٣]. الحديث وهو في البخاري، «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»[٤] صححه الحاكم واعترض بأن في سنده واهياً. «**الشتاء ربيع المؤمن قصر نهاره فصامه وطال ليله فقامه**»[٥] رواه البيهقي وغيره، «**القناعة مال لا ينفد وكنز لا يفنى**»[٦] الطبراني وغيره. «**الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد للناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم**» رواه كثيرون وضعفه البيهقي لكن له شواهد. «**الاقتصاد نصف العيش، والتودد لناس نصف العقل، وحسن الخلق نصف الدين**» الطبراني وغيره. «**السؤال نصف العلم، والرفق نصف المعيشة، وما عال امرؤ في اقتصاد**»[٧]. العسكري «**لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق**»[٨] ابن حبان في صحيحه والبيهقي، «**التدبير نصف المعيشة، والتودد نصف العقل، والهم نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين**»[٩] الديلمي. «**أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**»[١٠] حديث حسن، وإن نازع فيه جمع، بل قال أحمد: باطل. «**النساء حبائل الشيطان**»[١١] الديلمي، «**حسن العهد من الإيمان**»، صححه الحاكم، «**جمال المرء فصاحة لسانه**»[١٢] رواه جماعة،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣: ٣٤٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٤٧٧٨:).
(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦: ٢٢٠).
(٣) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٦). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦: ٢٦٨). والبغوي في شرح السنة (٣: ٢٥٦).
(٤) رواه أحمد في المسند (٤: ٢٤). والبيهقي في السنن الكبرى (٣: ٣٦٩). والحاكم في المستدرك (١: ٥٧).
(٥) رواه أحمد في المسند (٣: ٧٥). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٢٩٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٢٠٨).
(٦) رواه السيوطي في الدر المنثور (٤: ١٣٠). والبغدادي في الفقيه والمتفقه (٢: ٩٤).
(٧) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ((٧: ١٦٤). :). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٩٢٦٠).
(٨) رواه ابن ماجه في السنن (٤٢١٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٥٤٣٦).
(٩) رواه السيوطي في الدر المنثور (٤: ١٧٩). والمتقي الهندي في كنز العمال (٥٤٣٥). والعجلوني في كشف الخفا (١: ١٨، ٣٥٩).
(١٠) رواه أبو داود في السنن (٣٥٣٤). والترمذي في السنن (١٢٦٤). وأحمد في المسند (٣: ٤١٤). والبيهقي في السنن الكبرى (١: ٢٧١). والزيلعي في نصب الراية (٤: ١١٩).
(١١) رواه المنذري عن حمل الأسفار (٣: ٩٦). والعجلوني في كشف الخفا (٢: ٤٣٦).
(١٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٢٨٧٧٥). والعجلوني في كشف الخفا (١: ٣٩٩). والفتني في تذكرة الموضوعات (٢٠٤). وفيه: «الرجل» بدل «المرء».

«منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا»[١] له طرق تحسنه، «لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعز من العقل، ولا وحشة أشد من العجب»[٢]. ابن ماجه، «الذنب لا ينسى، والبر لا يبلى، والديان لا يموت، فكن كيف شئت»[٣]. الديلمي، «ما جمع شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم»[٤]، العسكري. «أفضل الإيمان التحبب إلى الناس»[٥] «ثلاث من لم يكن فيه فليس مني ولا من الله، حلم يرد به جهل الجاهل، وحسن خلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن معاصي الله تعالى»[٦]. العسكري. «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور»[٧]. البيهقي وغيره. «صنائع المعروف تقي مصارع السوء وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»[٨] سنده حسن. «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٩]، مسلم. «إن الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل، قادر، يحق فيها الحق، ويبطل الباطل، فكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها ولدها»[١٠]، أبو نعيم. «اليمين حنث أو ندم»[١١] أبو يعلى وغيره، «لا تظهر الشماتة بأخيك

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١: ٩٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٤١١٣). والفتني في تذكرة الموضوعات (٢١).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣: ٦٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٤١٣٥).

(٣) رواه العجلوني في كشف الخفا (٢: ١٨٣).

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (١: ١٢١). والعجلوني في كشف الخفا (٢: ٤١٦).

(٥) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٧٤).

(٦) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٤٣٣٣٠).

(٧) رواه البخاري في الصحيح (٨: ١١٠). والترمذي في السنن (٢٣٣٣). وابن ماجه في السنن (٤١١٤). والبغوي في شرح السنة (١٤: ٢٣١). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٢٣٦). والطبراني في المعجم الكبير (١٢: ٣٩٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٢٧٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤: ٢٤٢). وابن حجر في فتح الباري (١١: ٢٣٣). وأبو نعيم في حلية الأولياء (١: ٣١٣).

(٨) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣: ١١٥). والطبراني في المعجم الكبير (٨: ٣١٢). والشهاب في المسند (١٠١). والسيوطي في الدر المنثور (١: ٣٥٤). والمنذري في الترغيب والترهيب (٢: ٣٠). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٥٩٦٥). والعجلوني في كشف الخفا (٢: ٢٩). والألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٠٨).

(٩) رواه مسلم في الصحيح (البر والصلة: ٦٩). والترمذي في السنن (٢٠٢٩). والطبراني في المعجم الكبير (١١: ٤٠٥).

(١٠) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣: ٢١٦). والشافعي في المسند (٦٧). وميزان الاعتدال (٣٢٠٨).

(١١) رواه العجلوني في كشف الخفا (٢: ٥٥٨). وميزان الاعتدال (١١٧٩). وفيه: «و» بدل «أو».

فيعافيه الله ويبتليك»[١]. الترمذي، **«من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»**[٢]. البخاري وغيره، ومن جوامعه ﷺ إنه جمع متفرقات الشرائع في أربعة أحاديث: **«إنما الأعمال بالنيات»**[٣]، **«البينة على المدعي واليمين على من أنكره»**[٤]، **«لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»**[٥] الشيخان، **«الحلال بيّن والحرام بين»**[٦] مسلم.

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[عيشه ﷺ]

ما نقله في شرح الشمائل أيضاً في باب ما جاء في عيش رسول الله ﷺ عن الحليمي في شعب الإيمان، وهو قوله من تعظيمه ﷺ، أن لا يوصف بما هو عند الناس من أوصاف الضعة، فلا يقال كان فقيراً، ومن ثَمَّ أنكر بعضهم إطلاق الزهد في حقه. ولقد قيل لمحمد بن

---

(١) رواه أبو حنيفة في جامع المسانيد (١: ٢٥).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٨: ١٢٥). والبيهقي في السنن الكبرى (٨: ١٦٦). وابن حجر في فتح الباري (١١: ٣٠٨). وابن ماجه في السنن (٤٨١٢). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ٢٢٠).

(٣) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٢). وأبو داود في السنن (٢٢٠١). والترمذي في السنن (١٦٤٧). والنسائي في السنن (الطهارة ب ٥٩). وابن ماجه في السنن (٤٢٢٧). والشهاب في المسند (١١٧١). وأحمد في المسند (١: ٢٥). والبيهقي في السنن الكبرى (١: ٤١). والمنذري في الترغيب والترهيب (١: ٥٦). وابن كثير في التفسير (٢: ٣٤٥). وابن عبد البر في التمهيد (٧: ١٠٦). وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦: ٣٤٢).

(٤) رواه الترمذي في السنن (١٣٤١). والبيهقي في السنن الكبرى (٨: ٢٧٩). والبغوي في شرح السنة (١٠: ١٠١). وابن حجر في تلخيص الحبير (٤: ٣٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٣٧٦٩). والزيلعي في نصب الراية (٤: ٩٥). وابن حجر في فتح الباري (٥: ٢٨٢). والألباني في إرواء الغليل (٦: ٣٥٧). وابن عساكر في كنز العمال (١٥٢٨٢). والباعاتي في بدائع المنن (١٤٠١). والسيوطي في جمع الجوامع (١٠٣٧).

(٥) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٠). ومسلم في الصحيح (الإيمان ب ١٧). والترمذي في السنن (٢٥١٥). والنسائي في السنن (٨: ١١٥). وأحمد في المسند (٣: ١٧٦). والدارمي في السنن (٢: ٣٠٧). والمنذري في الترغيب (٢: ٥٧٨). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦: ٢٩١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٦٠). والألباني في السلسلة الصحيحة (٧٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (٩٦). وابن حجر في فتح الباري (١: ٥٧). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٢: ٤٦١).

(٦) رواه مسلم في الصحيح (المساقاة: ١٠٨). والترمذي في السنن (١٢٠٥). والطحاوي في مشكل الآثار وابن حجر في فتح الباري (١: ١٢٦). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢٧٦٢). والمنذري في الترغيب والترهيب (٢: ٥٥٤). وأبو حنيفة في المسند (١٢٠). والسهمي في تاريخ جرجان (٣١٧). وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤: ١٢٧). وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣: ٢٧٣).

واسع: فلان زاهد. قال: وما قدر الدنيا حتى يزهد فيها. ونقل السبكي عن الشفار وأقره: أن فقهاء الأندلس أفتوا بقتل من استخف بحقه ﷺ فسماه يتيماً، مناظرته باليتيم، وزعم أن زهده ﷺ لم يكن قصداً ولو قدر على الطيبات لأكلها.

وذكر البدر الزركشي عن بعض الفقهاء المتأخرين أنه ﷺ لم يكن فقيراً من المال قط ولا حاله حال فقير، بل كان أغنى الناس بالله، قد كُفي أمر دنياه في نفسه وعياله، وكان يقول في قوله ﷺ «اللهم أحيني مسكيناً»[1] المراد استكانة القلب لا المسكنة الشرعية، وكان يشدد النكير على من يعتقد خلاف ذلك انتهى.

ومن جواهر الإمام ابن حجر رضي الله عنه

[تواضعه ﷺ]

قوله في شرح الشمائل أيضاً في باب ما جاء في تواضع رسول الله ﷺ، اعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع وهو التذلل والتخشع إلا إذا دام تجلي نور الشهود في قلبه، لأنه حينئذٍ يهذب النفس، ويصفيها عن غش الكبر والعجب فتلين وتطمئن للحق والخلق، بمحو آثارها، وسكون وهجها، ونسيان حقها، والذهول عن النظر إلى قدرها.

ولما كان الحظ الأوفر من ذلك لنبينا محمد ﷺ كان أشد الناس تواضعاً وحسبك شاهداً على ذلك أن الله خيره أن يكون ملكاً نبياً أو نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً، ومن ثَمَّ لم يأكل متكئاً بعدُ حتى فارق الدنيا، ولم يقل لشيء فعله أنس خادمه أفٍ قطُّ وما ضرب أحداً من عبيده وإمائه.

وهذا أمر لا يتسع له الطبع البشري لولا التأييد الإلهي، وفي مسلم: ما رأيت أحداً أرحم بالعباد من رسول الله ﷺ.

ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت: كيف كان ﷺ إذا خلا في بيته؟ قالت: ألين الناس، بساماً ضحاكاً لم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه، وعنها: ما كان أحد أحسن خُلقاً منه ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه إلا قال: «لبيك»[2]، وكان يركب الحمار ويردف خلفه.

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٢٣٥٢). وابن ماجه في السنن (٤١٢٦). والبيهقي في السنن الكبرى (٧: ١٢). والحاكم في المستدرك (٤: ٣٢٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٦٩). والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٢٦٢). والعجلوني في كشف الخفا (١: ٢٠٦).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ١٤٤). وأبو نعيم في دلائل النبوة (١: ٥٧). وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (٩٣٣). =

وروى أبو داود وغيره أن قيس بن سعد صحبه راكباً حمار أبيه فقال له: «اركب» فأبى، فقال له: «**إما أن تركب وإما أن تنصرف**»[١].

وفي رواية «**اركب أمامي فصاحب الدابة أولى بمقدمها**»[٢]، وفي مختصر السيرة للمحب الطبري: أنه ركب حماراً عرياناً إلى قُبا ومعه أبو هريرة فقال: «**أحملك**»[٣] فقال: ما شئت يا رسول الله، فقال: «**اركب**»[٤] فوثب ليركب فلم يقدر فاستمسك به ﷺ فوقعا جميعاً، ثم ركب، وقال له مثل ذلك ففعل فوقعا جميعاً، ثم ركب، وقال له مثل ذلك فقال: لا والذي بعثك بالحق نبياً ما رميتك ثالثاً، وأنه كان في سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل: «عليَّ ذبحها». وقال آخر: عليَّ سلخها، وقال آخر: وعليَّ طبخها، فقال ﷺ: «**عليَّ جمع الحطب**» فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، فقال: «**قد علمت أنكم تكفونني ولكن أكره أن أتميز عليكم وأن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه**»[٥] انتهى.

وروى ابن عساكر القصة الأخيرة مختصرة، وروى أيضاً أنه ﷺ كان في الطواف فانقطع شِسعه[٦]، فقال بعض أصحابه: ناولني أصلحه، فقال: «**هذه أَثرة ولا أحب الأثرة**»[٧] وهي بفتح أوليها الاستئثار أي الانفراد بالشيء، وفي الشفاء أنه ﷺ خدم وفد النجاشي، فقال أصحابه: نكفيك فقال: «**إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم**»[٨].

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[الدعاء بزيادة شرفه ﷺ]

ما هو مذكور في كتابه الفتاوى الحديثية ونصه:

---

(١) رواه أبو داود في السنن (الأدب، ب ١٣٩). وأحمد في المسند (٣: ٤٢١). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٦: ٨٩). والطبراني في المعجم الكبير (١٨: ٣٥٤). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٢٤٥). وابن كثير في التفسير (٦: ٣٤٧).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٠٤).

(٣) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨: ١٠٢).

(٤) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨: ١٠٢).

(٥) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٠٢).

(٦) شسع النعل: قِبالُها الذي يُشَدّ إلى زمامها، والزُّكام: السير الذي يُعقد فيه الشِّسع. [لسان العرب، مادة: شسع].

(٧) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣: ٢٤٤). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٠٢).

(٨) رواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢: ١١٨). والبيهقي في دلائل النبوة (٢: ٣٠٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٠٢).

سئل: نفع الله بعلومه وبركته عن رجل قال الفاتحة زيادة في شرف النبي ﷺ، فقال له رجل من أهل العلم: لا تعد إلى هذا الذي صدر منك تكفر، فهل الأمر كذلك؟ وهل يجوز هذا الإنكار، والحكم على القائل بالكفر؟ وما يلزم المنكر:

فأجاب: متع الله بحياته بقوله لم يصب هذا المنكر في إنكاره ذلك، وهو دال على قلة علمه وسوء فهمه، بل وعلى قبيح مجازفته في دين الله تعالى، وتهوره بما قد يؤول به إلى الكفر، والعياذ بالله، إذ من كفّر مسلماً بغير موجب لذلك كفر على تفصيل ذكره الأئمة رضي الله عنهم، فإنكاره هذا إما حرام، أو كفر، فالتحريم محقق والكفر مشكوك فيه، إذ لم يتحقق شرطه، فعلى حاكم الشريعة المطهرة أن يبالغ في زجر هذا المنكر بتعزيره بما يليق به في عظيم جراءته على الشريعة المطهرة وكذبه عليها بما لم يقله أحد من أهلها، بل صرح بعض أئمتنا بخلافه، بل الكتاب والسنة دالان على أن طلب الزيادة له ﷺ أمر مطلوب محمود.

قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وروى مسلم أنه ﷺ كان يقول في دعائه: «واجعل الحياة زيادة لي في كل خير»، وطلب كون الفاتحة أو غيرها زيادة في شرفه، طلب لزيادة علمه وترقيه في مدارج كمالاته العلية، وإن كان كماله من أصله قد وصل الغاية التي لم يصل إليها كمال مخلوق، فعلم أن كلاً من الآية الشريفة والحديث الصحيح دال على أن مقامه ﷺ وكماله يقبل الزيادة في العلم والثواب، وسائر المراتب والدرجات، وعلى أن غايات كماله لا حد لها ولا انتهاء، بل هو دائم الترقي في تلك المقامات العلية والدرجات السنية بما لا يطلع عليه ويعلم كنهه إلا الله تعالى.

وعلى أن كماله ﷺ مع جلالته لا يضره احتياجه إلى مزيد ترق واستمداد من فيض فضل الله وجوده وكرمه الذاتي الذي لا غاية له وانتهاء، وعلى أن طلب الزيادة لا يشعر بأن ثَمَّ نقصاً، إذ لا شك أن علمه ﷺ أكمل العلوم، ومع ذلك فقد أمره الله بطلب زيادته، فلنكن نحن مأمورين بطلب زيادة ذلك له ﷺ، وقد ورد أيضاً أمرنا بذلك فيما يندب من الدعاء عند رؤية الكعبة المعظمة، إذ فيه وزد من شرفه وعظمه وحجه واعتمره تشريفاً إلى آخره.

وهو ﷺ كسائر الأنبياء الذين حجوا البيت وهم كل الأنبياء إلا فرقة قليلة منهم، على الخلاف في ذلك داخل فيمن شرفه وعظمه وحجه واعتمره.

وإذا علم دخولهم في ذلك العموم من دلالة العام ظنية أو [قطعية][1] على الخلاف، فبها علم أنا مأمورون بطلب الدعاء له ﷺ، ولغيره من الأنبياء المذكورين بزيادة التشريف والتكريم

---

(١) وردت في الأصل: «قطعة».

وأن الدعاء بزيادة ذلك له ﷺ أمر مندوب مستحسن، ويؤيده ما رواه الطبراني عن علي رضي الله عنه، لكن نظر في سنده ابن كثير أنه كان يعلم الناس كيفية الصلاة على النبي ﷺ، وفيها ما يصرح بطلب الزيادة له ﷺ في مضاعفات الخير وجزيل العطاء.

وبهذا الذي ذكرته وإن لم أرَ من سبقني للاستدلال في هذه المسألة بشيء منه يظهر الرد على شيخ الإسلام صالح البلقيني في قوله: لا ينبغي أن يقدم على ذلك إلا بدليل، فيقال له: وأي دليل أعلى من الكتاب والسنة؟ وقد بان بما ذكرته دلالتهما على طلب الدعاء له ﷺ بالزيادة في شرفه، إذ الشرف العلو كما قال أهل اللغة، والمراد به هنا علو المرتبة والمكانة، وعلوها بالزيادة في العلم والخير وسائر الدرجات والمراتب وكل من العلم والخير قد أمرنا بطلب الزيادة له ﷺ فيه بالطريق الذي قدمناه، فلنكن مأمورين بطلب زيادة الشرف له، وعلى شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في قوله: هذا الدعاء مخترع من أهل العصر ولو استحضر ما قاله النووي لم يقل ذلك، بل سبق النووي إلى نحو ذلك، الإمام المجتهد أبو عبد الله الحليمي من أكابر أصحابنا وقدمائهم وصاحبه الإمام البيهقي، وقوله: ولا أصل له في السنة، فيقال له: بل له أصل في الكتاب والسنة معاً، كما تقرر على أن الظاهر أنه إنما قال: هذا قبل اطلاعه على ما يأتي عنه.

ثم اعلم أن هذين الإمامين لم ينازعا في جواز ذلك، وإنما نزاعهما في هل ورد دليل يدل على طلبه، فيفعل أولاً فلا ينبغي فعله.

وقد علمت أنه ورد ما يدل على طلبه، ومن ثَمَّ لما كان النووي رحمه الله وشكر سعيه متحلياً من السنة بما لم يلحقه فيه أحد ممن جاء بعده كما صرح به بعض الحفاظ، دعا بطلب الزيادة له ﷺ في شرفه في خطبتي كتابيه اللذين عليهما معول المذهب وهما: الروضة، والمنهاج، فقال في خطبة كل منهما ﷺ: وزاده فضلاً وشرفاً لديه.

وهذه العبارة متداولة في أيدي العلماء منذ نحو ثلاثمائة سنة، لا نعلم أحداً ممن تكلم على الروضة أو المنهاج اعترضها بوجه من الوجوه، ولعل هذين الإمامين غفلا عنها بدليل قول الثاني: هذا الدعاء مخترع من أهل العصر. إذ لو استحضر ما قاله النووي لم يقل ذلك، بل سبق النووي إلى نحو ذلك الإمام المجتهد أبو عبد الله الحليمي، من أكابر أصحابنا، وقدمائهم، وصاحبه البيهقي، وقد ذكرت عبارتهما في إفتاء أبسط من هذا، ومما صرح به الأول أن إجزال أجره ﷺ ومثوبته وإبداء فضله للأولين والآخرين بالمقام المحمود وتفضيله على كافة المقربين، وإن كان تعالى قد أوجب هذه الأمور له ﷺ، فإن كل شيء منها ذو درجات ومراتب، فقد يجوز إذا صلى عليه واحد من أمته فاستجيب دعاؤه أن يزاد النبي ﷺ

بذلك الدعاء في كل شيء مما سميناه رتبة ودرجة، انتهى المقصود منه.

وهذا تصريح منه بأن طلب الزيادة في شرفه ﷺ داخل في الصلاة عليه، وقد أمرنا بها فلنكن مأمورين بما تضمنته كما صرح به هذا الإمام وناهيك به.

ومما صرح به الثاني في معنى: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته سلمك الله من المذام والنقائص. فإذا قلت: اللهم سلم على محمد إنما تريد اللهم اكتب له في دعوته وأمته السلامة من كل نقص، وزد دعوته على ممر الأيام علواً وأمته تكاثراً وذكره ارتفاعاً انتهى.

المقصود منه فتأمل قوله: من المذام والنقائص، وقوله: من كل نقص. وأن ذلك هو مفهوم السلام الذي أمرنا به تجده صريحاً في أمرنا بطلب زيادة الشرف له، على أنه لا شيء يدل على ما توهمه هذا المنكر الجاهل، إذ غاية طلب الزيادة أنه يدل على عدم الكمال المطلق، ونحن نلتزمه إذ الكمال المطلق ليس إلا لله وحده، ونبينا ﷺ وإن كان أكمل المخلوقات إلا أن كماله ليس مطلقاً فقبل الزيادة ومراتب تلك الزيادة قد يسمى كل منها عدم كمال بالنسبة لما فوقه من كمال آخر أعلى منه وهكذا.

ونقل الحافظ السخاوي عن شيخه ابن حجر أنه جعل الحديث عن أُبي رضي الله عنه وفي آخره قلت: اجعل لك صلاتي كلها، أي دعائي كله كما في رواية قال: إذا تكفي همك، ويغفر ذنبك أصلاً عظيماً لمن عقب يدعو قراءته فيقول: اجعل ثواب ذلك لسيدنا رسول الله ﷺ.

وكأنه قصد بهذا الرد على شيخه شيخ الإسلام السراج البلقيني في قوله لا ينبغي ذلك إلا بدليل. وهذا هو الذي أخذ عنه ولده علم الدين ما مر عنه وقد علمت ردهما.

ثم ذكر السخاوي عن شيخه ابن حجر أيضاً ما حاصله أن من يقول: مثل ثواب ذلك زيادة في شرفه. مع العلم بكماله في الشرف، لعله لحظ أن معنى طلب الزيادة أن يتقبل الله قراءته فيثيبه عليها، وإذا أثيب أحد من الأمة على طاعة، كان لمعلمه أجرٍ وللمعلم الأول وهو الشارع ﷺ نظير جميع ذلك، فهذا معنى الزيادة في شرفه.

وإن كان شرفه مستقراً حاصلاً وحينئذٍ معنى: اجعل مثل ثواب ذلك تقبله ليحصل مثل ثوابه للنبي ﷺ.

وحاصله أن طلب الزيادة له ﷺ يكون بنحو طلب تكثير أتباعه سيما العلماء، أي ويرفع درجاته ومراتبه العلية كما مر عن الحليمي، وقد رد شيخ الإسلام أبو عبد الله لقاياتي ما مر عن العلم وأبيه فقال في الروضة: إن القارئ إذا قرأ وجعل ما حصل من الأجر للميت كان دعاء بحصول ذلك الأجر للميت فينفعه.

وفي الإذكار المختار أن يدعو بالجعل فيقول: اللهم اجعل ثوابها واصلاً لفلان. واعلم أن القدرة الإلٰهية مهما تتعلق بشيء يكن لا محالة، وقد قرر في علم الكلام أن قدرته سبحانه وتعالى لا تتناهى. وأيضاً فخير الله لا ينفد، والكامل المترقي في درجات الكمال هو أبداً كامل. انتهى.

ووافقه شيخ الإسلام الشرف المناوي فأفتى باستحسان هذا الدعاء ووافقهما أيضاً صاحبهما إمام الحنفية الكمال بن الهمام، بل زاد عليهما بالمبالغة في رفعة شأن هذا الدعاء، حيث جعل كل ما صح من الكيفيات الواردة في الصلاة عليه ﷺ موجوداً في كيفية واحدة، ومن جملتها الدعاء بزيادة الشرف وهي: اللهم صل أبداً أفضل صلواتك على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك وآله وسلم تسليماً، وزده تشريفاً وتكريماً، وأنزله المنزل المقرب عندك يوم القيامة. انتهى.

فجعل طلب زيادة الشرف له ﷺ من جملة الأسباب المقتضية لفضل هذه الكيفية الواردة عنه ﷺ، ووافقهم صاحبهم شيخنا شيخ الإسلام خاتمة المحققين أبو يحيى زكريا الأنصاري فإنه سئل عن واعظ قال: لا يجوز إجماعاً لقارئ القرآن والحديث أن يهدي مثل ثواب ذلك في صحائف سيدنا رسول الله ﷺ. وبه أفتى المتقدمون والمتأخرون.

فأجاب: بأن ما ادعاه هذا الواعظ القليل المعرفة يستحق بكذبه على الإجماع التعزير البالغ وزعمه أن ذلك لا يجوز. الحق خلافه بل يجوز.

والعجب له كيف ساغ له دعوى إجماع المسلمين وإفتاء المتقدمين والمتأخرين على عدم الجواز، وهل هذا إلا مجازفة في دين الله؟ فإن جوازه كما ترى شائعاً ذائعاً في الأعصار والأمصار.

فإن قلت: الدعاء بالزيادة في شرفه ﷺ ممتنع لأنه يقتضي أنه متصف بضدها حتى تطلب له الزيادة وهو محال في حقه. **قلت**: اعلم أن نبينا ﷺ هو أشرف المخلوقات وأكملهم، فهو في كمال وزيادة أبداً، يترقى من كمال إلى كمال إلى ما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى، فلا محال في تزايد كماله وترقيه بالنسبة إلى نفسه بعد كونه أكمل المخلوقات، ونحن نطلب له الزيادة في الكمال إلى تلك الدرجة التي لا يعلم كنهها إلا الله تعالى، وفائدة طلبنا له ذلك مع أنه حاصل له لا محالة بوعد الله تعالى أمور:

منها: إظهار شرفه ﷺ، وكمال منزلته، وعظم قدره، ورفع ذكره وتوقيره.

ومنها: مجازاته ﷺ على إحسانه إلينا.

ومنها: حصول الثواب لنا، ويزيد اطلاعاً على ما ذكرناه ما في الحديث الصحيح: كان ﷺ أجود الناس. الحديث.

فانظر ذلك وتأمله، فإنه تخصيص في تخصيص على سبيل الترقي فضل أولاً: جوده على الناس كلهم.

وثانياً: جوده في رمضان على جوده في سائر أوقاته.

وثالثاً: جوده عند لقاء جبريل على جوده في رمضان مطلقاً، ففيه تزايد وتفاضل باعتبار نفسه على سبيل الترقي فاعتبر ما نحن فيه بهذا.

ونظير ما نحن فيه من طلب الزيادة اللهم زد هذا البيت تشريفاً في حق بيت الله تعالى الحرام فإن الدعاء بزيادة الشرف مأمور به ولم يقل أحد أن ذلك ممتنع. انتهى.

فتأمل ذلك وما قبله تجد هذا المنكر قد ارتكب في إنكاره هنا متن عمياء، وخَبَطَ خَبْطَ عشواء وليت دينه سلم له. كلا إن إنكاره المباح، بل الحسن والترقي عن ذلك إلى جعله كفراً خطأ عظيم إثمه، كبير جرمه، فعليه عقوبة ذلك في الدنيا والآخرة، على أن قول القائل: الفاتحة زيادة في شرفه ﷺ هل هو مبتدأ، أو خبر، أو مفعول بتقدير اقرأوا، أو مفعول ثانٍ بتقدير اجعلوا ولكل واحد من هذه التقديرات معنى مغاير للآخر. وكان ينبغي للمنكر لو سلم له ما زعمه أن يستفصل القائل عن أحد هذه المعاني ويرتب على كل حكمه، لكن الظاهر أن هذا المنكر لا يفهم تغايراً بين هذه المعاني وإني بذلك والله أعلم بالصواب. وقد ذكر بعده سؤالاً وجواباً في هذا المعنى بأطول مما تقدم لم أر ضرورة إلى نقله هنا فليراجعه من شاءه في فتاويه الحديثية المذكورة.

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[تفضيله ﷺ على الأنبياء خصوصاً وعموماً]

ما هو مذكور في فتاويه المذكورة ونصه:

سئل: نفع الله به أن سيدنا رسول الله ﷺ يفضل الرسل خصوصاً فهل يفضلهم عموماً أم لا؟ وهل الولاية المخصوصة في مرتبة النبوة أو لا؟ وهل ولاية النبي ﷺ أفضل من نبوته؟ أم نبوته أفضل؟ أم الرتبتان متساويتان؟ أم كيف الحال؟ وهل كان نبينا محمد ﷺ متعبداً بشرع أحد من الأنبياء قبل البعثة وبعدها أم لا؟ وهل أرسل إلى الخلق كافة حتى إلى الملائكة؟ كما نقل ذلك بعضهم، أم إلى الثقلين فقط؟ وهل الأفضلية بين الخلفاء الأربعة قطعية أم اجتهادية؟

إذ لا شاهد من العقل يقطع بأفضلية بعض الأئمة على البعض، والأخبار الواردة في فضائلهم متعارضة، وهل الإنسان الكامل الذي كمل له الإيمان بالله تعالى قبل البعثة يدخل الجنة أم لا؟ وأيضاً هل القائل بأن العبد خالق لأفعاله مشرك أم لا؟ وهل يجوّز العقل إثابة الكافر وعقوبة المؤمن أم لا؟

فأجاب رحمة الله تعالى بقوله: لا يخفى على من له أدنى ممارسة بتأمل الكتاب والسنة أن نبينا محمداً ﷺ يفضل جميع الأنبياء والمرسلين خصوصاً وعموماً لقوله تعالى: ﴿۞تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، أي موسى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] ، أي محمداً ﷺ، رفعه الله تعالى على سائر الأنبياء والمرسلين من ثلاثة أوجه بالمعراج بذاته، وبالسيادة على جميع البشر، وبالمعجزات التي لا تحصر ولا تفنى، وكفى بالقرآن معجزة باقية مستمرة إلى قرب قيام الساعة، وفيه من المعجزات والفضائل لنبينا ﷺ على غيره ما لا يحصى.

قال الزمخشري: وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ﷺ ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس. ومن هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥].

رد العلماء على المعتزلة ـ قبحهم الله تعالى ـ في قولهم إنه لا فضل لبعض الأنبياء على بعض، والنهي في أحاديث عن التفضيل بين الأنبياء محمول عند العلماء على تفضيل مؤدٍّ إلى تنقيص بعضهم، ومن زعم أن آدم أفضل لحق الأبوة، فإن أراد أن فضله من حيث كونه أباً لا من حيث النبوة والمعجزات والخصائص فله وجه، وإلا فلا وجه لما زعمه مع خبر الترمذي أنه ﷺ قال: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي يوم القيامة»**[١]، فبين ﷺ بقوله: **«آدم فمن سواه»**، إنه أفضل الكل، وقوله: **«ولد آدم»** للتأدب مع الأبوة، وقوله: **«ولا فخر»**، المراد به ولا فخر أعظم من هذا ولا أقول ذلك على جهة الفخر، بل على جهة الإخبار بالواقع، وقوله: **«يوم القيامة»** خصه

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). والترمذي في السنن (١: ٢٨١). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٤١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٠٤). والقرطبي في التفسير (٣: ٢٦٢). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣: ١٥٧). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ١٤٤٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٢٢٥). والهيثمي في مورد الظمآن (٢١٢٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٨١). وابن كثير في البداية والنهاية (١: ١٧١).

بالذكر لأنه يظهر له ﷺ فيه من السؤدد والتمييز على سائر الأنبياء ما لا يظهر لغيره، لا سيما المقام المحمود الذي يؤتاه ذلك اليوم، وهو الشفاعة العظمى في فصل القضاء حين يذهب الناس إلى أولي العزم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، فكل يذكر لنفسه شيئاً، ويقول: نفسي نفسي. إلا نبينا ﷺ فإنه يقول: «أنا لها»[١]. الحديث.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً عند البخاري: «أنا سيد الناس يوم القيامة»[٢]، وهذا صريح في أفضليته ﷺ على آدم وعلى جميع أولاده من الأنبياء والمرسلين.

وفي حديث عند البيهقي: «أنا سيد العالمين»[٣] وهم الإنس والجن والملائكة، ففيه التصريح بأنه أفضل الخلق كلهم ويؤيده حديث مسلم الآتي: «وأرسلت إلى الخلق كافة»[٤]. ومن شأن الرسول أن يكون أفضل من المرسل إليهم، واستدل الفخر الرازي على أفضليته ﷺ على سائر الأنبياء بقوله تعالى بعد ذكرهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وذلك لأنه تعالى وصفهم بالأوصاف الحميدة، ثم أمر نبيه ﷺ أن يقتدي بجميعهم فيكون إتيانه بذلك واجباً، وإلا كان تاركاً لمقتضى الأمر، وإذا أتى بجميع ما تلبسوا به من الخصال الحميدة فقد اجتمع فيه ما كان مفرقاً فيهم فيكون أفضل منهم، واحتج لذلك السعد التفتازاني بقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال لأنه لا شك أن الخيرية للأمة إنما هي بحسب كمالهم في الدين وذلك تابع لكمال نبيهم الذي يتبعونه، أي فلولا أنه خير الأنبياء لم تكن أمته خير الأمم.

وقد ثبت بنص الآية أنهم خير الأمم فيكون نبيهم خير الأنبياء لما علمت ما بينهما من الملازمة الظاهرة.

وقول السائل نفع الله به، وهل الولاية المخصوصة في مرتبة النبوة كلام مجمل يحتاج لبيان؟

---

(١) رواه ابن كثير في التفسير (٨: ٤٢١). وفي البداية والنهاية (١: ١٧١).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٤: ١٦٣). ومسلم في الصحيح (الإيمان: ٣٢٧). والترمذي في السنن (٢٤٣٤). وأحمد في المسند (٢: ٤٣). والحاكم في المستدرك (٤: ٥٧٣). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٧٥). وابن كثير في التفسير (٥: ٤٣). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٤٠٠). وابن حجر في فتح الباري (٨: ٣٩٥). والبخاري في الصحيح (٧: ٤٠٠). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٣: ٢٧٣).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٩: ٤). والسيوطي في دلائل النبوة (٥: ٤٧٦). وفيه: «بني آدم».

(٤) رواه أحمد في المسند (٢: ٤١٢).

فإن أراد بولاية الأفضلية ولايات الأولياء غير الأنبياء، فالصواب أنه لا يمكن شرعاً أن ولياً يصل لدرجة نبي، ومن اعتقد ذلك فهو كافر، ومراق الدم إلا أن يتوب.

وإن أراد أن السبب الذي اقتضى أفضليته ﷺ أفضل من مطلق النبوة، فهذا لا يحتاج إليه لأنّا قد علمنا مما تقرر وغيره أن نبينا ﷺ أفضل من سائر الأنبياء في كل وصف من أوصاف الكمال، ومن ثَمَّ خاطب الله تعالى الأنبياء بأسمائهم ولم يخاطبه إلا بنحو: يا أيها النبي، يا أيها الرسول، يا أيها المدثر، يا أيها المزمل، وأوجب الله تعالى عليهم، إن بُعث وهم أحياء، أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] الآية، ووقع لابن عبد السلام رحمه الله فيها ما لا ينبغي فاجتنبه.

وقول السائل: وهل ولاية النبي الخ. . .؟

إن كان مراده بهذا أيضاً المسألة المشهورة عن ابن عبد السلام وهي قوله: إن نبوة النبي أفضل من رسالته، لأن النبوة هي الطرف المتعلق بالحق والرسالة، هي الطرف المتعلق بالخلق، وما تعلق بالحق أفضل مما تعلق بالخلق. فهو ضعيف جداً، ومن ثَمَّ ضعفه غير واحد من المتأخرين.

وبيان ضعفه أن الرسالة ليس لها طرف من جهة الخلق فقط، بل لها طرفان، لأن الرسول هو المبلغ عن الله تعالى الأحكام للناس، فهو متعلق من جهة الحق وملق على الخلق، فكانت رسالته التي تأهل بها إلى الخلافة عن الله تعالى أفضل من مجرد نبوته، لأنه لم يتأهل بها إلى المرتبة العلية والكلام في نبوة الرسول ورسالته.

أما الرسول فهو أفضل من النبي إجماعاً وحمل بعضهم النهي عن التفضيل بين الأنبياء السابق على النهي عن التفضيل بينهم في ذات النبوة والرسالة، فإنهم في ذلك على حد سواء، لا تفاضل بينهم، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال وخصوص الكرامات والرتب فذات النبوة لا تفاضل فيها، وإنما التفاضل في أمور زائدة عليها ومن ثَمَّ كان مبهماً.

وقول السائل: هل كان نبينا ﷺ متعبداً الخ. . .؟

وجوابه: أن العلماء اختلفوا هل كان ﷺ قبل بعثه متعبداً بشرع من قبله أو لا؟ فقال الجمهور لم يكن متعبداً بشيء.

واحتجوا بأن ذلك لو وقع لنقل ولما أمكن كتمه ولا ستره في العادة، ولافتخر به أهل تلك الشريعة واحتجوا به عليه ﷺ، فلما لم يقع شيء من ذلك علمنا أنه لم يكن متعبداً بشرع نبي قبله.

وذهبت طائفة إلى امتناع ذلك عقلاً. قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً وقد عرف تابعاً. وذهب آخرون إلى الوقف في أمره ﷺ وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، لأنه لا قاطع من الجانبين، وإلى هذا ذهب إمام الحرمين.

وقال آخرون: كان عاملاً بشرع من قبله ثم اختلفوا فوقف بعضهم عن التعيين وأحجم وجسر عليه بعضهم.

ثم اختلف المعينون فقيل: نوح، وقيل: إبراهيم، وقيل: موسى، وقيل: عيسى، وقيل: آدم عليهم السلام، فهذه جملة المذاهب في هذه المسألة وأظهرها الأول وهو الذي عليه الجمهور، وأبعدها مذهب المعينين، إذ لو كان شيء لنقل كما مر ولا حجة لمن زعم أن عيسى آخر الأنبياء فلزمت شريعته عليه الصلاة والسلام من جاء بعده لأنه لم يثبت عموم دعوة عيسى، بل الصحيح أنه لم يكن لنبي دعوة عامة إلا لنبينا ﷺ، ومن ثَمَّ لم يرسل للجن غيره ﷺ، وإيمان الجن بالتوراة كما يدل عليه أواخر سورة الأحقاف كان تبرعاً كإيمان بعض العرب من قريش وغيرهم بالإنجيل، إذ لم يثبت أن موسى أرسل لغير بني إسرائيل والقبط، ولا أن عيسى أرسل لغير بني إسرائيل، وزعم بعض من لا تحقيق عنده ولا اطلاع على حقائق الكتاب والسنة أن نبينا ﷺ كان على شريعة إبراهيم عليه السلام وليس له شرع منفرد به، وإنما المقصود من بعثته إحياء شرع إبراهيم تمسكاً بظاهر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، فزعمه بالغلط، بل بالخَرافة أشبه.

ومن ثَمَّ قالوا: إن مثله لا يصدر إلا من سخيف العقل كثيف الطبع، وإنما المراد بهذه الآية الاتباع في التوحيد الخاص بمقام الخلة الذي هو مقام إبراهيم المشار إليه بصيغة: ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، والمتسبب عن تفويضه المطلق لما أن ألقي في النار وجاء إليه جبريل عليهما السلام قائلاً له: «ألك حاجة» قال: «أما إليك فلا»، فوصل غاية من التفويض لم يصل إليها أحد قبله، ولا بعده، إلا نبينا محمد ﷺ. فإنه وصل إليها وارتقى عنها بغايات لا يعلمها إلا خالقه وبارئه المنعم عليه بما لم يؤته لغيره.

ومن ثَمَّ يقول إبراهيم ـ عند مجيء الناس إليه في ذلك الموقف العظيم للشفاعة العظمى في فصل القضاء قائلين له: إن الله اصطفاك بالخلة ـ: إنما كنت خليلاً من وراء وراء. فأعلمهم أنه وإن كان خليلاً لكنه متأخر الرتبة عن غيره المنحصر في نبينا ﷺ، ونظير تلك الآية السابقة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فالمراد الأمر بالاقتداء في التوحيد وما يليق به من المقامات العلية التي ترجع إلى الأصول لا إلى الفروع، إذ كان منهم من ليس رسولاً أصلاً كيوسف صلى الله على نبينا وعليه وسلم على قول: والباقون كانت فروع شرائعهم

مختلفة فاستحال حمل الأمر على الاقتداء بهم على ذلك. لا يقال التوحيد إنما ينشأ عن الأدلة القطعية فكيف يتأتى الاتباع فيه؟ لأنا نقول: قد أشرنا إلى رد ذلك بقولنا: وما يليق به من المقامات العلية الخ... ومنها كيفية الدعوة إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة، وإيراد الأدلة الواضحة الظاهرة المرة بعد المرة على أنواع مرتبة متمايزة تأخذ بالقلب وتدهش اللب كما هي الطرائق المألوفة في القرآن.

وقال شيخ الإسلام السراج البلقيني في شرح البخاري ولم يجئ في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده ﷺ قبل البعثة، لكن روى ابن إسحاق وغيره أنه ﷺ كان يخرج إلى حراء في كل عام شهراً من السنة يتنسك فيه.

وكان من نسك قريش في الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين حتى إذا انصرف من بيته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة.

وحمل بعضهم التعبد على التفكر، قال: وعندي إن هذا التعبد يشتمل على أنواع وهي الاعتزال عن الناس كما صنع إبراهيم عليه السلام باعتزال قومه والانقطاع إلى الله تعالى. فإن «انتظار الفرج عبادة»[1] كما رواه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مرفوعاً، وينضم إلى ذلك التفكر، ومن ثَمَّ قال بعضهم كانت عبادته ﷺ في حراء التفكر.

وقول السائل نفع الله به: وهل أرسل إلى الخلق كافة الخ...؟

وجوابه: أنه كثر استفتاء الناس لي عن ذلك وكثر الكلام مني فيه مبسوطاً ومختصراً، وخلاصة المعتمد في ذلك، أن في إرساله ﷺ إلى الملائكة قولين للعلماء، والذي رجحه شيخ الإسلام التقي السبكي وجماعة من محققي المتأخرين وردوا ما وقع في تفسير الرازي مما قاله بخلاف ذلك وأطالوا في رده، ورد ما وقع للبيهقي والحليمي مما يخالف ذلك أنه أرسل إليهم، ويدل له ظاهر قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وهم الإنس والجن والملائكة.

ومن زعم أنه ﷺ أرسل إلى بعض الملائكة دون بعض فقد تحكم من غير دليل، كما أن من ادعى خروج الملائكة كلهم من الآية يعجز عن دليل يدل على ذلك ولا ينافي ذلك الإنذار الذي هو التخويف بالعذاب، لأنهم وإن كانوا معصومين إلا أن المراد بالإرسال تكليفهم

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٢٧). والعجلوني في كشف الخفا (١: ٢٣٩). والسيوطي في جمع الجوامع (٤٥٠١). وابن الجوزي في العلل المتناهية: (٢: ٣٢١). والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (٢٧).

بالإيمان به، والاعتراف بسؤدده ورفعته والخضوع له وعدهم من أتباعه زيادة في شرفه ﷺ، وكل هذا لا ينافي عصمتهم، ثم ذلك الإنذار إما وقع كله في ليلة الإسراء أو بعضه فيها وبعضه في غيرها، ولا يلزم من الإنذار والرسالة إليهم في شيء خاص أن يكون بالشريعة كلها.

وفي قول شاذ: إن الملائكة من الجن وإنهم مؤمنو الجن السماوية، فإذا ركب هذا مع القول الذي أجمع عليه المسلمون وهو عموم رسالته ﷺ للجن لزم عموم الرسالة للملائكة كذا قيل، وهذا لا يحتاج إليه وكفى بالأخذ بظاهر الآية دليلاً، لا سيما وخبر مسلم الذي لا نزاع في صحته صريح في ذلك، وهو قوله ﷺ: «وأرسلت إلى الخلق كافة»(1)، فتأمل قوله: «الخلق»، وقوله: «كافة»، ومن ثَمَّ أخذ من هذا شيخ الإسلام الجمال البارزي أنه ﷺ أرسل إلى جميع المخلوقات حتى الجمادات بأن ركب فيها فهم وعقل مخصوص، حتى عرفته وآمنت به واعترفت بفضله، وقد أخبر عنها ﷺ بالشهادة للمؤذن ونحوه في قوله: «فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن شجر ولا حجر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»(2)، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فإذا كانت هذه الجمادات لها هذه الإدراكات لم يستنكر ما قاله البارزي، لا سيما حديث مسلم مصرح به كما علمت.

فإن قلت: فسر الجمهور العالمين في الآية بالجن والإنس. قلت: لا يلزم من ذلك خروج الملائكة عن مطلق الإرسال، بل عن الإرسال إلى الجن والإنس المتضمن للتكليف بسائر فروع الشريعة، وللتكليف بكل ما فيه كلفة، والمستلزم لإباء المرسل إليهم إلا بعصام نواميس المعجزات والتخويف والتهديد فتخصيص العالمين بالجن والإنس لذلك فحسب.

والحاصل أنه لا قاطع من أحد الجانبين، وإن كلاً من القولين إنما هو أمر ظني بحسب ما دل عليه ظاهر ما استند إليه كل من القائلين بأحد ذينك القولين.

ومن جواهر الإمام ابن حجر [أيضاً]

[الأفضلية بين الخلفاء الأربعة قطعية أم ظنية]

وقول السائل: وهل الأفضلية بين الخلفاء الأربعة الخ...؟

وجوابه: إن أفضلية أبي بكر رضي الله عنه على الثلاثة، ثم عمر على الاثنين مجمع

(١) رواه أحمد في المسند (٢: ٤١٢).
(٢) رواه المنذري في الترغيب والترهيب (١: ١٧٥).

عليها عند أهل السنة، لا خلاف بينهم في ذلك. والإجماع يفيد القطع.

وأما أفضلية عثمان على علي رضي الله عنهما فظنية. لأن بعض أكابر أهل السنة كسفيان الثوري فضل علياً على عثمان، وما وقع فيه خلاف بين أهل السنة ظني، وأما الأحاديث في ذلك فمتعارضة جداً، بل علي كرم الله وجهه ورد فيه من الأحاديث المشعرة بفضله ما لم يرد في الثلاثة، وأجاب عنه بعض الأئمة بأن سبب ذلك أنه عاش إلى زمن الفتن وكثرت أعداؤه وقدحهم فيه، وحطهم عليه، وغمصهم لحقه بباطلهم، فبادر حفاظ الصحابة رضوان الله عليهم وأخرجوا ما عندهم في حقه ردعاً لأولٰئك الفسقة المارقين والخوارج المخذولين.

وأما بقية الثلاثة فلم يقع لهم ما يدعو الناس إلى الإتيان بمثل ذلك الاستيعاب. **وقوله:** وهل الإنسان الخ...؟

وجوابه: أن الأصح: نعم، بل الأصح في أهل الفترة وهم من لم يرسل إليهم رسول أنهم في الجنة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وحمل على من قبل البعثة، وزعم قائله إن كل من لم يؤمن من بعد بعثة آدم أو نوح، بناء على أن أول الرسل آدم أو نوح فهو في النار، زعم مخالف لظاهر الآية فلا يعول عليه.

وقوله: وهل القائل بخلق الخ...؟

وجوابه: أن القائل بالخلق الحقيقي لغير الله في شيء من الأشياء كافر ومراق الدم، كما هو جلي، والقائل بخلق العبد لأفعاله بالمعنى الذي يقوله المعتزلة مبتدع ضال فاسق، وأما إسلامه ففيه خلاف والأصح أنه مسلم.

وقوله: وهل يجوز العقل الخ...؟

وجوابه: نعم، يجوز العقل ذلك في المؤمنين، بل ذلك مما يتعين علينا اعتقاده، لأن الله تبارك وتعالى لا يجب عليه شيء لأحد من عباده وأنبيائه ورسله مطلقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، وإنما إثابة الطائع من محض فضله تعالى، ويجوز أن يعاقبه لكنه لا يقع بمقتضى وعده، وإنه لا يخلف الميعاد.

وعقاب العاصي من محض عدله، ويجوز أن يخلفه لأن خلف الإيعاد من سعة الفضل والكرم بخلاف إخلاف الوعد، وقد أشارت الآية إلى ذلك فإنها إنما نصت على أنه تعالى لا يخلف الميعاد، وهو لا يكون إلا في الخير، فاقتضت أنه يخلف الإيعاد الذي لا يكون إلا في مقابلة ذلك.

وأما الكافر فبعد أن يعلم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فلا يجوز العقل ذلك فيه، ومن ثَمَّ أجمعوا على كفر من قال أن الله يثيب الكافر.

ومن جواهر الإمام ابن حجر أيضاً

[أفضليته ﷺ على سائر المخلوقات]

ما هو مذكور في فتاويه الحديثية أيضاً ونصه:

سئل: نفع الله به وبعلومه عن جماعة يصلون على النبي ﷺ في الجامع الأزهر وفي مكة وغيرهما ليلة الإثنين والجمعة، ومن جملة صلاتهم: اللهم صل أفضل صلاة على أفضل مخلوقاتك سيدنا محمد الخ... فاعترض عليهم بعض المنتسبين للعلم وشنع، وقال: لم يدل على ذلك دليل فيتعين الإمساك عنه فهل هو مصيب في ذلك أو مخطئ؟

فأجاب بقوله رضي الله عنه: هو مخطئ في ذلك أشد الخطأ، وكأنه سرى إليه ذلك من قول بعض من لا علم عنده، اعتراضاً على قول بعض المادحين: لولاه ما كان لا ملك ولا ملك، مثل هذا يحتاج إلى دليل ولم يرد في الكتاب ولا في السنة ما يدل عليه. انتهى.

وعلى قوله: وأشرف الخلق لا خلق يماثله، والذي أخبرنا به عن نفسه ﷺ: «أنا سيد ولد آدم»، ومسألة تفضيل صالحي البشر على الملائكة، أجاب فيها أبو حنيفة وغيره بـ: لا أدري، وهذا هو الجواب الصحيح قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]، ولم يقل على الخلق ورسول الله ﷺ من بني آدم، وليس ذلك مما كلفنا بمعرفته والبحث عنه، والكلام فيه فضول، والسكوت عنه هو الجواب، انتهى كلام المعترض. أيضاً وكأن ذلك المعترض المذكور في السؤال قلد هذا المعترض، وكل منهما مخطئ مجازف قد صير نفسه هدفاً لنصال العلماء المصيبة، غرضاً لهفوات الشياطين المريبة.

ومما هو واضح جلي في بطلان الاعتراض الأول، بل والثاني لمن تأمل قوله «لأحب الخلق إلي» في حديث الحاكم الذي صححه إنه ﷺ قال: «قال آدم يا رب أسألك بحق محمد ﷺ لما غفرت لي»، فقال الله تعالى: «يا آدم وكيف عرفت محمداً، ولم أخلقه؟»، قال: «يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلاّ الله محمد رسول الله فعلمت إنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك»، قال

الله: «يا آدم إنه لأحب الخلق إلي وإذ سألتني بحق محمد فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك»[١]. وفي سنده واه قال ابن عدي وهو ممن احتمله الناس، وممن يكتب حديثه وتضعيف غيره له قليل ومجبور.

ومما صح عند الحاكم أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى آمن بمحمد ومر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء، فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن».

ومثل هذا لا يقال من قبل الرأي فإذا صح عن مثل ابن عباس يكون في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، كما قرره أئمة الأصول والحديث والفقه وحينئذٍ فما في الأول من ضعف لو سلم لقائله يكون مجبوراً بهذا، لأن هذا وحده كافٍ في الحجية، فضم الأول إليه يزيده قوة أي قوة.

وفي حديث رواه صاحب شفاء الصدور وغيره قال الله: «يا محمد وعزتي وجلالي لولاك ما خلقت أرضي ولا سمائي ولا رفعت هذه الخضراء ولا بسطت هذه الغبراء».

وفي رواية: «من أجلك أسطح البطحاء، وأموج الماء، وأرفع السماء، وأجعل الثواب والعقاب، والجنة والنار». وفي أخرى ذكرها عِياض في الشفاء: «فقال آدم لما خلقتني بيدك رفعت رأسي إلى العرش، فإذا فيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدراً عندك ممن جعلت اسمه من اسمك»، فأوحى الله تعالى إليه: «وعزتي وجلالي إنه لآخر النبيين من ذريتك ولولاه ما خلقتك»، وبهذا كله اتضح بطلان ذلك الاعتراض، وإن قائله زل عن درك الصواب فطغى قلمه وزل قدمه.

ومما يبطل الاعتراض الثاني وهو أشنع وأقبح من الأول بكثير، أن الأدلة المعتبرة قامت على تفضيل نبينامحمد ﷺ على جميع خلق الله الملائكة والنبيين وغيرهم وصرح بذلك العلماء من الصحابة ومن بعدهم، فمن الأحاديث الدالة على ذلك الحديث الذي ذكره المعترض نفسه إذ لفظه: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذٍ

(١) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). والترمذي في السنن (٣١٤٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٤١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٠٤). والقرطبي في التفسير (٣: ٢٦٢). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣: ١٥٧). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٤٤٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٢٢٥). والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٨٨١). وابن كثير في البداية والنهاية (١: ١٧١).

آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»[1]، فهو صريح في أفضلية نبينا على آدم عليه السلام، وأفضلية آدم على الملائكة يصرح بها قوله تعالى للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، والملائكة من جملة العالمين اتفاقاً.

وإذا ثبت بالأدلة الصحيحة أن نبينا أفضل من آدم ومن سائر النبيين كما يصرح به قوله في الحديث المذكور، «وما من نبي يومئذٍ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»[2]، وثبت بالآيتين المذكورتين إن النبيين المذكورين فيهما آدم، ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران أفضل من الملائكة، ثبت أن نبينا ﷺ أفضل من الملائكة، بل نبينا ﷺ من جملة آل إبراهيم فشملته الآية نصاً.

وفي الصحيحين وغيرهما أنه ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة»[3]، ومما يدل أيضاً على أفضليته على جميع الخلق قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وسياق الآية قاض بأن المراد رفع عظيم، ومن ثَمَّ فسروه بأن المراد به لا أذكر إلا وتذكر معي، وبأن ذلك الرفع العظيم على جميع الخلق لأنه لم يذكر المرفوع عليهم، والأصل عدم التخصيص.

ويدل على رفعة قدره على كل مخلوق قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وفسره ﷺ في الحديث الحسن بالشفاعة العظمى في فصل القضاء، لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون ويتقدم فيه على جميع خلق الله تعالى من الأنبياء والملائكة.

ومما يصرح بتلك الأفضلية أيضاً قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته «ثلاث من كنَّ

---

(١) رواه ابن كثير في التفسير (٦: ٣٢٢).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). والترمذي في السنن (٣١٤٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٤١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٠٤). والقرطبي في التفسير (٣: ١٥٧). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣: ١٥٧). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٤٤٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٢٢٥). والهيثمي في موارد الظمآن (٢١٢٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٨١). وابن كثير في البداية والنهاية (١: ١٧١).

(٣) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). والترمذي في السنن (٣١٤٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٤١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٠٤). والقرطبي في التفسير (٣: ١٥٧). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣: ١٥٧). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٤٤٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٢٢٥). والهيثمي في موارد الظمآن (٢١٢٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٨١). وابن كثير في البداية والنهاية (١: ١٧١).

فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[١]، فتأمله فإنه واضح في تلك الأفضلية.

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح «أنا أول من تنشق عنه الأرض فألبس الحلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الملائكة يقوم ذلك المقام غيري»[٢]. وقوله في الحديث الحسن ولا نظر لقول الترمذي فيه إنه غريب كما بينه شيخ الإسلام السراج البلقيني، «أنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع، وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي، ومعي فقراء المؤمنين، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»[٣]. فقوله: «ليس أحد من الملائكة يقوم ذلك المقام غيري»، وقوله: «وأنا أكرم الأولين والآخرين» الشامل للملائكة والنبيين وغيرهم، صريحان في أفضليته ﷺ على سائر الخلق كما هو جلي، وسبق أن قوله تعالى في قصة آدم السابقة في الحديث الصحيح: «لأحب الخلق إلي» صريح في ذلك أيضاً.

ويوافقه ما نقله الإمام البلقيني عن بعض المحدثين وقال: لا يضر عدم ذكره لسندها، لأنه من الأئمة المحدثين الذين اطلعوا على جملة من كثرة الأحاديث على أنها إنما سيقت شواهد لما تقرر.

فمن جملة ما نقله ذلك المحدث أنه قال عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى أنه قال لنبيه ﷺ: «وقد مننت عليك بسبعة أشياء أولها: أني لم أخلق في السموات والأرض أكرم علي منك»، وعنه ﷺ قال: «قال لي جبريل عليه السلام: أبشر فإنك خير خلقه، وصفوته من البشر، حباك الله بما لم يحب به أحداً من خلقه لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً، ولقد قربك الرحمٰن إليه من قرب عرشه، مكاناً لم يصل إليه أحد من أهل السموات، ولا من أهل الأرض

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٠). والبغوي في شرح السنة (١: ٤٩). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (٢: ٤٤). والباعاتي في منحة المعبود (٣٠). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ٥٥).

(٢) رواه الترمذي في السنن (٣١٤٨). وابن ماجه في السنن (٤٣٠٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والحاكم في المستدرك (٢: ٤٦٥). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ١٩٨). وابن حجر في فتح الباري (١١: ٤٣٣). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٤٤٢). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١: ٢٤٣). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٤٦٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤: ٢٧٨). وابن حجر في تلخيص الحبير (٢: ١٢٦). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٧٨٩:). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٩٨). وابن أبي عاصم في السنة (٢: ٣٦٩). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥: ١٨٧٠).

(٣) رواه الترمذي في السنن (٣٦١٦:). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦: ٢٥١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٠٤).

فهنأك الله بكرامته وما حباك به». قال وفي الحديث المعلوم أن النبي ﷺ تقدم ووقف جبريل في مقامه، وأن ملكاً آخر تلقى النبي ﷺ وقال له: تقدم يا محمد، فقلت: «لا، بل تقدم أنت»، فقال: يا محمد تقدم فأنت أكرم على الله مني. وفي حديث سواد المشهور: «يا خير مرسل» وهو يعم الملائكة لأنهم رسل الله أيضاً.

وصح في خبر بحيرا المشهور: هذا سيد المرسلين، وصح عند الحاكم عن بشر بن سعاف قال: كنا جلوساً عند عبد الله بن سلام في المسجد يوم الجمعة فقال عبد الله بن سلام: إن أعظم أيام الدنيا يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه تقوم الساعة، وإن أكرم خليقة الله على الله أبو القاسم ﷺ.

قال: قلت رحمك الله فأين الملائكة؟ قال: فنظر إليَّ وضحك وقال: يا ابن أخي هل تدري ما الملائكة؟ إنما الملائكة خلق كخلق السموات والأرض، وخلق الرياح، وخلق السحاب، وخلق الجبال، وسائر الخلق التي لا يعظم على الله منها شيء، وإن أكرم الخلق على الله أبو القاسم ﷺ.

ومثل هذا لا يكون من قبل الرأي، فإذا صدر من ابن سلام وهو من أكابر الصحابة وصح عنه صار كأنه صح عن النبي ﷺ، كما مر عن الأئمة، ولا نظر إلى احتمال أنه قاله عن التوراة لأنه كان من أحبار اليهود، بل الحجة به قائمة بهذا الفرض أيضاً لأن ابن سلام من أكابر الصحابة ومؤمني أهل الكتاب، فإذا نقل ذلك عن التوراة كان الحجة فيه، لأنه يعلم مبدلها من غيره كما صح عنه في قصة رجم الزانيين، وتصديق النبي ﷺ له بقوله: «إن ذلك في التوراة».

قال البلقيني: وقد جاء عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم ذلك، ولا يعرف خلاف بين الصحابة في ذلك، ولا بين التابعين، وبشر بن سعاف، إنما قال: فأين الملائكة يستفهم ويستثبت إظهار مقتضى العموم في ذلك، ولا نعرف أحداً من الأئمة خالفه في أن النبي ﷺ أفضل الخلق، والذي ذكر عن المعتزلة والباقلاني والحليمي من تفضيل الملائكة العلوية على الأنبياء يمكن حمله على غير نبينا ﷺ، أي كما نقله المتأخرون عن بعض الأكابر من المتقدمين واعتمدوه، ولا نظر لجراءة الزمخشري وتصريحه في سورة التكوير بأفضلية جبريل عليه ﷺ، ويمكن حمل كلام الباقلاني والحليمي على تفضيل في نوع خاص كاستمرارهم على التسبيح ونحوه.

وأما التفضيل المطلق بالنسبة إلى جميع أنواع العبادات فإنه للأنبياء على غيرهم ثم لنبينا عليهم ونظير ذلك.

«اقرؤكم أبي»[(١)]، «أمين هذه الأمة أبو عبيدة»[(٢)]، «ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر»[(٣)]، فالتفضيل في هذه الأنواع الخاصة لا يعارض أفضلية الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم في سائر الأنواع على أولٰئك وغيرهم.

وأما قول ذلك المعترض ومسألة تفضيل صالحي البشر على الملائكة أجاب عنها أبو حنيفة وغيره لا أدري، فيقال عليه هذه رواية عنه، وله رواية أخرى بتفضيل الأنبياء على الملائكة، والمعتمد عند علماء الحنفية أن خواص بني آدم وهم المرسلون أفضل من جملة الملائكة، والأنبياء غير المرسلين أفضل من غير خواص الملائكة، والخواص من الملائكة أفضل من غير المرسلين، وعلى هذه الرواية فنبينا ﷺ أفضل من الملائكة، ولا يظن بأبي حنيفة رضي الله عنه ولا بغيره من أئمة المسلمين أن يتوقف في تفضيل نبينا محمد ﷺ على الملائكة.

وقال الشافعي رضي الله عنه في كتاب الرسالة: وكان خيرته المصطفى لوحيه، المنتخب لرسالته، المفضل على جميع خلقه، بفتح رحمته، وختم نبوته، وأعم ما أرسل به، مرسل قبله المرفوع ذكره مع ذكره في الأولى، والشافع المشفع في الأخرى، أفضل خلقه نفساً، وأجمعهم لكل خلق رضيه في دين ودنيا، وخيرهم نسباً وداراً محمد عبده ورسوله ﷺ وشرف وكرم وعرفنا خلقه نعمة للخاصة والعامة والنفع في الدين والدنيا فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وما صرح به الشافعي رضي الله عنه من تفضيل نبينا وسيدنا محمد ﷺ على جميع الخلق هو الذي عليه العلماء كافة.

وقول ذلك المعترض: إن القول بلا أدري هو الجواب الصحيح غلط منه. بل الجواب الصحيح هو ما عليه العلماء من تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلق من الأنبياء والملائكة، وتفضيل الأنبياء كلهم على الملائكة كلهم، وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] ظاهر في تفضيلهم إلا ما خرج لدليل.

وأما قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠] فقد قيل:

---

(١) رواه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٥: ٤٤٨). وفيه: «أقرأهم لكتاب الله».

(٢) رواه أحمد في المسند (٣: ١٣٣). والبخاري في الصحيح (٦: ٤٤٥). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٧: ٣٦١). وفيه: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة».

(٣) رواه الترمذي في السنن (٣٨٠٢). وابن ماجه في السنن (١٥٦). وأحمد في المسند (٢: ١٦٣). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ١٢٤). وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤: ١٦٧).

إن التفضيل من جهة الغلبة والاستيلاء، وقيل: بالثواب والجزاء يوم القيامة، وعلى هذا فلا تعرض في الآية للخلاف في التفضيل بين بني آدم والملائكة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ليس الإنسان أفضل من الملك، فإن صح حمل على غير الأنبياء لا سيما نبينا محمد ﷺ ما صح عنه، كما مر أن نبينا أفضل الخلق.

وأما قول المعترض ليس ذلك مما كلفنا بمعرفته فغلط منه. كيف وهذه المسألة من مسائل أصول الدين ونحن مكلفون بأن نعظم نبينا ونوقره، وأن نأخذ بالأدلة التي جاءت ببيان مرتبته وقربه من ربه؟

وأما قول ذلك المعترض والكلام فيه فضول ففيه جراءة عظيمة على من تكلم في ذلك من الصحابة وعلماء الأمة، بل الكلام في ذلك مطلوب، واعتقاده واجب. انتهى.

حاصل كلام البلقيني مع زيادة عليه: وإذا تقرر ذلك فما أعلن به المصلون على النبي ﷺ في المساجد وغيرها من تلك الصلوات حق واضح لا غبار عليه ولا اعتراض بتطرق إليه، ومن اعترض ذلك فقد أصابته نزعة اعتزالية، أو مسة شيطانية، فليتب إلى الله ويستغفره، ويتنصل مما وقع منه، فإن الخوض في ذلك ربما جر إلى فساد كبير لصاحبه والعياذ بالله تعالى والله سبحانه الموفق للصواب.

ومنهم الإمام العلامة الشيخ علي نور الدين الحلبي(١) صاحب السيرة المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ

فمن جواهره رضي الله عنه

[محمد ﷺ لا يخلو منه مكان ولا زمان]

رسالته التي سماها تعريف أهل الإسلام والإيمان بأن محمداً ﷺ لا يخلو منه مكان ولا زمان وهي تأليفه كما هو مكتوب على ظهر نسختها ورأيت في ترجمة العلامة ابن علان في خلاصة الأثر أنها من مؤلفاته والله أعلم. وهي هذه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله الذي لا يخيب من قصده، بل كل من قصده صادقاً وجده، تعالى علواً كبيراً عن أقوال من جحده، والصلاة والسلام على أفضل نبي تقرب إليه وعبده، محمد نبي الرحمة والشفاعة الذي لا نبي بعده، صلاة الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى ملائكة السموات والأرضين، وعلى جميع الآل والقرابة والصحابة والتابعين.

وبعد، فقد سبقت منا الكتابة مراراً في المعنى الذي وضع له هذا التصنيف، وتقدمت الإجابة عن الأسئلة من نوع هذا الترصيف، وقد رفع إلينا سؤال الآن في ذلك المعنى صورته، بعد البسملة الشريفة، ماذا تقولون في معنى قولكم تصريحاً وتلويحاً، في كتبكم ومجالسكم من أن محمداً ﷺ خير البرية؟ ملأ العوالم العلوية والسفلية، فهل هو مقيم في قبره أو لا؟ وإذا قلتم بأنه مقيم في قبره، فما معنى وجوده بكل حيز ووجود؟

وما معنى حضوره في كل موجود؟ فأجبنا عن ذلك بما صورته:

الحمد لله اللهم ألهمنا إلهاماً وهداية لإصابة الصواب، اعلم أيها الأخ الصادق، والمريد الموافق، شفاني الله وإياك من داء الغموم، وسقاني الله وإياك من دلاء العلوم، أنه لا بد من

(١) هو علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي أبو الفرج نور الدين بن برهان الدين: مؤرخ أديب. أصله من حلب وولد سنة ٩٧٥ هـ وتوفي سنة ١٠٤٤ هـ.

تأسيس أصل لهذا الجواب، وهو أن العوالم مختلفة والأكوان متباينة، فكون الإنسان ببطن أمه ليس كونه في دار الدنيا، لأنه لا يصبر حينئذٍ على أدنى ضيق كان معه في الرحم، وعالم الفكر أوسع منه، بدليل أن الإنسان متى أغمض عينيه وفكر في نفسه اتسع عليه الحال، وعالم النوم أوسع منه، بدليل أن الروح تذهب فيه كل مذهب، وفيه تعرج من الفرش إلى العرش، وعالم البرزخ أوسع منه، لأن الروح متى تجردت عن البدن صارت إلى قريب من قوة الملك، فلا يصح أن تقاس على حبسها في الدنيا. ولهذا المعنى يصح، ويتضح، وينهض مقصود هذا الجواب، وإذ قلنا: إن لها حينئذٍ قوة ملكية، فتحصيلها للقوة الجنية أولى بها مع أن الجن متى استحضرهم الطالب في مندل وكان في أقصى المشرق، واستحضرهم آخر كذلك وكان في أقصى المغرب، وحضروا معهما جميعاً ولا مساواة لهم بالأنبياء والأولياء في ذلك، لأن ذلك إنما يكون للأنبياء والأولياء حياة وموتاً تشريفاً لهم من جهة كونهم تكلموا بما ليس في مقدورهم، وتحملوا ما ليس في مطبوعهم، ليجمعوا بين فضائل الثقلين بخلاف الجن، فإن ذلك لهم بالطبع، وأيضاً فتمثل الجن في المندل إن صح، فإنما هو خيال محض، وإلا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وأما اجتماع النبي ﷺ وبعض الأولياء بهم، فمن قبيل الخصوصيات، فكان ذلك المعنى للأنبياء والأولياء من باب تناهي القوة في الشرف، وللجن من باب تناهي القوة في طبعهم، وعالم الحشر والنشر أوسع من عالم البرزخ، وعالم الجنة والنار أوسع من تلك العوالم كلها، وفضل الله تعالى وسعة رحمته وإحاطة علمه أوسع من أضعاف تلك العوالم وتلك الأكوان، لأنها بما حوت وما وعت جزء من تفضلاته تعالى، ودقيقة من معلوماته عزَّ وجل، كما أن الجنة بعض ثوابه سبحانه، والنار بعض عقابه تبارك اسمه.

ومن تأسيس هذا الأصل فهم أن الحياة في الدنيا والبرزخ والبعث متحدة من جهة الروح مختلفة من جهة القوة، فأدناها بطشاً، وإدراكاً، وتشكلاً، وتصرفاً، وإحاطة حياة الدنيا، وأوسطها حياة البرزخ، فربّ ميت لما مات عاش، وأعلاها الحياة الأخروية الأبدية، وإذاً فقد تمهدت طريق الجواب، وهو أن المحققين من العلماء قاطبة كما قال القرطبي وغيره ذهبوا إلى أن الموت ليس بعدم محض، بل طريق انتقال من عالم الملك إلى عالم الملكوت، وحجاب بين أهل الدنيا وأهل البرزخ، فيكون الميت ليس على الحالة التي كان يحسّ به فيها، وعليها وبها في دار الدنيا. هذا معنى كلامهم في سائر الأموات، وقالوا: إن الأرواح كلها لطيفة ليست ثقيلة، ولا كثيفة كالأجسام تسرح وتمرح حيث شاء الله تعالى، إن كانت مأذونة وليست مسجونة، فعلى هذا تكون هذه الأمة كسائر الأمم في ذلك المعنى، ولا شك أن لها اختصاصاً

أيضاً بزيادة تصرفات لأرواحها ليس لغيرها من الأمم السابقة مشاركة معها فيه، كما خصها الله تعالى عن سائر الأمم بخصائص لا تكاد أن تحصى، وإذا كان الأمر كذلك فلعلمائها العاملين وأوليائها العارفين زيادة مزية، ومزيد اختصاص في تلك المنقبة العلية ولأئمة علمائها كالإمام الأعظم، والشافعي، والإمام مالك، من ذلك أعظم المزايا ويتزايد الحال بمزيد العلم، والصحبة الشريفة إلى أن ينتهي الشرف الأعلى والمجد الأسنى كما بدأ إلى نبي هذه الأمة محمد ﷺ نبي الشفاعة والرحمة، فإن له اختصاصاً في خصوص ذلك المعنى على سائر أولي العزم من المرسلين.

ألا ترى أن منصب الشفاعة له ليس لأحد منه شيء إلا أن يكون بإذنه، كما أنه لا يشفع إلا بإذن من ربه تعالى.

ألا ترى أنه لا يجوز لأحد أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا به، هذا على قول بعضهم. والصحيح أنه يجوز التوسل إلى الله تعالى بجميع أنبيائه وأوليائه.

ألا ترى أنه رأى موسى كما سيأتي، ورأى الأنبياء في بعض السموات، ولم يرهم إلا بالمعنى الذي أراده الله تعالى، وأراد سبحانه وتعالى وضع هذا الكتاب لأجله، وحينئذٍ فقد عرفت بهذا تمام تصرفه ﷺ في الكون، وغاية سيره في الوجود للغوث والعون، وجسمه الشريف الذي هو منا بأنفسنا أولى.

هل هو مقيم في قبره أولاً؟

ففي كتاب الحافظ السيوطي المسمى بتنوير الحلك، بإمكان رؤية النبي ﷺ والملك. عن أنس أنه ﷺ قال: **«إن الأنبياء لا يتركون في قبورهم»**[1].

وفيه أيضاً أخرج البيهقي عن أنس أنه ﷺ قال: **«إن الأنبياء لا يتركون في قبورهم أربعين ليلة، ولكنهم يصلون بين يدي الله تعالى حتى ينفخ في الصور»**[2].

وفيه أيضاً روى الإمام سفيان الثوري قال: قال شيخ لنا عن سعيد بن المسيب، قال: **«ما مكث نبي في قبره أكثر من أربعين ليلة حتى يرفع»**[3]. قال البيهقي فعلى هذا يكون كسائر

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٢٣٠). والسيوطي في جمع الجوامع (٥٣٩٧). وفي الحاوي للفتاوى (٢: ٢٦٥). وفي اللآلئ المصنوعة (١: ١٤٧). والألباني في السلسلة الضعيفة (٢٠٢).

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٢٣٠). والسيوطي في جمع الجوامع (٥٣٩٧). وفي الحاوي للفتاوى (٢: ٢٦٥). وفي اللآلئ المصنوعة (١: ١٤٧). والألباني في السلسلة الضعيفة (٢٠٢).

(٣) رواه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٠١). وفيه: في الأرض».

الأنبياء. انتهى. قلت: أجل، وأخص لزيادة الرفعة في المكان والمكانة والله تبارك وتعالى أعلم.

وفي الكتاب المذكور أيضاً روى عبد الرزاق في مصنفه عن الثوري عن أبي المقدام عن سعيد بن المسيب، قال: «**مامكث نبي في الأرض أكثر من أربعين يوماً**»[١].

وفيه أيضاً أخرج إمام الحرمين في تاريخه، والطبراني في الكبير، وإبراهيم في الحلية عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي يموت فيقيم في قبره إلا أربعين صباحاً**»[٢].

وفيه أيضاً أن إمام الحرمين في النهاية والإمام الرافعي في الشرح رَوَيا أن النبي ﷺ قال: «**أنا أكرم على ربي من أن يتركني في القبر ثلاثاً**»[٣]. زاد إمام الحرمين وروي «**أكثر من يومين**».

وفيه أيضاً ذكر أبو الحسن بن الزعفراني الحنبلي في كتبه حديثاً: «**إن الله تعالى لا يترك نبياً في قبره أكثر من نصف يوم**».

قلت وهذه الأحاديث كلها مستشكلة خصوصاً عند الملحين علينا في الأسئلة عن المعنى الذي وضع لأجله هذا الكتاب من أهل زماننا، ويوضح الإشكال ما في الكتاب المذكور، وهو أيضاً في كتاب مصباح الظلام في المستغيثين بسيد الأنام في اليقظة والمنام للحافظ ابن النعمان المغربي، من أن أعرابياً جاء إلى القبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام فسلم ثم قال: قد قلت فوعينا قولك إلى قوله وكان فيما أنزل عليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]. وقد ظلمت نفسي وجئت مستغفراً وأرجو أن تستغفر لي، فنودي من القبر أن قد غفر لك.

فهذا النص الصريح المقبول الصحيح يدل على أنه ﷺ مقيم في قبره موجود، ويوضح الإشكال أيضاً ما في كتاب السيوطي أيضاً من أن السيد نور الدين الأيجي وقف بالروضة الشريفة، ثم قال: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فسمع من كان بحضرته من القبر قائلاً يقول: وعليك السلام يا ولدي.

وإن الشيخ أبا بكر الديار بكري وقف بإزاء وجه النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله وأنه ﷺ رد عليه السلام، وإن امرأة هاشمية كانت مجاورة بالمدينة الشريفة وكان

---

(١) رواه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٠١). وفيه: «في قبره».
(٢) رواه الفتني في تذكرة الموضوعات (٨٦).
(٣) رواه السيوطي في الحاوي للفتاوى (٢: ٤٥٢). وفي اللآلئ المصنوعة (١: ١٤٨).

بعض الخدم يؤذيها، وأنها شكت ذلك إلى النبي ﷺ فسمعت قائلاً من الحجرة الشريفة يقول: أما لك فيّ أسوة فاصبري كما صبرت. أو كما قال، وإن الأستاذ سيدي أحمد الرفاعي نفعنا الله ببركاته لما حج وقف تجاه الحجرة الشريفة وأخذ يقول:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

وأنه ﷺ مدّ يده الشريفة فقبلها وعادت إلى غير ذلك مما في الكتاب المذكور وغيره.

ومما يوضح الإشكال قوله ﷺ رأيت ليلة الإسراء أخي موسى قائماً في قبره بالكثيب الأحمر يصلي.

وأعجب من ذلك ما نقله المؤرخون من أن نوحاً نقل آدم معه في السفينة خشية عليه من الطوفان، وأن يعقوب عليه السلام كان مدفوناً بالقرافة في مصر، وأن يوسف ولده كان مدفوناً بالفيوم، وأنهما نقلا إلى بلد الخليل في جوار بيت المقدس ليجمع بينهما وبين آبائهما.

والحاصل أنه إن سُلِّمَ أن كل نبي ملازم لقبره ألبتة لزوماً كلياً بحيث أنه لا يصح وجوده في غيره، كانت تلك الأحاديث في غاية الإشكال وكان ذلك نقصاً في حقوق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن من آحاد الأموات، فضلاً عن الأصفياء والأولياء، من يخرج من قبره شبح مثله تشاهده العيون في أقصى البلاد البعيدة عن قبره، وتواتر الخبر على ألسنة هذه الأمة إن القطب العارف سيدي أحمد البدوي، المعروف في بلاد الكفار بالخطاف، اتفق له بعد موته أنه حمل الأسرى من بلاد الإفرنج إلى أوطانهم بمصر وغيرها وإلى تربته.

والذي يظهر إن شاء الله تعالى أن النبي ﷺ حين مات انتقل إلى أزكى الرضوان، وإلى أعلى فراديس الجنان، وإلى درجة الوسيلة على ترتيب معقول هو أنه ﷺ وصل إلى روضته المشرفة، ومحل قبره المعظم، ثم رفعه بلا شبهة إلى أشرف درجة عنده، وهي الوسيلة التي يغبطه فيها الأولون والآخرون، ثم أذن الله سبحانه وتعالى له، إذناً متحتماً أن يسير في أقطار السموات والأرض، والبر والبحر، والسهل والوعر، حيث شاء متى شاء، ومع هذا فقد أعطاه الله تعالى قوة وهيبة، وأهّله أهلية بحيث يكون في درجة الوسيلة موجوداً بحيث لو ناداه منها نبي مرسل أو ملك مقرب لأجابه من يوم موته إلى ما لا نهاية له مما بعد القيامة، كما هو كذلك في درجة الوسيلة، فكذلك يجده طالبه بين يدي ربه سبحانه وتعالى، ويجده المسلم عليه داخل قبره، ويجده كل طالب بين يدي مطلوبه، كما يجده المتفكر في فكره، والعارف في سره، كما أذن الله تعالى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد رفعهم إلى حظيرات قدسه الأعلى في إقامة شبح منهم في قبورهم تأنيساً لأهل الأرض، وفي تجريد أشباح تسرح حيث شاءت

على أنه لا حجر على ذلك، والشبح المقيم في القبر ليس لإقامته معنى سوى أنه متى طلبه طالب وجده، ومتى حضر عليه رأى شخصه، ويوضح ذلك ما سيأتي في موسى.

قال الحافظ السيوطي في كتابه المذكور بعد استيعابه لأكثر نقول العلماء: والأحاديث الدالة على إمكان رؤية النبي ﷺ في المنام واليقظة، قد تحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث، إن النبي ﷺ حي بجسده وروحه، وإنه يتصرف حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء، وإنه يغيب عن الأبصار، كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم، فإذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عمن أراد كرامته برؤيته، رآه على هيئته التي هو عليها لا مانع من ذلك، ولا داعي إلى التخصيص برؤية المثال. انتهى كلام السيوطي.

قلت: وأما كلامنا والذي نقوله إن شاء الله أن الأمر كما قاله الجلال السيوطي وأخص من ذلك، وأن الذي أراه أن جسده الشريف لا يخلو منه زمان، ولا مكان، ولا محل، ولا إمكان، ولا عرش، ولا لوح، ولا كرسي، ولا قلم، ولا بر، ولا بحر، ولا سهل، ولا وعر، ولا برزخ، ولا قبر، كما أشرنا إليه أيضاً وأنه امتلأ الكون الأعلى به كامتلاء الكون الأسفل به وكامتلاء قبره به، فتجده مقيماً في قبره طائفاً حول البيت، قائماً بين يدي ربه لأداء الخدمة تام الانبساط بإقامته في درجة الوسيلة. ألا ترى أن الرائين له يقظة أو مناماً في أقصى المغرب يوافقون في ذلك الرائين له كذلك في تلك الساعة بعينها في أقصى المشرق؟ فمتى كان ذلك مناماً كان في عالم الخيال والمثال، ومتى كان يقظة كان بصفتي الجمال والجلال وأعلى غايات الكمال كما قال القائل:

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

فإن قال قائل: هل طلع بهذا في أفق سماء الفضل نور قبلكم أم هو شيء تقولونه من عند أنفسكم؟ وكيف يتصور هذا الحال؟ وكيف يصح أن يحل جسم واحد في جميع المحال؟

قلنا الجواب: إن شاء الله تعالى أن من كذب على النبي ﷺ فقد استحق والعياذ بالله تعالى الصد، ومن أحدث في أمره الشريف ما ليس منه فهو رد.

فما ذكرناه في هذا المدعى إنما هو بمفيض فائض الإلهام، ولا يتوقف في صحته إن شاء الله أحد من أهل الأفهام، إلا الشاذ النادر من أهل الأوهام، وأصحاب الإيهام والإبهام:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لا ناس رأوه بالأبصار

ومن علم حجة على من لم يعلم، ومن فهم حجة على من لم يفهم، ومن حفظ حجة

على من لم يحفظ، على أنا نقول لا فراق إلا بجميل، ولا يصح قول إلا بدليل، فلنا على ذلك أدلة صحيحة نقلية، وبراهين وجودية قطعية، فمن الدليل النقلي ما رويناه في عوالينا الصحيحة، في مسانيدها الثابتة الرجيحة، كما هو ثابت عند جميع الحفاظ، وعند جميع أهل المعاني والألفاظ، من أنه ﷺ ليلة الإسراء رأى أخاه موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره، وجاء نبينا إلى بيت المقدس فرآه أيضاً بين يديه وصلى موسى خلفه مقتدياً به ﷺ [أسوة بالأنبياء](١) ثم فارقه.

وصعد النبي ﷺ إلى السماء الرابعة فوجده فيها، أو في غيرها على ما روي، فقد روي أنه وجد آدم في الأولى، وعيسى في الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة، على أن يصح أن يكون رأى موسى فيهما جمعاً بين الروايتين، فإن كان هذا لموسى وهو دون نبينا محمد ﷺ في الرتبة فنبينا بكونه موجوداً في كل مكان وكونه مقيماً في قبره، أجدر وأحق وأحرى وأولى كوجود موسى في السماء الرابعة أو السادسة، مع أن نبينا محمداً ﷺ فارقه ببيت المقدس، وفارقه قائماً في قبره يصلي، لكن يختص نبينا بامتلاء الكون به عن موسى وعن غيره، لأن نبينا تقرب وترقى ليلة الإسراء إلى ما لا قدرة لملك مقرب، ولا نبي مرسل على الوصول إلى تخطيه خطوة منه، ولذلك تخلف رئيس الملائكة جبريل عند سدرة المنتهى محتجاً بقوله: وما منا إلا له مقام معلوم. وتخلف إبراهيم في السماء السابعة، وتخلف موسى في السماء الرابعة، أو السادسة إلى غير ذلك.

ومن الأدلة النقلية أيضاً على ذلك الصريحة الصحيحة ما سلكناه من أوضح المسالك وهو ما ثبت عندنا في عوالينا الصحيحة، ومسانيدنا الثابتة الرجيحة، كما هو ثابت عند إمام الأئمة الحافظ الإمام البخاري وغيره، هو أن الملكين يقولان للمقبور ما تقول في هذا الرجل، واسم الإشارة لا يشار به إلا لحاضر هذا هو الأصل في حقيقة معناه.

وأما قول بعض العلماء: إنه يمكن أن يكون حاضراً ذهناً. فلا سبيل إليه هنا، لأنا نقول له ما الذي دعا إلى التجوز والعدول عن الحقيقة إلى ذلك، فوجب أن يكون حاضراً بجسده الشريف بلا كلام، وفي بعض المنقولات: أن مالكاً مات، فسئل في القبر فارتج عليه الجواب، فقال ميت بإزائه هذا مالك بن أنس واقف عند رأسك يجيب عنك.

قال المصنف: قلت: فعلى هذا فإمامنا الإمام الأعظم الشافعي رضي الله عنه وقدس

---

(١) وردت في الأصل: «سورة الأنبياء» ولعل هذا الخطأ تحريف.

روحه ونوّر ضريحه أحق بذلك من كل أحد، ولذلك قلنا من نظمنا البديع:

إذا سـألانـي منكـر ونكيـر عـن ... صحيح اعتقادي من جعلت إمامي

أقـول لهـم ديـن النبـي محمـد ... أديـن بـه والشـافعـيّ إمـامـي

وقلنا:

لعمري الإمام الشافعي من انتمى ... لـه لا يـرى لـوثـاً فـأستـاذه ليـث

ولا يختشي ضيما ولا يشتكي ضنى ... فـإن لـه غـوثـاً مكـارمـه غيـث

وقلنا أيضاً:

إنـي اتخـذت طـريقـة وعقيـدة ... علـم ابـن إدريس الإمـام الشـافعي

وجعلـت مـذهبـه الشـريـف وسيلـة ... لـي فـي غـد عنـد النبـيّ الشـافـع

رجوعاً لما نحن بصدده فقد كاد أن يخرج الكلام في مدح إمام الأئمة والأحبار، عن قبضة الاختيار، فأقول: والله المرجو المأمول، هذان دليلان نقليان يتلقاهما بالقبول سليم الفطرة والفطنة والنية، ولم يبقَ إلا ذكر الأدلة القطعية العقلية، ويجب بعد ذلك التسليم على من فيه إنسانية، فمن البراهين القطعية إنه لا يخالف أحد من كل موجود، في أنه ﷺ روح الوجود، وهل رأيت وبلغك في قول مشروح، أنه يصح مع الحياة خلو جزء من البدن عن الروح، ولما كان ﷺ روح العوالم العلوية والسفلية، وجب أن لا يخلو جزء منها عن جسده وروحه الزكية.

ومن البراهين على ذلك أيضاً أن جماعة من الأولياء كان معهدهم هذا المعهد، ومشهدهم هذا المشهد، فما حكى الجلال السيوطي وغيره في الكتاب المذكور، وغيره أن العارف أبا العباس الطنجي قال: ذهبت إلى الأستاذ أحمد الرفاعي ليسلكني فقال لي: هل عرفت رسول الله ﷺ؟ اذهب إلى شيخك عبد الرحيم القناوي ليعرفك به، ليصح لك السلوك، قال: فذهبت إليه، فقال لي: اذهب إلى بيت المقدس يكشف لك عن ذلك، فلما جئت بيت المقدس كشف الله تعالى عن بصري فرأيت النبيّ ﷺ ملأ السموات والأرض، والعرش والكرسي، وملأ سائر الأقطار والأكوان.

ومن البراهين على ذلك أن غالب الأولياء والعارفين كانوا يجتمعون غالباً بسيد المرسلين يقظة ومناماً، وكان العارف بالله تعالى خليفة بن موسى كثير الاجتماع به، واجتمع به في ليلة واحدة سبع عشرة مرة، وقال له: يا خليفة لا تمل منا، فقد مات كثير من الأولياء بحسرة رؤيتنا.

قلت: فكان الحاصل أن الحجاب من قبلنا بموجب مساوينا لا من قبله ﷺ، ولهذا تجد

العبد متى فارق نفسه ولو بالنوم وأغمض عينيه يراه إذا قسم الله تعالى له ذلك ومتى قتلها بقمعها، وأماتها بردعها، لم يبق بينه وبينه حجاب لا مناماً ولا يقظة، ولهذا كان شيخنا نور الدين الشوني يجتمع عليه في المحيا بالأزهر يقظة.

وكان علامة اجتماعه قيامه في المحيا فيقوم الناس معه تارة آخر الليل، وتارة نصفه، وتارة عند ابتداء القراءة في المحيا بعد العشاء، فيستمر قائماً إلى الصبح.

وكان يجتمع به في خلوته بالسيوفية، بباب الزهومة ليلاً ونهاراً غالباً، وكان السيد أبو العباس المرسي يقول: لو حجبت عن رؤية النبي ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين.

والأخبار في هذا أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تستقصى، اكتفينا بهذا عن قصد حصرها.

وفي كتاب الحافظ الجلال السيوطي المذكور وغيره بعض أشياء من ذلك، فراجعه تقربة، لأن جل القصد والغرض من هذا التصنيف الجواب عن السؤال وقد حصل.

ومن البراهين على ذلك أن الأبدال من هذه الأمة إنما سمي الواحد منهم بدلاً، لأنه يسافر ويترك بدله مكانه شخصاً على صورته، وقد اتفق لقضيب البان أنه ادُّعي عليه بترك الصلاة فسأله القاضي: ماذا تقول؟ فانقسم منه سبع صور كل منها لا يشك شاك أنه قضيب البان فقالت صورة من تلك الصور للقاضي والمدعين: انظروا على أي صورة تدعون بترك الصلاة؟

قلت: فإذا كان هذا للواحد من الأبدال أفلا يظهر من رسول الله ﷺ ألف ألف مثال؟

ومما يصح نقله أن بعض مريدي سيدي تاج الدين بن عطاء الله السكندري رضي الله عنه، صاحب كتاب الحكم، وكتاب التنوير وغيرهما، حج سنة فما وقف بموقف، ولا حضر مشهداً إلا ورأى سيدي تاج الدين في ذلك الموطن، وأنه متى هم أن يكلمه يأتي إليه فلا يجده، وأن المريد جاء إلى مصر وسأل عن حال الشيخ، فقيل: إنه طيب، فلما اجتمع بالشيخ قال له الشيخ مكاشفة: أرأيت كذا، في محل كذا أو كما قال إلى غير ذلك مما حكي.

ومن البراهين على ذلك أنه من الممكن المعقول المشاهد في رأي العين أن يجعل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بمكان كمكان جعل فيه البدر، فيراه الذي في أقصى المشرق كما يراه الذي في أقصى المغرب وهو فرد، وضوؤه ملأ الأكوان، وكذلك عين الشمس والزهرة، وبقية النجوم، فإنه قد استوى في رؤيتها كل من كان على وجه الأرض لأن الله تعالى قد جعل لها مكاناً يقتضي ذلك، فلا بدع أن يكون قبر النبي ﷺ بطيبة كذلك، ولا غرو في أن يجعل الله

تعالى شيخاً من نبينا بغير طيبة أيضاً يُرى منها، ويُشاهد كذلك، ما لم يكن الرائي أعمى البصيرة فلا يرى شيئاً، ولا يؤمن بشيء، كما أن أعمى البصر لا يرى الشمس، ولا القمر، ولا النجوم، مع كونها بادية بارزة ظاهرة ولهذا قلنا من نظمنا البديع:

مثال النبيّ المصطفى في وجوده ... بسائر أرض الله والعجْم والعرب
على أنه في قبره طاب تربة ... بطيبة دامت منه في صلة القرب
كبدر السما في الأفق باد وضوؤه ... يعم جميع الكون في الشرق والغرب

وقلنا أيضاً:

أنظر إلى المختار كيف وجوده ... ملأ السما والأرض والأكوانا
فتراه مثل البدر في كبد السما ... وضياؤه ملأ الوجود عيانا

ومن البراهين على ذلك أيضاً أنه يجوز ويمكن ويتعقل أن يجعل الله تعالى العوالم العلوية والسفلية بين يدي النبي ﷺ، كجعله تعالى الدنيا بين يدي سيدنا عزرائيل، فإن الملك الجليل عزرائيل سئل: كيف تقبض روح رجلين حضر أجلهما معاً في أقصى المشرق والآخر في أقصى المغرب؟

فقال: إن الله تعالى قد زوى لي الدنيا بجميع أكوانها فجعلها بين يديَّ كالقصعة بين يدي الآكل، أتناول منها ما شئت.

ومن البراهين على ذلك أيضاً أن أمر البرزخ لا يقاس على غيره، ألا ترى لملكي السؤال مع تناهي عظمهما في أضيق اللحود من أين يأتيان؟ ومن أين يذهبان؟ وكيف يسألان ميتين أو أمواتاً في وقت واحد منهم من هو في أقصى المشرق، ومنهم من هو في أقصى المغرب، وكيف تخرق بأصبعه في اللحد طاقة تنفذ إلى الجنة وطاقة إلى النار مع أن الجنة عند سدرة المنتهى والنار تحت البحر المالح.

فكان الحاصل أن الله تعالى الرب الحكيم، الحليم، القادر العلي العظيم في قدرته، أن يعطي محمداً ﷺ الذي أعطاه لملكي السؤال وملك الموت، وفوق ذلك، إذ هما دونه، لأنهما إنما يسألان عنه.

وكان الجاحد لذلك بعد علمه بهذا المفاد ضالاً، كما ضلت الفلاسفة حيث جعلوا في سرة بعض المقبورين زيبقاً ظانين أنه متى أقعد للسؤال في القبر سال الزيبق، ثم نبشوا بعد ذلك عليه فوجدوا الزيبق لم يسل، ولهذا قلنا من نظمنا البديع:

إذا رمت فرداً جامعاً فيه جمعت ... عوالم خلق الله فضلاً من الله
لقدر النبي المصطفى انظر وسل وقل ... تجد ملء أبصار وسمع وأفواه

وقلنا:

مــا أبصـرت قـط عيـن أو وعـت أذن … أو فــاه نطـق بمـدح أو أشيـع نِـدا
كـالمصطفـى منظـراً أو ذكـره خبـرا … أو قــدره منصبــاً أو راحتيــه نَــدا

وقلنا:

إذا قــدروا الأشيــاء تقــديـر أربـع … وعشــريــن جــزءاً فــالنبــي وآلــه
محمــد منــه جــزء ألــف مقــوم … بســائـر خلـق الله جـل جـلالــه

وقلنا:

تقــاصــر فـوق الفـوق والأوج والعـلا … ولـم يبلغـوا المعشـار مـن قـدر آدمـا
فكيــف بمــن فــاق النبييــن رفعــة … وأضحــى سمــاء لا تطــاولـه سمــا

وقلنا:

تقاصر مدح الناس عن مدح من علا … علـى المـدح عبـد الله وهــو حبيبـه
محمــد المختــار حتــى كــأنمــا … مــديــح جميــع العــالميــن يعيبــه

وقلنا:

لـــو لـــم يكـــن مـــن جنسنـــا … مـــن قـــد رقـــى فـــوق الفلـــك
محمـــــد مـــــا فضلـــــوا … جنـــس البشـــر علـــى الملـــك

وقلنا:

تفكـــر فـــديتـــك فـــي عـــز مـــن … رقـــى فـــوق مـــا وصفـــه يـــذكـــر
ولمـــا أتـــى ســـدرة المنتهـــى … تـــدلـــى لـــه الـــرفـــرف الأخضـــر

فإن قال قائل: ما قدر الرفرف الأخضر، وهل كان يسعه وحده أو لا؟

فالجواب: أنه لما تدلى سدّ الأفق الأعلى. وقد تحرر إن شاء الله تعالى من هذه المقالات والأجوبة والسؤالات إنه ﷺ بجسده الشريف، وروحه، لا يخلو منه زمان ولا مكان، ولا عصر، ولا أوان.

وقد بلغنا عن الولي العارف سيدي عبد العزيز الديريني، أنه لما نسبت إليه المشيخة بديرين، ونازعه فيها جماعة من الأشراف، اتفقت آراء أهل البلاد على موعد بعد صلاة الجمعة، وإن السادة والأشراف ينادون جدهم رسول الله ﷺ، وإن سيدي عبد العزيز يناديه أيضاً وإن كل من أجابه النبي ﷺ كان الحق له، فاجتمع لذلك جماهير الناس، فقال سيدي عبد العزيز للأشراف: تقدموا أنتم ونادوا. فتقدم واحد بعد واحد كل منهم ينادي يا جدي يا

رسول الله، فلم يجب واحداً منهم، فعند ذلك تقدم العارف سيدي عبد العزيز فقال: يا سيدي يا رسول الله فسمع الناس قاطبة لبيك يا عبد العزيز. فقال جماعة إن الصف الذي يلي سيدي عبد العزيز، سمع والصفوف التي خلفه لم تسمع فأعاد النداء فعادت الإجابة له ثلاث مرات.

فانظر إلى اتصال النبي ﷺ بديرين، مع أن جسده الشريف مقيم بطيبة في مقام أمين، تجده بذلك ﷺ قد ملأ الأكوان بيقين.

واعلم أن آخر ما اجتمعنا عليه من المشايخ العارفين من أصحاب التسليك الهادين المهديين الشيخ نور الدين الشوني صاحب الحال النبوي، والمدد المصطفوي، الذي كانت الصلاة على النبي ﷺ دأبه ليلاً ونهاراً، حتى صارت له شعاراً أو دثاراً، وكان هذا الرجل كثير الاجتماع بالنبي ﷺ يقظة ومناماً، كما قدمنا ومثل ما أسلفنا، بحيث شاع ذلك عنه وذاع وملأ الأفواه والأسماع.

وقد روينا في عوالينا الصحيحة ومسانيدنا الرجيحة، وهو ثابت عند الشيخين والإمامين البخاري ومسلم، وعند أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي»[1].

وروى الطبراني مثله من حديث مالك بن عبد الله الخثعمي ومن حديث أبي بكرة. وروى الدارمي مثله من حديث أبي قتادة الأنصاري ومعنى هذا الحديث التبشير بأن من فاز من أمته برؤيته في المنام، لا بد ألبتة إن شاء الله تعالى أن يراه في اليقظة، ولو قبيل الموت بهنيهة، ويسلم إن شاء الله تعالى إلى العبد في ذلك الوقت من المقت، إذ هو وقت الحاجة.

على أن جمهور الصلحاء من السلف والخلف اجتمعوا به حقيقة يقظة وسألوه عن أشياء من مصالحهم ومآربهم وعواقبهم فأجابهم عنها بأمور، وحذرهم من أشياء فجاء الأمر كما قال: سواء بسواء، وقد ذكر ذلك الجلال السيوطي في كتابه المذكور بعينه فراجعه تفز به.

وقد استقر الحال إن شاء الله أن أرواح المؤمنين المأذونة تسرح وتمرح في الجنة والسموات، وتأتي إلى أفنية قبورها لزيارة أجسادها أحياناً وتدنو من سماء الدنيا تجاه قبورها، وأن المؤمن يعرف زائره، والمسلم عليه، ويرد عليه متى تمكن، وأذن له، ولم يكن مشغولاً

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٩: ٤٢). ومسلم في الصحيح (١٧٧٥). وأبو داود في السنن (٥٠٢٣). وأحمد في المسند (٥: ٣٠٦). والطبراني في المعجم الكبير (١٩: ٢٩٧). والهيثمي في مجمع الزوائد (٧: ١٨٢). والبغوي في شرح السنة (١٢: ٢٢٧). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٦٦١:).

فيه، وإن تلك المعرفة تزداد من عشية يوم الخميس، وتستمر الزيادة لصبيحة يوم السبت، وأن الأولياء والأصفياء أزيد من عامة المؤمنين في ذلك، وأن العلماء العاملين والشهداء والصحابة والآل والقرابة أقوى زيادة وتخصيصاً، وأن الأنبياء يسيرون في الكون بأشباحهم وأرواحهم، ويحجون ويعتمرون متى أذن الله تعالى لهم في ذلك كما كانوا أحياء.

وأن النبي ﷺ ملأ العوالم العلوية والسفلية، لأنه أفضل عباد الله تعالى وعبّاده، وأن الكون كله بما حوى وما وعى من مسطوراته بفضل ربه تبارك وتعالى.

فإن قيل: قد أجدتم في هذا الجواب غاية الإجادة، وأفدتم غاية الإفادة، لكن بقي عليكم سؤال موجه يجب الجواب عنه، لتتم إن شاء الله فائدة هذا الكتاب، وهو أنه ورد في صحيح الأخبار أن الله تبارك وتعالى، وكل ملكاً بقبر النبي ﷺ، يبلغه الصلاة والسلام من المصلي والمسلم عليه، وأنه ليلة الجمعة ويومها يسمع ذلك بنفسه، ويرد بكل حال، فلو كان حاضراً في كل مكان، أو موجوداً في كل زمان، وأرفع من قبره لما احتاج الأمر إلى الملك.

فالجواب: إن شاء الله تعالى أنكم قد علمتم من مفادنا في هذا الكتاب أن القبر الشريف المنور الكائن بطيبة الطيبة على صاحبه من الرحمٰن الرحيم أفضل الصلاة وأشرف التسليم، ليس خلياً عنه ﷺ، بل هو ممتلئ به أسوة الكون العلوي والسفلي، وله زيادة تخصيص بحلوله ﷺ فيه ودفنه، وذلك الشأن أزيد من تلك الشؤون كلها، وأقوى هيبة، وحينئذٍ، فلكل ملك قلعة، ومحل كرسي لمملكته، وذلك المحل للنبي ﷺ هو طيبة الطيبة، والروضة المشرفة، فإذاً محل الخدمة هو هناك، فالخدام والطواشية يخدمون ظاهراً، والملائكة الكرام يخدمون ظاهراً وباطناً.

وقد جعل الله وظيفة أداء خدمة التبليغ لذلك الملك المسؤول عنه على سبيل الاحترام والتوقير، وإلا فالذي يقول بأن البعد في المسافة حجاب بين صلاتنا وبين سماع النبي ﷺ لها يلزمه أن القبر الشريف، والشباك المعظم، ونحو ذلك من الأشياء الحسية، مانع من السماع له ﷺ، وهذا لا يقوله أحد، فعلم أن ملازمة الملك إنما هي لأداء وظيفة الخدمة، ولدوام إقامة الناموس والحرمة، ولإظهار مزية ليلة الجمعة، ويومها فيكون المعنى إن شاء الله تعالى، إنه يحدث للنبي ﷺ في تلك الليلة زيادة إدراك ليهتم بشأنها، وأيضاً ملازمة الملائكة والخدام هناك لئلا يتعطل محل العهد بالجسم الشريف من الزيارة، ولهذا ورد «من حج ولم يزرني فقد جفاني»[1]، ففيه إعلام وتصريح بأن الاجتماع بحضرة النبي ﷺ في كل زمان ومكان ليس إلا

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور (١: ٢٣٧). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١: ٢٥٩). =

لمن فاز من الله تعالى بخصوصيات المواهب، وحاز جميع المناصب، وفاز بأعلى المراتب، وعمل عملاً يصح أن يكون وسيلة إلى ذلك، كما وقع لشيخنا الشيخ نور الدين الشوني رحمه الله تبارك وتعالى عليه، بسبب ملازمته للصلاة والسلام على النبي ﷺ بالغدو والآصال، والعشي والإبكار، وآناء الليل وأطراف النهار، بحيث اتخذ ذلك ورداً، وجعل ذلك حزباً، وكان لا يسلك إلا بها لا بعذبة، ولا سجادة، ولا تلقين إلى غير ذلك.

ومن هذا القبيل أن الملائكة تعرض أعمال الأمة على نبيها محمد ﷺ، نبي الرحمة والشفاعة ﷺ، في كل يوم بكرة وعشية، ليس ذلك لخفائها عليه، بل لإقامة أداء الخدمة أيضاً، ولإظهار العدل بإقامة الحجة بشهادة الملك أيضاً، وإلا فكفى بالنبي ﷺ شاهداً، أو كفى بالله شهيداً رقيباً.

ألا ترى أن الله تبارك وتعالى وعزَّ وجل مع إحاطة علمه بالكليات الصادرة عن عباده، والجزئيات، نصب كراماً كاتبين وسفرة بررة حافظين إلى غير ذلك.

ومن الأدلة العقلية والنقلية أيضاً على ما ذكرناه، أن النبي ﷺ حاضراً ألبتة، وأن الله تبارك وتعالى نصبه شاهداً على أعمال العباد خيرها وشرها، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

والشاهد لا بد أن يكون حاضراً للمشهود عليه، وناظراً للمشهود إليه، فعلم إنه ملأ كل عالم، وحاضر في كل مكان. فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية، قد سوى بين النبي ﷺ، وبين الأمة في معنى الشهادة، وسوى بينه وبين الأنبياء في ذلك المعنى أيضاً.

فالجواب: إن شاء الله تعالى أنه لا تسوية، لأنه في الآية الأولى قال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال في الآية الثانية: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وورد أن هذه الأمة تشهد على جميع الأمم، وتشهد لأنبيائها بالتبليغ، ونبيها يزكيها، فلا مساواة به ولا أحد في درجته.

وأما شهادة الأنبياء فلا إشكال فيها، لأنهم موجودون بالأجسام في قيد الحياة بين أظهر أممهم لأنهم شاهدون وحاضرون حساً ومعنى.

= والعجلوني في كشف الخفا (٢: ٣٣٨). وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢: ١٧٢). والفتني في تذكرة الموضوعات (٧٦). والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (١٥٩).

وأما شهادة هذه الأمة فإنما هي من باب الشهادة على الشاهد لأنها إنما تلقت ذلك من القرآن العظيم الصادق الوارد على لسان النبي المصدوق، فتبين بهذا وبأنه لما كان كل رسول إذا مات انتهت شريعته وأرسل رسول غيره، ولم يكن نبينا كذلك، بل شريعته مستمرة، ودعوته قائمة باقية إلى يوم القيامة، ومعها وبعدها، إذ لا نبي بعده.

إن شهادته ﷺ مستمرة بموجب حضوره في جميع العوالم، وامتلأ الكون والمكان والزمان به فكان مثاله في هذا المعنى كما اسلفناه وكما أشرنا، كبدر في سماء علو الفضل، ونحن تحته سائرون في ضوء نوره، متى رفعنا رؤوسنا إليه ونحن في شدة العدو، أو المشي، والتأني أو جلسنا، أو نمنا، أو استيقظنا نراه معنا فوق رؤوسنا، ولو مشينا إلى أقصى المشرق، ومشى آخرون إلى أقصى المغرب، وركب آخرون السفن في لجج البحار، وصعد آخرون الجبل وسلك آخرون القفار، كل ذا ونبيهم محمد ﷺ حاضر معهم كحضور البدر مع هؤلاء، كلهم ذو أيضاً، فمن الناس المقربين من اجتماعه بالنبي ﷺ بمصر مثلاً أقوى من اجتماع بعض الحجاج به عند محل قبره، إذ من الناس من حضورهم كالغيبة، ومن الناس من غيبتهم أقوى من الحضور.

ألا ترى إلى البحر الطامي أبي يزيد البسطامي لما حج ثلاث مرات لم يصر لمزيد القرب أهلاً حتى غاب في المرة الثانية وفني أصلاً، ولهذا قال رضي الله عنه: حججت ثلاث مرات ففي المرة الأولى رأيت البيت ولم أر رب البيت، وفي المرة الثانية رأيت رب البيت ولم أر البيت، وفي المرة الثالثة لم أر البيت ولم أر رب البيت انتهى.

قلت: فكان الحاصل من مقاله ومن اعتبار حاله أن حجته الأولى من حج العوام في سائر الأعوام، وأن الثانية كانت من بداية مقامات الفناء، قضي عن رؤية كل محسوس، فلم ير أحداً أحق بالوجود من الله تعالى، وهذا معنى قوله: رأيت رب البيت، وإلا فرب البيت لا يجوز أن يرى في الدنيا، وكانت نفسه في هذه الحجة الثانية موجودة معه يرى بها ويبصر بها، فلما حج الثالثة فني حتى عن نفسه فلم يبق معه مرآة يرى بها شيئاً. فني في معنى قرب الحق تبارك وتعالى فناء كلياً أشار إليه القائل بقوله:

فيفنـــى ثـــم يفنـــى فكـــان فنـــاؤه عيـــن البقـــاء

ففي هذه الغيبة يحصل الحضور بأوفى من كيل الوية.

قال سهل بن عبد الله التستري: يامسكين كان ولم تكن، ويكون ولا تكون، فلما كنت الآن صرت تقول أنا كن الآن كما لم تكن، فإنه الأول كما كان.

ومن الأدلة على أن الأنبياء يسيرون في الكون ما رويناه في كتاب الأعلام بحكم عيسى عليه السلام للجلال السيوطي أن النبي ﷺ كان يطوف بالبيت حيناً، فسلم على شيء في الهواء، فسئل عن ذلك فقال: «رأيت أخي عيسى ابن مريم يطوف بالبيت فسلم علي وسلمت عليه»، فاستقر الحال على أن عيسى كما قال الحافظ الذهبي وغيره: نبي، ورسول، وصحابي، وأنه أفضل الصحابة، ويليه في الفضل أبو بكر الصديق، فعمر فعثمان فعلي رضي الله تعالى عنهم على الترتيب المشهور. وأن الأنبياء والمرسلين يسيرون في الكون لنفعهم ونفع العباد، وأن النبي ﷺ ملأ العوالم العلوية والسفلية.

واعلم أيها المريد المسترشد أن قول الحافظ جلال الدين السيوطي سقى الله عهده صيب الرحمة والرضوان وجمعني وإياه على سيد ولد عدنان كما أسلفنا آنفاً، أن النبي ﷺ يسير في الكون إلى آخره، ويدل بحروفه ومنطوقه ومفهومه على أن النبي ﷺ ملأ الكون، لأنه لو لم يكن الأمر كذلك، لزم منه أنه متى سار يصير قبره خالياً منه، ويكون الزائر إنما يزور الضريح فقط، وهذا لا يقوله أحد. وأيضاً فإن قوله ﷺ: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»[1]. من أصرح صريح، وأدل دليل، وأقوى برهان، وأثبت حجة على ذلك، لأنه شامل لكل من رآه في المشرقين والمغربين، ولأنه كما قدمنا لا يصح أن يفسر باقتصاره على رؤيته في الآخرة، لأن سائر الأمم تراه يومئذٍ سواء في ذلك من رآه في الدنيا ومن لم يره. وبالجملة والتفصيل فهو ﷺ موجود بين أظهرنا حساً، ومعنى، وجسماً، وروحاً، وسراً، وبرهاناً.

فإن قال قائل معنى قول الجلال السيوطي: إن النبي ﷺ يسير في الكون، إنه يتجرد من شبحه كما أفدتم وأفتيتم، والجسم الشريف مقيم في القبر المنور.

قلنا: الجواب إن شاء الله تعالى: إن هذا المعنى، وإن كان صحيحاً في حد ذاته، كما أفدناه آنفاً، لكن قد لا ينهض، لأن يفسر به كلام الجلال السيوطي، لأنه رحمة الله تعالى عليه، إنما مقصوده في الحقيقة تمييز نبينا محمد ﷺ عن سائر الأنبياء والمرسلين في ذلك المعنى بخصوصه، ولا يتم له مقصوده في ذلك إلا بالتفسير الذي فسرناه به، وهو الحق إن شاء الله تعالى، وإلا فجميع الأنبياء مشاركون له في التشكل والمثال والتطور وتعدد الأشباح، بل الأبدال كما قدمنا، يفعلون في حياتهم ذلك، وفي موتهم، بل وخاصة المؤمنين، بل وعامتهم الذين لم يشغلهم عن ذلك شاغل من موبقات الذنوب، وعزائم الكروب، ومدلهمات

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٩: ٤٢). وأبو داود في السنن (٥٠٢٣). ومسلم في الصحيح (١٧٧٥). وأحمد في المسند (٣٠٦٥).

الخطوب، ألا ترى إلى ما نقله ابن القيم وغيره من أن صالح المروزي وغيره تخلف عن حضور الجمعة، فلما جاء مستدركاً أي بعض الأرواح قد تشكلت وجلست على ظاهر قبورها، وأنهم قالوا له: أبطأت عن الجمعة، فقال لهم: أتعرفون الجمعة؟ قالوا: نعم، ونعرف ما يقول الطير في جو السماء. قال: «فما يقول؟» قالوا: يقول يوم صالح. وفي هذا الباب ما لايكاد ينحصر بحيث قالوا: إن الأموات قد يعلمون بالشيء قبل حدوثه في عالم الملك، وقبل اتصاله بالأحياء، ونقلوا أن المتوكل على الله الخليفة العباسي، لما قتله مماليكه رحمه الله تعالى بسبب موالسة ولده عليه، رآه الولد في النوم فقال له: أتقتلني لأجل الخلافة؟ والله لا تقيم فيها ولا تبقى فيها، وستجزى في الآخرة، فقام مرعوباً من نومه، وأخبر بما رأى فلم يمكث إلا مدة يسيرة جداً ومات. إلى غير ذلك أيضاً مما حكي في هذا المعنى، وفي كتاب الروح منه الشيء الكثير عن الجمِّ الغفير، الجمهور الكبير. فتخلص أن معنى كلام الحافظ السيوطي إنما المراد منه كون النبي ﷺ ملأ العوالم العلوية والسفلية، بأهبة وقابلية، وأهلية جعلها الله تعالى له، وأسكنها عزَّ وجل في جسمه، وأعطاه معنى من معاني الملائكة صلاة الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، فكان يخالط الملك كجبريل وإسرافيل اللذين هما رؤساء الملائكة، لأن إسرافيل تردد لخدمته ثلاث سنين قبل سيدنا جبريل ﷺ، كما حكاه الحافظ ابن حجر وغيره في مقدمة فتح الباري وغيره. وقد ظهر معنى كلام الحافظ السيوطي ظهوراً كافياً شافياً، والله تبارك وتعالى أعلم بالصواب، جمعنا الله والمسلمين ومن شاء من الموحدين على النبي الحبيب الخليل الجليل المصطفى، نبي الرحمة والشفاعة، أفضل من سعى بين المروة والصفا، وبوأنا بجواره في الجنان غرفاً، وحشرنا مع آله وأصحابه السادة الحنفا، خصوصاً الأربعة الخلفا، أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم أجمعين والحمد لله رب العالمين.

ومنهم الإمام العلامة الشيخ عبد الرؤوف المناوي[١] المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ انتخبت من شرحه الكبير على الجامع الصغير فوائد جمة وفرائد مهمة

فمن جواهره

[كيف يأتي ﷺ باب الجنة]

ما ذكره في شرح قول رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة فأستفتح»[٢] فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: «محمد»، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك. رواه الإمام أحمد ومسلم عن أنس رضي الله عنه. قال رحمه الله تعالى: آتي باب الجنة أي أجيء بعد الانصراف من المحشر للحساب إلى أعظم المنافذ التي يتوصل منها إلى دار الثواب، وهو باب الرحمة، أو باب التوبة كما في النوادر.

فإن قلت: هل لتعبيره ﷺ بالإتيان دون المجيء من نكتة. قلت: نعم، وهي الإشارة إلى أن مجيئه ﷺ يكون بصفة من أُلبس خلعة الرضوان، فجاء على مهل وأمان، من غير نصب في الإتيان، إذ الإتيان كما قال الإمام الراغب مجيء بسهولة. قال: والمجيء أعم ففي إيثاره عليه مزية. وفي الكشاف وغيره: أن أهل الجنة لا يذهب بهم إليها إلا راكبين ، فإذا كان هذا في آحاد المؤمنين، فما بالك بقائد المرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

وقال عند قوله ﷺ: «فأستفتح» السين للطلب، وآثر التعبير بها إيماء إلى القطع بوقوع مدخولها وتحققه، أي أطلب انفراجه، وإزالة غلقه، يعني بالقرع لا بالصوت، كما يرشد إليه

---

(١) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي. القاهري. زين العابدين من كبار العلماء بالدين والفنون. ولد سنة ٩٥٢ هـ وتوفي سنة ١٠٣٠ هـ.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (٣٣٣). وأحمد في المسند (٣: ١٣٦). والألباني في السلسلة الصحيحة (٧٧٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٩٠).

خبر أحمد: «**آخذ بحلقة باب الجنة فأقرع**»[١]. وخبر البخاري عن أنس: «**أنا أول من يقرع باب الجنة**»[٢]، فيقول الخازن، أي الحافظ، والمعهود رضوان والخزنة متعددون إلا أن رضوان أعظمهم ومقدمهم وعظيم الرسل، إنما يتلقاه عظيم الحفظة، وقوله: من أنت؟ أجاب بالاستفهام وأكده بالخطاب تلذذاً بمناجاته ﷺ، وإلا فأبواب الجنة شفافة وهو ﷺ العَلَم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس، قد رآه رضوان قبل ذلك وعرفه، ومن ثمّ اكتفى ﷺ بقوله: «**فأقول محمد**» وإن كان المسمى به كثيراً، فيقول: «**بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**».

وفي رواية: «**ولا أقوم لأحد بعدك**»، وذلك لأن في قيامه إليه خاصة إظهاراً لمرتبته ومزيته ﷺ، ولا يقوم في خدمة أحد غيره، بل خزنة الجنة يقومون في خدمته، وهو كالملك عليهم، وقد أقامه الله تعالى في خدمته ﷺ حتى مشى إليه وفتح له. ثم استشكل دخوله ﷺ الجنة قبل كل أحد بإدريس عليه السلام حيث أدخل الجنة بعد موته وهو فيها كما ورد. وخبر أحمد أن النبي ﷺ قال لبلال: «**بمَ سبقتني إلى الجنة؟ فما دخلتُ الجنة إلا سمعت خشخشتك أمامي**»[٣]. وخبر أبي يعلى وغيره: «**أول من له باب الجنة أنا إلا أن امرأة تبادرني فأقول ما لك؟ أو من أنت؟**» فتقول: «**أنا امرأة قعدت على يتامى**». وخبر البيهقي: «**أول من يقرع باب الجنة عبد أدى حق الله وحق مواليه**»[٤]. وذكر أجوبة عن ذلك أحسنها قوله: فإن أبيت إلا جواباً على أنه ﷺ أول داخل وهو ما ورد في أحاديث أخرى، فدونك جواباً يثلج الفؤاد. بعون الرؤوف الجواد، وهو أنه قد ثبت في الخبر: أن دخول المصطفى ﷺ يتعدد، فدخول لا يتقدمه ولا يشاركه فيه أحد، ويتخلل بينه وبين ما بعده دخول غيره.

فقد روى الحافظ ابن منده بسنده عن أنس رفعه: «**أنا أول الناس، تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة، ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة ولا فخر، أجيء باب الجنة فآخذ بحلقتها، فيقولون: من؟ فأقول: أنا محمد، فيفتحون لي فأجد الجبار مستقبلي، فأسجد له فيقول: ارفع رأسك وقل يسمع لك، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي، فيقول: اذهب إلى أمتك، فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من الشعير من الإيمان فأدخله الجنة، فأقبل فمن وجدت في قلبه ذلك فأدخلهم الجنة، فإذا الجبار**

---

(١) ورد في المسند الحميدي (١٢٠٤). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٢). وفيه: «فأقعقها» بدل «فأقرع».

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٧). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٩٥).

(٣) رواه أحمد في المسند (٥: ٣٥٤). والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٣٢٦:). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٣: ٣١).

(٤) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٢٥١٢٢). والساعاتي في منحة المعبود (١١٩٨).

مستقبلي فأسجد له»[1]. الحديث، وكرر فيه الدخول أربعاً، وفي البخاري نحوه وبه تندفع الإشكالات، ويستغنى عن تلك التكلفات.

وفي أبي داود: أن أبا بكر رضي الله عنه، أول من يدخل الجنة من هذه الأمة، ولعله أراد أول داخل من الرجال بعده ﷺ، وإلا فقد جزم المؤلف، أي الحافظ السيوطي وغيره أن أول من يدخلها بعد النبي ﷺ بنته فاطمة رضي الله عنها، لخبر أبي نعيم: «أنا أول من يدخل الجنة ولا فخر، وأول من يدخل الجنة بعدي فاطمة بنتي رضي الله عنها».

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[تواضعه وعاداته]

ما ذكره في شرح قوله ﷺ: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[2]، رواه ابن سعد وأبو يعلى وابن حبان عن عائشة رضي اللهعنها، قال رحمه الله تعالى: أي في القعود وهيئة التناول والرضى بما حضر تواضعاً لله تعالى وأدباً معه، فلا أتمكن عند جلوسي للطعام ولا أتكئ كما يفعله أهل الرفاهية، ولا أنبسط فيه، فالمراد بالعبد هنا الإنسان المتذلل المتواضع لربه، وأجلس كما يجلس العبد، لا كما يجلس الملك، فإن التخلق بأخلاق العبودية أشرف الأوصاف البشرية، وقد يشارك نبينا ﷺ في ذلك التشريف بعض الأنبياء واختصاصه ﷺ إنما هو بالعبد المطلق، فإنه لم يسم غيره إلا بالعبد المقيد باسمه ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] فكمال العبودية لم تتهيأ لأحد من العالمين سواه ﷺ، وكمالها في الحرية عما سوى الله بالكلية.

قال الحرالي: ومقصود الحديث الاغتباط بالرفق، والابتعاد عن العنف، فهو أول الاختصاص ومهد الاصطفاء والتحقق بالعبودية ثمرة ما قبله وأساس ما بعده وهذا أورده ﷺ على منهج التربية لأمته. فإنه المربي لها لإخباره عن نفسه بذلك. وأما في حد ذاته فيخالف الناس في العبادة، والعادة تمكن للأكل أم لا؟

أما في عبادته فلأنه ﷺ يعبد ربه على مرأى منه ومسمع. وأما في عادته فإنه سالك

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣: ١٤٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٠٤٨). والهيثمي في مجمع الزوائد (٧: ٣٤٩).

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٤٠٧٠٧). والألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (٩: ١٩). وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٩٥: ١٠١). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٠٢).

مسلك المراقبة، فلو وقع لغيره في العبادات، ما يقع له في العادات، كان ذلك الإنسان، سالكاً مقام الإحسان، وفيه أنه يكره الجلوس للأكل متكئاً، ثم قال عند ذكر عائشة رواية هذا الحديث رضي الله عنها وهي الصديقة بنت الصديق، والمبرأة من كل عيب، الفقيهة العالمة، العاملة، حبيبة المصطفى ﷺ، قالت: قال لي: «**يا عائشة، لو شئت لسارت معي جبال الذهب، أتاني ملك إن حجزته قدر الكعبة، وقال لي: إن ربك يقرؤك السلام، ويقول لك إن شئت كنت نبياً ملكاً، وإن شئت عبداً، فأشار إليّ جبريل أن ضع نفسك، فقلت نبياً عبداً، فكان بعد لا يأكل متكئاً، ويقول آكل كما يأكل العبد**»[1] إلى آخر الحديث، ورواه البيهقي عن يحيى ابن أبي كثير مرسلاً وزاد فإنما أنا عبد، ورواه هنا عن عمرو بن مرة وزاد: فو الذي نفسي بيده لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها كأساً.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[لا أذكر إلا ذكرت معي]

ما ذكره في شرح قوله ﷺ: «**أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول لك هل تدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله أعلم. قال: لا أذكر إلا ذكرت معي**»[2]. رواه أبو يعلى وابن حبان والضياء في المختارة عن أبي سعيد رضي الله عنه. قال رحمه الله تعالى: أتى بزيادة لك لينبه على كمال العناية ومزيد الوجاهة عنده تعالى، والرعاية له ﷺ، وقوله: «**لا أذكر إلا ذكرت معي**» كثيراً، أو عادة، أو في مواطن معروفة كالخطب والتشهد والتأذين فلا يصح شيء منها من أحد حتى يشهد أنه ﷺ رسوله شهادة تيقن، وأي رفع أعظم من ذلك.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[اتخذه الله حبيباً]

ما ذكره في شرح قوله ﷺ: «**اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى نجياً، واتخذني حبيباً، ثم قال: وعزتي وجلالي لأوثرن حبيبي على خليلي ونجيي**»[3]. رواه البيهقي والحاكم والديلمي

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ٢: ١٠). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٤٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٠٢٨).

(٢) رواه الهيثمي في موارد الظمآن (١٧٧٢). والطبري في التفسير (٣٠: ١٥١). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٥٤). وابن كثير في التفسير (٨: ٤٥٢). وابن عراق في تنزيه الشريعة (٤٢٦).

(٣) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٩٣). والسيوطي في اللآلئ المصنوعة (١: ١٤١). =

وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رحمه الله تعالى قال الراغب: الخلة تنسب إلى العبد، لا إليه تعالى فيقال: إبراهيم خليل الله، ولا يقال الله خليله، وليس المراد بقولهم إبراهيم خليل الله مجرد الصداقة، بل الفقر إليه تعالى، وخص إبراهيم عليه السلام، وإن شاركه كل موجود في افتقاره إليه تعالى، لأنه لما استغنى عن المقتنيات من أعراض الدنيا واعتمد على الله حقاً، وصار بحيث إنه لما قال له جبريل عليه السلام: ألَك حاجة، قال: أما إليك فلا فصبر على إلقائه في النار، وعرض ابنه للذبح لاستغنائه عما سواه تعالى، فخص بهذا الاسم، وقوله: نجياً، النجي المناجي، وهو المخاطب سراً وهو من قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢] والتناجي التسارر. واتخذني حبيباً، فعيل بمعنى مفعول، وقضية السياق أنه أعلى درجة من الأوصاف المثبتة لغيره ﷺ ممن ذكر من الأنبياء عليهم السلام. ولأوثرن، أي لأفضلن حبيبي محمداً على خليلي إبراهيم ونجيي موسى، نبه به ﷺ على أنه أفضل الرسل وأكملهم وجامع لما تفرق فيهم، فالحبيب خليل ومكلم ومشرف. وقيل: من قاس الحبيب بالخليل فقد أبعد لأن الحبيب من جهة القلب، يقال: حببته، أي أصبت قلبه، والخليل من الخلة، وهي الحاجة. وقد آثره ﷺ أيضاً بالنظر. روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس بسند حسن جعل الله الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والنظر لمحمد ﷺ.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[وإني لأراكم]

ما ذكره في شرح قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود فوالذي نفسي بيده إني لأراكم من وراء ظهري، إذا ركعتم وإذا سجدتم»[1]. رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائي عن أنس رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: وهذه رؤية إدراك فلا تتوقف على شعاع ومقابلة خرقاً للعادة، ولا يلزم منه محال، وخالق البصر في العين قادر على خلقه في غيرها، وزعم أن هذه رؤية قلبية، أو بوحي رد بأنه تعطيل للفظ الشارع بلا ضرورة، فحمله على ظاهره، وأنه إبصار حقيقي خاص به ﷺ خرقاً للعادة معجزة له أولى، قال ابن حجر، وظاهر هذا الحديث أن ذلك خاص بحالة الصلاة ويحتمل العموم.

= وابن عراق في تنزيه الشريعة (١: ٣٣٣). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ٢٣١).

(١) رواه البخاري في الصحيح (٨: ١٦٤). وأحمد في المسند (٣: ١١٥ و١٣٠ و١٧٠ و١٧٨ و٢٣٤ و٢٦٩ و٢٧٤ و٢٧٩). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ١١٧). وابن حجر في فتح الباري (١١: ٥٢٥).

وكلام جمع متقدمين مصرح بالعموم، ألا ترى إلى قول المطامح وغيرها أنه ﷺ كان يبصر من خلفه، لأنه كان يرى من كل جهة من حيث كان نوراً كله، وهذا من عظيم معجزاته ﷺ، ولهذا كان لا ظل له، إذ النور الذي أفيض عليه منع من حجب الظلمة، ولذلك تجلت له الجنة والنار في الجدار ﷺ. والمطامح كتاب للقاضي عياض.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أُتيتُ بمقاليد الدنيا]

عند قوله ﷺ: «أُتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق جاءني به جبريل، عليه قطيفة من سندس»[1]، رواه الإمام أحمد وابن حبان والضياء عن جابر رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى مقاليد الدنيا، أي مفاتيح خزائن الأرض كما في رواية الشيخين. الحديث يفسر بعضه بعضاً. وفي رواية مسلم: «أتيت بمفاتيح خزائن الأرض»، والمراد بالخزائن المعادن من زمرد وياقوت وذهب وفضة، أو البلاد التي فيها، أو الممالك التي فتحت لأمته بعده ﷺ، جاءني بها جبريل، وفي رواية إسرافيل ولا تعارض لأن المجيء إذا كان متعدداً فظاهر، وإلا فالجائي بها جبريل، وصحبته إسرافيل خيره بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً، فاختار الأول، وترك التصرف في خزائن الأرض فعوض التصرف في خزائن السماء، برد الشمس بعد غروبها وشق القمر، ورجم النجوم، واختراق السموات، وحبس المطر وإرساله، وإرسال الريح، وإمساكها وتظليل الغمام وغير ذلك من الخوارق. ومعنى القطيفة في اللغة كساء مربع له خمل، والسندس الديباج الرقيق، وحكمة كون الحامل فرساً الإشارة إلى استيلاء أمته ﷺ على خزائن جميع ملوك الطوائف أحمر وأسود وأبيض.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أدبني ربي فأحسن تأديبي]

ما ذكره في شرح قوله ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[2]. رواه ابن السمعاني عن ابن مسعود رضي الله عنه.

---

(١) رواه صاحب الميزان (٢٠٦). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ١٩٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٩٤).

(٢) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٧٢). والشوكاني في الفوائد المجموعة (٣٢٧). والفتني في تذكرة الموضوعات (٨٧). والألباني في السلسلة الضعيفة (٧٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٩٥).

قال رحمه الله تعالى: «أدبني ربي»: أي علمني رياضة النفس ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة، والأدب: ما يحصل للنفس من الأخلاق الحسنة والعلوم المكتسبة، «فأحسن تأديبي»: بأفضاله تعالى علي بالعلوم الوهبية بما لا يقع نظيره لأحد من البشر.

قال بعضهم: أدبه تعالى بآداب العبودية، وهذَّبه بمكارم أخلاق الربوبية لما أراد إرساله ﷺ ليكون ظاهر عبوديته مرآة للعالم، لقوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1] وباطن حاله مرآة للصادقين في متابعته، وللصديقين في السير إليه ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال القرطبي حفظه الله تعالى: من صغره، وتولى تأديبه بنفسه، ولم يكله في شيء من ذلك لغيره، ولم يزل الله تعالى يفعل ذلك به ﷺ، حتى كره إليه أحوال الجاهلية، وحماه منها، فلم يجر عليه شيء منها، كل ذلك لطف به وعطف عليه وجمع للمحاسن لديه، وفي هذا من تعليم شأن الأدب ما لا يخفى.

قال بعضهم: قد أدب الله تعالى روح نبيه ﷺ، ورباها في محل القرب قبل اتصالها ببدنه الظاهر باللطف والهيبة فتكامل له الأنس باللطف والأدب بالهيبة، واتصلت بعد ذلك بالبدن ليخرج باتصالها كمالات أخرى من القوة إلى الفعل، وينال كل من الروح والبدن بواسطة الآخر من الكمال ما يليق بالحال. ويصير قدوة لأهل الكمال، والأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً. وقيل: الأخذ بمكارم الأخلاق، وقيل الوقوف مع المستحسنات، وقيل تعظيم من فوقه مع الرفق بمن دونه، وقيل غير ذلك، ثم قال بعده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أدبني فأحسن أدبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق»[2] فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]. هذا سياق رواية السمعاني بحروفه، فتصرف فيه المؤلف يعني السيوطي كما ترى.

قال الزركشي حديث: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، معناه صحيح لكن لم يأت من طريق صحيح، وأسنده سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان، وأخرجه عن علي رضي الله عنه، وفيه، فقال: يا رسول الله، أراك تكلم الوفود بكلام أو لسان لا نفهم أكثره»، فقال ﷺ: «إن الله أدبني فأحسن تأديبي»، ونشأت في بني سعد فقال له عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، كلنا من

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ٨: ١١، ٩، ١٠٧). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٣٤٥). وابن حجر في فتح الباري (٢: ٢١٩، ٣١٢، ٤٠٦، ٤٣٨، ١١: ١٨٥، ١٣: ٢٣٦).
(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٦٧٣).

العرب، فما بالك أفصحنا؟، فقال: «**أتاني جبريل بلغة إسماعيل وغيرها من اللغات، فعلمني إياها**» وصححه أبو الفضل بن ناصر. قال المؤلف، أي السيوطي وأخرج العسكري عن علي رضي الله عنه قال: «قدم بنو نهد بن زيد على المصطفى ﷺ فقالوا: أتيناك من غور تهامة، وذكر خطبهم وما أجابهم به المصطفى ﷺ قال: فقلت: يا نبي الله، نحن بنو أب واحد، ونشأنا في بلد واحد، وإنك تكلم العرب بلسان لا نفهم أكثره فقال: «**أدبني ربي**» الخ...

وأخرج ابن عسار أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، طفت في العرب، وسمعت كلام فصحائهم، فما سمعت أفصح منك فمن أدبك؟ قال: «**أدبني ربي ونشأت في بني سعد**».

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أدبوا أولادكم على ثلاث خصال]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**أدبوا أولادكم على ثلاث خصال، حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه**»[1]. رواه أبو نصر الشيرازي في فوائده والديلمي وابن النجار عن علي رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: حب نبيكم المحبة الإيمانية لا الطبيعية، لأنها غير اختيارية، وهذا واجب لأن محبته ﷺ تبعث على امتثال ما جاء به.

قال السمعاني: يجب على الآباء تعليم أولادهم أن النبي ﷺ بعث بمكة إلى كافة الثقلين، ودفن بالمدينة، وأنه ﷺ واجب الطاعة والمحبة.

وقال ابن القيم: يجب أن أول ما يقرع سمعهم معرفة الله تعالى وتوحيده وأنه يسمع كلامهم وأنه معهم حيثما كانوا، وكذلك كان بنو إسرائيل يفعلونه، ولهذا كان أحب الأسماء إلى الله عبد الله، وعبد الرحمٰن بحيث إذا عقل الطفل وعى علم أنه عبد الله، ثم يعرفه بالنبي ﷺ وبوجوب محبته.

فائدة: فيه وجوب تأديب الأولاد وأنه حق لازم، وكما أن للأب على ابنه حقاً فللابن على أبيه كذلك، بل وصية الله تعالى للآباء بأبنائهم سابقة في التنزيل على وصية الأولاد بآبائهم، فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه فقد أساء إليه وأكثر عقوق الأولاد آخراً بسبب الإهمال أولاً ومن ثمَّ قال بعضهم لأبيه: أضعتني وليداً فأضعتك شيخاً.

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١ : ٧٦). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٥٤٠٩).

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشراً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»[1]. رواه الإمام أحمد، ومسلم والترمذي، والنسائي، وأبو داود، عن ابن عمرو رضي الله عنهما.

قال رحمه الله تعالى بعد قوله ﷺ: «وأرجو أن أكون أنا هو»، ذكره على طريق الترجي تأدباً وتشريعاً، وإلا فهو ﷺ أفضل الأنام. فلمن يكون ذلك المقام؟ فهو بلا شك صاحبه عليه الصلاة والسلام.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إذا سميتم محمداً فلا تضربوه ولا تحرموه]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إذا سميتم محمداً فلا تضربوه ولا تحرموه»[2]، رواه البزار عن أبي رافع رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى فلا تضربوه في غير تأديب، ولا تحرموه من البر والإحسان إكراماً لمن سمي باسمه ﷺ. وقال عند قوله ﷺ: «إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه وأوسعوا له في المجلس، ولا تقبحوا له وجهاً»[3]، رواه الخطيب عن علي رضي الله عنه، لا تقبحوا له وجهاً، أي لا تقولوا له قبح الله وجهك. وأخرج ابن عدي عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً ما أطعم طعام على مائدة، ولا جلس عليها قوم وفيهم اسمي إلا قدسوا كل يوم مرتين. وأخرج الطرائفي وابن الجوزي عن علي رضي الله عنه مرفوعاً، ما اجتمع قوم قط في مشورة وفيهم رجل اسمه محمد لم يدخلوه في مشورتهم إلا لم يبارك لهم فيها.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة (١١). وأبو داود في السنن (٥٢٣). والترمذي في السنن (٣٩١٤). والنسائي في السنن (٢: ٢٥). والبغوي في شرح السنة (٢: ٢٨٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٠٩٩٨).

(٢) رواه السيوطي في اللآلئ المصنوعة (١: ٥٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٥١٩٧). والعجلوني في كشف الخفا (١: ٩٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٤٨).

(٣) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٣: ٩١). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٥١٩٨).

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين]

ما ذكره عند قوله ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة، كنت إمام النبيين وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم، غير فخر»**(١). رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن ماجه عن أُبي بن كعب رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: خصَّ يوم القيامة لكونه يوم ظهور سؤدده ﷺ، لما كان أفضل الأولين والآخرين، كان إمامهم، فهم به مقتدون، وتحت لوائه داخلون، وخطيبهم بما فتح الله عليه من المحامد التي لم يحمده بها أحد قبله، فهو المتكلم بين الناس إذا سكتوا عن الاعتذار فيعتذر لهم عند ربهم، فيطلق لسانه ﷺ بالثناء على الله تعالى بما هو أهله ولم يؤذن لأحد في التكلم غيره ﷺ. وصاحب شفاعتهم، أي الشفاعة العامة بينهم أو صاحب الشفاعة لهم، غير فخر، أي لا أقوله تفاخراً به، وادعاء للعظم، بل اعتداداً لفضله تعالى، وتحدثاً بنعمته، إذ المراد لا أفتخر بذلك، بل فخري بمن أعطاني هذه الرتبة، ومنحني هذه المنحة، فهو إعلام بما خفي من حاله ﷺ على منوال قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أعطيت جوامع الكلم]

ما ذكره رضي الله عنه عند قوله ﷺ: **«أعطيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً»**(٢). رواه أبو يعلى عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قال رحمه الله تعالى فهو ﷺ الجامع لما تفرق قبله في الرسل من الكمال، مما لم يعطه أحد منهم من المزايا والأفضال. فمما اختص به دون الرسل عليهم الصلاة والسلام الفصاحة والبلاغة.

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٣٦١٣). وابن ماجه في السنن (٤٣١٤). وأحمد في المسند (٥: ١٣٧). والحاكم في المستدرك (١: ٧١). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤: ٥١). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٨٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٩٨). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٤: ١٤٤٨).

(٢) رواه الألباني في إرواء الغليل (١: ٣١٥). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٦٤). وابن أبي شيبة في المصنف (١١: ٤٣٣).

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أعطيت سورة البقرة]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين، والحواميم من ألواح موسى، وأعطيت فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، والمفصل نافلة»(١). رواه الحاكم عن معقل بن يسار رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى من الذكر الأول، أي عوضاً عن الذكر الأول، قال الكلاباذي في بحره، هو الصحف العشرة، والكتب الثلاثة، فالبقرة جامعة لما في تلك الصحف والكتب من العلوم متضمنة لما فيهن من المعارف، وقوله من ألواح موسى أي عوضاً عنها فهي متضمنة لما فيها من الأحكام والمواعظ وغيرها. قال ابن حجر وخص موسى لأن كتابه أوسع من الإنجيل حكماً وغيرها. وقوله نافلة: أي زيادة، وهي راجعة للفاتحة، والخواتيم والمفصل، أي فيما تضمنته من الأحكام والأسرار وغيرها زيادة على ما تضمنته الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ﷺ، ولم ينزل مثلهن على أحد من الأنبياء وليس عائداً على المفصل وحده لما يأتي من التصريح بأن إعطاء الفاتحة والخواتيم من خصائصه ﷺ وجزم به كثيرون. وأما قوله ﷺ في الحديث الآتي: وفضلت بالمفصل فلا ينافي أنه فضل بغيره أيضاً، وفيه أن من القرآن ما نزل نحوه على من قبله، وفي بعض الآثار أن أول التوراة أول الأنعام وآخرها آخر هود، وأن بعض القرآن أفضل من بعض. قال بعضهم القرآن جامع لنبأ الأولين والآخرين، فعلم الأمم الماضية علم خاص، وعلم هذه الأمة علم عام، وعلم أهل الكتاب قليل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. قرأ الحبر يعني ابن عباس وما أوتوا وعلم هذه الأمة كثير ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أعطيت آية الكرسي]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أعطيت آية الكرسي من تحت العرش»(٢). رواه البخاري في التاريخ وابن الضريس عن الحسن البصري مرسلاً.

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠: ٩). والحاكم في المستدرك (١: ٥٦١، ٥٦٨، ٢: ٢٥٩). والسيوطي في الدر المنثور (١: ٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٥٢٨).

(٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير (١: ٢٤٩). والسيوطي في الدر المنثور (١: ٢٢٦، ٢٢٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٥٦٢، ٤٠٥٩).

قال رحمه الله تعالى أي من كنز تحت العرش، كما جاء مصرحاً به هكذا في رواية وبقية الحديث: «ولم يؤتها نبي قبلي»، ومن ثَمَّ قال المصنف، أي الحافظ السيوطي رحمه الله من خصائصه ﷺ أنه أعطي من كنز العرش، ولم يعط منه أحد، وخص بالبسملة، والفاتحة، وآية الكرسي، وخواتيم سورة البقرة، والسبع الطوال، والمفصل.

ثم قال المناوي، ورواه الديلمي مسلسلاً بقول كل راو ما تركتها منذ سمعتها من حديث أبي أمامة عن علي كرم الله وجهه. قال أبو أمامة: سمعت علياً يقول: ما أرى رجلاً أدرك عقله في الإسلام يبيت حتى يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إلى ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فلو تعلمون ما هي أو ما فيها لما تركتموها. على حال أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت» إلى آخرها قال علي رضي الله عنه: فما بت ليلة قط منذ سمعته من رسول الله ﷺ حتى أقرأها. قال أبو أمامة: وما تركتها منذ سمعتها من علي ثم سلسله الباقون.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وسميت أحمد، وجعل لي التراب طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم»(١). رواه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: مفاتيح خزائن الأرض، استعارة لوعد الله له ﷺ بفتح البلاد، وهي جمع خزانة ما يخزن فيه، والأموال مخزونة عند أهل البلاد قبل فتحها، أو المراد خزائن العالم بأسره ليخرج لهم ﷺ بقدر ما يستحقون، فكل ما ظهر في ذا العالم فإنما يعطيه الذي بيده المفتاح بإذن الفتاح وكما اختص سبحانه بمفاتيح علم الغيب الكلي، فلا يعلمها إلا هو، خص حبيبه بإعطاء مفاتيح خزائن المواهب، فلا يخرج منها شيء إلا على يده ﷺ.

وقال عند قوله: «وسميت أحمد» فلم يسم به أحد قبله ﷺ حماية من الله تعالى، لئلا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك في كونه ﷺ هو المنعوت بأحمد في الكتب السابقة.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١: ٩٨). والبيهقي في السنن الكبرى (١: ٢١٣). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ٢٦٠). وابن كثير في التفسير (٢: ٧٨). والزيلعي في نصب الراية (١: ١٥٩). والألباني في إرواء الغليل (١: ٣١٧).

وقوله: «وجعل لي التراب طهوراً» أي مطهراً عند تعذر الماء حساً أو شرعاً، وقوله: «وجعلت أمتي خير الأمم» بنص: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] وشرف أمته ﷺ من شرفه، وليس المراد حصر خصائصه ﷺ في الخمس المذكورة، بدليل خبر مسلم: «فضلنا على الأنبياء بست»[١].

وفي رواية «بسبع»، وفي أخرى أكثر، ولا تعارض لاحتمال أنه ﷺ اطلع أولاً على بعض ما خص به، ثم على الباقي أو أن البعض كان معروفاً للمخاطب على أن مفهوم العدد غير حجة على الأصح.

تنبيه: قال الحكيم الترمذي: إنما جعل تراب الأرض طهوراً لهذه الأمة لأنها لما أحست بمولد النبي ﷺ، انبسطت وتمددت، وتطاولت، وأزهرت، وأينعت، وافتخرت على السماء، وسائر الخلق بأنه ﷺ مني خلق، وعلى ظهري تأتيه كرامة الله تعالى وعلى بقاعي يسجد بجبهته، وفي بطني مدفنه، فلما زاد فخرها بذلك جعل ترابها طهوراً لأمته ﷺ فالتيمم هدية من الله تعالى لهذه الأمة خاصة لتدوم لهم الطهارة.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أعطيت فواتح الكلام وجوامعه وخواتمه]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أعطيت فواتح الكلام، وجوامعه، وخواتمه»[٢] رواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني عن أبي موسى رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: «أعطيت فواتح الكلام»، أي البلاغة والفصاحة والتوصل إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات التي أغلقت على غيره ﷺ.

وفي رواية «مفاتح الكلم»، قال الكرماني: أي لفظ قليل يفيد معنى كثير، أو هذا معنى البلاغة «وجوامعه» التي جمعها الله فيه، وكان كلامه ﷺ كالقرآن في كونه جامعاً فإنه خلفه، «وخواتيمه» أي خواتيم الكلام، يعني حسن الوقف، ورعاية الفواصل، فكان ﷺ يبدأ كلامه

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (المساجد: ٥). والترمذي في السنن (١٥٥٣). وأحمد في المسند (٢: ٤١٢). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٤٣٢). والبيهقي في دلائل النبوة (٥: ٤٧٢). والبغوي في شرح السنة (١: ٢٦٦). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٤٨). وفيه: «فضلت».

(٢) رواه ابن حجر في المطالب العلية (٣٨٢٤). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١١٣). وابن أبي شيبة في المصنف (١: ٩٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٢٣٤٤).

بأعذب لفظ، وأوجزه، وأفصحه، وأوضحه، ويختمه بما يشوق السامع إلى الإقبال على استماع مثله والحرص عليه.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أعطيت مكان التوراة السبع الطوال]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل**»[(١)]. رواه الطبراني والبيهقي عن واثلة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: مكان التوراة أي بدل ما فيها، وكذا يقال فيما بعده «**والسبع الطوال**»، أولها البقرة وآخرها براءة بجعل الأنفال مع براءة سورة واحدة، «**وأعطيت مكان الزبور المئين**» أي السور التي أولها ما يلي الكهف، لزيادة كل منها على مائة آية، «**والمثاني**» هي السور التي آيها مائة، أو أقل سميت مثاني لأنها قصرت على المئين، وزادت على «**المفصل**». «**والمفصل**» آخره سورة الناس اتفاقاً وأوله قيل: الحجرات أو الجاثية، أو القتال، أو قاف، أو الصافات، أو الصف أقوال رجح النووي منها الأول.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أعطيت آيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي**»[(٢)]. رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي عن حذيفة والإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنهما.

قال المناوي رحمه الله تعالى: أولها، أي الآيات المذكورة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال الحافظ العراقي: معناه أنها ادخرت له، وكنزت له، فلم يؤتها أحد قبله ﷺ، وكثير

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤: ١٠٧). والهيثمي في مجمع الزوائد (٧: ٤٦). والمنذري في الترغيب والترهيب (٢: ٣٦٨). والبغوي في شرح السنة (١: ١٠). والطبري في التفسير (١٧: ٣٤). والساعاتي في منحة المعبود (٨: ١٩). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ١١٦). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٥٨٢).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١: ٢١٣). والهيثمي في مجمع الزوائد (٦: ٣١٢، ٣٢٤). وابن حجر في فتح الباري (١: ٤٣٩).

من آي القرآن منزل في الكتب السالفة باللفظ أو المعنى، وهذه لم يؤتها أحد وإن كان فيه أيضاً ما لم يؤت غيره ﷺ، لكن في هذه خصوصية لهذه الأمة، وهي وضع الأصر الذي على من قبل، فلذا قال «**لم يعطهن نبي قبلي**».

قال في المطامح: الله أعلم ما هذا الكنز، ويجوز كونه كنز اليقين، فهو كنز مخبوء تحت العرش أخرج الله سبحانه منه ثمانية مثاقيل من نور اليقين، فأعطي منها رسول الله ﷺ أربعة وزيد ذخيرة خصوصية للرسالة، فلذلك وزن إيمانه بإيمان الخلق فرجح إلى هنا كلامه. انتهت عبارة المناوي. وللقاضي عياض كتاب اسمه مطامح الأفهام في شرح الأحكام.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أعطيت ثلاث خصال]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**أعطيت ثلاث خصال: أعطيت صلاة في الصفوف، وأعطيت السلام، وهو تحية أهل الجنة، وأعطيت آمين ولم يعطها أحد ممن كان قبلكم إلا أن يكون الله أعطاها هارون، فإن موسى كان يدعو الله ويؤمن هارون**»[1]. رواه الحارث وابن مردوية عن أنس رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: لا ينافيه خبر: «**أعطيت خمساً**» ولا خبر: «**أعطيت ستاً**»، ولا تبديل بعض الخصال ببعض في الروايات، لاحتمال أنه ﷺ أعطى الأقل فأخبر به ثم زيد فأخبر به هكذا، أو أنه أعطى أولاً الأكثر فأخبر ببعضه ثم أخبر ببعضه، بناء على المشهور من أن ذكر العدد لا يدل على الحصر، ومعنى «**أعطيت صلاة في صفوف الملائكة عند ربها**»[2]، وكانت الأمم المتقدمة يصلون منفردين، وجوه بعضهم لبعض، وأعطيت أي كما تصف السلام، وهو تحية أهل الجنة أي يحيي بعضهم بعضاً به تحيتهم فيها سلامٌ كانت الأمم السابقة إذا لقي بعضهم بعضاً انحنى له بدل السلام، وفيه مؤنة فأعطينا تحية أهل الجنة. فيا لها من منة.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أعطيت خمساً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب**

---

(١) رواه ابن حجر في المطالب العلية (٤٥٠). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٠٥٨٥:).

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور (١: ١٧).

مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً والتراب طهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1]. رواه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: فهي من الخصائص وليست خصائصه ﷺ منحصرة في الخمس، بل هي تزيد على ثلاثمائة كما بينه الأئمة والتخصيص بالعدد لا ينفي الزيادة.

ومبسيرة شهر أي نصرني الله بإلقاء الخوف في قلوب أعدائي من مسيرة شهر بيني وبينهم من سائر نواحي المدينة، وجعل الغاية شهراً إشارة إلى أنه لم يكن بين بلده ﷺ وبين أحد من أعدائه أكثر من شهر، إذ ذاك فلا ينافي أن ملك أمته يزيد على ذلك بكثير وهذا خصوصية له ﷺ ولو بلا عسكر.

ولا يشكل بخوف الجن وغيرهم من سليمان عليه السلام، لأن المراد على الوجه المخصوص الذي كان عليه المصطفى ﷺ من عدم العلم بالتسخير، بل بمجرد الشجاعة، والإقدام البشري، وسليمان عليه السلام علم كل أحد أنها قوة تسخير، وقدم النصر الذي هو الظفر بالأعداء لأهميته إذ به قيام الدين. وثنى بجعل الأرض مسجداً والتراب طهوراً، لأن الصلاة بشروطها أعظم المهمات الدينية، والمراد بإحلال الغنائم له ﷺ أنه تعالى جعل له التصرف فيها كما شاء وقسمتها كما أراد ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ١]، أو المراد اختصاصه ﷺ بها هو وأمته دون الأنبياء، فإن منهم من لم يؤذن بالجهاد فلم يكن له غنائم، ومنهم المأذون الممنوع منها، فتجيء نار فتحرقها، إلا الذرية ويرجح الثاني قوله **«ولم تحل لأحد قبلي»**.

وفائدة التقييد بقوله ﷺ قبلي، التنبيه على المخصوص عليهم من الأنبياء، وأنه أفضلهم حيث خص بما لم يخصوا به عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وأعطيت الشفاعة العامة والخاصة الخاصتان به ﷺ، قال النووي: له ﷺ شفاعات خمس، الشفاعة العظمى للفصل، وفي جماعة يدخلون الجنة بغير حساب، وفي ناس استحقوا النار فلا يدخلونها، وفي ناس دخلوا النار فيخرجون منها، وفي رفع ناس في الجنة، والمختص به ﷺ من ذلك الأولى والثانية ويجوز الثالثة والخامسة، وكان النبي يبعث إلى قومه

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ١١٩). ومسلم في الصحيح (المساجد: ٣). والنسائي في السنن (النحل ب: ٤٦). وأحمد في المسند (٣: ٣٠٤). والبيهقي في السنن الكبرى (١: ٢١٢). والدارمي في السنن (٢: ٢٢٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٥٩). والساعاتي في بدائع المنن (١٢٢) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨: ٣١٦).

خاصة فكان إذا بعث في عصر واحد نبي واحد دعا إلى شريعة قومه فقط ولا ينسخ بها شريعة غيره أو نبيان دعا كل منهما إلى شريعته فقط، ولا ينسخ بها شريعة الآخر، وبعثت إلى الناس عامة، وفي رواية لمسلم بدل عامة كافة، قال الكرماني: أي جميعاً، والمراد ناس زمنه ﷺ فمن بعدهم إلى يوم القيامة، ولم يذكر الجن لأن الإنس أصل أو مقصود بالذات، بل خبر وأرسلت إلى الخلق يفيد إرساله ﷺ للملائكة كما عليه السبكي. وختم بالبعث العام كلامه في الخصائص ليتحقق لأمته ﷺ الجمع بين خيري الدارين. وفيه أن المصطفى ﷺ أفضل الرسل كما ذكر من أن كل نبي أرسل إلى قوم مخصوصين، وهو ﷺ إلى الكافة، وذلك لأن الرسل إنما بعثوا لإرشاد الخلق إلى الحق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، وكل من كان في هذا الأمر أكثر تأثيراً كان أفضل، فكان للمصطفى ﷺ فيه النصيب الأوفر، إذ لم يختص بقوم دون قوم، وزمان دون زمان، بل دينه ﷺ انتشر في المشارق والمغارب، وتغلغل في كل مكان، واستمر امتداده في كل زمان زاده الله شرفاً وعزاً ما ذر شارق ولمع بارق، فله الفضل بحذافيره سابقاً ولاحقاً ﷺ.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أعطيت سبعين ألفاً من أمتي]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أعطيت سبعين ألفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، على قلب رجل واحد فاستزدت ربي عزَّ وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً»[1]. رواه الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: قال المظهري: يحتمل أن يراد به خصوص العدد وأن يراد به الكثرة ورجحه بعضهم. قال ابن عبد السلام: وهذا من خصائصه ﷺ ولم يثبت ذلك لغيره من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إني لأمين في السماء أمين في الأرض]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض»[2]. رواه

---

(١) رواه أحمد في المسند (١: ٦). والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٤١٠).

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٣٧:). والسيوطي في جمع الجوامع (٤٢٣٦). وابن كثير في=

الطبراني عن أبي رافع رضي الله عنه. قال رحمه الله تعالى: صدره بكلمة التنبيه التي هي من طلائع القسم ومقدماته، وقرنه بالقسم لتحقيق ما بعده وإثباته في ذهن السامع، ورداً على من عاند في كفره بعدما صار في جلية من أمره، وقد كان المصطفى ﷺ يدعى في الجاهلية الأمين وإذا أطلقوه لا يعنون به إلا هو ﷺ.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إن الله اتخذني خليلاً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وإن خليلي أبو بكر**»[(١)]. رواه الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: إن الله تعالى لما علم من كل منهما أحوالاً بديعة، وأسراراً عجيبة، وصفات جميلة، قد رضيها أهلها لمخاللته ومخالصته.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[(٢)]. رواه مسلم والترمذي عن واثلة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: قال الحافظ ابن حجر: ولهذا الحديث طرق جمعها شيخنا العراقي في كتابه «محجة القرب في محبة العرب»، قال المناوي رحمه الله تعالى في شرحه: ومعنى الاصطفاء والخيرية في هذه القبائل ليس باعتبار الديانة، بل باعتبار الخصال الحميدة،

= التفسير (٤: ٤٦٦). والطبراني في المعجم الكبير (١: ٣١٢).

(١) رواه ابن ماجه في السنن (١٤١). والحاكم في المستدرك (٢: ٥٥). والطبراني في المعجم الكبير (٨: ٢٣٧). والسيوطي في جمع الجوامع (٤٦١٧، ٤٦١٨، ٤٦١٩). وابن كثير في التفسير (٢: ٣٧٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٤٠، ٣٢٥٧٢، ٣٢٩٨٨، ٣٣٩٢). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٢٤٣). والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٥: ٢٧٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل (١). والترمذي في السنن (٣٦٠٦). وأحمد في المسند (٤: ١٠٧). والبغوي في شرح السنة (٧: ٢٩٧). والألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٨٣).

وفيه أن غير قريش من العرب ليس كفؤاً لهم. ولا غير بني هاشم كفؤاً لهم، أي إلا بني المطلب وهو مذهب الشافعية، وقال القرطبي: معنى اختيار الله لمن شاء من خلقه. تخصيصه بصفات كمال نوعه وجعله أصلاً لذلك النوع وإكرامه له على ما سبق في علمه، ونافذ حكمه من غير وجوب عليه، ولا إجبار بل على ما قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقد اصطفى تعالى من هذا الجنس الحيواني نوع بني آدم وكفاك أنه خلق العالم كله لأجله كما صرح به بقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

ثم اختار من النوع الإنساني من جعله معدن نبوته ومحل رسالته وأولهم آدم، ثم اختار من نطفه نطفة كريمة، فلم يزل ينقلها من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، فكان منها الأنبياء كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٣٣]. ثم اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وإسحاق، ثم من ولد إسماعيل كنانة، ثم ختمهم بخاتمهم ومشرفهم وصدر كتيبتهم وهو محمد ﷺ، أخره عن الأنبياء زماناً وقدمه عليهم رتبة ومكاناً. قال ابن تيمية: وقد أفاد الخبر أن العرب أفضل من جنس العجم، وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن المصطفى ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الناس نفساً ونسباً، وليس فضل العرب، فقريش فبني هاشم لمجرد كون النبي ﷺ منهم، وأن كان هذا من الفضل بل هم في أنفسهم أفضل فثبت أنه ﷺ أفضل نفساً ونسباً وإلا لزم الدور.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم»[1]. رواه الترمذي عن واثلة رضي الله عنه وقال حديث صحيح.

قال رحمه الله تعالى بعد قوله ﷺ: «واصطفاني من بني هاشم» فأودع ذلك النور، الذي كان في جبهة آدم في جبهة عبد المطلب، ثم ولده عبد الله والد النبي ﷺ وطهر الله تعالى هذا النسب الشريف من سفاح الجاهلية. واعلم أن بني إسماعيل فُضِّلوا بالأخلاق الكريمة لا باللسان العربي فحسب، وهم أزكى الناس أخلاقاً وأطيبهم نفوساً يدل عليه دعوة إبراهيم عليه

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٣٦٠٥). وأحمد في المسند (٤: ١٠٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٨٤). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ١: ٢).

الصلاة والسلام حيث قال: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] ثم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ [البقرة: ١٢٨] فإنما سأل في ذرية إسماعيل خاصة ألا ترى إلى تعقيبه بقوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

تنبيه: قال ابن تيمية قضية الخبر أن إسماعيل وذريته صفوة ولد إبراهيم فيقتضي أنهم أفضل من ولد إسحاق.

ومعلوم أن ولد إسحاق وهم بنو إسرائيل أفضل العجم، لما فيهم من النبوة والكتاب، فمتى ثبت الفضل على هؤلاء فعلى غيرهم بالأولى.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إن الله أعطاني السبع مكان التوراة]

ما ذكره عند قوله ﷺ: **«إن الله أعطاني السبع مكان التوراة، وأعطاني الراآت إلى الطواسين مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلني بالحواميم، والمفصل ما قرأهن نبي قبلي»**(١). رواه محمد بن نصر عن أنس رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: بعد قوله ﷺ ما قرأهن نبي قبلي، يعني ما أنزلن على نبي من قبلي فقرأهن، فهو من خصوصياته على الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إن الله أيدني بأربعة وزراء]

ما ذكره عند قوله ﷺ: **«إن الله أيدني بأربعة وزراء، اثنين من أهل السماء: جبريل وميكائيل، واثنين من أهل الأرض: أبي بكر وعمر»**(٢). رواه الطبراني وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال رحمه الله تعالى: فأبو بكر رضي الله عنه يشبه بميكائيل عليه الصلاة والسلام للينه، وعمر رضي الله عنه يشبه بجبريل عليه الصلاة والسلام لشدته وصلابته في أمر الله، وناهيك بها منزلة للشيخين قامعة للرافضة قاصمة لظهورهم.

---

(١) رواه السيوطي في جمع الجوامع (٤٧٠٠). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٥٨١). والقرطبي في التفسير (١٣ : ٨٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١ : ١٧٩).

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[جعلني عبداً ولم يجعلني جباراً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إن الله جعلني عبداً كريماً، ولم يجعلني جباراً»[1]. رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن بسر رضي الله عنهما.

قال رحمه الله تعالى: قال عبد الله راوي الحديث كان لرسول الله ﷺ قصعة يقال لها: الغراء، يحملها أربعة رجال، فلما أصبحوا وسجدوا الضحى، أتي بتلك القصعة قد أثرد فيها فالتقوا عليها، فلما كثروا جثي المصطفى ﷺ فقال أعرابي: ما هذه الجلسة؟ فذكر الحديث ثم قال: «كلوا من جوانبها، وذروا ذروتها يبارك لكم فيها»[2].

فهذا بقية المتن كما هو عند مخرجيه أبي داود وابن ماجه.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إن الله لم يجعلني لحاناً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إن الله تعالى لم يجعلني لحاناً، اختار لي خير الكلام، كتابه القرآن»[3]. رواه الشيرازي في الألقاب عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: اللحان كثير اللحن في الكلام، وصيغة المبالغة هنا ليست على بابها، والمراد نفي اللحن مطلقاً، وإن قل، ومَن كتابه القرآن كيف يلحن لا تنقضي آياته، ولا تتناهى على مر الزمان معجزاته، فقد أعجز البلغاء وأخرس الفصحاء، فمن القرآن خلقه ولسانه كيف يلحن.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»[4]. رواه البخاري عن عائشة

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٣٧٧٣). وابن ماجه في السنن (٣٢٦٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٨٦). والألباني في السلسلة الصحيحة (١ : ٦٧٨).

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٤٠٧٥٦). وأبو داود في السنن باب: ١٨ وابن ماجه في السنن (٣٢٧٥).

(٣) رواه السيوطي في جمع الجوامع (٤٩٦٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٩٠).

(٤) رواه البخاري في الصحيح (١ : ١١). وابن حجر في فتح الباري (١ : ٧٠، ١٠ : ٥١٣). والسيوطي =

رضي الله عنها. قال رحمه الله لأن الله سبحانه وتعالى جمع له ﷺ بين علم اليقين وعين اليقين، مع الخشية القلبية، واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لغيره ﷺ.

وكلما ازداد علم العبد بربه ازدادت تقواه وخوفه منه تعالى، ومن عرف الله، صفا له العيش وهابه كل شيء، فمعناه ما أنا عليه من التقوى والعلم أوفر وأكثر من تقواكم وعلمكم فلا ينبغي لأحد أن يتشبه بي. ذكره القاضي.

وقال القرطبي: إنما كان ﷺ كذلك لما خص به من أصل خلقته من كمال الفطنة، وجودة القريحة، وسداد النظر، وسرعة الإدراك، ولما رفع عنه من موانع الإدراك قواطع النظر قبل تمامه ومن اجتمعت له هذه الأمور سهل عليه الوصول إلى العلوم النظرية وصارت في حقه كالضرورية، ثم إنه تعالى قد أطلعه ﷺ من علم صفاته وأحكامه، وأحوال العالم على ما لم يطلع عليه غيره، فإذا كان في علمه بالله تعالى أعلم الناس، لزم أن يكون أخشاهم له، لأن الخشية منبعثة عن العلم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قال الكرماني: وقوله ﷺ أتقاكم إشارة إلى كمال القوة العملية، وأعلمكم إلى كمال القوة العلمية، والتقوى على مراتب وقاية النفس عن الكفر، وهو للعامة، وعن المعاصي وهو للخاصة، وعما سوى الله وهو لخاص الخاص، والعلم بالله يشمل العلم بصفاته تعالى وهو المسمى بأصول الدين، والعلم بأحكامه وهو فروع الدين، والعلم بكلامه وهو علم القرآن، وتعلقاته والعلم بأفعاله وهو معرفة حقائق الأشياء. ولما كان المصطفى ﷺ جامعاً لأنواع التقوى حاوياً لأقسام العلوم ما خصص التقوى ولا العلم، وقد يقصد بالحذف إفادة العموم والاستغراق.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون فقالوا: إنا لسنا كهيئتك، إن الله قد غفر لك، يغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: «هذا».

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إن لي أسماء]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر

= في جمع الجوامع (٦٠٧٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٩١).

الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب»[١]. رواه الإمام مالك والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: وفي رواية للبخاري خمسة أسماء، أي موجودة في الكتب السالفة، أو مشهورة بين الأمم الماضية، أو يعلمها أهل الكتابين، أو مختص بها لم يتسم بها أحد قبلي، أو معظمة أو أمهات الأسماء وما عداها راجع إليها، لا أنه ﷺ أراد الحصر، كيف؟ وله أسماء أخر بلغها بعضهم. كما قال النووي في المجموع وتهذيب الأسماء، واللغات ألف لكن أكثرها من قبيل الصفات. قال ابن القيم: فبلوغها ذلك باعتبارها ومسماها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة باعتبار، متباينة باعتبار. «أنا محمد»، قدمه لأنه أشرفها وهو من باب التفعيل للمبالغة، ولم يسم به غيره قبله، لكن لما قرب مولده ﷺ سموا به نحو خمسة عشر لرجاء كونه هو. و«أنا أحمد»، أي أحمد الحامدين، فالأنبياء حمادون، وهو أحمدهم أي أكثرهم حمداً، وتسميته به من خصائصه ﷺ. و«أنا الحاشر»، الذي يحشر الناس على قدمي، بتخفيف الياء على الإفراد وتشديدها على التثنية، والمراد على أثر نبوتي، أي أثر زمنها، أي ليس بعده ﷺ نبي. و«أنا الماحي» الذي يمحو الله بي الكفر، أي يزيل أهله من جزيرة العرب، أو من أكثر البلاد، وقد يراد المحو العام بمعنى ظهور الحجة والغلبة ليظهر دينه ﷺ على الدين كله، و«أنا العاقب» زاد مسلم الذي ليس بعده أحد. وللترمذي الذي ليس بعده نبي لأنه ﷺ جاء عقبهم. وفيه جواز التسمية بأكثر من واحد.

قال ابن القيم: لكن تركه أولى لأن القصد بالاسم التعريف والتمييز، والاسم كاف، وليس كأسماء المصطفى ﷺ، لأن أسماءه كانت نعوتاً دالة على كمال المدح، لم يكن إلا من باب تكثير الأسماء الجلالة المسمى لا للتعريف فقط. قال المؤلف يعني السيوطي في الخصائص: من خصائصه ﷺ أن له ألف اسم، واشتقاق اسمه من اسم الله، وأنه تسمى من أسماء الله تعالى بنحو سبعين اسماً، وأنه سمي أحمد ولم يسم به أحد قبله.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إنما بعثت فاتحاً وخاتماً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إنما بعثت فاتحاً وخاتماً، وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه،

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤: ٨٠). وعبد الرزاق في المصنف (١٩٦٥٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢١٦٥:). والهيثمي في مجمع الزوائد (١ : ١٥٤).

واختصر لي الحديث اختصاراً، فلا يهلكنكم المتهوكون»(١). رواه البيهقي عن أبي قلابة مرسلاً.

قال رحمه الله تعالى: فاتحاً وخاتماً، أي للأنبياء أو للنبوة، قال ابن عطاء الله: ما زال فلك النبوة دائراً إلى أن عاد الأمر من حيث بدا. وختم بمن له كمال الاصطفاء. فهو الفاتح الخاتم نور الأنوار، وسر الأسرار، المبجل في هذه الدار، وفي تلك الدار، أعلى المخلوقين مناراً، وأتمهم فخاراً، والمتهوكون، الذين يقعون في الأمور بغير روية، قال الحرالي: وإنما بعث ﷺ كذلك لأنه بعث بالقرآن المنزل عند انتهاء الخلق وكمال الأمر، فكان التخلق به جامعاً لانتهاء كل خلق، وكمال كل أمر، فلذلك كان المصطفى ﷺ الفاتح الخاتم، الجامع الكامل، وكان كتابه خاتماً فاستوفى صلاح هذه الجوامع الثلاثة التي خلت في الأولين بداياتها وتمت عنده غاياتها ﷺ.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إنما أنا لكم بمنزلة الوالد]

ما ذكره عند قوله ﷺ: **«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه»**(٢). رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: أبو الإفادة أقوى من أبي الولادة، وهو ﷺ الذي أنقذنا الله به من ظلمة الجهل إلى نور الإيمان، وقدم هذا أمام المقصود إعلاماً بأنه يجب عليه تعليمهم أمر دينهم كما يلزم الوالد، وإيناساً للمخاطبين فيما يحتشمون عن السؤال عنه؛ مما يعرض لهم مما يستحى منه، وبسطاً للعذر عن التصريح بقوله ﷺ فإذا أتى أحدكم الغائط، أي محل قضاء الحاجة، فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها ببول ولا غائط وجوباً في الصحراء، وندباً في غيرها، ولا يستطب، أي يستنج، بغسل أو مسح بيمينه فيكره ذلك تنزيهاً وقيل تحريماً، وقد أفاد الحديث أن النبي ﷺ لجميع الأمة كالأب، وكذا أزواجه أمهاتهم، لأن منه ومن أزواجه يعلم الذكور والإناث معالي الدين كله ولم يتولد خير إلا منه ومنهن، فبره وبرهن أوجب من كل واجب وعقوقه وعقوقهن أهلك من كل مهلك.

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٦٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١١٣). والسيوطي في الدر المنثور (٥: ١٤٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٠١٦٣:).

(٢) رواه أبو داود في السنن (٨). وابن كثير في التفسير (٦: ٣٨٢). والسيوطي في جمع الجوامع (٧٥٩٩:). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١: ٥٥).

تنبيه: قال ابن الحاج أمة محمد ﷺ في الحقيقة أولاده لأنه السبب للإنعام عليهم بالحياة السرمدية والخلود في دار النعيم فحقه أعظم من حقوق الوالدين، قال ﷺ: ابدأ بنفسك، فقدم نفسه على غيره والله قدمه في كتابه على نفس كل مؤمن، ومعناه إذا تعارض للمؤمن حقان، حق لنفسه وحق لنبيه، فآكدهما وأوجبهما حق النبي ﷺ، ثم يجعل حق نفسه تبعاً للحق الأول، وإذا تأملت الأمر في الشاهد، وجدت نفع المصطفى ﷺ أعظم من الآباء والأمهات وجميع الخلق، فإنه أنقذك وأنقذ أباك من النار، وغاية أمر أبويك أنهما أوجداك فكانا سبباً لإخراجك إلى دار التكليف والبلاء والمحن فهو ﷺ أحق منهما بالبر.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إنما أنا رحمة مهداة]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»[1]. رواه ابن سعد والحكيم عن أبي صالح مرسلاً، والحاكم عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: إنما أنا رحمة، أي ذو رحمة، أو بالغ في الرحمة، حتى كأنه عينها، لأن الرحمة ما يترتب عليه النفع، ونحوه وذاته ﷺ كذلك، وإذا كانت ذاته رحمة فصفاته التابعة لذاته كذلك، ومعنى مهداة، أي ما أنا إلا رحمة للعالمين أهداها الله إليهم فمن قبل هديته أفلح ونجا، ومن أبى خاب وخسر، وذلك لأنه ﷺ الواسطة لكل فيض فمن خالف فعذابه من نفسه.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضا

[إنما بعثت أتمم]

عند قوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[2]. كما رواه ابن سعد والبخاري في الأدب والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

---

(١) رواه الشهاب في المسند (١١٦٠، ١١٦١). وابن كثير في التفسير (٥: ٣٨١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢١٣). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٨٠٠). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٦٢). وابن كثير في البداية والنهاية (٦: ٢٩٩). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ٣٤٢). وابن عدي في الضعفاء (٤: ١٥٤٦).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢: ٣٨١). والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ١٨٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٩٦).

قال رحمه الله تعالى: إنما بعثت، أي أرسلت لأتمم، أي لأجل أن أكمل صالح الأخلاق، وفي رواية مكارم الأخلاق بعدما كانت ناقصة وأجمعها بعد التفرقة، قال الحكيم: أنبأنا به ﷺ، أن الرسل قد مضت فلم تتم هذه الأخلاق فبعث بإتمام ما بقي عليهم، وقال بعضهم: أشار ﷺ إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله بعثوا بمكارم الأخلاق وبقيت بقية فبعث المصطفى ﷺ بما كان معهم وبتمامها.

وقال الحسن: صالح الأخلاق هي صلاح الدين والدنيا، والمعاد التي جمعها ﷺ في قوله: **«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي»**[1]. وقال العارف ابن العربي: معنى الحديث أنه لما قسمت الأخلاق إلى مكارم وإلى سفساف وظهرت مكارم الأخلاق كلها في شرائع الدين التي أتى بها الرسل، وتبين سفسافها من مكارمها عندهم، وما في العالم إلا أخلاق الله تعالى، وكلها مكارم، فما ثم سفساف أخلاق فبعث ﷺ بالكلمة الجامعة إلى الناس كافة، وأوتي جوامع الكلم، وكل نبي تقدمه على شرع خاص فأخبر ﷺ بأنه بعث ليتمم صالح الأخلاق، فعاد الكل مكارم أخلاق، فما ترك في العالم سفساف أخلاق جملة واحدة لمن عرف مقصد الشرع، فأبان لنا مصارفه بهذا المسمى سفسافاً، من نحو حرص، وحسد، وشره، وطمع، وبخل، وكل صفة مذمومة، فأعطانا لها مصارف، إذا أجريناها لها عادت مكارم أخلاق، وزال عنها اسم الذم، فكانت محمودة فتمم الله به ﷺ مكارم الأخلاق، فلا ضد له، كما أنه لا ضد للحق، لكن منا من عرف المصارف، ومنا من جهلها.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

. [بعثت رحمة]

ما ذكره عند قوله ﷺ: **«إنما بعثت رحمة، ولم أبعث عذاباً»**[2]. رواه البخاري في التاريخ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: إنه ﷺ حشي بالرأفة والرحمة، فاستنار قلبه بنور الله تعالى،

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (٢٠٢٧). والنسائي في السنن (٣: ٦٣). وأحمد في المسند (٤: ٣٩٩). والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ١٠٩).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٠٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٩٧). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٦١). وأبو نعيم في دلائل النبوة (١: ١٥).

فصغرت الدنيا في عينه، فبذل نفسه في جنب الله تعالى، فكان رحمةً وأماناً، فالعذاب لم يقصد من بعثه ﷺ.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[بعثني الله مبلغاً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إنما بعثني الله مبلغاً ولم يبعثني متعنتاً»[١]. رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها.

قال رحمه الله تعالى: إنما بعثني الله مبلغاً للأحكام عن الله تعالى معرفاً به، داعياً إليه تعالى وإلى جنته، مبيناً مواقع رضاه، وآمراً بها، ومواقع سخطه وناهياً عنها، ومخبراً بأخبار الرسل مع أممهم، وأمر المبدأ والمعاد وكيفية شقاوة النفس وسعادتها وأسباب ذلك، ولم يبعثني متعنتاً، أي مشدداً. قاله ﷺ لعائشة رضي الله عنها لما أمر بتخيير نسائه فبدأ بها فاختارته، وقالت: لا تقل إني اخترتك فذكره، وفيه إشعار بأن من دقائق صناعة التعليم، أن يزجر المعلم المتعلم عن سوء الأخلاق باللطف، والتعرض ما أمكن من غير تصريح وبطريق الرحمة من غير توبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف وتهييج الحرص على الإصرار ذكره الغزالي.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إنه ليغان على قلبي]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[٢]. رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن الأغر المزني.

قال رحمه الله تعالى: إنه ليغان على قلبي، من الغين وهو الغطاء، وإني لأستغفر الله، أي أطلب منه الغفران، وهو الستر في اليوم مائة مرة، قال العارف الشاذلي: هذا غين أنوار لا غين أغيار، لأنه ﷺ دائم الترقي، فكلما توالت أنوار المعارف على قلبه ارتقى إلى رتبة أعلى منها، فيعد ما قبلها كالذم، فليس ذلك الغين غين حجاب، ولا غفلة كما وهم، وإنما كان

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٣٣١٨). وابن حجر في الكاف والشاف في تخريج أحاديث الكشاف (١٣٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٩٨).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (٤١). وأبو داود في السنن (١٥١٥). وأحمد في المسند (٤: ٢١١، ٢٦٠).

يستغرقه ﷺ أنوار التجليات فيغيب بذلك الحضور، ثم يسأل الله تعالى المغفرة، أي ستر حاله عليه، لأن الخواص لو دام لهم التجلي لتلاشوا عند سلطان الحقيقة، فالستر لهم رحمة، وللعامة حجاب ونعمة.

من كلام السهروردي: لا ينبغي أن تعتقد أن الغين نقص في حال المصطفى ﷺ، بل كمال، أو تتمة كمال، وهذا السر دقيق لا ينكشف إلا بمثال، وهو أن الجفن المسبل على حدقة البصر، وإن كانت صورته صورة نقصان من حيث هو إسبال وتغطية على ما يقع به الإبصار.

فإن القصد من خلق العين إدراك الحسيات، وذلك لا يمكن إلا بانبعاث الأشعة الحسية من داخل العين واتصالها بالمرئيات عند قوم، وبانطباع صور المدركات في الكرة الجبلية عند آخرين، فكيف ما كان لا يتم المقصود إلا بانكشاف العين وعرائها عما يمنع انبعاث الأشعة، لكن لما كان الهواء المحيط بالأبدان الحيوانية قلما يخلو من الغبار الثائر بحركة الرياح، فلو كانت الحدقة دائمة الانكشاف تأذت به فتغطت بالجفون وقاية لها مصقلة للحدقة فيدوم جلاؤها.

فالجفن وإن كان نقصاً ظاهراً، فهو كمال حقيقة فلهذا لم تزل بصيرة المصطفى ﷺ معرّضة لأن تصدأ بالغبار الثائر من أنفاس الأغيار، فدعت الحاجة إلى إسبال جفن من الغين على حدقة بصيرته ﷺ ستراً لها ووقاية وصقالاً عن تلك الأغبرة المثارة برؤية الأغيار وأنفاسها، فصح أن الغين، وإن كان نقصاً فمعناه كمال وصقال حقيقة، وأراد ﷺ بالمئة التكثير فلا تدافع بينه وبين رواية السبعين.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[لم أبعث لعاناً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة». رواه البخاري في الأدب ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: إنما بعثت رحمة لمن أراد الله تعالى إخراجه من الكفر إلى الإيمان أو لأقرب الناس إلى الله تعالى وإلى رحمته لا لأبعدهم عنها، فاللعن مناف لحالي فكيف ألعن، ولعان صيغة مبالغة والمراد نفي أصل الفعل على وزان ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] قاله ﷺ لما قيل له: يا رسول الله ادع الله على بني عامر فذكره ﷺ.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إني لأشفع لأكثر مما على وجه الأرض من حجر وشجر]

ما ذكره قوله ﷺ: «إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر وشجر»[١]. رواه الإمام أحمد عن بريدة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: يعني أشفع بخلق كثير جداً لا يحصيهم إلا الله تعالى، فالمراد بما ذكره ﷺ التكثير. وفيه جواز الشفاعة ووقوعها، وهو مذهب أهل السنة وإذا جاز العفو عن الكبيرة فمع الشفاعة أولى وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩] فنحو ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٤٨] بعد تسليم عموم الأحوال والأزمان يختص بالكفار جمعاً بين الأدلة.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إني لا أشهد على جور]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إني لا أشهد على جور»[٢]. رواه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

وفي رواية لابن قانع عنه أنه ﷺ قال: «إني عدل لا أشهد إلا على عدل»[٣]. قال رحمه الله تعالى سببه ما تقرر استشهاده على ما خص به ولده، أي ما خص به بشير ولده النعمان، وبه تمسك الإمام أحمد على أن تفضيل بعض الأولاد في الهبة حرام، والجمهور على كراهته لقوله ﷺ في رواية: «أشهد على هذا غيري»[٤]، ولو كان حراماً لم يأمر باستشهاد غيره

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (٢٠٠٧). وابن كثير في التفسير (٥: ٣٨٠). والطبراني في المعجم الكبير (١٩: ١٨٩). والبخاري في الأدب المفرد (٣٢١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٤٠). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٨١٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٠٨). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٢٢١). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ٣٤٢). والهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢١٨).

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٣٧٩).

(٣) رواه النسائي في السنن (النحل ب: ١). وأبو داود في السنن (البيوع ب: ٨٥). وأحمد في المسند (٤: ٢٦٨). والبيهقي في السنن الكبرى (٦: ١٧٧). والهيثمي في موارد الظمآن (١١٤٧). وابن كثير في التفسير (٣: ٥٨). والبغوي في شرح السنة (٨: ٢٩٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٧٧٣٤).

(٤) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (١٧٧٣٥).

عليه، وفسر الجور بالميل عن الاعتدال، فكل ما خرج عن الاعتدال فهو جور، حراماً كان أو مكروهاً. قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: وفيه أنه يكره لأهل الفضل الشهادة فيما يكره وإن جاز.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[إني لا أخيس بالعهد]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرُد»[1]. رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم، عن أبي رافع رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: «لا أخيس بالعهد»، أي لا أنقضه ولا أفسده، «ولا أحبس البرُد»، أي لا أحبس الرسل الواردين عليَّ.

قال الزمخشري: جمع بريد، وهو الرسول. قال الطيبي: والمراد بالعهد هنا العادة الجارية المتعارفة بين الناس، إن الرسل لا يتعرض لهم بمكروه، لأن في تردد الرسل مصلحة كلية، فلو حبسوا أو تعرض لهم بمكروه كان سبباً لانقطاع السبل بين الفئتين المختلفتين وفيه من الفتنة والفساد ما لا يخفى على ذي لب.

قال راوي هذا الحديث أبو رافع، مولى رسول الله ﷺ. فلما رأيته ﷺ القى في قلبي الإسلام وقلت لا أرجع إليهم فذكره ﷺ، ثم قال: «ولكن ارجع إليهم فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع»[2]. قال أي أبو رافع رضي الله عنه: فرجعت ثم أتيته ﷺ فأسلمت.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا محمد بن عبد الله]

ما ذكره عند قوله ﷺ: **«أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن**

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٦: ١٧٨).

(٢) رواه أبو داود في السنن (الجهاد، ب: ١٦٢). وأحمد في المسند (٦: ٨٨). والطبراني في المعجم الكبير (١: ٣٠٣). والهيثمي في موارد الظمآن (١٦٣٠). والحاكم في المستدرك (٣: ٥٩٨). والبغوي في شرح السنة (١١: ١٦٣). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٣٩٨١). والألباني في السلسلة الصحيحة (٧٠٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٠٩٣٦).

كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نسباً وخيركم أباً»[1]. رواه البيهقي في الدلائل عن أنس رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

محمد: علم منقول سمي به ﷺ بإلهام لجده لرؤيا رآها كما ذكر حديثها القيرواني العابر في كتاب «البستان»، وهي أنه رأى سلسلة فضة خرجت منه لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف بالمشرق، وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق معلقون بها. فعبرت بمولود يتبعونه ويحبه أهل السماء.

(عبد الله) علم منقول من مركب إضافي، ولم يذكر المناوي شيئاً من مناقبه وهي مشهورة.

فمنها: أنه كان أجمل فتى في قريش، وأحب أولاد عبد المطلب إليه، على أنه مات ولم يتجاوز العشرين.

عبد المطلب اسمه شيبة الحمد وكنيته أبو الحارث كان مفزع قريش، وشريفهم، وملجأهم في الأمور، وموئلهم في النوائب، وأول من خضب بالسواد، وكان يرفع من مائدته للطير والوحش في رؤوس الجبال، ومن ثَمَّ يقال له مطعم طير السماء، والشيخ الجليل صاحب الطير الأبابيل، وجعل باب الكعبة ذهباً، وكانت له السقاية والسدانة، والزيارة، والحجابة، والإفاضة، والندوة، وحرم الخمر على نفسه في الجاهلية.

هاشم اسمه عمر ولقب به لأنه أول من هشم الثريد لقومه في الجدب. قال النيسابوري كان النور على وجهه كالهلال، لا يمر بشيء إلا سجد له، ولا رآه أحد إلا أقبل نحوه، سأله قيصر أن يتزوج ابنته لما رأى في الإنجيل من صفة ابنه.

عبد مناف اسمه المغيرة وكنيته أبو عبد شمس كان يقال له جمل البطحاء، لقب به لطوله، وكان مطاعاً في قريش.

قُصَيّ تصغير قَصِيّ، أي بعيد، لأنه بعد عن قومه في بلاد قضاعة مع أمه، واسمه مُجَمِّع[2]، أو زيد ملكه قومه عليهم، فكان أول ملك من بني كعب، وكان لا يعقد عقد نكاح ولا غزو إلا في داره.

---

(١) رواه أبو داود في السنن (الجهاد، ب: ١٦٢).

(٢) لقبه قومه «مُجمِّع»، لأنه جمع قومه من الشعاب والأودية وأسكنهم مكة، لتقوى بهم عصبيته.

كِلاب بكسر الكاف والتخفيف منقول من المصدر بمعنى المكالبة اسمه حكيم، أو حكيمة، أو عروة، وكنيته أبو زهرة، وهو أول من حلى السيوف بالنقد.

مُرَّة بضم الميم كنيته أبو يقظة.

كَعْب وهو أول من قال أما بعد، وأول من جَمَّع يوم العروبة، أي يوم الجمعة، فكان يجمع قريشاً فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ وإنه من ولده.

لُؤَي بضم اللام وهمزة وتسهل.

غَالِب كنيته أبو تيم.

فِهْر بكسر فسكون اسمه قريش وإليه تنسب قريش فما كان فوقه فكناني.

مَالِك اسم فاعل من ملك يملك، يكنى أبا الحارث.

النَّضْر بفتح فسكون، اسمه قيس لقب به لنضارة وجهه وجماله، ويكنى أبا مخلد رأى في منامه شجرة خضراء خرجت من ظهره، ولها أغصان نور، فجذبت إلى السماء فأولت بالعز والسؤدد.

كِنَانَة لقب به لأنه كان ستراً على قومه كالكنانة، أي الجعبة الساترة للسهام، كان عظيم القدر وكانت تحج إليه العرب لعلمه وفضله، قال الحكيم الترمذي: كان جواداً لا يأكل وحده حتى إذا فقد من يواكله وضع بين يديه حجراً فأكل لقمة وألقى عليه لقمة أنفة أن يأكل وحده.

خُزَيْمة يكنى أبا أسد له مكارم وأفضال كثيرة.

مُدْرِكَة بضم فسكون، اسمه عمرو وحكي الرشاطي عليه الإجماع وكنيته أبو هذيل لقب به لأنه أدرك أرنباً عجز عنها رفقاؤُه.

إِلْيَاس بكسر الهمزة أو فتحها ولامه للتعريف وهمزته للوصل عند الأكثر كنيته أبو عمرو وهو أول من أهدى البدن للبيت، قيل: وكان يسمع في صلبه تلبية النبي ﷺ بالحج، ولما مات أسفت زوجته خِنْدِف عليه فحلفت لا تقيم ببلد مات فيها ولا يظلها سقف، وحرمت الرجال والطيب وخرجت سائحة حتى ماتت فضرب بها المثل.

مُضَر بضم ففتح، اسمه عمرو، ومن كلامه: «من يزرع شراً يحصده، وخير الخير أعجله واحملوا أنفسكم على مكروهها فيما يصلحها، واصرفوها عن هواها فيما يفسدها»، وكانت له فراسة وقيافة.

نِزَار بكسر النون والتخفيف من النزر وهو القليل، لأن أباه حين ولد نظر إلى نور النبوة بين عينيه ففرح به وأطعم كثيراً، وقال: هذا نزر في حق هذا المولود. وكنيته أبو إياد.

مَعَدّ بن عَدْنَانِ إلى هنا معلوم الصحة متفق عليه.

قال ابن دحية: أجمعوا أنه لا يجاوز عدنان، وعن الحبر يعني ابن عباس رضي الله عنهما بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون، ومن ثَمَّ أنكر مالك على من رفع نسبه إلى آدم عليه السلام، وقال: من أخبره به؟ أي لأنه من كلام المؤرخين ولا ثقة بهم.

قال ابن القيم: ولا خلاف أن عدنان من ولد إسماعيل، وهو الذبيح على الصواب، قال: والقول بأنه أسحاق باطل من أكثر من عشرين وجهاً.

قال ابن تيمية: هو إنما يتلقى من أهل الكتاب وهو باطل بنص كتابهم. وقال المناوي بعد قوله ﷺ في الحديث: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما»[1]، قال مغلطاي: إنما كان آباؤه ﷺ فضلاء عظماء، لأن النبوة ملك وسياسة عامة، والملك في ذوي الأحساب والأخطار، وكلما كانت خصال الفضل أكثر كانت الرعية أكثر انقياداً وأسرع طاعة، وكلما كان في الملك نقيصة نقصت أتباعه ورعاياه، فلذا جعل ﷺ من خير الفرق وخير البقاع.

وقال عند قوله ﷺ: «حتى انتهيت إلى أبي وأمي»، هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهْرة بن كلاب، تلتقي مع رسول الله ﷺ من جهة آبائه في كلاب، قال أنس راوي هذا الحديث رضي الله عنه: بلغ النبي ﷺ أن رجالاً من كندة يزعمون أنهم منهم، فقال: «إنما يقول ذلك العباس، وأبو سفيان إذا قدما عليكم ليأمنا بذلك وإنا لا نتتفي من آبائنا نحن بنو النضر بن كنانة»، ثم خطب الناس فقال: «أنا محمد بن عبد الله»[2] إلى آخره ﷺ

ومن جواهر المناوي أيضاً

[أنا النبي لا كذب]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[3]. رواه الإمام أحمد

---

(١) رواه السيوطي في الحاوي للفتاوي (٢: ٣٦٨). وفي الدر المنثور (٣: ٢٩٤). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٢٧٩).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٣: ٢٤٢). والترمذي في السنن (٣٥٣٢). وأحمد في المسند (١: ٢١٠). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٢٩٤). والألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٧٢). وابن حجر في فتح الباري (٥: ٣٠٣).

(٣) رواه البخاري في الصحيح (٤: ٣٧). ومسلم في الصحيح (الجهاد: ٧٨). وأبو داود في السنن (٤٨٧). والترمذي في السنن (١٦٨٨). وابن الجارود في المنتقى (١٠٦٦). وأحمد في المسند (١ : ٦٤). والدارمي في السنن (١ : ١٦٦). والبيهقي في السنن الكبرى (٩: ١٥٥). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١ : ٢٨٩). والبخاري في التاريخ الصغير (١ : ٦). وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧: ١٣٢). والمتقي الهندي في=

والبخاري ومسلم والنسائي عن البراء رضي الله عنه. قال رحمه الله تعالى في قوله ﷺ: «أنا النبي لا كذب» عرفه باللام لحصر النبوة فيه، أي فلا أفر من الكفار، ففيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبي والنبي لا يكذب، فلست بكاذب فيما أقول حتى أهزم، بل وعدني ربي بنصره فلا يجوز أن أفر.

«أنا ابن عبد المطلب»، نسبة لجده لأبيه لشهرته به، وللتعريف، والتذكير بما أخبرهم به الكهنة قبل ميلاده، أنه آن أن يظهر من بني عبد المطلب نبي، فذكرهم ﷺ بأنه هو ذلك المقول عنه لا للفخر، فإنه كان يكرهه وينهى عنه، ولا للعصبية لأنه كان يذمها وينهى عنها.

ولا يشكل هذا بحرمة الشعر عليه، لأن هذا من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة ولا تكلف، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم، وإذا فتشت في كلامهم عن نحو ذلك، وجدت الواقع من أوزان البحور غير عزيز، ومنه في القرآن كثير.

قال بعض شراح الشفا: وهذا عام في كل نبي لما في الشعر من الغلو. قال الشافعي: الشعر يزري بالعلماء، فالنبوة أولى.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا أعرب العرب]

ما ذكره عند قوله ﷺ: **«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، أنا أعرب العرب، ولدتني قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر، فأنَّى يأتيني اللحن»**[1]. رواه الطبراني عن ابي سعيد رضي الله عنه.

= كنز العمال (٣٠٢٠٦:). وابن حجر في فتح الباري (٨: ٢٨). والبغوي في شرح السنة (١٢: ٣٧٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٤١). والطبراني في المعجم الكبير (٦: ٤٣). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٢٢٥). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ٢٨٩). وابن كثير في البداية والنهاية (٤: ٦٩).

(١) رواه البخاري في الصحيح (٤: ٣٧). ومسلم في الصحيح (الجهاد: ٧٨). وأبو داود في السنن (٤٨٧). والترمذي في السنن (١٦٨٨). وابن الجارود في المنتقى (١٠٦٦). وأحمد في المسند (١: ٦٤). والدارمي في السنن (١: ١٦٦). والبيهقي في السنن الكبرى (٩: ١٥٥). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٢٨٩). والبخاري في التاريخ الصغير (١: ٦). وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧: ١٣٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٠٢٠٦:). وابن حجر في فتح الباري (٨: ٢٨). والبغوي في شرح السنة (١٢: ٣٧٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٤١). والطبراني في المعجم الكبير (٦: ٤٣). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٢٢٥). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ٢٨٩). وابن كثير في البداية والنهاية (٤: ٦٩). =

قال رحمه الله تعالى: أي كيف يجوز عليّ النطق باللحن وأنا أعرب العرب، ولذا أعجز ﷺ فصحاء العرب الذين ينفثون السحر في قريضهم، ورجزهم، وخطبهم، وما يتصرفون فيه من الكناية، والتعريض، والاستعارة، والتمثيل، وصنوف البديع، وضروب المجاز، والافتنان في الإشباع، والإيجاز حتى قعدوا مقهورين، وبقوا مبهوتين فاستكانوا وأذعنوا له ﷺ.

تنبيه: قال في «الروض»: إنما رفع أشراف العرب أولادهم إلى المراضع في القبائل، ولم يتركوهم عند أمهاتهم لينشأ الطفل في الأعراب فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه، كما قال ﷺ في الحديث: «تمعدوا واخشوشنوا»[١] فكان هذا يحملهم على ذلك.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا ابن العواتك من سليم]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا ابن العواتك من سليم»[٢]. رواه سعيد بن أبي منصور والطبراني عن سيابة بن عاصم رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: قال «في الصحاح»: العواتك من جداته ﷺ تسع، وقال غيره: كان له ثلاث جدات من سليم، كل تسمى عاتكة وهن: عاتكة بنت هلال بن فالج بالجيم ابن ذكوان، أم عبد مناف، وعاتكة بنت مرة بن هلال، أم هاشم، وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال، أم وهب، أبي آمنة، وبقية التسع من غير بني سليم.

قال الحليمي: لم يرد ﷺ بذلك فخراً، بل تعريف منازل المذكورات كما يقال: كان أبي فقيهاً. لا يريد به إلا التعريف، ويمكن أنه ﷺ أراد به التحدث بنعمة الله تعالى في نفسه وآبائه وأمهاته، وبنو سليم تفخر بهذه الولادة.

وفي رواية لابن عساكر: «أنا ابن الفواطم»[٣]، وهذا قاله يوم حنين. قال في «الروض»

---

(١) رواه ابن حجر في فتح الباري (١٠: ٢٨٦). والهيثمي في مجمع الزوائد (٥: ١٣٦). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤: ٤٣٨). وابن أبي شيبة في المصنف (٩: ٢٢). وابن حجر في المطالب العلية (٢١٧١). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٧: ٣٥٢). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١: ٢٦٥). والفتني في تذكرة الموضوعات (١١٣).

(٢) رواه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٢٨٩). والعلائي في جامع التحصيل (٢٣٤). والطبراني في المعجم الكبير (٧: ٢٠١). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢١٩). والبيهقي في دلائل النبوة (٥: ١٣٥). وابن كثير في البداية والنهاية (٤: ٣٢٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٧٤).

(٣) رواه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٢٨٩).

يقال امرأة عاتكة وهي المصفرة بالزعفران والطيب. وفي القاموس: العاتك الكريم. وقال ابن سعد العاتكة في اللغة: الطاهرة.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا النبي الأمي الصادق]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**أنا النبي الأمي الصادق الزكي، الويل كل الويل لمن كذبني وتولى عني وقاتلني، والخير لمن آواني ونصرني وآمن بي وصدق قولي وجاهد معي**»[1]. رواه بن سعد عن عبد عمرو بن جبلة الكلبي رضي الله عنه، قال رحمه الله تعالى بعد قوله ﷺ: «**أنا النبي**» هذا وما قبله وما بعده من قبيل ما ورد فيه الجملة الخبرية لأمور غير فائدة الخبر، والقصد به هنا إظهار شرفه ﷺ وكونه عند ربه بمكان عليّ، حيث خصه بأنه النبي الأمي، أي جعلني الله بحيث لا أهتدي للخط، ولا أحسنه لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهذا أعلى درجات الفضل حيث كان أمياً آتياً بالعلوم الجمة، والحكم الوافرة، وأخبار القرون الماضية بلا تعلم خط واستفادة من كتاب.

ثم قال: ذكر ابن ظفر عن سفيان المجاشعي أنه رأى قوماً من تميم اجتمعوا على كاهنتهم فسمعها تقول: العزيز من والاه، والذليل من عاداه، والموفور من مالاه. فقال سفيان: من تذكرين؟ قالت: صاحب حل، وحرم، وهدي، وعلم، وبطش، وحلم، وحرب، وسلم. فقال سفيان: لله درك من هو؟ قالت: نبي يبعث إلى الأحمر والأسود بكتاب لا يفند، اسمه أحمد. وذكرت من ذلك كثيراً في كتابي حجة الله على العالمين.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا أبو القاسم]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**أنا أبو القاسم الله يعطي وأنا أقسم**»[2]. رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٧٥). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ١٦٩). وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٦٨).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٤). والدولابي في الكنى والأسماء (٢: ٣). والبخاري في التاريخ الصغير (١: ١٤). والسيوطي في الدر المنثور (٥: ٢٧٠). والخرائطي في مكارم الأخلاق (٥٥). وابن حجر في فتح الباري (١٠: ٥٧٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٧٦). والألباني في السلسلة الصحيحة (٤: ١٧١). =

قال رحمه الله تعالى هذا أشهر كناه ﷺ، وكنيته أيضاً أبو إبراهيم، وأبو المؤمنين. قال ابن دحية: وأبو الأرامل. الله يعطي عباده من ماله من نحو غنيمة وفيء، وأنا أقسم ذلك بينهم كما أمرني الله تعالى عادلاً في القسمة، قاله ﷺ تطييباً لقلوب المسلمين وتألفاً لمفاضلته بالإعطاء بينهم، والمراد أن المال مال الله تعالى والعباد عباد الله تعالى، وأنا أقسم بإذنه ماله بينهم فمن قسمت له قليلاً، أو كثيراً فبإذن الله تعالى، وقد يشمل الأمور الدينية والعلوم الشرعية، أي ما أوحى الله تعالى إليه ﷺ من العلوم، والمعارف، والحكم يقسمه بينهم، فيلقي إلى كل أحد ما يليق به ويحتمله.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا أكثر الأنبياء تبعاً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة»[1] رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: خص يوم القيامة لأنه يوم الظهور بذلك الجمع. وهذا يوضحه حديث مسلم أيضاً: «**من الأنبياء من يأتي يوم القيامة ما معه مصدق غير واحد**»، ثم إن الجزم هنا لا ينافيه قوله ﷺ في حديث أبي هريرة، وأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً، فلعله قبل أن يكشف له عن أمته ويراهم، ثم حقق الله رجاءه ﷺ، «**وأنا أول من يقرع باب الجنة**» أي يطرقه للاستفتاح فيكون أول داخل.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا أول الناس خروجاً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا آيسوا، لواء الحمد يومئذٍ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي، ولا فخر»[2]، رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه.

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الإيمان: ٣٣٠). والبيهقي في السنن الكبرى (٩: ٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٧٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٧).

(٢) رواه القاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٨). وابن كثير في التفسير (٧: ١٢). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤: ٥١٢). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٦٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٦). والبيهقي في دلائل النبوة (٥: ٤٨٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٧٨).

قال رحمه الله تعالى: قال الرافعي في الكلام على هذا الخبر هو بمعنى قوله ﷺ: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض**»[١]، وهذا من كمال عناية ربه به، حيث منحه هذا السبق، وفيه مناسبة لسبقه بالنبوة، ومعنى «إذا وفدوا»، أي قدموا على ربهم.

قال بعض شراح الترمذي: وهذه خطبة الشفاعة وقيل قبلها، وقال ﷺ: «**خطيبهم**» دون إمامهم، لأن الكلام في الآخرة ولا تكليف فيها وفيه رفعه على جميع الخلق في المحشر، ومبشرهم بقبول شفاعتي لهم عند ربي ليريحهم إذا آيسوا.

وفي رواية «أبلسوا»، من الإبلاس وهو الإنكسار والحزن، لأنه البشير ﷺ. «**ولواء الحمد يومئذٍ بيدي**» أي يوم القيامة على عادة العرب أن اللواء إنما يكون مع كبير القوم ليعرف مكانه إذ موضوعه أنه لشهرة مكان الرئيس.

وقد سئل المؤلف يعني الحافظ السيوطي عن لواء الحمد هل هو لواء حقيقي أو معنوي؟

فأجاب بأنه معنوي وهو الحمد لأن حقيقة اللواء الراية، ولا يمسكها إلا أمير الجيش فالمراد أنه ﷺ يشتهر بالحمد.

وهذا أحد قولين نقلهما الطيبي وغيره فقال: يريد به انفراده ﷺ بالحمد يوم القيامة، أو أن للحمد لواء يوم القيامة حقيقة يسمى لواء الحمد. وعليه كلام النوربشتي حيث قال: لا مقام من مقامات عباد الله الصالحين أرفع من مقام الحمد، ودونه تنتهي جميع المقامات.

ولما كان المصطفى ﷺ أحمد الخلائق في الدارين أعطي لواء الحمد ليأوي إلى لوائه الأولون والآخرون، وأضاف اللواء إلى الحمد الذي هو الثناء على الله تعالى بما هو أهله لأنه هو منصبه في الموقف، وهو المقام المحمود المختص به، وقوله ﷺ: «**وأنا أكرم ولد آدم على ربي**»، إخبار بما منحه من السؤدد والإكرام وتحدث بمزيد الفضل والإنعام.

ومن كرامته ﷺ على ربه أنه تعالى أقسم بحياته وأشفق عليه فيما كان يتكلفه من العبادة، وطلب منه تقليلها، ولم يطلبه من غيره، بل حثه على الزيادة، وأقسم له أنه لمن المرسلين،

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٣١٤٨). وابن ماجه في السنن (٤٣٠٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والحاكم في المستدرك (٢: ٤٦٥). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ١٩٨). وابن حجر في فتح الباري (١١: ٤٣٣). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٤٤٢). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١: ٢٤٣). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٤٦٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤: ٢٧٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٧٩:). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٩٨). وابن أبي عاصم في السنة (٢: ٣٦٩). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥: ١٨٧٠).

وأنه ليس بمجنون، وأنه لعلى خلق عظيم، وأنه ما ودعه وما قلاه، وولد ﷺ مختوناً لئلا يرى أحد عورته، واستأذن ملك الموت في الدخول عليه لقبض روحه، ولم يفعل ذلك لأحد غيره، وبعث ﷺ بالبيان. ولما كان هذا من الأصول الاعتقادية، التي قام الإجماع على وجوب الاعتقاد بها بينه بهذا القول، وأردفه بقوله: «ولا فخر» دفعاً لتوهم إرادته الافتخار به وهو حال مؤكدة، أي أقول ذلك غير مفتخر به فخر تكبر.

قال القرطبي: إنما قال ﷺ ذلك لأنه مما أمر بتبليغه لما يترتب عليه من وجوب اعتقاد ذلك، وإنه حق في نفسه، وليرغب في الدخول في دينه ويتمسك به من دخل فيه، ولتعظم محبته في قلوب متبعيه، فتكثر أعمالهم، وتطيب أحوالهم، فيحصل لهم شرف الدنيا والآخرة، لأن شرف المتبوع متعدٍّ لشرف التابع.

فإن قيل هذا راجع للاعتقاد، فكيف يحصل القطع به من أخبار الآحاد؟

قلنا: من سمع شيئاً من هذه الأمور من النبي ﷺ مشافهة حصل له العلم به كالصحابة، ومن لم يشافهه حصل له العلم به من طريق التواتر المعنوي.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا أول من تنشق عنه الأرض]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأكسى حلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»[1]، رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: أي أنا أول من تعاد فيه الروح يوم القيامة، ويظهر، فأكسى حلة من حلل الجنة ويشاركه في ذلك إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام، وفي هذا دلالة على قربه من ربه وكرامته عليه، إذ يكسى حيث عري الناس، من لباس الجنة قبل دخولها كدأب

(١) رواه الترمذي في السنن (٣١٤٨). وابن ماجه في السنن (٤٣٠٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والحاكم في المستدرك (٢: ٤٦٥). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ١٩٨). وابن حجر في فتح الباري (١١: ٤٣٣). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٤٤٢). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١: ٢٤٣). والقاضي عياض في كتاب الشفا (١: ٤٦٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤: ٢٧٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٧٩:). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٩٨). وابن أبي عاصم في السنة (٢: ٣٦٩). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥: ١٨٧٠).

الملوك مع خواصهم، فله ﷺ المقام الخاص المعبر عنه بالمحمود. ألا ترى إلى قوله: «ثم أقوم عن يمين العرش». فهذه خصيصية شرفه تعالى بها وحده في ذلك المقام.

والخلائق يشمل الثقلين والملائكة، وهذا هو الفضل المطلق، ولا يعارضه خبر الشيخين: «أنا أول من يرفع رأسه بعد النفخة فإذا موسى عليه الصلاة والسلام متعلق بالعرش»(١) لجواز أن يكون بعد البعث صعقة فزع تسقط الكل ولا يسقط موسى عليه الصلاة والسلام اكتفاء بصعقة الطور، فحين يرفع رأسه من هذه الصعقة يراه آخذاً بجانب العرش، فالمراد من النفخة تلك الصعقة.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا سيد ولد آدم وأول من ينشق عنه القبر]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع»(٢)، رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: خص يوم القيامة لأنه يوم مجموع له الناس، فيظهر سؤدده لكل أحد عياناً، وصف نفسه ﷺ بالسؤدد المطلق المفيد للعموم في المقام الخطابي على ما تقرر في علم البيان، فيفيد تفوقه على ولد آدم حتى أولي العزم من الرسل، واحتياجهم إليه.

كيف لا؟ وهو واسطة كل فيض، وتخصيصه ولد آدم ليس للاحتراز، فهو ﷺ أفضل حتى من خواص الملائكة، كما نقل الإمام: عليه الإجماع. ومراده إجماع من يعتد به من أهل السنة.

وقال ذلك ﷺ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] فهو من البيان الذي يجب تبليغه.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا سيد ولد آدم بيدي لواء الحمد]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، بيدي لواء الحمد ولا

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٦: ٢٢٦).
(٢) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). وأبو داود في السنن (٤٦٧٣).

فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول شافع، وأول مشفع، ولا فخر»[١] رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد رضي الله عنه وقال الترمذي حسن صحيح.

قال رحمه الله تعالى: «ولا فخر»، أي أقول ذلك شكراً لا فخراً، فهو من قبيل قول سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:١٦]، أي لا أقول ذلك تكبراً، أو تعاظماً على الناس، وقيل: لا أتكبر به في الدنيا، وإلا ففيه فخر الدارين، وقيل: لا افتخر بذلك، بل فخري بمن أعطاني هذه المرتبة، والفخر ادعاء العظم والمباهاة، هذا قاله ﷺ للتحدث بالنعمة، وإعلام الأمة ليعتقدوا فضله على جميع الأنبياء. وأما خبر «لا تفضلوا بين الأنبياء» فمعناه تفضيل مفاخرة.

و«بيدي لواء الحمد» بالكسر والمد، والألوية في العرصات مقامات لأهل الخير والشر، تنصب في كل مقام لكل متبوع لواء يعرف به قدره، وأعلى تلك المقامات مقام الحمد، ولما كان ﷺ أعظم الخلائق، أعطي أعظم الألوية، وهو لواء الحمد ليأوي إلى لوائه الأولون والآخرون، وعليه، فالمراد باللواء الحقيقة، فلا وجه لعدول البعض عنه وحمله على لواء الجمال والكمال.

وقوله و«لا فخر»، أي لا فخر لي بالعطاء بل بالمعطى، ولهذا المعنى المقرر افتتح كتابه ﷺ بالحمد واشتق اسمه من الحمد، وأقيم يوم القيامة المقام المحمود، ويفتح عليه في ذلك المقام من المحامد بما لم يفتح على أحد قبله، ولا بعده ﷺ.

ثم قال: وأما قوله ﷺ لمن قال: له يا خير البرية، قال: «ذلك إبراهيم»[٢] فعلى جهة التواضع، وترك التطاول على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو قبل أن يعلم بتفضيله عليه.

لا يقال: كيف يصح من معصوم الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه، لأجل تواضع أو

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). والترمذي في السنن (٣١٤٨). والقاضي عياض في كتاب الشفا (١: ٣٩٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٤١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٠٤). والقرطبي في التفسير (٣: ٢٦٢). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣: ١٥٧). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٤٤٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٢٢٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٨١). وأبو نعيم في حلية الأولياء (١: ١٣). وابن كثير في البداية والنهاية (١: ١٧١).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٤: ١٩٤). ومسلم في الصحيح (الفضائل: ٤٢). والقاضي عياض في كتاب الشفا (١: ٤٣٩). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٠٤). والبيهقي في دلائل النبوة (٥: ٤٩٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٣٧٣).

غيره، وكيف يكون ذلك خبراً عن أمر وجودي، والأخبار الوجودية لا يدخلها نسخ؟

لأنا نقول بمنع أن هذا إخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه، فإنه تواضع بمنع إطلاق ذلك اللفظ عليه، وتأدب مع أبيه، بإضافة ذلك إليه، ولم يتعرض للمعنى فكأنه قال: لا تطلقوا هذا اللفظ عليّ، وأطلقوه على إبراهيم عليه الصلاة والسلام أدباً معه واحتراماً، فهو خبر عن الحكم الشرعي، لا عن المعنى الوجودي.

سلمنا أنه خبر عن أمر وجودي، لكن لا نسلم أن كل أمر وجودي لا يتبدل، بل من ما يتبدل، ولا يلزم من تبدله تناقض ولا محال، ولا نسخ، كالإخبار عن الأمور الوضعية.

وبيانه أن معنى كون الإنسان مكرماً ومفضلاً، إنما هو بحسب ما يكرم به ويفضل به على غيره، ففي وقت يكرم بما يساوي فيه غيره، وفي وقت يزاد على ذلك الغير، وفي وقت يكرم بشيء لم يكرم به أحد، فيقال عليه في المنزلة الأولى: مكرم، وفي الثانية: مفضل مقيد، وفي الثالثة: مفضل مطلقاً، ولا يلزم من ذلك تناقض ولا نسخ. ذكره القرطبي وقال: اغتبط به وشد عليه يدك.

وقال بعض الصوفية، وهو الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي: وإنما أعلم أمته ﷺ بالسيادة، وأنه أول شافع ليريحهم من التعب ذلك اليوم، وذهابهم لنبي بعد نبي ليشفع لهم، أو يرشدهم لشافع، وأنهم يمكثون بمحلهم حتى تأتيه ﷺ النوبة فيقول: «أنا لها»[1] فما ذهب إلى نبي بعد نبي إلا من لم يبلغه الخبر أو نسي.

وأخذ من الحديث أنه لابأس بقول الشيخ للتلميذ: خذ مني هذا الكلام المحقق الذي لا تجده عند غيري. أو نحو ذلك لقصد اعتنائه وعدم تهاونه به.

قال في «الخصائص»: خص نبينا ﷺ بالشفاعة العظمى في فصل القضاء، وبالشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وبالشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وبالشفاعة في رفع درجات ناس في الجنة.

وجوز النووي اختصاص هذه والتي قبلها به ﷺ. ووردت به الأخبار في التي قبل. وصرح به عياض وغيره بالشفاعة في إخراج عموم أمته من النار حتى لا يبقى منهم أحد. ذكره

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٤١). وأبو داود في السنن (٤٦٧٢). وأحمد في المسند (٣: ١٧٨). وابن أبي شيبة في المصنف (١١: ٥١٨). والبيهقي في دلائل النبوة (٥: ٤٩٧). وابن حجر في فتح الباري (٨: ٥٣٣). والسيوطي في الدر المنثور (١: ١١٦). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٢٦٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٥٧٢). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٨٩٦).

السبكي، وبالشفاعة لجمع من صلحاء المؤمنين ليتجاوز عنهم في تقصيرهم في الطاعات، وبالشفاعة في الموقف تخفيفاً، وبالشفاعة فيمن دخل النار من الكفار أن يخفف عنه العذاب، وبالشفاعة في أطفال المشركين أن لا يعذبوا، وبالشفاعة في أهل بيته ﷺ أن لا يدخل أحد منهم النار.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا قائد المرسلين]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر»[1]. رواه الدارمي عن جابر رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: وجه اختصاصه ﷺ بالأولية إنه تحمل من مرضاة ربه ما لا يتحمله بشر سواه.

وقام لله سبحانه وتعالى بالصبر والشكر حق القيام، فثبت في مقام الصبر حتى لم يلحقه من الصابرين أحد. وترقى في درجات الشكر حتى علا فوق الشاكرين فمن ثَمَّ خص بذلك.

قال العارف ابن عربي: كما صحت له ﷺ السيادة في الدنيا بكل وجه، ومعنى ثبتت له السيادة على جميع الناس يوم القيامة بفتحه باب الشفاعة، ولا يكون ذلك لنبي إلا له ﷺ، فقد شفع في الرسل، والأنبياء، والملائكة فأذن الله تعالى عند شفاعته له في ذلك للجميع ممن له شفاعة، من ملك، ورسول، ونبي، ومؤمن أن يشفع فهو ﷺ أول شافع بإذن الله تعالى، وآخر شافع، أرحم الراحمين، وآخر الدائرة متصل بأولها، وأي شرف أعظم من شرف محمد ﷺ حيث كان ابتداء الدائرة حيث تصل بها آخرها بكماله، فبه سبحانه وتعالى ابتدأت الأشياء وبه كملت.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا أعربكم]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا أعربكم، أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر»[2]. رواه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلاً.

---

(١) رواه ابن كثير في التفسير (٨: ٤٢١). وفي البداية والنهاية (١: ١٧١).

(٢) رواه الدارمي في السنن (١: ٢٧). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٦٤). والبخاري في التاريخ الكبير (٤: ٢٨٦). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٥٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٨٣). =

قال رحمه الله تعالى: «أنا أعربكم»، أي أدخلكم في العرب، يعني أوسطكم فيهم نسباً، وأنسبكم فيهم فخذاً، لأن عدنان ذروة ولد إسماعيل، ومضر ذروة نزار بن معد بن عدنان، وخندف ذروة مضر، ومدركة ذروة خندف، وقريش ذروة مدركة، ومحمد ﷺ ذروة قريش.

وقوله ﷺ: و«لساني لسان بني سعد بن بكر»، لكونه استرضع فيهم، وكانت العرب تعتني باسترضاع أولادها عند نساء البوادي.

قال الزمخشري: هذا اللسان العربي كان الله عزت قدرته محضه وألقى زبدته على لسان النبي ﷺ، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرجل، وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل.

وقال الحرالي: من استجلى أحواله ﷺ علم اطلاعه على لغات العرب وإحاطته بجميعها. يؤثر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: كان النبي ﷺ يكلم أبا بكر بلسان كأنه أعجم لا أفهم مما يقولان شيئاً.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا فرطكم على الحوض]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض»[1]. رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن جندب رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: «أنا فرطكم»، بالتحريك أي سابقكم على الحوض لأصلحه لكم واهيئ لكم ما يليق بالوارد، وأحوطكم، وآخذ لكم طريق النجاة، من قولهم: فرس فرط، متقدم على الخيل، ذكره الزمخشري.

وهذا تحريض على العمل الصالح المقرب صاحبه للنبي ﷺ في الدارين، وإشارة إلى قرب وفاته ﷺ وتقدمها على وفاة صحبه. وسببه كما في مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن المصطفى ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددنا أنا قد رأينا إخواننا» قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «أنتم أصحابي وإخوان الذين لم يأتوا بعد». قالوا: كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك؟ قال: «أرأيت لو أن رجلاً له

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٢٣٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٨٤). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ٧١). وابن كثير في البداية والنهاية (٢: ٢٧٧).

خيل محجلة بين ظهراني خيل دهم بهم، ألا يعرف خيله؟» قالوا: بلى قال: «فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء، وأنا فرطكم على الحوض ألا ليذادنّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال. أناديهم ألا هلم، فيقال: إنهم بدلوا بعدك فأقول سحقاً سحقاً»[١].

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا محمد وأحمد. . . ونبي التوبة والرحمة]

ما ذكره قوله ﷺ: «أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة»[٢]. رواه الإمام أحمد ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه زاد الطبراني «ونبي الملحمة»[٣].

قال رحمه الله تعالى: أنا محمد وأحمد»، أي أعظم حمداً من غيري، لأنه ﷺ حمد الله تعالى بمحامد لم يحمده بها غيره فهو أحق بهذين الاسمين من غيره. و«المقفي»، بشدة الفاء وكسرها، لأنه ﷺ جاء عقب الأنبياء وفي قفاهم، أو المتبع آثار من سبقه من الرسل. و«الحاشر» أي أحشر أول الناس. و«نبي التوبة» أي الذي بعث بقبول التوبة بالنية والقول، وكانت توبة من قبله بقتلهم أنفسهم، أو الذي تكثر التوبة في أمته وتعم، أو أن أمته ﷺ لما كانت أكثر الأمم كانت توبتهم أكثر من توبة غيرهم، أو المراد أن توبة أمته أبلغ حتى يكون التائب منهم كمن لا ذنب له، ولا يؤاخذ في الدنيا ولا في الآخرة، وغيره يؤاخذ في الدنيا.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٨: ١٤٨). ومسلم في الصحيح (الفضائل: ٢٥). وابن ماجه في السنن (٤٣٠٦). وأحمد في المسند (١: ٢٥٧). والبيهقي في السنن الكبرى (٤: ٧٨). والقرطبي في التفسير (٦: ٤١٣). والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٣٦٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢: ٣٩). والساعاتي في منحة المعبود (٢٨١٤). وابن حجر في كنز العمال (٣١٠٩٧). والطبراني في المعجم الكبير (٢: ١٨١). والسيوطي في دلائل النبوة (٦: ٣٦١).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (طهارة: ٣٩). وأبو داود في السنن (٢٣٣٧). والنسائي في السنن (١: ٩٤). وابن ماجه في السنن (١٥٤٦). ومسلم في الصحيح (٢: ٣٧٥). والبيهقي في السنن الكبرى (٤: ٧٨). ومالك في الموطأ (٢٨). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٣٦٤). والبغوي في شرح السنة (٥: ٤٧١). وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢٩٨٥:). والسيوطي في دلائل النبوة (٦: ٥٣٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٢٥٦٠). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١٠: ١٦٥). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١: ١٢١).

(٣) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٢٦). وأحمد في المسند (٤: ٣٩٥). والحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٤). والدولابي في الكنى والأسماء ١ ٢ والبخاري في التاريخ الصغير (١: ١٠). والطبراني في المعجم الكبير (١: ٨٠). وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥: ١٠٠). والساعاتي في منحة المعبود (٢٣١٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢١٦٦). وابن أبي شيبة في المصنف (١١: ٤٥٨).

قال القرطبي والمحوج لهذه الأوجه إن كل نبي جاء بتوبة أمته فيصدق أنه نبي التوبة فلا بد من مزية لنبينا ﷺ. و«نبي الرحمة» أي الترفق والتحنن على المؤمنين والشفقة على عباد الله المسلمين، و«الرحمة» ومثلها المرحمة إفاضة النعم على المحتاجين، والشفقة عليهم واللطف.

وقد أعطي ﷺ هو وأمته منها ما لم يعطه أحد من العالمين، ويكفي ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، و«نبي الملحمة»، أي نبي الحرب تسمى به ﷺ لحرصه على الجهاد، ووجه كونه نبي الرحمة، ونبي الحرب، أن الله سبحانه وتعالى بعثه لهداية الخلق إلى الحق وأيده بالمعجزات فمن أبى عذب بالقتال والاستئصال، فهو ﷺ نبي الملحمة التي بسببها عمت الرحمة وثبتت المرحمة.

وأخرجه الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه بلفظ و«نبي الملاحم»[1] قال الزين العراقي وإسناده صحيح.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا دعوة إبراهيم]

ما ذكره عند قوله ﷺ: **«أنا دعوة إبراهيم وكان آخر من بشر بي عيسى بن مريم»**[2]. رواه ابن عساكر عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: وقد روى هذا الحديث الحارث بن أبي أسامة والطيالسي والديلمي بلفظ **«أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى ولما ولدت خرج من أمي نور أضاء ما بين المشرق والمغرب»**[3]. ومعنى **«دعوة إبراهيم»**، أي صاحب دعوته بقوله عليه السلام حين

(١) رواه أحمد في المسند (٤: ٣٩٥).

(٢) رواه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٣٩). والقرطبي في التفسير (٢: ١٣١). والألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤٥). والطبري في التفسير (١: ٤٣٥). والسيوطي في الدر المنثور (١: ١٣٩). والبغوي في شرح السنة (١: ١١١). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٣٣). والسيوطي في دلائل النبوة(١: ٦٩).

(٣) رواه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٣٩). والقرطبي في التفسير (٢: ١٣١). والألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤٥). والطبري في التفسير (١: ٤٣٥). والسيوطي في الدر المنثور (١: ١٣٩). والبغوي في شرح السنة (١: ١١١). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٣٣). والسيوطي في دلائل النبوة(١: ٦٩).

بني الكعبة: ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩]، وفائدته التنويه بشرفه ﷺ وكونه مطلوب الوجود قد جاء تالياً للكتاب، مطهراً للناس من الشرك، معروفاً عن الأنبياء المتقدمين.

«وكان آخر من بشر بي عيسى بن مريم» وإنما بشر به ليؤمنوا به ﷺ عند مجيئه، أو ليكون معجزة لعيسى عليه السلام عند ظهوره، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا أولى الناس بعيسى]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي والأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»[1] رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى قال: «في الدنيا والآخرة»، لأنه عليه السلام بشر بأنه ﷺ يأتي من بعده ومهد قواعد دينه، ودعا الخلق إلى تصديقه ليس بينه وبينه نبي، أي من أولي العزم، فلا يرد خالد بن سنان بفرض تسليم كونه بينهما، وإلا فقد قيل إن في سند حديثه مقالاً. وإنما دل بهذه الجملة الاستثنائية على الأولوية لأن عدم الفصل بين الشريعتين واتصال ما بين الدعوتين وتقارب ما بين الزمنين صيرهما كالنسب الذي هو أقرب الأسباب، والأنبياء أولاد عَلَّات بفتح المهملة أي الأخوة لأب وأولاد العلات أولاد الضرائر من رجل واحد والعلة الضرة.

أمهاتهم شتى، أي متفرقة ودينهم واحد، أي أصل دينهم واحد وهو التوحيد، وفروع شرائعهم مختلفة شبه المقصود من بعثة جميع الأنبياء وهو إرشاد الخلق للتوحيد بالأب وشبه شرائعهم المتفاوتة في الصورة وبالأمهات.

قال القاضي: والحاصل أن الغاية القصوى من البعثة التي بعثوا جميعاً لأجلها دعوى الخلق إلى معرفة الحق، وإرشادهم إلى ما به ينتظم معاشهم ويحسن معادهم، فهم متفقون في

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٤: ٢٠٣). ومسلم في الصحيح (الفضائل: ١٤٣). وأبو داود في السنن (٤٦٧٥). وأحمد في المسند (٢: ٣١٩). والحاكم في المستدرك (٢: ٥٩٢). والقرطبي في التفسير ١٦ ١٠٦ وابن كثير في التفسير (٢: ٤٠٨)، وفي البداية والنهاية (٢: ٩٨). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢١٤). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٠٠). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٣٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٣٤٦).

هذا الأصل وإن اختلفوا في تغاير الشرائع فعبر ﷺ عن الأصل المشترك بين الكل بالأب، ونسبهم إليه. وعبر عما يختلفون فيه من الأحكام والشرائع المتفاوتة في الصور المتقاربة في الغرض بالأمهات، وأنهم وإن تباينت أعصارهم وتباعدت أعوامهم فالأصل الذي هو السبب في إخراجهم وإبرازهم كلاً في عصره واحد وهو الدين الحق الذي فطر الناس عليه، مستعدين لقبوله، متمكنين من الوقوف عليه، والتمسك به، فعلى هذا يكون المراد بالأمهات الأزمنة التي اشتملت عليهم.

ويحتمل تقريره بوجه آخر، وهو أن أرواح الأنبياء بينها من التشابه والاتصال كالشيء الواحد المباين بالنوع لسائر الأرواح، فهم كأنهم متحدون بالنفس التي هي بمنزلة الصورة المشبهة بالأب، ومختلفون بالأبدان التي هي بمنزلة المرآة المشبهة بالأمهات. ا هـ.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[أنا أولى بالمؤمنين]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي من المؤمنين فترك ديناً فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته»[1]، رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: «أنا أولى بالمؤمنين» بنص رب العالمين قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

قال بعض الصوفية وإنما كان ﷺ أولى بهم من أنفسهم لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو ﷺ يدعوهم إلى النجاة، ويترتب على كونه أولى أنه يجب عليهم إيثار طاعته على شهوات نفوسهم، وإن شق عليهم، وأن يحبوه بأكثر من محبتهم لأنفسهم ويدخل فيه النساء.

وقوله ﷺ: «من أنفسهم» أي أنا أولى بهم من أنفسهم في كل شيء من أمر الدارين لأني

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٣: ١٢٨). ومسلم في الصحيح (الفرائض: ١٤). والنسائي في السنن (٤: ٦٦). وأبو داود في السنن (٢٤١٥). وأحمد في المسند (٢: ٢٩٠). والبيهقي في السنن الكبرى (٦: ٢٠١). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٠٤٠٨). والبغوي في شرح السنة (٨: ٢١٣). وابن حجر في تلخيص الحبير (٣: ٤٨). والمنذري في الترغيب والترهيب (٢: ٦٠٨). والقرطبي في التفسير (١٤: ١٢٢). والسيوطي في الدر المنثور (٥: ١٨٢). وابن حجر في فتح الباري (٤: ٤٤٧). وأبو نعيم في تاريخ أصفهان (٢: ١٣٢).

الخليفة الأكبر، الممد لكل موجود، فيجب عليهم أن أكون أحب إليهم من أنفسهم وحكمي أنفذ عليهم من حكمها، وهذا قاله ﷺ لما نزلت الآية.

ومن محاسن أخلاقه السنية ﷺ أنه لم يذكر ماله في ذلك من الحقوق، بل اقتصر على ما عليه حيث قال: «فمن توفي من المؤمنين» الخ...

قال النووي: وحاصل معنى الحديث أنا قائم بمصالحكم في حياة أحدكم أو موته، أنا وليه في الحالين، فإن كان عليه دين قضيته إن لم يخلف وفاء، وإن كان له مال فلورثته لا آخذ منه شيئاً، وإن خلف عيالاً محتاجين فعليّ مؤونتهم ﷺ، ما أرأفه وأشفقه على أمته.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[بعثت من خير قرون بني آدم]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»[1]. رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: معنى «بعثت من خير قرون بني آدم»، أي من خير طبقاتهم إذ القرن أحل كل زمان من الاقتران، لأنهم يقترنون في أعمالهم وأحوالهم في زمن واحد، وأراد ﷺ به تقلبه في الأصلاب أباً فأباً حتى ظهر في القرن الذي وجد فيه فالفاء للترتيب.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[بعثت بجوامع الكلم]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي»[2].

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٤: ٢٩٩). وأحمد في المسند (٢: ٣٧٣). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٣٩). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ٣٦٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٠٠٥). والألباني في السلسلة الصحيحة (٧٠٩). وابن كثير في التفسير (٣: ٣٢٥).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٤: ٦٥). ومسلم في الصحيح (المساجد: ٦). والنسائي في السنن (٦: ٣). ومسلم في الصحيح (٢: ٢٦٤). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ٤٥٦). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٤: ٤٥٦). وابن كثير في البداية والنهاية (٤: ١٠٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١١٣). وابن حجر في فتح الباري (١٢: ٣٩١). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٦٥). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٤٩). والمتقي الهندي في كنز العمال =

رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رحمه الله تعالى: «**بعثت بجوامع الكلم**»، أي القرآن سمي به لإيجازه واحتواء لفظه اليسير على المعنى الغزير، واشتماله على ما في الكتب السماوية وجمعه لما فيها من العلوم السنية.

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

و«**نصرت بالرعب**»، أي الفزع يلقي في قلوب الأعداء، قال ابن حجر: ليس المراد بالخصوصية مجرد حصول الرعب، بل هو ما ينشأ عنه من الظفر بالعدو.

وقال الزمخشري وغيره: أراد ﷺ «**بمفاتيح خزائن الأرض**» ما فتح على أمته من خزائن كسرى وقيصر.

قال المناوي وهذا يعني قوله ﷺ: «**بينا أنا نائم**» مرجح لحديث أُتيت بمقاليد الدنيا الخ. . . إنه كان مناماً.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[خِيار ولد آدم خمسة]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**خِيار ولد آدم خمسة، نوح، إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد وخيرهم محمد**»[1]. رواه ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه ورواه البزار أيضاً.

قال رحمه الله تعالى: هم أولو العزم وأفضلهم بعد محمد ﷺ إبراهيم عليه السلام. ونقل بعضهم الإجماع عليه. وفي الصحيح: «**خير البرية إبراهيم**».

وحكى الفخر الرازي: الإجماع على تقديم موسى وعيسى على نوح عليهم السلام فإنه قال في «أسرار التنزيل»: لا نزاع في أن أفضل الأنبياء والرسل هؤلاء الأربعة: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[خير الناس قرني]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء

= (٣١٨٩٩). والقرطبي في التفسير (١٠: ٤٩).

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٥٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٠٥).

أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»[١]. رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها: «خير الناس القرن الذي أنا فيه ثم الثاني ثم الثالث»[٢].

وروى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه «خير الناس قرني، ثم الثاني ثم الثالث ثم يجيء قوم لا خير فيهم»[٣].

وروى الطبراني والحاكم عن جعدة بن هبيرة رضي الله عنه: «خير الناس قرني الذين أنا فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم والآخرون أرذال»[٤].

وروى الترمذي والحاكم عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمنون ويحبون السمن يعطون الشهادة قبل أن يسألوها»[٥].

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «خير أمتي القرن الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يخلف قوم يحبون السمانة يشهدون قبل أن يستشهدوا»[٦].

وروى الشيخان والترمذي والنسائي وأبو داود عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يكون بعدهم قوم يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»[٧].

قال رحمه الله تعالى: «قرني»، أي أهل عصري، يعني أي أصحابي، أو من رآني، أو من كان حياً في عهدي، ومدتهم من البعثة نحو مائة وعشرين سنة. «ثم الذين يلونهم»، أي يقربون منهم وهم التابعون، وهم من مائة إلى نحو تسعين، «ثم الذين يلونهم» أتباع التابعين،

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٤٥٠). وفيه: «القرن الذي أنا فيه».
(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٤٥٠).
(٣) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٤٥٠). وفيه: «القرن الذي أنا فيه».
(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤: ١٧٢).
(٥) رواه الترمذي في السنن (٢٣٠٢). وابن حجر في فتح الباري (٧: ٦). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢: ٢٢٣). «بمعناه».
(٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٢٠).
(٧) رواه الترمذي في السنن (٢٣٠٢). وابن حجر في فتح الباري (٧: ٦). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢: ٢٢٣). «بمعناه».

وهم إلى حدود العشرين ومائتين، ثم ظهرت البدع، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتحن أهل العلم بالقول بخلق القرآن، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن.

وإنما كان قرنه ﷺ خير الناس لأنهم آمنوا به حين كفر الناس وصدقوه حين كذبه الناس، ونصروه حين خذله الناس، وجاهدوا معه وآووا ونصروا.

قال بعض الشراح: وقضيته، أن الصحابة رضي الله عنهم أفضل من التابعين، وأن التابعين أفضل من أتباعهم وهكذا. وهل الأفضلية بالنسبة إلى المجموع، أو الأفراد قولان: ذهب ابن عبد البر إلى الأول والجمهور إلى الثاني.

قال ابن حجر: والذي يظهر أن من قاتل مع النبي ﷺ أو في زمنه، أو بأمره، أو أنفق شيئاً من ماله بسببه، لا يعدله في الفضل أحد بعده كائناً من كان.

وأما من لم يقع له ذلك، فهو محل بحث، ومن وقف على سير أهل القرن الأول علم أن شأوهم لا يلحق.

قال الحسن البصري التابعي الكبير المجمع على جلالته وأمانته: لقد أدركنا أقواماً، أي وهم الصحابة أهل القرن الأول كنا في جنبهم لصوصاً.

وقال: أدركنا الناس ينامون مع نسائهم على وسادة واحدة عشرين سنة يبكون حتى تبتل الوسادة من دموعهم لا يشعر بذلك نساؤهم وقال ذهبت المعارف وبقيت المناكير وكان كثيراً ما ينشد:

ليس من مات فاستراح بميْت ... إنما الميْت ميِّت الأحياء

وقال الربيع بن خيثم لو رآنا أصحاب محمد ﷺ لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب. قال ابن حجر: واستدل بهذه الأحاديث على تعديل أهل القرون الثلاثة وإن تفاوتت منازلهم في الفضل، وهذا محمول على الغالب الأكثر فقد وجد بعد الصحابة من القرنين من وجدت فيه الصفات المذمومة، لكن بقلة بخلاف من بعد القرون الثلاثة فإنه كثير.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[نور أضاءت له قصور بصرى]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «رأت أمي حين وضعتني، سطع منها نور أضاءت له قصور بصرى»(١). رواه ابن سعد عن أبي العجفاء التابعي.

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١ : ٩٦).

وروى ابن سعد أيضاً عن أبي أمامة رضي الله عنه وصححه الحاكم وابن حبان أنه ﷺ قال: «رأت أمي كأنه خارج منها نور أضاءت منه قصور الشام»[١].

قال رحمه الله تعالى: «رأت أمي حين وضعتني» هذه رؤيا عين، والرؤيا في الحديث الذي عقبه رؤيا نوم، نبه عليه المصنف، يعني الحافظ السيوطي.

وبُصَرى بموحدة مضمومة بلد من أعمال دمشق، وخصت بذلك النور، إشارة إلى أنها أول ما يفتح من بلاد الشام وقد وقع.

وفي «الروض الأنف» أن خالد بن سعيد بن العاص رأى قبيل المبعث نوراً أخرج من زمزم حتى ظهرت له نخيل يثرب، فقصها على أخيه فقال: إنها حفيرة عبد المطلب وهذا النور منهم. ولم يلد أبواه غيره ﷺ.

تنبيه: الأصح أنه ﷺ ولد بمكة بالشعب بُعيد الفجر الإثنين ثاني عشر ربيع الأول عام الفيل، ولم يكن يوم جمعة، ولا شهر حرام دفعاً لتوهم أنه شرف بذلك الزمن الفاضل فجعل في المفضول لتظهر به رتبته على الفاضل، ونظيره دفنه ﷺ بالمدينة دون مكة، إذ لو دفن لقصد تبعاً.

وقال عند قوله ﷺ في الحديث الثاني: «أضاءت منه قصور الشام»، أوَّلَ بولد يخرج منها يكون كذلك، وذلك النور إشارة لظهور نبوته ﷺ ما بين المشرق والمغرب، واضمحلال ظلمة الكفر والضلال.

قال في اللطائف: هذا النور إشارة إلى ما جاء به ﷺ من النور الذي اهتدى به أهل الأرض وزال به ظلمة الشك، وخصت به الشام، لأنها دار ملكه ومحل سلطانه، ومن وصفه ﷺ في الكتب السابقة محمد رسول الله ﷺ مولده بمكة، ومهاجره بيثرب، وملكه بالشام ﷺ.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[عرج بي حتى ظهرت بمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «عرج بي حتى ظهرت بمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام»[٢].

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١ : ٩٦).
(٢) رواه أبو عزانة (١ : ١٣٤). وابن حجر في فتح الباري (١ : ٤٥٩).

رواه البخاري والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما وأبي حبة البدري رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: «**عرج بي**» أي رفعني جبريل إلى فوق السماء السابعة، ومعنى «**صريف الأقلام**» تصويت أقلام الملائكة بما يكتبونه من أمر أقضية الله تعالى.

قال القاضي عياض: «**المستوى**» على صيغة المفعول اسم مكان من الاستواء، والمعنى بلغت في الارتقاء إلى رتبة علياء حتى اتصلت بمبادي الكائنات، واطلعت على تصاريف الأحوال، وجري المقادير، ولذلك أخبر ﷺ عن حوادث مستقبلة وأشياء مغيبة فظهرت كما قال.

ومن جواهر المناوي أيضاً

[عرض علي ربي بطحاء مكة ذهباً]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب ولكني أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك**»[1]. رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى: جمع بين الصبر والشكر، وهما صفتا المؤمن الكامل المخلص ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥]، ثم حكمة هذا التفصيل الاستلذاذ بالخطاب، وإلا فالله تعالى عالم بالأشياء جملة وتفصيلاً، وهذا يعرفك بأن ما كان عليه ﷺ من التقلل من الدنيا لم يكن اضطراراً، بل اختياراً مع إمكان التوسع والتبسط له ﷺ.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[عرضت علي الجنة والنار]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «**عرضت علي الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط، فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**». رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه زاد في رواية: «**وأنا أصلي**».

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٢٣٤٧). وأحمد في المسند (٥: ٢٥٤). والطبراني في المعجم الكبير (٨: ٢٤٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤: ٢٦١). والبغوي في شرح السنة (١٤: ٢٤٦). وابن المبارك في الزهد (٢: ٥٤). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ١٥٣). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥١٩٠).

قال رحمه الله تعالى: «عرضت علي الجنة والنار»، أي مثلتا لي كما تنطبع الصور في المرآة، ومعنى آنفاً قريباً من وقتنا.

وقد تجلى له ﷺ الكون كله وزويت له الأرض بأسرها، فأري مشارقها ومغاربها، ثم قال وفيه: إن الجنة والنار مخلوقتان الآن، ونصح المصطفى ﷺ لأمته وتعليمهم ما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم، وتعذيب أهل الوعيد على المعاصي.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[فضلت على الأنبياء بست]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»[1]. رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وروى الطبراني عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قوله ﷺ: «فضلت على الأنبياء بخمس، بعثت إلى الناس كافة، وذخرت شفاعتي لأمتي، ونصرت بالرعب شهراً أمامي، وشهراً خلفي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»[2].

وروى البيهقي عن أبي أمامة رضي الله عنه قوله ﷺ: «فضلت بأربع: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أتى الصلاة فلم يجد ما يصلي عليه وجد الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الناس كافة، ونصرت بالرعب من مسيرة شهرين يسير بين يدي، وأحلت لي الغنائم»[3].

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٤٣). وأحمد في المسند (٣: ١٦٢). وابن حجر في فتح الباري (٢: ٢١). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٠).

(٢) رواه الترمذي في السنن (١٥٥٣). ومسلم في الصحيح (المساجد: ٥). وأحمد في المسند (٢: ٤١٢). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٤٣٢). والطحاوي في مشكل الآثار (١: ٤٥١). والسيوطي في دلائل النبوة (٥: ٤٧٢). والبغوي في شرح السنة (١: ٢٦٦). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٤٨). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٦٩). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٣٢). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٢٠٤). وابن حجر في فتح الباري (١: ٤٣٦). والألباني في إرواء الغليل (١: ٣١٥). وابن كثير في التفسير (٦: ٤٢٤).

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٥٩). والطبراني في المعجم الكبير (٧: ١٨٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٣٣).

وروى الطبراني عن أبي الدراء رضي الله عنه: «**فضلت بأربع: جعلت أنا وأمتي في الصلاة كما تصف الملائكة، وجعل الصعيد لي وضوءاً، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم**»[١].

وروى أحمد ومسلم والنسائي عن حذيفة رضي الله عنه قوله ﷺ: «**فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً، إذا لم نجد الماء، وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي**»[٢].

قال رحمه الله تعالى: قال التوربشتي: وليس هذا الاختلاف باختلاف تضاد، بل اختلاف زمان وقع فيه حديث القليل متقدماً فحدث به، ثم زيد فأخبر به ﷺ.

وقال القرطبي: لا منافاة بين قوله ﷺ: ست، وخمس، وأربع، لأن ذكر الأعداد لا يدل على الحصر، وقد يكون أعلم في وقت بأربع ثم بأكثر.

قال الزين العراقي ومحصول ما في مجموع الأخبار إحدى عشرة، وهي: إعطاؤه ﷺ جوامع الكلم، ونصرته بالرعب، وإحلال الغنائم، وجعل الأرض طهوراً ومسجداً، وإرساله إلى الخلق كافة، وختم الأنبياء به، وجعل صفوف أمته كصفوف الملائكة، وإعطاؤه الشفاعة، وتسميته أحمد، وجعل أمته خير الأمم، وإيثاره بخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش. اهـ. وجوامع الكلم هي التي تجمع المعاني الكثيرة في ألفاظ يسيرة، وقوله ﷺ: «**أرسلت إلى الخلق كافة**»، أي أرسلت رسالة عامة لهم محيطة بهم، لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم، ولا يعارضه أن نوحاً عليه الصلاة والسلام بعد خروجه من السفينة كان مبعوثاً للكل، لأن ذلك إنما كان بانحصار الخلق فيمن كان معه حينئذٍ، والمصطفى ﷺ عموم رسالته في أصل البعثة، و«**ختم بي النبيون**»، أي أغلق باب الوحي، وقطع طريق الرسالة، وسد لاستغناء الناس عن الرسل، وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وتكميل الدين.

وأما باب الإلهام فلا ينسد وهو مدد يعين النفوس الكاملة، فلا ينقطع لدوام الضرورة وحاجة الشريعة إلى تأكيد وتجديد وتذكير. وكما أن الناس استغنوا عن الرسالة والدعوة

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢: ٤٣٣). وأحمد في المسند (٥: ٢٦٥). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٥٩). والسيوطي في الدر المنثور (١: ٢١٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٣٤).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢: ٤٣٣). وأحمد في المسند (٥: ٢٦٥). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٥٩). والسيوطي في الدر المنثور (١: ٢١٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٣٤). وفيه «لي ولأمتي».

احتاجوا إلى التنبيه والتذكير لاستغراقهم في الوساوس وانهماكهم في الشهوات فالله سبحانه وتعالى أغلق باب الوحي بحكمته وفتح باب الإلهام برحمته لطفاً منه بعباده. فعلم أن ليس بعده ﷺ نبي، وعيسى إنما ينزل بتقرير شرعه، قال الزين العراقي وكذا الخضر وإلياس بناء على نبوتهما وبقائهما إلى الآن فكل منهما تابع لأحكام هذه الأمة.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[ليس في مشارق الأرض ومغاربها أفضل منه ﷺ]

ما ذكره عند قوله ﷺ: **«قال لي جبريل قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد، وقلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم»**[١].

رواه الحاكم في الكنى وابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها. قال رحمه الله تعالى: قال الحافظ ابن حجر في أماليه: لوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن.

وقال الحكيم الترمذي: إنما طاف الأرض ليطلب النفوس الطاهرة المتزكية بمحاسن الأخلاق، ولم ينظر للأعمال لأنهم كانوا أهل جاهلية، إنما نظر إلى أخلاقهم، فوجد الخير في هؤلاء، وجواهر النفوس متفاوتة بعيدة التفاوت.

تنبيه: قال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي من خصائص المصطفى ﷺ أنه بعث بين قوم لا همّ لهم إلا قرى الضيف، ونحر الجزر، والحروب الدائمة، وسفك الدماء، وبهذا يفخرون، وبهذا يمدحون، ولا خفاء عن كل أحد بفضل العرب على العجم بالكرم والسماحة والوفاء، وإن كان في العجم كرماء وشجعان لكن في آحاد، كما أن في العرب جبناء وبخلاء، لكن في آحاد وإنما الكلام في الغالب وهذا لا ينكره أحد.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[كل نسب وصهر ينقطع إلا نسبه ﷺ]

ما ذكره عند قوله ﷺ: **«كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري»**[٢]. رواه ابن عساكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

---

(١) رواه السيوطي في الحاوي للفتاوي (٢: ٣٧٠٠)، وفي دلائل النبوة (١: ١٧٦). وابن أبي عاصم في السنة (٢: ٦٣٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٣). وابن كثير في التفسير (٣: ٣٢٥).

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور (٥: ١٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٥). وابن كثير في التفسير (٥: ٤٩).

قال المناوي رحمه الله تعالى: طلب عمر من علي رضي الله عنهما أن يزوجه ابنته أم كلثوم، فقال عمر: والله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحبتها ما أرصد، ففعل، فجاء عمر إلى مجلس المهاجرين فقال زفوني ثم ذكر الحديث.

قال المصنف يعني الحافظ السيوطي: معناه إن أمته ﷺ ينسبون إليه، وأمم سائر الأنبياء لا ينسبون إليهم.

وقيل: ينتفع يومئذٍ بالنسبة إليه ﷺ ولا ينتفع بسائر الأنساب ورجح بما ذكر في سبب الحديث.

قال الطيبي والنسب ما رجع إلى ولادة قريبة من جهة الآباء، والصهر ما كان من خلطة نسبة قرابة يحدثها التزوج، وعلم بهذا الحديث ونحوه عظيم نفع الانتساب إليه ﷺ، ولا يعارضه ما في أخبار أخر من حثه لأهل بيته على خشية الله واتقائه وطاعته، وإنه لا يغني عنهم من الله شيئاً، لأنه لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً، لكن الله تعالى يملكه نفع أقاربه، فقوله ﷺ: «لا أغني عنكم [من الله][1]شيئاً»[2] أي بمجرد نفسي من غير ما يكرمني الله به من نحو شفاعة ومغفرة، فخاطبهم بذلك رعاية لمقام التخويف.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[كنت أول الناس]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «كنت أول الناس في الخلق، وآخرهم في البعث»[3]. رواه ابن سعد عن قتادة مرسلاً، وروى أبو نعيم في الحلية عن ميسرة الفجر، وابن سعد عن ابن أبي الجدعاء، وابن حبان عن ابن عباس رضي الله عنهم قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»[4]، وهو حديث صحيح.

---

(١) هذه الزيادة ساقطة في الأصل، أثبتناها لأن الأحاديث التي وردت في هذا الخصوص كلها تتضمنها.

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٤ : ٨). ومسلم في الصحيح (الإيمان: ٨٩). وابن حجر في فتح الباري (٥ : ٣٨٢).

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١ : ٩٦). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٦). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٣: ٩١٩).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٩). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٢٩٢). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١ : ٩٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٧:). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١ : ٤٥٣). والسيوطي في الحاوي للفتاوي (٢: ٢٦٠). والبخاري في الصحيح (٧: ٣٧٤).=

قال المناوي رحمه الله تعالى: قد جعل الله حقيقته ﷺ تقصر عقولنا عن معرفتها، وأفاض عليها وصف النبوة من ذلك الوقت، ثم لما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقه إلى وجود جسمه، وارتباط الروح به ﷺ، انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر، فظهر بكليته جسماً وروحاً.

وأما قول الحجة المراد بالخلق التقدير، لا الإيجاد، فإنه قبل ولادته لم يكن موجوداً فتعقبه السبكي بأنه لو كان كذلك لم يختص به ﷺ.

وقال رحمه الله تعالى في قوله ﷺ: «كنت نبياً» لم يقل كنت إنساناً، ولا كنت موجوداً، إشارة إلى أن نبوته ﷺ كانت موجودة في أول خلق الزمان في عالم الغيب دون عالم الشهادة، فلما انتهى الزمان بالاسم الباطن إلى وجود جسمه وارتباط الروح به ﷺ انتقل حكم الزمان في جريانه إلى الاسم الظاهر فظهر بذاته جسماً وروحاً، فكان الحكم له باطناً أولاً في كل ما ظهر من الشرائع على أيدي الأنبياء والرسل، ثم صار الحكم له ظاهراً فنسخ كل شرع أبرزه الاسم الباطن بحكم الاسم الظاهر لبيان اختلاف حكم الاسمين وكان المشرع واحداً.

وقوله ﷺ: «وآدم بين الروح والجسد» يعني أنه تعالى أخبره بمرتبته وهو روح قبل إيجاد الأجسام الإنسانية، كما أخذ الميثاق على بني آدم قبل إيجاد أجسامهم.

ذكره الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي، ومنه أخذ بعضهم قوله: «لما أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم» كان محمد أول من قال: «بلى»[1]، ولهذا صار متقدماً على الأنبياء وهو آخر من يبعث.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضا

[شمائله الشريفة ﷺ]

ما ذكره في أحاديث شمائله ﷺ من الفوائد الجمة المهمة وها أنا انتخب منها ما يأتي:

= والفتني في تذكرة الموضوعات (٨٦). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٧٢). وابن الجوزي في زاد المسير (٦: ٣٥٥).

(١) رواه مسلم في الصحيح (١٤١٢). والألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٣). والبخاري في الصحيح (٤: ٢٢٦). والطبراني في المعجم الكبير (٦: ١٠٩). والهيثمي في مجمع الزوائد (٣: ٣١٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٧٩٠٥:). والهيثمي في مجمع الزوائد (٢: ١٧٩). وابن حجر في فتح الباري (٧: ٨). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ٢٠).

كان رسول الله ﷺ أبيض مليحاً، مُقَصَّداً. رواه مسلم والترمذي في الشمائل عن أبي الطفيل رضي الله عنه. قوله: مقصداً يعني ليس بجسيم، ولا نحيف، ولا طويل، ولا قصير.

وكان ﷺ أبيض كأنما صيغ من فضة رجل الشعر. رواه الترمذي في الشمائل عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقد نعته أبو طالب بقوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وفي رواية لأحمد: **فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة**. وفي أخرى للبزار بإسناد قوي عن سعيد بن المسيب أنه سمع أبا هريرة يصفه ﷺ، فقال: **كان شديد البياض**.

وفي رواية لأبي الطفيل عند الطبراني: ما أنسى شدة بياض وجهه مع شدة سواد شعره. ومعنى رجل الشعر بكسر الجيم، ومنهم من سكنها، أي مسرح الشعر، كذا في الفتح، وفسر بما فيه تثن قليل. وما في المواهب: **أنه روي أنه شعر بين شعرين لا رجل ولا سبط**، فالمراد المبالغة في قلة التثني.

وكان ﷺ أبيض مشرباً بياضه بحمرة، وكان أسود الحدقة، أهدب الأشفار. رواه البيهقي في الدلائل عن علي رضي الله عنه.

قال البيهقي: إن المشرب منه حمرة إلى السمرة ما ظهر منه للشمس والريح، وأما تحت الثياب فهو الأبيض الأزهر، وروى مشرّباً بالتشديد: وحدقة العين: سوادها. والأهدب: طويل الأهداب. والأشفار: حروف الأجفان التي ينبت عليها شعر الأهداب.

وكان ﷺ أبيض مشرباً بحمرة، ضخم الهامة، أغر، أبلج، أهدب الأشفار. رواه البيهقي عن علي رضي الله عنه، الهامة الرأس، وعظمه ممدوح محبوب، لأنه أعون على الإدراكات ونيل الكمالات، والأغر الصبيح، والأبلج المشرق المضيء، وقيل: الأبلج من نفي ما بين حاجبيه من الشعر فلم يقترنا. والعرب تحب البلج وتكره القرن.

وكان ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خَلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير. رواه البخاري ومسلم عن البراء. قوله: خلقاً قال القرطبي الرواية بفتح الخاء أراد حسن الجسم، بدليل قوله بعده ليس بالطويل البائن، أي الظاهر طوله، أو المفرط طولاً الذي بعد عن حد الاعتدال، بل كان إلى الطول أقرب ﷺ.

وكان ﷺ أحسن الناس قدماً. رواه ابن سعد عن عبد الله ابن بريدة مرسلاً. وروى ابن صاعد عن سراقة رضي الله عنه قال: **دنوت من المصطفى ﷺ وهو على ناقته فرأيت ساقه في غرزة كأنها جُمَّارة أبي في شدة البياض**.

وكان ﷺ أحسن الناس خُلقاً. رواه مسلم وأبو داود عن أنس رضي الله عنه لحيازته ﷺ جميع المحاسن والمكارم وتكاملها فيه.

ولما اجتمع فيه من كمال الخصال وصفات الجلال والجمال ما لا يحصره عد، ولا يحيط به حد، أثنى الله عليه به في كتابه بقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فوصفه بالعظم، وزاده في المدحة بذكر على المشعرة باستعلائه على محاسن الأخلاق، واستيلائه عليها فلم يصل إليها مخلوق.

وكمال الخلق إنما ينشأ عن كمال الفضل، لأنه الذي تقتبس به الفضائل وتتجنب الرذائل، وتمام الحديث عند مسلم فربما تحضر الصلاة وهو ﷺ في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته، فيكنس ثم ينضح، ثم يؤُم رسول الله ﷺ ونقوم خلفه، فيصلي بنا وكان بساطهم من جريد النخل، كذا في صحيح مسلم.

وتمام هذا الحديث في بعض الروايات قال أنس: وكان لي أخ يقال له أبو عمير أحسبه كان فطيماً، فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه قال: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟»[(١)] والنغير اسم طائر كان يلعب به. هكذا هو عند مسلم، وفيه أيضاً عن أنس كان ﷺ من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة فقلت: والله لا أذهب، فخرجت حتى أمر على صبيان يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قبض بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك فقال: «أنيس ذهبت حيث أمرتك». قلت: نعم أنا أذهب وكان أنس رضي الله عنه وقتئذٍ صبياً.

وكان ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس. رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه: كان ﷺ أحسن الناس صورة وسيرة، وأجود الناس بكل ما ينفع مما لا يحصى كثرة، لأن من كان أكملهم شرفاً، وأيقظهم قلباً، وألطفهم طبعاً، وأعدلهم مزاجاً، لا بد أن يكون أسمحهم نفساً وأنداهم يداً، ولأنه مستغن عن الفانيات بالباقيات الصالحات، ولأنه تخلق بصفات الله تعالى التي منها الجود.

وأشجع الناس أي أقواهم قلباً وأجرأهم في حال البأس، فكان الشجاع منهم الذي يلوذ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٨: ٣٧). وأبو داود في السنن (الأدب: ٧٦). والترمذي في السنن (١٩٨٩). وابن ماجه في السنن (٢٧٣). وأحمد في المسند (٣: ١١٥). والبيهقي في السنن الكبرى (٥: ٢٠٣). وابن أبي شيبة (١: ٤٠٠). والبغوي في شرح السنة (١: ٣٤٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٨٧٥٦). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٨٨٤). والسيوطي في دلائل النبوة(١: ٣١٣).

بجنابه الكريم عند التحام الحرب، وما ولى قط منهزماً، ولا تحدث أحد عنه بفرار، وقد ثبتت أشجعيته ﷺ بالتواتر النقلي، بل يؤخذ ذلك من النص القرآني كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ [التوبة: ٧٣]، فكلفه وهو فرد بجهاد الكل ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولا ضير في كون المراد هو ومن معه، إذ غايته أنه قوبل بالجمع، وذلك مفيد للمقصود.

وقد جمع ﷺ صفات القوى الثلاث: العقلية، والغضبية، والشهوية، فالحسن تابع لاعتدال المزاج المستتبع لعفاف النفس، الذي به جودة القريحة الدالة على العقل، واكتساب الفضائل وتجنب الرذائل.

والجود كمال القوة الشهوية، والشجاعة كمال القوة الغضبية، وهذه أمهات الأخلاق الفاضلة فلذلك اقتصر عليها. ولهذا الحديث بقية في البخاري وهي: ولقد فزع أهل المدينة، أي ليلاً، فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس استعاره من أبي طلحة، وقال: وجدناه بحراً هكذا ساقه في باب مدح الشجاعة في الحرب.

وفي مسلم في باب صفة النبي ﷺ عقب ما ذكر، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة، عري في عنقه السيف وهو يقول: «لن تراعوا»[1]. وقال وجدناه بحراً يعني الفرس، والبحر واسع الجري مع أنه كان قبل أن ركبه ﷺ بطيئاً.

وكان ﷺ أحسن الناس صفة وأجملها كان ربعة إلى الطول، ما هو بعيد ما بين المنكبين، أسيل الخدين، شديد سواد الشعر، أكحل العينين، أهدب الأشفار، إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، ليس له أخمص إذا وضع رداءه عن منكبيه، فكأنه سبيكة فضة، وإذا ضحك يتلألأ. رواه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي رواية الترمذي: **سهل الخدين**، أي ليس في خديه نتوء ولا ارتفاع، **وإذا ضحك يتلألأ**، أي يلمع ويضيء، ولا يخفى ما في تعداد هذه الصفات من الحسن.

واعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خلق جسده الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده مثله.

وفي الأثر أن خالد بن الوليد خرج في سرية فنزل بحي فقال صاحب الحي: صف لنا محمداً. فقال: أما أن أفصل فلا. فقال: الرسول على قدر المرسل. كذا في أسرار الأسرار لابن المنير.

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٤٨).

وكان ﷺ أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ إذا مشى تكفأ. رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه وروى معناه البخاري. قوله «أزهر اللون»، أي نيره، أو حسنه، وفي الصحاح كغيره الأزهر هو الأبيض المشرق، وفسره به، أو بالأبيض المنير، عامة المحدثين حملاً على الأكمل، ولعل من فسره بالأبيض الممزوج بحمرة نظر إلى أنه المراد بقرينة الواقع.

والأظهر في لونه ﷺ أن البياض غالب عليه سيما فيما تحت الثياب، لكن لم يكن كالجص، بل كان نيراً ممزوجاً بحمرة.

وقوله «كأن عرقه اللؤلؤ» في الصفاء والبياض، وفي خبر البيهقي عن عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ يخصف نعله، وكنت أغزل فنظرت إليه، فجعل جبينه يعرق، وجعل عرقه يتولد نوراً، وقوله «إذا مشى تكفأ»، أي تمايل يميناً وشمالاً.

وكان ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها. رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي سعيد رضي الله عنه «في خدرها»، أي سترها الذي يجعل بجانب البيت، فالعذراء في الخلوة يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجة، ومحل حيائه ﷺ في غير الحدود، ولهذا قال للذي اعترف بالزنا: «أنكحتها لا تكن»[1]. كما بُيّن في الصحيح.

وكان ﷺ أصبر الناس على أقذار الناس. رواه ابن سعد عن إسماعيل بن عياش مرسلاً. أقذار الناس» أي ما يكون من قبيح فعلهم، وسيئ قولهم، لأنه ﷺ لانشراح صدره يتسع لما تضيق عنه صدور العامة، فكانت مساوي أخلاقهم وأفعالهم وسوء سيرتهم وقبيح سريرتهم في جنب سعة صدره الشريف، كقطرة في بحر.

وكان ﷺ أفلج الثنيتين، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه. رواه الترمذي والطبراني والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما. أفلج الثنيتين. أي بعيد ما بين الثنايا، وانفلج فرجة بين الثنيتين قيل: أكثر الفلج في العليا، وهي صفة جميلة لكن مع القلة، لأنه أتم في الفصاحة والثنايا هي الأسنان الأربع التي في مقدم الفم ثنتان من فوق، وثنتان من تحت.

تنبيه: كانت ذاته الشريفة ﷺ كلها نوراً ظاهراً وباطناً، حتى إنه كان يمنح النور من استحق من أصحابه سأله الطفيل بن عمرو الدوسي آية لقومه فقال: اللهم نور له فسطع له نور بين عينيه، فقال: أخاف أن تكون مثلة فتحول إلى طرف سوطه.

وكان في الليل المظلم فسمي ذا النور، وأعطى ﷺ قتادة بن النعمان رضي الله عنه، لما

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٤٨).

صلى معه العشاء في ليلة مظلمة ممطرة، عرجوناً. وقال: انطلق به فإنه سيضيء لك ما بين يديك عشراً ومن خلفك عشراً، فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه ليخرج فإنه شيطان. فكان كذلك. ومسح ﷺ على وجه قتادة بن ملحان فكان لوجهه بريق حتى كان ينظر فيه كالمرآة.

وكان ﷺ **حسن السَّبَلة**. رواه الطبراني عن العداء بن خالد رضي الله عنه السبلة بالتحريك ما أسبل من مقدم اللحية على الصدر وهي الشعرات التي تحت اللحا الأسفل أو الشارب. وفي شرح المقامات للشريشي، السبلة مقدم اللحية.

وكان ﷺ خاتم النبوة في ظهره بَضعة ناشزة. رواه الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه، وروى عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كان خاتمه ﷺ غدة حمراء مثل بيضة الحمامة. بَضْعة بفتح الباء، أي قطعة لحم، وناشزة مرتفعة، والغدة لحم يحدث بين الجلد واللحم يتحرك بالتحريك كما في المصباح.

قال القرطبي: اتفقت الأحاديث الثابتة على أن الخاتم كان شيئاً بارزاً أحمر عند كتفه الأيسر ﷺ قدره إذا [قلّ][1] كبيضة الحمامة، وإذا كثر كجمع اليد.

وعد الحافظ السيوطي وغيره جعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان هو من خصائصه ﷺ.

وكان ﷺ ربعة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، أزهر اللون ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، وليس بالجعد القطط، ولا بالسبط. رواه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه.

الربعة بالفتح والكسر، أي كان ﷺ مربوعاً ليس بالطويل البائن الذي يباين الناس بزيادة طوله، وقد ورد بإسناد حسن: **كان ﷺ ربعة، وهو إلى الطول أقرب**، وأزهر اللون أي مشرقه نيره.

وقال ابن حجر: أزهر اللون أي أبيض مشرب بحمرة، وقد ورد ذلك صريحاً في رواية أخرى عند الترمذي والحاكم وغيرهما. ولم يفسر المناوي الأمهق، وفسره العزيزي بقوله الأبيض الأمهق أي الكريه البياض كالجص. اهـ.

والآدم شديد السمرة، وإنما يخالط بياضه ﷺ الحمرة، لكنها حمرة بصفاء فيصدق عليه

---

(١) ورد في الأصل: «قلل» ولعله خطأ.

أنه أزهر كما ذكره القرطبي والعرب تطلق على من هو كذلك أسمر والمراد بالسمرة التي تخالط البياض، ولهذا جاء في حديث أنس عن أحمد والبزار، قال ابن حجر بإسناد صحيح صححه ابن حبان: **أنه ﷺ كان أسمر**.

وفي الدلائل للبيهقي عن أنس: **كان أبيض بياضه إلى السمرة**، وفي لفظ لأحمد بسند حسن: **أسمر إلى البياض**. والجعد القطط الشديد الجعودة، والسبط المنبسط المسترسل.

وكان ﷺ شَبَح الذراعين، بعيد ما بين المنكبين، أهدب أشفار العينين. رواه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

شبح الذراعين عريضهما ممتدهما وبعيد ما بين المنكبين، أي عريض أعلى الظهر والمنكب مجتمع رأس العضد والكتف وبعد ما بينهما، يدل على سعة الصدر وذلك آية النجابة.

وكان شعره ﷺ دون الجُمة، وفوق الوفرة. رواه الترمذي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها. ورويا عن ابن عمر رضي الله عنهما: **أن شيبة ﷺ كان نحو عشرين شعرة**. الجمة هي شعر الرأس المتجاوز شحمة الأذن إذا وصل المنكب، أو لم يصل، كما في الصحاح.

وفي النهاية ما سقط عن المنكبين. والوفرة ما سال على الأذن أو جاوز الشحمة كما في القاموس.

قال أبو شامة وقد دلت صحاح الأخبار على أن شعره ﷺ كان إلى أنصاف أذنيه. وفي رواية: يبلغ شحمة أذنيه، وفي أخرى: بين أذنيه وعاتقه، وفي أخرى: قريباً من منكبيه، وفي أخرى: يضرب منكبيه، ولم يبلغنا في طوله أكثر من ذلك، وهذا الاختلاف باعتبار اختلاف أحواله ﷺ، فروي في هذه الأحوال المتعددة بعدما كان حلقه في حج أو عمرة.

وأما كونه لم ينقل أنه زاد على كونه يضرب منكبيه فيجوز كون شعره ﷺ وقف على ذلك الحد كما يقف الشعر في حق كل إنسان على حدٍ ما، ويجوز أن يكون.

كانت عادته ﷺ أنه كلما بلغ شعره هذا الحد قصره حتى يكون إلى أنصاف أذنيه أو شحمة أذنيه، لكن لم ينقل أنه قصر شعره في غير نسك، ولا حلقه.

ولعل ما وصف به شعره من الأوصاف المذكورة كان بعد حلقه في عمرة الحديبية سنة ست، فإنه بعد ذلك لم يترك حلقه مدة يطول فيها أكثر من كونه يضرب منكبيه، فإنه ﷺ في سنة سبع اعتمر عمرة القضاء، وفي ثمان اعتمر من الجعرانة وفي عشر حج. اهـ.

وكان ﷺ ضخم الرأس واليدين والقدمين. رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه. وروى

مسلم والترمذي عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أنه ﷺ: **كان ضليع الفم، أشكل العينين، منهوس العقب.**

وروى البيهقي عن علي رضي الله عنه أنه ﷺ: كان ضخم الهامة، عظيم اللحية، ضخم الرأس أي عظيمه. وفي رواية: **ضخم الهامة، واليدين.** يعني الذراعين، كما جاء مبيناً هكذا في رواية. وضليع الفم أي عظيمه، أو واسعه، والعرب تمدح بذلك. وأشكل العينين أي في بياضهما حمرة، وذلك محمود. ومنهوس العقب، أي قليل لحم العقب. وضخم الهامة كبيرها. وعظم الرأس يدل على الرزانة والوقار ووفرة العقل.

وكان ﷺ **فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر،** أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر إن انفرقت عقيقته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب، سوابغ في غير قرن بينهما، عرق يدره الغضب، أقنى العرنين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دُمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق بادناً متماسكاً سواء البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر. طويل الزندين، رحب الراحة، سبط القصب، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، خَمصان الأخمَصين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء إذا زال زال تقلعاً، ويخطو تكفؤاً، ويمشي هوناً، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام.

رواه الترمذي في الشمائل والطبراني والبيهقي عن هند بن أبي هالة رضي الله عنه: **قوله فخماً، أي عظيماً في صدور الصدور، وعيون العيون، لا يستطيع مكابر أن لا يعظمه ﷺ، وإن حرص على ترك تعظيمه، كان مخالفاً لما في باطنه فليست الفخامة جسمية.**

وقيل فخماً: عظيم القدر عند صحبه، مفخماً معظماً عند من لم يره قط وهو عظيم أبداً، ومن ثَمَّ كان أصحابه ﷺ لا يجلسون عنده إلا وهم مطرقون لا يتحرك من أحدهم شعرة ولا يضطرب فيه مفصل كما قيل:

كأنما الطير منهم فوق أرؤسهم[1] لا خوف ظلم ولكن خوف إجلال

---

(١) «كأن على رؤوسهم الطير»، يضرب مثلاً في الرزانة والحلم والركانة وقلة الطيش والعجلة، حتى كأن على رؤوسهم الطير يخاف أصحابها طيرانها، فهم سكون لا يتحركون. راجع الميداني في مجمع =

ومعنى يتلألأ يضيء ويتوهج، ومعنى المشذب البائن الطول مع نحافة، والهامة الرأس، ورجل الشعر كأنه مشط، وعقيقته شعر رأسه إن انفرق بسهولة فرقه، أي جعله نصفين، نصفاً عن يمينه، ونصفاً عن شماله، سمي عقيقة تشبيهاً له بشعر المولود، وإلا ينفرق شعره بأن كان مختلطاً متلاصقاً فلا يفرقه، بل يتركه بحاله معقوصاً إلى وفرة واحدة، وأزهر اللون أبيضه نيره وهو أحسن الألوان، وأزج الحواجب أي مرققها مع تقوس وغزارة شعر، وسوابغ كاملات، في غير قرن، أي اجتماع، يعني أن طرفي حاجبيه ﷺ قد سبغا، أي طالا حتى كادا يلتقيان ولم يلتقيا، ومعنى يدره الغضب، أي يحرك ذلك العرق فيصير نافراً ممتلئاً دماً، وأقنى العرنين طويل الأنف مع دقة أرنبته وحدب في وسطه، والأشم من الشمم وهو ارتفاع قصبة الأنف وإشراف الأرنبة، وكث اللحية غير رقيقها ولا طويلها مع كثرة شعرها، وضليع الفم عظيمة، والأشنب أبيض الأسنان مع بريق وتحديد فيها، ومفلج الأسنان بين ثناياه فرجة، والمسربة ما رق من شعر الصدر كالخيط سائلاً إلى السرة، والدُّمية الصورة، والبادن ضخم البدن، وسواء البطن والصدر، أي ضامرهما ومستويهما، والكراديس رؤوس العظام، وأنور المتجرد، أي كان مشرق البدن، واللبة المنحر وهي التطامن الذي فوق الصدر وأسفل الحلق بين الترقوتين، والزند ما انحسر عنه اللحم من الذراع، ورحب الراحة واسعها حساً، وعطاء قال الزمخشري ورحب الراحة أي الكف دليل الجود وصغرها دليل البخل، وسبط القصب أي ليس في ذراعيه وساقيه وفخذيه نتو ولا تعقد، والقصب جمع قصبة وهو كل عظم أجوف فيه مخ، وشثن الكفين والقدمين، أي في أنامله غلظ بلا قصر، وذلك محمود في الرجل لدلالته على القوة، ولا يعارضه خبر البخاري عن أنس: ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كفه ﷺ، لأن المراد اللين في الجلد، والغلظ في العظام فيجتمع له نعومة البدن وقوته.

ومن ثَمَّ قال ابن بطال: كانت كفه ﷺ ممتلئة لحماً غير أنها مع ضخامتها لينة. وسائل الأطراف ممتدها كما في النهاية.

وفسره البيهقي وغيره بممتد الأصابع طوال غير متعقدة ولا شثنة، ويؤيده كأن أصابعه قضبان فضة. وخمصان الأخمصين من الخمص، وهو تجافي أخمص القدم عن الأرض، ومسيح القدمين أملسهما مستويهما لينهما بلا تكسر ولا تشقق، وينبو الماء أي يسيل، وإذا زال زال تقلعاً، أي إذا مشى وفارق مكانه رفع رجليه رفعاً ثابتاً متداركاً إحداهما بالأخرى، مشية أهل الجلادة، ويخطو تكفياً، أي تمايلاً إلى قدام أو إلى يمين وشمال، ويؤيد الأول قوله

= الأمثال ج ٢/ص ٦٢. والزمخشري، المستقصى ٢٥٨. ولكل مقام مقال، حكم وأمثال، محمد أمين الضناوي، دار المعرفة ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٧. ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

الآتي: كأنما ينحط من صبب، وذريع المشية، سريعها مع سعة الخطوة، وينحط من صبب، أي ينحدر وينزل من محل مرتفع، والتفت جميعاً، أي شيئاً واحداً فلا يسارق النظر ولا يلوي عنقه كالطائش الخفيف، بل كان يقبل ويدبر.

قال الدلجي ينبغي أن يخص بالتفاته وراءه، وأما التفاته يمنة أو يسرة فبعنقه، والطرف البصر، ونظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء لأنه ﷺ كان دائم المراقبة متواصل الفكر ونظره إلى السماء ربما فرق فكره، ومزق خشوعه، ولأن نظر النفوس إلى ما تحتها أشق لها من نظرها إلى ما علا عليها، إما في حال عدم السكوت والسكون، فكان ﷺ ربما نظر إلى السماء بل جاء في أبي داود **وكان إذا جلس يتحدث يكثر أن يرفع طرفه إلى السماء**، وهذا كله في غير الصلاة.

أما فيها فكان ينظر إليها فلما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] أطرق.

فائدة: قال المناوي رأيت بخط الحافظ مغلطاي أن ابن ظفر ذكر أن علياً رضي الله عنه أتاه راهب بكتاب ورثه عن آبائه كتبه أصحاب المسيح، فإذا فيه الحمد لله الذي قضى وسطر فيما سطر أنه باعث في الأميين رسولاً لا فظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يغفر، ويصفح. أمته الحمادون، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء اهـ.

وجل نظره الملاحظة، أي معظمه وأكثره النظر بشق العين مما يلي الصدغ، **ويسوق أصحابه** أي يقدمهم أمامه ويمشي خلفهم، كأنه يسوقهم تواضعاً وإرشاداً إلى ندب مشي كبير القوم وراءهم، ولا يدع أحداً يمشي خلفه أو ليختبر حالهم، وينظر إليهم حال تصرفهم في معاشهم، وملاحظتهم لإخوانهم، فيربي من يستحق التربية، ويكمل من يحتاج التكميل، ويعاتب من تليق به المعاتبة ويؤدب من يناسبه التأديب، وهذا شأن المولى مع رعيته، أو لأن الملائكة كانت تمشي خلف ظهره أو لغير ذلك.

وكان ﷺ إذا مشى لم يلتفت. رواه الحاكم عن جابر رضي الله عنه، لم يلتفت لأنه كان يواصل السير ويترك التواني والتوقف، ومن يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة، أو لئلا يشغل قلبه بمن خلفه وليكون مطلعاً على أصحابه وأحوالهم فلا يفرط منهم التفاتة ولا غيرها من الهفوات في ذلك الحال احتشاماً منه ﷺ.

وكان ﷺ إذا مشى أسرع حتى يهرول الرجل وراءه فلا يدركه. رواه ابن سعد عن يزيد بن مرثد مرسلاً، قال الزمخشري: أراد السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩] أي اعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين لا يدب دبيب المتماوتين ولا يثب وثب الشطار اهـ.

وفي الشمائل للترمذي عن أبي هريرة: ما رأيت أحداً أسرع في مشيته منه ﷺ، كأن الأرض تطوى له، حتى إنّا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث، فكان ﷺ يمشي على هينته ويقطع ما يقطع بالجهد من غير جهد.

وكان ﷺ يمشي مشياً يعرف فيه أنه ليس بعاجز ولا كسلان. رواه ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومع سرعة مشيه كان على غاية من الهون والتأني وعدم العجلة.

وكان ﷺ في كلامه ترتيل، أو ترسيل. رواه أبو داود عن جابر رضي الله عنه. كان في كلامه، وفي رواية: كان في قراءته ترتيل، أي تأن وتمهل مع تبيين الحروف والحركات، بحيث يتمكن السامع من عدها. أو ترسيل: عطف تفسيري، أو شك من الراوي، وأخذ بهذا جمع ففضلوا قراءة القليل المرتل على الكثير بغير ترتيل، لأن القصد من القراءة التدبر والفهم.

وذهب قوم إلى أفضلية الكثرة واحتجوا بأخبار. قال ابن القيم والصواب أن قراءة الترتيل والتدبر أرفع قدراً، وثواب كثرة القراءة أكثر عدداً فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة، والثاني كمن تصدق بدنانير كثيرة.

وكان ﷺ كثير العرق. رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه. العرق محركاً ما يترشح من جلد الحيوان. وكانت أم سليم رضي الله عنها تجمع عرقه ﷺ فتجعله في الطيب لطيب ريحه.

وكان كلامه ﷺ كلاماً فصلاً يفهمه كل من سمعه. رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها. قوله فصلاً أي فاصلاً بين الحق والباطل، بين المعنى لا يلتبس على أحد، بل يفهمه كل من سمعه من العرب وغيرهم، لظهوره، وتفصيل حروفه وكلماته، وذلك لكمال فصاحته ﷺ واقتداره على إيضاح الكلام وتبيينه.

ولقد تعجب الفاروق من شأنه، وقال له: ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال ﷺ: «كانت لغة إسماعيل قد درست ـ أي متممات ـ فصاحتها [و] انقرضت، فجاءني بها جبريل فحفظتها»[1].

ورد أنه ﷺ كان يتكلم مع الفرس بالفارسية. قال الزمخشري: وقد أعيا ﷺ أولئك المفلقين المصاقع حتى غدوا مقهورين مبهوتين مبهورين واستكانوا وأذعنوا. وأسهبوا في الاستعجاب وأمعنوا.

كان الله عزت قدرته مخض هذا اللسان العربي، وألقى على لسانه ﷺ زبدته، فما من

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٤٦٢). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٦٤).

خطيب يقاومه الانكص متفكك الرجل، وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل.

وما قرن بمنطقه منطق إلا كان كالبرذون مع الحصان المطهم، ولا وقع من كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الغرة في جبهة الأدهم، وقال ابن القيم: كان ﷺ أفصح الخلق وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقاً حتى كأن كلامه يأخذ بالقلوب ويسبي الأرواح وقد شهد له بهذا أعداؤه وقد جمعوا من كلامه المفرد الموجز البديع دواوين لا تكاد تحصى.

وكان وجهه ﷺ مثل الشمس والقمر وكان مستديراً. رواه مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: مثل الشمس والقمر، أي الشمس في الإضاءة، والقمر في الحسن، والملاحة إذ الشمس تمنع استيفاء الحظ من رؤيتها.

وكان ﷺ أبغض الخُلُق إليه الكذب. رواه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها. أي أبغض أخلاق الناس إليه الكذب، لكثرة ضرره وعموم ما يترتب عليه من المفاسد والفتن، وكان ﷺ لا يقول في الرضا والغضب إلا الحق، كما رواه أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما ولهذا كان يزجر أصحابه وأهل بيته عنه. ويهجر على الكلمة من الكذب المدة الطويلة وذلك لأنه قد يبنى عليه أمور ربما أضرت ببعض الناس، وفي كلام الحكماء إذا كذب السفير بطل التدبير.

وكان ﷺ إذا جاء مال لم يبيته ولم يُقَيّلهُ. رواه البيهقي والخطيب عن الحسن بن محمد بن علي مرسلاً: أي إن جاءه ﷺ مال آخر النهار لم يمسكه إلى الليل، أو أوله لم يمسكه إلى القائلة، بل يعجل قسمته وكان هديه ﷺ تعجيل الإحسان والصدقة والمعروف ولذلك كان أشرح الخلق صدراً، أو أطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً، فإن للصدقة والبذل تأثيراً عجيباً في شرح الصدر.

وكان ﷺ إذا جاءه أمر يسر به خر ساجداً شكراً لله تعالى. رواه أبو داود وابن ماجه عن أبي بكرة رضي الله عنه.

ومن ثَمَّ ندب سجود الشكر عند حصول نعمة، أو اندفاع نقمة. والسجود أقصى حالة العبد في التواضع لربه، وهو أن يضع مكارم وجهه بالأرض، وينكس جوارحه، وهكذا يليق بالمؤمن كلما زاده ربه محبوباً، ازداد له تذللاً واحتقاراً، فبه تربط النعمة ويجلب المزيد ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. والمصطفى ﷺ أشكر الخلق للحق لعظم يقينه فكان يفزع إلى السجود. وفيه حجة للشافعي في ندب سجود الشكر عند حدوث سرور ورفع بلية.

وكان ﷺ إذا خطب أحمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول «صبَّحكم مسَّاكم»[١].

رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم عن جابر. قال الإمام النووي: ولعل اشتداد غضبه ﷺ كان عند إنذاره أمراً عظيماً. وهذا قطعة من حديث وبقيته عند ابن ماجه وغيره ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[٢]. ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ثم يقول: «أما بعد فإن خير الأمور كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[٣]، وهو في مسلم بلفظ خير الحديث كتاب الله الخ. . . .

تنبيه: قال ابن القيم: كان ﷺ يخطب على الأرض والمنبر والبعير، ولا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله، وقول كثير يفتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار، ليس معهم سنة تقتضيه، وكان كثيراً ما يخطب بالقرآن، وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه الحاجة. قال: ولم يكن شاويش يخرج بين يديه إذا خرج من حجرته، وكانت خطبته العارضة أطول من الراتبة ﷺ.

وكان ﷺ إذا خلا بنسائه ألين الناس وأكرم الناس، ضحاكاً، بساماً، رواه ابن سعد وابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها: حتى أنه ﷺ سابق عائشة يوماً فسبقته كما رواه الترمذي. قال ابن القيم: وكان من تلطفه بهم أنه دخل عليهم بالليل سلم تسليماً لا يوقظ النائم ويسمع اليقظان. رواه مسلم.

وكان ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة»[٤]. رواه مسلم عن

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الجمعة: ١٣). والبيهقي في السنن الكبرى (٣: ٢٠٧). والنسائي في السنن (العيدين: ٢٢). والحاكم في المستدرك (٤: ٠ ٢٥٣). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١١٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٧٩٧٤).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣: ١٢٤). والبخاري في الصحيح (٨: ١٣١). ومسلم في الصحيح (الفتن: ١٣٥). والنسائي في السنن (٣: ١٨٩). والترمذي في السنن (٢٢١٤). وابن ماجه في السنن (٤٥). والبيهقي في السنن الكبرى (٣: ٢٠٦). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ١٤٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٨٣٤٨). والمنذري في الترغيب والترهيب (١: ٨٣). والقرطبي في التفسير (١٠: ٦٦). وابن حجر في فتح الباري (١٠: ٤٣٦). والطبري في تاريخ الأمم والملوك (١: ١٢). وابن كثير في التفسير (٣: ٥٢٦). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ٣١١). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٤: ١٩٩).

(٣) رواه ابن ماجه في السنن (٤٥). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٢٥٤).

(٤) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٧٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٨٣٣٩).

عائشة رضي الله عنها: فيه حفظ العهد وحسن الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير ولو ميتاً، وإكرام أهل ذلك الصاحب وأصدقائه.

وكان ﷺ **إذا سر استنار وجهه، كأنه قطعة قمر**. رواه البخاري ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه. التشبيه وارد على عادة الشعراء، وإلا فلا شيء يعدل حسنه ﷺ. وفي الطبراني عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «التفت ﷺ إليَّ بوجه مثل شقة القمر». فهذا محمول على صفته ﷺ عند الالتفات. وفي رواية للطبراني كأنه دارة القمر.

وكان ﷺ **إذا صلى الغداة جاءه خدم أهل المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه**. رواه الإمام أحمد ومسلم عن أنس رضي الله عنه. صلاة الغداة: وهي صلاة الصبح وغمس يده فيه للتبرك بيده الشريفة، وفيه بره للناس، وقربه منهم ليوصل كل ذي حق لحقه، وليعلم الجاهل، وليقتدى بأفعاله، وكذا ينبغي للأئمة بعده ﷺ.

وكان ﷺ **إذا صلى بالناس الغداة أقبل عليهم بوجهه فقال: «هل فيكم مريض أعوده؟» فإن قالوا: «لا». قال: «فهل فيكم جنازة أتبعها؟» فإن قالوا: لا، قال: «من رأى منكم رؤيا يقصها علينا؟»**[1]. رواه ابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما: يقصها علينا، أي لنعبرها له، قال الحكيم الترمذي: فإن شأن الرؤيا عنده ﷺ عظيم فلذلك كان يسأل عنها كل يوم، وذلك لأنها من أخبار الملكوت من الغيب ولهم في ذلك نفع في أمر دينهم بشارة كانت أو نذارة أو معاتبة. وقال القرطبي: إنما كان يسألهم عن ذلك لما كانوا عليه من الصلاح والصدق، وعلم أن رؤياهم صحيحة يستفاد منها الاطلاع على كثير من علم الغيب، ويسن لهم الاعتناء بالرؤيا، والتشوق لفوائدها، ويعلمهم كيفية التعبير، ويستكثر من الاطلاع على الغيب. وقال ابن حجر فيه: إنه يحسن قص الرؤيا بعد الصبح والانصراف من الصلاة. وأخرج الطبراني والبيهقي في الدلائل: كان عليه الصلاة والسلام إذا صلى الصبح قال: **«هل رأى أحد منكم شيئاً؟» فإذا قال رجل: «أنا» قال ﷺ: «خيراً تلقاه وشراً تتوقاه وخيراً لنا وشراً لأعدائنا، والحمد لله رب العالمين أقصص رؤياك»** الحديث.

وكان ﷺ **إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده**، رواه أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه. لأن الإمام عليه النظر في حال رعيته وإصلاح شأنهم وتدبير أمرهم، وأخذ منه أنه ينبغي للعالم إذا غاب بعض الطلبة فوق المعتاد أن يسأل عنه، فإن لم يخبر عنه بشيء أرسل إليه أو قصد منزله بنفسه، وهو

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (١٧٩٠٠).

أفضل، فإن كان مريضاً عاده، أو في غم خفف عليه، أو في أمر يحتاج المعونة أعانه، أو مسافراً تفقد أهله وتعرض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن وإلا تودد إليهم ودعا لهم.

وكان ﷺ إذا قدم عليه الوفد لبس أحسن ثيابه وأمر عليه أصحابه بذلك. رواه البغوي عن جندب بن مكيث رضي الله عنه. الوفد: جمع وافد. يقال: وفد إذا خرج إلى نحو ملك، ولبسه أحسن ثيابه لأن ذلك يرجحه في عين العدو ويكتبه، فهو يتضمن إعلاء كلمة الله، ونصر دينه وغيظ عدوه، فلا يناقض ذلك خبر البذاذة من الإيمان، لأن التجمل المنهي عنه ما كان على وجه الفخر والتعاظم، وليس ما هنا من ذلك القبيل.

وكان ﷺ إذا قدم من سفر تُلقي بصبيان أهل بيته. رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما. تمام هذا الحديث عند أحمد ومسلم عن عبد الله بن جعفر أنه ﷺ قدم مرة من سفر فسبق بي إليه فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة إما حسن وإما حسين فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة. وفي رواية للطبراني بسند رجاله ثقات: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر قبَّل ابنته فاطمة رضي الله عنها.

وكان ﷺ إذا كره شيئاً رؤي ذلك في وجهه. رواه الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه. لأن وجهه ﷺ كالشمس والقمر فإذا كره شيئاً كسى وجهه الشريف ظلاً كالغيم على النيرين، فكان لغاية حيائه لا يصرح بكراهته، بل إنما يعرف في وجهه. وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: كان ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه.

وكان ﷺ إذا لقيه أحد من أصحابه فقام قام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه، وإذا لقي أحداً من أصحابه فتناول أذنه ناوله إياها ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه. رواه ابن سعد عن أنس رضي الله عنه. وعند أبي داود بعضه. وزاد ابن المبارك في رواية عن أنس: ولا يصرف وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه. والظاهر أن المراد بمناولة الأذن أن يريد أحد من أصحابه أن يسر إليه حديثاً فيقرب فمه من أذنه ليسر إليه، فكان ﷺ لا ينحي أذنه عن فمه حتى يفرغ الرجل من حديثه على الوجه الأكمل، وهذا من أعظم الأدلة على محاسن أخلاقه وكماله ﷺ، كيف وهو سيد المتواضعين، وهو القائل: خالقوا الناس بخلق حسن»[1] ﷺ.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥: ١٥٣). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٥١٢).

وكان ﷺ **إذا لقيه الرجل من أصحابه مسحه ودعا له**. رواه النسائي عن حذيفة رضي الله عنه. مسحه أي مسح يده بيده يعني صافحه. تمسك مالك بهذا وما أشبهه على كراهة معانقة القادم وتقبيل يده، وقد ناظر سفيان بن عيينة مالكاً واحتج عليه، بأن المصطفى ﷺ لما قدم جعفر من الحبشة خرج إليه فعانقه فقال مالك: «ذاك خاص بالنبي ﷺ»، فقال له سفيان: «ما نخصه بفهمنا». كذا في كتاب «مطامح الأفهام» للقاضي عياض.

وكان ﷺ **أرحم الناس بالصبيان والعيال**. رواه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه. قال النووي: وهذا، أي لفظ العيال، هو المشهور. وروي بالعباد وكل منهما صحيح واقع. والعيال أهل البيت ومن يمونه الإنسان. وقال الزين العراقي: روينا في فوائد أبي الدحداح عن علي رضي الله عنه: كان ﷺ أرحم الناس بالناس، وكان ﷺ رحيماً بالعيال، رواه الطيالسي عن أنس رضي الله عنه ورمز الحافظ السيوطي لصحته، أي كان ﷺ رقيق القلب متفضلاً محسناً رفيقاً. وفي صحيح مسلم: كان ﷺ رحيماً رفيقاً، ولفظه عن عمران بن حصين رضي الله عنهما. كانت ثقيف حلفاً لبني عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من الصحابة، وأسر الصحب رجلاً من بني عقيل فأصابوا معه العضباء ـ ناقة رسول الله ﷺ ـ فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق فقال: **«يا محمد»** فأتاه فقال: **«ما شأنك؟»** فقال: **«بم أخذتني؟»** قال: **«بجريرة حلفائك ثقيف»**. ثم انصرف عنه فناداه: **«يا محمد»**. وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً فرجع إليه. فقال: **«ما شأنك؟»** قال: **«إني مسلم»**، قال: **«لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح»**[1]. وفي الصحيحين عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: أتينا رسول الله ﷺ، فأقمنا عنده عشرين ليلة وكان رحيماً رفيقاً فظن أنا قد اشتقنا إلى أهلنا فقال: **«ارجعوا إلى أهليكم ويؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم»**.

وكان ﷺ **رحيماً وكان لا يأتيه أحد إلا وعده وأنجز له إن كان عنده**. رواه البخاري في «الأدب المفرد» عن أنس رضي الله عنه: كان ﷺ رحيماً حتى بأعدائه. لما دخل يوم فتح مكة على قريش وقد جلسوا بالمسجد الحرام وصحبه ينتظرون أمره فيهم من قتل أو غيره. قال لقريش: **«ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟»** قالوا: «خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم». فقال ﷺ: **«أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] اذهبوا فأنتم الطلقاء»**[2].

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٣٣١٦). وأحمد في المسند (٤: ٤٣). والبيهقي في السنن الكبرى (٦: ٣٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (١١٠٣٣).

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور (٤: ٣٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٩٩٣١). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨: ٤١).

قال الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن العربي رضي الله عنه: فلا فلك أوسع من فلك محمد ﷺ، فإن له الإحاطة بالمحاسن والمعارف والتودد والرفق ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وما أظهر في وقت غلظة على أحد إلا عن أمر إلٰهي حين قيل له: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. وقوله: وعده وأنجز له، أي كان عنده، وإلا أمر باستدانة عليه. وفي حديث الترمذي: أن رجلاً جاءه فسأله أن يعطيه فقال: «ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قضيته». فقال عمر: «يا رسول الله، ما كلفك الله ما لا تقدر عليه» فكره قول عمر: فقال رجل من الأنصار: «يا رسول الله، أنفق ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً». فتبسم فرحاً بقول الأنصاري، وعرف في وجهه البشر، ثم قال «بهذا أمرت»[1].

وكان ﷺ لا يسأل شيئاً إلا أعطاه أو سكت. رواه الحاكم عن أنس رضي الله. أي أعطاه إن كان عنده، أو سكت إن لم يكن عنده. وفيه أنه يسن لمن طلبت منه حاجة لا يمكن أن يقضيها أن يسكت سكوتاً يفهم منه السائل ذلك، ولا يخجله بالمنع إلا إذا لم يفهم إلا بالتصريح.

وكان ﷺ لا يكاد يسأل شيئاً إلا فعله. رواه الطبراني عن طلحة رضي الله عنه. لا يكاد يسأل شيئاً ولو من متاع الدنيا إلا فعله، أي جاد به على طالبه لما طبع عليه من الجود، فإن لم يكن عنده شيء وعد أو سكت، وهو في الصحيحين بمعناه من حديث جابر رضي الله عنه ما سئل شيئاً قط فقال: لا.

وكان ﷺ لا يكاد يقول لشيء لا فإذا هو سئل فأراد أن يفعل قال: نعم، وإذا لم يرد أن يفعل سكت.

رواه ابن سعد عن محمد بن علي مرسلاً، وكان ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله. رواه أحمد عن أبي أسيد رضي الله عنه. وكان عطاؤه ﷺ عطاء من لا يخاف الفقر. قال ابن القيم: كان فرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما أخذه.

وكان ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً هو وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير. رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما. قوله: طاوياً، أي خالي البطن جائعاً، قد أفاد ذلك ما كان دأبه، وديدنه ﷺ من التقلل من الدنيا والصبر على الجوع.

وفي خبر الترمذي عن عائشة رضي الله عنها: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين

---

(١) رواه القاضي عياض في كتاب الشفا (١: ٢٣٣)، والترمذي في الشمائل (١٧٩).

متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ، وروى الشيخان عنها رضي الله عنها قالت: توفي رسول الله ﷺ وليس عندي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في زق.

وكان بابه ﷺ يقرع بالأظافير. رواه الحاكم في الكنى عن أنس رضي الله عنه. يقرع، أي يطرق بأطراف أظافير الأصابع طرقاً خفيفاً بحيث لا ينزعج تأدباً معه ﷺ ومهابة.

قال الزمخشري: ومن هذا وأمثاله تقتطف ثمرات الألباب وتقتبس محاسن الآداب، ثم هذا التقرير هو اللائق المناسب. وقول السهيلي سبب قرعهم بابه ﷺ بالأظافير إنه لم يكن فيه حلق، فلذلك فعلوه، رده ابن حجر بأنهم إنما فعلوه توقيراً وإجلالاً له ﷺ.

قال ابن العربي: وفي حديث البخاري في قصة جابر مشروعية دق الباب. لكن قال بعض الصوفية: إياك ودق الباب على فقير، فإنه كضربه بالسيف، كما يعرف ذلك أرباب الجمعية بقلوبهم على حضرة الله تعالى. وقال بعضهم: إياك ودق الباب، فربما كان في حال قاهر يمنعه من لقاء الناس مطلقاً.

وكان ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه. رواه الحاكم عن أنس رضي الله عنه. لا ينام قلبه ليعي الوحي الذي يأتيه في نومه ورؤيا الأنبياء وحي، ولا يشكل بقصة النوم في الوادي، لأن القلب إنما يدرك الحسيات المتعلقة به كحدث وألم لا يتعلق بالعين، ولأن قلبه ﷺ كان مستغرقاً إذ ذاك بالوحي.

وكان ﷺ خُلقه القرآن. رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها. الخلق بالضم، قال الراغب: هو، والمفتوح الخاء، بمعنى واحد، لكن خص المفتوح بالهيئات والصور المبصرة، والمضموم بالسجايا والقوى المدركة بالبصيرة. وقوله: القرآن، أي ما دل عليه القرآن من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده إلى غير ذلك.

وقال القاضي عياض: أي كان خلقه ﷺ جميع ما حصل في القرآن، فإن كل ما استحسنه وأثنى عليه، ودعا إليه فقد تحلى به، وكل ما استهجنه ونهى عنه تجنبه وتخلى عنه، فكان القرآن بيان خلقه ﷺ.

وقال في «الديباج»: معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبره وحسن تلاوته. وقال السهروردي في عوارفه: فيه رمز غامض وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية، فاحتشم الراوي الحضرة الإلٰهية أن يقول كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى، فعبر الراوي ـ يعني السيدة عائشة رضي الله عنها ـ عن المعنى بقوله: كان خلقه القرآن استحياء من سبحات الجلال وستراً للحال بلطف المقال، وهذا من وفور العقل وكمال الأدب

وبذلك عرف أن كمالات خلقه ﷺ لا تناهى، وإن التعرض لحصر جزئياتها غير مقدور للبشر، ثم ما انطوى عليه ﷺ من جميل الأخلاق لم يكن باكتساب ورياضة، وإنما كان في أصل خلقته بالجود الإلٰهي والإمداد الرحماني الذي لم تزل تشرق أنواره في قلبه ﷺ إلى أن وصل لأعظم غاية وأتم نهاية.

وكان ﷺ شديد البطش. رواه ابن سعد عن محمد بن علي مرسلاً: فقد أعطي ﷺ قوة أربعين في البطش والجماع كما في خبر الطبراني عن ابن عمرو.

وفي مسلم عن البراء: كنا والله إذا أحجم الناس نتقي به ﷺ، وإن الشجاع منا الذي يحاذيه.

وفي خبر أبي الشيخ عن عمران ما لقي ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب، ولأبي الشيخ عن علي: كان ﷺ من أشد الناس بأساً ومع ذلك كله فلم تكن الرحمة منزوعة عن بطشه لتخلقه بأخلاق الله وهو سبحانه ليس له وعيد وبطش شديد ليس فيه شيء من الرحمة واللطف.

ولهذا قال أبو يزيد البسطامي: وقد سمع قارئاً يقرأ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] بطشي أشد، فإن المخلوق إذا بطش لا يكون في بطشه رحمة وسببه ضيق المخلوق، فإنه ما له الاتساع الإلٰهي وبطشه تعالى وإن كان شديداً ففي بطشه رحمة بالمبطوش به، فلما كان المصطفى ﷺ أعظم البشر اتساعاً كانت الرحمة غير منزوعة عن بطشه ﷺ.

وكان ﷺ طويل الصمت قليل الضحك. رواه الإمام أحمد عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، لأن كثرة السكوت من أقوى أسباب التوقير وهو من الحكمة وداعية السلامة من اللغط. ولهذا قيل من قل كلامه قل لغطه، وهو أجمع للفكر.

وكان فراشه ﷺ مِسحاً. رواه الترمذي في الشمائل عن حفصة رضي الله عنهما. المسح: بكسر فسكون بلا «س» من شعر أو ثوب خشن من صوف يشبه الكساء، أو ثياب سود يلبسها الزهاد والرهبان. وبقية الحديث: نثنيه ثنيين فينام عليه، فلما كان ذات ليلة قلت: «لو ثنيته أربع ثنيات لكان أوطأ». فثنيناه له بأربع ثنيات فلما أصبح قال: «ما فرشتموه الليلة؟» قلنا: هو فراشك إلا إنا ثنيناه أربع ثنيات، قلنا: هو أوطأ لك». قال: «ردوه لحالته الأولى، فإنه منعني وطاؤه صلاتي الليلة»[1].

وكان ﷺ وسادته التي ينام عليها بالليل من أَدَم، حشوها ليف. رواه الإمام أحمد وأبو

(١) رواه الترمذي في الشمائل (١٧١). والقاضي عياض في كتاب الشفا (١: ٢٨٢). وابن كثير في البداية والنهاية (٦: ٦٢).

داود والترمذي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها. الآدم بفتحتين جمع أدمة أو أديم، وهو الجلد المدبوغ الأحمر أو الأسود أو مطلق الجلد. والليف: ورق النخل. وفيه إيذان بكمال زهده ﷺ وإعراضه عن الدنيا ونعيمها وفاخر متاعها.

وكان ﷺ فيه دُعابة قليلة. رواه الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الزمخشري: دعب يدعب كمزح يمزح وزناً ومعنى. والدعابة: بالضم اسم لما يستملح من ذلك. قال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي رضي الله عنه: وسبب مزاحه ﷺ أنه كان شديد الغيرة، فإنه وصف نفسه بأنه أغير من سعد بعدما وصف سعداً بأنه غيور، فأتى بصيغة المبالغة، والغيرة من نعت المحبة، وهم لا يظهرونها. فستر محبته ﷺ، وما له من الوجد فيه بالمزاح وملاعبة الصغير وإظهار حبه فيمن أحب من أزواجه وأبنائه وأصحابه، وقال: «**إنما أنا بشر**» فلم يجعل نفسه إنه من المحبين، فجهلوا طبيعته، وتخيلت عائشة أنه معها لما رأته يمشي في حبها ويؤثرها، ولم تعلم أن ذلك عن أمر محبوبه إياه بذلك وقيل: إن محمداً يحب عائشة والحسن والحسين.

وترك الخطبة يوم الجمعة ونزل إليهما لما رآهما يعثران في أذيالهما وهذا كله من باب الغيرة على المحبوب أن تنتهك حرمته، وهذا ينبغي أن يكون للجناب الأقدس.

وكان ﷺ من أضحك الناس وأطيبهم نفساً. رواه الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه: ولا ينافيه أنه ﷺ كان لا يضحك إلا تبسماً، لأن التبسم كان أغلب أحواله، فمن أخبر به أخبر عن أكثر أحواله، ولم يعرج على ذلك لندوره أو كُل راوٍ روى بحسب ما شاهد، فالاختلاف اختلاف المواطن والأزمان وقد يكون في ابتداء أمره كان يضحك حتى تبدو نواجذه، وكان آخراً لا يضحك إلا تبسماً، ومع ذلك كان لا يركن إلى الدنيا ولا يشغله شاغل عن ربه. بل كان استغراقه في حب الله تعالى بحيث يخاف في بعض الأحيان أن يسري إلى قلبه فيحرقه، وإلى قالبه فيهدمه، فلذلك كان يضرب يده على فخذ عائشة أحياناً ويقول: «**كلميني**»[(١)] ليشتغل بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه، وكان طبعه ﷺ الأنس بالله وكان أنسه بالخلق عارضاً رفقاً ببدنه ﷺ. ذكره كله الغزالي.

وكان ﷺ لا يحدث حديثاً إلا تبسم. رواه الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه. تبسم: أي ضحك قليلاً بلا صوت. قال في «المصباح»: التبسم: الضحك من غير صوت، قال في «الكشاف»: وكذلك ضحك الأنبياء عليهم الصلاة لم يكن إلا تبسماً.

---

(١) رواه الفتني في تذكرة الموضوعات (٩٦).

وكان ﷺ لا ينبعث في الضحك. رواه الطبراني عن جابر بن سمرة رضي الله عنه. قوله: لا ينبعث أي لا يسترسل ﷺ في الضحك بل إن وقع منه ضحك على ندور، رجع إلى الوقار فإنه كان متواصل الأحزان لا ينفك الحزن عنه أبداً، ولهذا روى البخاري: أنه ﷺ ما رُؤي مستجمعاً ضاحكاً قط.

وكان ﷺ من أفكه الناس. رواه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه. قوله: من أفكه الناس، أي من أمزحهم إذا خلا بنحو أهله، والفكاهة: المزاح.

وفي حديث عائشة أنها لطخت وجه سودة بحريرة، ولطخت سودة وجه عائشة فجعل يضحك ﷺ. رواه الزبير بن بكار في كتاب «المفاكهة» وأبو يعلى بإسناد جيد. كما قال الحافظ العراقي.

وكان ﷺ لا يأخذ بالقَرَف، ولا يقبل قول أحد على أحد. رواه أبو نعيم في «الحلية» عن أنس رضي الله عنه. القرف، بفتح القاف وسكون الراء: التهمة، ولا يقبل قول أحد على أحد وقوفاً مع العدل، لأن ما يترتب عليه موقوف على ثبوته عنده بطريق معتبر.

وكان ﷺ لا يأكل متكئاً، ولا يطأ عقبه رجلان. رواه الإمام أحمد عن ابن عمرو رضي الله عنهما: لا يأكل متكئاً، أي مائلاً إلى أحد شقيه معتمداً عليه وحده وحكمة كراهة الأكل متكئاً، أنه فعل المتكبرين، ولا يطأ عقبه رجلان، أي ولا أكثر كما يفعل الملوك يتبعهم الناس كالخدم.

قال الزين العراقي وروى ابن الضحاك في الشامل عن أنس: كان ﷺ إذا قعد على الطعام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى كما يفعل العبد.

وروى أبو الشيخ بسند جيد عن أُبيّ أن النبي ﷺ كان يجثو على ركبتيه وكان لا يتكئ.

وكان ﷺ لا يتطيَّر، ولكن يتفاءل. رواه الحكيم الترمذي والبغوي عن بريدة رضي الله عنه. قوله: لا يتطير أي لا يسيءُ الظن بالله تعالى، ولا يهرب من قضائه وقدره، ولا يرى الأسباب مؤثرة في حصول المكروه، كما كانت العرب تعتقده، ولكن كان ﷺ يتفاءل أي إذا سمع كلاماً حسناً يتيمن به تحسيناً لظنه بربه.

قال في «المصباح»: الفأل بسكون الهمزة وتخفف: أن يسمع كلاماً حسناً فيتيمن به، وإن كان قبيحاً فهو الطيرة. وجعل أبو زيد الفأل في سماع الكلامين. قال القرطبي: وإنما كان يعجبه ﷺ الفأل لأنه تنشرح له النفس، ويحسن الظن بالله تعالى، وإنما كان يكره الطيرة لأنها من أعمال أهل الشرك وتجلب سوء الظن بالله تعالى.

وكان ﷺ لا يدَّخر شيئاً لغد. رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه. لا يدخر شيئاً أي لا يجعل شيئاً ذخيره لسماحة نفسه وفيض كفه ومزيد ثقته بربه.

وهذا لا ينافي أنه ادخر قوت سنته لعياله، فإنه كان خازناً قاسماً، فلما وقع المال بيده قسم لعياله مثلما قسم لغيرهم، فإن لهم حقاً فيما أفاء الله على المسلمين، وهم لا تطمئن نفوسهم إلا بإحرازه عندهم، فلم يكلفهم ما ليس في وسعهم على أنه وإن ادخر هو وبقية الأنبياء مثل غيرهم، فإن شهواتهم قد ماتت، ونفوسهم قد اطمأنت، والمعذور الذي لأجله منع الادخار وهو الاتكال على ما في الجراب، وعدم التعرض لفيض الوهاب مفقود فيهم، لإشراق قلوبهم بالمعارف النورانية، واشتغال حواسهم بالخدم السبحانية، فهم في شغل عما أحرزوه، قد ارتفعت فكرتهم عن شأن الأرزاق وتعلقت قلوبهم بخالقها فقالوا: حسبنا الله.

وكان ﷺ لا يدفع عنه الناس ولا يضربون. رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما. وذلك لشدة تواضعه وبراءته ﷺ من الكبر والتعاظم الذي هو من شأن الملوك وأتباعهم. كما ورد في خبر رأيت المصطفى ﷺ على ناقته لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك.

وكان ﷺ لا يكل طهوره إلى أحد، ولا صدقته التي يتصدق بها، يكون هو الذي يتولاها.

رواه ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما. لا يكل طهوره، بفتح الطاء: أي ما يتطهر به من الماء إلى أحد من خدمه بل يتولاه بنفسه، لأن غيره قد يتهاون ويتساهل في ماء الطهر، فيحضر له غير طهور.

هكذا قرره بعض الشراح، لكن يظهر أن المراد بذلك الاستعانة في غسل الأعضاء، فإنها مكروهة حيث لا عذر.

أما الاستعانة في الصب: فخلاف الأولى، وفي إحضار الماء لا بأس بها. ولا يكل صدقته إلى أحد لأن غيره قد يقل الصدقة، أو يضعها في غير موضعها اللائق بها، ولأنه أقرب إلى التواضع ومحاسن الأخلاق.

وكان ﷺ لا يكون في المصلين إلا كان أكثرهم صلاة ولا يكون في الذاكرين إلا كان أكثرهم ذكراً.

رواه أبو نعيم في «أماليه»، والخطيب، وابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه. كيف وهو أعلم الناس بالله، ولهذا قام في الصلاة حتى تورمت أقدامه، فقيل له: التكلف هذا وقد

غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(١).

وأخرج الترمذي وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: صليت ليلة مع رسول الله ﷺ فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوء فقيل: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأدعه.

وكان ﷺ لا يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه. رواه الإمام أحمد والبخاري في «الأدب» وأبو داود والنسائي عن أنس رضي الله عنه. يعني لا يشافه أحداً بشيء يكرهه لأن مواجهته ربما تفضي إلى الكفر لأن من يكره أمره يأبى امتثاله عناداً أو رغبة عنه يكفر، وفيه مخافة نزول العذاب والبلاء، إذا وقع يعم. ففي ترك المواجهة مصلحة.

وقد كان ﷺ واسع الصدر جداً غزير الحياء. ومن هذا الحديث أخذ بعض أكابر السلف أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن ينصح أخاً له أن يكتبه في لوح ويناوله له كما في شعب الإيمان.

وفي الإحياء: أنه ﷺ كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد لشدة ما يعتريه من الحياء، فينبغي للرجل أن لا يذكر لصاحبه ما يثقل عليه ويمسك عن ذكر أهله وأقاربه ولا يسمعه قدح غيره فيه وكثير يتقرب لصاحبه بذلك، وهو خطأ ينشأ عنه مفاسد ولو فرض فيه مصالح، فلا توازي مفاسده ودرؤها أولى. نعم، ينبه بلطف على ما يقال فيه أو يراد به ليحذر.

وسبب هذا الحديث أن رجلاً دخل على النبي ﷺ وبه أثر صفرة، فلما خرج قال: «لو أمرتم هذا أن يغسل هذا عنه»(٢).

وكان ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم. رواه الطبراني عن سهل بن حنيف رضي الله عنه. ويزورهم تلطفاً وإيناساً بهم، ويعود مرضاهم، ويدنو من المريض، ويجلس عند رأسه، ويسأله كيف حاله، ويشهد جنائزهم، أي يحضرها للصلاة عليها، لشريف كانت، أو وضيع، فيتأكد لأمته ﷺ التأسي به. وآثر قوم العزلة، ففاتهم بها خيرات كثيرة وإن حصل لهم بها خير كثير.

وكان ﷺ يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم ويدعو لهم. رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها. يبرك عليهم: أي يدعو لهم بالبركة ويقرأ عليهم الدعاء بالبركة. ذكره القاضي عياض، وقيل: يقول: «بارك الله عليكم» ويحنكهم بنحو تمر من تمر المدينة المشهود له بالبركة ومزيد الفضل، ويدعو لهم بالإمداد والإسعاد والهداية إلى طريق الرشاد.

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٤١٢). والنسائي في السنن (٣: ٢١٩). وابن ماجه في السنن (١٤١٩).

(٢) رواه أبو داود في السنن (٤١٨٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٣٨).

وكان ﷺ **يأخذ المسك فيمسح به رأسه ولحيته**. رواه أبو يعلى عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه. قال حجة الإسلام: الجاهل يظن أن ذلك وما ورد في الحديث من نحو قوله ﷺ كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها، ومن حب التزين للناس، قياساً على أخلاق غيره ﷺ وتشبيهاً للملائكة بالحدادين، وهيهات فقد كان ﷺ مأموراً بالدعوة، وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم وتحسين صورته في أعينهم، وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الحق.

وكان ﷺ **يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة**. رواه الإمام أحمد والطبراني عن سلمان وابن سعد عن عائشة وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنهم. لما في الهدية من الإكرام والإعظام ولما في الصدقة من معنى الذل والترحم. ولهذا كان من خصائصه ﷺ تحريم صدقة الفرض والنفل عليه معاً.

وكان ﷺ **يقبل الهدية ويثيب عليها**. رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها. كان يقبل الهدية، أي إلا لعذر كما رد على الصعب بن جثامة الحمار الوحشي، وقال: «إنا لم نرده عليك إلا إنا حُرُم»[1]، وذلك فراراً من التباغض والتقاطع وجلباً للتحابب والتواصل، ويثيب عليها أي يجازي بالخير بأن يعطي بدلها، فيسن التأسي به ﷺ في ذلك لكن يحمل ندب القبول، حيث لا شبهة قوية فيها، وحيث لم يظن المهدي أهداه حياء، أو في مقابل، وإلا لم يجز القبول مطلقاً في الأول وإلا إذا أثابه بقدر ما في ظنه بالقرائن في الثاني.

وأخذ بعض المالكية بظاهر الخبر فأوجب الثواب عند الإطلاق إذا كان ممن يطلب مثله الثواب.

وإنما قبلها ﷺ دون الصدقة، لأن المراد بها ثواب الدنيا وبإثابته عليها تزول المنة والقصد بالصدقة ثواب الآخرة، فهي من أوساخ الناس وظاهر الإطلاق أنه ﷺ كان يقبل الهدية من المؤمن والكافر، وفي السير: أنه قبل هدية المقوقس وغيره من الملوك.

وكان ﷺ **يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم**. رواه أبو داود والحاكم عن جابر رضي الله عنه. يردف: نحو العاجز على ظهر الدابة ويدعو لهم بالإعانة ونحوها، ونبه به على أدب أمير الجيش وهو الرفق في السير، بحيث يقدر عليه أضعفهم ويحفظ به قواه أقواهم، وأن يتفقد خيلهم وحمولهم ويرعى أحوالهم ويعين عاجزهم، ويحمل

(١) رواه مالك في الموطأ (٣٥٣). ومسلم في الصحيح (٨٥٠). وأحمد في المسند (٤ : ٧١).

ضعيفهم، ومنقطعهم، ويسعفهم بماله وحاله وقاله ودعائه ومدده وإمداده.

وكان ﷺ يردف خلفه ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة الملوك، ويركب الحمار.

رواه الحاكم عن أنس رضي الله عنه. كان ﷺ يردف خلفه من شاء من أهل بيته أو أصحابه تواضعاً منه وخيراً لهم وربما أردف خلفه وأركب أمامه فكانوا ثلاثة على دابة.

وأردف الرجال وأردف بعض نسائه، وأردف أسامة من عرفة إلى مزدلفة، والفضل بن العباس من مزدلفة إلى مِنًى كما في البخاري، وفيه جواز الإرداف لكن إذا أطاقته الدابة. ويضع طعامه على الأرض عند الأكل فلا يرفعه على خوان، كما يفعله الملوك والعظماء، ويجيب دعوة المملوك ـ يعني المأذون له من سيده في الوليمة، أو المراد العتيق ـ ويركب الحمار هذا على طريق إرشاد العباد وبيان أن ركوب الحمار ممن له منصب لا يخل بمروءته ولا برفعته.

وكان ﷺ يركب الحمار عرياً ليس عليه شيء. رواه ابن سعد عن حمزة بن عبد الله بن عتبة مرسلاً: قوله ليس عليه شيء مما يشد على ظهره من نحو أكاف وبردعة تواضعاً وهضماً لنفسه وتعليماً وإرشاداً. قال ابن القيم: لكن أكثر مراكبه ﷺ الخيل والإبل.

وكان ﷺ يركب الحمار، ويخصف النعل، ويرفع القميص، ويلبس الصوف، ويقول: «من رغب عن سنتي فليس مني»[1]. رواه ابن عساكر عن أبي أيوب رضي الله عنه. قوله: فليس مني، أي من العاملين بطريقتي السالكين منهجي، وهذه سنة الأنبياء قبله ﷺ.

روى الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود كانت الأنبياء يستحبون أن يلبسوا الصوف، ويحلبوا الغنم، ويركبوا الحمير، وقال عيسى عليه السلام: بحق أقول لكم، إن من طلب الفردوس فخبز الشعير له، والنوم على المزابل مع الكلاب كثير. وفيه ندب خدمة المرء نفسه وأنه لا دناءة في ذلك.

وكان ﷺ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير. رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده حسن. قوله: يجلس على الأرض أي من غير حائل. ويأكل على الأرض، أي من غير مائدة، ولا خوان إشارة إلى طلب التساهل في أمر الظاهر، وصرف الهمم إلى عمارة الباطن، وتطهير القلوب، وتأسى

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٧: ٢). ومسلم في الصحيح (النكاح: ٥). وأحمد في المسند (٢: ١٥٨). والدارمي في السنن (٢: ٣٣).

به ﷺ أكابر صحبه رضي الله عنهم، فكانوا يصلون على الأرض في المساجد ويمشون حفاة في الطرقات، ولا يجعلون غالباً بينهم وبين التراب حاجزاً في مضاجعهم.

قال الغزالي: «وقد انتهت النوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة، ويقولون: هي مبنى الدين، فأكثر أوقاتهم في تزيين الظاهر كفعل الماشطة بعروسها، والباطن خراب. ولا يستنكرون ذلك، ولو مشى أحد على الأرض حافياً أو صلى عليها بغير سجادة مفروشة، أقاموا عليه القيامة وشددوا عليه النكير، ولقبوه بالقذر وأخرجوه من زمرتهم، واستنكفوا عن مخالطته، فقد صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً».

وكان يعتقل الشاة ﷺ أي يجعل رجله بين قوائمها ليحلبها إرشاداً إلى التواضع وترك الترفع، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير.

زاد في رواية: والأهالة السنخة، أي الدهن المتغيّر الريح، فكان لا يمنعه ذلك من إجابته وإن كان حقيراً، وهذا من كمال تواضعه ﷺ ومزيد براءته من سائر صنوف الكبر وأنواع الترفع.

وكان ﷺ يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه. رواه الشيخان وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها. قوله لو عده العاد لأحصاه أي لو أراد المستمع عدَّ كلماته أو حروفه لأمكنه ذلك بسهولة، ومنه أخذ أن على المدرس أن لا يسرد في درسه الكلام سرداً، بل يرتّله ويرتبه ويتمهل ليتفكر فيه هو وسامعه، وإذا فرغ من مسألة أو فصل سكت قليلاً ليتكلم من في نفسه شيء.

وكان ﷺ يخيط ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم. رواه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها. كان ﷺ **يعمل ما يعمل الرجال من الاشتغال بمهنة الأهل والنفس،** إرشاداً للتواضع وترك التكبر وهو مشرف بالوحي والنبوة، ومكرم بالمعجزات والرسالة وفيه أن الإمام الأعظم يتولى أموره بنفسه وإنه من دأب الصالحين.

وكان ﷺ يفلي ثوبه ويحلب شاته، ويخدم نفسه. رواه أبو نعيم في الحلية عن عائشة رضي الله عنها. ويجب حمله على الأحيان فقد ثبت أنه كان له ﷺ خدم، فتارة يخدم بنفسه، وتارة بغيره، وتارة بالمشاركة، وفيه ندب خدمة الإنسان نفسه، وأن ذلك لا يخل بمنصبه وإن جل.

وكان ﷺ يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم. رواه النسائي عن أنس رضي الله عنه. فيه رد على منع الحسن التسليم على الصبيان، ويمسح رؤوسهم أي كان له

اعتناء يفعل ذلك معهم أكثر منه مع غيرهم، وإلا فقد كان يفعل ذلك مع غيرهم أيضاً وكان يتعهد أصحابه جميعاً ويزورهم.

قال ابن حجر: هذا مشعر بوقوع ذلك منه ﷺ غير مرة، أي فالاستدلال به على مشروعية السلام على الصبيان أولى من استدلال البعض بحديث: مر ﷺ على صبيان فسلم عليهم فإنها واقعة حال. قال ابن بطال: وفي السلام على الصبيان تدريبهم على آداب الشريعة.

وفيه أيضاً طرح الأكابر رداء الكبر وسلوك التواضع ولين الجانب. نعم لا يشرع السلام على الصبي الوضيء سيما إن راهق.

وكان ﷺ يمر بالصبيان فيسلم عليهم. رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه.. **وكان ﷺ يمر بنساء فيسلم عليهن.**

رواه الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه. قوله: فيسلم عليهن، حتى الشواب وذوات الهيئة، لأنه ﷺ كالمحرم لهن، ولا يسوغ ذلك لغير المعصوم فيكره من أجنبي على شابة ابتداء ورداً إن أمنت الفتنة والإحرام.

وكان ﷺ يُصغي للهرة الإناء فتشرب ثم يتوضأ بفضلها. رواه الطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الحلية» عن عائشة رضي الله عنها. يصغي الإناء، يميله للهرة لتشرب منه بسهولة، وفيه طهارة الهرة، وسؤرها. وبه قال عامة العلماء. إلا أن أبا حنيفة كره الوضوء بفضل سؤرها، وخالفه أصحابه وفيه صحة بيعها وحل اقتنائها مع ما يقع منها من تلويث، وإفساد. وإنه ينبغي للعالم فعل الأمر المباح إذا تقرر عند بعض الناس كراهته ليبين جوازه. وندب سقي الماء والإحسان إلى خلق الله وفي كل كبد حرى أجر.

وكان ﷺ يصلي والحسن والحسين يلعبان ويقعدان على ظهره. رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود رضي الله عنه:. وهذا من كمال شفقته ورأفته بالذرية ﷺ قيل: الصلاة محل إخلاص وخشوع وهو ﷺ أشد الناس محافظة عليها. وقد قال سبحانه: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٤] ولعبهما حالة مشغلة، فالجواب: أنه ﷺ إنما فعله تشريعاً وبياناً للجواز.

وكان ﷺ يعرف بريح الطيب إذا أقبل. رواه ابن سعد عن إبراهيم مرسلاً: وكانت رائحة الطيب صفته ﷺ وإن لم يمس طيباً وكان إذا سلك طريقاً عرف طيب عرفه فيه.

وكان ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على شر القوم يتألفه بذلك. رواه الطبراني عن عمرو بن العاص رضي الله عنه. قوله: يتألفه وفي نسخ يتألفهم بذلك أي يؤانسهم بذلك الإقبال ويستعطفهم بتلك المواجهة لتأليفهم، ولتزيد رغبتهم في الإسلام، ولا يخالفه ما ورد من

استواء صحبه في الإقبال عليهم لأن ذاك حيث لا ضرورة. وهذا لضرورة التألف.

وكان ﷺ **يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه**. رواه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن المغيرة رضي الله عنه. يقوم من الليل أي يصلي حتى تنفطر. وفي رواية حتى تتورم قدماه، ومعنى تنفطر تتشقق.

زاد الترمذي فقيل له: لِمَ تصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟. قال: **«أفلا أكون عبداً شكوراً؟»**[1] أي إذا أكرمني مولاي بغفرانه أفلا أكون شكوراً لإحسانه. وكيف لا أشكره وقد أنعم علي وخصني بخير الدارين.

وكان ﷺ **يكثر الذكر ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، وكان لا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة، والمسكين، والعبد حتى يقضي له حاجته**. رواه النسائي والحاكم عن ابن أبي أوفى والحاكم عن أبي سعيد رضي الله عنهما. روى البخاري: إن كانت الأمة لتأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت وحبت فتنطلق به في حاجتها. وروى مسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه: أنه جاءت امرأة إليه ﷺ فقالت: «إنَّ لي إليك حاجة». فقال: **«اجلسي في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضي حاجتك»**[2]. وفيه بروزه ﷺ للناس وقربه منهم ليصل ذو الحق لحقه، ويسترشد بأقواله وأفعاله وصبره على تحمل المشاق لأجل غيره وغير ذلك.

وكان ﷺ يلاعب زينب بنت زوجته أم سلمة، ويقول لها: «يا زينب يا زوينب». رواه الضياء عن أنس رضي الله عنه. إن الله سبحانه قد طهر قلبه ﷺ من الكبر والفحش بشق الملائكة صدره الشريف مرات عند تنقله في الأطوار المختلفة، وإخراج ما فيه مما جبل عليه النوع الإنساني وغسله وامتلائه من الحكم والعلوم.

وكان ﷺ آخر كلامه **«الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»**[3]. رواه أبو داود وابن ماجه عن علي رضي الله عنه. قوله: الصلاة الصلاة أي احفظوها بالمواظبة عليها، واحذروا تضيعها وخافوا ما يترتب عليه من العذاب، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم بحسن الملكة والقيام بما عليكم. وقرن ﷺ الوصية بالصلاة، بالوصية بالمملوك إشارة إلى وجوب

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٤١٢). والنسائي في السنن (٣: ٢١٩). وابن ماجه في السنن (١٤١٩).

(٢) رواه [٣ ٢١٤ والبغوي في شرح السنة (٧: ١٣٠). بما معناه.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٨: ١١). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦: ٣٢٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٧٩٥٦). وأبو داود في السنن كتاب الأدب باب ١٣٤. وأحمد في المسند (٦: ٢٩٠).

رعاية حقه على سيده كوجوب الصلاة. قالوا: وهذا من جوامع الكلم لشمول الوصية بالصلاة لكل مأمور ومنهي إذ هي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وشمول ما ملكت أيمانكم لكل ما يتصرف فيه.

وكان ﷺ آخر ما تكلم به أن قال: «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان بأرض العرب»[1]. رواه البيهقي عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه. قوله: آخر ما تكلم به، أي من الذي كان يوصي به أهله وأصحابه وولاة الأمور من بعده فلا يعارضه الحديث الآتي آخر ما تكلم به جلال ربي الرفيع.

وقوله: اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قال البيضاوي: لما كانوا يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيماً لها. نهى أمته عن مثل فعلهم.

أما من اتخذ مسجداً بجوار صالح أو صلى في مقبرته استظهاراً بروحه أو وصول أثر من عبادته إليه لا لتعظيمه فلا حرج. ألا ترى إن قبر إسماعيل بالحطيم وذلك المحل أفضل للصلاة فيه. والنهي عن الصلاة بالمقبرة مختص بالمنبوشة، وقوله: بأرض العرب.

وفي رواية: بجزيرة العرب، وهي مبينة للمراد بالأرض هنا، إذ لا يستقيم بأرض دينان على التظاهر والتعاون لما بينهما من التضاد والتخالف، وقد أخذ الأئمة بهذا الحديث، فقالوا: يخرج من جزيرة العرب من دان بغير ديننا ولا يمنع من التردد إليها في السفر، فقط قاله الشافعي ومالك، لكن الشافعي خص المنع بالحجاز وهو مكة والمدينة واليمامة وأعمالها دون اليمن من أرض العرب.

وكان ﷺ آخر ما تكلم به جلال ربي الرفيع: «فقد بلغت» ثم قضى ﷺ. رواه الحاكم عن أنس رضي الله عنه. ولا ينافيه ما سبق: كان آخر كلامه الصلاة إلى آخره، لأن ذلك آخر قضاياه وذا آخر ما نطق به.

قال السهيلي: وجه اختياره هذه الكلمة من الحكمة أنها تتضمن التوحيد والذكر بالقلب حتى يستفاد منه الرخصة لغيره في النطق، وأنه لا يشترط الذكر باللسان. وأصل هذا الحديث في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يقول، وهو صحيح: «إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة».

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٤: ٨٠). والبخاري في الصحيح (١: ١١٩). وأبو داود في السنن (٣٢٢٧). وأحمد في المسند (٢: ٣٩٦).

ثم يخيَّر، فلما نزل به ما نزل ورأسه في حجري غشي عليه، ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى»[١]، فعلمت أنه لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به، والذي دعاه إلى ذلك رغبته في لقاء محبوبه، فلما عين للّقاء محلاً خاصاً ولا ينال إلا بالخروج من هذه الدار التي تنافي ذلك اللقاء اختار الرفيق الأعلى.

وذكر السهيلي عن الواقدي: أن أول كلمة تكلم بها المصطفى ﷺ لما ولد جلال ربي الرفيع، لكن روى عائذ أن أول ما تكلم به لما ولدته أمه حين خروجه من بطنها: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً».

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[لست من دَدٍ ولا الدد مني]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «لست من دَدٍ ولا الدد مني»[٢] رواه البخاري في الأدب والبيهقي عن أنس والطبراني عن معاوية رضي الله عنهما.

وروى ابن عساكر عن أنس أيضاً قوله ﷺ: «لست من دد ولا دد مني، ولست من الباطل ولا الباطل مني»[٣] أي لست من اللهو واللعب ولا هما مني، ولا يناقضه أنه ﷺ كان يمزح لأنه كان لا يقول في مزاحه إلا حقاً واستدل به من ذهب إلى تحريم الغناء كالقرطبي لأن النبي ﷺ تبرأ منه، وما تبرأ منه حرام، وليس بسديد. إذ ليس كل لهو ولعب محرماً، بدليل لعب الحبشة بمسجد المصطفى بمشهده ﷺ.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[لقد أوذيت]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأُخفت في الله وما يخاف

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٦: ١٨). ومسلم في الصحيح (١٨٩٤). وأحمد في المسند (٦: ٨٩). والقرطبي في التفسير (٥: ٢٧١). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤: ١٥٨). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٢١٠). والبغوي في شرح السنة (١٤: ٤٦). ومالك في الموطأ (٢٣٩). وابن حجر في فتح الباري (٨: ١٥٠). وابن كثير في التفسير (٥: ٢٤٠). والسيوطي في دلائل النبوة (٧: ٢٠٨). وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٢٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩: ٣٤٤). والبيهقي في السنن الكبرى (١٠: ٢١٧).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩: ٣٤٤). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٧: ٢٦٩٨).

أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»[١].

رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان عن أنس رضي الله عنه. وروواه أبو نعيم في الحلية عن أنس بلفظ: «ما أوذي أحد ما أوذيت في الله»[٢]. وروواه عبد بن حميد وابن عساكر عن جابر بلفظ: «ما أوذي أحد ما أوذيت»[٣].

قال ابن القيم: قوله ﷺ في كثير من الأحاديث: «في الله» يحتمل معنين:

أحدهما: أنَّ ذلك في مرضاة الله وطاعته وهذا في ما يصيبه باختياره.

والثاني: أنّه بسببه تعالى ومن جهته حصل ذلك، وهذا في ما يصيبه بغير اختياره ﷺ:

وقد نال المصطفى ﷺ من الأذى ما لا يحصى، فمن ذلك ما في البخاري: أنه ﷺ كان يصلي في الحِجْر إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً بالغاً وأخذ بعضهم بمجامع ردائه حتى قام أبو بكر دونه، وهو يبكي ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

وقام إليه مرة عقبة وهو ﷺ يصلي عند المقام فجعل رداءه في عنقه ثم جذبه حتى سقط لركبتيه وتصايح الناس وأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبعيه.

وفي مسند أبي يعلى والبزار بسند صحيح لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] فنهوا عنه.

وفي البزار أن علياً رضي الله عنه خطب فقال: «من أشجع الناس؟» قالوا: «أنت». قال: «أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكنه أبو بكر، لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش، فهذا يجاذبه، وهذا يكبكبه، ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر».

ووضعوا سلا الجزور على ظهره ﷺ وهو ساجد وغير ذلك مما يطول ذكره، فليراجعه من السير من أراده.

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن (١٥١). وأحمد في المسند (٣: ١٢٠). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٨٨).

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٥٨١٨).

(٣) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٦١). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٧: ٢٦١٣).

وقوله ﷺ: «ولقد أتت عليّ ثلاثون» إلى آخره. قال ابن حجر: كان ﷺ يختار ذلك مع إمكان حصول التوسع والتبسط في الدنيا. كما في خبر الترمذي إنه عرض عليه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً فأبى. وقال المناوي رحمه الله تعالى في شرح قوله ﷺ: «ما أوذي أحد ما أوذيت في الله». أي في مرضاته، أو من جهته وبسببه، حيث دعوت الناس إلى إقرارهم بالعبادة، ونهيتهم عن إثبات الشريك وذلك من أعظم اللطف به وكمال العناية الربانية فيه، ليتضاعف له ﷺ الترقي في نهايات المقامات.

قال ابن عطاء الله: إنما جرى الأذى على أصفيائه تعالى لئلا يكون لأحد منهم ركون إلى الخلق، غيرة منه عليهم، وليزعجهم عن كل شيء حتى لا يشغلهم عنه شيء. قال ابن حجر: هذا الحديث قد استشكل بما جاء في صفات ما أوذي به بعض الصحابة من التعذيب الشديد، وهو محمول لو ثبت على معنى حديث أنس المار «لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد».

وروى ابن اسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما: والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرب حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله، فيقول: نعم أحد أحد.

وروى ابن ماجه وابن حبان عن ابن مسعود أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وعمر، وعمار، وأمه سمية وصهيب وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب. وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه. وأما سائرهم: فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وأوثقوهم في الشمس اهـ.

وأجيب بأن جميع ما أوذي به أصحابه ﷺ كان يتأذى هو به لكونه بسببه.

واستشكل أيضاً بما أوذي به الأنبياء من القتل كما في قصة زكريا وولده يحيى عليهما السلام.

وأجيب بأن المراد هنا غير إزهاق الروح، وقال بعضهم: البلاء تابع لكثرة الأتباع وهو ﷺ أكثر الأنبياء أتباعاً، وغيره من الأنبياء، وإن ابتلي بأنواع من البلاء، لكن ما أوذي به ﷺ أكثر، لأنه كما أكمل الله له الدين، أكمل له الابتلاء، لإرساله إلى الكافة، لكن لما كان مقامه في العلو يسمو على مقام لغيره لم يظهر على ذاته كبير أمر. فمعنى قوله ﷺ: «ما أوذي» الخ. أن دعوته ﷺ عامة فاجتمع عليه الاهتمام ببلاء جميع أمته فكمل له مقام الابتلاء كما كمل له الدين، فكل بلاء تفرق في الأمم اجتمع له وابتلى به ﷺ. وقال الخواص: كان

المصطفى ﷺ كلما سمع بما جرى لنبي من الأنبياء من الأذى والبلاء يتصف به ويجد في نفسه كل ما وجده ذلك النبي اهـ.

وقال المناوي: في شرح قوله ﷺ: «ما أوذي أحد ما أوذيت» فقد آذاه قومه أذىً لا يحتمل ولا يطاق حتى رموه بالحجارة إلى أن أدموا رجليه، فسال منهما الدم حتى بل نعليه، ونسبوه إلى السحر والكهانة والجنون إلى غير ذلك مما هو مشهور مسطور، وكفى ما وقع له ﷺ في قصة الطائف من الإيذاء. وأخذ الصوفية من هذا أنه يتعين تحمل الأذى من جان أو غيره.

قالوا: وأما أرباب الأحوال فمعدودون من الضعفاء، ملامون على تأثيرهم بالحال في الجار، وغيره إذا آذاهم، فالأقوياء الكاملون لا يفعلون ذلك، ولا يلتفتون لقول العامة، ليس عندنا شيخ إلا من يؤثر في الناس بحاله، ويعطب من سرق متاعه، أو ستر ضريحه بعد موته، وغاب عنهم أن القوي، بشهادة حال الشارع، وقوله: هو من يتحمل الأذى ولا يقابل عليه. وإن فحش فالكامل عند القوم هو الذي يحمل الأذى ويضربونه ويحقرونه ولا يتأثر.

قال شيخنا الشعراوي: ووقع لصاحبنا أحمد الكعكي أن جيرانه آذوه فتوجه فيهم فصار بيتهم كله دوداً وما فيه من ماء وطعام، يغلي دوداً فرحلوا فقلت له: «الفقراء تتحمل» فقال: ذلك خاص بالأبدال منكم. وأما نحن فمذهبنا عدم الاحتمال لئلا يتمادى الناس في إيذاء بعضهم بعضاً.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[لو نزل موسى]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم»(١) رواه البيهقي عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه.

قوله: لضللتم، أي لعدلتم عن الاستقامة، لأن شرعي ناسخ لشرعه، وسبب هذا الحديث كما قال راويه عبد الله بن الحارث الزبيدي الصحابي، أن عمر رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال: «هذه كنت أصبتها مع رجل من أهل الكتاب». فقال ﷺ: «فاعرضها علي» فعرضها، فتغير وجهه تغيراً شديداً ثم ذكر الحديث.

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور (٥: ١٤٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٩٢٧).

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[ما بين بيتي ومنبري]

ما ذكر عند قوله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[(١)] رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائي عن عبد الله بن زيد المازني والترمذي عن علي وأبي هريرة رضي الله عنه.

ما بين بيتي: يعني قبري، لأن قبره ﷺ في بيته. وقوله: روضة، أي كروضة من رياض الجنة في تنزل الرحمة وإيصال التعبد فيها إليها، أو منقولة منها كالحجر الأسود أو تنقل إليها كالجذع الذي حنَّ إليه ﷺ. فهو تشبيه بليغ أو مجاز أو حقيقة.

وأصل الروضة أرض ذات مياه وأشجار وأزهار وقيل: بستان في غاية النضارة وما بين منبره ﷺ وبيته الذي هو قبره الآن نحو ثلاثة وخمسين ذراعاً. وتمسك به من فضل المدينة على مكة لكون تلك البقعة من الجنة وفي الخبر: «لقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها».

وتعقب بأن الفضل لتلك البقعة خاصة، وادعاء أن ما يقربها أفضل، يلزمه أن الجحفة أفضل من مكة واللازم باطل. وللحديث تتمة لم يذكرها المصنف وهي قوله ﷺ: «ومنبري على حوضي» كذا هو ثابت في رواية مسلم وغيرها. قال السيوطي: الأصح، إن المراد منبره ﷺ الذي كان في الدنيا بعينه. وقيل: هو هناك منبر. وقيل: معناه أن قصد منبره ﷺ، والحضور عنده لعمل صالح يورد صاحبه الحوض ويقتضي شربه منه.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[ما من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن عليه البشر]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[(٢)] رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أي ليس نبي إلا أعطاه الله تعالى من المعجزات شيئاً من صفته، إنه إذا شوهد اضطر

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٢: ٧٧). ومسلم في الصحيح (الحج: ٩٢). والترمذي في السنن (٣٩١٥). والنسائي في السنن (٢: ٥٣). ومالك في الموطأ (١٩٧). وأحمد في المسند (٢: ٢٣٦).

(٢) رواه البغوي في شرح السنة (١٣: ١٩٥). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٣٣٣). وابن كثير في التفسير (١: ٨٩).

المشاهد إلى الإيمان به، فإذا مضى زمنه انقضت تلك المعجزة، وإنما كان الذي أوتيت من المعجزات، أي معظمه، وإلا فمعجزاته ﷺ لا تحصى، وحياً أي قرآناً أوحاه الله إليّ مستمراً على مر الدهور، ينتفع به حالاً ومآلاً. وغيره من الكتب ليست معجزته من جهة النظم والبلاغة، فانقضت بانقضاء أوقاتها. فحصره ﷺ المعجزة في القرآن ليس لنفيها عن غيره، بل لتمييزه عنها بما ذكر وبكونه المعجزة الكبرى الباقية المستمرة المحفوظة عن التغيير والتبديل، التي تقهر المعاند وتفحمه. فكأن المعجزات كلها محصورة فيه ونظير ذلك: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢] أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان ومثل ذلك كثير.

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله علي روحي مجيباً]

ما ذكر عند قوله ﷺ: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام»[(١)]. رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال النووي إسناده صحيح، وقال ابن حجر: رواته ثقات، ومعنى رد الله عليّ روحي يعني رد علي نطقي لأنه ﷺ حي على الدوام، وروحه لا تفارقه أبداً لما صح أن الأنبياء أحياء في قبورهم.

وقوله ﷺ: «حتى أرد عليه السلام»، هذا ظاهر في استمرار حياته، لاستحالة أن يخلو الوجود كله من أحد يسلم عليه ومن خص الرد بوقت الزيارة فعليه البيان والمراد، كما قال ابن الملقن، وغيره بالروح النطق مجازاً وعلاقة المجاز أن الروح من لازمه وجود النطق بالفعل، أو القوة وهو ﷺ في البرزخ مشغول بأحوال الملكوت مستغرق في مشاهدته، مأخوذ عن النطق بسبب ذلك. ولهذا قال ابن حجر: الأحسن أن يؤول الروح بحضور الفكر كما قالوه في خبر: «يغان على قلبي».

ومن جواهر الإمام المناوي أيضاً

[من زار قبري وجبت له شفاعتي]

ما ذكره عند قوله ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»[(٢)] رواه ابن عدي والبيهقي عن

---

(١) رواه أبو داود في السنن كتاب المناسك باب (٩٩). أحمد في المسند (٢: ٥٢٧). والبيهقي في السنن الكبرى (٥: ٢٤٥). والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ١٦٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٢٠٠).

(٢) رواه الدارقطني في السنن (٢: ٢٧٨). والدولابي في الكنى والأسماء (٢: ٦٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (٤: ٢). والسيوطي في الدر المنثور (١: ٢٣٧).

ابن عمر رضي الله عنهما. وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه: «**من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيام**»[١].

معنى «وجبت له شفاعتي»، أي حقت وثبتت ولزمت له شفاعتي، أي سؤالي الله تعالى له أن يتجاوز عنه، قال السبكي: يحتمل كون المراد له بخصوصه، بمعنى أن الزائرين يخصون بشفاعة لا تحصل لغيرهم عموماً ولا خصوصاً، أو المراد يفردون بشفاعة عما يحصل لغيرهم، ويكون إفرادهم بذلك تشريفاً وتنويهاً لهم، أو المراد ببركة الزيارة يجب دخولهم في عموم من تناله الشفاعة. وفائدة البشرى: أن يموت مسلماً.

والحاصل أن فائدة الزيارة إما الموت على الإسلام مطلقاً لكل زائر، وإما شفاعة تخص الزائر أكثر من العامة.

وقوله «شفاعتي» بالإضافة إليه تشريف لها، إذ الملائكة وخواص البشر يشفعون، وللزائر نسبة خاصة، فيشفع ﷺ فيه بنفسه، وفي ثبوت لفظ الزيارة رد على الإمام مالك حيث كره أن يقال: زرنا قبر النبي.

وقوله ﷺ في الحديث الآخر: «من زارني بالمدينة»، أي في حياتي وبعد وفاتي محتسباً، أي ناوياً، بزيارته وجه الله وثوابه «كنت له شهيداً وشفيعاً»، أي شهيداً للمطيع شفيعاً للعاصي، وهذه خصوصية زائدة على شهادته ﷺ على جميع الأمم، وعلى شفاعته العامة.

قال العلماء وزيارة قبره الشريف ﷺ من كمالات الحج، بل زيارته عند الصوفية فرض، وعندهم الهجرة إلى قبره ﷺ ميتاً كهي إليه حياً.

قال الحكيم الترمذي: زيارة قبر المصطفى ﷺ هجرة فحقيق أن لا يخيب زائريه، بل يوجب لهم شفاعة تقيم حرمة زيارتهم، انتهى ما اخترت نقله من أحاديث الجامع الصغير، وكلام الإمام المناوي عليها. ومن أراد الاطلاع على بسط الكلام في فضل زيارة قبره الشريف ﷺ فليراجع كتابي «**شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ**» فإن فيه من بيان فضلها وفضل الاستغاثة به ﷺ، والرد على من أنكر ذلك من المبتدعة ما يشفي ويكفي.

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤: ٤١٦).

ومنهم الإمام الرباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي النقشبندي المتوفى سنة ١٠٣٤ هـ رضي الله عنه

فمن جواهره

[مكتوباته على الترغيب]

قوله في مكتوباته المكتوب الرابع والأربعون إلى المذكور، أي السيد النقيب الشيخ فريد البخاري في مدح خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وبيان أن مصدقيه من خير الأمم، ومكذبيه من شرار بني آدم، وفي الترغيب في متابعة سنته السنية عليه وعلى آله الصلاة والسلام، والتحية: ورد مكتوبكم الشريف في أعز الأزمنة وتشرفت بمطالعته الحمد لله سبحانه، والمنة على ما حصلتم من ميراث الفقر المحمدي عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات، ومحبة الفقراء والارتباط بهم من نتيجة ذلك الفقر، ولم أدر ماذا أكتب في جوابه، سوى أن أحرر فقرات بعبارة عربية مأثورة في فضائل جدكم الأعظم خير العرب والعجم، عليه وعلى آله من الصلوات أتمها، ومن التحيات أكملها، وأجعل هذا المكتوب وسيلة لنجاة أخروية، لا أني أمدح به النبي ﷺ بل أمدح به مقالي:

ما إن مدحت محمداً بمقالتي ... لكن مدحت مقالتي بمحمد

فأقول، وبالله العصمة والتوفيق: إن محمداً رسول الله سيد ولد آدم وأكثر الناس تبعاً يوم القيامة، وأكرم الأولين والآخرين على الله، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع، وأول من يقرع باب الجنة فيفتح الله له، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، تحته آدم فمن دونه، وهو الذي قال ﷺ: «نحن الآخرون، ونحن السابقون يوم القيامة، وإني قائل قولاً غير فخر، وأنا حبيب الله، وأنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم فريقين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيرهم بيتاً، وخيرهم نفساً، وأنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم، إذا يئسوا، ولواء

الكرم والمفاتيح يومئذٍ بيدي، ولواء الحمد يومئذٍ بيدي، وأنا أكرم وُلد آدم على ربي، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهم بيض مكنون، وإذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير فخر»[1]. ولولاه ﷺ لما خلق الله سبحانه الخلق، ولما أظهر الربوبية، وكان نبياً وآدم بين الماء والطين.

من كان هذا مقتداه بأمره ... لم يبق في قيد الذنوب وأسره

فلا جرم يكون مصدقو مثل هذا الرسول النبي الكريم سيد البشر ﷺ خير الأمم ألبتة ويكون قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] نقد وقتهم ووصف حالهم ويكون مكذبوه ﷺ شر بني آدم، ويكون قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] علامة حالهم، فيا سعادة من يشرف بدولة اتباع سنته السنية، ومتابعة شريعته المرضية. واليوم يقبل الأمر اليسير المقرون بتصديق حقيقة دينه ﷺ مكان العمل الكثير، ولا غرو فيه، ألا ترى أن أصحاب الكهف نالوا ما نالوا من الدرجات بواسطة حسنة واحدة وهي الهجرة والفرار عن أعداء الله تعالى بسبب نور اليقين الإيماني وقت استيلاء المعاندين، وهذا، كما أن العسكر إذا صدرت عنهم حركة يسيرة حين غلبة الأعداء واستلاء المخالفين تكون من القبول والاعتبار بمرتبة لا تبلغها أضعاف تلك الحركة وقت الأمن والاطمئنان.

وأيضاً أنه ﷺ لما كان محبوب رب العالمين لاجرم، يبلغ أتباعه ﷺ مرتبة المحبوبية بسبب المتابعة، فإن المحب إذا رأى شيئاً من محبوبه عند شخص يحب ذلك الشخص بالضرورة، لملابسته بشمائل محبوبة وأخلاقه، وقس على ذلك حال المخالفين:

رئيس جميع العالمين محمد ... على رأس أعداه حصا وتراب

وقد ذكر معرب المكتوبات المذكورة الشيخ محمد مراد المنزلاوي على هامشها تخريج الأحاديث التي سردها الشيخ بعبارته، فليراجعها من شاءها وهي مطبوعة في مطبعة مكة المشرفة.

ومن جواهر الإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي أيضاً

[حقيقته المحمدية ﷺ]

قوله في المكتوب الحادي والعشرين بعد المائة إلى مولانا حسن الدهلي:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، اعلم أن الحقيقة

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور (٦: ١١٩). والقرطبي في التفسير (٣: ٢٦٣). وابن كثير في التفسير (٧: ١٢). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٣٢٧).

المحمدية ظهور أول وحقيقة الحقائق، بمعنى أن سائر الحقائق سواء كانت حقائق الأنبياء الكرام، أو حقائق الملائكة العظام عليهم الصلاة والسلام كالظلال لها وأنها أصل جميع الحقائق قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «أول ما خلق الله نوري»[1] وقال ﷺ «خلقت من نور الله، والمؤمنون من نوري».

فبالضرورة تكون تلك الحقيقة بين سائر الحقائق وبين الحق جل وعلا، ويكون وصول أحد إلى المطلوب بلا توسطه صلى الله عليه وآله وسلم محالاً، فهو نبي الأنبياء والمرسلين، وإرساله رحمة للعالمين، ومن هنا يتمنى الأنبياء أولو العزم مع وجود الأصالة فيهم تبعيته، والدخول في عداد أمته كما ورد عنه عليه وعليهم الصلاة والسلام.

فإن قيل: أي كمال مربوط بكون الأنبياء من أمته ﷺ، ولم يتيسر لهم مع وجود دولة النبوة فيهم.

قلت: إن ذلك الكمال هو الوصول إلى حقيقة الحقائق والاتحاد به، وهما منوطان بالتبعية والوراثة، بل موقوفان على كمال فضله تعالى، فإنهما نصيب أخص الخواص من أمته ﷺ، ومن لم يكن من أمته لا يصل إلى هذه الدولة ولا يرتفع في حقه الحجاب فإنه إنما يتيسر بسبب الاتحاد ولعل الله سبحانه قال من هذه الحيثية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠] فهو ﷺ، كما هو أفضل من كل فرد من الأنبياء الكرام والملائكة العظام، كذلك هو ﷺ أفضل من الكل من حيث الكل عليه وعليهم الصلاة والسلام، فإن للأصل فضلاً على ظله وإن كان ذلك الظل متضمناً لألوف من الظلال، فإن وصول الفيوض من المبدأ الفياض سبحانه إلى الظل إنما هو بتوسط الأصل.

قال وقد حقق هذا الفقير في رسائله، إن للنقطة الفوقانية فضلاً على جميع النقط التي تحتها، وهن كالظلال لها وقطع العارف بتلك النقطة الفوقانية التي هي كالأصل أزيد من قطعه لجميع النقط التحتانية التي هي كالظلال لها.

فإن قيل يلزم من هذا البيان فضل خواص هذه الأمة على الأنبياء عليهم السلام.

قلت: لا يلزم ذلك أصلاً وإنما يلزم شركة الخواص من هذه الأمة مع الأنبياء في تلك الدولة، ومع ذلك في الأنبياء كمالات كثيرة، ومزايا عديدة مختصة بهم، وأخص الخواص من هذه الأمة، لو ترقى غاية الترقي لا يصل رأسه إلى قدم أدنى الأنبياء، وأين المجال للمساواة؟ والمزية بعد أن قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١].

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٣١٠). وفيه: «نور نبيك يا جابر».

ثم قال: **فإن قيل**: هل يجوز الترقي من الحقيقة المحمدية، التي هي حقيقة الحقائق، ولا حقيقة فوقها من حقائق الممكنات أو لا؟.

قلت: لا يجوز فإن فوقها مرتبة أللاّتعين، ووصول المتعين إليها ولحوقه بها محال فعلم إن الترقي من حقيقة الحقائق غير واقع، بل غير جائز، فإن رفع القدم منها، ووضعها فيما فوقها، وضع القدم في الوجوب وخروج من الإمكان وذلك محال عقلاً وشرعاً.

فإن قيل: يلزم من هذا التحقيق أن الترقي من تلك الحقيقة غير واقع لخاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام أيضاً.

قلت: إنه ﷺ أيضاً هو مع علو شأنه وجلالة قدره ممكن دائماً لا يخرج من الإمكان قط ولا يلحق بالوجوب أصلاً فإنه مستلزم للتحقق بالألوهية تعالى الله عن أن يكون له ند وشريك.

دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فان فضل رسول الله ليس له   حد فيعرب عنه ناطق بفم

ومنهم الإمام العلامة الشيخ محمد المهدي(١) الفاسي شارح «دلائل الخيرات»

فمن جواهره رضي الله عنه

[شرح الدلائل على اسم خاتم الأنبياء]

قوله في شرح الدلائل: وأما اسمه ﷺ خاتم الأنبياء، أي الذي ختمهم، أي جاء آخرهم، وأختموا به، فهو كالخاتم والطابع.

فلا نبي بعده، بل ولا معه، فلقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ولقوله ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»(٢) أخرجه الشيخان.

وأخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»(٣).

ومن جملة ما كتب في الذكر وهو أم الكتاب إن محمداً خاتم النبيين وغير ذلك من الأحاديث. ومن وجوه المدح به أن فيه دوام شرعه والعمل به لظهور ثبوت رسالته، وفي ذلك من غاية التعظيم له ما لا يخفى ولا ينافي ذلك نزول عيسى عليه السلام بعده، لأنه إذ نزل كان على دينه مع أن المراد إنه آخر من نبّئ. وقال بعضهم: قال أهل البصائر: لما كان فائدة الشرع دعوة الخلق إلى الحق وإرشادهم إلى مصالح المعاش والمعاد، وإعلامهم الأمور التي تعجز عنها عقولهم، وتقرير الحجج القاطعة، وقد تكفلت هذه الشريعة الغراء بجميع هذه الأمور على الوجه الأتم الأكمل، بحيث لا يتصور عليه مزيد كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ

---

(١) هو محمد بن أحمد بن علي بن يوسف بن محمد الفاسي الفهري، أبو عيسى، مؤرّخ ومحدّث، ولد في القصر الكبير في المغرب سنة ١٠٣٣ هـ ـ توفي بفاس سنة ١١٠٩ هـ.

(٢) رواه الترمذي في السنن (٣٧٣٠). وابن ماجه في السنن (١٢١). وأحمد في المسند (١: ١٧٩). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٤٢٤٢).

(٣) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٤٤).

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فلم تبق بعده حاجة للخلق إلى بعث نبي بعده فلذلك ختم به النبوة.

وأما نزول عيسى عليه السلام ومتابعته لشريعته ﷺ، فهو مما يؤكد كونه خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وفي شعب الإيمان للشيخ عبد الجليل القصري رضي الله عنه في هذا الاسم تقول: ختم يختم ختماً، إذا طبع، والختم الطبع، وخاتمة كل شيء آخره بالكسر، وخاتمه بالفتح ما يوضع على الخاتم كالطين الذي يختم به، وتقول ختم زرعه سقاه أول سقية، كأنه سقاه في الأول سقياً يكفيه إلى آخر نهاية، وهذا كله من أوصاف المصطفى ﷺ ومخصوص به دون سائر الخلق. فضله بذلك تفضيلاً على الجميع، فإذا قلت: ختم بمعنى طبع فإن الله طبعه على خلق وطباع وأوصاف ما طبع عليها أحداً لقبول جوهره الشريف ذلك الطبع الذي لم يقدر طبع غيره أن يقبله، وإذا قلت: ختم زرعه سقاه أول سقية، فإن محمداً ﷺ أدرجت فيه في أول القدر السابق جميع النبوات، وأخفي فيه بالقدر من تخصيصات الفضائل ما يظهر ويعلو به أبد الآبدين على كل موجود، وفي القدر السابق حصل لكل أحد ما قسم له.

وإذا قلت: خاتم بالفتح، وهو ما يوضع على الخاتم، أي الطين الذي يختم به فإن نبينا محمداً ﷺ وعاء جعلت فيه النبوة كلها بجميع أجزائها، لأنها أجزاء كثيرة، وغيره أعطي من أجزائها على قدر ما يحتمل ولم يحتمل الجميع إلا محمد ﷺ، فلما أكملت فيه كان الخاتم على الكمال كما يطبع الكتاب ويختم إذا أخفي وطوي على ما فيه. ولم يختم غيره من الأنبياء، لأنه لم تكمل فيه النبوة، وبقي له شيء لم ينله بالارتقاء أبداً، أو لذلك كان الخاتم في ظهره عليه الصلاة والسلام.

ثم قال وجه آخر: وإذا قلنا: خاتم بالكسر في التاء، فإنه الآخر وروح المعنى فيه إنه تمام الشيء وكماله ولو لم يكن لظهر النقص في الشيء المكمل المتمم، فكان عليه السلام هو المتمم المكمل فأعطي روح المعنى بالرتبة والدرجة في التتميم والتكميل وزين الجميع، وكمل الكامل وتمم التام، ولهذا المعنى عده عليه الصلاة والسلام في فضائله التي أعطيها دون الأنبياء، فقال: «وختم بي النبيون، وأنا خاتم النبيين»[1] فساقها في معرض المدح من الله. وللتفضيل وجه آخر في الختم كان الأنبياء قبله في أوقاتهم يبعثون جماعات جماعات إلى أقوام

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢: ٤١٢). والقرطبي في التفسير (١٠: ٤٩). وابن كثير في التفسير (٦: ٤٢٤).

متفرقين في زمان واحد، ويعين بعضهم بعضاً، مع كثرتهم لقي الكل البرحاء من التبليغ ولم ينقذوا من الخلق إلا اليسير. ومنهم من لم ينقذ شيئاً، وخاتم النبيين عليه وعليهم الصلاة والسلام بعث في الآخر غريباً من أبناء جنسه وإخوته، وهم الأنبياء، لم يعنه منهم أحد، فنهض بذاته الفاضلة في ذات الله وشمر عن ساقه، فأدخل في دين الله ما لم يدخله الجميع، ولا قدر عليه أحد فهذا فضل لا يدانيه فضل، انتهى. وإذا كان ﷺ خاتم النبيين فهو خاتم المرسلين لا محالة، لأن الأعم يستلزم الأخص دون العكس.

ومن جواهر الشيخ محمد الفاسي أيضاً رضي الله عنه

[شرح اسمه ﷺ: الداعي]

قوله في شرح اسمه ﷺ الداعي: فيحتمل أنه من دعاه الله ناداه، أو رغب إليه أو عبده من نحو قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي﴾ [الجن:١٩ - ٢٠] الآية. ويحتمل أنه من دعاء الخلق إلى الله ليقبلوا إليه وقد قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤٦] وقال: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١] وقال: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨] وقال: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الحديد:٨] وقال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل:١٢٥]. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إن الله تعالى حين شاء تقدير الخليقة، وذرء البرية، وإبداع المبدعات، نصب الخلق في صور كالهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته وتوحيد جبروته، فأشاح نوراً من نوره فلمع قبس من ضيائه فسطع، ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية، فوافق ذلك صورة نبينا محمد ﷺ، فقال الله عز وجلّ: أنت المختار المنتخب، وعندك مستودع نوري، وكنوز هدايتي، من أجلك أسطح البطحاء، وأمرج الماء، وأرفع السماء، وأجعل الثواب والعقاب، والجنة والنار». ثم أخفى الله الخليقة في غيبه وغيبها في مكنون علمه ثم نصب العوالم، وبسط الزمان، ومرج الماء، وأثار الزبد، وهاج الريح، فطفا عرشه على الماء فسطح الأرض على وجه الماء، ثم استجابها إلى الطاعة فأذعنت بالاستجابة، ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار ابتدعها، وقرن بتوحيده نبوة محمد ﷺ فشهرت في السماء قبل مبعثه في الأرض، فلما خلق الله آدم أبان فضله للملائكة وأراهم ما خصه به من سابق العلم من حيث عرّفه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء، فجعل الله آدم محراباً وكعبة وباباً وقبلة أسجد إليها الأبرار والروحانيين والأنوار، ثم نبّه آدم على مستودعه وكشف له خطر ما ائتمنه عليه بعد أن سماه إماما عند الملائكة فكان حظ آدم من الخير نبياً ومستودعاً نورياً ولم يزل الله يخبأ النور تحت الميزان إلى أن فصل محمد ﷺ ظاهر

العنوان. فدعا الناس ظاهراً وباطناً وندبهم سراً وإعلاناً، واستدعى ﷺ التنبيه على العهد الذي قدمه إلى الذر قبل النسل، فمن وافقه قبس من مشاح النور المتقدم اهتدى إلى سره، واستبان واضح أمره، ومن أبلسته الغفلة استحق السخط.

قال الشيخ أبو محمد عبد الجليل القصري في شعبه: فقد أعلمك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ عقدت له النبوة قبل كل شيء، وإنه دعا الخليقة عند خلق الأرواح وبدء الأنوار إلى الله تعالى كما دعاهم آخراً في خلقه جسده آخر الزمان ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٨١] الآية إلى قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] إلى آخر المعنى، فقد آمن الكل به فهو آدم الأرواح ويعسوبها، كما أن آدم أبو الأجساد، وسببها، ثم قال: انظر قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] والعالمون هم جميع الخليقة، فقد أنذر الخليقة أجمع وآمن الكل به في الأولية والأخروية، وانتقال النور في جميع العالم من صلب إلى صلب، فافهم. انتهى.

وقد تكلم الشيخ تقي الدين السبكي على هذا المعنى وقرره، ثم قال: وبهذا بان لنا معنى حديثين كان خفياً عنا:

أحدهما: قوله ﷺ: «بُعثت إلى الناس كافة»[1]. كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنه جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثاني: قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»[2] كنا نظن أنه بالعلم، فبان لنا إنه زائد على ذلك انتهى.

وقال الشيخ أبو عثمان الفرغاني: فلم يكن داعياً حقيقياً من الابتداء إلى الانتهاء إلا هذه الحقيقة الأحمدية، التي هي أصل جميع الأنبياء، وهم كالأجزاء والتفاصيل لحقيقته فكانت دعوتهم من حيث جزئيتهم عن خلافة من كلهم لبعض أجزائه وكانت دعوته الكل لجميع

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣: ٣٠٤). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٤٣٣). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٥٩). وابن كثير في التفسير (٢: ١١٢). والطبراني في المعجم الكبير (١٢: ٤١٣). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ١٢٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٠٠٤). وابن حجر في فتح الباري (١: ٤٣٩). والسيوطي في الدر المنثور (٥: ٢٣٧).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٩). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٢٩٢). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ٩٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١: ٤٥٣). والسيوطي في الحاوي للفتاوي (٢: ٢٦٠). والبخاري في الصحيح (٧: ٣٧٤). والفتني في تذكرة الموضوعات (٨٦). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٧٢).

أجزائه إلى كليته، والإشارة إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، والأنبياء، والرسل، وجميع أممهم، وجميع المتقدمين، والمتأخرين داخلون في كافة الناس، وكان هو ﷺ داعياً بالأصالة وجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام يدعون الخلق إلى الحق عن تبعيته ﷺ وكانوا خلفاءه ونوابه في الدعوة انتهى وفي البردة:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم

فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم

ومن جواهر الشيخ محمد الفاسي أيضاً

[شرح اسمه ﷺ: مدعو]

في اسمه ﷺ: مدعو هو أشرف مدعو لله تعالى بأشرف دعاء فإنه لم يخاطبه في القرآن إلا بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، تكريماً وتشريفاً، ولم يخاطبه باسمه، وقد شرف الله عز وجل أمته بتشريفه، فنداها بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ونوديت الأمم في كتبها بيا أيها المساكين، وشتان ما بين الخطابين.

ويحتمل أن المراد دعاؤه ﷺ إلى العروج إلى السماء، فإنه أرسل إليه جبريل عليه السلام يدعوه لذلك فأجابه، أو المراد دعاؤه في المعراج حين زج به في النور زجاً فخرق به سبعون ألف حجاب ليس فيها حجاب يشبه حجاباً، وانقطع عنه حس كل ملك، وأنسي كما ذكره ابن سبع في شفائه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فإذا النداء من العلي الأعلى» أدن يا خير البرية، أدن يا أحمد، أدن يا محمد، ليدن الحبيب».

أو المراد دعاؤه إلى لقاء ربه عز وجل، ففي حديث جعفر الصادق عن أبيه عند البيهقي قول جبريل له: إن الله قد اشتاق إلى لقائك.

وذلك عند مجيء ملك الموت إليه ﷺ بالتخيير فقال له ﷺ: «فامضي يا ملك الموت لما أمرت به»[١].

قال البيهقي إن الله تعالى قد اشتاق إلى لقائك معناه قد أراد لقاءك بأن يردك من دنياك إلى معادك زيادة في قربك وكرامتك.

أو المراد دعاؤه إلى الشفاعة من الخلق بطلبهم لها منه ومن الخالق بإذنه له فيها ﴿ مَن ذَا

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٧٨٥). وفيه: «يا ملك الموت امضى».

ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أو خطاب الحق له حينئذٍ بقوله: «**يا محمد ارفع رأسك واشفع**» الحديث.

وفي حديث رواه الطبراني عن حذيفة، وقال ابن مندة حديث مجمع على صحة إسناده وثقة رجاله: أن النبي ﷺ أول مدعو يوم يجمع الناس في صعيد واحد فيحمد الله ويثني عليه. أو المراد دعاؤه إلى الزيارة في الجنة فإنه مدعو في ذلك كله. والله أعلم.

ومن جواهر الشيخ محمد الفاسي أيضاً

[شرح اسمه ﷺ: مُفَضَّل]

في شرح اسمه ﷺ: **مفضل** بفتح الضاد اسم مفعول، فمعناه أن غيره هو الذي فضله وصيره فاضلاً ولا خفاء بأنه الله سبحانه وتعالى. فهو الذي خصه بالفضل وكرمه وشرفه واختاره على العالمين، وخصوصاً الأنبياء والرسل والملائكة عليهم الصلاة والسلام، ولا خلاف في ذلك.

قال الشيخ أبو عبد الله البكي: وأما الملائكة فللإجماع على النقل الصحيح. وأما على الأنبياء والرسل فلوجوه:

الأول: قوله جل وعلا: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] دلت الآية على أن هذه الأمة خير الأمم وخيرية الأمة إنما هي بخيرية نبيها، فيكون ﷺ خير الأنبياء، وهو المطلوب. وأيضاً قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(١).

لا يقال يخرج من العموم آدم، إذ لم تكن له سيادة عليه بهذا الحديث، لأنا نقول ترك ذكر آدم أدباً والمقصود التعميم.

إذاً المقصود من بني آدم هذا الجنس الإنساني، أو نقول ثبت بهذا سيادته على إبراهيم وموسى وعيسى، وليس هو بأقوى سيادة منهم، فهو سيد الجميع وهو المطلوب، وأيضاً الكامل على قسمين: إما أن يكون كاملاً في نفسه فقط غير مكمل لغيره، أو مكملاً لغيره.

والثاني: أفضل ثم ما به تكميل الغير هو العلم أو العمل، وأفضل مراتب العلم العلم بالله، وأفضل الأعمال الطاعة له، فمن كان بهذين أقوى تحصيلاً، وإفادة كان أفضل ولا شك

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٤). والقاضي عياض في كتاب الشفا (١: ٩٠). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ٥٧٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٠٤٠). والخطابي في إصلاح خطأ المحدثين (٢٩). ومناهل الصفا (٤).

أنه ﷺ أقوى في هذين الشيئين، إذ هو ذو الكلمة الجامعة والرسالة المحيطة بدليل ما ظهر في أمته وانتشر فيهم من العلم بالله والعبادات الجامعة لعبادة العالم كله على ما تشير إليه الصلاة والحج وغير ذلك مما لم تكن لغيره ولا في غيرهم.

والحاصل أنه ﷺ مختص بأعلى الكمال والتكميل، وكل من هو مختص بأعلى الكمال والتكميل، فهو أفضل، فهو ﷺ أفضل، وهذا برهان جلي إذ وسطه علة في العلم والوجود معاً، وتحقيق مقدماته ما بسطناه.

وأما المحدث فأدلته ما تقدم من السمع. وأما الصوفي فيقول بما تقدم، ويزيد بأن يقول المفيد من كل الوجوه أعلى من المستفيد من كل الوجوه وهو ﷺ المفيد من كل الوجوه، إذ هو ﷺ من نوره امتدت الأنوار، وقد قال ﷺ: «أول ما خلق الله نوري، ومن نوري خلق كل شيء»[1].

والأنوار على قسمين: طبيعية وروحانية، والروحانية على قسمين: علوم وأخلاق. ولا شك إنه ذو العلم المبثوث منه إلى الخلق، وذو الخلق المبثوث إليهم كذلك ولذلك قال جل وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وإلى هذا الإمداد أشار بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وإليه الإشارة بقوله «أنا يعسوب الأرواح»[2]، أي أصلها، و«كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»[3]، وبالجملة فهو صاحب الوسيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود، وكل ذلك بناء على اختصاصه بسر البداية للجميع، وقد نبه ﷺ على خاصيته التي لم يعلمها على الحقيقة إلا الله بقوله ﷺ: «يا أبا بكر، والذي بعثني بالحق، لم يعلمني حقيقة غير ربي» فاعرف ذلك ومن أجل هذه الفضيلة سأل أولو العزم من الرسل كإبراهيم وموسى الحق جل وعلا أن يجعلهم من أمته، وهذا ما ثبت من النهي عن التفضيل بين الأنبياء في الأحاديث فمحمله عند المحققين على التفضيل بالخصائص والأقيسة، لأن المزايا لا تقتضي التفضيل، وإنما هو محض اصطفاء واختصاص من الله تعالى بحكم المشيئة السابقة، والقدر الأزلي النافذ لا بعلة تقتضي نقص المفضل عليه منهم، أو سبب وجد في الفاضل،

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٣١٠). وفيه: «نور نبيك يا جابر».

(٢) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٢٣٨). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (١١٦). وفيه: «المؤمنين».

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٩). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٢٩٢). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ٩٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١: ٤٥٣). السيوطي في الحاوي للفتاوي (٢: ٢٦٠). والبخاري في الصحيح (٧: ٣٧٤). والفتني في تذكرة الموضوعات (٨٦). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٧٢).

وفقد في المفضول حتى يتطرق النقص أو التقصير إلى المفضول إذ ما من نبي إلا وأتى بما أمر به على التمام ولم ينقص منه ذرة. فهو إذاً توقيفي بحكم من الله، لا يصح القدوم عليه إلا بسمع وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]، وقال تعالى تلك: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وهو موسى عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وهو محمد ﷺ، فأفضليته ﷺ على جميع الخلق لا خلاف فيها بين الأئمة، وإنما تكلموا بعد اتفاقهم على أفضليته على الجملة والتفصيل في أنه هل يسوغ تعيين المفضول في الذكر والإطلاق اللساني عملاً بما هو المعتقد أو لا صوناً للأدب، وعملاً بنحو قوله ﷺ: «**لا تفضلوني على موسى ولا يقل أحد أنا خير من يونس بن متى**»[1] ، وهذا هو المختار إعمالا للدليلين والله أعلم اهـ، أي المختار عنده.

ومن جواهر الشيخ محمد الفاسي أيضاً رضي الله عنه

[شرح قول صاحب الدلائل]

قوله عند قول صاحب الدلائل: اللهم صل على صاحب المكان المشهود. من شهدت الشيء شهوداً، حضرته وفي صلاة زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهم تسميته ﷺ بصاحب المحضر المشهود ويحتمل أن تكون الإشارة إلى المكان الذي شهده في معراجه حيث استقر تحت العرش وسمع صريف الأقلام، وهو المكان الذي ما شهده مخلوق غيره.

ويحتمل أن يكون المراد مكانه ﷺ في المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، فيشهدون ذلك المقام. ومثله قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣] يشهده ويحضره الأولون والآخرون المجموعون فيه للحساب، أو المراد مكانه في جلوسه على العرش، أو على الكرسي، أو في قيامه عن يمين العرش، أو حيث يحشر على البراق في سبعين ألف ملك، ويكسى أعظم الحلل من الجنة، ويؤذن باسمه ويكون لواء الحمد بيده وهو إمام النبيين يومئذٍ وقائدهم وخطيبهم، أو حيث يكون بين الجبار وبين جبريل فيغبطه بمقامه ذلك أهل الجمع كلهم، أو حيث يكون هو الواسطة بين الله وبين خلقه في الجنة، لا يصل إلى أحد شيء إلا بواسطته، فإن مكانه في هذه الأمور كلها مشهود لأهل الموقف ظاهر لهم وفي الأخير لأهل الجنة.

ويحتمل أن يكون هذا مثل اسمه صاحب المحشر إذا حملناه على أنه اسم مكان،

---

(١) رواه ابن كثير في البداية والنهاية (١ : ١٧١).

فالمكان المشهود هو المحشر لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

وأما إذا حملنا المحشر في اسمه صاحب المحشر على أنه اسم مصدر: فهو بمعنى اسمه حاشر وهذه كلها في الآخرة.

ويحتمل أن يكون المراد مكانه في حياته في الدنيا، والشهود شهود الملائكة له، وقد كانت كثيرة الحضور عنده ﷺ، حيث كان ويحتمل أن المراد بمكانه قبره، والشهود شهود الملائكة له أيضاً على ما رواه ابن المبارك في فائقه وابن أبي الدنيا، وأبو نعيم في الحلية عن كعب الأحبار: أنه دخل على عائشة رضي الله عنها فذكروا رسول الله ﷺ فقال كعب: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون الفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على رسول الله ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم وصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه.

ويحتمل أن المراد أيضاً قبره وهو مشهود معروف معين دون قبور غيره من سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا يصح تعيين قبر منها.

ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قول الحسن البصري: إن الله عز وجل اختار محمداً ﷺ على علم، وأنزل عليه كتابه وجعله رسوله إلى خلقه، ثم وضعه في الدنيا موضعاً لينظر إليه أهل الدنيا فآتاه منها قوتاً، ثم قال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ إلى آخر كلامه... ويحتمل أن يكون المراد مكانه حيث كان في الدنيا والآخرة، فيشمل ذلك كله فهذا كله مما يحتمله اللفظ على قرب أو بعد، والله أعلم.

ومن جواهر الشيخ محمد الفاسي أيضاً

[شرح: اللهم صل على محمد بحر أنوارك]

قوله في شرح اللهم صل على سيدنا محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك، وإمام حضرتك، وطراز ملكك، وخزائن رحمتك، وطريق شريعتك، المتلذذ بتوحيدك، إنسان عين الوجود، والسبب في كل موجود، عين أعيان خلقك، المتقدم من نور ضيائك، صلاة تدوم بدوامك وتبقى ببقائك، لا منتهى لها دون علمك صلاة ترضيك وترضيه وترضي بها عنا يا رب العالمين.

الطراز علم الثوب، وشبه الملك بالثوب في نسجه وتحسينه وتزيينه به بدليل إثبات اللازم الذي هو الطراز، واستعير للنبي ﷺ الطراز بجامع الزينة، فطراز الثوب الذي هو علمه،

زينته التي تشوق العيون إليه، والنبي ﷺ به زين الله وجود العالم بأسره وهو روحه، وسره، وبهجته، وحسنه، ونوره، وسناه وفي صلاة مفردة: اللهم صل على عين العناية، وطراز الحلة، وعروس المملكة، ولسان الحجة، سيدنا محمد وعلى آله عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. وفي صلاة سيدي علي بن وفا: عين الرحمة الربانية وبهجة الاختراعات الأكوانية.

وخزائن رحمتك

جمع خزانة بكسر الخاء ما يخزن فيه المتاع والأموال والأرزاق وهو ﷺ خزائن رحمة الله الموضوعة في العالم، فلا يرحم أحد إلا على يديه وبما خرج له من خزائنه، ويرحم الله الشيخ محمد البكري الصديقي حيث يقول:

ما أرسل الرحمن أو يرسل ... من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه ... من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده ... نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها ... يعلم هذا كل من يعقل

وجمع الخزائن تبعاً لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ [ص: ٩]، وجمعت في الآيتين لتنوعها وكثرتها وما فيها من الأموال والأرزاق الحسية والمعنوية والله أعلم.

قال ابن عطية: والخزائن للرحمة، استعارة كأنها موضع جمعها وحفظها، لما كانت ذخائر البشر تحتاج إلى ذلك خوطبوا في الرحمة بما ينحو إلى ذلك.

وطريق شريعتك

الموصل إليها وعنه تؤخذ وتتلقى لأنه نبيك ورسولك والمترجم عنك والمبلغ عنك إلى خلقك والواسطة بينك وبينهم.

المتلذذ من اللذة وهي معلومة

بتوحيدك أي بما يدل عليه من قول لا إله إلا الله ونحوه، والمعنى إنه كان يلهج بتوحيد الله متلذذاً بذلك ومستطيباً له وإن ذلك كان دأبه وديدنه، وهذا جار على أسلوب كلام الناس

فإنهم يقولون إن فلانا يتلذذ بذكر فلان، ويقول الواحد منهم لمن يحبه: إني لأحبك وأتلذذ بذكرك واستطيب حديثك، وإن حملنا التوحيد على الأمر الباطن من الإيمان بالله تعالى وحده وإفراده بالذات والصفات والأفعال، لم يصح أن يكون المراد وصفه بمطلق وجدانه، لذلك لذيذاً وإدراكه للذة، لأنه لو وصف بذلك بعض أقوياء أمته لكان قليلاً في حقه، وحطاً من منزلته، فكيف به ﷺ، وإنما المراد أمر خاص زائد على ذلك، فإما أن تفعل هنا للتكثير والكثرة على ما يناسبه ﷺ، وإما إنها للصيرورة كتحجر، أي صار حجراً، والمعنى أنه ﷺ صارعين اللذة، إشارة إلى انصباغه بالتوحيد وامتزاجه به، وإحاطته به وعدم شعوره بغيره وذلك على وجه أخص مما لغيره، من الخلق بل على معنى يليق به ويطابق حاله والله أعلم.

إنسان عين الوجود

الذي عليه مداره وبه أمكن ابصاره، وانسان العين هو المثال الذي يرى في سوادها، وهو الذي به يكون النظر في وسطها قدر العدسة، ويقال: له ذباب العين، وكما أن إنسان العين هو سر العين وزينتها وفائدة وجودها وبه يتوصل الجسد إلى منافعه ويهتدي إلى مراشده ولولاه هو لم يكن للعين نور ولا إبصار ولكان الجسد شبجاً بلا روح، وصورة بلا معنى، لأن الأعمى ميت، وإن لم يقبر كذلك هو ﷺ روح الأكوان وحياتها وسر وجودها، ولولاه، لم يكن لها نور، ولا دلالة، بل لذهبت وتلاشت ولم يكن لها وجود، كما قال سيدي عبد السلام رضي الله عنه: ونفعنا به، ولا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط. وقال سيدي علي بن وفا رضي الله عنه:

روح الوجود حياة من هو واجد ... لولاه ما تم الوجود لمن وجد

وقال في صلاته نور كل شيء وهداه. وسر كل سر وسناه، ثم قال إنسان عين المظاهر الألهية، ولطيفة تروحنات الحضرة القدسية، مدد الأمداد وجود الجود، وواحد الآحاد وسر الوجود، سرك المنزه الساري في جزئيات العالم وكلياته، علوياته وسفلياته، من جوهر وعروض ووسائط، ومركبات وبسائط، ثم قال وأرى سريان سره في الأكوان، ومعناه المشرق في مجاليه الحسان، وقال الشيخ شمس الدين العبدوسي في صلاة له: مظهر سر الجود الجزئي والكلي، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي، موج جسد الكونين، وعين حياة الدارين، وقال بعضهم:

كل المكارم تحت طي بروده ... ولقد أضاء الكون عند وروده

والبحر يقصر عن موارد جوده ... إنسان عين الكون سر وجوده

والوجود في الأصل مصدر بمعنى المفعول، وآل فيه عوض عن المضاف إليه المحذوف أي وجود الكون والمراد بوجوده عينه، والوجود عين الموجود في الحادث اتفاقاً من متكلمي أهل السنة وفي القديم على رأي الشيخ الأشعري.

والسبب في كل موجود

دليل هذا حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عند عبد الرزاق أن الأشياء كلها مخلوقة من نوره ﷺ، ومثله حديث أبي مروان الطبني الذي أخرجه في فوائده عن ابن عباس وابن عمر وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند البيهقي في دلائله والحاكم وصححه، وقول الله تبارك وتعالى لآدم عليه السلام: **«لولا محمد ما خلقتك»**[1]، وروى في حديث آخر **«لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماءً ولا أرضاً»**.

وفي حديث سلمان عند ابن عساكر قال هبط جبريل على النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول لك إن كنت إتخذت إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيباً وما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا، وقال البوصيري: لولاه لم تخرج الدنيا من العدم.

عين أعيان خلقك

العين تطلق على أشياء عديدة منها العين الباصرة، وتجمع على أعيان وأعين وعيون بضم العين. ومنها خِيار الشيء، وكبير القوم، والمراد: أن أعيان خلق الله الذين هم الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون وجميع عباد الله الصالحين، كما أنهم خِيار خلق الله وكبراؤهم وهم أعينهم التي بها يبصرون وسر وجودهم كذلك النبي ﷺ هو خير أولئك الأخيار وكبيرهم وهو عينهم التي بها يبصرون وسر وجودهم يحتمل أن يكون المضاف بمعنى من المعاني المذكورة والمضاف إليه بمعنى آخر منها، والأقرب أن المراد العين الباصرة فيهما معاً والله أعلم، وقال سيدي علي بن وفا:

عيسى وآدم والصدور جميعهم ... هم أعين هو نورها لما ورد

---

(١) رواه الألباني في التوسل (١٠٦).

وقال الشيخ أبو محمد عبد الحق بن سبعين في حزب الفرج والخلاص: عين الأعيان وسر التعينات، كنز الأسرار ومرآة التجليات.

قال الفاسي رحمه الله تعالى: وبالجملة فقد اتفقت كلمة أولياء الله تعالى على خصوصيته ﷺ على كل العوالم، وإنه سر الله الممد في الأرواح وبنسيمها وتنسمها له حياتها، والله أعلم.

قال ونقل سيدي عبد النور يعني الشريف العمراني قدس الله سره عن شيخه أبي العباس الحمامي، عن شيخه أبي عبد الله بن سلطان أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت له: يا سيدي يارسول الله أنت مدد الملائكة والمرسلين، فقال لي: «**أنا مدد الملائكة والنبيين والمرسلين وسائر خلق الله أجمعين، وأنا أصل الموجودات، والمبدأ والمنتهى وإليَّ غاية الغايات، ولا يتعداني أحد**»، قال: ورأيته أيضاً في النوم فأجرى الله على لساني أن قلت له: السلام عليك يا عين العيون، ويا معدن السر المصون.

المتقدم من نور ضيائك

هو من إضافة الشيء إلى مرادفه للتقوية والمبالغة هذا الأقرب فيه. ويحتمل أنه من إضافة الموصوف إلى صفته، على أن الضياء غير النور وهو أقوى وأعظم منه.

ويحتمل أنه من إضافة الأصل إلى فرعه على أن النور هو ذات المنير، والضياء أشعته المنتشرة عنه وشرره المتقدحة منه.

وقد قال الأشعري: إنه تعالى نور ليس كالأنوار، والروح النبوية القدسية لمعة من نوره، والملائكة شرر تلك الأنوار.

وقال ﷺ «**أول ما خلق الله نوري، ومن نوري خلق كل شيء**»[١]، وغيره مما في معناه فهو ﷺ أول صادر عن الله وهو منه بلا واسطة، ويحتمل أن يكون الكلام على القلب، أي من ضياء نورك، أي أشعته والله أعلم، والواقع في النسخة السهلية وغيرها من النسخ المعتمدة المتقدم بالميم من تقدم ضد تأخر، وفي بعض النسخ المتقدح بالحاء المهملة، وهو الواقع في الصلاة المفردة المشار اليها أولاً ومعناه الموري والمخرج من أوري الزند إذا خرجت منه ناراً، ومعناه المغترف. وفي الأساس قدح النار من الزند، واقتدحها وقدح المرقة واقتدحها اغترفها بالمقدح والمقدحة وقدح الماء من أسفل البئر. انتهى.

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٣١٠). وفيه: «نور نبيك يا جابر».

ومنهم الإمام العلامة شهاب الدين الخفاجي[1] شارح الشفا المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ

فمن جواهره رحمه الله تعالى

[البراق ليلة الإسراء كان ملجماً مسرجاً]

قوله عند ذكر صاحب الشفا في القسم الأول منه بسنده إلى أنس من طريق الترمذي: إن النبي ﷺ أتي بالبراق ليلة أسري به ملجماً مسرجاً فاستصعب عليه فقال له جبريل: أبمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه، فارفض عرقاً.

قال الشيخ عز الدين بن غانم المقدسي في كتاب «شجرة الإيمان»: إن مركبه ﷺ إلى بيت المقدس الأول البراق، ثم مركبه الثاني إلى سماء الدنيا المعراج، ثم مركبه الثالث من سماء الدنيا إلى السماء السابعة أجنحة الملائكة، ثم مركبه الرابع إلى سدرة المنتهى جناح جبريل، ثم مركبه الخامس الرفرف الأخضر من النورمد ما بين الخافقين، قال الخفاجي: واعلم أن المصنف رحمه الله تعالى إنما ذكر هذا الحديث مسنداً على خلاف دأبه في هذا الكتاب وغير أسلوبه في غيره من الأقسام والأبواب، لأنه لما كان هذا أول الأقسام وتاج التراجم والمرام، وتقديمه له لاهتمامه به صدره بحديث ثابت فيه من الدلالة على ما أراد بيانه من التعظيم قولاً وفعلاً ما لم يتيسر لغيره من الأنبياء عليهم السلام، مما تقصر عنه الأفهام، تتحير فيه العقول والأوهام، وهو دعوة الملك الجليل له ليلاً لحظائر قدسه، كما يدعى المقرب المطلع على الأسرار، وأرسل لدعوته عظام ملائكته ببراق مسرج ملجم على عادة الملوك، إذا عظموا من دعوا وأرسلوا له بعض المقربين بمركوب كانوا يسمونه فرس النوبة، فأوصله إلى حرم عزته لمكان لا يصل إليه سواه، وكلمه بغير واسطة وتجلى له بلا حجاب، ولذا قال جبريل عليه الصلاة والسلام إنه أكرم خلقه عليه ﷺ.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي المصري قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة، ولد سنة ٩٧٧ هـ ونشأ في مصر وتوفي سنة ١٠٦٩ هـ. ينسب إلى قبيلة خفاجة.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[الله أعطى النبي اسمي الرؤوف والرحيم]

قوله عند ذكر صاحب الشفا: إن الله سبحانه وتعالى أعطى النبي ﷺ اسمين من أسمائه تعالى رؤوف رحيم. فإن قلت كثير من أسمائه تعالى يطلق على غيره كحي وكريم وسميع وغيرها، فكيف يكون هذا من خصائصه ﷺ.

قلت قال الغزالي: المراد أنه تعالى أعطاهما له بمعنى من المعاني التي أطلقا بها على الله فجعله ﷺ متحلياً ببعض صفاته، كما جعله متخلقاً بأخلاقه بوجه ما، وإن لم يكن على الوجه الأكمل اللائق بجناب العزة، كما قيل كل ما يصلح للمولى على العبد حرام، والمقصود أنه لما ذكره ﷺ في القرآن، وصفه بصفتين خلع عليه منهما خلعتي إكرام دال على تميزه عما عداه. وفي تفسير ابن المنير المسمى بالبحر الكبير.

فإن قلت: ما وجه اختصاصه ﷺ بتسميته باسمين من أسمائه تعالى، وقد سمي موسى عليه الصلاة والسلام كريماً فقال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ [الدخان:١٧]، وبالأعلى حيث قال: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه:٦٨]، وسمى إبراهيم عليه الصلاة والسلام حليماً، وإسماعيل عليه الصلاة والسلام عليماً حليماً فقال في آية: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠١] وفي أخرى حليم.

قلت: وجه الخصوصية إيرادهما معاً في سلك واحد ونسق متصل في القراءة، ولا يكاد يوجد هذا إلا في وصف الله تعالى لنفسه، فهي كرامة أكرمه الله تعالى بها ليدل على مكانته ﷺ وإن رتبته فوق سائر الرتب. واعلم أن الآيات القرآنية حيث ختمت بأسمائه تعالى وقعت مكررة وما كرر إما في معنى ما قبله كغفور رحيم فيفيد مبالغة في تلك الصفة على وجه يليق بالربوبية، أو مغاير له كعزيز حكيم، لإفادة احتراس وتكميل، لأن العزيز قد يفعل بعزته ما لاتقتضيه الحكمة، فلما أجرى ما هو من خصائصه ﷺ كان من الاحتفاء به ما لا يخفى.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[لقد منَّ الله على المؤمنين ببعثته ﷺ]

قوله عند ذكر الشفا قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٦٤] الآية، وفيها الدلالة على أنه ﷺ مبعوث في قوم هو من جنسهم، سواء ضمت الفاء أو فتحت، لأنه إذا كان ﷺ من أشرفهم كان منهم ضرورة.

وفي تفسير ابن المنير من أنفسهم من جنسهم، يعرفون حاله وإنه ما قرأ، ولا درس، وقد جاءه العلم دفعة، فقص سير الأولين والآخرين على ما هي عليه، حرفاً بحرف فيعلم العاقل أنه أمر خارق من عند الخالق، كل ذلك إبلاغ في ظهور حجته ووضوح معجزته ﷺ، فكيف يليق أن يجعل المقتضى مانعاً فيلحدون ويجحدون اهـ.

والمن الإنعام مطلقاً، أو على من لا يطلب، ويكون بمعنى تعداد النعم استكثاراً لها، وهو غير محمود إلا من الله تعالى، لأنه بمنه يذكر العبد فيبعثه على الشكر.

ثم قال الخفاجي عند ذكر الشفا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] الآية في هذه الآية امتنان وثناء عظيم كما تقدم.

والأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ الخط وإن قرأ ما حفظه بالسماع من غيره، وإنما سمي أمياً نسبة إلى الأم كناية عن كونه كيوم ولدته أمه، فإنه يكون على جبلته من غير أن يحسن كتابة ونحوها، أو الأمة العرب لأنهم كانوا أميين الكتابة معدومة فيهم إلا نادراً لا حكم له كما ورد في الحديث «بعثت إلى أمة أمية»، ثم أطلق الأميون على من كتب منهم، ومن لم يكتب كما قاله ابن عباس تغليباً.

وقيل: الأمي الذي يقرأ ولا يكتب والمراد بكونه منهم: أنه ﷺ أمي مثلهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ففيه إشارة إلى حكمته وإنه معجزة له ﷺ لكونه مع ذلك أظهر علم الأولين والآخرين وقص سيرهم وأخبارهم، وفيه أيضاً موافقة ما تقدم من بشارة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام به، ونعته في كتبهم بأنه أمي وإليه أشار البوصيري رحمه الله تعالى بقوله:

كفاك بالعلم في الأميّ معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

تنبيه: قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في كتاب تخريج أحاديث الرافعي عد فقهاء الشافعية رحمهم الله تعالى إن مما حرم الله عليه ﷺ الخط والشعر وإنما يتجه التحريم إن قلنا إنه ﷺ كان يحسنهما واستدل بالآية المذكورة: بحديث «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب»[1] والأصح أنه ﷺ كان لا يحسنهما، ولكن يميز بين جيد الشعر ورديئه.

وادعى بعضهم أنه ﷺ صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾

(١) رواه مسلم في الصحيح (٧٦١). وأبو داود في السنن (٢٣١٩). والنسائي في السنن (٥: ١٣٩). وأحمد في المسند (٢: ٤٣). وابن حجر في فتح الباري (٤: ١٢٦). وابن أبي شيبة في المصنف (٣: ٨٥). والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (٥٠).

[العنكبوت:٤٨] في الآية، فإن عدم معرفته ﷺ سبب الإعجاز، فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وكثر المسلمون، وظهرت المعجزة وأمن الارتياب عرف حينئذٍ الكتابة.

وقد روى ابن أبي شيبة وغيره: مامات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ، قال مجاهد: ذكرت هذا للسدي فقال: قد سمعت أقواماً يذكرون ذلك وليس في الآية ما ينافيه.

وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوباً الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر»[1]، والقدرة على قراءة المكتوب فرع معرفة الكتابة».

وأجيب باحتمال إقدار الله تعالى له على ذلك من غير تقدم معرفة الكتابة، وهو أبلغ في المعجزة، أو فيه تقدير أي سألت عن المكتوب فقيل لي هو هكذا.

وفي حديث سهل بن الحنظلية: أنه ﷺ لما أمر معاوية رضي الله عنه أن يكتب للأقرع بن حابس وعيينة ابن حصن قال عيينة: أتراني أذهب إلى قومي بصحيفة كصحيفة المتلمس. فأخذ رسول الله ﷺ الصحيفة، فنظر فيها، فقال: «قد كتب لك بما أمر».

قال يونس بن ميسرة راوية: فنرى أنه ﷺ كتب بعدها أنزل عليه. ومن الحجة عليه ما أخرجه البخاري في صلح الحديبية: أنه ﷺ أخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الحديث.

وقال ابن دحية وإليه ذهب أبو ذر وأبو الفتح النيسابوري وأبو الوليد الباجي وصنف فيه كتاباً وسبقه إليه ابن أبي شيبة وقال: إنه ﷺ كتب بيده في الحديبية.

وقال أبو بكر بن العربي: لما قال الباجي هذا طعنوا عليه، ورموه بالزندقة، وكان الأمر عندهم مثبتاً، فعقد مجلساً للمناظرة، فأقام الباجي الحجة، ونسبهم إلى عدم المعرفة، فكتب بذلك لعلماء الآفاق، أفريقية وصقلية وغيرهما فجاءت أجوبتهم بموافقته.

ومحصل ما تواردوا عليه إن معرفة الكتابة بعد معرفة أميته ﷺ لا تنافي المعجزة، بل هي معجزة أخرى بعد معرفة أميته وتحقق معجزته ﷺ وعليه تتنزل الآية السابقة والحديث فإن معرفته ﷺ من غير تقدم تعليم معجزة.

وصنف أبو محمد ابن معوز كتاباً رد فيه على الباجي وبين خطأه. وحكي أن أبا محمد

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٥٠١). وابن حجر في تلخيص الحبير (٣: ١٢٦). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٥٣٧٤). والمنذري في الترغيب والترهيب (٢: ٤١).

الهواري كان يرى رأي الباجي فرأى في النوم أن قبر النبي ﷺ انشق وماج، فلم يستقر، فاندهش لذلك، وقال: لعله لاعتقادي لهذه المقالة، ثم عقدت التوبة مع نفسي، فسكن واستقر، ثم قص الرؤيا على ابن معوزفعبرها بذلك واستظهر بقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠] الآية.

ومحصل ما أجاب به ابن معوز عن ظاهر حديث البراء أن القصة واحدة والكاتب فيها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وقد وقع في رواية البخاري من حديث البراء أيضاً لما صالح النبي ﷺ أهل الحديبية كتب علي رضي الله عنه بينهم كتاباً، فكتب فيه محمد رسول الله فتحمل الرواية الأولى، على أن معنى كتب أمر الكاتب، ويدل عليه الرواية المشهورة في هذه القصة أيضاً: «والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني أكتب محمد بن عبد الله».

وقد ورد كثيراً في الأحاديث كتب بمعنى أمر كحديث أنه ﷺ كتب إلى قيصر وكتب إلى النجاشي وكتب إلى كسري، ونحوه، وكلها محمولة على أنه أمر بالكتابة ويشهد له قوله في بعض طرق الحديث لما امتنع الكاتب أن يمحو محمد رسول الله قال له ﷺ: «أرني» فأراه موضعه فمحاه ثم ناوله لعلي رضي الله عنه فكتب بأمره ابن عبد الله بدله.

وأجاب بعضهم بأنه على تقدير حمله على ظاهره، يحتمل أن يراد أنه كتب مع عدم علمه بالكتابة وتمييز الحروف، كما يكتب بعض الملوك علامتهم، وهم أميون، وإلى هذا ذهب القاضي أبو جعفر السمناني. انتهى. ولا يخفى بعد هذا الجواب وإن شاهدنا مثله نادراً.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[الله ألبسه ﷺ من نعته الرأفة والرحمة]

قوله عند قول الشفا: وقال جعفر بن محمد: علم الله تعالى وتقدس عجز خلقه عن طاعته فعرفهم ذلك لكي يُعلم أنهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام بينهم وبينه رسولاً مخلوقاً من جنسهم في الصورة، وألبسه من نعته الرأفة والرحمة.

اعلم أن المصنف رحمه الله تعالى لما ذكر في هذا المحل آيات دالة على نهاية الثناء على نبيه ﷺ، وكان معناها كلها أن الله بعث في هذه الأمة الأمية رسولاً، هو أعظم مخلوقاته حسباً ونسباً، أودعه في الأصلاب الطيبة، والأرحام الطاهرة، وأوحى إليه بكتاب هو أعظم الكتب السماوية وجعله مشتملاً على علوم الأولين والآخرين، فأقام به الملة السمحة، وأتم به دينه

ونصر صحبه على أعدائهم، وملكهم الدنيا، ولطف بهم إذ جعله بشراً مثلهم يخاطبهم بلسانهم، وفي ذلك رأفة بهم، وأتم نعمه عليهم، وعلى نبيه ﷺ مثل ذلك، إذ رأف بهم وأنعم عليهم بنعم الدنيا والآخرة ولذا وصفه بصفتين متجاورتين في قوله تعالى: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨]، ومثله مما خص الله به نفسه فلما جعله خليفة الله خلع عليه خلعة فوق خلعة تمييزاً له وتكريماً، كما يفعله الملوك، فقوله ألبسه من نعته الرأفة والرحمة. يعني به المذكور في الآية السابق ذكرها ولم يجمع له غيرهما.

فإن قلت كيف هذا؟ وقد وصفه بصفات غيرها وجمع له بين صفتين أيضاً في قوله تعالى في آية الإسراء: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١] بناء على الضمير لعبده.

قلت هذا مما ذهب أكثر المفسرين إلى خلافه وإن الضمير لله تعالى، ولو قلنا: إنه له فهاتان الصفتان لم يجر لهما ذكر هنا، ولا مناسبة لهما بهذا المقام، فلذا خصهما المصنف بالذكر.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[حياتي خير لكم ومماتي]

قوله عند ذكر الشفا: قوله ﷺ: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم»[1]. هذا الحديث رواه ابن مسعود رضي الله عنه بسند صحيح، ورواه الحارث ابن أبي أسامة في مسنده بسند صحيح أيضاً.

وفي رواية. «موتي» بدل «مماتي» أي كل منهما نافع لأمته ﷺ فلا يتوهم انقطاع نفعه ﷺ عنا بموته، لأن كثيراً منا إذا مات انقطع عمله عنه وعن غيره، إلا ما استثني والخير النفع الذي يرغب فيه، وهو يكون صفة مشبهة، وأفعل تفضيل مخفف من أخير كشر من أشر، ولا ينطق بأصله إلا نادراً كقول الشاعر:

بلال خير الناس وابن الأخير

وقرئ في الشواذ: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ [القمر:٢٦] ويكون صفة كالخير بالتشديد ويجوز كل منهما هنا. أي كل من حياته ﷺ وموته نفع لمن دخل تحت الخطاب، أو أن حياته أنفع من موته في وقتها، وموته أنفع في وقته، من وجه لنفعه ﷺ لهم بنحو شفاعته عند عرض أعمالهم عليه يوم الإثنين، وفتح باب الاجتهاد، وترك الاتكال،

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ١٧٦). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٠٣).

والمشي على الاحتياط، وكالإثابة بالحزن لموته، وتسهيل كل مصيبة بمصيبته والاعتبار به والرحمة الناشئة من اختلاف أمته، وفي الحديث زيادة في بعض التعاليق وهي: «أما حياتي فأبين لكم السنن، وأشرع لكم الشرائع وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي فما رأيت منها حسناً حمدت الله، وما رأيت منها سيئاً استغفرت» وأيضاً فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام تعرض عليه ﷺ صلاة من صلى عليه وتبلغها له في وقت واحد، وإن لم يحص عددها كما سيأتي.

كما الشمس في كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً

كما في بعض الشروح، ونقل في بعضها ما لامساس له بالمقام، وفيه نقلاً عن ابن عربي أنه ﷺ قال: «إذا مت لا أزال أنادي في قبري أمتي أمتي، حتى ينفخ في الصور». فطنين الأذان لما تدركه الروح المتمكنة من ذلك النداء فلذا استحبت الصلاة عليه ﷺ إذا طنت الأذان أداء لشيء من حقه ﷺ كما في العطاس، كما قاله الترمذي، ولعظم الأجر على مصيبته ﷺ، ولذا سادت فاطمة أمها خديجة رضي الله تعالى عنهما، وجميع أخواتها ممن مات في حياته ﷺ لما في صحيفتها من مصيبتها به ﷺ.

وقد قيل عليه: إنه لا شبهة في ثوابها بهذا الرزء العظيم، ولكنها لم تفضل أمها بذلك، بل بكونها بضعة من رسول الله ﷺ، ولذا قال في سنن أبي داود لا أعدل ببضعة من رسول الله ﷺ أحداً.

وأما تفضيلها على أخواتها فلحديث «فاطمة أفضل نساء العالمين إلا مريم بنت عمران»، ونحوه، ولو كان تفضيلها بهذه المصيبة فضلت عائشة رضي الله عنها خديجة رضي الله عنها والأكثر، على خلافه. ثم أورد على حد الاجتهاد من الخير الذي حصل بموته ﷺ أن الاجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم كان في زمنه أيضاً كما بين في كتب الأصول. ولك أن تقول المراد كثرته مع ما يتفرع عليه من المذاهب والتأليف.

قيل وعرض الملائكة عليهم الصلاة والسلام عليه ﷺ ممن لا يحصى في وقت واحد لم يثبت.

وهو مردود بأنه ورد من طرق صحيحة كما سيأتي مفصلاً فلا وجه لإنكاره. والأحسن أن رحمته لهم في حياته لأنه هداهم لسبيل الخير، وما دام ﷺ بين أظهرهم فهم آمنون من عذاب الاستئصال والمسخ والخسف ونحوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ورحمته لهم في مماته لتقدمه ﷺ فرطاً كما سيأتي، وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] ثم إن تفضيل فاطمة وعائشة رضي الله

عنهما بما مر لا ينافي كون خديجة رضي الله عنها أفضل لأنه قد يكون في المفضول ما ليس في الفاضل كما لا يخفى.

والنبي ﷺ حيّ في قبره باقٍ على ما كان عليه، أي من النبوة والرسالة، حتى سئل النووي رحمه الله تعالى عمن رآه ﷺ في منامه يأمره بأمر هل يجب عليه؟ أم لا.

فأجاب، بأنه إن لم يخالف الشرع وكان له في خاصة نفسه ينبغي العمل به وإنما لم يجب لأن النائم لم يضبط ما قيل له وربما لم يفهمه أو يكون إشارة لما يحتاج للتأويل وهو كلام حسن فلا ينافي قوله ﷺ: «من رآني فقد رآني حقاً»[1] الحديث وكما قال ﷺ: «إذا أراد الله رحمة بأمة قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً»[2] هذا الحديث صحيح متناً وسنداً رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه فقال إذا أراد الله تعالى رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة أحيا نبيها فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمر، وهكذا في النسخ بتقديم الفرط، ووقع في بعضها مؤخراً وكأنه من الناسخ والذي في مسلم بإضافة رحمة لأمة مخالف لما في الشفا، فقول المخرجين: إنه حديث مسلم لا يخفى ما فيه فلعله رواه من طريق آخر إلا أن يقال: إنه رواه بالمعنى واقتصر على بعضه. والأمة الجماعة ثم شاع فيمن بعث إليهم الرسول ﷺ ووجب عليهم اتباعه، فإن اتبعوه فهم أمة الإجابة وهم غيرهم أمة الدعوة والمراد الأول، والقبض في الأصل أخذ الشيء واستيفاؤه يقال قبض المال والمتاع.

ويقال: قبض الله أو الملك زيداً أو روحه، والمشهور في الاستعمال الأول، وكأن العدول عنه هنا إشارة إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياء في قبورهم، ولا تأكل الأرض أبدانهم، فموتهم ليس كموت غيرهم، فهم كمن أرسله الملك لأمر فأتمه وعاد إليه. والفرط بفتحتين: أصله من يرسله الناس قدامهم لمنزل رحلتهم ليهيئ لهم لوازمهم، أو لينظر ما به من ماء وعشب وإنه هل يحسن نزول المسافرين به أم لا، أو ليزيل ما يخاف وينظر هل به عدو أم لا، من فرط بمعنى تقدم.

والسلف بوزنه معناه ما تقدم إعطاؤه في المال كالسلم ورد بمعنى القرض وسلف المرء من مضى من آبائه وأقربائه لتقدم وموته، ولذا يسمى الصدر الأول السلف الصالح، فكأن ما أصاب الأمة بفقد نبيها ﷺ جعل سلماً أو قرضاً للأجر الذي يجاوزون به على الصبر:

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٤: ١٥٥١).

(٢) رواه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٢: ٤٩٦).

والصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليه فإنه مذموم

ولذا قيل لما قدم من العمل الصالح فرط، والنبي ﷺ أب لأمته لأنه سبب لحياتهم الأبدية كالأب الذي هو مبدأ الحياة، ولذا كانت زوجاته ﷺ أمهات المؤمنين ففي حياته ﷺ من الرحمة ما لا يخفى كما مر.

فإذا ارتحل ومات انتقل لجوار ربه مع الرفيق الأعلى. وهو راض عنهم لقبول ما بلغهم ونصرتهم ومحبتهم وشهادتهم على إبلاغه، ولولا ذلك لأهلكوا، فكانت رحلته ﷺ رحمة لهم مع ما أصابهم من الأجر بمصيبته وحمده واستغفاره لهم إذا عرضت عليه أعمالهم فجزاه الله حياً وميتاً خير الجزاء.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[تفسير ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾]

قوله عند ذكر الشفا آيات الثناء عليه ﷺ ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] إلى آخر السورة.

قوله إلى آخر السورة يقتضي أنها كلها ثناء من الله تعالى على نبيه ﷺ فإن الكلام فيها والثناء بحسب الظاهر إنما هو في أوائلها إلى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وهذا بحسب بادئ النظر، كما قيل، وعند التحقيق هي كذلك بأسرها فإنها تدل على نعم أنعم الله بها على رسوله ﷺ، وهي متضمنة للثناء عليه بما اعطاه الله تعالى من الكمال، الذي لم ينله سواه، ولا يدانيه فيه أحد، وهو من أبلغ الثناء ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦] إشارة إلى أنه تعالى ثبت جأشه ﷺ لما اقتحمه من الشدائد كضيق الصدر والوزر المنقض للظهر في مكابدة قومه وإيذائهم له، وهو مداوم على الدعوة والتبليغ.

ثم إنه تعالى بشره ﷺ لأنه كرر يسره وزاده على عسره، فإنه لا يغلب عسر يسرين على قاعدة إعادة النكرة والمعرفة المشهورة، وهي إن النكرة إذا تكررت فهي غير الأولى، والمعرفة إذا تكررت فهي عين الأولى. وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ [الشرح: ٧] أي إذا فرغت من التبليغ فاتعب في العبادة، إشارة إلى أنه ﷺ أدى الأمانة ونصح الأمة، وتمت له النعمة المستحقة لأبلغ الشكر وهو العبادة. فالسورة كلها متضمنة لتعديد النعم عليه ﷺ مع مدحه والثناء عليه، وأمر بالشكر على ما أولاه والابتهال إليه، لا إلى غيره تعالى في كل ما ينوبه ﷺ، وبهذا تبين أن السورة كلها من هذا القبيل.

ثم قال عند قول الشفا، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] قال يحيى بن آدم بالنبوة وقيل إذا ذكرتُ ذكرتَ معي، وهو قول لا إله إلا محمد رسول الله وقيل في الأذان.

الذكر محمول على الذكر في مجامع العبادة ومشاهدها، فإن ذكره ﷺ مقرون بذكره تعالى فيها في الواقع في الصلوات والخطب، فلا ترى مشهداً من مشاهد الإسلام إلا وهو كذلك، فلا ينفك ذكره ﷺ عن ذكره تعالى في يوم من الأيام، ولا ليلة من الليالي بل، ولا وقت من الأوقات المعتد بها، فإن المراد التنويه بذكره ﷺ، وإشاعة عليّ قدره الدال على قربه ﷺ من ربه عز وجل، كقرب اسمه من اسمه، وإنما يكون هذا بذكره في المحافل والمشاهد والجوامع والمساجد، وأيّ إشاعة أقوى من الأذان.

واعلم أن تحقيق هذا المقام ما قاله الإمام الشافعي في أول رسالته الجديدة وبينه السبكي في تعليقه على الرسالة فقال رحمه الله تعالى: قال الإمام رضي الله عنه عن مجاهد في تفسير الآية: لا أذكر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

قال الشافعي يعني ذكره ﷺ عند الإيمان بالله تعالى والأذان، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن، وعند العمل بالطاعة، والوقوف عن المعصية.

قال السبكي: هذا الاحتمال من الشافعي جيد جداً، أو هو مبني على أن المراد بالذكر الذكر بالقلب، وهو صحيح فعلى هذا يعم. لأن الفاعل للطاعة أو الكافّ عن المعصية امتثالاً لأمر الله تعالى به ذاكر للنبي ﷺ بقلبه، لأنه المبلغ لنا عن الله تعالى، وهذا أعم من الذكر باللسان، فإنه قاصر على الإسلام والآذان والتشهد والخطبة ونحوها.

قال الشافعي: فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت نلنا بها حظاً في دين، أو دنيا، أو دفع عنا بها مكروه فيهما، أو في واحد منهما، إلا ومحمد ﷺ سببها انتهى.

قال الخفاجي بعده أقول علم من هذا أنه إن أبقى العموم والحصر على ظاهره حمل الذكر على الذكر القلبي فيشمل كل موطن من مواطن العبادة والطاعة، فإن العاقل المؤمن، إذا ذكر الله تعالى تذكر من دله على معرفته، وهداه إلى طاعته وهو رسول الله ﷺ كما قيل:

فأنت باب الله أيّ امرئ ... أتاه من غيرك لا يدخل

ومن كلام النبوة الأولى: من أراد الوصول إلى الله تعالى من غير باب النبوة قطعه الله تعالى عنه.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[تفسير ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾]

قوله عند قول الشفا الفصل الثالث فيما ورد في خطابه تعالى إياه ﷺ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] قال ابن المنير في تفسيره، والمسمى بالبحر عفا الله عنك دعامة في الكلام، يقصد المتكلم بها ملاطفة المخاطب وهو عادة العرب في التلطف بتقديم الدعاء لاستدعاء الإصغاء أو خبر معناه لا عهدة عليك، لأنه تعالى غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فهو تخصيص وتمييز، لأن الأذن ذنب متعلق به العفو، لأن تحمله ﷺ ومسامحته لهم مع أذاهم كان حملاً منه للمشقة على نفسه، وإسقاطاً للحظوظ فهو عتب عليه بلطف، لا ملامة فيه، أي قد بلغت في الامتثال والاحتمال الغاية، وزدت ما أجحف بك في محبة الله وطاعته والرفق بالبر والفاجر وأين هذا من التخطئة، والزمخشري نزع به هنا عرق العجمية لإساءته الأدب على النبي ﷺ وأراد بعضهم أن يصلح ذلك فأفسد.

فقال: بدأ بالعفو، قبل الذنب، ولو عكس، انقطع نياط قلبه ﷺ، وكله ذهول عن عتب الحبيب في صنيعه على نفسه، وهو تخفيف لا تعنيف، ومدح الأقدح، وهذا كما قيل له ﷺ إذ جد في العباد: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ - ٢] و﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦].

والعفو وإن كان يستدعي ذنباً كاستدعاء رضي الله عنك لغضب سابق فهو هنا تنبيه على أنه ﷺ أمر أن يرفق بنفسه، فكأنه قيل له إن أبيت إلا الحلم والاحتمال، فأنت غير مؤاخذ، بل مثاب، كمن يرخص له في لذة وراحة، فيعمل بالعزيمة، فيقال له ما كان هذا بلازم لك، فإذا احتملته فلا عهدة عليك إيجاباً لحقه وراحة لالتزامه ما لا يلزمه، وذلك أنهم، أي المنافقين، الذين أذن لهم رسول الله ﷺ في التخلف عن غزوة تبوك، ادعوا الطاعة وزاحموا المطيعين في رتبتهم، فاستأذنوا ليكون قعودهم بأذن لا ينافي دعواهم، ولو لم يأذن لهم هتكوا حجاب الهيبة وخلعوا ربقة الطاعة، وقامت الحجة عليهم، فإنهم ليسوا في ورد ولا صدر، فلما أذن لهم تمت مكيدتهم. وإليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾ [التوبة: ٤٣] إلى آخره. . .

وليس في هذا مخالفة مصلحة مرضية، فإن الله تعالى بين أنه بإذنه لهم أخفى نحو الكراهة، فإنه لا مصلحة في خروجهم، بل فيه مفسدة شوهاء وعاقبة شنعاء، لأنهم لو خرجوا كانوا مخذلين باعثين للفتنة يمشون بالنمائم، ويثيرون غبار الضغائن، مشتتين للشمل، كالظربان، فإنهم ذباب يقعون على الدبر والقذر، فكانت المصلحة العظمى في قعودهم، وإن كان فيه سترة لأمرهم واحتمال لمكرهم وغاية الغاية التباس أمرهم وقيام حجتهم، وهو قد عرفهم وانكشفت له عورتهم، ولكن لم يفضحهم حلماً وكرماً واتساع صدر.

وكم ضاق نطاق عمر رضي الله تعالى عنه عن ذلك وأشار بضرب أعناقهم فقال له ﷺ: «لا يا عمر لا يتحدث الناس إن محمداً يقتل أصحابه، فإنه قد يخدش الصدور السليمة، ويوقع في حصائد الألسنة»، فأشفق على العدو واستبقاه.

وعلى الوليّ أن تزحزحه الشبه عن رتبة تقاه، وحمل عبء ذلك نفسه في ذات الله، انتهى كلام ابن المنير في تفسيره.

قال الشهاب الخفاجي بعده أقول جزاه الله خيراً عما أهداه للعقول السليمة من انفس التحف، ودافع به عن حرم النبوة العالي الرتبة لمن عرف، وأنت إذا تأملت ما بعده من النظم تراه مصرحاً بما أفاده ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧] فأي رأي أسد من الإذن في تخلفهم، وأيّ حلم أعظم من الستر عليهم، فكيف يكون في أول الكلام عتاب، وآخره بيان لأن ما وقع عين الصواب، ولو كان هذا في رسالة كاتب مزقها سلطانه، فما ظنك بمالك الملك تعالى شأنه.

ثم قال الخفاجي عند قول الشفا: وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب المنعم على الكل المستغني عن الجميع ويستثير ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب وآنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثمة ذنب.

في قوله: إن كان ثمة ذنب. إشارة إلى أنه لا ذنب له ﷺ بالإذن لهم بل هو من محاسنه كما قال البحتري:

إذا محاسني اللاتي أدل بها كانت ذنوباً فقل لي كيف اعتذر

ولذا لم يكن ذنب ولا ارتكاب الخلاف، الأولى لم يكن عليه ﷺ ملامة وعتب.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[سيد ولد آدم]

قوله عند ذكر الشفا قوله ﷺ «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1] الفخر ادعاء العظمة والشرف والإعلان بذكره، أي لا أقوله تبجحاً ولا افتخاراً بل تحدثاً بنعم الله وشكراً له تعالى، كما قاله ابن الأثير.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٤). والقاضي عياض في كتاب الشفا (١: ٩٠). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ٥٧٢).

وقال ابن قرقول: أي لا فخر في الدنيا عندي، أي، لا انعظم ولا اتكبر بذلك فيها، وإن كان له ﷺ الفخر الأكبر في الدنيا والآخرة.

وفي هذا الحديث روايات منها «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»[1] كما رواه مسلم والترمذي قال التيجاني: فيه إشارة إلى التجاء جميع الخلائق له ﷺ في ذلك اليوم من غير منازع، كما في الدنيا، وهو كما قال الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] وفيه دلالة على جواز مدح المرء نفسه إذا قصد التحدث بنعم الله تعالى، وقد قيل أنه واجب عليه ﷺ لتبليغ أمته ما يجب في حقه، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] وهذا لا ينافي سيادته ﷺ على الملائكة وكل ما سوى الله تعالى.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[تفسير ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾]

قوله عند قول الشفا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١ - ٢] قيل لا زائدة، أي نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه وبركتك حياً ميتاً.

البلد هي مكة حرسها الله تعالى، وقوله الذي شرفته بمكانك، أي حصل له ذلك لأجلك ولأجل تعظيمك، فتشريفه لأنه بحلوله ﷺ فيه صار حرماً ومهبطاً للوحي ومنبعاً للدين.

وقد قالوا إن هذا القسم أدخل في تعظيمه ﷺ من القسم بذاته وبحياته، كما أشار إليه عمر رضي الله تعالى عنه بقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قد بلغت من الفضيلة عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[تفسير ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾]

قوله عند ذكر الشفا قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠] قصد تعالى أنه أوحى إليه ﷺ بأسرار عجيبة بواسطة غير البشر، وبغير واسطة لا يمكن تفصيلها ولا تقدر العقول على إدراك حقائقها، وأراد بهذا أن له ﷺ مرتبة عظيمة عند الله تعالى، وله من الزلفى

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ٣). والترمذي في السنن (٣١٤٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٤١).

والقرب منزلة لم يصل إليها سواه، ولذا عبر بالعبد، إشارة إلى أنه ليس بأجنبي في مقامه. إلى غير ذلك من المعاني، التي لو فصلناها ضاق عنها نطاق البيان.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[تفسير ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾]

قوله عند قول الشفا: ثم أثنى الله تعالى عليه ﷺ بما منحه من هباته وهداه اليه وأكد ذلك تتميما للتمجيد بحرفي التأكيد فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] قيل القرآن وقيل الإسلام وقيل الطبع الكريم.

الطبع الجبلة التي خلق الإنسان عليها. وقال ابن الجوزي حقيقة ما يأخذ الإنسان به نفسه من الآداب، وقد اجتمع فيه ﷺ من المكارم ما لم يجتمع في غيره.

وقال الإمام الرازي: المراد التخلق بمجموع أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي مرتبة عظيمة، فإنه ﷺ أمر بالاقتداء بهداهم ولم يرد أصول الشرائع لعدم مناسبة التقليد فيها.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[تفسير ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾]

قوله عند ذكر الشفا قوله تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية.

قال التفتازاني أجمع المسلمون على أن أفضل الرسل محمد ﷺ، قيل ثم آدم، وقيل نوح، وقيل إبراهيم، وقيل موسى، وقيل عيسى عليهم الصلاة والسلام، انتهى.

والراجح عندهم أنه إبراهيم عليه السلام لما ورد في الحديث أنه خير البرية. وقال السيوطي اتفق أهل العلم أن الأفضل بعد نبينا إبراهيم ثم موسى، وعيسى، ونوح ولم يذكروا مراتب بقيتهم.

واعلم أن القاضي بدرالدين المالكي صاحبنا، يعني القرافي، قال في كتاب «الابتهاج»: وقع للطوفي في تفسيره المسمى بالإشارات الإلهية في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، إنه احتج بهذه الآية على أن نبينا ﷺ أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنه أمر بالاقتداء بجميعهم، والاقتداء بفعلهم الإتيان بمثل ما فعلوه،

ولا بد أنه ﷺ امتثل هذا الأمر، وحينئذٍ قد فعل ﷺ وحده من الطاعة مثل ما فعل هؤلاء جميعهم، والواحد إذا فعل مثل فعل جماعة كان أفضل منهم.

قال الخفاجي: وهذا الذي ذكره الطوفي مأخوذ من التفسير الكبير للفخر الرازي، ثم قال: إنه ﷺ قد ساواهم في العمل، وزاد عليهم بأنه أعلم منهم بالله وأكثر من جميعهم خصائص ومعجزات وهذا التفضيل في القرب وعلو المنزلة، وهو أكثرهم ثواباً وأمته ﷺ أكثر من جميع الأمم وأجرهم له إلى يوم القيامة ولو كانت للناس مساكن بعضها فوق بعض كان الذي فوق الأخير أعلى من الجميع.

ثم قال عند قول الشفا: قال أهل التفسير: أراد بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] محمداً ﷺ.

أي رفع الله النبي ﷺ على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالمراد بالبعض محمد ﷺ فأبهمه للتعظيم، ولأنه ﷺ لا يلتبس.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[الإسراء بجسده ﷺ يقظة]

قوله عند قول الشفا وليس في الإسراء بجسده ﷺ حالة يقظته استحالة. الاستحالة المذكورة، أي عدّ الإسراء محالاً صدر من كفار قريش، ومن بعض ضعفاء المسلمين إذ توهموا أن قطع مثل هذه المسافة ذهاباً وإياباً في بعض ليلة محال لأنها بعيدة بحيث تقطع في أيام كثيرة.

ومن بعض أرباب علم الهيئة الذين قالوا إن الأفلاك لا فرجة فيها ولا تقبل الخرق والالتئام وكلاهما خطأ عقلاً ونقلاً. ألا ترى نقل عرش بلقيس في طرفة عين من مسافة أبعد من مسافة ما بين مكة والبيت المقدس حيث وقع الإسراء به ﷺ، وغير ذلك مما هو مأثور مشهور... وقد نطقت النصوص بأن السماء لها أبواب تفتح وتغلق فلا عبرة بأوهام الفلاسفة، وقال البيضاوي تبعاً للإمام الرازي الاستحالة مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة ونيفا وستين مرة، ثم إن طرفها الأسفل يصل لموضع طرفها الأعلى في أقل من ثانية، والأجسام كلها متساوية في قبول الأعراض، والله قادر على كل الممكنات فيقدر على أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي ﷺ، وفيما حمله والتعجب من لوازم المعجزات انتهى.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[النبي ﷺ أوتي ما كان للأنبياء جميعاً]

قوله عند قول الشفا: وقال الأشعري: كل آية أوتيها نبي من الأنبياء، فقد أوتي مثلها نبينا ﷺ.

قيل الحقيقة المحمدية صورة الاسم الأعظم الجامع للأسماء، فله التصرف في العوالم، ومنه تستفيد وتستمد ما فيها من جهة حقيقته، لا من جهة بشريته، فهو ﷺ الخليفة حقيقة، وأيّ معجزة كانت لنبي فهي له أولاً، وبالذات، ثم جاءت منه لغيره، وإلى هذا أشار في البردة بقوله:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

إن الله خلق روحه ﷺ قبل الأرواح، وخلع عليها خلعة النبوة، ثم خلق أرواح البشر، وأمر أرواح الأنبياء أن يؤمنوا به ﷺ، وأخذ عليهم الميثاق باتباعه إن أدركوه كما نطق به الكتاب العزيز، فلما أجابوه أشرق عليهم نوره الروحاني الرباني، وصارت في أرواحهم قوى مستعدة لإظهار المعجزات، كما لأولياء أمته إذا أظهروا الكرامات أشرق عليهم نوره، وهذا هو الذي قصده البوصيري رحمه الله تعالى فاعرفه.

ثم قال عند قول الشفا: وخصّ ﷺ من بينهم بتفضيل الرؤية والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى عليه الصلاة والسلام لها» بقوله: ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وموسى من أولي العزم لا يسأل من الله تعالى ما لا يجوز، فلو لم يعتقد صحة ذلك ما سأله، وإلا كان جهلاً منه بأحوال الربوبية وهو مبرأ منه.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[مكتوب في التوراة أنه ﷺ حبيب الله]

قوله عند قول الشفا: فهو ﷺ مكتوب في التوراة حبيب الله.

قال الدلجي: حاصله أنه ثبت لنبينا ﷺ وصف المحبة من غير مشاركة فيها والخلة التي شاركه فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد أثبتها ﷺ لنفسه في آخر خطبة خطبها قبل وفاته بخمسة أيام، فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه عز اسمه إنه: «قد كان لي فيكم أخوة وأصدقاء وإني أبرأ إلى الله تعالى أن اتخذ أحداً منكم خليلاً ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، إن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وأوتيت البارحة مفاتيح خزائن

الأرض والسماء»[1]. وهو تعريف منه ﷺ بأعلى مقاماته، وأكمل حالاته، وبين خلته ﷺ وخلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام فرق، لأن خلته حقيقية أصلية وخلة ابراهيم مستعارة من خلته الذاتية، ولذا قال إبراهيم في حديث الشفاعة، إنما كنت خليلاً من وراء وراء، فالخليل غيره عليه الصلاة والسلام وهو محمد ﷺ انتهى.

فهو ﷺ مختص بالمحبة والخلة الحقيقيتين، وإلا فقد قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولكل صفة مراتب فهو ﷺ مختص بأعلاهما. ثم قال عند قول الشفا «الخلة صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار».

اعلم أنه تقدم أن الفرق بين المحبة والمودة والخلة إن المحبة ميل القلب لما هو حسن عنده، سواء كان حسن صورة أو كمال، كمحبة العلماء والصلحاء أو انتفاع وأنعام لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، والمودة مواصلة من تحبه والتودد إليه، فإذا زادت المودة وخلصت كانت خلة.

فإن قلت فحينئذ الخلة أخص من المحبة فتكون أفضل فلم قيل أن المحبة أفضل؟

قلت: المحبة أعم فقد تكون من غير مخالطة وقرب، فلا خلة فيها إلا أن المحبة قد تصل إلى مرتبة بحيث يكون الحبيب لا يغيب عن ذكر المحب طرفة عين حتى يصل إلى الهيام وذهاب العقل، وتبذل لها الأرواح فضلاً عما سواها، وهذه تسمى عشقاً والعشق لا يجوز في الشرع، إضافته لله تعالى فلا يقال عشقت الله كما ذكره ابن تيمية وغيره وإن وقع من بعض الحكماء والصوفية، وإن كان مع هذه المرتبة خلة وتقريب فليس كهذا المحب محب ولا كحبيبه حبيب.

وهذه المحبة هي التي اختص بها نبينا ﷺ بعد الإسراء لما رأى الله تعالى وشاهد من جماله وجلاله عز وجل ووصل من قربه تعالى لمرتبة لم يصل لها رسول ولا ملك مقرب، وتمت له خلة مقربة لم ينلها غيره ﷺ، فلم يحتج لغيره ولا سأل سواه عز وجل، وعرض عليه ﷺ مفاتيح خزائن السموات والأرض، وأعانه الله تعالى ونصره نصراً عزيزاً وغفر له ما تقدم وما تأخر مع أنه لم يصدر عنه زلة وأطلعه على أسراره وحظائر قدسه عز وجل.

وأي خلة كهذه، فلذا كان ﷺ مخصوصاً بأنه خليل الله أيضاً، وقال الخليل عليه الصلاة والسلام أنا خليل من وراء وراء، وكرر وراء إشارة إلى زيادة قرب نبينا ﷺ في الأرض والسماء، فلا منافاة بين اختصاصه ﷺ ووصف إبراهيم عليه الصلاة والسلام وإن اشتهر بذلك

---

(١) رواه أبو عوانة (١: ٤٠١).

لأنه أجل صفاته، واشتهر محمد ﷺ بالحبيب لأنه بهذا المعنى أجل من الخليل، وهذا من جانب العبد.

وأما من الله تعالى فمحبته للنبي ﷺ بمعنى تقريبه وإنعامه وتعليمه ما لم يعلمه غيره وتفضيله على ما سواه وخلته له وإسعافه له بجليل هذه النعم، وتوفيقه لجعله نصب بصره وبصيرته حتى كأنه معه في كل حين فاعرفه.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود]

قوله عند قول المصنف: فضل في تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود. المقام المحمود كل مقام يتضمن كرامة محمد ﷺ ولكنه خص هنا بفرد معين من أفراده اختلف فيه كما قاله البرهان نقلاً عن القرطبي على ستة أقوال:

فقيل هو: الشفاعة العامة، وقيل: إعطاؤه لواء الحمد وقيل، هو أن يجلس ﷺ مع الله تعالى على الكرسي، وهذا ما نقل فيه حديث طعنوا فيه ويأتي ما فيه ومنهم من أوّله، وقيل: هو شفاعته ﷺ لإخراج بعض أهل النار منها، وقيل: هو شفاعته ﷺ رابع أربعة، إذ يقوم له روح القدس إذ يقوم له روح القدس جبريل عليه السلام، ثم يقوم موسى أو عيسى عليه الصلاة والسلام، ثم يقوم محمد ﷺ فيشفع ولا يشفع أحد بعده في أكثر مما يشفع، وبه فسرت الآية.

وقيل: هو مقام يكون أقرب فيه من جبريل عليه السلام، والشفاعة ثابتة له ﷺ بالاجماع إلا أنها عند أهل السنة لأصحاب الكبائر لحديث شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي وعند المعتزلة لزيادة الثواب لا لدرء العقاب.

والكلام عليه مفصل في كتب الأصول وكونه محموداً على ظاهره أو إسناده مجازي أي صاحبه محمود قال الله تبارك وتعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] استشهد في الشفا بالآية على ما قاله وقد علمت ما فسر به المقام المحمود.

وأما الوجه الثالث: وهو جلوسه ﷺ مع الله تعالى على العرش والكرسي فقد قال الواحدي رحمه الله تعالى: إنه قول فاسد مبني على التجسيم، وبين فساده بوجوه منها:

إن البعث هو الإثارة والإقامة والجلوس ضده فكيف يفسر به، وأيضاً هو يقتضي التحديد والتناهي المستلزم للحدوث، وأيضاً أنه قال: مقاماً ولو كان كذلك لقال مقعداً ومثله لا يدل عليه لفظ البعث، ورد هذا بأنه رواه الإمام أحمد من طرق شتى ومثله من المتشابه كقوله

تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقد صححه الدارقطني وقال رداً على منكره وأجاد في ذلك رحمه الله تعالى رحمة واسعة:

حديث الشفاعة عن أحمد إلى أحمد المصطفى نسندهْ
وقد الحديث بإقعاده على العرش أيضاً ولا نجحدهْ
امروا الحديث على وجهه ولا تدخلوا فيه ما يفسده
ولا تنكروا أنه قاعد ولا تنكروا أنه يقعده

فجلوسه ﷺ لا مانع منه، وأما نسبة ذلك لله تعالى وقوله أنه معه فليس المراد ظاهره، بل هو وأمثاله مؤولة وهي كثيرة، وعسى معناها الترجي في المحبوب والإشفاق في المكروه والترجي منه ﷺ ظاهر ومن الله تعالى، قالوا: إنه إيجاب أم جزم بوقوعه إذ الله تعالى لا يجب عليه شيء، كما تقرر في الكلام.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[أنا أول من تنشق عنه الأرض]

قوله عند قوله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة، وأول شافع، وأول مشفع»[١]. وقول صاحب الشفا بعده خاتم النبيين وآخر الرسل ﷺ.

اعلم أنه وقع هنا في بعض الحواشي، أنه سماه بالأول والآخر والظاهر والباطن، وفسر الأول والآخر بما مر والظاهر بأنه الذي لا يخفى على عاقل وجوده أو القادر والباطن بالمحبوب عن عباده في الدنيا أو الذي لا يحاط به أو الذي لا كيفية له.

وقيل: الظاهر القريب والباطن العليم الحكيم وروي فيه حديث، وهو أن جبريل عليه السلام نزل عليه ﷺ وقال: السلام عليك يا أول السلام عليك يا آخر السلام عليك يا ظاهر السلام عليك يا باطن. فقال: «ياجبريل كيف تكون هذه الصفة لمخلوق مثلي وهي صفة للخالق لا تليق إلا به». فقال: إن الله تعالى أمرني أن أسلم عليك بها وقد خصك بها دون الأنبياء والمرسلين وشق لك اسماً من اسمه وصفة من صفته، وسماك بالأول لأنك أول الأنبياء خلقاً، وسماك آخراً لأنك خاتم النبيين، وسماك بالباطن لأنه عز وجل كتب اسمك مع اسمه بالنور الأحمر على ساق العرش قبل أن يخلق أباك آدم بألف عام إلى ما لا غاية له ولا نهاية،

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٣١٤٨). وابن ماجه في السنن (٤٣٠٨). وأحمد في المسند (١: ٢٨١). والحاكم في المستدرك (٢: ٤٦٥). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ١٩٨).

وأمرني بالصلاة والسلام عليك، فصليت عليك ألف عام حتى بعثك بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وسماك بالظاهر لأنه أظهرك في عصرك، وأظهر دينك على الدين كله، وفضلك على أهل السموات والأرض فما منهم أحد إلا وقد صلى عليك صلى الله تعالى عليك وسلم، فربك محمود وأنت محمد وربك الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت الأول والآخر والظاهر والباطن». فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي فضلني على جميع النبيين في اسمي وصفتي» انتهى.

قال الشهاب الخفاجي بعده وهذا مما لم نره لغيره. ولم يذكر اسم صاحب هذا الكلام وإنما نقله عن بعض الحواشي كما ترى ولو لم يرضه لم ينقله.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[القرآن أعظم المعجزات]

قوله عند قول المصنف في بيان إعجاز القرآن: حكى الأصمعي أنه سمع جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك ما أفصحك فقالت: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، فهذا نوع من الإعجاز منفرد بذاته غير مضاف لغيره على التحقيق والصحيح من القولين. وكون القرآن من قبل النبي ﷺ وأنه اتى به معلوم ضرورة.

الظاهر أن مراده بالقولين هنا كما قاله بعضهم القول بأن إعجاز القرآن هل هو بمجموع بلاغته وأسلوب نظمه أو هو متحقق بكل واحد منهما على حدته وانفراده بدون إضافة أحدهما إلى الآخر، فإن كلاً منهما خارق للعادة خارج عن طوق البشر، وهذا هو المتبادر من سياقه. وقيل: المراد بالقولين القول بأن إعجازه ببلاغته التي لا يرتقي أحد إلى مرتبتها، والقول بأنه معجز بغير ذلك كالصرفة والأخبار بالمغيبات، ولا شك في أن من يقول بإعجازه ببلاغته وأسلوبه يقول أيضاً أنه بالنظر لمعناه أيضاً إذ لا يمكن قطع النظر عنه كما قاله العلامة الزركشي في برهانه.

إذ قال أكثر المحققين على أن الإعجاز من جهة البلاغة، لكن تعذرت الإحاطة بتفصيلها، فإن أجناس الكلم مختلفة ومراتب البيان متفاوتة فمنا البليغ الرصين الجزل، والفصيح القريب السهل، والجائز الطلق الرسل، فهذه أقسامها المحمودة، والأول أعلاها، والثاني أوسطها، والثالث أدناها، وقد حازت بلاغة القرآن من كل شعبة، فانتظم له نمط جمع

الفخامة والعذوبة، وهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة، والمتانة والجزالة يعالجان الزعورة[1] فكان اجتماعهما فضيلة خص بها القرآن ليكون آية بينة، وإنما تعذرت على البشر لأن علمهم لا يحيط بجميع اللغة العربية وظروف معانيها، وأفهامهم لا تدرك جميع معانيها ووجه نظمها فيتخيروا أحسنها حتى يأتوا بمثله، وإنما يقوم الكلام بلفظ حامل معنى عليه قائم، ورباط له ناظم، فإذا تأملت القرآن وجدته استوفى ذلك كله ورقي لأعلى درجاته. وهذا لا يتيسر لغير العليم القدير، فإنما صار معجزاً لأنه جاء بأحسن الألفاظ وأبدع النظم والتأليف، وأصح المعاني من الدعاء للتوحيد، وطاعة الرب المجيد، والتحليل والتحريم، والعظة والتقويم، والإرشاد إلى محاسن الأخلاق والزجر عن مساويها واضعاً كل شيء في موضعه بحيث لا ترى محلاً أولى من محل، مودعاً فيه مثلاً أخبار القرون الماضية، منبئاً بالحوادث المستقبلة أزمانها، جامعاً للحجج والمحتج له المؤكدة للزوم ما دعا له، ولا شك أن استيفاء هذه الأمور متسق أحسن نسق لا يمكن لغيره عز وجل.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[موضع قبره ﷺ أفضل من بقاع الأرض كلها]

قوله عند قول صاحب الشفا: ولا خلاف أن موضع قبره ﷺ أفضل من بقاع الأرض؛ كلها بل هو أفضل من السموات والعرش والكعبة كما نقله السبكي رحمه الله تعالى لشرفه ﷺ وعلو قدره، وقال القرافي في القواعد للتفضيل أسباب: فقد يكون للذات، كتفضيل العلم، وقد يكون بكثرة العبادة له، أو لما وقع فيه وقد يكون بالمجاورة كتفضيل جلد المصحف، وقد يكون بالحلول كتفضيل قبره ﷺ على البقاع، فلا وجه لإنكار ما في الشفا، بأن الأفضلية إنما هي بكثرة الثواب على الأعمال ولا عمل في القبر، فإنه ممنوع ويلزمه أن يكون جلد المصحف بل المصحف مفضلاً، وبطلانه معلوم من الدين بالضرورة.

ووافقه السبكي رحمه الله تعالى فقال: الإجماع على أن قبره ﷺ أفضل البقاع وهو مستثنى من تفضيل مكة على المدينة كما قيل:

جزم الجميع بأن خير الأرض ما … قد حاط ذات المصطفى وحواها

ونعم لقد صدقوا بساكنها علت … كالنفس حين زكت زكا مأواها

وقال ابن عبد السلام: التفضيل يكون لأمور غير العمل فقبره ﷺ أفضل الأمكنة لتجلي

---

(١) الزعورة: قلة النبات.

الله له بما ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة. ولا حاجة إلى ما قيل: إنه ﷺ حي في قبره، له أعمال فيه مضاعفة، وإن كان صحيحاً، ولو سلمنا أن المكان لا فضل له في ذاته، فكفاه الفضل لأجل من حل فيه.

وقول السروجي من الحنفية: لم نجد من تعرض لهذا في مذهبنا، ليس لتوقف فيه بل لعدم وقوفه عليه، ويكفي لفضله ما اشتهر، من أن كل أحد يدفن في التربة التي خلق منها.

قال الخفاجي: قلت: وفي هذا فضل لضجيعيه وفخر كفى شرفاً لهما، حتى قال في «عوارف المعارف»: روي عن ابن عباس أن أصل طينته ﷺ من سرة الأرض، وهو موضع الكعبة بمكة، فأول ما أجاب ذرته ﷺ، ومنها دحيت الأرض، فهو أصل التكوين والكائنات تُبع له، ولما تموج الطوفان، أتي بطينته لمحل دفنه ﷺ، ففي الحقيقة لم يدفن إلا في أصل الكعبة الذي خلق منه ﷺ.

قال الخفاجي بعده: وهو غريب لا يعلم مثله إلا بالنقل، وهو قول ثقة ويؤيده ما جاء في بعض الآثار: أن سليمان عليه الصلاة والسلام زار محل قبر نبينا ﷺ وأخبر أنه سيقبر فيه وترك ثَمَّ أربعمائة من أحبار بني إسرائيل ينتظرون بعثه وهجرته إليهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وههنا بحث، وهو أن البقعة التي ضمت الجسد العظيم إذا كانت أفضل من سائر البقاع يلزم أن تكون المدينة أفضل من مكة بلا نزاع، لأن المدينة هي تلك البقعة مع زيادة الخير خير، فكيف يتصور الخلاف بينهم على هذا، بل نقول: المدينة بعد هجرته ﷺ إليها وإقامته فيها تفضل مكة حينئذ، لأن شرف المكان بالمكين، فلا بد من تحرير الخلاف حتى يقام عليه الدليل.

وفي كلام شيخنا ابن قاسم ما يقتضي أن فضل البقعة التي ضمت أعضاءه ﷺ ثابت قبل دفنه فيها وقبل موته بل وقبل هجرته. نعم قد يقال تفضيلها على الكعبة والعرش والكرسي إنما ثبت بعد دفنه ﷺ فيها لشرفها به لا قبله، لأنها حينئذٍ ليس فيها إلا أنها جزء من الكعبة مجرد فلا يزيد على بقية أجزائها، إلا أن يقال إعدادها لدفنه ﷺ فيها اقتضى مزيتها على بقية أجزائها قبل دفنه فيها أيضاً. وهل البقعة المذكورة أفضل من منزله عليه الصلاة والسلام في الجنة؟ أو منزله فيها أفضل، كما يسبق إلى الفهم، وقد يقال: هذه أفضل ما دام فيها، فإذا صار في الجنة صار منزله أفضل. وقد يقال: يجوز أن تكون هذه منقولة من منزله في الجنة، أو ينقل إليها فلها حكمه فليتأمل.

واعلم أن العز بن عبد السلام لما قال: إن الأمكنة والأزمنة متساويان لا تفاضل بينهما،

ظن بعضهم أن القبر الشريف لا يتصور تفضيله لذاته، فإن التفضيل للمكان إنما هو بحسب فضل الأعمال الواقعة، ورد بأن التفضيل له أسباب غير ذلك كما مر، وفضل الأعمال في المدينة على أعمال مكة غير مسلم، ولو سلم ففيها أعمال كثيرة ليست بغيرها، كالحج والعمرة والمناسك، فهي تزيد بذلك، فلذا قال مالك: في المدينة ما ليس في غيرها لمجاورة رسول الله ﷺ، وظهور الإسلام ونحوه والخلاف لفظي.

ومن جواهر الشهاب الخفاجي أيضاً

[جميع الأنبياء خلقوا من نور النبي ﷺ]

قوله في أواخر شرح الشفا عند الكلام على قتل الحلاج قال الشاذلي: اضطجعت في المسجد الأقصى في وسط الحرم، فدخل خلق كثير أفواجاً. فقلت: ماهذا الجمع؟ قالوا: جمع الأنبياء والرسل، قد حضروا ليشفعوا في حسين الحلاج عند محمد ﷺ في إساءة أدب وقعت منه، فنظرت إلى التخت، فإذا نبينا ﷺ جالس عليه بانفراد وجميع الأنبياء على الأرض جالسون مثل إبراهيم وموسى وعيسى ونوح. فوقفت أنظر وأسمع كلامهم فخاطب موسى محمداً عليهما الصلاة والسلام فقال له: إنك قلت: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[1] فأرني منهم واحداً. فقال: «هذا». وأشار إلى الغزالي، فسأله موسى سؤالاً فأجابه بعشرة أجوبة فاعترض عليه موسى بأن [الجواب ينبغي أن يطابق السؤال][2] والسؤال واحد والجواب عشرة. فقال له الغزالي: هذا الاعتراض وارد عليك أيضاً حين سئلت: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٧]. وكان الجواب هي عصاي فعددت لها صفات كثيرة. قال الشاذلي: فبينما أنا متفكر في جلالة قدر محمد ﷺ، وكونه جالساً على التخت بانفراده والبقية على الأرض إذ زقني شخص برجله زقة مزعجة فانتبهت، فإذا بقيّم المسجد يشعل قناديل الأقصى فقال: لا تعجب، فإن الكل خلقوا من نوره ﷺ فخررت مغشياً عليّ، فلما أقاموا الصلاة أفقت وطلبت القيّم فلم أجده إلى يومي هذا، ومن هنا قال صاحب البردة:

فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

---

(١) رواه الألباني في السلسلة الضعيفة (٦٦٦). والفتني في تذكرة الموضوعات (٢٠). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٤٧). والشوكاني في الفوائد المجموعة (٢٨٦).

(٢) ورد في الأصل: «السؤال ينبغي أن يطابق الجواب» والعكس صحيح.

ومنهم العارف بالله سيدي الشيخ إسماعيل حقي[1] صاحب تفسير روح البيان الذي أتم تأليفه سنة ١١١٧ هـ

فمن جواهره رضي الله عنه

[تفسير ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾]

قوله في تفسير سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

اعلم أن الله تعالى بعث النبي ﷺ نوراً يبين حقيقة حظ الإنسان من الله تعالى، وأنه تعالى سمّى نفسه نوراً بقوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] لأنهما كانتا مخفيتين في ظلمة العدم، فالله تعالى أظهرهما بالإيجاد، وسمى الرسول نوراً، لأن أول شيء أظهره الحق بنور قدرته من ظلمة العدم كان نور محمد ﷺ، كما قال: «أول ما خلق الله نوري»، ثم خلق العالم بما فيه من نوره بعضه، من بعض فلما ظهرت الموجودات من وجود نوره سماه نوراً، وكل ما كان أقرب إلى الاختراع كان أولى باسم النور، وعالم الأرواح أقرب إلى الاختراع من عالم الأجساد. فلذلك سمي عالم الأنوار والعلويات نورانياً، بالنسبة إلى السفليات، فأقرب الموجودات إلى الاختراع لما كان نور النبي عليه الصلاة والسلام كان أولى باسم النور، ولهذا كان يقول أنا من الله والمؤمنون مني، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ﴾ [المائدة: ١٥] وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام، وكان يسبح ذلك النور، وتسبح الملائكة بتسبيحه، فلما

---

(١) هو إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء. متصوف مفسر تركي مستعرب. ولد في آيدوس وتوفي فيها سنة ١١١٧ هـ.

خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه»(١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺأنه قال: «لما خلق الله آدم أهبطني في صلبه إلى الأرض، وجعلني في صلب نوح في السفينة، وقذفني في صلب إبراهيم، ثم لم يزل تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط»(٢). وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اعترف آدم بالخطيئة قال: يارب أسألك بحق محمد أن تغفر لي. فقال الله: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه قال: لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعرفت إنك لم تضف إلى اسمك إلا اسم أحب الخلق إليك، فقال الله تعالى: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ، وقد غفرت لك، ولولا محمد لما خلقتك». رواه البيهقي في دلائله.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي أيضاً

[تفسير ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾]

قوله رضي الله عنه في تفسير سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧](٣).

فقد علم أن اتباع القرآن، وتعظيم النبي ﷺ بعد الإيمان، سبب للفوز والفلاح عند الرحمن، ونصرته ﷺ على العموم والخصوص، فالعموم: للعامة من أهل الشريعة، والخصوص: للخاصة من أرباب الطريقة، وأصحاب الحقيقة، وهم الواصلون إلى كمال أنوار الإيمان وأسرار التوحيد بالإخلاص والاختصاص.

واعلم أن المقصود الإلٰهي من ترتيب سلسلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو وجود محمد ﷺ، فوجود الأنبياء قبله كالمقدمة لوجوده الشريف ﷺ، فهو الخلاصة والنتيجة

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ١٨٨).
(٢) رواه الترمذي في للسنن (٣٣٦٨). بما معناه.
(٣) وردت في الأصل: ﴿أولئك هم الفائزون﴾ في أن اللفظ في هذه الآية غير وارد بهذا الشكل.

والزبدة، وأشرف الأنبياء والمرسلين كما قال ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً ﷺ وتربتها طهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»[1]. وكذلك المقصود من الكتب الإلٰهية السالفة هو القرآن الذي أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام، فهو زبدة الكتب الإلٰهية وأعظمها ومصدق لما بين يديه، لأنه بلفظ قد أعجز البلغاء أن يأتوا بسورة من مثله وبمعناه جامع لما في الكتب السالفة من الأحكام والآداب والفضائل. متضمن للحجج والبراهين والدلائل. وكذا المقصود من الأمم السالفة هو هذه الأمة المرحومة، أعني أمة محمد ﷺ، فهي كالنتيجة لما قبلها، وهي الأمة الوسط كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣].

ثم أثنى رضي الله عنه على الدولة العلية العثمانية نصر الله بها الدين، وأعز بها المسلمين، وأدامها موفقة للخيرات إلى يوم الدين ثم قال عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨] الخطاب عام وكان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى الكافة من الثقلين إلى من وجد في عصره، وإلى من سيوجد بعده إلى يوم القيامة بخلاف سائر الرسل، فإنهم بعثوا إلى أقوامهم أهل عصرهم، ولم تستمر شرائعهم إلى يوم القيامة.

قال الحدادي: «إني رسول الله إليكم كافة أدعوكم إلى طاعة الله وتوحيده واتباعي فيما أؤديه إليكم».

وفي «آكام المرجان» لم يخالف أحد من طوائف المسلمين، في أن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الجن والإنس والعرب والعجم فإن قلت: في بعثة سليمان عليه السلام مشاركة له ﷺ لأنه أيضاً كان مبعوثاً إلى الإنس والجن وحاكماً عليهما بل على جميع الحيوانات، قلت: إن سليمان لم يبعث إلى الجن بالرسالة بل بالملك، والضبط والسياسة والسلطنة، لأنه عليه السلام استخدمهم وقضى بينهم بالحق، وما دعاهم إلى دينه لأن الشياطين والعفاريت كانوا يقومون في خدمته وينقادون له مع أنهم على كفرهم وطغيانهم، ثم قال عند قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]. قال سيد الطائفة الجنيد قدس سره: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول ﷺ، واتبع سنته، ولزم طريقته، لأن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه وعلى المقتفين أثره والمتبعين سنته ﷺ.

---

(١) رواه الترمذي في السنن (١٥٥٣). وأحمد في المسند (٢: ٤١٢). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٤٣٢). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٦٩). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٢٠٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٣٢).

ثم قال: فإذا اتبعت فاتبع سيد المرسلين محمداً ﷺ الذي آدم ومن دونه من الأنبياء والأولياء تحت لوائه فإذا اتبعت واحداً من أمته فلا تتبعه لمجرد كونه رجلاً مشهوراً بين الناس مقبولاً عند الأمراء والسلاطين، بل الواجب عليك أن تعرف أولاً الحق، ثم تزن الرجال به وفيه.

قال باب العلم الرباني علي رضي الله عنه: من عرف الحق بالرجال حار في تيه الضلال. بل اعرف الحق تعرف أهله، وبقدر متابعتك للنبي ﷺ تستحكم مناسبتك به وتتأكد علاقة المحبة بينك وبينه وبكل ما يتعلق به ﷺ من الصلاة عليه، أو زيارة قبره، أو جواب المؤذن، والدعاء له عقيبه، فإذا فعلت ذلك، كنت مستحقاً لشفاعته ﷺ. قالوا: وضع شعر رسول الله ﷺ، أو عصاه، أو سوطه على قبر عاصٍ لنجا ذلك العاصي ببركات تلك الذخيرة من العذاب، وإن كانت في دار إنسان، أو بلدة لا يصيب سكانها بلاء ببركاتها، وإن لم يشعروا بها ومن هذا القبيل ماء زمزم، والكفن المبلول به، وبطانة أستار الكعبة والتكفن بها.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: وإذا أردت مثالاً من خارج، فاعلم أن كل من أطاع سلطاناً وعظمه، فإذا دخل بلدته ورأى فيها سهماً من جعبة أو سوطاً له، فإنه يعظم تلك البلدة وأهلها فالملائكة يعظمون النبي ﷺ، فإذا رأوا ذخائره في دار أو بلدة أو قبر عظموا صاحبه وخففوا عنه العذاب.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه

[تفسير ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾]

قوله في تفسير سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]: تعظيم للنبي ﷺ وحفظ لحرمته، وقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، والرحمة والعذاب ضدان، والضدان لا يجتمعان، قيل: إن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الأمان الأعظم ما عاش، ودامت سنته باقية، والآية دليل على شرفه عليه الصلاة والسلام واحترامه عند الله تعالى حيث جعله سبباً لأمان العباد، وعدم نزول العذاب. وفي ذلك إيماء إلى أن الله تعالى يرفع عذاب قوم لاقترانهم بأهل الصلاح والتقى.

قال حضرة الشيخ الشهير بأفتاده قدس سره: جميع الانتظام بوجوده الشريف ﷺ فإنه مظهر الذات وطلسم العوالم حتى قيل في وجه عدم ارتحال جسده الشريف من الدنيا مع أن عيسى عليه الصلاة والسلام قد عرج إلى السماء بجسده: إنه إنما بقي جسمه الطاهر ﷺ هنا لإصلاح عالم الأجساد وانتظامه.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه أيضاً

[تفسير ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾]

قوله في تفسير سورة الحجر عند قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]: قسم من الله تعالى بحياة النبي ﷺ وهو المشهور وعليه الجمهور. عن ابن عباس رضي الله عنهما: ما خلق الله تعالى نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره ﷺ.

وفي «التأويلات النجمية»: هذه مرتبة ما نالها أحد من العالمين إلا سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ من الأزل إلى الأبد وهو أنه تعالى أقسم بحياته ﷺ. ثم قال: وقد أقسم الله تعالى بالنبي ﷺ في قوله: «لعمرك» ليعرف الناس عظمته عند الله تعالى ومكانته لديه عز وجل.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه أيضاً

[تفسير أول سورة الإسراء]

قوله في تفسير سورة الإسراء عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]: قال الشيخ الأكبر قدس سره: إن معاريجه عليه الصلاة والسلام أربعة وثلاثون، منها: مرة واحدة بجسده، والباقي: بروحه رؤيا رآها، أي قبل النبوة وبعدها، وكان الإسراء الذي حصل له ﷺ قبل أن يوحى إليه توطئة له وتيسيراً عليه كما كان بدء نبوته الرؤيا الصادقة، والذي يدل على أنه ﷺ عرج مرة بروحه وجسده معاً.

قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ فإن العبد اسم للروح والجسد جميعاً، وأيضاً: إن البراق الذي هو من جنس الدواب، إنما يحمل الأجساد وأيضاً لو كان بالروح حال المنام أو حال الفناء أو الانسلاخ لما استبعده المنكرون، وقد ذكروا أن جبريل عليه السلام أخذ طينة النبي ﷺ فعجنها بمياه الجنة وغسلها من كل كثافة، وكدورة، فكأن جسده الطاهر كان من العالم العلوي كروحه الشريف، وكان الإسراء ليلة سبع وعشرين من رجب ليلة الإثنين وعليه عمل الناس قالوا: إنه ﷺ ولد يوم الإثنين، وبعث يوم الإثنين، وأسري به ليلة الإثنين، وخرج من مكة يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، ومات ﷺ يوم الإثنين.

ثم قال عند قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ غاية للإسراء، وإشارة إلى أن الحكمة في الإسراء به ﷺ إراءة آيات مخصوصة بذاته تعالى التي ما شرف بإراءتها أحداً من الأولين

والآخرين إلا سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ، فإنه تبارك وتعالى أرى خليله عليه السلام وهو أعز الخلق عليه بعد حبيبه ﷺ الملكوت، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:٧٥]. وأرى حبيبه آيات ربوبيته الكبرى كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨] ليكون من المحبين المحبوبين فـ «من» تبعيضية، لأن ما أراه الله تعالى في تلك الليلة، إنما هو بعض آياته العظمى، وإضافة الآيات إلى نفسه تعالى على سبيل التعظيم لها، لأن المضاف إلى العظيم عظيم.

قال في أسئلة الحكم: أما الآيات الكبرى فمنها في الآفاق ما ذكره ﷺ من النجوم والسموات والمعارج العلى، والرفرف الأدنى، وصرير الأقلام، وشهود الألواح، وما غشى الله سدرة المنتهى، من الأنوار وانتهاء الأرواح، والعلوم والأعمال إليها، ومقام قاب قوسين من آيات الآفاق، إلى أن قال فما نقل عبده من مكان إلى مكان إلا ليريه من آياته التي غابت عنه كأنه تعالى قال: ما أسريت به إلا لرؤية الآيات، لا إليّ فإني لا يحدني مكان ولا يقيدني زمان. ونسبة الأمكنة والأزمنة إليّ نسبة واحدة وأنا الذي وسعني قلب عبدي المؤمن، فكيف أسري به إليَّ وأنا عنده، ومعه أينما كان، نزولاً وعروجاً واستواءً.

وقد ساق رضي الله عنه قصة الإسراء والمعراج بطولها مع فوائد جمّة في أكثر من عشرة أوراق بالقطع الكبير والخط الدقيق.

قال رضي الله عنه: ومن كان مؤمناً لا ينكر المعراج، ولكن وقوع السير المذكور في مقدار ذلك الزمن اليسير يشكل عند العقل بحسب الظاهر، وأما عند التحقيق فلا إشكال ألا يرى أن في الوجود الإنساني شيئاً لطيفاً، أعني القلب يسير من المشرق إلى المغرب، بل في جميع العوالم في آن واحد، وهو بديهي لا ينكر من له أدنى تمييز حتى البله والصبيان، أفلا يجوز أن تحصل تلك اللطافة لوجود النبي ﷺ بقدرة الله تعالى فوقع ما وقع منه في الزمن اليسير.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه أيضاً

[تفسير ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾]

قوله في تفسير سورة الأنبياء عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]: فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن أعرض عنه ﷺ واستكبر فإنما وقع في المحنة من قبل نفسه فلا يرحم.

قال بعضهم: جاء رحمة للكفار أيضاً من حيث إن عقوبتهم أخرت بسببه، وآمنوا به عذاب الاستئصال والخسف والمسخ.

ورد في الخبر أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فهل أصابك من هذه الرحمة شيء»؟ قال: نعم، إني كنت أخشى عاقبة الأمر فآمنت بك لثناء الله تعالى عليَّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ١٠ - ٢١].

وقال بعض الكبار: وما أرسلناك إلا رحمة مطلقة، تامة كاملة، شاملة، عامة، جامعة محيطة، بجميع المقيدات من الرحمة الغيبية والشهادة العلمية، والعينية، والوجودية، والشهودية، والسابقة، واللاحقة، وغير ذلك للعالمين، جمع عالم من ذوي العقول وغيرهم من عالم الأرواح والأجسام، ومن كان رحمة للعالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين.

وفي التأويلات النجمية في سورة مريم بين قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ [مريم:٢١] في حق عيسى عليه السلام، وبين قوله تعالى في حق نبينا ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فرق عظيم وهو أنه تعالى ذكر في حق عيسى عليه السلام الرحمة مقيدة بحرف من، ومن للتبعيض، فبهذا كان رحمة لمن آمن به واتبع ما جاء به إلى أن بعث نبينا ﷺ، ثم انقطعت الرحمة من أمته بنسخ دينه، وفي حق نبينا ﷺ ذكر تعالى الرحمة للعالمين، فلهذا لا تنقطع الرحمة عن العالمين أبداً، أما في الدنيا فبأن لا ينسخ دينه، وأما في الآخرة فبأن يكون الخلق محتاجين إلى شفاعته، حتى إبراهيم عليه السلام، فافهم جداً.

قال في «عرائس البقلي»: أيها الفهيم، إن الله أخبرنا أن نور محمد ﷺ أول ما خلقه، ثم خلق جميع الخلائق من العرش، إلى الثرى من بعض نوره فأرسله ﷺ إلى الوجود رحمة لكل موجود، إذ الجميع صدر منه، فكونه كوّن الخلق، وكونه سبب وجود الخلق، وسبب رحمة الله على جميع الخلائق فهو رحمة كافية، وافهم أن جميع الخلائق صورة مخلوقة مطروحة في فضاء القدرة بلا روح، حقيقة متنظرة لقدوم محمد ﷺ، فإذا أقدم إلى العالم صار العالم حياً بوجوده، لأنه روح جميع الخلائق، ويا عاقل إن من العرش إلى الثرى، لم يخرج من العدم إلا ناقصاً من حيث الوقوف على أسرار قدمه تعالى بنعت كمال المعرفة والعلم، فصاروا عاجزين عن البلوغ إلى شط بحار الألوهية وسواحل قاموس الكبريائية، فجاء محمد ﷺ إكسير أجساد العالم، وروح أشباحه بحقائق علوم الأزلية وأوضح سبيل الحق للخلق بحيث جعل سفر الآزال والآباد للجميع خطوة واحدة، فإذا قدم من الحضرة إلى سفر القربة بلغهم جميعاً بخطوة من خطوات صحارى ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:١] حتى وصل إلى مقام أو أدنى، فغفر الحق لجميع الخلائق بمقدمه المبارك.

قال بعض العلماء: إن كل نبي كان مقدمة للعقوبة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. ونبينا ﷺ كان مقدمة للرحمة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وأراد الله تعالى أن يكون خاتمة على الرحمة، لا على العقوبة لقوله تعالى: «سبقت رحمتي غضبي».

ولهذا جعلنا آخر الأمم. فابتداء الوجود رحمة، وآخره وخاتمته رحمة. واعلم أنه لما تعلقت إرادة الحق بإيجاد الخلق أبرز الحقيقة الأحمدية من كُمون الحضرة الأحدية، فميزه بميم الإمكان وجعله رحمة للعالمين وشرَّف به نوع الإنسان، ثم انبجست منه ﷺ عيون الأرواح، ثم بدا ما بدا في عالم الأجساد والأشباح، كما قال ﷺ: **«أنا من الله تعالى والمؤمنون من فيض نوري»**[1]، فهو ﷺ الغاية الجليلة من ترتيب مبادي الكائنات، كما قال تعالى: **«لولاك ما خلقت الأفلاك»**.

ثم ذكر أبياتاً بالفارسية للشيرازي في مدحه ﷺ، وقال في آخرها: - يعني - يكفيك شرفاً وفضلاً أن الله سبحانه إنما خلق وبعث الأنبياء والرسل ليكونوا مقدمة لظهورك في عالم الملك والشهادة فأرواحهم وأجسادهم تابعة لروحك الشريف وجسمك اللطيف، ثم اعلم أن حياته ﷺ رحمة، ومماته رحمة، كما قال ﷺ: **«حياتي خير لكم ومماتي خير لكم»**. قالوا: هذا خيرنا في حياتك، فما خيرنا في مماتك؟ فقال: **«تعرض علي أعمالكم كل عشية الإثنين والخميس فما كان من خير حمدت الله تعالى وما كان من شر استغفرت الله لكم»**[2].

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه

[تفسير ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾]

قوله في تفسير سورة الأحزاب عند قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]: روي أنه ﷺ أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال ناس: نشاور آباءنا وأمهاتنا فنزلت، والمعنى: النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في كل أمر من أمور الدين والدنيا كما يشهد به الإطلاق على معنى أنه ﷺ لو دعاهم إلى شيء ودعتهم نفوسهم، إلى شيء

---

(١) رواه علي القاري في الأسرار المرفوعة (١١٩). والعجلوني في كشف الخفا (١: ٢٣٧). والسيوطي في الدرر المنتثرة (٢٤). وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢: ٤٠٢). والشوكاني في الفوائد المجموعة (٢٣٦).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ١٧٦). وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٢: ٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٠٣).

آخر، كان النبي ﷺ أولى بالإجابة إلى ما يدعوهم إليه من إجابة ما تدعوهم إليه نفوسهم لأن النبي ﷺ لا يدعوهم إلا ما فيه نجاتهم وفوزهم، وأما نفوسهم فربما تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم وبوارهم، كما قال تعالى حكاية عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]. فيجب أن يكون ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، وأمره أنفذ عليهم من أمرها، وآثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقوى من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه، ويجعلوها فداءه ﷺ في الخطوب والحروب، ويتبعوه في كل ما دعاهم إليه، وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين»[1].

قال سهل قدس سره: من لم ير نفسه في ملك الرسول ﷺ ولم ير ولايته عليه في جميع أحواله لم يذق حلاوة سنته بحال.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه

[تفسير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾]

قوله في تفسير سورة الأحزاب أيضاً عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥ - ٤٦]: اعلم أن الله تعالى شبَّه نبينا ﷺ بالسراج لوجوه:

منها: أنه يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية كما يهتدى بالسراج المنير في الظلام إلى سمت المرام.

ومنها: أن السراج الواحد يوقد منه ألف سراج ولا ينقص من نوره شيء، وقد اتفق أهل الظاهر والشهود على أن الله تعالى خلق جميع الأشياء من نور محمد ﷺ، ولم ينقص من نوره شيء، وهذا كما روي أن موسى عليه السلام قال: يا رب، أريد أن أعرف خزائنك. فقال له: اجعل على باب خيمتك ناراً يأخذ كل انسان سراجاً من نارك. ففعل، فقال: هل نقص من نارك شيء؟ قال: لا، يا رب، قال: فكذلك خزائني. وأيضاً علوم الشريعة وفوائد الطريقة وأنوار المعرفة، وأسرار الحقيقة قد ظهرت في علماء أمته ﷺ وهي بحارها في نفسه عليه الصلاة والسلام. ألا ترى أن نور القمر مستفاد من الشمس ونور الشمس بحاله، وفي القصيدة البردية.

فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم

أي أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام شمس من فضل الله تعالى طلعت على العالمين

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤: ٣٣٦). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٢٢٣).

والأنبياء كواكبها يظهرن الأنوار المستفادة منها، وهي العلوم والحكم في عالم الشهادة عند غيبتها ويختفين عند ظهور سلطان الشمس فينسخ دينه سائر الأديان وفيه إشارة إلى أن المقتبس من نور القمر كالمقتبس من نور الشمس.

ومنها: أنه عليه الصلاة والسلام يضيء من جميع الجهات الكونية إلى جميع العوالم كما أن السراج يضيء من كل جانب وأيضاً يضيء لأمته كلهم كالسراج لجميع الجهات، إلا من عمي مثل أبي جهل ومن تبعه على صفته، فإنه لا يستضيء بنوره ولا يراه حقيقة كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨].

حكي، أن السلطان محمود الغزنوي دخل على الشيخ أبي الحسن الخرقاني قدس سره، وجلس ساعة، ثم قال: يا شيخ، ما تقول في حق أبي يزيد البسطامي؟ فقال الشيخ: هو رجل من رآه اهتدى. فقال السلطان: وكيف ذلك وإن أبا جهل رأى رسول ﷺ ولم يخلص من الضلالة! قال الشيخ في جوابه: إنه ما رأى رسول الله، وإنما رأى محمد بن عبد الله يتيم أبي طالب، حتى لو كان رأى رسول الله لدخل في السعادة. أي لو رآه ﷺ من حيث إنه رسول معلم هادٍ لا من حيث إنه بشر يتيم.

ومنها: أنه ﷺ عرج به من العالم السفلي إلى العالم العلوي ومن الملك إلى الملكوت، ومن الملكوت إلى الجبروت والعظموت، ووصل بجذبة أدن مني إلى مقام قاب قوسين، وقربه إلى أو أدنى إلى أن نوّر سراج قلبه بنور الله بلا واسطة ملك أو نبي ومن هنا قال: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل»[1]، لأنه كان في مقام الوحدة فلا يصل إليه أحد إلا على قدمَيّ الفناء عن نفسه، والبقاء بربه فناء بالكلية، وبقاء بالكلية، بحيث لا تبقى نار نور الإلهية من حطب وجوده قدر ما يصعد منه دخان، نفسي نفسي وما بلغ كمال هذه الرتبة إلا نبينا ﷺ فإنه من بين سائر الأنبياء يقول: أمتي أمتي، وحسبك في هذا حديث المعراج، حيث إنه ﷺ وجد في كل سماء نفراً من الأنبياء إلى أن بلغ السماء السابعة ووجد هناك إبراهيم عليه السلام مستنداً إلى سدرة المنتهى، فعبر عنه مع جبريل إلى أقصى السدرة وبقي جبريل في السدرة، فأدلى إليه الرفرف، فركب عليه، فأداه إلى قاب قوسين أو أدنى فهو الذي جعله الله نوراً فأرسله إلى الخلق، وقال: قد جاءكم من الله نور، فأذن له أن يدعو الخلق إلى الله بطريق متابعته فإنه من يطع الرسول حق إطاعته فقد أطاع الله، والذين يبايعونه إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فإن يده فانية في يد الله، باقية بها، وكذلك جميع صفاته تفهم إن شاء الله وينتفع بها

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (٢: ٢٤٤). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٩٩).

ووصفه تعالى بالإنارة حيث قال: «منيراً» لزيادة نوره وكماله وكما له فيه فإن بعض السرج له فتور لا ينير.

وقال بعضهم: المراد بالسراج: الشمس وبالمنير: القمر، جمع له الوصف بين الشمس والقمر دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١]. وإنما حمل على ذلك لأن نور الشمس والقمر أتم من نور السراج ويقال: سماه سراجاً ولم يسمه شمساً ولا قمراً ولا كوكباً، لأنه لا يوجد يوم القيامة، ولا قمر ولا كوكب، ولأن الشمس والقمر لا ينقلان من موضع إلى موضع بخلاف السراج. ألا ترى أن الله تعالى نقله ﷺ من مكة إلى المدينة.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي أيضاً

[تفسير ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾]

قوله رضي الله عنه في تفسير سورة سبأ عند قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨] دلت الآية على عموم رسالته وشمول بعثته ﷺ، وفي الحديث: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم»، وهي ما يكون ألفاظه قليلة ومعانيه كثيرة.

«ونصرت بالرعب»: يعني نصرني الله بإلقاء الخوف في قلوب أعدائي من مسيرة شهر بيني وبينهم، وجعل الغاية شهراً لأنه لم يكن بين بلده ﷺ وبين أحد من أعدائه المحاربين له أكثر من شهر.

«وأحلت لي الغنائم»: يعني أن من قبله من الأمم كانوا إذا غنموا الحيوانات تكون ملكاً للغانمين دون الأنبياء، فخص نبينا ﷺ بأخذ الخمس والصفي، وإذا غنموا غيرها من الأمتعة والأطعمة والأموال جمعوه، فتجيء نار بيضاء من السماء فتحرقه حيث لا غلول، وخص هذه الأمة المرحومة بالقسمة بينهم كأكل لحم القربان فإن الله أحله لهم زيادة في أرزاقهم ولم يحله لمن قبلهم من الأمم.

«وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً»: يعني أباح الله لأمتي الصلاة حيث كانوا تخفيفاً لهم وأباح التيمم بالتراب عند فقد الماء، ولم يبح الصلاة للأمم الماضية إلا في كنائسهم، ولم يجز التطهر لهم إلا بالماء. «وأرسلت إلى الخلق كافة»[1] أي في زمنه، وغيره ممن تقدم أو

---

(١) رواه الترمذي في السنن (١٥٥٣). وأحمد في المسند (٢: ٤١٢). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: =

تأخر، بخلاف رسالة نوح عليه السلام، فإنها وإن كانت عامة لجميع أهل الأرض لكنها خصت بزمانه، قال في «إنسان العيون والخلق»: يشمل الإنس والجن والملك والحيوانات والنبات والحجر.

قال الجلال السيوطي: وهذا القول أي إرساله ﷺ للملائكة رجحته في كتاب الخصائص، وقد رجحه قبلي الشيخ تقي الدين السبكي وزاد أنه مرسل لجميع الأنبياء والأمم السابقة من لدن آدم إلى قيام الساعة ورجحه أيضاً البارذي، وزاد أنه مرسل إلى جميع الحيوانات والجمادات، وزيد على ذلك أنه مرسل إلى نفسه، وذهب جمع إلى أنه ﷺ لم يرسل للملائكة، منهم الحافظ العراقي، والجلال المحلي، وحكى الفخر الرازي في تفسيره والبرهان النسفي فيه الإجماع فيكون قوله ﷺ: أرسلت إلى الخلق كافة.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] من العام المخصوص ولا يشكل عليه حديث سلمان رضي الله عنه إذا كان الرجل في أرض وأقام الصلاة صلى خلفه من الملائكة ما لا يرى طرفاه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده لأنه يجوز أن لا يكون ذلك صادراً عن بعثته إليهم.

قال رضي الله عنه بعدما ذكر: يقول الفقير دل كونه ﷺ أفضل المخلوقات على عموم بعثته لجميع الموجودات، ولذا بشر بمولده أهل الأرض والسماء، وسلموا عليه حتى الجماد بفصيح الأداء فهو ﷺ رحمة للعالمين، ورسول إلى الخلق أجمعين وختم به ﷺ النبيون أي فلا نبي بعده لا مشرعاً ولا تابعاً، كما بيّن في سورة الأحزاب.

وفي «التأويلات النجمية» يشير إلى أن إرسال ماهية وجودك التي عبرت عنها مرة بنوري وتارة بروحي من كتم العدم إلى عالم الوجود، لم يكن منا إلا لتكون بشيراً ونذيراً للناس كافة من الأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين، وإن لم يخلقوا بعد لاحتياجهم لك من بدء الوجود في هذا الشأن وغيره إلى الأبد كما قال ﷺ: **«الناس محتاجون إلى شفاعتي حتى أبي إبراهيم»**. فأما في بدء وجودهم فالأرواح لما حصلت في عالم الأرواح بإشارة «كن» تابعة لروحك، احتاجت إلى أن تكون لها بشيراً ونذيراً لتعلقها بالأجسام، لأنها علوية بالطبع لطيفة نورانية، والأجسام سفلية بالطبع، كثيفة ظلمانية لا تتعلق بها، ولا تميل إليها لمضادة بينهما، فتحتاج إلى بشير يبشرها بحصول كمال لها عند الاتصال بها لترغب إليها وتحتاج إلى نذير

= ٤٣٢). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٦٩). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٢٠٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٣٢).

ينذرها بأنها إن لم تتعلق بالأجسام تحرم من كمالها وتبقى ناقصة غير كاملة، كمثل حبة فيها شجرة مركوزة بالقوة، فإن تزرع وترب بالماء تخرج الشجرة من القوة إلى الفعل إلى أن تبلغ كمال شجرة مثمرة فالروح بمثابة الأكار المربى، فبعد تعلق الروح بالقالب واطمئنانه واتصافه بصفته يحتاج إلى بشير بحسب مقامه يبشره بنعيم الجنة وملك لا يبلى، ثم يبشره بقرب الحق تعالى ويشوقه إلى جماله ويعد بوصله ونذير ينذره أولاً بنار جهنم، ثم بوعده بالبعد عن الحق ثم بالقطيعة والهجران، وإذا أمعنت النظر، وجدت شجرة الموجودات منبتة من بذر روحه ﷺ، وهو ثمرة هذه الشجرة من جميع الأنبياء والمرسلين، وهم وإن كانوا ثمرة هذه الشجرة أيضاً ولكن وجدوا هذه المرتبة بتبعيته ﷺ، كما أنه من بذر واحد يظهر على الشجرة ثمار كثيرة بتبعية ذلك البذر الواحد فيجد كل بشير ونذير فرعاً لأصل بشريته ونذيرته، والذي يدل على هذا التحقيق قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] دخلت شجرات الموجودات كلها تحت الخطاب وبقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا:٢٨]: يشير إلى أن أكثر الناس الذين هم أجزاء وجود الشجرة وما وصلوا إلى رتبة الثمرية لا يعلمون حقيقة ما قررنا، لأن أحوال الثمرة ليست معلومة للشجرة إلا لثمرة مثلها في وصفها لتكون واقفة بحالها.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي أيضاً

[تفسير معنى لفظ يٓس]

قوله في تفسير سورة يس: وعن ابن عباس رضي الله عنهما وهو قول كثير منهم أن معنى يس: يا إنسان في لغة طيء، على أن المراد به رسول الله، ثم قال: وذهب قوم إلى أن الله تعالى لم يجعل لأحد سبيلاً إلى إدراك معاني الحروف المقطعة في أوائل السور، وقالوا: إن الله تعالى متفرد بعلمها ونحن نؤمن بأنها من جملة القرآن العظيم ونكل علمها إليه تعالى ونقرؤها تعبداً وامتثالاً لأمر الله، وتعظيماً لكلامه، وإن لم نفهم منها ما نفهمه من سائر الآيات.

قال الشيخ ابن نور الدين في بعض وارداته: سألت رسول الله ﷺ عن أسرار المتشابهات من الحروف فقال: «هي من أسرار الصحبة بيني وبين الله تعالى»، فقلت: هل يعرفها أحد؟ فقال ﷺ: «ولا يعرفها جدي إبراهيم عليه السلام، هي من أسرار الله تعالى التي لا يطّلع عليها نبي مرسل، ولا ملك مقرب». ويؤيده ما في الأخبار: «أن جبريل عليه السلام نزل بقوله تعالى: كهيعص، فلما قال: «كاف»: قال النبي ﷺ «علمت». فقال: ها فقال ﷺ: «علمت»

فقال: عين. فقال: «**علمت**». فقال: «صاد» فقال: «**علمت**». فقال جبريل: «**كيف علمت ما لم أعلم**».

قال الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه بعد ما ذكر: يقول الفقير لاشك أنه ﷺ وصل إلى مقام في الكمال لم يصل إليه أحد من كمل الأفراد، فضلاً عن الغير ويدل عليه عبوره ﷺ ليلة المعراج جميع المواطن والمقامات، فلهذا جاز أن يقال: لم يعرف أحد من الثقلين والملائكة ما عرفه النبي عليه الصلاة والسلام، فإن علوم الكل بالنسبة إلى علمه كقطرة من البحر، فله ﷺ علم حقائق الحروف بما لا مزيد عليه بالنسبة إلى ما في حد البشر، وأما غيره ﷺ فلهم علم لوازمها، وبعض حقائقها بحسب استعداداتهم وقابلياتهم. ثم قال ولم يقسم الله لأحد من أنبيائه على رسالته في كتابه إلا له ﷺ.

قال في إنسان العيون من خصائصه عليه الصلاة والسلام إن الله تعالى أقسم على رسالته بقوله: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١ - ٣].

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه أيضاً

[تفسير ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ...﴾]

قوله في تفسير سورة الفتح عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] و﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٨ - ٢٩] قال في تلقيح الأذهان: أعلم الله سبحانه محمد عليه الصلاة والسلام أنه خلق الموجودات كلها من أجله، أي من أجل ظهوره، أي من أجل تجليه به، حتى قال: «**ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله غير عاصي الإنس والجن**».

وقال الشيخ الشهير بأفتاده قدس سره: لما تجلى الله وجد جميع الأرواح فوجد أولاً نبينا ﷺ ثم سائر الأرواح فلقن التوحيد فقال: لا إله إلا الله فكرمه الله بقوله محمد رسول الله، فأعطي الرسالة في ذلك الوقت، ولذا قال ﷺ: «**كنت نبياً وآدم بين الماء والطين**»[1] اهـ. قال رضي الله عنه ومعنى الحديث أنه ﷺ كان نبياً بالفعل عالماً بنوبته، وغيره من الأنبياء ما كان نبياً بالفعل ولا عالماً بنبوته إلا حين بعث، بعد وجوده ببدنه العنصري، واستكمال شرائط النبوة، فكل من بدا بعد وجود المصطفى ﷺ فهم نوابه وخلفاؤه مقدمين كالأنبياء والرسل، أو مؤخرين كأولياء الله الكمل، قال ﷺ «**أنا من نور الله، والمؤمنون من فيض نوري، فهو الجنس**

---

(١) رواه السيوطي في الدرر المنتثرة (٢٦). وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢: ٣٤١).

العالي والمقدم وما عداه التالي والمؤخر»، كما قال: «كنت أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً»[١]، فرسول الله ﷺ هو الذي لا يساويه رسول، لأنه رسول إلى جميع الخلق، من أدرك زمانه بالفعل في الدنيا، ومن تقدمه بالقوة فيها وبالفعل في الآخرة يوم يكون الكل تحت لوائه.

وقد أخذ على الأنبياء كلهم الميثاق بأن يؤمنوا به إن أدركوه وأخذه الأنبياء على أممهم. وفي الحديث «أنا محمد وأحمد»[٢] ومعنى محمد كثير الحمد، فإن أهل السماء والأرض حمدوه. ومعنى أحمد أعظم حمداً من غيره، لأنه حمد الله بمحامد لم يحمده بها غيره، كما في «شرح المشارق» لابن الملك، واسمه في العرش أبو القاسم، وفي السموات أحمد، وفي الأرض محمد.

قال علي رضي الله عنه: ما اجتمع قوم في مشورة فلم يدخلوا فيها من اسمه محمد إلا لم يبارك لهم فيها.

وأشار ألف أحمد إلى كونه فاتحاً ومقدماً لأن مخرجه مبدأ المخارج، وأشار ميم محمد إلى كونه خاتماً ومؤخراً لأن مخرجه ختام المخارج، كما قال: «نحن الآخرون السابقون»[٣]، وأشار الميم أيضاً إلى بعثته ﷺ عند الأربعين.

قال بعضهم: أكرم الله من الصبيان أربعة بأربعة أشياء يوسف عليه السلام بالوحي في الجب، ويحيى عليه السلام بالحكمة، في الصباوة وعيسى عليه السلام بالنطق في المهد، وسليمان عليه السلام بالفهم، وأما نبينا ﷺ فله الفضيلة العظمى والآية الكبرى حيث أن الله أكرمه بالسجدة عند الولادة، والشهادة بأنه رسول الله وكل قول يقبل الاختلاف بين المسلمين إلا قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإنه غير قابل للاختلاف فمعناه متحقق وإن لم يتكلم به أحد.

وكذا أكرمه بشرح الصدر وختم النبوة، وخدمة الملائكة والحور عند ولادته ﷺ، وأكرمه بالنبوة في عالم الأرواح قبل الولادة وكفاه بذلك اختصاصاً وتفضيلاً، فلا بد للمؤمن من تعظيم شرعه وإحياء سنته والتقرب اليه بالصلوات وسائر القربات لينال عند الله الدرجات.

وكانت رابعة العدوية رحمها الله تصلي في اليوم والليلة ألف ركعة وتقول ما أريد بها ثواباً ولكن ليسر بها رسول الله ﷺ ويقول للأنبياء: انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها في اليوم والليلة. ومن تعظيمه عمل المولد إذا لم يكن فيه منكر.

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢١٢٦). والسيوطي في الدرر المنتثرة (٥: ١٨٤).
(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٨٤). وأحمد في المسند (٤: ٨١).
(٣) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢: ٢٥٧).

قال الإمام السيوطي قدس سره: يستحب لنا إظهار الشكر لمولده عليه الصلاة والسلام. وقد اجتمع عند الإمام تقي الدين السبكي رحمه الله جمع كثير من علماء عصره فأنشد منشد قول الصرصري رحمه الله في مدحه ﷺ.

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب ... على ورق من خط أحسن من كتب

وإن تنهض الأشراف عند سماعه ... قياماً صفوفاً أو جُثِياً على الركب

فعند ذلك قام الإمام السبكي وجميع من بالمجلس فحصل أنس عظيم بذلك المجلس، ويكفي ذلك في الاقتداء، وقد قال ابن حجر الهيثمي، إن البدعة الحسنة متفق على كذبها وعمل المولد، واجتماع الناس له كذلك أي بدعة حسنة.

قال السخاوي: لم يفعله أحد من القرون الثلاثة وإنما حدث بعد، ثم لازال أهل الإسلام من سائر الأقطار والمدن الكبار يعملون المولد ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر من بركاته عليهم كل فضل عظيم».

قال ابن الجوزي من خواصه: إنه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام، وأول من أحدثه من الملوك صاحب إربل، وصنف له ابن دحية رحمه الله كتاباً في المولد سماه «التنوير بمولد البشير النذير» فأجازه بألف دينار، وقد استخرج له الحافظ ابن حجر أصلاً من السنة وكذا الحافظ السيوطي.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي أيضاً

[تفسير ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾]

قوله رضي الله عنه في تفسير سورة النجم عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:١٣ - ١٤]: قال البقلي: ما الرؤية الثانية بأقل كشفاً من الرؤية الأولى، ولا الأولى بأكشف من رؤيته الثانية، أين أنت لو كنت أهلاً لقلت لك: إنه ﷺ رأى ربه في لحافه بعد أن رجع من الحضرة أيضاً في تلك الساعة وما غاب قلبه عن تلك الرؤية لمحة، وما ذكر سبحانه إن ما رأى في الأولى في اللامكان، وما رأى عند سدرة المنتهى، كان واحداً لأن ظهوره هناك ظهور القِدم والجلال، وليس ظهوره تعالى يتعلق بالمكان ولا الزمان، إذ القدم منزه عن المكان والجهات.

وكان العبد في المكان والرب في اللامكان وهذا غاية في كمال تنزيهه وعظيم لطفه، إذ تتجلى نفسه لقلب عبده وهو في اللامكان والعبد في مكان والعقل هُهنا مضمحل والعلم

متلاش لأن العقول عاجزة، والأوهام متحيرة، والقلوب والهة، والأرواح حائرة، والأسرار فانية، وفي هذه الآية بيان كمال شرف حبيبه ﷺ، إذ رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ظن ﷺ إن ما رآه في الأولى لا يكون في الكون لكمال علمه بتزيه الحق، فلما رآه ثانية علم أنه تعالى لا يحجبه شيء من الحادثات.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه أيضاً

[تفسير ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾]

قوله في تفسير سورة الصف عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] أي محمد ﷺ يريد أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً من تقدم وتأخر، فذكر أول الكتب المشهورة الذي يحكم به النبيون والنبي الذي هو خاتم النبيين.

وعن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: أخبرنا يا رسول الله عن نفسك قال: «أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي رؤيا حين حملتني أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى وهي بلد بالشام»[1]، وكذا بشر كل نبي قومه بنبينا محمد ﷺ والله تعالى أفرد عيسى عليه السلام بالذكر في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا، فبين أن البشارة به ﷺ عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه الصلاة والسلام كما في كشف الأسرار.

وقال بعضهم كان بين رفع المسيح ومولد النبي ﷺ خمسمائة وخمس وأربعون سنة تقريباً، وعاش المسيح إلى أن رفع ثلاثاً وثلاثين سنة، وبين رفعه والهجرة الشريفة خمسمائة وثمان وتسعون سنة، ونزل عليه جبريل عليه السلام عشر مرات وأمته النصارى على اختلافهم، ونزل على نبينا ﷺ أربعة وعشرين ألف مرة وأمته أمة مرحومة جامعة لجميع الملكات الفاضلة.

قيل: قال الحواريون لعيسى: ياروح الله هل بعدنا من أمه؟ قال: نعم، أمة محمد ﷺ حكماء علماء، أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء يرون من الله تعالى باليسير من الرزق، ويرى الله منهم باليسير من العمل. وأحمد اسم نبينا ﷺ.

قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر في كتاب «تلقيح الأذهان»: سمي ﷺ من

---

(١) رواه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٣٩). والقرطبي في التفسير (٢: ١٣١). والألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤٥).

حيث تكرر حمده: محمداً. ومن حيث كونه حامل لواء الحمد: أحمد.

قال الراغب أحمد إشارة للنبي ﷺ باسمه تنبيهاً على أنه كما وجد اسمه أحمد يوجد جسمه، وهو محمود في أخلاقه وأفعاله وأقواله ﷺ وخص لفظ أحمد فيما بشر به عيسى عليه السلام تنبيهاً على أنه ﷺ أحمد منه ومن الذين قبله اهـ.

ويوافقه ما في كشف الأسرار من أن الألف فيه للمبالغة في الحمد، وله وجهان:

أحدهما: أنه مبالغة من المفعول أي الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة، وهو ﷺ أكثر مناقب وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها اهـ.

قال ابن الشيخ في حواشيه: يحتمل أن يكون أحمد منقولاً من الفعل المضارع وأن يكون منقولاً من صفة، وهي أفعل التفضيل، وهو الظاهر، وكذا محمد فإنه منقول من الصفة أيضاً وهو في معني محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فإنه ﷺ محمود في الدنيا بما هدي إليه ونفع به من العلم، والحكمة ومحمود في الآخرة بالشفاعة.

وقال الإمام السهيلي في كتاب «التعريف والإعلام»: أحمد اسم علم منقول من صفة لا من فعل وتلك الصفة افعل التي يراد بها التفضيل، فمعنى أحمد: أحمد الحامدين لربه عز وجل. وكذلك قال: هو ﷺ في المعنى لأنه يفتح عليه في المقام المحمود بمحامد لم تفتح على أحد قبله فيحمد ربه بها، ولذلك يعقد لواء الحمد.

وأما محمد: فمنقول من صفة أيضاً وهو في معنى محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة، كما أن المكرم من أكرم مرة بعد مرة، وكذلك الممدح ونحو ذلك فاسم محمد مطابق لمعناه، والله تعالى سماه به قبل أن يسمي به نفسه.

فهذا علم من أعلام نبوته إذ كان اسمه ﷺ صادقاً عليه فهو محمود في الدنيا بما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة، فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ ثم إنه ﷺ لم يكن محمداً حتى كان حمد ربه فنبأه وشرفه ولذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد فذكره عيسى عليه السلام، فقال: اسمه أحمد وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه تلك أمة أحمد فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فبأحمد وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه تلك أمة أحمد فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس.

فلما وجد وبعث كان محمداً بالفعل وكذلك في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته، فانظر كيف كان ترتب هذا الاسم

قبل الاسم الآخر في الذكر، وفي الوجود في الدنيا، وفي الآخرة تلح لك الحكمة الالٰهية في تخصيصه ﷺ بهذين الاسمين وانظر كيف أنزلت عليه صورة سورة الحمد وخص بها دون سائر الأنبياء، وخص بلواء الحمد، وخص بالمقام المحمود، وانظر كيف شرع له سنة وقرآنا أن يقول عند اختتام الأفعال وانقضاء الأمور الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]، وقال أيضاً: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠] تنبيهاً لنا على أن الحمد مشروع عند انقضاء الأمور وسن ﷺ الحمد بعد الأكل والشرب، وقال عند انقضاء السفر: «آيبون تائبون لربنا حامدون»(١)، ثم انظر لكونه ﷺ خاتم الأنبياء، ومؤذناً بانفصال الرسالة وانقطاع الوحي، ونذيراً بقرب الساعة وتمام الدنيا، مع أن الحمد كما قدمنا مقرون بانقضاء الأمور مشروع عندها تجد معاني اسميه جميعاً، وما خص به من الحمد والمحامد مشاكلاً لمعناه، مطابقاً لصفته، وفي ذكره برهان عظيم، وعلم واضح على نبوته وتخصيص الله له بكرامته، وإنه قدم له هذه المقامات قبل وجوده تكرمة له وتصديقاً لأمره ﷺ. انتهى كلام السهيلي.

قال الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه: قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر في كتاب «مواقع النجوم»: ما انتظم من الوجود شيء بشيء، ولا انضاف منه شيء إلى شيء إلا لمناسبة بينهما ظاهرة أو باطنة، فالمناسبة موجودة في كل الأشياء حتى بين الاسم والمسمى.

ولقد أشار أبو زيد السهيلي وإن كان أجنبياً عن أهل هذه الطريقة، إلى هذا المقام في كتاب «المعارف والأعلام» له في اسم النبي ﷺ محمد وأحمد وتكلم على المناسبة التي بين أفعال النبي ﷺ وأخلاقه وبين معاني اسميه محمد وأحمد انتهى كلام الشيخ. أشار رضي الله عنه إلى ما قدمناه من كلام السهيلي.

وقال بعض العارفين سمي ﷺ بأحمد لكون حمده أتم وأشمل من حمد سائر الأنبياء والرسل إذ محامدهم لله إنما هي بمقتضى توحيد الصفات والأفعال وحمده ﷺ إنما هو بحسب توحيد الذات المستوعب لتوحيد الصفات والأفعال انتهى.

قال في فتح الرحمن: لم يسم بأحمد أحد غيره ولا دعي به مدعو قبله، وكذلك محمد أيضاً لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده ﷺ وميلاده، أي من الكهان والأحبار أن نبياً يبعث اسمه محمد فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو وهم، محمد بن أحيحة ابن الحلال الأوسي، ومحمد بن مسلمة الأنصاري،

(١) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥١٣).

ومحمد بن البراء البكري، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن حمدان الجعفي، ومحمد بن خزاعة السلمي، فهم ستة لا سابع لهم. ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره حتى تحققت السمتان له ﷺ ولم ينازع فيهما.

واختلف في عدد أسماء النبي عليه الصلاة والسلام فقيل له ألف اسم. كما أن لله تعالى ألف اسم، وذلك لأنه ﷺ مظهر تام له تعالى، فكما أن أسماءه تعالى أسماء له عليه الصلاة والسلام من جهة الجمع فله ﷺ أسماء أخر من جهة الفرق على ما تقتضيه الحكمة في هذا الموطن.

فمن أسمائه: **محمد** أي كثير الحمد لأن أهل السماء والأرض حمدوه في الدنيا والآخرة ومنها: **أحمد** أي أعظم حمداً من غيره لأنه حمد الله تعالى بمحامد لم يحمده بها غيره.

ومنها **المقفّي** بتشديد الفاء وكسره، لأنه أتى عقيب الأنبياء وفي قفاهم وفي «التكملة» هو الذي قفى على أثر الأنبياء أي اتبع آثارهم.

ومنها: **نبي التوبة** لأنه كثير الاستغفار والرجوع إلى الله أو لأن التوبة في أمته صارت أسهل. ألا ترى أن توبة عبدة العجل كانت بقتل النفس، أو لأن توبة أمته كانت أبلغ من غيرهم، حتى يكون التائب منهم كمن لا ذنب له لا يؤاخذ به في الدنيا، ولا في الآخرة وغيرهم، يؤاخذ في الدنيا لا في الآخرة.

ومنها: **نبي الرحمة** لأنه كان سبب الرحمة، وهو الوجود لقوله تعالى: **لولاك لما خلقت الأفلاك**». وفي كتاب «البرهان» للكرماني: لولاك يا محمد لما خلقت الكائنات خاطب الله النبي ﷺ بهذا القول.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي أيضاً رضي الله عنه

[تفسير ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾]

قوله في تفسير سورة القلم عند قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: ٢] كأنه قيل: انتفى عنك الجنون يا محمد، وأنت بريء منه، ملتبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرسالة العامة، والمراد تنزيهه ﷺ عما كانوا ينسبونه إليه حسداً وعداوة ومكابرة مع جزمهم بأنه ﷺ في غاية الغايات من حصافة العقل ورزانة الرأي.

وفي «التأويلات النجمية»: ما أنت بنعمة ربك بمستور عما كان من الأزل وما سيكون

إلى الأبد، لأن الجن هو الستر، وما سمي الجن جناً إلا لاستتارها من الإنس بل أنت عالم بما كان خبير بما سيكون ويدل على إحاطة علمه قوله ﷺ: «فوضع كفه على كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما كان وما سيكون».

قال الإمام القشيري قدس سره في «شرح الأسماء الحسنى»: نصرة الحق لعبده أتم من نصرة العبد لنفسه، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:٩٧] ثم انظر بماذا سلاه وبأي شيء خفف عليه تحمل أثقال الأذى حيث قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر:٩٨] يعني إذا تأذيت بسماع السوء فيك منهم فاسترح بروح ثنائك علينا ولذة التنزيه والذكر لنا، فإن ذلك يريحك ويشغلك عنهم، ثم إنه ﷺ لما قبل هذه النصيحة وامتثل أمر ربه تولى نصرته والرد عنه فلما قيل: إنه مجنون أقسم على نفي ذلك بقوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القلم:١] الخ.. تخفيفاً لتنزيهه، لمَا انشغل عنهم بتنزيهه ربه ثم عاب الله القادح فيه بالجنون بعشر خصال ذميمة بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٠ - ١٦] فكان رد الله عنه وذبه تعالى أتم من رده عن نفسه ﷺ حيث كان من جملة القرآن باقياً على الألسنة إلى يوم القيامة، ثم قال عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] لا يدرك شأنه أحد من الخلق، ولذلك تحتمل من جهتهم ما لا يكاد يحتمله البشر.

قال بعضهم: لكونك متخلقاً بأخلاق الله تعالى، وأخلاق كلامه القديم، ومتأيداً بالتأييد القدسي، فلا تتأثر بافترائهم ولا تتأذى بأذاهم إذ بالله تصبر لا بنفسك، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧] ولا أحد أصبر من الله، وكلمة (على) للاستعلاء، فدلت على أنه ﷺ مشتمل على الأخلاق الحميدة ومستولٍ على الأفعال المُرضية، حتى صارت بمنزلة الأمور الطبيعية له ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن﴾ [الفرقان:٥٧]، أي لست متكلفاً فيما يظهر لكم من أخلاقي لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلاً، بل يرجع إليه الطبع.

ثم قال: وإنما أفرد الخلق ووصفه بالعظمة، كما وصف القرآن بالعظيم، لينبه على أن ذلك الخلق الذي هو ﷺ عليه جامع لمكارم الأخلاق اجتمع فيه شكر نوح، وخلة إبراهيم، وإخلاص موسى، وصدق وعد إسماعيل، وصبر يعقوب وأيوب، واعتذار داود، وتواضع سليمان وعيسى وغيرها من أخلاق سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، إذ ليس هذا الهدى معرفة الله تعالى لأن ذلك تقليد، وهو غير لائق بالرسول ﷺ، ولا الشرائع لأن شريعته ﷺ ناسخة لشرائعهم ومخالفة لها في بعض

الفروع، والمراد منه الاقتداء بكل منهم فيما اختص به من الخلق الكريم إذ كان كل منهم مختصاً بخلق حسن غالب على سائر أخلاقه.

فلما أمر ﷺ بذلك فكأنه أمر بجمع جميع ما كان متفرقاً فيهم، فهذه درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلا جرم وصفه الله بكونه ﷺ على خلق عظيم، كما قال بعض العارفين:

لكل نبي في الأنام فضيلة وجملتها مجموعة لمحمد

ولم يتصف ﷺ بمقتضى قوته النظرية إلا بالعلم والعرفان والإيقان والإحسان ولم يفعل بمقتضى قوته العملية إلا ما فيه رضا الله من فرض أو واجب أو مستحب، ولم يصدر منه ﷺ حرام أو مفسد أو مكروه، فكان هو الملك، بل أعلى منه ويجمع هذا كله قول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن أرادت به أنه ﷺ كان متحلياً بما في القرآن من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأوصاف، ومتخلياً عما يزجر عنه من السيئات وسفساف الخصال.

وفي رواية قالت للسائل: ألست تقرأ القرآن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] يعني اقرأ الآي العشر في سورة المؤمنين، فذلك خلقه ﷺ من الإيمان الذي هو أصل الأخلاق القلبية، والصلاة التي هي عماد الأخلاق البدنية، والزكاة التي هي رأس الأخلاق المالية إلى آخر ما في الآيات.

وفي التأويلات النجمية كان خلقه ﷺ القرآن، بل كان هو القرآن كما قال العارف بالحقائق:

أنا القرآن والسبع المثاني وروح الروح لا روح الأواني

وقال الجنيد قدس سره، كان ﷺ على خلق عظيم، لجوده بالكونين:

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

وقال أبو الحسن النوري قدس سره كيف لا يكون خلقه ﷺ عظيماً وقد تجلى الله بسره بأنوار أخلاقه.

قال الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه، بعدما ذكر كان خلقه ﷺ عظيماً لأنه مظهر العظيم، فكان خلق العظيم عظيماً فافهم جداً.

وفي تلقيح الأذهان لحضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر: أوتي ﷺ جوامع الكلم، لأنه مبعوث لتتميم مكارم الأخلاق كما قال ﷺ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] وهو عين كونه على الصراط المستقيم قال ﷺ: «إن الله ثلاثمائة وستين خلقاً من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة». قال أبو بكر رضي الله عنه: هل فيّ منها يا رسول الله شيء؟ قال: «كلها فيك يا أبا بكر، وأحبها إلى الله السخاء»[١]. انتهى أي كلام الشيخ الأكبر.

ولذلك كان أحسن أخلاق المرء في معاملته مع الحق التسليم والرضا، وأحسن أخلاقه في معاملته مع الخلق العفو والسخاء وإنما قال مع التوحيد لأنه قد توجد مكارم الأخلاق ولا إيمان كما أنه قد يوجد الإيمان ولا أخلاق، إذ لو كان الإيمان يعطى بذاته مكارم الأخلاق لم يقل للمؤمن افعل كذا واترك كذا وللمكارم آثار ترجع على صاحبها في أيّ دار كان.

قال بعض الكبار: من أراد أن يرى رسول الله ﷺ ممن لم يدركه من أمته، فلينظر إلى القرآن فإنه لا فرق بين النظر فيه، وبين النظر إلى رسول الله ﷺ، فكأن القرآن إنشاء صورة جسدية يقال لها محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب، والقرآن كلام الله تعالى فهو صفته فكأن محمداً ﷺ خلعت عليه صفة الحق: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وقال بعضهم: من أراد أن يرى رسول الله ﷺ فليعمل بسنته، لاسيما في مكان اميتت سنة فيه، فإن حياة رسول الله ﷺ بعد موته هي حياة سنته ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] لأنه المجموع الأتم الأكمل ﷺ.

وقال بعضهم: لم يبق بعد بعثة رسول الله ﷺ أخلاق أبداً لأنه ﷺ أبان لنا عن مصارفها كلها من حرص وحسد وشره وبخل وخوف وكل صفة مذمومة فمن أجراها على تلك المصارف عادت كلها مكارم أخلاق، وزال عنها اسم الذم.

قال صلى الله عليه وسلم لمن ركع دون الصف: «زادك الله حرصاً ولا تعد»[٢]. وقال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين»[٣]. وقال ﷺ: «أكثروا من ذكر الله». وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣]. وقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء:٦٧] وغير ذلك من الآيات والأخبار... فما أمر الله باجتناب بعض الأخلاق إلا لمن يعتقد أنها سفساف أخلاق وجهل معنى قوله ﷺ «بعثت لأتمم

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٦٧٩). وفيه كلها إليك يا أبا بكر.
(٢) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٩٩). وأبو داود في السنن (٦٨٣). وأحمد في المسند (٥: ٣٩).
(٣) رواه أحمد في المسند (١: ٣٨٥). والدارمي (٣٥٣). والهيثمي في مجمع الزوائد (٢: ٣٩).

مكارم الأخلاق»[١] فمن الناس من علم، ومنهم من جهل، فالكامل لا يرى في العالم إلا أخلاق الله تعالى التي به وجدت.

وفي «كشف الأسرار» في تفسير هذه الآية: عرض عليه ﷺ مفاتيح الأرض فلم يقبلها ورقاه ليلة المعراج، وأراه جميع الملائكة والجنة فلم يلتفت إليها. قال الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] ما التفت يميناً ولا شمالاً فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] ثم أنشد.

كأنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وفي قصيدة البردة

فاق النبيين في خلق وفي خلق ... ولم يدانوه في علم ولا كرم

فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم

ومن أخلاقه ﷺ، ما أشار إليه بقوله: **«صل من قطعك، واعف عمن ظلمك، وأحسن إلى من أساء اليك»**. فإنه ﷺ ما أمر أمته بشيء قبل الائتمار به.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه

[تفسير ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾]

قوله في تفسير سورة الضحى عند قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] هذه الآية عدة كريمة شاملة لما أعطاها الله له ﷺ في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر وإعلاء الدين بالفتوحات الواقعة في عصره ﷺ وفي خلفائه الراشدين وغيرهم من الملوك الإسلامية، وفشو الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ولما ادخر له ﷺ من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله تعالى وقد انبأ عن شيء منها قوله ﷺ: **«لي في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض، ترابها المسك»**، وفي الحديث: **«أشفع لأمتي حتى ينادي لي أرضيت يا محمد فأقول رب قد رضيت»**[٢].

وقال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر: أقمت بمدينة قرطبة بمشهد فأراني الله

(١) رواه القاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٢٠٧). والسيوطي في الدرر المنثرة (٥٨). ومالك في الموطأ (٩٠٤).

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٣٧٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١: ٤٨٦). والسيوطي في الدر المنثور (٦: ٢٦١).

أعيان رسله من لدن آدم إلى نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام، فخاطبني منهم هود عليه السلام، وأخبرني بسبب جمعيتهم، وهو أنهم اجتمعوا شفعاء للحلاج إلى نبينا محمد ﷺ، وذلك أنه كان قد أساء الأدب بأن قال في حياته الدنيوية: أن رسول الله ﷺ همته دون منصبه. قيل له: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ فكان من حقه أن لا يرضى إلا أن يقبل الله شفاعته في كل كافر ومؤمن، لكنه ما قال: «إلا شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

فلما صدر منه هذا القول جاءه رسول الله ﷺ في واقعة وقال له: «يا ابن منصور، أنت الذي أنكرت علي في الشفاعة» فقال: يا رسول الله، قد كان ذلك. قال: «ألم تسمع أنني قد حكيت عن ربي عز وجل إذا أحببت عبداً كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً». فقال: بلى يارسول الله. قال: «فإذا كنت حبيب الله كان هو لساني القائل فإذا هو الشافع والمشفوع إليه وأنا عدم في وجوده، فأيّ عتاب علي يا ابن منصور؟» فقال: يارسول الله، أنا تائب من قولي هذا، فما كفارة ذنبي؟ قال: «قرب نفسك لله قرباناً» قال: فكيف؟ قال: «اقتل نفسك بسيف شريعتي»، فكان من أمره ما كان ثم قال هود عليه الصلاة والسلام: وهو أي الحلاج من حين فارق الدنيا محجوب عن رسول الله ﷺ، والآن هذه الجمعية لأجل الشفاعة له إليه ﷺ، وكانت المدة بين مفارقته الدنيا وبين الجمعية المذكورة أكثر من ثلاثمائة سنة.

قال بعض العارفين الحقيقة المحمدية أصل مادة كل حقيقة ظهرت ومظهرها أصل مادة كل حقيقة تكونت وإليه يرجع الأمر كله قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:٢١] ولا يكون رضاه إلا بعود ما تفرق منه إليه فأهل الجمال يجتمعون عند جماله، وأهل الجلال يجتمعون عند جلاله.

وقال ابن عطاء قدس سره: كأنه تعالى يقول لنبيه افترضى بالعطاء عوضاً عن المعطى، فيقول: «لا» فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] أي على همة جليلة، إذ لم يؤثر فيك شيء من الأكوان ولا يرضيك شيء منها.

وفي «التأويلات النجمية» أي يظهر عليك بالفعل ما في قوة استعدادك من أنواع الكمالات الذاتية وأصناف الكرامات الصفاتية والاسمائية.

ومن جواهر الشيخ إسماعيل حقي أيضاً رضي الله عنه

[تفسير ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾]

قوله في تفسير سورة ألم نشرح عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] قد

شرحنا لك صدرك وفسحناه حتى حوى عالم الغيب والشهادة بين ملكتي الاستفادة والإفادة، فما صدك الملابسة بالعلائق الجسمانية عن اقتباس أنوار الملكات الروحانية؟ وما عاقك التعلق بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحق؟ أي لم تحتجب لا بالحق عن الخلق، ولا بالخلق عن الحق، بل كنت جامعاً بين الجمع والفرق حاضراً غائباً.

وفي «التأويلات النجمية» يشير تعالى إلى انفساح صدر قلبه ﷺ بنور النبوة، وحمل همومها بواسطة دعوة الثقلين، وانشراح صدر سره بضياء الرسالة، واحتمال مكاره الكفار، وأهل النفاق، وانبساط صدر نوره بأشعة الولاية، وتحققه ﷺ بالعلوم اللدنية والحكم الإلٰهية والمعارف الربانية والحقائق الرحمانية.

وأما شرح الصدر الصوري، فقد وقع مراراً مرة وهو ابن خمس أو ست لإخراج مغمز الشيطان، وهو الدم الأسود الذي به يميل القلب إلى المعاصي، ويعرض عن الطاعات. ومرة عند ابتداء الوحي، ومرة ليلة المعراج.

ثم قال عند قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] بعنوان النبوة وأحكامها أي رفع حيث قرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى في كلمة الشهادة والآذان والإقامة وفيه يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

ومنهم الغوث الكبير الشريف الشهير سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ الفاسي[١] المتوفى بعد سنة ١١٣٠ هـ

وهو رضي الله عنه سبب جمعي لهذا الكتاب فإني لما رأيت في الإبريز. كلامه الفريد العزيز. في بيان ما له صلى الله عليه وسلم من الكمالات. التي فاق بها جميع المخلوقات من جميع الجهات. خطر لي أن أجمعها وحدها في سفر يختص بكلام هذا الإمام. الذي كشف به عن حقائق لم تسمع من غيره في علو قدر النبي ﷺ. ثم اتسع فكري فرأيت لزوم جمع ما ذكره غيره في هذا الشأن. من السيرة النبوية وكلام أهل العلم والعرفان. وقد أحسن الله بإتمام ذلك على أكمل الوجوه والحمد لله وليّ الإحسان

فمن جواهره رضي الله عنه

[لولا نور محمد ﷺ]

ما ذكره تلميذه العلامة الإمام الشيخ أحمد بن المبارك في مقدمة كتابه الإبريز الذي ألفه في مناقبه، من أن سيدنا الخضر عليه السلام أعطاه، ورد أوامره بذكره كل يوم سبعة الآف مرة، وهو: اللهم يا رب بجاه سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ اجمع بيني وبين سيدنا محمد بن عبد الله، في الدنيا قبل الآخرة، ثم ذكر بعده بنحو ورقة إنه رضي الله عنه رأى سيد الوجود ﷺ يعني يقظة، فقال له شيخه سيدي عبد الله البرناوي: يا سيدي عبد العزيز قبل اليوم كنت أخاف عليك، واليوم حيث جمعك الله مع رحمته تعالى سيد الوجود ﷺ أمن قلبي واطمأن خاطري فأستودعك الله عز وجل.

ونقل في المقدمة أيضاً أن سيدي أحمد بن عبد الله الغوث رضي الله عنه قال: كان لي مريد وكنت أحبه حباً شديداً، فكنت ذات يوم أعظم له أمر سيد الوجود ﷺ، فقلت له: يا

---

(١) هو عبد الله بن مسعود، أبو فارس الدباغ، متصوف من الأشراف الحسينيين. مولده ووفاته بفاس. كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولد سنة ١٠٩٥ هـ. وتوفي سنة ١١٣٢ هـ.

ولدي لولا نور سيدنا محمد ﷺ، ما ظهر سر من أسرار الأرض، فلولا هو ما تفجرت عين من العيون، ولا جرى نهر من الأنهار، وإن نوره ﷺ يا ولدي يفوح في شهر مارت ثلاث مرات على سائر الحبوب، فيقع لها الأثمار ببركته ﷺ، ولولا نوره ﷺ ما أثمرت، يا ولدي إن أقل الناس إيماناً من يرى إيمانه على ذاته مثل الجبل وأعظم منه فأحرى غيره، وإن الذات تكل أحياناً عن حمل الإيمان، فتريد أن ترميه فيفوح نور النبي ﷺ عليها فيكون معيناً لها على حمل الإيمان فتستحليه وتستطيبه.

وقال في الإبريز في أثناء تعداده لكرامات سيدي عبد العزيز رضي الله عنه، ومنها، وقد شاهد ذلك أهل الدار وبعض من قصد الشيخ للزيارة، أنه رضي الله عنه كانت تحصل له غيبة خفيفة عن جسمه، حتى أن الجالس معه يراه بمنزلة من خرجت روحه ولا تبقى في ذاته رضي الله عنه حركة نفس ولا غيره، إلا في شفتيه وما يقرب منهما من العروق فوقع له ذلك ذات يوم، فدخل من دخل عليه البيت، فوجد النور يسطع على هيئة البرق، إلا أنه أبطأ وأصفى، فخرج فأعلم من حضر، فدخلوا فعاينوا ذلك فلما كان الغد لقيت الشيخ رضي الله عنه وخرجت معه إلى العرصة فاسترجع وقال: لقد ظهر عليَّ بالأمس أمر ما كانت عادته إلا الستر فقلت: ياسيدي لقد سمعتِ بهذا، أو ما علمت سر الحكاية، فقال رضي الله عنه: هو نوره ﷺ.

وذكر من كراماته رضي الله عنه أنه كان يسأله عن الحديث الصحيح من الباطل ليختبره بذلك، فكان يجيبه بصحة الصحيح، وبطلان الباطل، كما ذكره أئمة الحديث مع كونه رضي الله عنه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يطلب شيئاً من العلم.

قال ابن المبارك: ومن عجيب أمره وغريب شأنه رضي الله عنه أني إذا خضت معه في هذا الباب يميز الحديث الذي أخرجه البخاري وليس في مسلم، والذي أخرجه مسلم وليس في البخاري.

فلما طالت خبرتي له وثبت عندي معرفته بالحديث من غيره سألته عن السبب الذي يعرف به ذلك، فقال مرة، كلام النبي ﷺ لا يخفى، وسألته مرة أخرى فقال: إن الشخص في الشتاء إذا تكلم خرج من فمه الفوار، وإذا تكلم في الصيف لا يخرج من فمه الفوار، وكذلك من تكلم بكلام النبي ﷺ خرج النور مع كلامه ومن تكلم بغير كلامه خرج الكلام بغير نور. وسألته مرة أخرى فقال: إن السراج إذا تغذى قوى نوره وإذا ترك بقي على حالته، وكذا حال العارفين إذا سمعوا كلامه ﷺ تقوى أنوارهم، وتزداد معارفهم، وإذا سمعوا كلام غيره بقوا على حالتهم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[الكتابان اللذان خرج بهما ﷺ]

وهي من الباب الأول من الإبريز الذي ذكر فيه أجوبة الشيخ رضي الله عنه عن الأحاديث التي سأله عنها قال فمنها حديث الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يديه كتابان فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً»، ثم قال للذي في شماله: «مثله في أهل النار» وقال في آخر الحديث: فقال، بيده فنبذهما. ثم قال: «فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير»[1].

قال ابن حجر وإسناده حسن فاستشكله بعض الناس، وظن أن فيه تعلق القدرة بالمستحيل حيث جمع أسماء أهل الجنة في كتاب تحمله يمناه ﷺ وكذا أسماء أهل النار مع صغر جرم الكتابين وكثرة الأسماء، ففي ذلك إيراد الصغير على الكبير، من غير تصغير الكبير، ولا تكبير الصغير، وإلا فأيّ ديوان يحصر أسماء هؤلاء فهذا، أقوى دليل على المحال العقلي، من إدخال للواسع على الضيق مع بقاء هذا على صغره وهذا على كبره مع كون المخبر بذلك كما في صدر السؤال المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

فأجاب رضي الله عنه: بأن ما قاله علماء أهل السنة والجماعة رضي الله عنهم هو العقيدة، ولا يمكن أن يكون في أطوار الولاية، ولا في معجزات الرسالة ما تحيله العقول، نعم يكون فيهما ما تقصر عنه العقول، فإذا أرشدت إلى المعنى المراد قبلته وأذعنت له والكتابة المذكورة في هذين الكتابين كتابة نظر لا كتابة قلم، وذلك أن صاحب البصيرة، لاسيما سيد الأولين والآخرين سيدنا ومولانا محمد ﷺ إذا توجه قصده إلى شيء بأن ينظره فإن بصيرته تخرق الحجب التي بينه وبين المنظور إليه حتى يبلغ نورها إليه ويحيط به، فإذا حصلت صورة المنظور إليه في البصيرة وفرضناها بصيرة كاملة، فإن حكمها يتعدى إلى البصر وتصير القدرة الحاصلة لها حاصلة للبصر أيضاً، فيرى البصر الصورة مرتسمة له فيما يقابله فإن كان المقابل له حائطاً رآها في حائط، وإن كان المقابل له يده رآها في يده، وإن كان المقابل له قرطاساً رآها في قرطاس، وعلى هذا يتخرج حديث «مثلت لي الجنة والنار في عرض هذا الحائط» لأنه ﷺ توجه ببصيرته إليهما وهو في صلاة الكسوف، فخرق ذلك إلى بصره، وكان المقابل له عرض الحائط، فرأى ﷺ صورتهما فيه، وعليه أيضاً يتخرج حديث الكتابين، فإنه ﷺ توجه ببصيرته

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢: ٤٢٧).

إلى الجنة فحصلت صورتها في بصره، وكان المقابل له الكتاب الذي في يمينه.

فجعل ﷺ ينظر إلى صورة الجنة وسكانها في ذلك الجرم الذي في يمينه، فقال: «هذا كتاب من رب العالمين أسماء أهل الجنة وقبائلهم وآبائهم»[١]، ثم توجه ببصيرته إلى النار فحصلت صورتها في البصر، وكان المقابل له الجرم الذي في شماله، فجعل ينظر إلى صورتها وجميع ما فيها فقال: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وآبائهم وقبائلهم»[٢] فإن كان في حديث «مثلت لي الجنة والنار» إشكال، ففي هذا إشكال، وإن كان لا إشكال فيه فهذا أيضاً لا إشكال فيه، ومبنى الإشكال على حمل الكتابة على كتابة القلم، ولو كانت هناك كتابة بالقلم لتناقضت مع آخر الحديث، فإن فيه، ثم نبذهما أي الكتابين، أي طرحهما ورمي بهما، وكيف يرمي ﷺ بكتاب جاء من رب العالمين، وفيه أسماء أصفيائه ورسله وخيرته من خلقه والنبي ﷺ أشد الخلق تعظيماً لله ولرسله وملائكته.

وإنما سمى الصورة الحاصلة في الجرم كتابة لمشابهتها للكتابة في الدلالة على ما في الخارج، وإنما أضيفت الكتابة إلى رب العالمين لأن النور الذي هو سبب في حصول الصورة التي عبر عنها بالكتابة ليس هو من طوق العبد، ولا من كسبه وإنما هو مدد رباني ونور من عند الله سبحانه.

فخرج من هذا أن المراد بالكتابة الصورة الحاصلة في النظر لا غير، وحصولها في النظر غير مشكل كحصول سائر المرئيات في النظر، فإن إنسان العين مع صغره ترسم فيه الصور العظيمة، كصورة السماء، وهو أصغر من العدسة فالحديث من نوع الممكنات وهكذا سائر المعجزات والخوارق والله أعلم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[القرآن أنزل على سبعة أحرف]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسألته رضي الله عن معنى قوله ﷺ «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف»[٣] وذكر في ذلك كلاماً كثيراً وأسراراً عظيمة، سمعها من الشيخ رضي الله عنه تخالف ما قاله علماء الظاهر في معنى الحديث المذكور.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢: ٤٢٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢: ٤٢٧).

(٣) رواه الترمذي في السنن (٢٩٤٣). والبخاري في الصحيح (٣: ١٦٠). دون لفظ «هذا».

قال: فقلت لشيخنا رضي الله عنه: لا أسألك إلا عن مراد النبي ﷺ فقال: غداً نجيبك إن شاء الله تعالى، فلما كان من الغد قال لي رضي الله عنه: ـ وقد صدق فيما قال ـ سألت النبي ﷺ عن مراده بهذا الحديث. فأجابني عن مراده ﷺ، قال ابن المبارك: وقد تكلمت معه في ذلك ثلاثة أيام وهو يبين لي المعنى المراد، فعلمت أن لهذا الحديث شأناً كبيراً، وسمعت فيه من الأسرار ما لا يكيف ولا يطاق، ثم ذكر ملخص، ما يمكن أن يكتب وأطال في ذلك.

ومما قاله: إن في النبي ﷺ قوة طبعت عليها ذاته الشريفة، تنوعت أنوارها إلى سبعة أوجه، وهذه الأنوار السبعة لها وجهتان أحداهما منه ﷺ إلى الحق سبحانه، والأخرى منه ﷺ إلى الخلق، وهي في الوجه الأولى فياضة دائماً لا يسكن منها شيء، ولا يفتر، فإذا أراد الله تعالى أن ينزل القرآن على نبيه ﷺ أنزل عليه الآية ومعها شيء من نور الوجه الأول مثلاً لا جميعه، إذ هو لا يفتر ولا يسكن في وجهه الحق سبحانه فما ظهر في وجهه الخلق إلا شيء منه، ثم ينزل تعالى آية أخرى ومعها شيء من نور الوجه الثاني، ثم آية ثالثة ومعها شيء من نور الثالث، وهكذا... فقلت: وما هذه الأنوار السبعة التي أشير إليها بالأحرف السبعة؟ فقال رضي الله عنه هي: حرف النبوة، وحرف الرسالة، وحرف الآدمية، وحرف الروح، وحرف العلم، وحرف القبض، وحرف البسط، وأخذ يشرح ذلك ويفصله تفصيلاً باهراً، من شاء الاطلاع عليه فليراجعه. ثم ذكر أن للنبوة سبعة أجزاء:

الأول قول الحق، الثاني البصر، الثالث الرحمة، الرابع معرفة الله عز وجل على الوجه الذي ينبغي أن تكون المعرفة عليه، الخامس الخوف التام منه عز وجل، السادس بغض الباطل، السابع العفو.

قوله الثالث الرحمة قال رضي الله عنه وهي نور ساكن في الذات يقتضي الرأفة والحنانة على سائر الخلق وهو ناشيء عن الرحمة الواصلة من الله عز وجل للعبد، وعلى قدر رحمة الله للعبد تكون رحمته هو لسائر الناس، قال رضي الله عنه: «ولا شك أنه ليس في مخلوقات الله عز وجل من هو مرحوم مثله ﷺ، فلذلك كانت رحمته ﷺ للخلق لا يوازيها شيء ولا يلحقها في ذلك أحد». ولقد بلغ من عظيم رحمته ﷺ أن عمت رحمته ﷺ العلوي، والعالم السفلي، وأهل الدنيا وأهل الآخرة.

وقد أشار عز وجل في آية: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] إلى أربعة أمور:

أحدها: النور الذي تسقي به جميع المخلوقات التي وقع لها الرضا من الله عز وجل، الثاني: ذلك النور قريب منه عز وجل، ونعني بالقرب المكانة والمنزلة لا قرب المكان، الثالث: إن ذلك النور القريب منه عز وجل بأسره وجميعه في ذات النبي ﷺ، الرابع: إن

ذاته ﷺ مطيقة لذلك النور قادرة على حمله بحيث لا يلحقها في ذلك كلفة ولا مشقة وهذا هو الكمال الذي فاق به نبينا ﷺ جميع الخلائق.

ثم قال رضي الله عنه بعد قوله السابع العفو من أجزاء النبوة، واعلم أن خصال النبوة لم يحزها على الوجه الأكمل الذي ليس فوقه شيء إلا نبينا ﷺ، وسبب ذلك أن خصال الآدمية لم تكمل في ذات من الذوات مثلما كملت في ذاته ﷺ، فلما كانت على الوجه الأعلىٰ في ذاته الظاهرة ونزلت عليها خصال النبوة زادت أنوارها وتشعشعت أسرارها. ثم قال وأما معرفته بربه ﷺ فلا يطاق شرحها

منـزه عـن شـريـك فـي محـاسنـه فجـوهـر الحسـن فيـه غيـر منقسـم

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[سلطان الأرواح]

قوله رضي الله عنه بعد أن شرح أجزاء النبوة وأما الروح: فالأول: من أجزائها ذوق الأنوار. وهو عبارة عن نور سار فيها تذوق به أنوار أفعاله تعالى في الكائنات، والأنوار الموجودة في العالم العلوي على ما قدر وسبق لها في القسمة وهو يخالف ذوق الذات في أمور:

أحدها: أنه نوراني لا يتعلق إلا بالنور بخلاف ذوقنا فإنه يتعلق بالأجرام فنحس بذوق حلاوة العسل بسبب اتصال جرم العسل بلساننا، والروح تذوق حلاوة العسل لا من جرم العسل بل من نور الفعل الذي قامت به حقيقة تلك الحلاوة، وهكذا ذوقها لسائر المذوقات.

ثانيها: أنه لا يشترط فيه الاتصال فإن الروح تذوق ما اتصل بها وما لم يتصل بخلاف ذوقنا، فإنه لابد فيه من الاتصال على ما جرت به العادة.

ثالثها: إنه لا يخص محلاً من الروح دون غيره بل هو سار في جميع جواهرها الظاهرة والباطنة بخلاف ذوقنا، فإنه يخص في العادة جرم اللسان.

رابعها: إنه يكون بسائر الحواس.

ثم قال وبالجملة فهي تذوق بجميع ذاتها وسائر جواهرها ذوقاً يحصل لها عن سائر حواسها والله تعالى أعلم. ثم إن الأرواح بعد اتفاقها في الذوق على الصفة السابقة تختلف فيه بالقوة الضعف. وأقوى الأرواح فيه من خرق ذوقها العرش والفرش وغيرهما من العوالم، وليس ذلك إلا لروحه ﷺ، لأنها سلطان الأرواح وقد سكنت في ذاته الطاهرة ﷺسكنى الرضا

والمحبة والقبول، وارتفع الحجاب الذي بينهما فصار ذوق الروح الشريفة على كماله وخرقه للعوالم ثابتاً لذاته الطاهرة الترابية، وهذا هو الكمال الذي لا كمال فوقه.

الثاني: **الطهارة**: يعني من أجزاء الروح وهي عبارة عن صفاء الروح الصفاء الذي خلقت عليه وهو ينقسم إلى حسي ومعنوي: أما الحسي: فمن أجل أنها نور، والنور كله على غاية الصفاء ونهاية الطهارة. وأما المعنوي: فهو عبارة عن امتزاج المعرفتين: أعني المعرفة الباطنة والمعرفة الظاهرة وذلك أن المخلوقات بأسرها عارفة بخالقها سبحانه، لا فرق في ذلك بين صامت وناطق، ولا بين حي وجامد، وما من مخلوق إلا وجميع جواهره فيها هذه المعرفة الباطنية ثم من رحمة الله عز وجل صير له ما كان باطناً ظاهراً، فيشعر بمعرفة جميع جواهره بربه عز وجل ويصير في ظاهره عارفاً بربه بجميع أجزاء ذاته وهذا من أعلى درجات المعرفة، وقد فعل سبحانه هذا بالأرواح فهي عالمة بربها في ظاهرها بجميع ذواتها مع بعد اتفاقها في هذا الصفاء، فهي مختلفة فيه على قدر تفاوت ذواتها في الصغر وفي الكبر، فإن من الأرواح من حجمه صغير ومنها من حجمه كبير، ولاشك أن من حجمه كبير تكون جواهره أكثر فتكون معارفه بربه عز وجل أكثر، وأكبر الأرواح قدراً وأعظمها حجماً روحه ﷺ، فإنها تملأ السموات والأرضين ومع ذلك فقد انطوت عليها الذات الشريفة واحتوت على جميع أسرارها. فسبحان من أقدر الذات الطاهرة على ذلك.

الثالث: **التمييز**: يعني من أجزاء الروح قال: وهو نور في الروح تميز به الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر تمييزاً كاملاً، ومع ذلك فلا تحتاج فيه إلى تعلم بل بمجرد رؤية الشيء أو سماع لفظه تميزه وتميز أحواله، ومبتدأه ومنتهاه، وإلى أين يصير؟ ولماذا خلق؟ ثم الأرواح مختلفة في هذا التميز على قدر الاطلاع، فمن الأرواح من هو قوي في الاطلاع ومنها من هو ضعيف، وأقوى الأرواح في ذلك روحه ﷺ فإنها لم يحجب عنها شيء من العالم، فهي مطلعة على عرشه تعالى، وعلوه وسفله ودنياه وآخرته وناره وجنته، لأن جميع ذلك خلق لأجله ﷺ فتمييزه ﷺ خارق لهذه العوالم بأسرها، فعنده تمييز في أجرام السموات من أين خلقت؟ ومتى خلقت؟ ولمَ خلقت؟ وإلى أين تصير في جرم كل سماء؟ وعنده تمييز في ملائكة كل سماء، ومن أين خلقوا؟ ومتى خلقوا؟ وإلى أين يصيرون؟ وتمييز اختلاف مراتبهم ومنتهى درجاتهم. وعنده ﷺ تمييز في الحجب السبعين وفي ملائكة كل حجاب على الصفة السابقة، وعنده ﷺ تمييز في الأجرام النيرة في العالم العلوي مثل النجوم والشمس والقمر واللوح والقلم والبرزخ والأرواح التي فيه على الوصف السابق، وكذا عنده ﷺ تمييز في الأرضين السبع وفي مخلوقات كل أرض وما في البر والبحر من ذلك، فيميز جميع ذلك على الصفة السابقة وكذا

عنده ﷺ تمييز في الجنان ودرجاتها وعد سكانها ومقاماتهم فيها وكذا ما بقي من العوالم، وليس في هذا مزاحمة للعلم القديم الأزلي الذي لا نهاية لمعلوماته، وذلك لأن ما في العلم القديم لم ينحصر في هذا العالم، فإن أسرار الربوبية وأوصاف الألوهية التي لا نهاية لها ليست من هذا العالم في شيء، ثم الروح إذا أحبت الذات أمدتها بهذا التمييز، فلذلك كانت ذاته الطاهرة ﷺ تميز ذلك التمييز السابق وتخرق به العوالم كلها، فسبحان من شرفها وكرمها وأقدرها على ذلك.

الرابع: البصيرة: وهي عبارة عن سريان الفهم في سائر أجزاء الروح كما يسري في جميعها أيضاً سائر الحواس مثل: البصر، والسمع، والشم، والذوق، واللمس، فالعلم قائم بجميعها، والبصر قائم بجميعها، والشم قائم بجميعها، والذوق قائم بجميعها، واللمس قائم بجميعها، حتى إنه ما من جوهر من جواهرها إلا وقد قام به علم وسمع وبصر وشم وذوق ولمس، فبصرها من سائر الجهات، وكذا بقية الحواس، فإذا أحبت الروح الذات وزال الحجاب الذي بينهما أمدتها بهذه البصيرة، فتبصر الذات من أمام وخلف وفوق وتحت ويمين وشمال بجواهرها كلها، وتسمع كذلك وتشم كذلك وبالجملة، فما كان للروح يصير للذات، وقد زال الحجاب بين الذات الطاهرة وبين الروح الشريفة، يوم شقت الملائكة صدره الشريف ﷺ وهو صغير، ففي ذلك الوقت وقع الالتحام والاصطحاب بين روحه وذاته ﷺ وصارت ذاته تطلع على جميع ما تطلع عليه روحه ﷺ، فلهذا كان ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه.

وقد قال ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم أقيموا ركوعكم وسجودكم فإني أراكم من خلفي، كما أراكم من أمامي فهذا هو سر الحديث والله تعالى أعلم.

الخامس: عدم الغفلة: وهو عبارة عن انتفاء أوصاف الجهل وأضداد العلم عن القدر الذي بلغ إليه علمها ووصل اليه نظرها فلا يلحقها سهو ولا غفلة ولا نسيان عن معلوم أيّ معلوم من القدر الذي وصلت إليه وليس حصول المعلومات لديها على التدريج بل يحصل ذلك بنظرها دفعة واحدة، فليس في علمها أنها إذا توجهت إلى شيء غفلت عن غيره بل إذا توجهت إليه حصل غيره معه، بل لا تحتاج إلى توجه لأن العلوم فطرية، فيها ففي أول فطرتها حصلت لها علومها دفعة واحدة، ثم دام لها ذلك كما دامت ذاتها، فهذا هو المراد بعدم الغفلة، وهو ثابت لكل روح، وإنما تختلف في قدر العلوم، فمنها من علومه كثيرة ومنها من علومه قليلة.

وأعظم الأرواح علماً وأقواها نظراً روحه ﷺ لأنها يعسوب الأرواح فهي مطلعة على

جميع ما في العوالم كما سبق دفعة واحدة من غير ترتيب ولا تدريج، ثم لما وقع الاصطحاب بينها وبين ذاته الطاهرة ﷺ أمدتها بعدم الغفلة حتى صارت الذات مطلعة على جميع مافي العالم مع عدم لحوق الغفلة لها في ذلك، لكن الاطلاع ليس مثل الاطلاع، فإن اطلاع الروح دفعة واحدة من غير ترتيب واطلاع الذات على سبيل التدريج والترتيب، بمعنى أنه ما من شيء تتوجه إليه في العالم إلا وتعلمه، لكن علمه لا يحصل إلا بالتوجه، فإذا توجهت إلى شيء آخر علمته وهكذا. . . حتى تأتي على ما في العالم فلها التسلط في العلم على ما في العالم، ولكن بتوجه بعد توجه، ولا تطيق الذات ما تطيقه الروح من حصول ذلك دفعة واحدة، وكذا يختلفان في عدم الغفلة، فإنه في الروح على نحو ما سبق تفسيره.

وأما في الذات فهو بالنسبة إلى توجهها بمعنى أنها إذا توجهت إلى شيء لا يفوتها ولا يلحقها في توجهها إليه سهو ولا غفلة ولا نسيان، وأما إذا لم تتوجه إليه فإنها قد تغفل عنه ويقع لها فيه السهو والنسيان، ولهذا قال ﷺ كما في صحيح البخاري: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فاذا نسيت فذكروني»[1].

السادس: قوة السريان: وهي عبارة عن أقدار الله تعالى لها على خرق الأجرام والنفوذ فيها فتخرق الجبال والجلاميد والصخور والجدران وتغوص في ذلك، وتذهب فيه حيث شاءت، وإذا سكنت الروح في الذات وأحيتها واصطحبت معها أمدتها بهذه القوة، فتصير الذات تفعل ما تفعله الروح، ومن ذلك حكاية النبي، يعني زكريا على نبينا ﷺ، الذي أراده قومه، ففر منهم ودخل في شجرة، فإن روحه أمدت ذاته لمحبتها فيها بالقوة المذكورة، فخرقت الذات جرم الشجرة، ودخلت فيها.

ومن ذلك أيضاً ما يقع للأولياء رضي الله عنهم من وجودهم في الموضع ودخولهم إياه من غير فتح باب ومن ذلك أيضاً ما يقع لهم رضي الله عنهم مشي الخطوة حتى يضع الواحد منهم رجلاً بالمغرب وأخرى بالمشرق، فإن الذات لا تطيق خرق الهواء الذي بين المشرق والمغرب في لحظة فإن الريح تقطع أوصالها وتفتت أعضاءها وتنشف الدم والرطوبات التي فيها ولكن الروح أمدتها بالقوة المذكورة حتى وقع ما وقع. ومن ذلك قصة الإسراء والمعراج فإنه عليه الصلاة والسلام بلغ إلى ما بلغ ثم رجع في مدة قريبة، وكل ذلك من عمل الروح حيث أمدت الذات بقوة السريان التي فيها والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ١١١). ومسلم في الصحيح (المساجد: ٨٩). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ١٥).

السابع: عدم الإحساس بمؤلمات الأجرام: مثل الجوع والعطش والحر والبر ونحو ذلك. . . فإن الروح لا تحس بشيء من ذلك، فلا جوع ولا عطش ولا حر ولا برد، بالنسبة إليها وكذا، إذا خرقت الأجرام الحارة فإنه لا ينالها شيء من ضررها، ولا ألم من آلامها، وكذا إذ أمرت بموضع قذارة فإنها لا تتضرر بذلك ولا يقع لها تألم منه بخلاف الملك في هذا الأخير، فإنه يميل إلى الرائحة الطيبة وينفر من الرائحة الخبيثة. ولولا وجود هذا الأمر في الروح ما أطاقت القرار في الذات التي هي فيها والله تعالى أعلم.

فهذه الأمور السبعة لابد منها في حق كل روح فلذا قلنا فيها أنها أجزاء الروح تقريباً والأرواح متفاوتة فيها كما سبق بيانه وسبق أن أعلى الأرواح في ذلك روحه ﷺوسبق أن ما كان لها من هذه الأوصاف ثابت لذاته ﷺ.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[العلم والمعلومات أصلها البني ﷺ]

قوله بعد أن ذكر أقسام الروح السبعة السابقة، وأما العلم ونعني به العلم الكامل البالغ الغاية في الطهارة والصفاء، فهو الذي يجتمع فيه الخلال السبع الآتي ذكرها.

قال: واعلم أن العلم نور العقل، والعقل نور الروح، والروح نور الذات، وقد سبق أن الذات الطاهرة التي أزيل الحجاب بينها وبين الروح تتصف بما ثبت للروح من الأنوار السابقة، فكذلك أيضاً إذا كانت الروح كاملة في الطهارة والصفاء، فإنها تتصف بجميع ما ثبت لنور العقل الذي هو العلم، فهذه الأنوار السبعة التي في العلم تتصف بها الروح زيادة على ما سبق **فأول أجزائه**: الحمل للمعلومات. **الثاني**: عدم التضييع. **الثالث**: معرفة اللغات. وأصوات الحيوانات والجمادات. **الرابع**: معرفة العواقب. **الخامس**: معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين الإنس والجن. **السادس**: معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الكونين أعني العالم العلوي والعالم السفلي. **السابع**: انحصار الجهات في جهة واحدة وهي جهة أمام.

وشرحها كلها شرحاً بالغاً وقال في الثاني: وهو عدم التضييع هو نور في العلم يقتضي أن لا يسقط من معلوماته شيء إلا لمن يستحقه فهذا النور يحفظه من وصوله إلى غير أهله فلا يصل إليه ابتداء، وعلى تقدير أنه وصل إليه فإنه يسترجعه ويسفه منه ويرده إلى أصله ويحميه من البقاء عند من لا يستحقه، وهكذا كان ﷺ، فإنه كان يتكلم بأنوار العلوم ويسمعها منه البر والفاجر والمؤمن والمنافق، فأما الفاجر والمنافق فإنه لا تقر عنده، ولا تبقى على باله، لأن

النور المذكور يستردها إلى أصلها الطاهر، ومحلها الزاهر وهو ذاته ﷺ، وأما أهل المحبة والإيمان رضي الله عنهم فإنهم أهل للحكمة ومحل لقبول الخيرات كما قال تعالى: ﴿أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ﴾ [الفتح: ٢٦] فإذا سمعوا تلك الأنوار فإنها تستقر فيهم لطهارتهم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[ليس في المرسلين من يبلغ نبينا في كثرة الأتباع]

قوله بعد أن ذكر أجزاء العلم على الوجه السابق، وأما الرسالة:

فالأول من أجزائها: سكون الروح في الذات سكون الرضا والمحبة والقبول. الثاني: العلم الكامل غيباً وشهادة. الثالث: الصدق مع كل أحد في الأقوال والأفعال. الرابع: السكينة والوقار. الخامس: المشاهدة الكاملة. السادس: أن يموت وهو حي. السابع: أن يحيا حياة أهل الجنة.

وشرح جميعها إلا الخامس وهو المشاهدة فإنه قال لا سبيل إلى شرحها، لأنه من وراء العقول.

وقال في شرح الجزء الأول: وهو سكون الروح في الذات سكون الرضا والمحبة والقبول، وذلك لأن في الذوات الطاهرة أنواراً مستمدة من إيمانهم بالله عز وجل وعلى قدر تلك الأنوار قلة وكثرة يضعف سكون الروح في الذات ويقوي، لأن النور إلى أميل، والأرواح من الأنوار، غير أن نور الإيمان بالله تعالى أسطع وأنصع من نورها، فإذا رأت ذلك النور في ذات من الذوات فإنها تميل إليه وتستحيله وتستعذبه، وليس سكونها في الذات التي قدر نور إيمانها قدر ذراع مثلاً مثل سكونها في الذات التي نور إيمانها قدر ذراعين، وهكذا... ثم إن نور الإيمان يزيد بزيادة نور الأجور، وذلك لأن للأعمال أجوراً وللأجور أنواراً وأنوار تلك الأجور تنعكس إلى الذوات فيحصل للذوات بها نفع في الدنيا بالمعنى، بأن تعظم بها أنوار إيمانهم ونفع في الآخرة ظاهري بأن تصير تلك الأجور نعماً في الجنة يتنعم بها العاملون، قال رضي الله عنه ولو فرضنا رجلين استويا في نور الإيمان وعمل أحدهما حسنات في نهاره دون الآخر ثم ناما معاً بالليل، فإن نور إيمان الذي عمل يبيت ساطعاً منيراً لامعاً في زيادة بخلاف الذي لم يعمل.

قال رضي الله عنه وليس في سائر الأعمال أعظم أجراً من الرسالة، فلهذا كان المرسلون ﷺ لا يلحقون في الإيمان أبداً، ثم أنهم يختلفون بحسب اختلاف اتباعهم قلة

وكثرة، وليس في سائر المرسلين من يبلغ نبينا ﷺ في كثرة الأتباع، فكان أجره ﷺ فوق أجور المرسلين، فعظم نور إيمانه ﷺ حتى بلغ إلى نهاية لا تلحق ولا تكيف، فلزم أن سكون الروح في ذوات المرسلين ليس كسكونها في ذوات غيرهم فهذا السكون الخاص هو الذي جعلناه جزأ من أجزاء الرسالة وقد علمت أن سكونها في ذاته ﷺ فوق سكونها في ذوات سائر المرسلين، فكان هذا الجزء على غاية الكمال في ذاته ﷺ.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[من رأى سيد الوجود ﷺ في المنام]

قوله في الباب الأول في سياق الجواب عما يراه النائم في منامه: وأما من رأى سيد الوجود ﷺ في المنام فإن رؤياه تنقسم إلى قسمين.

أحدهما: ما لاتعبير فيه وذلك بأن يراه على الحالة التي كان ﷺ عليها في دار الدنيا التي كان الصحابة رضي الله عنهم يشاهدونه ﷺ عليها، ثم إن كان الرائي من أهل الفتح والعرفان، والشهود والعيان فإن الذي رأى هو ذاته الطاهرة الشريفة ﷺ، وإن لم يكن من أهل الفتح، فتارة تكون رؤياه كذلك وهو النادر، وتارة وهو الكثير، يرى صورة ذاته الشريفة، لا عين ذاته، وذلك لأن لذاته الشريفة الطاهرة صوراً بها يرى ﷺ في أماكن كثيرة في المنام وفي اليقظة، وذلك لأن لذاته ﷺ نوراً منفصلاً عنها، قد امتلأ بها العالم كله، فما من موضع منه إلا وفيه النور الشريف، ثم هذا النور تظهر فيه ذاته ﷺ، كما تظهر صورة الوجه في المرآة، فأنزل النور بمثابة مرآة واحدة ملأت العالم كله، والمرتسم فيها هو الذات الكريمة، فمن هنا كان يراه ﷺ رجل بالمشرق وآخر بالمغرب، وآخر بالجنوب وآخر بالشمال، وأقوام لا يحصون في أماكن مختلفة في آن واحد، وكل يراه عنده، وذلك لأن النور الكريم الذي ترسم فيه الذات مع كل واحد منهم والمفتوح عليه هو الذي إذا رأى الصورة التي عنده تبعها ببصيرته ثم يخرق بنورها إلى محل الذات الكريمة.

وقد يقع هذا لغير المفتوح عليه بأن يمن عليه تعالى برؤية الذات الكريمة وذلك بأن يجيئه ﷺ إلى موضعه، كما إذا علم منه ﷺ كمال المحبة والصدق فيها فأمر المسألة موكول إلى النبي ﷺ، فمن شاء، أراه ذاته الكريمة، ومن شاء أراه صورته، وله ﷺ ظهور في صور أخر، وهي صور عددالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام وصور عدد الأولياء من أمته من لدن زمانه ﷺ، إلى يوم القيامة.

والعدد المذكور الصحيح فيه أنه غير معلوم، وقيل أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً،

فله ﷺ من الصور التي يظهر فيها مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ومثل هذا العدد في أولياء أمته ﷺ، فله ﷺ الظهور في مائتي ألف وثمانية وأربعين ألفاً، لأن الجميع مستمد من نوره ﷺ. ومن هنا يقع كثيراً للمريدين رؤيته ﷺ في ذوات أشياخهم.

القسم الثاني: من رؤياه ﷺ ما فيه تعبير، والتعبير هٰهنا في درجات الظلام، لا في تأويل الرؤيا، فإنها على الحقيقة لا تأويل فيها، فإن من رآه ﷺ فقد رأى الحق، قال رضي الله عنه ولنشر إلى درجات الظلام الواقعة في ذلك، فنقول:

من رآه ﷺ وهو يحرضه على الدنيا فظلام ذاته في الدرجة الأولى، وهو سهو المكروه. وإنما كان في هذه الرؤيا ظلاماً، لأن الذي عليه ذاته ﷺ هو الدلالة على الحق الباقي لا على الدنيا الفانية.

ومن رآه ﷺ وقد أعطاه مالاً فظلامه في الدرجة الثانية، وهي سهو الحرام، وإنما كان الظلام هنا أقوى لأن إعطاء الفاني والتمكين منه أقوى من الدلالة عليه.

ومن رآه ﷺ في موضع قذر فظلامه في الدرجة الثالثة، وهي عمد المكروه. ومن رآه ﷺ شاباً صغيراً فظلامه في الدرجة الرابعة، وهي عمد الحرام.

ومن رآه ﷺ كبيراً ولكن لا لحية فظلامه في الدرجة الخامسة، وهي الجهل البسيط في العقيدة الخفيفة. ومن رآه ﷺ وهو أسود فظلامه في الدرجة السادسة، وهي الجهل المركب في العقيدة الخفيفة.

تنبيه: في بيان معنى العقيدة الخفيفة والعقيدة الثقيلة قال رضي الله عنه في الكلام على درجات الظلام: الدرجة الخامسة الظلام الداخل على الذات من الجهل البسيط في العقيدة الخفيفة. وذلك أن العقيدة على قسمين: خفيفة وثقيلة.

فالخفيفة: هي اعتقاد أنه تعالى يرى في الآخرة، وأنه تعالى لا يجب عليه جزاء أي الثواب والعقاب، بل الثواب من فضله، والعقاب من عدله، وأنه تعالى لا يحتاج في فعله إلى واسطة، وإن سائر الوسائط وما ينشأ عنها من جملة أفعاله تعالى فالنار وحرقها، والطعام وشبعه، والسيف وقطعه جميع ذلك من فعله تعالى... وأن الجنة موجودة الآن، وأن النار موجودة الآن، وأنه تعالى لا يظلم أحداً في الدنيا، ولا في الآخرة، فهذه هي العقيدة الخفيفة، بأن اعتقدها فهو المؤمن حقاً وإيمانه كامل ومن جهلها بأن اعتقد أنه تعالى لا يرى، وأن الجزاء يجب عليه، وأنه يحتاج إلى واسطة في أفعاله وإن الجنة والنار غير موجودتين الآن فصاحب هذا الاعتقاد معاقب يوم القيامة عقاباً فوق عقاب ذنب المعاصي غير الاعتقادية.

وأما العقيدة الثقيلة: فهي التي إذ جهلها الشخص لحقه الخلود في نار جهنم، مثل اعتقاد أنه تعالى موجود ووجوده بالقلم والبقاء والمخالفة، وأنه تعالى فاعل بالاختيار وليس فعله عن طبيعة ولا تعليل، وأنه تعالى هو الخالق لأفعالنا ليس لنا منها شيء، وأنه تعالى لا يشركه في ملكه كبير في الأرض مثل الملوك والوزراء، ولا في السماء مثل الشمس والقمر والنجوم وسائر الملائكة، وأنه تعالى سميع، وإنه تعالى بصير، وأنه تعالى عليم.

فهذه هي العقيدة الثقيلة فإذا اعتقدها العبد مع العقيدة الخفيفة كمل إيمانه فإن جهلها العبد أو جهل شيئاً منها حق عليه الخلود في نار جهنم نسأل الله السلامة.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[تأخر جبريل في الوحي]

ما ذكره في الإبريز بقوله: وسألته رضي الله عنه عما في الحديث من أن سيد الوجود ﷺ لما تأخر عنه جبريل عليه السلام في ابتداء الوحي كان يصعد إلى شاهق جبل ويريد أن يرمي نفسه شوقاً إلى لقائه فيبدو له جبريل عليه السلام فيقول إنك رسول رب العالمين فيسكن ﷺ، فقلت إلقاء النفس من الشاهق يوجب قتلها، وهو من الكبائر، وإرادة فعل ذلك والعزم عليه معصية والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولاسيما سيد الوجود ﷺ، معصومون من جميع المعاصي قبل البعثة وبعدها.

فقال رضي الله عنه: أعرف رجلاً رمى بنفسه في بدايته من حلقة داره إلى أسفل تسعين مرة في يوم واحد ولم يضره ذلك شيئاً كما لا يضره النوم على الفراش، وذلك لأن الروح في البدايات لهاالغلبة على الذات، ونسبة الأكوان للروح على حد سواء فهي تتربع في الهواء كما تتربع على الأرض وتنام في الهواء مضطجعة كما ينام الشخص على فراشه، والحجر والحرير والصوف والماء في عدم الضرر عندها على حد سواء، فلا ألم في ذلك إلا لقاء لو وقع منه ﷺ، فضلاً عن القتل وحينئذ فالعزم عليه لا شيء فيه. قال ابن المبارك رحمه الله تعالى والرجل الذي رمى بنفسه تسعين مرة هو شيخنا رضي الله عنه سمعت ذلك منه حين أجابني عن هذا السؤال.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان]

ما ذكره صاحب الإبريز بقوله وسمعته رضي الله عنه يقول في قوله ﷺ ما خفي عليّ

جبريل إلا في هذه المرة كما عند مسلم حيث أخرج حديث جبريل في السؤال عن الإيمان والإسلام والإحسان وقال: «ردوا السائل»، فطلبوه فقال: «ذلك جبريل وإنما خفي عليّ هذه المرة»[1].

فقال رضي الله عنه في هذا الخفاء من التبجيل لنبينا ﷺ والتكريم له والتعظيم لقدره الرفيع شيء لا يطاق ولا يعرفه إلا من رحمه الله تعالى، وذلك أن ذاته ﷺ قد يحصل لها في بعض الأحيان استغراق في مشاهدة الحق سبحانه فتنقطع الذات بجميع علقها وتولهها وجميع عروقها وأجزائها وغمور نورها في نور الحق سبحانه فتبقى منقطعة عن غيره لكنها محفوظة، فلا تفعل إلا الحق، ولا تنطق إلا به.

فإذا رأى الملائكة هذه الحالة حصلت لنبي ﷺ، وهم يعلمون أنه لا يطيقها غيره من مخلوقات الله عز وجل وأنه ﷺ لا يشعر بهم، حينئذ، بادروا واغتنموها وسألوه عن الإيمان وأخذوه عنه وشيخوه فيه فيقول له الملك وقد جاءه في صورة أعرابي: جئت يا رسول الله لأؤمن بك، ولأصدقك، فعلمني كيف أؤمن بالله ورسوله. فيعلمه.

قال ابن المبارك فقلت: ولمَ يتعلمون الإيمان منه ﷺ ويأخذونه عنه وهم عباد الله المكرمون، وملائكته المقربون؟

فقال رضي الله عنه: جاه نبينا ﷺ عظيم وكل من أخذ الإيمان عنه، ولم يبدل فإنه لا يرى صراطاً ولا ناراً، فاغتنم الملائكة فرصتها. فقلت: ولم لا يسألونه ﷺ في غير هذه الحالة؟ فقال رضي الله عنه: إذا رد عليه السلام إلى حسه وعرفهم ملائكة، وعلموا بأنه عرفهم فإنه لا يمكنهم والحالة هذه أن يجعلوا أنفسهم كالأعراب على الحقيقة حتى يخرج لهم الجواب من ذاته الكريمة ﷺ مع نوره ومدده بخلاف ما إذا كان منقطعاً إلى الحق سبحانه وصارت الذات لا تسمع من المتكلم إلا نطقه وكلامه فإن الجواب يخرج على الحالة المطلوبة. فقلت: وهل الملائكة يعرفون الحالة التي يرد فيها إلى حسه ﷺ والحالة التي ينقطع فيها إلى الحق سبحانه؟ فقال رضي الله عنه: لا يخفى ذلك عليهم، ولا على من فتح الله بصيرته والله تعالى أعلم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[معجزته ﷺ من الحق]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسمعته رضي الله عنه يقول في حديث «ما من نبي إلا وقد

(١) رواه البخاري في الصحيح (٨: ١١٧). بمعناه.

أعطي ما مثله آمن عليه البشر وما كان الذي أوتيته إلا وحياً يتلى» إن معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكانت من جنس ذواتهم وما يتعلق بها، فمنها ما يوهب لهم بعد الكبر.

ومنها ما يتربى مع ذواتهم في حال صغرهم، إلى أن تظهر عليهم حال الكبر. ومعجزة نبينا ﷺ كانت من الحق سبحانه، ومن نوره ومشاهدته، ومكالمته، وذلك لقوته ﷺ ذاتاً وعقلاً ونفساً وروحاً وسراً، حتى أنه لو أعطيت مشاهدته ﷺ لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يطيقوها، فلذلك قال ﷺ وما كان الذي أوتيته إلا وحياً يتلى يعني أن معجزته ﷺ ليست من جنس معجزاتهم عليه السلام، ولو كانت معجزاتهم بلغت من الفخامة وضخامة القدر بحيث أنه يؤمن عليها وبسببها جميع البشر، فمعجزته ﷺ فوق ذلك كله، لأنها من الحق سبحانه لأمته. ثم ضرب رضي الله عنه مثلاً بملك كلما تزايد له ولد أرسله إلى موضع يربى فيه ويرسل مع كل واحد حاجة نفيسة مثل ياقوتة ليعلم بها ويعرف أنه ولد الملك إلى أن تزايد له ولد فتركه عنده، وجعل هو يربيه بنفسه، ويتولى جميع أموره فلا يكيف ما يحصل لهذا الولد من كمال المعرفة وكمال سريان سر أبيه فيه ولا يقاس ما حصل في أخوته من سر الملك بما حصل فيه أبداً.

قال رضي الله عنه وقد كان بعض الصحابة يتمنى أن يظهر على النبي ﷺ بعض معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيلتفت إلى النبي ﷺ ويرى ما خصه به المولى الكريم فيدركه حياء عظيم ثم ضرب رضي الله عنه مثلاً بالذي مكنه الملك من جميع ملكه وأطلق يده فيه يتصرف كيف شاء وجعل بعض أصحابه يتمنى له قرية يتصرف فيها.

قال وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول إنما مثل الأسرار والأنوار التي في القرآن والمقامات التي انطوى عليها والأحوال التي اشتمل عليها كمثل من فصل كسوة وجعل فيها قلنسوة وقميصاً وعمامة وجميع ما يلبس وطرحها عنده، فإذا نظرت إلى الكسوة ثم نظرت إلى جميع المخلوقات علمت أنه لا يطيق لباسها وتحملها إلا ذات النبي ﷺ لقوة خص الله بها ذاته الشريفة ﷺ.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[مشاهدته ﷺ لله لا تطاق لأنها على قدر معرفته]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسمعته رضي الله عنه يقول في بيان كون مشاهدة النبي ﷺ لا تطاق: إن المشاهدة على قدر المعرفة، وإن المعرفة حصلت للنبي ﷺ حين كان الحبيب مع حبيبه، ولا ثالث معهما، فهو ﷺ أول المخلوقات فهناك سقيت روحه الكريمة من الأنوار

القدسية، والمعارف الربانية ما صارت به أصلاً لكل ملتمس، ومادة لكل مقتبس، فلما دخلت روحه الكريمة في ذاته الطاهرة سكنت فيها سكون الرضا والمحبة والقبول فجعلت تمدها بأسرارها وتمنحها من معارفها، والذات تترقى في المعارج والمعارف شيئاً فشيئاً من لدن صغره ﷺ إلى أن بلغ أربعين سنة، فزال الستر حينئذ الذي بين الذات والروح، وانمحى الحجاب الذي بينهما بالكلية وحصلت له ﷺ المشاهدة التي لا تطاق حتى صار يشاهد كمشاهدة العيان أن الحق سبحانه هو المحرك لجميع المخلوقات، والناقل لهم من حيز إلى حيز والمخلوقات بمنزلة الظروف وأواني الفخار لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً. فأرسله الله تعالى وهو على هذه المشاهدة والمخلوقات في عينيه ذوات خالية، وصور فارغة، ليكون رحمة لهم، فلا يرى الفعل منهم حتى يدعو عليهم، فيهلكوا كما فعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله مع أممهم ولهذا استعجلوا دعواتهم وأخرت دعوة نبينا ﷺ شفاعة إلى يوم القيامة فصارت دعوته رحمة وظهر مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] ومصداق قوله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة للخلق»[1] وهذا أول بداية له ﷺ في المشاهدة وفي كل لحظة يترقي ويعرج في مقاماته التي لا تكيف، فقلت: وهل بقي فوق ذلك شيء؟ فقال رضي الله عنه: لو عاش نبينا ﷺ إلى زماننا هذا، ما وقف في الترقي، فإن كمالات مولانا تعالى لا نهاية لها. فقلت: فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تفوتهم المشاهدة السابقة إذ لو لم يكن معهم إلا مجرد الإيمان بالغيب بأن الله تعالى هو الخالق لنا، ولأفعالنا لكانوا بمنزلة عوام المؤمنين. فقال رضي الله عنه: حصلت لهم المشاهدة بلا شك، لكن الستر لم يزل بالكلية، وفي مشاهدة نبينا ﷺ زال بالكلية.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز أيضاً

[اتباع الأنبياء له ﷺ]

قوله في القرآن العزيز من الأنوار القدسية والمعارف الربانية والأسرار الأزلية شيء لا يطاق بحيث أن سيدنا موسى، صاحب التوراة، وسيدنا عيسى، صاحب الإنجيل، وسيدناداود، صاحب الزبور، لو عاشوا حتى أدركوا القرآن وسمعوه لم يسعهم إلا اتباع القرآن والاقتداء بالنبي ﷺ في أقواله والاهتداء به في أفعاله، ولكانوا أول من استجاب له وآمن به وقاتل بالسيف أمامه ﷺ. قال ابن المبارك قلت: وقد ورد بمعنى هذا الكلام الحديث عن

(١) رواه ابن كثير في التفسير (٥: ٣٨١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢١٣).

النبي ﷺ الذي يقول فيه: «**لو كان موسى وعيسى حيين لاتبعاني**»[١] أو كما قال ﷺ وانظر ابن حجر في آخر كتاب التوحيد فقد أطال في تخريج طرق هذا الحديث.

تنبيه: قد راجعت كلام ابن حجر في شرحه البخاري في تخريج الحديث المذكور فوجدته ذكره بعدة روايات أحداها رواية الإمام أحمد والبزار عن جابر رضي الله عنه بلفظ قال رسول الله ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا وإنكم إما أن تكذبوا بحق، أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم، ما حل له إلا أن يتبعني**»[٢].

وفي رواية لأحمد وأبي يعلى عن جابر أيضاً «**والذي نفسي بيده لو أن موسى حياً، ما وسعه إلا أن يتبعني**»[٣].

وفي رواية للطبراني عن أبي الدرداء «**لو كان موسى بين أظهركم ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ضلالاً بعيداً**» وفي رواية لأحمد والطبراني عن عبد الله بن ثابت «**والذي نفس محمد بيده، لو أصبح موسى فيكم ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم**»[٤].

وفي رواية لأبي يعلى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: انطلقت فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما هذا؟**»[٥] قلت: كتاب انتسخته لنزداد به علماً إلى علمنا، فغضب حتى احمرت وجنتاه فذكر قصة فيها يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتمه. واختصر لي الكلام اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا الحديث.

قال ابن حجر بعد أن ذكر تلك الروايات بابسط مما نقلته هنا وهذه جميع طرق هذا الحديث، وهي وإن لم يكن فيها ما يحتج به لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلاً.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[النبي ﷺ لا يقول إلا الحق]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسألته رضي الله عنه عن قوله ﷺ «**والله لا أحملكم ولا عندي ما أحملكم عليه**»[٦] يخاطب الأشعريين ثم حملهم ﷺ بعد ذلك والنبي ﷺ لا يقول إلا الحق،

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣: ٣٣٨).
(٢) رواه أحمد في المسند (٣: ٣٣٨). والسيوطي في الدر المنثور (٥: ١٤٧).
(٣) رواه ابن كثير في البداية والنهاية (١: ١٩٨).
(٤) رواه أحمد في المسند (٤: ٢٦٦). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ٤٨).
(٥) رواه النسائي في السنن (٣: ٧٢). والترمذي في السنن (١٠٩٤).
(٦) رواه ابن ماجه في السنن (٢١٠٧). والبيهقي في السنن الكبرى (١٠: ٢٦).

ولا يتكلم إلا بالصَدق. فقال رضي الله عنه: النبي ﷺ لا يتكلم إلا بالصدق، ولا يقول إلا الحق وكلامه ﷺ يخرج على حسب باطنه ومشاهدته وهو ﷺ يكون تارة في مشاهدة الذات العلية وفي هذه المشاهدة لذة عظيمة لا تكيف ولا تطاق ولا يماثلها شيء في الدنيا، وهي لذة أهل الجنة في دار الجنة، وتارة يكون في مشاهدة الذات وقوتها وسلطان قهرها، وفي هذه المشاهدة خوف وانزعاج بسبب مشاهدة القوة وسلطان القهر، وفي هاتين المشاهدتين يكون غائباً عن الخلق، ولا يشاهد منهم أحداً.

وقد سبق شيء من هذا في حديث «ما خفي عليّ جبريل إلا هذه المرة»[1] وتارة يكون في مشاهدة قوة الذات مع الممكنات فيشاهد القوة سارية في الممكنات وفي هذه المشاهدة تغيب الذات العلية عن الباطن وتبقى أفعالها، وفي هذه المشاهدة الثالثة يحصل امتثال الشرائع وتعليم الخلق، وإيصالهم إلى الحق فجميع ما ينطق به النبي ﷺ لا يعدو هذه المشاهدات، فتارة يكون على الأولى، وتارة على الثانية، وتارة على الثالثة، والحديث المذكور خُرّج على الثانية، فإنه عليه الصلاة والسلام كان غائباً في مشاهدة الذات وقوتها، وهو غائب عن نفسه، فضلاً عن غيره فلما قالوا له: يا رسول الله احملنا وصادفوه في هذه المشاهدة. قال لهم: «والله لا أحملكم ولا عندي ما أحملكم عليه»[2]، وهو كلام حق.

فلما رجع إلى مشاهدة الكائنات وصادف ذلك مجيء الإبل له ﷺ جرى على حكم هذه المشاهدة وما تقتضيه من اتباع الأوامر والقيام بحق الخلق، فقال: «أين الاشعريون؟»[3] فدعو فأعطاهم فقالوا: يا رسول الله إنك حلفت إنك لا تعطينا وقد أعطيتنا، فأجابهم ﷺ بما يقتضي أن حلفه أولاً كان على ما تقتضيه تلك المشاهدة التي كان عليها حينئذٍ، فقال: ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم»[4] أي إني حلفت على أني لا أحملكم ولا عندي ما أحملكم عليه، وهذا هو الكائن.

فإن الحامل لكم هو الله تعالى لا أنا، فهو إخبار عن كونه ما قال إلا الحق ولا تكلم إلا بالصدق.

قال ابن المبارك فقلت: فلم كفر عن يمينه ﷺ حينئذٍ حيث قال: «وإني لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير»[5] فقال رضي الله عنه لم

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٨: ١١٧). بمعناه.
(٢) رواه ابن ماجه في السنن (٢١٠٧). والبيهقي في السنن الكبرى (١٠: ٢٦).
(٣) رواه البخاري في الصحيح (٧: ١٢٣).
(٤) رواه البخاري في الصحيح (٨: ١٥٩). وأحمد في المسند (٤: ٣٩٨).
(٥) رواه مسلم في الصحيح (١٢٧١).

يكفر النبي ﷺ عن يمينه في هذه القصة، والذي ذكره بعد في الحديث إنما هو ابتداء كلام وتأسيس حكم، وإعطاء قاعدة شرعية ولم يصدر منه ﷺ تكفير في هذه القصة رأساً.

قال ابن المبارك قلت: وإلى هذا ذهب الأكابر من الفحول، كالحسن البصري وغيره، فلله ما أصح عرفان هذا الشيخ العظيم رضي الله عنه.

ثم قال رضي الله عنه وإلى المشاهدة الثالثة الإشارة بقوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله»[1] الحديث وقد أخرجه مسلم في صحيحه، وتكلم فيه شيوخ الحديث عياض والنووي والعراقي رحمهم الله تعالى بقريب من كلام شيخنا رضي الله عنه، ولكن كلام الشيخ كلام من يشاهد ويعاين.

قال رضي الله عنه وليس في طوق الخلائق أجمعين أن يقدروا على الدوام على المشاهدة الأولى والثانية، ولا بد لهم من النزول إلى الثالثة ليستريحوا فكان ﷺ إذا نزل إليها يستغفر الله ويعد ذلك ذنباً.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[شرح المشاهدات الثلاث]

ما ذكره في الإبريز بقوله بعدما تقدم في شرح المشاهدات ولما سمعت منه رضي الله عنه هذه المشاهدات الثلاث.

وقال إن كلامه ﷺ لا يعدوها، وإنه لا يشكل كلامه ﷺ إلا على من لم يعرفها لأنه ﷺ لا يقول إلا الحق ولا يتكلم إلا بالصدق في سائر أموره وفي جميع أحواله سألته عما أشكل على فهمي من الحديث.

فسألته رضي الله عنه عن حديث «تأبير النخل» الذي في صحيح مسلم حيث مر عليهم وهم يؤبرون النخل، فقال ﷺ: «ما هذا؟» فقالوا: «بهذا تصلح يا رسول الله» فقال ﷺ: «لو لم تفعلوا لصلحت»: فلم يؤبروها، فجاءت شيئاً غير صالحة، فلما رآها ﷺ بعد ذلك، قال: «ما بال التمر هكذا؟» قالوا: يا رسول الله قلت لنا: كذا وكذا فقال ﷺ: «انتم أعلم بدنياكم»[2].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤: ٢١١). والبيهقي في السنن الكبرى (٧: ٥٢).

(٢) رواه ابن ماجه في السنن (الفضائل: ١٤١). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢١٨٢). والقاضي عياض في كتاب الشفا (٢: ٤١٧).

فقال رضي الله عنه قوله ﷺ: «لو لم تفعلوا لصلحت» كلام حق وقول صدق، وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين بأنه تعالى هو الفاعل بالإطلاق، وذلك الجزم مبني على مشاهدة سريان فعله تعالى في سائر الممكنات مباشرة بلا واسطة ولا سبب بحيث أنه لا تسكن ذرة، ولا تتحرك شعرة، ولا يخفق قلب ولا يضرب عرق، ولا تطرف عين، ولا يومئ صاحب، إلا وهو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة وهذا أمر يشاهده النبي ﷺ كما يشاهد غيره سائر المحسوسات، ولا يغيب ذلك عن نظره، لا في اليقظة ولا في المنام، لأنه ﷺ لا ينام قلبه الذي فيه هذه المشاهدة ولا شك أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب من نظرة، ويترقى عن الإيمان بالغيب إلى الشهود والعيان فعند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] مشاهدة دائمة لا تغيب ويقين يناسب هذه المشاهدة وهو إن يجزم بمعنى الآية جزماً لا يخطر معه بالبال نسبة الفعل إلى غيره تعالى.

ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة ولا شك إن الجزم الذي يكون على هذه الصفة تخرق به العوائد وتنفعل به الأشياء، وهو سر الله تعالى الذي لا يبقى معه سبب ولا واسطة، فصاحب هذا المقام إذا أشار إلى سقوط الأسباب ونسبة الفعل إلى رب الأرباب، كان قوله حقاً، وكلامه صدقاً.

وأما صاحب الإيمان بالغيب فليس عنده في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] مشاهدة، بل إنما يشاهد نسبة الأفعال إلى من ظهرت على يده، ولا يجذبه إلى معنى الآية، ونسبة الفعل إليه تعالى إلا الإيمان الذي وهبه الله تعالى، فعنده جاذبان:

أحدهما من ربه وهو الإيمان الذي يجذبه إلى الحق. وثانيهما: من طبعه، وهو مشاهدة الفعل من الغير الذي يجذبه إلى الباطل، فهو بين هذين الأمرين دائماً، لكن تارة يقوى الجاذب الإيماني فتجده يستحره معنى الآية السابقة ساعة وساعتين، وتارة يقوى الجاذب الطبعي فتجده يغفل عن معناها اليوم واليومين.

وفي أوقات الغفلة ينتفي اليقين الخارق للعادة، فلهذا لم يقع ما أشار إليه النبي ﷺ لأن الصحابة رضي الله عنهم فاتهم اليقين الخارق الذي اشتمل عليه باطنه ﷺ، وبحسبه خرج كلامه الحق وقوله الصدق ولما علم ﷺ العلة في عدم وقوع ما ذكر، وعلم أن زوال تلك العلة ليس في طوقهم رضي الله عنهم أبقاهم على حالتهم، وقال: «أنتم أعلم بدنياكم».

قال ابن المبارك رحمه الله بعد هذا الكلام قلت: فانظر وفقك الله هل سمعت مثل هذا الجواب أو رأيته مسطوراً في كتاب مع أشكال الحديث على الفحول من علماء الأصول؟ ثم

قال: وسألته رضي الله عنه عن حديث «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقني»[1] فقال رضي الله عنه العندية المراد بها المعية والإطعام، والسقي المراد بهما تقوية الله تعالى لنبيه ﷺ.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[ولادته ﷺ]

جوابه لصاحب الإبريز حين سأله عن وقت ولادة النبي ﷺ وشهره وعامه ومدة ولادته فأجابه عن كشف وتحقيق بأنه ﷺ ولد في آخر الليل قبل الفجر بمدة، وتأخر خلاص أمه إلى طلوع الفجر، والمدة التي بين انفصاله ﷺ من بطن أمه وانفصال الخلاص منها هي ساعة الاستجابة في الليل التي وردت بها الأحاديث، وفخمت أمرها، وأشعرت بتعظيمها، او امتداد حكمها إلى يوم القيامة، قال رضي الله عنه وفي تلك الساعة يجتمع أهل الديوان من أولياء الله تعالى من سائر أقطار الأرض وفيهم الغوث والأقطاب السبعة وأهل الدائرة والعمد رضي الله عنهم أجمعين ويكون اجتماعهم بغار حراء خارج مكة وهم الحاملون لعمود نور الإسلام ومنهم تستمد جميع الأمة فمن وافق دعاؤه دعاءهم ووقوفه في تلك الساعة أجاب الله دعوته وقضى وطره.

قال ابن المبارك: وكان رضي الله عنه يدلنا على قيام هذه الساعة كثيراً، وكذا كنت قبل أن أجتمع معه رضي الله عنه أقرأ آخر سورة الكهف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف:١٠٧ - ١٠٨] إلى آخر السورة لأفيق في ساعة الاستجابة وبقيت على ذلك نحواً من ستة عشر عاماً. قلت وقراءة هذه الآية قبل النوم مجربة للقيام في تلك الساعة وقد جربتها أنا وغيري فصحت. ثم ذكر أنه سأله عن شهر الولادة، وعامه فقال رضي الله عنه إنه ﷺ ولد في سابع ربيع الأول وهذا هو الواقع في نفس الأمر يعني أنه ولد ليلة السابع منه في عام الفيل قبل مجيء الفيل، وببركة وجوده ﷺ بمكة طرد الله الفيل عن أهلها. قال رضي الله عنه: ومقدار مدة حمله ﷺ عشرة أشهر.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[شعر النبي ﷺ ولحيته الشريفة]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسألته عن اللحية الشريفة لاختلاف الروايات في ذلك فقال رضي الله عنه: كان ﷺ كث اللحية مع طولها طولا متوسطاً في الذقن، وكان خفيفها عند التقاء

---

(١) رواه ابن كثير في البداية والنهاية (٦ : ٦٨).

العارضين والذقن. وقال رضي الله عنه في جواب آخر إن إبطه الشريف ﷺ لا شعر فيه ينتف، بل فيه شيء قليل جداً، وهي العفرة أي بياض يخالطه سواد قليل وسبب قلة الشعر في الإبط الشريف إن الشعر خرج إلى أعلى الصدر الشريف والمنكبين.

فكان ﷺ أشعر الموضعين الكريمين، فلذا قل شعر الإبطين الشريفين، ولم يكن ﷺ أقرن الحاجبين، وقال رضي الله عنه في جواب آخر كان شعر رأسه الشريف ﷺ يختلف فأحياناً يطول وأحياناً يقصر، ولم يكن على حالة واحدة، ولكنه ﷺ كان يقص ما يلي الجبهة ولا يدعه يطول ولم يحلق ﷺ إلا في نسك، وكان الشيب في العنفقة نحو الخمس شعرات وفي الصدغين شيء قليل، وفي الذقن أكثر من ذلك وخضب ﷺ بالحناء ولكنه قليل حين دخل مكة، ومرات قلائل في المدينة، وتنور ﷺ في وسطه كانت تنوره خديجة وعائشة رضي الله عنهما والله أعلم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[مشيته ﷺ]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسألته رضي الله عنه عن مشية النبي ﷺ: هل كان يتكفأ يميناً وشمالاً، كما في بعض الروايات أو كان ينحدر إلى أمام كما في رواية كأنما ينحط من صبب؟ فقال لي رضي الله عنه: كان يتكفأ يميناً وشمالاً، وكنت في موضع ليس معنا ثالث فقال لي رضي الله عنه تعالى حتى أريك كيف كان النبي ﷺ يمشي في دار الدنيا حال حياته فخطا رضي الله عنه أمامي نحواً من ستين خطوة فرأيته رضي الله عنه يتكفأ يميناً وشمالاً ورأيت مشية كاد عقلي يطير من حسنها وجمالها ما رأت عيني قط أجمل منها وأبهر للعقول فرضي الله عنه ما أصح علمه بالنبي ﷺ.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[شق صدره ﷺ]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسألته رضي الله عنه عن شق الصدر الشريف كم كان فإن الأحاديث اختلفت في ذلك، فقال رضي الله عنه ثلاث مرات:

أولها: عند حليمة، واستخرج منه حظ الشيطان وهو ما تقتضيه الذات الترابية من مخالفة الأمر واتباع الهوى.

وثانيها: عند عشر سنين، ونزع منه أصل الخواطر الرديئة.

وثالثها: عند النبوة، قال رحمه الله: ظاهر أكثر الأحاديث ليلة الإسراء، فقال الشيخ رضي الله عنه: ليس كذلك، قال: والشق وقع من غير آلة ومن غير دم، والتأم بلا خياطة ولا آلة، ولم يحصل له ﷺ ألم في ذلك لأنه من فعل الرب سبحانه والله أعلم.

قال ابن المبارك: قلت: أما الشق عند حليمة فمتفق عليه، وأما عند عشر سنين فقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند.

وأما عند النبوة أي ابتداء البعثة فقد أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة.

وأما عند الإسراء فقد أنكره بعضهم وقال إنه لم يرد إلا من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر المدني وروايته منكرة.

قال ابن حجر: والصحيح أنه ثبت في الصحيحين من غير رواية شريك من حديث أبي ذر وانظر ابن حجر في آخر كتاب التوحيد.

وقد علمت أن الشيخ رضي الله عنه أمي فكلامه بمحض الكشف والعيان فيكون الصواب عدم وقوع الشق عند الإسراء والله تعالى أعلم.

قال رحمه الله تعالى: وسألته رضي الله عنه عما قيل إن سبابته ﷺ أطول من وسطاه فقال رضي الله عنه سبابة رجله الشريفة أطول من وسطاها وسبابة يديه مساوية لوسطهما والله تعالى أعلم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[ضم جبريل له ﷺ ثلاث مرات]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسألته رضي الله عنه عن ضم جبريل عليه السلام للنبي ﷺ ثلاث مرات حين جاءه: بـ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فقال النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ»[١] فضمه جبريل حتى بلغ منه الجهد فقال رضي الله عنه الضمة الأولى ليتوسل به جبريل إلى الله تبارك وتعالى في حصول الرضا له الأبدي الذي لا سخط بعده، والضمة الثانية ليدخل ﷺ في جاه النبي ﷺ ويلوذ بحماه الشريف، والضمة الثالثة ليكون من أمته الشريفة، قال رضي الله عنه

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٣). والبيهقي في السنن الكبرى (٧: ٥١).

وقول جبريل عليه السلام له: اقرأ. معناه بلغ الكلام القديم بالحادث فإن جميع القرآن أنزل على النبي ﷺ في ذلك الموضع وهو المراد بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] قال رضي الله: عنه وإنما كان جبريل عليه السلام يطلب منه أن يبلغ المعاني القديمة والمكالمة الأزلية الحاصلة ﷺ إذ ذاك، فقال ﷺ له: «ما أنا بقارئ» أي إني لا أطيق أن أبلغ الكلام القديم والقول الأزلي باللسان الحادث، فعلمه جبريل كيف يبلغه باللسان الحادث، فلذلك كان النبي ﷺ يحبه كثيراً.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[أسماؤه ﷺ]

وهي أول الفوائد التي أخذتها من الباب الثاني الذي سأله فيه عن بعض الآيات القرآنية واللغة السريانية جوابه رضي الله عنه لما سأله عن اسم نبينا ومولانا محمد ﷺ مشفح هل هو بالفاء أو بالقاف؟ فإن العلماء اختلفوا فيه.

فقال: هو بالفاء من الشفح بمعنى الحمد، وهو لفظ سرياني. قال: وسألته رضي الله عنه عن اسمه ﷺ: ٱلْمَنْحَمَنَّا. فإن العلماء اختلفوا في ضبطه فإن منهم من يقول إنه بضم الميم الأولى وكسر الثانية، ومنهم من يقول إنه بفتح الميم الأولى وكسر الثانية، فقال رضي الله عنه، هو بفتح الميمين معاً الأولى والثانية، وهما كلمتان لا كلمة واحدة. فالمن بفتح الميم وإسكان النون كلمة. وحمنا بفتح الحاء والميم وشد النون كلمة أخرى. ومعنى الكلمة الأولى النعمة التي لها نفع ظاهر ونفع باطن فالنفع الظاهر هو ما كان للذوات في عالم الأشباح والنفع الباطن هو ما كان للأرواح في عالم الأرواح فهو نعمة سقي منها جميع المخلوقات وجميع العوالم، ولا شك أنه ﷺ كذلك. ومعنى الكلمة الثانية وهي كالصفة للأولى إن النعمة السابقة بلغت إلى الغاية وارتفعت إلى النهاية.

فكأنه يقول في النبي ﷺ إنه النعمة التي بلغت الغاية ولم يدركه سابق ولا لاحق، وهو لفظ سرياني.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[المراد من قوله تعالى: ﴿كهيعص﴾]

قوله رضي الله عنه لما سأله عن فواتح السور: أما ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١] فلا يفهم

المراد منها إلا بعد تفسير كل حرف على حدته. فالكاف المفتوحه وضعت للعبد، والفاء الساكنة تحقيق لمعنى الفاء المفتوحة، ففيها ما في المفتوحة وزيادة التحقيق والتقرير ومعنى المفتوحة الشيء الذي لا يطاق فكأن الساكنة تقول وكونه لا يطاق حق لاشك فيه، والهاء المفتوحة وضعت لتدل على الرحيل الطاهرة الصافية التي لا يخالطها كدر ولا غير، ويا للنداء، والعين المفتوحة وضعت لتدل على الرحمة والانتقال من حال إلى حال، والياء المسكنة تدل على الاشتباك والاختلاط، والنون المسكنة تحقيق لمعنى المفتوحة ومعنى المفتوحة الخير الساكن في الذات، والصاد المفتوحة وضعت لتدل على الفراغ، والدال المسكنة تحقيق لمعنى الصاد لأنها من حروف الإشارة، وحروف الإشارة تحقيق للمعاني التي قبلها بخلاف حروف غير الإشارة فإنها إذا سكنت حققت معاني مفتوحاتها. هذا تفسير الحروف على ما اقتضاه وضعها.

وأما المعنى المراد منها هنا فهو إعلام من الله تعالى لجميع المخلوقات بمكانة النبي ﷺ وعظيم منزلته عند الله تعالى، وإنه تعالى منّ على كافة المخلوقات بأن جعل استمداد أنوارها من هذا النبي الكريم ﷺ وبيان ذلك من التفسير السابق، إن الكاف دلت على أنه ﷺ عبد، والفاء الساكنة دلت على أنه لا يطاق وإن كونه لا يطاق حق لاشك فيه ومعنى كونه لا يطاق أنه أعجز الخلائق فلم يدركه سابق ولا لاحق فكان بذلك سيد الوجود ﷺ، والهاء المفتوحة دلت على أنه رحمة طاهرة صافية مطهرة لغيرها كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة للخلق»[1] ويا نداء للعبد السابق والمنادي لأجله هو مادلت عليه العين من الرحلة المؤكدة بمعنى الياء الساكنة، لأنها من حروف الإشارة وحروف الإشارة للتأكيد، كما سبق وتفيد مع ذلك لزوم الرحلة واشتباكها والمرحول به هو معنى النون الساكنة وهو نور الوجود الذي تقوم به الموجودات والمرحول إليه هو المعنى الذي أشير إليه بالصاد فمعنى الكلام حينئذٍ يا هذا العبد العزيز عليّ اذهب ذهاباً حتماً لازماً إلى جميع من هو في حيز وفراغ بالأنوار التي تقوم بها وجوداتهم ليستمدوا منك فإن مادة الجميع انما هي منك فقد ترتبت معاني الحروف ترتيباً حسناً واتسق نظم الكلام أيّ اتساق وذلك لأن معاني الحروف في السريانية كمعاني الكلمات في غيرها، فكما أن الكلام إذا تركب من الكلمات في لغة من اللغات لا يستقيم إلا اذا ترتبت معاني كلماته، كذلك الكلام في السريانية إذا تركب من الحروف، فإنه لا يستقيم إلا إذا ترتبت معاني حروفه وكان بعضها آخذاً بحجزة بعض.

---

(١) رواه ابن كثير في التفسير (٥: ٣٨١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢١٣).

وكما أن الكلام إذا تركب من الكلمات في غير السريانية قد يحتاج في ترتيب معاني كلماته إلى تقديم وتأخير وفصل بين معنيين متلاصقين بما هو أجنبي منهما وإضمار شيء يتوقف عليه تصحيح المعنى كذلك الكلام في السريانية إذا تركب من الحروف فقد يحتاج في ترتيب معاني الحروف إلى تقديم وتأخير وحذف وإضمار إلى غير ذلك.

قال رضي الله عنه: وهذا الذي فسرنا به معاني هذه الرموز معلوم عند أربابه بالكشف والعيان فإنهم يشاهدون سيد الوجود ﷺ ويشاهدون ما أعطاه الله عز وجل وما أكرمه به ربه بما لا يطيقه غيره ويشاهدون غيره من المخلوقات الأنبياء والملائكة وغيرهم ويشاهدون ما أعطاهم الله من الكرامات ويشاهدون المادة سارية من سيد الوجود ﷺ إلى كل مخلوق في خيوط من نور قابضة في نوره ﷺ ممتدة إلى ذوات الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام، وذوات غيرهم من المخلوقات، فيشاهدون عجائب ذلك الاستمداد وغرائبه.

قال رضي الله عنه: ولقد أخذ بعض الصالحين طرف خبزة ليأكله فنظر فيه وفي النعمة التي رزقها بنو آدم قال فرأى في ذلك الخبز خيطاً من نور فتبعه بنظره فرآه متصلاً بخيط نوره الذي اتصل بنوره ﷺ فرأى الخيط المتصل بالنور الكريم، واحداً ثم بعد أن امتد قليلاً جعل يتفرع إلى خيوط كل خيط متصل بنعمة من نعم تلك الذوات.

قال ابن المبارك: قلت ـ وهو صاحب الحكاية رضي الله عنه وجعلنا من حزبه وشيعته ولا قطع بيننا وبينه ـ قال رضي الله عنه: ولقد وقع لبعض أهل الخذلان نسأل الله السلامة أنه قال ليس لي من سيدنا محمد ﷺ إلا الهداية إلى الإيمان.

وأما نور إيماني فهو من الله عز وجل، لا من النبي ﷺ فقال له الصالحون إن قطعنا ما بين نور إيمانك وبين نوره ﷺ، وأبقينا لك الهداية التي ذكرت، أترضى بذلك؟ فقال: نعم، رضيت. قال رضي الله عنه، فما تم كلامه حتى سجد للصليب وكفر بالله وبرسوله ﷺ ومات على كفره، نسأل الله السلامة بمنه وفضله.

وبالجملة فأولياء الله تعالى العارفون به عز وجل وبقدر رسول الله ﷺ يشاهدون جميع ما سبق عياناً كما يشاهدون جميع المحسوسات بل أقوى لأن نظر البصيرة أقوى من نظر البصر كما سيأتي، وحينئذٍ فيشاهدون سيدنا زكريا عليه السلام وأحواله ومقاماته من الله عز وجل ممتدة من سيد الوجود ﷺ إلى سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام وكذلك كل ما ذكر في السورة من سيدنا يحيى وأحواله ومقاماته، والسيدة مريم وأحوالها ومقاماتها، وسيدنا عيسى وأحواله ومقاماته وساداتنا إبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون، وإدريس، وآدم، ونوح عليهم الصلاة والسلام، وكل نبي أنعم الله عليه.

وهذا بعض ما دخل تحت تلك الرموز وبقي مما دخل فيها عدد لا يحصى، فلهذا قلنا: إن ما في السورة بعض البعض مما في الرموز، فإن جميع الموجودات الناطقة والصامتة العاقلة وغير العاقلة وما فيه روح وما لا روح فيه كلها داخلة في تلك الرموز.

ولما سمعت منه رضي الله عنه هذا التفسير الحسن سألته رضي الله عنه عما نقله أبو زيد في الحاشية عن سيدي محمد بن سلطان ونصه: ونقل سيدي عبد النور عن سيدي أبي عبد الله بن سلطان وكان من أصحاب الشاذلي رضي الله عنهم أنه قال: رأيت في النوم كأني اختلفت مع بعض الفقهاء في تفسير قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، ﴿حمٓ﴾ [غافر: ١]، ﴿عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ٢] فأجرى الله تعالى على لساني أو قال: فقلت هي أسرار بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ فكأنه قال: كاف أنت كهف الوجود الذي يأوي إليه كل موجود أنت كل الوجود، ها وهبنا لك الملك وهيأنا لك الملكوت، يا عين يا عين العيون، صاد صفاتي انت من يطع الرسول فقد أطاع الله.

حا حميناك، ميم ملكناك. عين علمناك، سين ساررناك، قاف قربناك. قال: فنازعوني فقلت نسير إلى رسول الله ﷺ ليفصل بيننا فسرنا فلقينا رسول الله ﷺ فقال لنا الذي قال محمد ابن سلطان هو الحق.

فقال رضي الله عنه هذا المعنى الذي قاله سيدي محمد بن سلطان صحيح بالنسبة إلى مقامه ﷺ وتفسير هذه الحروف على حسب وضعها وما اقتضاه أصلها هو ما قلناه.

قال قلت ولا يخفى عليك علو تفسير الشيخ رضي الله عنه فإن هبة الملك وتهيئة الملكوت كل منهما يقتضي المباينة له ﷺ وعدم التفرع عنه وأين هذا من إدراج الملك والملكوت وجميع المخلوقات تحت الصاد ثم الحكم على الجميع بأن مادته من سيد الوجود ﷺ على ما اقتضاه حرف النون والعين وهذا معنى قوله كهف الوجود الذي يأوي إليه كل موجود فكل ما أشار إليه سيدي محمد بن سلطان رضي الله عنه يندرج تحت النون والعين والصاد.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[الفرق بين النبوة والولاية]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] الآية هل تدل على نبوة السيدة مريم وذكر الخلاف

في نبوة بعض النساء فقال رضي الله عنه الصواب مع أرباب القول الثاني وهو نفي النبوة عن النساء ولم تكن لله نبوة في ذلك النوع أصلاً وإنما كانت السيدة مريم صديقة، ثم ذكر الفرق بين النبوة والولاية بأن نور النبوة أصلي ذاتي حقيقي مخلوق مع الذات في أصل نشأتها، ولذا كان النبي معصوماً في كل أحواله ونور الولاية بخلاف ذلك.

ثم قال وأما ما ذكروه في الفرق بين النبي والولي من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح، لأن المفتوح عليه سواءً كان نبياً أولياً لابد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ماهم عليه، ويخاطبهم ويخاطبونه، ثم قال ولو أفشينا ما سمعنا من الشيخ رضي الله عنه في هذا الباب لكان آية للطالبين وعمدة للراغبين، ولكنه سر لا يفشي إلا أني أحببت أن أذكر هنا أمرين من علوم الشيخ رضي الله عنه.

أحدهما: بعض ما يشاهده المفتوح عليه قال رضي الله عنه: أما في المقام الأول فإنه يكاشف بأمور، منها أفعال العباد في خلواتهم ومنها مشاهدة الأرضين السبع والسموات السبع.

ومنها مشاهدة النار التي في الأرض الخامسة وغير ذلك مما في الأرض والسماء قال: وهذه النار هي نار البرزخ لأن البرزخ ممتد من السماء السابعة إلى الأرض السابعة، والأرواح فيه بعد خروجها من الأشباح على درجاتها، وأرواح أهل الشقاوة والعياذ بالله في هذه النار وهي على هيئة منازل ضيقة كالآبار والكهوف والأعشاش.

قال وليست هذه النار هي جهنم لأن جهنم خارجة عن كرة السموات السبع والأرضين السبع وكذلك الجنة وذكر كثيراً مما يشاهده المفتوح عليه من العوالم العلوية والسفلية كالأفلاك، والشمس، والقمر، والنجوم، والشياطين، والأصوات الهائلة.

ثم قال ويجب عليه أن لا يستعظم شيئاً من هذه الأمور وأن يستصغر كل ما يرى، وإلا وقف به الحال وصار أمره إلى الانتكاس، لأن الذات في زمن الفتح سفافة تسف كل ما تستحسنه، وهذه الأشياء المشاهدة كلها ظلام.

ثم قال رضي الله عنه: ومن وقف مع شيء من هذه الأمور السابقة كانت الشياطين معه يداً بيد وصار من جملة السحرة والكهنة نسأل الله السلامة ومن رحمه الله جذبه إليه وخلق فيه شوقاً وطلباً قلبياً يخرق به هذه الحجب.

وأما ما يشاهده في المقام الثاني فإنه يكاشف بالأنوار الباقية كما كوشف في المقام الأول بالأمور الظلمانية الفانية فيشاهد في هذا المقام الملائكة والحفظة والديوان والأولياء الذين

يعمرونه، ويشاهد مقام عيسى عليه السلام، وكل من يضاف إليه وكان على شاكلته ثم مقام موسى عليه السلام وكل من معه، ثم مقام إدريس عليه السلام وكل من معه، ثم مقام يوسف عليه السلام وكل من معه، ثم مقام ثلاثة من الرسل متقدمين منهم من كان قبل إدريس، ومنهم من تأخر عنه اسماؤهم، غير معروفة بين الناس، قال ولو شرحنا مقامات الأنبياء المذكورين وكيف يرى الملك على أصل خلقته لسمع السامع شيئاً لم يكن له على بال.

ويجب أيضاً على المكاشف بهذه الأمور أن لا يقف مع شيء منها لما سبق ان ذاته حينئذ سفافة فإذا وقف مع شيء منها سفت ذاته أسراره حتى أنه إذا وقف مع مقام سيدنا عيسى مثلاً واستحسنه سقى بسره ورجع في الحين على دينه وخرج عن ملة الإسلام نسأل الله السلامة ولا يزال المفتوح عليه على خطر عظيم وهلاك قريب حتى يشاهد مقام سيدنا ومولانا محمد ﷺ فإذا شاهده حصل له الهناء وتم له السرور لأن في ذاته ﷺ قوة جاذبة إلى الله عز وجل اختصت بها ذاته الشريفة ﷺ من بين سائر المخلوقات، ولذا كان أعز المخلوقات وأفضل العالمين فإذا وصل المفتوح عليه إلى مقام نبينا ﷺ تزايد جذبه إلى الله عز وجل وأمن من الانقطاع وفي ذلك أسرار أخرى يعرفها أرباب الفتح جعلنا الله منهم ولا حرمنا بركتهم. ثم ذكر غير ذلك مما يراه المفتوح عليه، ولا حاجة لنا بذكره فمن شاءه فليراجعه.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[المراد بقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ. . .﴾]

ما ذكره في الإبريز بقوله وقد سألته رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧] كيف عاتب الله نبيه ﷺ وهو سيد العارفين وإمام الأنبياء والمرسلين؟

فأجابني رضي الله عنه بهذا المعنى فقال: إنه ﷺ لما شاوره زيد في طلاق زينب وأمره بإمساكها وتقوى الله في معاشرتها، وكان يعلم ﷺ إنها ستصير إليه وأخفى ذلك ولم يظهره رجع على نفسه بالعتاب، وقال في خاطره: تخشى الناس والله أحق أن تخشاه وجعل يعاتب نفسه بهذا في الباطن فأظهر الله سبحانه ما في باطنه ﷺ وأنزل الوحي به. قال رضي الله عنه: ومن فتح الله عليه وتأمل الكتب السماوية وجد فيها نور الكلام القديم ونور طبع الحالة التي يكون عليها النبي عند نزول الوحي عليه.

ثم قال رضي الله عنه: وأهل الفتح رضي الله عنهم إذا تعاطوا تفسير القرآن فيما بينهم لم يكن لهم هم إلا أسباب النزول وليس المراد بها أسباب النزول التي في علم الظاهر بل الأحوال

والأنوار التي تكون عليها ذات النبي ﷺ وقت النزول فيسمع منهم في ذلك، ما لا يكيف، لأنهم يخوضون في البحور التي في باطنه عليه الصلاة والسلام.

ثم قال وقد سألته أيضاً عن قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣]، فأجابني رضي الله عنه بما يقرب من هذا المعنى فقال: إن النبي ﷺ أمره الله تعالى أن يعفو، وأن يصفح الصفح الجميل، وأن يعاشر بالتي هي أحسن ويدفع بها حتى قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] فكانت هذه عادته مع الخلق فلما جاءه أهل النفاق واستأذنوه في التخلف وذكروا أعذارهم أذن لهم في التخلف وهو يعلم نفاقهم للرحمة التي فيه.

ولما أمره الله به من المعاشرة بالتي هي أحسن وحضه عليها في غيرها آية، فسلك معهم مسلك الظاهر، ثم تحدث في باطنه بنزول آية تفضحهم، وإنما منعه هو من أن يباشر فضيحتهم للرحمة التي فيه ووصية الله فتحدث في باطنه بفضيحتهم على وجه يبين كونها من الله، لا منه للحياء الذي فيه ﷺ، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣] فأحب أن تنزل الآية في صورة العتاب له لتكون أبعد عن التهمة، وأدخل في محض النصيحة، وأزجر لهم عن الاشتغال بالنفاق مع النبي ﷺ مرة أخرى، فإن الله تعالى هو وكيله على من ينافقه وخصيمه وحجيجه، فتضمنت صورة هذا العتاب مصالح شتى، وفي الباطن لا عتاب، وإنما ناب الحبيب عن حبيبه في المخاصمة لا غير.

قال رضي الله عنه: ولا ينبغي لأحد أن يظن بالنبي ﷺ أنه كان لا يعلم الصادق من الكاذب من المعتذرين، وكيف يخفى ذلك عليه ﷺ والمفتوح عليه في هذا الزمان يعلم الصادق والكاذب منهم في ذلك الزمان، وأهل الفتح أجمعون إنما نالوا ما نالوا بمحبته ﷺ، فسقوا بمقدار شعرة من نوره ﷺ.

وقد سبق في أن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف كيف كان علم النبي ﷺ.

قال ابن المبارك رحمه الله تعالى قلت: وهذا التقرير في الآية أحسن ما قيل فيها عند من تأمل كلام المفسرين، وقد قال البيضاوي عفا الله عنا وعنه، عفا الله عنك كناية عن خطئه ﷺ في الإذن، فإن العفو من روادفه.

قال الشيخ الإسلام زكريا في حاشيته تبع فيه الزمخشري قال الطيبي: أخطأ الزمخشري في هذه العبارة خطأ فاحشاً، ولا أدري كيف ذهب عنه أن في أمثال هذه الإشارات وهي تقديم

العفو إشعاراً بتعظيم المخاطب وتوقيره وتوفير حرمته، وهو كما قال لأن مثل ذلك لا يقتضي تقدم ذنب بل يدل تصديره على التعظيم كما تقول لمن تعظمه: عفا الله عنك ما صنعت في أمري، ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي؟

ولهذا قال التفتازاني: ما كان ينبغي للمصنف، يعني الزمخشري، أن يعبر بهذه العبارة الشنيعة بعدما راعى الله مع رسول الله ﷺ تقديم العفو، وذكر الأذن المنبئ عن علو المرتبة وقوة التصرف وإيراد الكلام في صورة الاستفهام، وإن كان القصد إلى الانكار على أن قولهم عفا الله عنك قد يقال عند ترك الأولى والأفضل بل في مقام التبجيل، والتعظيم، مثل عفا الله عنك ما صنعت في أمري اهـ.

وقال الحافظ السيوطي في حاشيته تبع في هذه العبارة السيئة الزمخشري، وقد قال صاحب الانتصاف هو بين أمرين إما أن لا يكون هذا المعنى مراداً فقد أخطأ، أو يكون مراداً لكن كني الله عنه إجلالاً ورفعاً لقدره ﷺ، أفلا تأدب بآداب الله تعالى لاسيما في حق المصطفى ﷺ، ثم نقل كلام الطيبي والتفتازاني، ثم قال: وقال القاضي عياض في الشفاء: هو استفتاح كلام بمنزلة أصلحك الله وأعزك الله وقد ألف في هذا الموضع راداً على الزمخشري الصدر حسن بن محمد ابن صالح النابلسي كتاباً سماه «جنة الناظر وجُنة المناظر في الانتصار لأبي القاسم الطاهر ﷺ».

وبهذه النكتة وأمثالها نهى أهل الدين والورع عن مطالعة الكشاف وإقرائه. وقد ألف في ذلك تقي الدين السبكي كتاباً سماه «سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف» فانظره في تلك الحاشية فقد نقله برمته والله تعالى أعلم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسألته رضي الله عن سبب التعبير بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢] في حق النبي ﷺ، وقوله تعالى في حق جبرائيل: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ إلى قوله ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]. فقال رضي الله عنه القرآن ينزل على النبي ﷺ من نور الحق، وإذا عبر أخذت العبارة من الحالة الغالبة على ذات النبي ﷺ، وهي إما تواضع، أو غيره، وهي في هذا المقام تواضع منه ﷺ مع جبريل بالتعظيم له واستصغار نفسه. وقال لي رضي الله عنه مرة أخرى إنما ذكر قوله وما صاحبكم بمجنون لإثبات ما قبلها وتصحيح ما نسب لجبريل عليه السلام، فكأنه يقول وهذا الذي قلناه في حق جبريل جاءكم به من عنده من تعلمون صدقه

وأمانته ومعرفته بما يقول والمخبر إذا كان على هذه الصفة وثق بخبره وليس هو بمجنون حتى يتكلم بما لا يعلم، فالغرض من قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢] إدخال ما قبله في عقول المخاطبين لا تعريف حالة النبي ﷺ حتى يقال إنه اقتصر في تعريفه على هذه الصفة السلبية وأتى في تعريف حال جبريل عليه السلام بأوصاف عظام والله تعالى أعلم.

تنبيه: كنت كتبت كتابة نفيسة جداً في هذا المعنى في كتابي الفضائل المحمدية عندما ذكرت الآيات الواردة في فضائله ﷺ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:١٩ - ٢٧].

وهذا نص ما كتبته هناك ليس المقصود من هذه الآيات تعداد فضائل النبي ﷺ وجبريل عليه السلام، حتى يقال لم وصف الله جبريل بعدة أوصاف جميلة، واقتصر على نفي الجنون عن النبي ﷺ، بل المقصود هو تحقيق كون القرآن من كلام الله تعالى وإنما وصف جبريل بعدة أوصاف جميلة تدفع الاشتباه في القرآن لكونه هو المتلقى له عن الله تعالى أي فهو وارد من قول ملك تلقاه عن الله تعالى صفاته كذا وكذا، وما هو بقول شيطان رجيم كما زعموا، فاحتاج الأمر في جبريل عليه السلام لزيادة الأوصاف الجميلة واقتصر في جانب النبي ﷺ على نفي الجنون الذي زعموه، لأن ذلك كافٍ في حسن ضبط ما يتلقاه من القرآن عن جبريل عليه السلام مع علمهم بوفور عقله وكمال ذكائه وكثرة فضله واتصافه بسائر أوصاف الكمال، وإنما كان شكهم في أن هذا القرآن من قول شيطان رجيم فنفى الله ذلك عنه، وأثبت له العقل بنفي الجنون فقط لعدم الحاجة إلى أوصاف جميلة أخرى يصفه بها كما وصف جبريل، لأن أوصافه الجميلة معلومة عندهم، بخلاف جبريل فإنهم لا علم لهم به قبل ذلك.

واعلم أن من تتبع القرآن وجد فيه مواضع كثيرة رد الله بها على المشركين ما زعموه تعنتاً وجهلاً من كونه من أساطير الأولين، أو تنزلت به الشياطين ونحو ذلك من افترآتهم ومكابراتهم وقد وصف الله تعالى نفس القرآن بكمال الإعجاز، بحيث لو اجتمع جميع الخلق على أن يأتوا بمثل سورة منه لعجزوا عن ذلك، ووصف جبريل عليه السلام الذي تلقاه عنه تعالى بأكمل الأوصاف التي تقتضي صحة ما تلقاه في سورة التكوير وغيرها، كسورة النجم في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥] الآيات ونفى عن النبي ﷺ الأوصاف التي يحصل معها الاشتباه في صحة كلامه تعالى الذي تلقاه عن جبريل كالجنون، فنفاه عنه ﷺ في سورة التكوير وغيرها وسورة ن بقوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢] وأثبت له فيها أحسن الأوصاف بقوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [:] ونفى عنه في سورة

النجم الضلال والغي والنطق عن الهوى بقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٢ - ٣] كل ذلك لشدة اعتناء الحق سبحانه وتعالى في إثبات كون القرآن كلامه القديم ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومن هنا تعلم أن كثرة أوصاف سيدنا جبريل عليه السلام الجميلة في هذا المعرض، ونفي الجنون عن النبي ﷺ فقط لا يمنع من كونه ﷺ أفضل من سيدنا جبريل عليه السلام ومن الخلق أجمعين كما أجمعت على ذلك أمته ﷺ التي لا تجتمع على ضلالة سوى بعض ضلال المعتزلة الذين لا يعتد بخلافهم مع أن الجم الغفير من المفسرين ذهبوا كما في الانتصاف على الكشاف إلى أن المراد بالرسول الكريم هٰهنا إلى آخر النعوت محمد رسول الله ﷺ.

ودلائل أفضلية سيدنا رسول الله ﷺ على سيدنا جبريل عليه السلام كثيرة لا تحصى، ومن أصحها وأوضحها وقوف سيدنا جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى ليلة المعراج وتقدم النبي ﷺ وحده إلى أعلى مقام سمع فيه صريف الأقلام إلى آخر ما هو معلوم في ذلك من الكلام.

ومما ظهر لي ولم أره لأحد، مما يدل على أفضلية نبينا على جبريل كونه ﷺ كثيراً ما كان يخاطبه ﷺ بقوله: «يا أخي يا جبريل»، فهذا ملاطفة منه ﷺ له عليه السلام كما جرت العادة في مخاطبة الكبير لمن هو دونه على وجه الملاطفة، والمؤانسة، والبر، والتواضع، ولو كان ﷺ دونه، لخاطبه بقوله: «يا سيدي يا جبريل» كما يقتضيه الأدب في مخاطبة الصغير للكبير في العادة الجارية في مخاطبات الناس بعضهم بعضاً، ولو قال عندهم الصغير لمن هو أكبر منه قدراً يا أخي يا فلان لحسبوه من سوء الأدب وإنما أطلت الكلام في هذا المقام لرفع الشكوك والأوهام ودفع مازل به صاحب الكشاف، ونعوذ بالله من زلة الأفهام فإنها أقبح من زلة الأقدام. انتهى ما ذكرته هناك، وهو في الحقيقة تفصيل لما أجمله سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه في جوابه الثاني المذكور والله أعلم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾]

ما ذكره في الإبريز بقوله: وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٢] لم أقسم تعالى على تصحيح رسالته ﷺ بالنجم؟ مع أن النجم حجر من الأحجار وأيُّ مناسبة بينه وبين نور الرسالة حتى وقع به القسم عليها؟

فقال رضي الله عنه: لم يقع القسم بالنجم من حيث إنه نجم وحجر، بل من حيث نور الحق الذي هو فيه، ونور الحق الذي فيه هو نور الاهتداء به في ظلمات البر والبحر ثم بين ذلك بضرب مثال فقال لو أن رجلين خرجا مسافرين فضلاً عن الطريق وعدما الزاد والرفيق حتى أيقنا بالهلاك وعدما الخلاص والفكاك.

فإما أحدهما فكانت له معرفة بالنجم الذي يهتدي به إلى جهة سفره فرصده إلى أن كان الليل فتبعه إلى أن بلغ غاية قصده ونهاية مراده ونجاه الله تعالى. وأما الآخر فلم تكن له معرفة بالنجم ولا كيف يهتدي به ولا قلد صاحبه في معرفته فهو لا يزال يتخطى في أودية الضلال إلى أن يهلك، وبعد هلاكه يرجع كالحممة بسبب ما يمر على ذاته من الحر والقر، وهكذا حالة الناس مع الرسول ﷺ فهو بين هذين الرجلين.

ففريق آمنوا به وصدقوه واتبعوه فبلغوا به إلى جنة النعيم، وما لا يكيف من العطاء الجسيم كما بلغ الرجل الأول إلى موضع الزاد والرفيق فأصاب من النعيم والظل الظليل مراده وحاجته. وفريق كذبوه فلم يزالوا في سخط الله حتى ماتوا فأحرقتهم جهنم بحرها وزمهريرها كما أحرقت ذات الرجل الثاني بالحر والقر، فوقعت المشاكلة بين المقسم به والمقسم عليه، وفي الحقيقة وقع القسم بفرد من أفراد نور الحق الذي يعرفونه على فرد آخر لا يعرفونه.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ...﴾]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:١ -٢] فقال رضي الله عنه المراد بالفتح المشاهدة، أي مشاهدته تعالى، وذلك أنه سبق في سباق علمه تعالى أن الخلق لا يعرفونه جميعاً إذ لو عرفوه جميعاً لم تكن إلا دار واحدة، وقد قضى تعالى أن له دارين فحجب الخلق عنه تعالى إلا من رحمة الله، فمنعهم من مشاهدة الفعل منه تعالى، ومن مشاهدة ذاته تعالى، فإنه لو كشف الغطاء عنه لشاهدوه تعالى كما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦]، ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]، وشاهدوا أفعالهم كلها مخلوقة له تعالى وإنه هو الفاعل لها لاهم، وإنما هم ظروف وأجرام موضوعة، وهو تعالى يحركها كيف شاء، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] وعند ذلك لا يعصيه أحد قط، لأن المعصية لا تكون إلا من المحجوب الغافل الساهي عن ربه، وقت معصيته.

قال: والمؤمنون وإن كانوا يعتقدون إن الله هو الفاعل فيهم، المريد لأفعالهم، لكن هذا الاعتقاد يحضر ويغيب وسببه الحجاب، فاعتقادهم مجرد إيمان بالغيب لا عن مشاهدة وعيان. ومن رحمه الله تعالى أزال عنه الحجاب وأكرمه بمشاهدته تعالى فلا يرى إلا ما هو حق من الحق وإلى الحق فهذا هو المشار إليه بالفتح المبين. فقلت: ومتى وقع؟ فقال: من صغره ﷺ، فإنه لم يحجب عنه تعالى. فقلت وهذا الفتح ثابت لكل نبي بل، ولكل عارف فأي خصوصية فيه لنبينا ﷺ؟ فقال رضي الله عنه: الفتح يختلف بالقوة والضعف، فكل على ما يطيق والقوة التي في النبي ﷺ عقلا وروحاً ونفساً وذاتاً وسراً وحفظة لم تثبت لغيره حتى لو جمع أهل الفتح كلهم من الأنبياء وغيرهم وجعلت القوة المشار إليها عليهم لذابوا جميعاً وتهافتت ذواتهم.

والمراد بالذنب في قوله تعالى: ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢] سببه وهو الغفلة وظلام الحجاب الذي في أصل نشأة الذات الترابية. قال: «وهذه الغفلة والحجاب للذنوب، بمثابة الثوب العفن الوسخ لنزول الذباب عليه، فمتى كان ذلك الثوب على أحد نزل عليه الذباب، ومتى زال عنه ذلك الثوب زال عنه الذباب، فالثوب مثال الحجاب، والذباب مثال للذنوب، فمن سمى ذلك الثوب ذباباً فهي تسمية سائغة، فكذلك المراد هنا بالذنب هو الحجاب والمراد بما تقدم وما تأخر الكناية عن زواله بالكلية فكأنه تعالى يقول، إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليزول عنك الحجاب بالكلية ولتتم النعمة منا عليك، ولتهدي وتنصر، فإنه لا نعمة فوق نعمة زوال الحجاب، ولا هداية فوق هداية المعارف ولا نصرة أبلغ من نصرة من كانت هذه حالته.

فقلت: وهل هذا خاص بالنبي ﷺ؟ فقال: نعم: فقلت: ولم؟ فقال: لأنه عين كل شيء فقلت: «ولذلك تقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في المحشر ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: قلت: وهذا الذي قاله الشيخ رضي الله عنه من أنفس المعارف، وألطف اللطائف، وأليق بالجناب النبوي، وأبلغ في التنزيه والتعظيم، وأوفق للعصمة المجمع عليها، وأوفى بحق النبي ﷺ، وأنسب بترتيب الآية وحسن سياقها فجزاه الله عنا أفضل الجزاء، وقد تكلم في الآية خلائق لا يحصون، كثرة، وكان في عقولهم هذا المعنى الذي يشير إليه الشيخ رضي الله عنه.

منهم السبكي الكبير، وأبو يحيى الشريف التلمساني، وقد ألف في ذلك تأليفاً مستقلاً وكذا ألف الحافظ السيوطي في المسألة جزءاً لطيفاً جمع فيه أقوال العلماء وجمع بين هذين التأليفين الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بابا السوداني في تأليف له رحم الله الجميع.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[المراد بقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾]

ما ذكره في الإبريز بقوله وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٦] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤] الآية وقوله ﷺ في خمس لا يعلمهن إلا الله كيف يجمع بين هذا وبين ما يظهر على الأولياء العارفين رضي الله عنهم من الكشوفات والأخبار بالغيوب بما في الأرحام وغيرها، فإنه أمر شائع في كرامات الأولياء فقال رضي الله عنه الحصر الذي في كلام الله تعالى وفي الحديث الغرض منه إخراج الكهنة والعرافين ومن له تابع من الجن، الذين كانت تعتقد فيهم جهلة العرب، الاطلاع على الغيب ومعرفته حتى كانوا يتحاكمون إليهم، ويرجعون إلى قولهم فقصد الله تعالى إزالة ذلك الاعتقاد الفاسد من عقولهم فأنزل هذه الآيات وأمثالها كما أراد الله تعالى إزالة ذلك من الواقع ونفس الأمر فملأ السماء بالحرس الشديد والشهب، والمقصود من ذلك كله جمع العباد على الحق وصرفهم عن الباطل والأولياء رضي الله عنهم من الحق لا من الباطل فلا يخرجهم الحصر الذي في الآية ونحوها.

ثم قال قلت للشيخ رضي الله عنه فإن علماء الظاهر من المحدثين وغيرهم اختلفوا في النبي ﷺ هل كان يعلم الخمس المذكورات في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان:٣٤] فقال رضي الله عنه وعن ساداتنا العلماء وكيف يخفى أمر الخمس عليه ﷺ والواحد من أهل التصرف من أمته الشريفة لا يمكنه التصرف إلا بمعرفة هذه الخمس.

وكذا سألته عن قول العلماء في معرفة ليلة القدر إنها رفعت عن النبي ﷺ ولذا قال اطلبوها في التاسعة في السابعة في الخامسة ولو بقيت معرفتها عنده ﷺ لعينها لهم، فقال الشيخ: سبحان الله. وغضب.

ثم قال: والله لو جاءت ليلة القدر وأنا ميت وقد انتفخت جيفتي وارتفعت رجلي كما تنتفخ جيفة الحمار لعلمتها، وأنا على تلك الحالة فكيف تخفى على سيد الوجود ﷺ وقد عينها في أعوام مختلفة. فمرة عينها لنا في رجب، وعينها لنا في عام آخر في شعبان، وفي عام آخر في رمضان، وفي عام آخر في ليلة عيد الفطر، كان يعينها لنا قبل أن تأتي، ويأمرنا بالتحفظ عليها وكان يقول لنا إنها تنتقل وكذلك كان يعين لنا ساعة الجمعة.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[بعض أوصاف الصلاة على النبي ﷺ]

وهي أول الفوائد التي أخذتها من الباب الثالث من الإبريز قال رضي الله عنه في سياق كلامه على العبادات والطاعات التي تخرج بغير نية، ولا قصداً وبقصد نفع نفسه، ولهذا ترى رجلين كل منهما يصلي على النبي ﷺ فيخرج لهذا أجر ضعيف ويخرج لهذا أجر لا يكيف ويحصى. وسببه ما قلنا. فالرجل الأول خرجت منه الصلاة على النبي ﷺ مع الغفلة وعمارة القلب بالشواغل والقواطع، وكأنه ذكرها على سبيل الألفة والعادة فأعطي أجراً ضعيفاً. والثاني خرجت منه الصلاة على النبي ﷺ مع المحبة والتعظيم.

أما المحبة فسببها أن يستحضر في قلبه جلالة النبي ﷺ وعظمته وكونه سبباً في كل موجود ومن نوره كل نور، وإنه رحمة مهداة للخلق وإنه رحمة الأولين والآخرين وهداية الخلق أجمعين، إنما هي منه ومن أجله فيصلي عليه لأجل هذه المكانة العظيمة، لا لأجل علة أخرى ترجع إلى نفع ذاته.

وأما التعظيم فسببه أن ينظر إلى هذه المكانة العظيمة وبأي شيء كانت وكيف ينبغي أن تكون خصال صاحبها وإن الخلائق أجمعين عاجزون عن تحمل شيء من خصالها لأنها ارتقت حقائقها فيه ﷺ إلى حد لا يكيف بالفكر فضلاً عن أن يطاق تحمله بالفعل فإذا خرجت الصلاة من العبد على النبي ﷺ فإن أجرها يكون على قدر منزلة النبي ﷺ، وعلى قدر كرم الرب سبحانه لأن محرك هذه الصلاة والحامل عليها هو مجرد تلك المكانة العظيمة، فكان الأجر عليها على قدر تلك المكانة الحاملة عليها وصلاة الأول، كان الحامل عليها حظ نفسه، وغرض ذاته، فكان الأجر عليها على قدر محركها، ولا يظلم ربك أحداً فهكذا عمل العبد بينه وبين ربه سبحانه، فإذا كان المحرك هو عظمة الرب وجلاله وعلوه في كبريائه فالأجر على قدر عظمته الرب سبحانه، وإذا كان المحرك له والحامل عليه مجرد غرض العبد وما يرجع لذاته، فالأجر على قدر ذلك والسلام.

قال ابن المبارك رحمه الله تعالى فقلت: فهل ينتفع النبي ﷺ بصلاتنا عليه أو لا ينتفع؟ فإن هذه المسألة قد اختلف العلماء فيها.

فقال رضي الله عنه: لم يشرعها الله سبحانه لنا بقصد نفع نبيه ﷺ، وإنما شرعها الله لنا بقصد نفعنا، خاصة كمن له عبيد، فنظر إلى أرض كريمة لا تبلغها أرض في الزراعة، فرحم عبيده فأعطاهم تلك الأرض، على أن يكون الزرع كله لهم يستبدون به ولم يعطهم ذلك على

وجه الشركة، فهكذا حال صلاتنا عليه ﷺفأجرها كله لنا، وإذا اشتعل نور أجرها في بعض الأحيان واتصل بنوره ﷺ تراه بمنزلة شيء راجع إلى أصله لا غير لأن الأجور الثابتة للمؤمنين قاطبة إنما هي لأجل الإيمان الذي فيهم، والإيمان الذي فيهم إنما هو من نوره ﷺ فصارت الأجور الثابتة لنا إنما هي منه ﷺ ولا مثال له في المحسوسات إلا البحر المحيط مع الأمطار إذا جاءت بالسيول إلى البحر فإن ماء الأمطار من البحر فإذا رجع إلى البحر فلا يقال إنه زاد في البحر.

فقلت فإن بعض العلماء استدل على أنه ﷺ ينتفع بها فإنه قاسها على النفع الحاصل له ﷺ من الخدمة، والولدان إذا كان في الجنة فكما إنه ﷺ ينتفع بالنعم والفواكه المحمولة إليه في الظروف فكذلك ينتفع ﷺ بالأنوار والأجور المحمولة إليه في هذه الحروف فالحمل هناك وقع بالأيدي الحاملة للظروف وهنا وقع بالأفواه الحاملة للحروف ولا تزيد حالته في دار الدنيا على حالته ﷺ في الجنة حتى يمتنع القياس.

فقال رضي الله عنه: ومن أين هم أولئك الخدمة؟ والولدان إنما هم من نوره ﷺ بل الجنة وكل ما فيها من نوره ﷺ، وإنما يصح ما قاله هذا العالم إن لو كان أولئك الخدمة مباينين له ﷺ ويكون إيماننا مبايناً له ﷺ، وليس كذلك، ومن علم كيف هو النبي ﷺ استراح.

قال رضي الله عنه: وترى الرجل يقرأ دلائل الخيرات فإذا أراد أن يصلي على النبي ﷺ صوره في فكره، وصور الأمور المطلوبة له كالوسيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، وغير ذلك مما هو مذكور في كل صلاة، وصور نفسه طالبها من الله تعالى وقدر في فكره إن اللهيجيبه ويعطيه ذلك لنبيه ﷺ على يد هذا الطالب فيقع في ظن الطالب إنه حصل منه للنبي ﷺ نفع عظيم، فيفرح ويستبشر، ويزيد في القراءة، ويبالغ في الصلاة، ويرفع بها صوته ويحس بها خارجه من عروق قلبه، ويعتريه خشوع، وتنزل به رقة عظيمة، ويظن أنه في حالة ما فوقها حالة وهو في هذا الظن على خطأ عظيم فلا يصل بصلاته هذه إلى شيء من الله تعالى لأنها متعلقة بما ظنه وصوره في فكره وظنه باطل، والباطل لا يتعلق بالحق سبحانه، وإنما يتصل بالحق سبحانه ما هو حق في نفس الأمر بحيث أن الشخص لو فتح بصره لرآه في نفس الأمر فكلما كان كذلك فهو متعلق بالحق سبحانه وكل ما لو فتح الإنسان بصره لم يره فهو باطل، والباطل لا يتعلق بالحق سبحانه، فليحترز المصلي على النبي ﷺ من هذه الآفة العظيمة فإن أكثر الناس لا يتفطنون لها ويظنون أن تلك الرقة والحلاوة الحاصلة لهم من الله سبحانه، وإنما هي من الشيطان ليدفعهم بها عن الحق سبحانه، ويزيدهم بها بعد أعلى بعد، وإنما ينبغي أن يكون الحامل محبته ﷺ وتعظيمه لا غير وحينئذٍ يشتعل نورها، كما سبق.

وإما إن كان الحامل عليها نفع العبد فإنه يكون محجوباً وينقص أجره وكذا إن كان الحامل عليها نفع النبي ﷺ فإن صلاته حينئذ لا تتعلق بالحق سبحانه وتعالى ولا تبلغ إليه والله أعلم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[التفريق بين الخلفاء الأربعة]

قوله رضي الله عنه في سياق تعداد الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله عز وجل السبب العشرون التفريق بين الخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين قال رضي الله عنه: ومعنى التفريق أن يحب بعضهم ويبغض بعضهم، كما هو شأن الخوارج والروافض، وإنما كان ذلك التفريق سبباً في الانقطاع عن الله عز وجل، لأن كل واحد منهم ورث خصلة من خصاله ﷺ فبغض ذلك الخليفة يسري إلى بغض النبي ﷺ فلذلك كان سبباً في الانقطاع، قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: فقلت: فما الخصلة التي في أبي بكر رضي الله عنه؟ فقال: خصلة الإيمان بالله عز وجل فإن الإيمان بالله تعالى كان في النبي ﷺ على كيفية خاصة لو طرحت على أهل الأرض صحابة وغيرهم لذابوا وورث أبو بكر رضي الله عنه من تلك الكيفية شيئاً قليلاً على قدر ما تطيقه ذاته، ومع ذلك لم يكن في أمة النبي ﷺ من يطيق أبا بكر في ذلك ولا من يدانيه، لا من الصحابة، ولا من غيرهم، من أهل الفتح الكبير، لأن النبي ﷺ بلغ في أسرار الألوهية وحقائق الربوبية، ورقائق العرفان مبلغاً لا يكيف، ولا يطاق، وكان يتكلم مع أبي بكر في البحور التي كان يخوضها ﷺ، فارتقى أبو بكر المرتقى المذكور، ومع ذلك فكان النبي ﷺ في الثلاث سنين الأخيرة لا يتكلم معه في تلك الحقائق خيفة عليه أن يذوب.

قال رضي الله عنه: وأما الخصلة التي في عمر رضي الله عنه، فهي خصلة النصيحة للمؤمنين والنظر لهم وإيثارهم على نفسه، وتدبير أمر جيوشهم، وما يصلح عامتهم وخاصتهم، وهذه خصلة من خصاله ﷺ، وقد ورث عمر رضي الله عنه منها القدر الذي تطيقه ذاته.

وأما الخصلة التي في عثمان رضي الله عنه فهي خصلة الرأفة والحنانة وصلة الرحم وهذه واحدة من خصاله ﷺ، وقد ورث منها عثمان ما يطيقه.

وأما الخصلة التي في علي رضي الله عنه فهي خصلة الشجاعة، وهي إحدى خصاله ﷺ

وقد ورث منها علي رضي الله عنه ما يطيقه. قال رضي الله عنه: وكذا سائر الصحابة رضي الله عنهم كل واحد منهم ورث شيئاً من النبي ﷺ فبغض صحابي أي صحابي كان يوجب الانقطاع عن الله.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[ديوان الصالحين في غار حيراء]

وهي أول الفوائد التي أخذتها من الباب الرابع من الإبريز الذي عقده لذكر ديوان الصالحين ما ذكره مؤلفه ابن المبارك رحمه الله تعالى بقوله: سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول، الديوان يكون بغار حراء الذي كان يتحنث فيه النبي ﷺ قبل البعثة.

قال رضي الله عنه: فيجلس الغوث خارج الغار، ومكة خلف كتفه الأيمن والمدينة أمام ركبته اليسرى، وأربعة أقطاب عن يمينه وهم مالكية على مذهب مالك ابن أنس رضي الله عنه وثلاثة أقطاب عن يساره، واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة والوكيل إمامه ويسمى قاضي الديوان وهو في هذا الوقت مالكي أيضاً من بني خالد القاطنين بناحية البصرة، واسمه سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي ومع الوكيل يتكلم الغوث ولذلك سمي وكيلاً لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان.

قال: والتصرف للأقطاب السبعة على أمر الغوث، وكل واحد من الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون، والصفوف الستة من وراء الوكيل، وتكون دائرتها من القطب الرابع إلى إلى الذي على اليسار من الأقطاب الثلاثة: فالأقطاب السبعة هم أطراف الدائرة وهذا هو الصف الأول، وخلفه الثاني على صفته وعلى دائرته، وهكذا الثالث إلى أن يكون السادس آخرها.

قال: ويحضره النساء وعددهن قليل وصفوفهن ثلاثة، وذلك في جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار فوق دائرة الصف الأول في فسحة هناك بين الغوث والأقطاب الثلاثة.

قال رضي الله عنه ويحضره بعض الكمل من الأموات ويكونون في الصفوف مع الأحياء ويتميزون بثلاثة أمور:

أحدها: أن زيهم لا يتبدل بخلاف زي الحي وهيئته فمرة يحلق شعره، ومرة يجدد ثوبه، وهكذا...

وأما الموتى لا تتبدل حالتهم فإذا رأيت في الديوان رجلاً على زي لا يتبدل فاعلم أنه من

الموتى، كأن تراه محلوق الشعر ولا ينبت له شعر فاعلم أنه على تلك الحالة مات وإن رأيت الشعر على رأسه على حالته، لا يزيد ولا ينقص، ولا يحلق فاعلم أيضاً أنه ميت وأنه مات على تلك الحالة.

ثانيها: أنه لا تقع معهم مشاورة في أمور الأحياء لأنهم لا تصرف لهم فيها، وقد انتقلوا إلى عالم آخر في غاية المباينة لعالم الأحياء، وإنما تقع معهم المشاورة في أمور عالم الأموات.

قال رضي الله عنه: ومن آداب زائر القبور إذا أراد أن يدعو لصاحب قبر، ويتوسل إلى الله تعالى بولي من أوليائه في إجابة دعوته أن يتوسل إليه تعالى بولي ميت، فإنه انجح لمقصود واقرب لإجابة دعوته.

ثالثها: أن ذات الميت لا ظل لها فإذا وقف الميت بينك وبين الشمس فإنك لا ترى له ظلاً، وسره أن يحضر بذات روحه لا بذاته الفانية الترابية، وذات الروح خفيفة لا ثقيلة وشفافة لا كثيفة.

قال لي رضي الله عنه: وكم مرة أذهب إلى الديوان أو إلى مجمع من مجامع الأولياء وقد طلعت الشمس فإذا رأوني من بعيد استقبلوني فأراهم بعين رأسي متميزين هذا بظله وهذا لا ظل له.

قال رضي الله عنه: والأموات الحاضرون في الديوان ينزلون إليه من البرزخ يطيرون طيراً بطيران الروح، فإذا قربوا من موضع الديوان بنحو مسافة نزلوا إلى الأرض ومشوا على أرجلهم إلى أن يصلوا إلى الديوان تأدباً مع الأحياء وخوفاً منهم.

قال: وكذا رجال الغيب إذا زار بعضهم بعضاً فإنه يجيء بسير روحه فإذا قرب من موضعه تأدب ومشى مشي ذاته الثقيلة تأدباً وخوفاً.

قال: وتحضره الملائكة وهم من وراء الصفوف ويحضره أيضاً الجن الكمل، وهم الروحانيون وهم من وراء الجميع، وهم لا يبلغون صفاً كاملاً.

قال رضي الله عنه: وفائدة حضور الملائكة والجن إن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها فيستعينون بالملائكة وبالجن في الأمور التي لا تطيق ذواتهم الوصول إليها، قال وفي بعض الأحيان يحضره النبي ﷺ، فإذا حضره ﷺ جلس في موضع الغوث، وجلس الغوث في موضع الوكيل، وتأخر الوكيل للصف، وإذا جاء النبي ﷺ جاءت معه الأنوار التي لا تطاق وإنما هي أنوار محرقة

مفزعة قاتلة لحينها، وهي أنوار المهابة والجلالة والعظمة، حتى أنا لو فرضنا أربعين رجلاً بلغوا في الشجاعة مبلغاً لا مزيد عليه ثم فوجئوا بهذه الأنوار فإنهم يصعقون لحينهم إلا أن الله تعالى يرزق أولياءه القوة على تلقيها.

ومع ذلك فالقليل منهم هو الذي يضبط الأمور التي صدرت في ساعة حضوره ﷺ وكلامه ﷺ مع الغوث، قال: وكذلك الغوث إذا غاب النبي ﷺ تكون له أنوار خارقة حتى لا يستطيع أهل الديوان أن يقربوا منه بل يجلسون منه على بعد، فالأمر الذي ينزل من عند الله تعالى لا تطيقه ذات إلا ذات النبي ﷺ، وإذا خرج من عندهم ﷺ فلا تطيقه ذات إلا ذات الغوث، ومن ذات الغوث يتفرق على الأقطاب السبعة، ومن الأقطاب السبعة يتفرق على أهل الديوان.

وأما ساعة الديوان فقد سبق الكلام عليها وإنها هي الساعة التي ولد فيها النبي ﷺ، وإنها هي ساعة الاستجابة من ثلث الليل الأخير التي وردت بها الأحاديث كحديث «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له»[1] الحديث.

قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: ومن أراد أن يظفر بهذه الساعة فليقرأ عند ارادة النوم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ [الكهف:١٠٧] إلى آخر السورة ويطلب من الله تعالى أن يوقظه في الساعة المذكورة فإنه يفيق فيها ذكره الشيخ عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنه وقد جربناه ما لا يحصى وجربه غيرنا حتى إنه وقع لجماعة غير ما مرة أن يقرأوا الآية المذكورة ويطلبوا من الله تعالى الإفاقة في الساعة المذكورة كل واحد منهم بفعل ذلك في خاصة نفسه، من غير أن يعلم به صاحبه واذا أفاقوا أفاقوا جميعاً في وقت واحد.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الديوان كان أولاً معموراً بالملائكة، ولما بعث الله النبي ﷺ جعل الديوان يعمر بأولياء هذه الأمة فظهر أن اولئك الملائكة كانوا نائبين عن أولياء هذه الأمة المشرفة حيث رأينا الولي إذا خرج إلى الدنيا وفتح الله عليه وصار من أهل الديوان فإنه يجيء إلى موضع مخصوص في الصف الأول أو غيره فيجلس فيه، ويصعد الملك الذي كان فيه، فإذا ظهر ولي آخر جاء إلى موضع، ويصعد الملك الذي في ذلك الموضع، وهكذا كانت بداية عمارة الديوان حتى كمل ولله الحمد، كلما ظهر ولي صعد ملك.

وأما الملائكة الذين هم باقون فيه، ويكونون خلف الصفوف الستة كما سبق فهم ملائكة ذات النبي ﷺ الذين كانوا حفاظاً لها في الدنيا.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٢: ٦٦). وأبو داود في السنن (١٣١٥). وابن ماجه في السنن (١٣٦٦).

ولما كان نور ذاته ﷺ مفرقاً في أهل الديوان بقيت ملائكة الذات الشريفة مع ذلك النور الشريف. قال رضي الله عنه، وإذا حضر النبي ﷺ في الديوان وجاءت معه الأنوار التي لا تطاق بادرت الملائكة الذين مع أهل الديوان ودخلوا في نوره ﷺ، فما دام النبي ﷺ في الديوان لا يظهر منهم ملك فإذا خرج النبي ﷺمن الديوان رجع الملائكة إلى مراكزهم. والله أعلم.

ثم قال رضي الله عنه: وقد يحضر سيد الوجود ﷺ في غيبة الغوث، فيحصل لأهل الديوان من الخوف والجزع من حيث أنهم يجهلون العاقبة في حضوره ﷺما يخرجهم عن حواسهم حتى إنه لو طال ذلك أياماً كثيرة لانهدمت العوالم.

قال رضي الله عنه: وإذا حضر سيد الوجود ﷺ مع غيبة الغوث فإنه يحضر معه أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والحسن، والحسين، وأمهما فاطمة الزهراء تارة كلهم وتارة بعضهم رضي الله عنهم أجمعين.

قال: وتجلس مولاتنا فاطمة مع جماعة النسوة اللاتي يحضرن الديوان في جهة اليسار، كما سبق، وتكون مولاتنا فاطمة أمامهن. قال: وسمعتها رضي الله عنها تصلي على أبيها ﷺ من الليالي وهي تقول: اللهم صل على من روحه محراب الأرواح والملائكة والكون. اللهم صل على من هو إمام الأنبياء والمرسلين. اللهم صل على من هو إمام أهل الجنة عباد الله المؤمنين. وكانت تصلي عليه ﷺ لكن لا بهذا اللفظ وإنما أنا استخرجت معناه والله أعلم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[لأولياء أمته ﷺ من المعجزات ما للأنبياء]

ما ذكره صاحب الإبريز بقوله، وكنت أتكلم معه رضي الله عنه ذات يوم فذكرت له سيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وما سخر الله له من الجن والإنس والشياطين والريح.

وذكرت ما أعطى الله تعالى لأبيه سيدنا داود عليه السلام من صناعة الحديد وإلانته حتى يكون في يده مثل قطع العجين.

وما أعطى الله لسيدنا عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله سبحانه ونحو ذلك من معجزات الأنبياء ﷺ وفهم مني كأني أقول له: وسيد الوجود ﷺ فوق الجميع ولم لم يظهر على يده مثل ذلك، وإنه وإن ظهر على يده شيء من المعجزات فمن فن آخر.

فقال رضي الله عنه: كل ما أعطيه في ملكه سليمان عليه السلام وما سخر لداود عليه السلام، وأكرم به عيسى عليه السلام أعطاه الله تعالى وزيادة لأهل التصرف من أمة النبي ﷺ فإن الله تعالى سخر لهم الجن، والإنس، والشياطين والريح والملائكة، بل وجميع ما في العوالم بأسرها ومكنهم من القدرة على إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ولكنه أمر غيبي مستور لا يظهر إلى الخلق لئلا ينقطعوا إليهم فينسون ربهم عز وجل.

وإنما حصل ذلك لأهل التصرف ببركة النبي ﷺ فكل ذلك من معجزاته ﷺ ثم ذكر أسراراً لا نطيقها العقول.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[نوره ﷺ باقٍ وخيره شامل]

وهي مما أخذته من الباب الخامس من الإبريز ما أجاب به رضي الله عنه بعض الفقهاء عما قيل: إن التربية انقطعت يعني تربية المشايخ للمريدين فهل ذلك صحيح أم لا؟

ونقل عن الشيخ زروق رضي الله عنه أنه قال: انقطعت التربية بالاصطلاح ولم يبق إلا التربية بالهمة، والحال، فعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان.

فأجاب رضي الله عنه: بأن كلام الشيخ زروق وشيوخه خرج مخرج النصيحة والاحتياط، ولم يريدوا رضي الله عنهم الانقطاع رأساً للتربية الحقيقية، وحاشاهم من ذلك، فإن نور النبي ﷺ باقٍ، وخيره شامل، وبركته عامة إلى يوم القيامة، والشيخ الذي يلقي إليه بالقياد هو العارف بأحوال النبي ﷺ الذي سقيت ذاته من نوره ﷺ حتى صار على قدم النبي ﷺ وأمده الله تعالى بكمال الإيمان وصفاء العرفان، فهذا هو الذي يلقى إليه بالقياد وتنبغي محبته وتنفع خلطته فإنه يجمع العبد مع ربه ويقطع عنه الوساوس في معرفته ويرقيه في محبة النبي ﷺ والشيخ الموصوف بذلك متعدد والحمد لله في البلاد والعباد، فلا تخرج عن أهل السنة والجماعة واطلبه تجده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[رؤية أكابر الأولياء النبي ﷺ يقظة]

جوابه لمن سأله رضي الله عنه عمن ادعى أنه يرى النبي ﷺ يقظة فذكر من أوصافه أنه يفتح عليه أولاً بمقامات مشاهدة العوالم وذكر كثيراً منها. ثم قال فإذا صفا نظره وتم نور

بصيرته ورحمه الله الرحمة التي لا شقاء بعدها، رزقه الله سبحانه رؤية سيد الأولين والآخرين، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فيراه عياناً ويشاهده يقظة، ويمده الله تعالى بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فحينئذٍ، يحصل على مقام الهناء والسرور فهنيئاً له السعادة، والنبي ﷺ لا تخفى شمائله المطهرة على أمته فقد دونت العلماء رضي الله عنهم ما خصه الله تبارك وتعالى به في ظاهر ذاته وفي باطنه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فمن ادعى رؤيته ﷺ يقظة فليسأل عن شيء من أحواله الزكية ويسمع جوابه فإنه لا يخفى من يجيب عن عيان ولا يلتبس بغيره أبداً والسلام.

قال رضي الله عنه بعد أن ذكر ما ذكر في ذلك: فإن قنعتم بهذا فبها ونعمت وإن أرد تم كلاماً آخر فاعلم أن العبد إذا فتح الله تعالى عليه أمده بنور من أنوار الحق يدخل على ذاته من جميع الجهات ويخرقها حتى يخرق اللحم والعظم ويعاني من برودته ومشقة دخوله على الذات ما يقارب سكرات الموت، ثم إن ذلك النور من شأنه أن يمد بأسرار المخلوقات التي أراد الله أن يفتح على ذلك العبد في مشاهدتها، ثم قال ومن جملة المخلوقات سيد الوجود وعلم الشهود ﷺ، فإذا وعد الله عبداً بالفتح عليه في مشاهدة ذاته الشريفة ﷺ فإنه لا يشاهده حتى يسقى بالأسرار التي في ذاته الشريفة فلنفرض ذات المفتوح عليه قبل الفتح بمثابة شيء مظلم والذات الشريفة بمنزلة نور ذي شعب متنوعة تنتهي إلى مائة ألف أو أكثر فإذا أراد الله رحمة تلك الذات المظلمة فإن ذلك النور الذي يمدها ويسقيها يأتيها مرة ويخرقها بتلك الشعب واحدة بعد واحدة، لنفرضها مثلاً شعبة الصبر فيزول بها سواد ضده من الجزع والقلق ويأتيه مرة بشعبة أخرى ولنفرضها شعبة الرحمة فيزول بها سواد ضدها الذي عدم الرحمة ويأتيه مرة بشعبة أخرى ولنفرضها شعبة الحلم فيزول بها سواد ضده وهكذا حتى تأتي على جميع الشعب التي في الذات المطهرة المنورة وتزول عن الذات المظلمة جميع الأوصاف السوداوية، وعند ذلك يتمكن العبد من المشاهدة الذات الشريفة حتى يخرج السواد بأسره من ذاته.

ولسنا نريد أنه إذا سقي بالأسرار التي في الذات الشريفة أنه تكون فيه على الكمال التي هي عليه في الذات الشريفة بل نريد أنه يسقي بها على ما تطيقه ذاته وأصل خلقته ولسنا نريد أيضاً أنه إذا سقي بشيء من تلك الشعب إنه ينقص من الذات الشريفة ويبقى محله خالياً منه فإن الأنوار لا تزول عن محلها بالأخذ منها فظهر لك بهذا أن العبد لا يشاهد النبي ﷺ حتى تمحي جميع أوصافه بورود تلك الأسرار الشريفة والأنوار اللطيفة وفي ذلك قطع لمقامات لا تعد ولا تحصى:

فـإن فضـل رسـول الله ليس لـه حـد فيعـرب عنـه نـاطـق بفـم

وكأن من حصرها، أي المقامات التي يقطعها من يرى النبي ﷺ يقظة في ألفين أو أكثر

أخبر عن حالته وما وقع له من الفتح وبقي عليه ما بقي، وما سبق من نفي المشاهدة عن الذي لا يسقى بجميعها، فإنما نعني به نفي المشاهدة على الكمال، فإن من بقيت عليه شعب وحصلت له مشاهدة حصلت له لا على الكمال والله أعلم. انتهى ما أردت نقله من كلامه في ذلك، في الباب الخامس.

وفي الباب التاسع في هذا المعنى ما نصه: وسمعته رضي الله عنه يقول: لكل شيء علامة وعلامة إدراك العبد مشاهدة النبي ﷺ في اليقظة أن يشغل الفكر بهذا النبي الشريف اشتغالاً دائماً بحيث لا يغيب عن الفكر ولا نصرفه عنه الصوارف، ولا الشواغل، فتراه يأكل وفكره مع النبي ﷺ ويشرب وهو كذلك، ويخاصم وهو كذلك، وينام وهو كذلك، فقلت وهل يكون هذا بحيلة، وكسب من العبد فقال رضي الله عنه: لا إذ، لو كان بحيلة وكسب من العبد لوقعت له الغفلة عنه إذا جاء صادف أو عرض شاغل، ولكنه أمر من الله تعالى يحمل العبد عليه ويستعمله فيه، ولا يحس العبد من نفسه اختياراً فيه حتى لو كلف العبد دفعه ما استطاع. ولهذا كانت لا تدفعه الشواغل والصوارف فباطن العبد مع النبي ﷺ وظاهره مع الناس يتكلم معهم بلا قصد ويأكل بلا قصد ويأتي بجميع ما يشاهد في ظاهره بلا قصد، لأن العبرة بالقلب وهو مع غيرهم فإذا دام العبد على هذا مدة رزقه الله تعالى مشاهدة نبيه الكريم ورسوله العظيم في اليقظة ومدة الفكر تختلف فمنهم من تكون له شهراً ومنهم من تكون له أقل، ومنهم من تكون له أكثر.

قال رضي الله عنه: ومشاهدة النبي ﷺ أمرها جسيم وخطبها عظيم فلولا أن الله تعالى يقوي العبد ما أطاقها، فلو فرضنا رجلاً قوياً عظيماً اجتمع فيه قوة أربعين رجلاً كل واحد منهم يأخذ بأذن الأسد من الشجاعة والبسالة ثم فرضنا النبي ﷺ خرج من مكان على هذا الرجل لانفلقت كبده وذابت ذاته وخرجت روحه وذلك من عظمة سطوته ﷺ ومع هذه السطوة العظيمة ففي تلك المشاهدة الشريفة من اللذة ما لا يكيف ولا يحصى، حتى إنها عند أهلها أفضل من دخول الجنة وذلك لأن من دخل الجنة لا يرزق ما فيها من النعم، بل كل واحد له نعيم خاص به بخلاف مشاهد النبي ﷺ فإنه إذا حصلت له المشاهدة المذكورة سقيت ذاته بجميع نعيم أهل الجنة فيجد لذة كل لون وحلاوة كل نوع، كما يجد أهل الجنة في الجنة، وذلك قليل في حق من خلقت الجنة من نوره ﷺ، وشرف وكرم ومجد وعظم وعلى آله وصحبه قال رضي الله عنه وفي كل مشاهدة يحصل هذا السقي فمن دامت له دام له هذا السقي.

قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: قلت وكنت أنظر في شمائل الإمام الترمذي رحمه الله وفي شروحها: فإذا اختلف في شيء من لونه ﷺ أو طول ذاته أو طول شعره أو مشيته أو غير

ذلك من أحواله ﷺ ذهبت إلى شيخنا رضي الله عنه فأسأله عن الواقع من ذلك فيجيبني جواب المعاين المشاهد.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[مشاهدة العبد ربه عز وجل بعده ﷺ]

قول صاحب الإبريز في الباب التاسع: منه وإنما ذكرته أنا هنا لمناسبة ما تقدم في الجوهرة السابقة قال سيدي عبد العزيز رضي الله عنه وعلامة إدراك العبد لمشاهدة ربه عز وجل، أن يقع في فكره بعد مشاهدة النبي ﷺ التعلق بربه، بحيث يغيب فكره في ذلك مثل الغيبة السابقة في النبي ﷺ، ثم لا يزال كذلك إلى أن يقع له الفتح في مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، فيقع على ثمرة الفؤاد، ونتيجة الفكر، وإذا كانت ذاته تسقى بجميع أنواع نعيم أهل الجنة عند مشاهدة النبي ﷺ، فما ظنك بما يحصل له عند مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، الذي هو خالق النبي ﷺ، وخالق الجنة وكل شيء.

قال رضي الله عنه: ثم بعد الفتح في مشاهدة الحق سبحانه انقسم الناس قسمين: فقسم غابوا في مشاهدة الحق سبحانه عما سواه وقسم، وهم أكمل غابت أرواحهم في مشاهدة الحق سبحانه وبقيت ذواتهم في مشاهدة النبي ﷺ، فلا مشاهدة أرواحهم تغلب مشاهدة ذواتهم، ولا مشاهدة ذواتهم تغلب مشاهدة أرواحهم.

قال رضي الله عنه: وإنما كان هذا القسم أكمل لأن مشاهدتهم في الحق سبحانه أكمل من مشاهدة القسم الأول، وإنما كانت مشاهدتهم في الحق سبحانه أكمل، لأنهم لم ينقطعوا عن مشاهدة النبي ﷺ التي هي سبب في الارتقاء في مشاهدة الحق سبحانه، فمن زاد في مشاهدته ﷺ زيد له في مشاهدة الحق سبحانه ومن نقص منها نقص له.

قال رضي الله عنه: ولو كان الاختيار للعبد وكان عمره تسعين سنة مثلاً، لاختار في جميع هذه المدة أن لا يشاهد إلا النبي ﷺ وقبل موته بيوم يفتح له في مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، فإنه يحصل له في هذا اليوم من الفتح في مشاهدة الحق سبحانه وتعالى لأجل رسوخ قدمه في مشاهدة النبي ﷺ أكثر مما يحصل لمن فتح له في المشاهدتين معاً في تلك المدة من أولها إلى آخرها.

ثم جعل رضي الله عنه مرآة بين عينيه وجعل ينظر في الحروف فقال: أليس إن الذي يظهر في الحروف وصفائها في النظر يتبع صفاء المرآة وحسن مائها؟

فقلت: نعم، فقال رضي الله عنه: فمشاهدة النبي ﷺ بمنزلة المرآة، ومشاهدة الحق سبحانه بمنزلة الحروف، فعلى قدر الصفاء في المشاهدة النبوية يحصل الصفاء، ويزول الغمام في المشاهدة النبوية يحصل الصفاء، ويزول الغمام في المشاهدة للذات الأزلية.

قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: سمعت هذا الكلام منه رضي الله عنه، وقد سأله بعض فقهاء الأشراف أيمكن أن يترك الولي الصلاة؟

فقال رضي الله عنه: لا يمكن أن يترك الولي الصلاة، وكيف يمكنه ذلك؟ وهو دائماً يكوى بمشها بين: فذاته تكوى بمشهاب مشاهدة النبي ﷺ، وروحه تكوى بمشهاب مشاهدة الحق سبحانه، وكل من المشاهدتين يأمره بالصلاة وغيرها من أسرار الشريعة.

وقال رضي الله عنه مرة أخرى: كيف يترك الولي الصلاة؟ والخير الذي حصل له في المشاهدتين، إنما حصل له بعد سقي ذاته بأسرار ذات النبي ﷺ، وكيف تسقى ذات بأسرار الذات الشريفة ولا تفعل ما تفعله الذات الشريفة، هذا لا يكون». انتهت عبارته في الباب التاسع.

وقال في الباب الخامس: واعلم وفقك الله إن الولي المفتوح عليه يعرف الحق والصواب، ولا يتقيد بمذهب من المذاهب، ولو تعطلت المذاهب بأسرها لقدر على إحياء الشريعة وكيف لا وهو الذي لا يغيب عنه النبي ﷺ طرفة عين ولا يخرج عن مشاهدة الحق جل جلاله لحظة وحينئذٍ فهو العارف بمراد النبي ﷺ، بمراد الحق جل جلاله في أحكامه التكليفية وغيرها.

وإذا كان كذلك فهو حجة على غيره وليس غيره حجة عليه، لأنه أقرب إلى الحق من غير المفتوح عليه، وحينئذٍ فكيف يسوغ الانكار على من هذه صفته، ويقال: إنه خالف مذهب فلان في كذا ثم أطال الكلام في ذلك، فراجعه إن شئت.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[استحضار صورة النبي ﷺ في الذهن]

قوله وقد سئل رضي الله عنه بأسئلة منها: سيدي هل استحضار صورة النبي ﷺ في ذهن المؤمن، وتشخصه إياها هو من عالم الروح، أو من عالم المثال، أو من عالم الخيال؟ وهل الصورة الذهنية، وما اشتملت عليه من تعقل المحادثة والمكالمة، محفوظ صاحبها من الشيطان مثل الرؤيا المنامية عملاً بقوله ﷺ: «من رآني فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يستطيع أن

يتمثل بي»[١] أو كما قال ﷺ: **«أو هي ليست مثلها أجيبوا مأجورين، وعليكم أزكى تحية وسلام»**.

فأجاب رضي الله عنه بأن ذلك الاستحضار من روح الشخص وعقله، فمن توجه بفكره إليه ﷺ وقعت صورته في ذهنه، فإن كان ممن يعلم صورته الكريمة لكونه صحابياً أو من العلماء الذين عنوا بالبحث عنها، ثم حصلوها، فإنها تقع في فكره على نحو ما هي عليه في الخارج، وإن كان من غير هذين فإنه يستحضره ﷺ في صورة آدمي في غاية الكمال في خلقه وخلقه، فقد توافق الصورة التي في فكره ما في الخارج وقد تخالفه، والحاضر في الفكر هو صورة ذاته ﷺ لا صورة روحه عليه الصلاة والسلام، فإن الذي شاهده الصحابة رضي الله عنهم وأخبر عنه العلماء، هو الذات لا الروح الشريفة، ولا يجول الفكر إلا في ما يعلمه الشخص ويعرفه فقولكم هل هو من عالم الروح إن أردتم به الاستحضار فهو من عالم الروح أي من روح المتفكر، وإن أردتم به الحاضر أي فهل الحاضر في أفكارنا روحه ﷺ فقد سبق أنه ليس إياها، وإن المحادثة والمكالمة إذا حصلت لهذا المتفكر، فإن كانت ذاته طاهرة وتحبها روحه الشريفة ﷺ ولم تحجب عنها أسرارها، وكانت معها كالخليل مع خليله، فالمحادثة معصومة، وهي حق، وإن كانت الذات على العكس فالأمر على العكس، والله الموفق.

قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: وقد ذكرت له رضي الله عنه ذات يوم، أن بعض الصالحين كان يذكر مع جماعة من أصحابه، ثم إن بعضهم تبدل لونه وتغير حاله وبدل جلسته، فقيل له لِمَ فعلت هذا؟

فقال: واعلموا إن فيكم رسول الله، يريد أن النبي ﷺ، حضرهم في تلك الساعة وأنه شاهد ذلك.

فقلت للشيخ رضي الله عنه: هل هذه المشاهدة التي وقعت لهذا الرجل مشاهدة فتح أو مشاهدة فكر، فقال: مشاهدة فكر لا مشاهدة فتح ومشاهدة الفكر، وإن كانت دون مشاهدة الفتح، إلا أنها لا تقع إلا لأهل الإيمان الخالص والمحبة الصافية والنية الصادقة، وبالجملة فهي لا تقع إلا لمن كمل تعلقه بالنبي ﷺ، وكم من واحد تقع له هذه المشاهدة فيظنها مشاهدة فتح، وإنما هي مشاهدة فكر، وهذا القسم الذي تقع له هذه المشاهدة هو غير مفتوح عليه، وإذا قيس مع عامة المؤمنين كانوا بالنسبة إليه كالعدم ويكون إيمانهم بالنسبة إلى إيمانه كلا شيء. والله أعلم.

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٤: ١٥٥١).

وقال ابن المبارك رحمه الله تعالى: سمعت من بعض الثقات ممن كان يرى النبي ﷺ في اليقظة، وكان يشم رائحة مدينة النبي ﷺ من مدينة فارس، ذهبنا إلى الحج فلما زرت قبر النبي ﷺ أخذتني حالة، وقلت يا رسول الله، ما ظننت أني أصل إلى مدينتكم ثم أرجع إلى فارس، فسمعت صوتاً من قبل القبر الشريف وهو يقول: إن كنت مخزوناً في هذا القبر فمن جاء منكم فليبق هٰهنا، وإن كنت مع أمتي حيثما كانت فارجعوا إلى بلادكم، قال فرجعت إلى بلادي.

ثم قال في الباب السادس من الإبريز: ونذكر هنا قصة النفر من الصحابة رضوان الله عليهم الذين جاؤا إلى دار النبي ﷺ فسألوا أزواجه عن عبادته ﷺ وقيامه وصيامه، فذكرن لهم عبادته ﷺ فاستقلوها، ثم قالوا: لسنا كالنبي ﷺ فإنه عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ثم قال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر كله، وقال الآخر: أما أنا فأقوم الليل كله ولا أنام، وقال الآخر: أما أنا فلا أقارب النساء، ثم ذهبوا وجاء النبي ﷺ على إثرهم فأخبرته عائشة رضي الله عنها بما رأت منهم وبما قالوا فدعاهم النبي ﷺ وقال لهم: «أما أنا فأخشاكم لله وأتقاكم له، وأعلمكم به، وإني أصوم، وأفطر، وأقوم، وأنام، وأقارب النساء. ومن رغب عن سنتي فليس مني» وهم على اختلاف الرواة فيهم أبو بكر وعلي وسعد بن أبي وقاص، وعبد لله بن عمرو وعبد الله بن مسعود وعثمان ابن مظعون رضي الله عنهم.

ثم قال السهروردي في العوارف ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الحجرات: ٢] كان ثابت بن قيس ابن شماس في أذنه وقر وكان جهوري الصوت، وكان إذا تكلم جهر بصوته، وربما كان يكلم النبي ﷺ فيتأذى بصوته، فأنزل الله الآية تأديباً له ولغيره، ثم بعد أن ذكرو رواية في سبب نزولها وأنها نزلت في منازعة أبي بكر وعمر بحضرته قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لا يسمع كلامه حتى يستفهم.

وقيل: لما نزلت الآية إلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبي ﷺ إلا كأخي السرار، فهكذا ينبغي أن يكون المريد مع شيخه فلا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك والكلام، إلا إذا باسطه الشيخ فرفع الصوت إلقاءً لجلباب الحياء والوقار، وإذا سكن القلب عقل اللسان وقد ينال باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع معه أن يشبع من النظر إلى الشيخ، ثم قال: قال ابن عطاء في قوله: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ٢] زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحد إلى ما فوقه في ذلك، وقال سهل: لا تخاطبوه إلا مستفهمين، وقال أبو بكر بن طاهر: لا تبدؤوه بالخطاب ولا تجيبوه إلا على حدود الحرمة ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ

لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] أي لا تغلظوا له في الخطاب، ولا تنادوه باسمه يا محمد، يا أحمد كما ينادي بعضكم لبعض، ولكن فخموه وعظموه، وقولوا يا نبي الله يارسول الله ﷺ.

ثم قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: وكنت مع الشيخ رضي الله عنه ذات يوم بباب الحديد فنظر إليَّ وقال: لا يطمع أحد في معرفة الله تعالى، وهو لا يعرف الرسول ﷺ، ولا يطمع أحد في معرفة الرسول ﷺ وهو لا يعرف شيخه، ولا يطمع أحد في معرفة شيخه وهو لم يصل على الناس صلاته على الجنازة.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[لواء الحمد بيده ﷺ يوم القيامة]

قوله في سياق الكلام على الأشياخ الذين ورثهم رضي الله عنه وعنهم أنه ﷺ يكون بيده يوم القيامة لواء الحمد، وهو نور الإيمان وجميع الخلائق خلفه من أمته ومن غير أمته مع سائر الأنبياء، وتكون كل أمة تحت لواء نبيها، ولواء نبيها يستمد من لواء النبي ﷺ، وهم مع أممهم على أحد كتفيه، وأمته المطهرة على الكتف الآخر وفيها الأولياء بعد الأنبياء، ولهم ألوية مثل ما للأنبياء، ولهم من الأتباع مثل ما للأنبياء ويستمدون من النبي ﷺ ويستمد أتباعهم منهم، كحال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[أسماء الله الحسنى]

ما ذكره في الإبريز وسمعته رضي الله عنه يقول في أسماء الله الحسنى: إن معانيها حصلت للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من مشاهدات، فمن شاهد معنى وضع له اسماً، فالمعاني ظهرت على قدر مشاهدتهم في الله عز وجل، والأسماء خرجت منهم بحسب ذلك، قال رضي الله عنه: فجميع الأسماء حصلت بوضع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسيدنا إدريس عليه السلام أول من وضع عليماً، وقوياً، وعظيماً، ومناناً، وهكذا كل نبي وضع شيئاً منها، ولكنهم وضعوها بلغتهم. ومزية القرآن أنه جمعها كلها وأتى بها مع ذلك بلغة العرب لا بألسنة الأنبياء المتقدمين.

قال رضي الله عنه: وأول من وضع اسم الجلالة أبونا آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وذلك إن الله سبحانه وتعالى لما نفخ فيه الروح نهض مستوفزاً، فقام على رجل واتكأ

على ركبة الرجل الأخرى، فحصلت له في تلك الحالة مع ربه مشاهدة عظيمة، فأنطق الله لسانه بلفظ يؤدي الأسرار التي شاهدها من الذات العلية، فقال الله وقد خرج في علمه سبحانه وتعالى أن يتسمى بهذه الأسماء الحسنى، فلذا أجراها على ألسنة أنبيائه وأصفيائه. قال رضي الله عنه ولو وضع سيد الوجود ﷺ للمعاني التي حصلت له من مشاهداته التي لا تطاق أسماء لذاب كل من سمعها، ولكنه سبحانه وتعالى لطيف بعباده والله أعلم.

قال ابن المبارك: بعدما ذكروا إياك أن تظن أن هذا الكلام فيه مخالفة للعقيدة، وهي إن الأسماء الحسنى قديمة، فإن المراد بقدمها قدم معانيها لا ألفاظها الحادثة، لأن كل لفظ عرض، وكل عرض فهو حادث، لا سيما إذا كان سيالاً مثل الألفاظ والأصوات وذلك واضح والله أعلم.

ثم ذكر الشيخ رضي الله: عنه أن الأولياء يسقون بأنوار الأسماء الحسنى فمنهم من يسقى بواحدة فيدوم حكمه عليه من ضحك دائماً أو بكاء دائماً أو غير ذلك، ومنهم من يسقى بإثنين، ومنهم من يسقى بأكثر من ذلك.

قال ابن المبارك: فقلت: وبكم سقيتم انتم؟ فقال رضي الله عنه وهو الصادق في ما يقول: سقيت بسبعة وتسعين اسماً بالمائة كلها إلا ثلاثة.

فقلت: إنما هي تسعة وتسعون فقال رضي الله عنه والمكمل للمائة لم يعد فيها لأن الناس لا يطيقونه وهو اسم الله العظيم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى.

وسمعت منه في آخر أمره رضي الله عنه: أنه سقي بالعدد كله أعني المائة وإن السقي بها ينقسم إلى سقيين.

أحدهما: في مقام الروح، فمن الأولياء من يسقي بواحد، ومنهم من يسقى بأكثر ولا يكمل المائة كلها إلا الغوث.

السقي الثاني: في مقام السر قال رضي الله عنه: ولا يستكمل المائة فيه مخلوق من المخلوقات إلا سيد الوجود ﷺ.

ثم قال: وسمعته رضي الله عنه يتكلم على أسمائه تعالى وعلى الذين يذكرونها في أورادهم فقال رضي الله عنه: إن أخذوها عن شيخ عارف لم تضرهم وإن أخذوها عن غير عارف ضرتهم، فقلت: وما السبب في ذلك؟

فقال رضي الله عنه: الأسماء الحسنى لها أنوار من أنوار الحق سبحانه وتعالى، فإذا أردت أن تذكر الاسم، فإن كان مع الاسم نوره وأنت تذكره لم يضرك، وإن لم يكن مع الاسم

نوره الذي يحجب العبد من الشيطان حضر الشيطان وتسبب في ضرر العبد، والشيخ إذا كان عارفاً وهو في حضرة الحق دائماً وأراد أن يعطي إسماً من أسماء الله الحسنى لمريده أعطاه ذلك الاسم مع النور الذي يحجبه فيذكره المريد ولا يضره، ثم هو، أي النفع به على النية التي أعطاه الشيخ ذلك الاسم بها فإن أعطاه بنية إدراك الدنيا أدركها، أو بنية إدراك الآخرة أدركها، أو بنية معرفة الله تعالى أدركها. وأما إن كان الشيخ الذي يلقن الاسم محجوباً فإنه يعطي مريده مجرد الاسم من غير نور حاجب فيهلك المريد، نسأل الله السلامة

فقلت: فالقرآن العزيز فيه الأسماء الحسنى وحملته يتلونه ويتلون الأسماء الحسنى التي فيه دائماً، ولا تضرهم فما السبب في ذلك مع أنهم لا يأخذونها عن شيخ عارف؟

فقال رضي الله عنه: سيدنا ونبينا ومولانا محمد ﷺ أرسله الله بالقرآن، لكل من بلغه القرآن من زمانه ﷺ إلى يوم القيامة، فكل تال للقرآن فشيخه فيه هو النبي ﷺ، فهذا سبب حجب حملة القرآن نفعنا الله بهم، ثم هو ﷺ لم يعط لأمته الشريفة القرآن إلا بقدر ما يطيقونه ويعرفونه من الأمور الظاهرة التي يفهمونها، ولم يعطهم القرآن بجميع أسراره وأنواره وأنوار الأسماء التي فيه، ولو كان أعطاهم ذلك بأنواره لما عصى أحد من أمته، ولكانوا كلهم أقطاباً ولما تضرر أحد بالأسماء قط.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[عدم استطاعة المخلوقات تحمّل نوره ﷺ]

قول صاحب الإبريز: وسمعته رضي الله عنه يقول: إني لم أزل أتعجب من الولي الذي يقول إنه: يملأ الكون، وذلك لأن للكون باباً منه يقع الدخول إليه وهو النبي ﷺ، ولا يطيق مخلوق من المخلوقات أن يحمل نوره ﷺ، ومن عجز عن الباب فكيف يطيق غيره؟ اللهم إلا أن يكون دخل من غير باب، يعني فيكون فتحه شيطانياً ظلمانياً، وهذا لا يملأ بيته فضلاً عن داره فضلاً عن شيء آخر.

قال رضي الله عنه: واعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسموات وأرضين وجنات وحجب وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلها وجدت بعضاً من نور النبي ﷺ، وإن مجموع نوره ﷺ لو وضع على العرش لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع عليها ذلك النور العظيم لتهافتت وتساقطت، وإذا كان هذا شأن نوره ﷺ فكيف يكون من يقول أنه يملأ الكون؟ فأين تكون ذاته إذا بلغت المدينة المشرفة وقربت من القبر الشريف؟ أم كيف تكون إذا تصاعدت نحو البرزخ

وقربت من الموضع الذي فيه النور العظيم القائم بالروح الشريفة؟ أفتكون ذاته حاملة له والمخلوقات بجملتها عاجزة عنه؟ أم يتخطى ذلك الموضع؟ فلم يملأ الكون والفرض أن الموضع المذكور آخذ من القبر الشريف إلى قبة البرزخ تحت العرش؟

ولعله أراد بالكون ما بين السماء والأرض ما عدا موضع البرزخ الذي فيه النور المعظم، فقلت: ولعله أنه يملؤه من حيث النور، أي يملؤه بنوره لا بذاته كالشمس التي سطعت على السموات والأرض.

فقال رضي الله عنه: وما مراده إلا أنه يملؤه بنوره ولا يريد أنه يملؤه بذاته ولكن أين نوره من نور المصطفى ﷺ، فإن ذلك النور من النور المكرم بمنزلة الفتيلة في وسط النهار وقت الظهيرة وهل يصح أن يقال أن تلك الفتيلة كسفت نور الشمس؟ فقلت: ونور الشمس من النور المكوم بمنزلة الفتيلة، فما باله ملأ الأكوان؟ فقال رضي الله عنه: لم يملأ الأكوان بمعنى أن النور المكرم ذهب بسببه، واضمحل، فكيف؟ ونور الشمس إنما هو من نور أرواح المؤمنين الذي هو من نوره ﷺ، وإنما سبب ذلك أنّا حجبنا عن مشاهدة النور المكرم كما حجبنا عن مشاهدة أنوار الأولياء فلو كشف الحجاب لكانت الأنوار من النور المكرم بمنزلة الفتائل وسط النهار، ولم يظهر الشمس ولا لغيرها نور الا كما يظهر للفتائل وسط النهار.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[سعة معرفته ﷺ]

جوابه رضي الله عنه عن كلام صاحب الإحياء في كتاب التفكر حيث قال: إن سيدنا جبريل أعلم من سيد الأولين والآخرين ﷺ بقوله رضي الله عنه: لو عاش سيدنا جبريل مائة ألف عام إلى مائة ألف عام إلى ما لا نهاية له ما أدرك ربعاً من معرفة النبي ﷺ، ولا من علمه بربه تعالى، وكيف يمكن أن يكون سيدنا جبريل أعلم وهو إنما خلق من نور النبي ﷺ، فهو وجميع الملائكة بعض نوره ﷺ، وجميعهم وجميع المخلوقات يستمدون المعرفة منه ﷺ، وقد كان الحبيب ﷺ مع حبيبه عز وجل حيث لا جبريل ولا غيره، واستمد ﷺ من ربه تعالى إذ ذاك ما يليق بعطية الكريم وجلاله وعظمته مع حبيبه ﷺ، ثم بعد ذلك بمدة مديدة جعل تعالى يخلق من نوره الكريم ﷺ جبريل وغيره من الملائكة.

قال رضي الله عنه: وجبريل وجميع الملائكة وجميع الأولياء أرباب الفتح، وحتى الجن يعرفون أن سيدنا جبريل عليه السلام حصلت له مقامات في المعرفة وغيرها ببركة صحبته للنبي ﷺ بحيث لو عاش سيدنا جبريل عليه السلام طول عمره ولم يصحب سيد الوجود ﷺ

وسعى في تحصيلها وبذل المجهود والطاقة، ما حصل له مقام واحد منها، فالنفع الذي حصل له من النبي ﷺ لا يعرفه إلا من هو ومن فتح الله عليه.

قال رضي الله عنه: وسيدنا جبريل إنما خلق لخدمة النبي ﷺ، وليكون من جملة حفظة ذاته الشريفة ﷺ، ونيسة له إذ هو ﷺ سر الله من هذا الوجود، وجميع الموجودات تستمد منه فيحتاج إلى مشاهدتها، وذاته الشريفة خلقت من تراب كذوات بني آدم فهي لا تألف إلا ما يشاكلها، فإذا شاهد ما لا يشاكله، آنسه جبريل، ثم ذكر لنا رضي الله عنه: أن صور الملائكة تفجع هذه الذوات وتدهشها، لكونها على صورة لا تعرف مع كثرة الأيدي والأرجل والرؤوس والوجوه، وكونها على سعة عظيمة بحيث تملأ ما بين الخافقين.

قال رضي الله عنه: ولا يعلم ذلك إلا من فتح عليه، فكان سيدنا جبريل ونيسة للذات الترابية الشريفة في أمثال هذه الأمور، وأما روحه الشريفة ﷺ فإنها لا تهاب شيئاً من هذه الصور ولا من غيرها لأنها عارفة بالجميع.

قال ابن المبارك: فقلت: ولم كانت الروح الشريفة لا تكفي في الونيسة؟ فقال رضي الله عنه: لأن الذات لا تشاهدها منفصلة عنها، والوحدانية لله تعالى وحده لا يطيق الدوام عليها إلا ذاته تعالى ومن عداه شفع يحب الشفع ويميل إليه.

قال رضي الله عنه: وسيدنا جبريل إنما كان ونيسة في ما تطيقه ذاته ويعرفه مما هو تحت سدرة المنتهى.

أما ما هو فوق ذلك من الحجب السبعين والملائكة الذين فيها فإنه لم يكن ونيسة في ذلك، لأنه، أي سيدنا جبريل عليه السلام، لا يطيق مشاهدة ما فوق سدرة المنتهى لقوة الأنوار، ولهذا ذهب ﷺ في قطع تلك الحجب وحده ولم يذهب معه جبريل عليه السلام، وطلب منه الذهاب معه فقال: لا أطيقه، وإنما تطيقه أنت الذي قواك الله عليه.

وتكلمت معه في أمر الوحي وكيفية تلقي النبي ﷺ له، وهل يتلقاه بواسطة جبريل، كما هو ظاهر كغيره من الآي أولا؟ فأتى فيه بكلام لا تطيقه العقول فلا ينبغي كتبه والله أعلم.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[شرح الصلاة المشيشية]

ما ذكره في شرح الصلاة المشيشية، للقطب الكامل الوارث الواصل الموصل، مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وهي، **اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت**

الأنوار، وفيه ارتفعت الحقائق، وتنزلت علوم آدم، فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنوار متدفقة، ولاشيء إلا هو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب، كما قيل، المرسوط، صلاة تليق بك منك إليه كما هو أهله. أللهم إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك. أللهم ألحقني بنسبه، وحققني بحسبه، وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل، واحملني على سبيله إلا حضرتك حملاً محفوظاً بنصرتك، واقذف بي على الباطل فأدمعه، وزج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي وروحه سرَّ حقيقتي، وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول، يا أول يا آخر يا ظاهر، يا باطن، اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا، وانصرني بك لك، وأيدني بك لك، والجمع بيني وبينك، وحل، بيني وبين غيرك، الله، الله، الله، إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ربنا، آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: سمعته رضي الله عنه يقول في شرح قوله: اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، حاكياً عن سيدي محمد بن عبد الكريم البصري رضي الله عنه: أن الله تعالى لما أراد إخراج بركات الأرض وأسرارها مثل ما فيها من العيون والآبار والأنهار والأشجار والثمار والأزهار، أرسل سبعين ألف ملك إلى سبعين ألف ملك، إلى سبعين ألف ملك، ثلاث سبعينات من الألوف، فنزلوا يطوفون بالأرض، فالسبعون الأولى: يذكرون اسم النبي ﷺ ومرادنا بالاسم الاسم العالي على ما يأتي في شرح وتنزلت علوم آدم والسبعون الثانية: يذكرون قربه ﷺ من ربه عز وجل ومنزلته ﷺ منه. والسبعون الثالثة: تصلي عليه ﷺ ونوره ﷺ مع الطوائف الثلاث.

فتكونت الكائنات ببركة ذكر اسمه ﷺ، وحضوره بينها، ومشاهدتها قربه ﷺ من ربه عز وجل، قال: وذكروه على الأرض فاستقرت، وعلى السموات فاستقلت، وعلى مفاصل ذات ابن آدم فلانت بإذن الله تعالى، وعلى مواضع عينيه ففتحت بالأنوار التي فيها، فهذا معنى قوله انشقت منه الأسرار.

فقلت: فهذا معنى قول دلائل الخيرات، وبالاسم الذي وضعته على الليل فأظلم، وعلى النهار فاستنار، وعلى السموات فاستقلت، وعلى الأرض فاستقرت، وعلى الجبال فرست، وعلى البحار فجرت، وعلى العيون فنبعت، وعلى السحاب فأمطرت، فقال رضي الله عنه:

نعم ذلك الاسم هو اسم نبينا ومولانا محمد ﷺ، فببركته تكونت الكائنات والله أعلم.

وقد سبق كلام سيدي أحمد بن عبد الله الغوث رضي الله عنه، وقوله لمريده: يا ولدي، لولا نور سيدنا محمد ﷺ ما ظهر سر من أسرار الأرض إلى آخره...

قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول في شرح «من منه انشقت الأسرار»: إنه لولا هو ﷺ ما ظهر تفاوت الناس في الجنة والنار، ولكانوا كلهم على مرتبة واحدة فيهما، وذلك أنه تعالى لما خلق نوره ﷺ وسبق في سابق علمه تفاوت الناس في قبوله والميل عنه، ظهر ذلك عليهم، حيث خلق ذلك النور، فعلم هناك أن منهم من يبلغ من الخشوع درجة كذا، ومن المعرفة درجة كذا، ومن الخوف درجة كذا، وإن لون كذا من نوع كذا، وفلاناً شرب منه نوعاً آخر قبل ظهورهم، وهم في عدم العدم. قال رضي الله عنه: فتفاوت المراتب، وتباينها هو معنى انشقاق الأسرار منه ﷺ.

قال: وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول في شرح «من منه انشقت الأسرار»: إن أسرار الأنبياء والأولياء وغيرهم كلها مأخوذة من سر سيدنا محمد ﷺ، فإن له سرين: أحدهما في المشاهدة، وهو موهوب. والآخر يحصل من هذا السر وهو مكسوب، فلنفرض المشاهدة بمثابة ثوب، ما بقي صاحب حرفة من الحرف إلا وصنع فيه شيئاً من صنعه، ولنفرض صاحب المشاهدة كشارب لذلك الثوب بأسره فإذا شرب الخيط الذي صنعه الحرار مثلاً أمده الله تعالى بمعرفة صناعة الحرير وكل ما تحتاج إليه في أمورها وشؤونها كلها، وإذا شرب الخيط الذي صنعه النساج مثلاً أمده الله تعالى بصناعة النسج ومعرفة جميع ما تتوقف عليه، وهكذا... حتى تأتي على سائر الصنائع والحرف التي نعرفها والتي لا نعرفها فهكذا مشاهدته ﷺ مشتملة على جميع المعارف التي سبقت بها إرادته تعالى.

قال ابن المبارك رحمه الله: قلت: ووجه الشبه بينها وبين الثوب السابق تباين الأمور، ففي الثوب السابق تباينت فيه الصنائع والحرف، وفي المشاهدة الشريفة تباينت الأسماء الحسنى، وظهرت فيها أسرارها وأنوارها. ووجه آخر أن الصنائع المتباينة اجتمعت كلها في الثوب السابق وكذا أنوار الأسماء الحسنى كلها اجتمعت في مشاهدته ﷺ. ووجه آخر: أن تلك الصنائع المتباينة بمعرفتها يقع التصرف في موضوعاتها، وكذا الأسماء الحسنى بالسقي بأنوارها يقع التصرف في هذا العالم، فوجه الشبه حينئذٍ مركب من مجموع هذه الأشياء الثلاثة وهي تباين الأمور في شيء مع استيفائها فيه، وكون التصرف يضاف اليها والله أعلم.

ثم قال رضي الله عنه: فتكون ذاته ﷺ مشتملة على جميع ما يلزم في تلك المشاهدة، وممدودة بسائر أسرارها من رحمة الخلق ومحبتهم والعفو عنهم والصفح والحلم والدعاء لهم

بخير، لعل الله تعالى يقويهم على الإيمان بالله عز وجل.

قال رضي الله عنه: وبهذا كان ﷺ يدعو لأبي بكر الصديق رضي الله عنه والناس اليوم لا يعرفون قيمة هذا الدعاء.

قال ابن المبارك رحمه الله: قلت: يعني أنه لما فرضنا المشاهدة مشتملة على سائر الأسماء الحسنى، وفرضنا صاحبها ﷺ كالشارب السابق للثوب السابق، لزم قطعاً أن تكون ذاته ﷺ مسقية بجميع أنوار الأسماء الحسنى، وممدودة بأسرارها فيكون في ذاته ﷺ نور الصبر، ونور الرحمة، ونور الحلم، ونور العفو، ونور المغفرة، ونور العلم، ونور القدرة، ونور السمع، ونور البصر ونور الكلام، وهكذا حتى تأتي على جميع الأسماء الحسنى، فتكون أنوارها في الذات الشريفة على الكمال، وهكذا حتى تأتي على جميع الأسماء الحسنى، فتكون أنوارها في الذات الشريفة على الكمال. ثم قال الشيخ رضي الله عنه: فتلتفت إلى غيره ﷺ من الملائكة والأنبياء والأولياء فنجدهم قد تفرق فيهم بعض ما في الذات الشريفة مع كون السقي وصل إليهم من الذات الشريفة، فالأسرار الموجودة في ذواتهم انشقت منه ﷺ حتى إني سمعته رضي الله عنه يقول لولا الدم الذي في الذات واللحم والعروق المانع من معرفة حقائق الأمور لم يتكلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منذ وجدوا إلى أن ظهر نبينا ﷺ إلا بأمر نبينا ﷺ، فلا تكون إشارتهم إلا إليه، ولا تكون دلالتهم إلا عليه حتى أنهم يصرحون لكل من تبعهم بأنهم إنما ربحوا منه، وإن مددهم جميعاً إنما هو منه ﷺ، وأنهم في الحقيقة نائبون عنه، لا مستقلون، وأنهم بمنزلة أولاده ﷺ وهو ﷺ بمنزلة الأب لهم حتى يكون الخلق كلهم فيه سواء، ودعوة الجميع إليه ﷺ واحدة، فإن هذا هو الكائن في نفس الأمر والأمم الماضية بمجرد موتهم وانفصالهم عن هذه الدار يعلمونه، وفي الآخرة يظهر لهم عياناً، وعند دخول الجنة يقع الفصل بينهم وبين الجنة، حيث تنكمش عنهم وتنقبض وتقول لهم: لا أعرفكم، لستم من نور محمد ﷺ: فيقع الفصل بأنهم، وإن سبقوا عليه، فهم مستمدون من أنبيائهم وأنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام، مستمدون من النبي ﷺ فإذا الجميع مستمد منه ﷺ. قال رضي الله عنه لولا الدم وما سبق في الإرادة الأزلية، لكان هذا الواقع في دار الدنيا.

فقلت: ولم منع هذا الدم من معرفة الحق؟ فقال رضي الله عنه: لأنه يجذب الذات إلى أصلها الترابي، ويميل بها إلى الأمور الفانية، كالبناء والغرس، ولجمع الأموال وغير ذلك... يميل بها إلى ذلك في كل لحظة، وهو عين الغفلة، والحجاب عنه تعالى، ولولا ذلك الدم لم تلتفت الذات إلى شيء من هذه الأمور الفانية أصلاً.

قال ابن المبارك: قلت: ولا يخفى أن حجابيته تختلف، فهي كثيفة في حق العوام،

ضعيفة في حق الخواص، وتقرب من الانتفاء في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنتفية رأساً على حق سيد الأولين والآخرين ﷺ.

وسمعته رضي الله عنه يقول في قوله: أي في قول سيدي عبد السلام ابن مشيش «وانفلقت الأنوار»: إن أول ما خلق الله تعالى نور سيدنا محمد ﷺ، ثم خلق منه القلم، والجنة والبرز.

أما العرش، فإنه خلقه تعالى من نور، وخلق ذلك النور من النور المكرم، وهو أي النور المكرم، نور نبينا ومولانا محمد ﷺ، وخلقه، أي، العرش، يا قوتة عظيمة لا يقاس قدرها وعظمها، وخلق في وسط هذه الياقوته جوهرة، فصار مجموع الياقوتة والجوهرة كبيضة بياضها هو الياقوتة وصفارها هو الجوهر، ثم أن الله تعالى أمد تلك الجوهرة وسقاها بنوره ﷺ، فجعل يخرق الياقوتة ويسقي الجوهرة، فسقاها مرة،ثم مرة، ثم مرة، إلى أن انتهى إلى سبع مرات، فسالت الجوهرة بإذن الله تعالى فرجعت ماء. ونزلت إلى أسفل الياقوتة التي هي العرش.

ثم إن النور المكرم الذي خرق العرش إلى الجوهرة التي سالت ماء لم يرجع، فخلق الله منه ملائكة ثمانية، وهم حملة العرش فخلقهم من صفائه وخلق من ثقله الريح، ولها قوة وجهد عظيم فأمرها تعالى أن تنزل تحت الماء، فسكنت تحته، فحملته، ثم جعلت تخدم وجعل البرد يقوى في الماء، فأراد الماء أن يرجع إلى أصله ويجمد فلم تدعه الرياح، بل جعلت تكسر شقوقه التي تجمد، وجعلت تلك الشقوق تتعفن ويدخلها الثقل والنتونة، وشقوق تزيد على شقوق، ثم جعلت تكبر وتتسع، وذهبت إلى جهات سبع، وأماكن سبع فخلق الله منه الأرضين السبع ودخل الماء بينها والبحور، وجعل الضباب يتصاعد من الماء لقوة جهد الريح ثم جعل يتراكم فخلق الله منه السموات السبع.

ثم جعلت الريح تخدم خدمة عظيمة على عادتها أولاً وآخراً فجعلت النار تزيد في الهواء من قوة خرق الريح للماء والهواء، وكلما زادت نار أخذتها الملائكة وذهبت بها إلى محل جهنم اليوم، فذلك أصل جهنم، فالشقوق التي تكونت منهاالأرضون تركوها على حالها، والضباب الذي تكونت منه السموات تركوه على حاله أيضاً، والنار زادت في الهواء أخذوها ونقلوها إلى محل آخر، لأنهم لو تركوها لأكلت الشقوق التي منها الأرضون السبع والضباب الذي منه السموات السبع، بل وتأكل الماء وتشربه بالكلية لقوة جهد الريح.

ثم إن الله تعالى خلق ملائكة الأرضين من نوره ﷺ، وأمرهم أن يعبدوه عليها، وخلق ملائكة السموات من نوره ﷺ وأمرهم ان يعبدوه عليها.

وأما الأرواح والجنة إلا مواضع منها، فإنها أيضاً خلقت من نور، وخلق ذلك النور من نوره ﷺ.

وأما البرزخ فنصفه الأعلى من نوره ﷺ. فخرج من هذا أن القلم واللوح ونصف البرزخ والحجب السبعين وجميع ملائكتها وجميع ملائكة السموات والأرضين كلها خلقت من نوره ﷺ بلا واسطة، وإن العرش والماء والجنة والأرواح خلقت من نور خلق من نوره ﷺ. ثم بعد هذا فهذه المخلوقات أيضاً سقيت من نوره ﷺ.

أما القلم فإنه سقي سبع مرات سقياً عظيماً، وهو أعظم النمخلوقات بحيث أنه لو كشف نوره لجرم الأرض لتدكدكت وصارت رميماً. وكذا الماء فإنه سقي سبع مرات ولكن ليس كسقي القلم.

وأما الحجب السبعون فإنها في سقي دائم وأما، العرش فإنه سقي مرتين: مرة في بدء خلقه، ومرة عند تمام خلقه، لتستمسك ذاته. وكذا الجنة فإنها سقيت مرتين، مرة في بدء خلقها، ومرة بعد تمام خلقها، لتستمسك ذاتها.

وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا سائر المؤمنين من الأمم الماضية ومن هذه الأمة فإنهم سقوا ثمان مرات:

الأولى: في عالم الأرواح حين خلق الله نور الأرواح جملة فسقاها.

الثانية: حين جعل يصور منه الأرواح فعند تصوير كل روح سقاها بنوره ﷺ.

الثالثة: يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] فإن كل من أجاب الله تعالى من أرواح المؤمنين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام سقي من نوره ﷺ، لكن منهم من سقي كثيراً، ومنهم من سقي قليلاً، فمن وقع التفاوت بين المؤمنين حتى كان منهم أولياء وغيرهم.

وأما أرواح الكفار، فإنها كرهت شرب ذلك النور وامتنعت منه، فلما رأت ما وقع للأرواح التي شربت منه من السعادة الأبدية والارتقاآت السرمدية ندمت وطلبت سقياً، فسقيت من الظلام والعياذ بالله تعالى.

الرابعة: عند تصويره في بطن رمه وترتيب مفاصله وشق بصره، فإن ذاته تسقى من النور الكريم لتلين مفاصله ويفتح سمعه وبصره، ولولا ذلك مالانت مفاصله.

الخامسة: عند خروجه من بطن أمه فإنه يسقى من النور الكريم ليلهم الأكل من فمه، ولولا ذلك ما أكل من فمه أبداً.

السادسة: عند التقامه ثدي أمه في أول رضعة، فإنه يسقى من النور الكريم أيضاً.

السابعة: عند نفخ الروح فيه، فإنه لولا سقي الذات بالنور الكريم ما دخلت فيها الروح أبداً، ومع ذلك، فلا تدخل فيها إلا بكلفة عظيمة وتعب يحصل للملائكة معها، ولولا أمر الله تعالى لها ومعرفتها به، ما قدر ملك على إدخالها في الذات.

وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول: مثل الملائكة الذين يريدون أن يدخلوا الروح في الذات كعبيد صغار لملك يرسلهم إلى الباشا العظيم ليدخلوه إلى السجن، فإذا نظرنا إلى الغلمان الصغار، والى الباشا العظيم وجدناهم لا يقدرون على معالجة الباشا في أمر من الأمور، وإذا نظرنا إلى الملك الذي أرسلهم وأنه الحاكم في الباشا وغيره حكمنا بأنه يجب أن يذل لهم الباشا وغيره، وإذا أرادوا إدخالها في الذات حصل لها كرب عظيم وانزعاجات كثيرة، وتجعل ترغرغ بصوت عظيم، فلا يعلم ما نزل بها إلا الله تعالى، والله أعلم.

الثامنة: عند تصويره عند: البعث فإنه يسقى من النور الكريم لتستمسك ذاته. قال رضي الله عنه فهذا السقي في هذه المرات الثمان اشترك فيه الأنبياء والمؤمنون من سائر الأمم.

ومن هذه الأمة ولكن الفرق حاصل فإن ما سقي به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قدر لايطيقه غيرهم فلذلك حازوا درجة النبوة والرسالة، وأما غيرهم فكل سقي بقدر طاقته.

وأما الفرق بين سقي هذه الأمة الشريفة وبين سقي غيرها من سائر الأمم فهو أن هذه الأمة الشريفة سقيت من النور الكريم بعد أن دخل في الذات الطاهرة، وهي ذاته ﷺ، فحصل له من الكمال ما لا يكيف ولا يطاق، لأن النور الكريم أخذ سر روحه الطاهرة، ﷺ بخلاف سائر الأمم، فإن النور في سقيها إنما أخذ سر الروح فقط، فلهذا كان المؤمنون من هذه الأمة الشريفة كملاً وعدولاً وسطاً، وكانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ولله الحمد والشكر.

قال رضي الله عنه: وكذا سائر المخلوقات سقيت من النور الكريم، ولولا النور الكريم الذي فيها ما انتفع أحد منها بشيء.

قال رضي الله عنه: ولما نزل سيدنا آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام إلى الألاض كانت الأشجار تتساقط ثمارها في أول ظهورها، فلما أراد الله تعالى إثمارها سقاها من نوره الكريم ﷺ، فمن ذلك اليوم جعلت تثمر، ولقد كانت قبل ذلك كلها ذكاراً تتفتح ثم تتساقط، ولولا نوره ﷺ الذي في ذوات الكافرين، فإنها سقيت به عند تصويرها في البطون، وعند نفخ الروح، وعند الخروج، وعند الرضاع، لخرجت إليهم جهنم وأكلتهم أكلاً ولا تخرج إليهم في الآخرة وتأكلهم حتى ينزع منهم ذلك النور الذي صلحت به ذواتهم.

قال وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول: لما خلق الله تعالى النور الكريم، وخلق بعده القلم والعرش واللوح والبرزخ والجنة وخلق الملائكة الذين هم سكان العرش والجنة والحجب، قال العرش: يارب لِمَ خلقتني؟ فقال الله تعالى: لأجعلك حجاباً تحجب أحبابي من أنوار الحجب التي فوقك، فإنهم لا يطيقونها لأني أخلقهم من تراب.

ولم يكن في ذلك الوقت أعداء ولا دارهم التي هي جهنم، فظن الملائكة أن أحبابه الذين يخلقهم الله تعالى من تراب يخلقهم في الجنة ويسكنهم فيها ويحجبهم بالعرش.

ثم خلق الله تعالى نور الأرواح جملة فسقاه من النور المكرم، ثم ميزه الله تعالى قطعاً قطعاً فصور من كل قطعة روحاً من الأرواح، وسقاهم عند التصوير من النور المكرم أيضاً ثم بقيت الأرواح على ذلك مدة فمنهم من استحلى ذلك الشراب، ومنهم من لم يستحله. فلما أراد الله تعالى أن يميز أحبابه من أعدائه، وأن يخلق لأعدائه دارهم التي هي جهنم جمع الأرواح وقال لهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢] فمن استحلى ذلك النور وكانت منه إليه رقة وحنو عليه أجاب محبة، ورضي زمن لم يستحله أجاب كرهاً وخوفاً فظهر الظلام الذي هو أصل جهنم فجعل الظلام يزيد في كل لحظة، وجعل النور أيضاً يزيد في كل لحظة، فعند ذلك، علموا قدر النور المكرم حيث رأوا من لم يستحله استوجب الغضب، وخلقت جهنم من أجلهم. والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن سقوا من نور لم يشربوه بتمامه، بل كل واحد يشرب منه ما يناسبه، وكتب له، فإن النور المكرم ذو ألوان كثيرة، وأحوال عديدة، وأقسام كثيرة، فكل واحد شرب لوناً خاصاً ونوعاً خاصاً.

قال رضي الله عنه: فسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام شرب من النور المكرم فحصل له مقام الغربة وهو مقام يحمل صاحبه على السياحة وعدم القرار في موضع واحد.

وسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام شرب من النور المكرم فحصل له مقام الرحمة والتواضع مع المشاهدة الكاملة فتراه إذا تكلم مع أحد يخاطبه بلين ويكلمه بتواضع عظيم فيظن المتكلم أنه يتواضع له، وهو إنما يتواضع لله عز وجل لقوة مشاهدته.

وسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام شرب من النور المكرم فحصل له مقام مشاهدة الحق سبحانه في نعمه وخيراته وعطاياه التي لا يقدرها. وهكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكة الكرام. والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إنما ظهر الخير لأهله ببركته ﷺ، وأهل الخير هم الملائكة والأنبياء والأولياء وعامة المؤمنين.

قال ابن المبارك: فقلت: وكيف يفرق بينهم؟ فقال رضي الله عنه: الملائكة ذواتهم من النور، وأرواحهم من النور، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذواتهم من تراب، وأرواحهم من نور، وبين الروح والذات نور آخر هو شراب ذواتهم، وكذا الأولياء غير أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام زادوا عليهم بدرجة النبوة التي لا تكيف ولا تطاق.

وأما عوام المؤمنين فلهم ذوات ترابية وأرواح نورانية، ولذواتهم شبه عرق من ذلك النور الذي للأولياء والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قال رحمه الله: فقلت: وما نسبة هذه الأنوار من نور نبينا محمد ﷺ؟ وكيف استمدادها منه؟ فضرب رضي الله عنه مثلاً عامياً، على عادته نفعنا الله به، وقال: كمن جوع جماعة من القطط مدة حتى اشتاقوا للأكل اشتياقاً كثيراً، ثم طرح خبزة بينهم، فجعلوا يأكلون منها أكلا حثيثاً والخبزة لا ينقص منها قلامة ظفر، فكذا نوره ﷺ تستمد منه العوالم ولا ينقص شيئاً، والحق سبحانه وتعالى يمده بالزيادة دائماً، ولا تظهر فيه الزيادة بأن يتسع فراغها، بل الزيادة باطنة فيه لا تظهر أبداً، كما أن النقص لا يظهر.

فهذا النور المكرم تستمد منه الملائكة والأنبياء والأولياء والمؤمنون، والمدد مختلف كما سبق والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: أنوار الشمس والقمر والنجوم مستمدة من نور البرزخ، ونور البرزخ مستمد من النور المكرم ومن نور الأرواح التي فيه، ونور الأرواح مستمد من نوره ﷺ.

قال رضي الله عنه: وإنما ظهرت الأنوار فيها عند قرب خلق أدم، وبعد خلق الأرض وجبالها فكانت الملائكة والأرواح يعبدون الله تعالى فلم يفجأهم إلا والأنوار ظهرت في الشمس والقمر والنجوم، ففر الملائكة الذين في الأرض من نور الشمس إلى ظل الليل، فجعلت الشمس تنسخه وهم يذهبون معه، إلى أن عادوا إلى المكان الذي بدأوا منه وحصل لهم هول عظيم وظنوا أن ذلك حدث لأمر عظيم فاجتمع ملائكة كل أرض في أرضهم وفعلوا ما سبق.

وأما ملائكة السموات والأرواح التي في البرزخ فإنهم لما رأوا ملائكة الأرض فعلوا ما فعلوا نزلوا معهم إلى الأرض.

فأما أرواح بني آدم فوقفوا مع ملائكة الأض الأولى واجتمع الجميع من ملائكة الأرض

والسموات والأرواح في تلك الليلة، فلما رجعت الشمس إلى موضعها الأول ولم يحدث شيء أمنوا فرجعوا إلى مراكزهم، ثم صاروا يفعلون ذلك كل عام فهذا سبب ليلة القدر والله أعلم.

قال ابن المبارك وسمعته رضي الله عنه يقول في شرح قول ابن مشيش: وفيه ارتفعت الحقائق»: إن المراد بالحقائق أسرار الحق تعالى التي فرقها خلقه وهي ثلاثمائة وستة وستون سراً ظهرت في الحيوانات على ما أراد الحق سبحانه، وظهرت في الجمادات كذلك، وهكذا سائر المخلوقات.

قال رضي الله عنه: ففي النبات مثلاً سر منها، وهو النفع، فهذا النفع حقيقة من حقائق الحق سبحانه أي المتعلقة به، لأن كل حق فهو متعلق به سبحانه كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

ثم هذا النفع ارتقى في النبي ﷺ ويبلغ مقاماً لم يكن لغيره، ألا ترى النفع السابق في استمداد المكونات كلها من نوره ﷺ ولم يثبت هذا المخلوق.

قال رضي الله عنه: وفي الأرض مثلاً سر الحمل لما فيها، وهو حقيقة من حقائق الحق سبحانه وقد ارتقى في النبي ﷺ إلى حد لا يطاق، حتى أنه لو جعل ما فيه من الأسرار والمعارف على المخلوقات لتهافتوا ولم يطيقوا ذلك.

وفي أهل المشاهدة مثلاً سر من الأسرار، وهو أنهم لا يغفلون عنه تعالى طرفة عين، وهذا المعنى ارتقى فيه النبي ﷺ إلى حد لا يطاق كما سبق في مشاهدته الشريفة.

وفي الصديقين سر من أسرار الحق سبحانه، وهو الصدق، ارتقى في النبي ﷺ إلى حد لا يطاق، وفي أهل الكشف سر من أسرار الحق سبحانه، وهو معرفة الحق على قدر السقي من أنوار الحق سبحانه.

ولما كان النبي ﷺ هو الأصل في الأنوار، ومنه تفرقت، لزم أن الحقائق ارتقت فيه على قدر نوره، ونوره لا يطيقه أحد فارتقاء الحقائق الذي فيه لا يطيقه أحد والله أعلم.

قال وسمعته رضي الله عنه يقول في قوله: وتنزلت علوم آدم إن المراد بعلوم آدم ما حصل له من الأسماء التي علمها المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١] والمراد بالأسماء الأسماء العالية، لا الأسماء النازلة، فان كل مخلوق له اسم عال واسم نازل، فالاسم النازل هو الذي يشعر بالمسمى في الجملة، والاسم العالي هو الذي يشعر بأصل المسمى، ومن أي شيء هو، وبفائدة المسمى، ولأيّ شيء يصلح، الفاس من سائر ما يستعمل فيه، وكيفية صنعة الحداد له فيعلم من مجرد سماع لفظه هذه العلوم والمعارف

المتعلقة بالفاس سائر البشر أو لهم بها تعلق، وهي من كل مخلوق تحت العرش إلى ما تحت الأرض فيدخل في ذلك الجنة والنار والسموات السبع وما فيهن وما بينهن، وما بين السماء والأرض، وما في الأرض من البراري والقفار والأودية والبحار والأشجار، فما من مخلوق من ذلك ناطق أو جامد إلا وآدم يعرف من اسمه تلك الأمور الثلاثة: أصله، وفائدته، وكيفية ترتيبه، ووضع شكله، فيعلم من اسم الجنة من أين خلقت، ولأي شيء خلقت، وترتيب مراتبها وجميع من فيها من الحور، وعدد من يسكنها بعد البعث، ويعلم من لفظ النار مثل ذلك، ويعلم من لفظ السماء مثل ذلك، ولأي شيء كانت الأولى في محلها، والثانية، وهكذا في كل سماء. . . ويعلم من لفظ الملائكة من أي شيء خلقوا، ولأي شيء خلقوا، وكيفية خلقهم وترتيب مراتبهم، وبأي شيء استحق هذا الملك هذا المقام واستحق غيره مقاماً آخر، وهكذا في كل ملك في العرش إلى ما تحت الأرض.

فهذه علوم آدم وأولاده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء الكمل رضي الله عنهم أجمعين، وإنما خص آدم بالذكر لأنه أول من علم هذه العلوم، ومن علمها من أولاده فإنما علمها بعده، وليس المراد أنه لا يعلمها إلا آدم، وإنما خصصناها بما يحتاج إليه وذريته وبما يطيقونه لئلا يلزم من عدم التخصيص الإحاطة بمعلومات الله تعالى.

وإنما قال تنزلت إشارة إلى الفرق بين علم النبي ﷺ بهذه العلوم وبين علم آدم وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بها فإنهم إذا توجهوا إليها يحصل لهم شبه منام عن مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، وإذا توجهوا نحو مشاهدة الحق سبحانه وتعالى حصل لهم شبه النوم عن هذه العلوم، ونبينا ﷺ لقوته لا يشغله هذا عن هذا، فهو إذا توجه نحو الحق سبحانه وتعالى حصلت له المشاهدة التامة وحصل له مع ذلك مشاهدة هذه العلوم وغيرها مما لا يطاق، وإذا توجه نحو هذه العلوم حصلت له مع حصول هذه المشاهدة في الحق سبحانه وتعالى فلا تحجبه مشاهدة الحق عن مشاهدة الخلق ولا مشاهدة الخلق عن مشاهدة الحق سبحانه وتعالى.

وقال رضي الله عنه في قوله: وتضاءلت الفهوم أي اضمحلت فيه ﷺ، فلم يدركه سابق، وهم الأنبياء، ولا لاحق، وهم الأولياء، وقوله: فرياض الملكوت يزهر جماله مونقه أي فأسرار العالم العلوي وكل مخلوق فيه من الملائكة وغيرهم رحمهم الله تعالى مشرقة بنوره ﷺ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة. قال رضي الله عنه: اعلم إن العالم العلوي يقال له عالم الملك، وعالم الملكوت، وعالم الجبروت باعتبارات مختلفة، فعالم الملك باعتبار اتفاق أهله، أعني ناطقهم وصامتهم وجامدهم وعاقلهم، فإنهم اتفقوا على نظر واحد

والتفات واحد إلى معبود واحد وهو الحق سبحانه وتعالى، فهم متفقون على معرفته ومشاهدته وسلب الاختيار عنهم بخلاف أهل الأرض من العالم السفلي فمنهم عباد شمس وعباد قمر وعباد كواكب وعباد صليب وعباد وثن إلى غير ذلك من ضلالتهم فاختلف نظرهم بخلاف أهل العالم العلوي. وبالجملة فكل عالم اتفق أهله على كلمة حق، فهو عالم الملك وليس ذلك إلا العالم العلوي.

وعالم الملكوت باعتبار اختلاف أنوار أهله وتباين مقاماتهم وأحوالهم. وعالم الجبروت باعتبار الأنوار التي تهب عليهم كما يهب علينا ريح الهواء في عالمنا، فتهب عليهم تلك الأنوار لتسقى بها ذواتهم وأرواحهم ومعارفهم وتدوم بها مقاماتهم، فهي، أي الأنوار التي تهب عليهم، كالحافظة لجميع ما سبق من أحوالهم فجعل لتلك الأنوار التي أشير إليها بالجبروت حياضاً، ولما كانت تلك الأنوار إنما تستمد من نوره ﷺ قال ان تلك الحياض تدفقت من فيض أنواره ﷺ.

قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: قلت: وهذا الذي ذكره الشيخ رضي الله عنه في هذه العوالم الثلاثة حسن.

وذهب بعضهم إلى أن عالم الملك هو المدرك بالحواس، وعالم الملكوت هو المدرك بالعقول، وعالم الجبروت هو المدرك بالمواهب.

وقال بعضهم: عالم الملك هو الظاهر المحسوس، وعالم الملكوت هو الباطن في العقول، وعالم الجبروت هو المتوسط بينهما الآخذ بطرف من كل منهما.

وقال الشيخ رضي الله عنه في قوله ولا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط. إن الكل مستمد منه ﷺ ومستند عليه في الحقيقة، وهو الواسطة لوجود الأشياء فإنها وجدت من أجله ﷺ، وهو وسيلتهم العظمى، والمراد بالموسوط ما عداه ﷺ.

وقوله: كما قيل إشارة إلى أن هذا الأمر قد قاله غيره، واشارة به إلى ما اشتهر على ألسنة الخاص والعام أنه لولاهو ﷺ ما خلقت جنة ولا نار، ولا سماء ولا أرض، ولا زمان ولا مكان، ولا ليل ولا نهار، ولا غير ذلك...

وقال رضي الله عنه في قوله: اللهم إنه سرك الجامع أي الذي حمل من أسرارك وجمع منها ما لم يجمعه غيره، فإن المشاهدة كلما اتسعت دائرتها اتسعت علوم صاحبها ولا أعظم من مشاهدته ﷺ، وعندنا من يعلم من العرش إلى العرش، ويطلع على جميع ما فيه وما فوقه وذلك كله بالنسبة إليه ﷺ كألف من ستين حزباً التي هي القرآن العزيز والله أعلم.

وقال رضي الله عنه في قوله: اللهم الحقني بنسبه وحققني بحسبه أن المراد بالنسب ماثبت في باطنه ﷺ من المشاهدة التي عجز عنها الخلائق أجمعون، والشيخ عبد السلام رضي الله عنه كان قطباً معاً ووارثاً كاملاً له ﷺ.

والمراد بالحسب صفاته ﷺ مثل الرحمة والعلم والحلم وغير ذلك من أحلاقه الزكية الطاهرة المرضية، ولما كانت مشاهدته ﷺ لا يطيقها أحد طلب للحقوق بها دون التحقق بها لأنه لا يطيقه.

قال رضي الله عنه: وإياك أن تظن أن نظر الشيخ ومجمع قصذه ونهاية عزمه توجهت لغير ذاته الشريفة ﷺ من كشف وتصرف وولاية، بل هي مقصورة على الذات الشريفة، انتهى كلام سيدي عبد العزيز في ما شرح به ما شرحه من صلاة سيدي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنهما.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[صورة آدم عليه السلام]

وهي أولى الفوائد التي أخذتها من الباب الثامن،٠قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: سمعته رضي الله عنه يقول إن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام جمع تربته في عشرة أيام، وتركها في الماء عشرين يوماً، وصوره في أربعين يوماً، وتركه عشرين يوماً، بعد التصوير حتى انتقل من الطينية إلى الجسمية فمجموع ذلك ثلاثة أشهر وهي رجب وشعبان ورمضان، ثم رفعه الله إلى الجنة ونفخ من روحه، وهو في الجنة، وخلقت منه حواء وهو في الجنة، ولما تم لها شهران في الجنة ركبت فيهما الشهوة فواقعها آدم فحملت ووضعت حملها بعد النزول إلى الأرض بثلاثة أشهر من حملها، ثم حملت في الأرض بعد ذلك فوضعت حملها بتسعة أشهر واستمر ذلك إلى اليوم.

فقلت: وما التربة التي خلق منها آدم؟ فقال رضي الله عنه: تربة جميع المعادن معدن الذهب ومعدن الفضة ومعدن النحاس وسائر المعادن فأخذت تربته من كل معدن وجمع ذلك في محل وخلق منه آدم.

فقلت: ومن الذي جمع ذلك؟ فقال رضي الله عنه: الملائكة ومن شاء الله وأكثرهم حملاً سيدنا جبريل عليه السلام لأن الله وعده أن مخلوقاً من التراب لا أعز عند الله منه يكون جبريل عشيراً له ومرافقاً معه وينال منه بركة عظيمة وهو سيد الوجود ﷺ، فكان جبريل يجمع

التراب وهو يظن أنه لذلك المخلوق الذي وعد به. ثم ساق الكلام في ذلك إلى أن ذكر أن أول ما نطق به آدم بعد تمام خلقه أن قال: الله الله لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثم قال: وسمعته رضي الله عنه يقول: ليس في مخلوقات الله كلها أحسن خلقة من بني آدم، فذواتهم هي أحسن ذوات المخلوقات وأفضلها وأرفعها وأقومها والعقل إذا تأمل في التفاصيل التي في ذات الآدمي، والتركيب الذي بين أجزائها، والترتيب الذي بين مفاصلها وعروقها والمحاسن التي اشتمل صنع الله عليها في ظاهرها وباطنها حار، وعلم عظمة خالقها ومصورها سبحانه، فقلت: فبم فضلت على ذات الملك؟

فقال رضي الله عنه: لأنه اجتمع فيه مخلوقات لم تجتمع في ذات الملك، وكل ما في ذات الملك هو في ذات الآدمي، وزيادة، فإن ذات الملك من نور وركب في ذلك النور عقل هذا مافي ذات الملك لا غير، وذات الآدمي فيها ذلك النور، وفيها العقل، وفيها الروح، وفيها ألوان من تراب، ونار، وريح، وماء، وفي كل واحد منها سر من أسرار قدرة الله عز وجل، فباجتماعها في ذات واحدة تقوى الأسرار في تلك الذات، وبالجملة فذات الآدمي فيها عدة مخلوقات وذات غيره ليست كذلك، فكانت ذات الآدمي أقوى الذوات، ولهذا كانت تطبق من الأسرار ما لا تطيقه ذات الملك، ولهذا صور نبينا ومولانا محمد ﷺ عليها فإنه ﷺ أقوى المخلوقات في تحمل الأسرار الربانية، فلو كانت هناك ذات أقوى من ذات الآدمي لصور سيد الوجود ﷺ.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[مشاهدة ذاته ﷺ في اليقظة أمان من تلاعب الشيطان]

وهي أول الفوائد التي أخذتها من الباب التاسع جوابه رضي الله عنه عن سؤال سأله إياه عما يذكره الحكماء وفلاسفة الكفر كسقراط وبقراط وأفلاطون وجالينوس في العالم العلوي مثل كلامهم في النجوم وسيرها من أين لهم ذلك مع أنه غيب محض؟

فقال: إن الله تعالى خلق الحق والنور وخلق لهما أهلاً وخلق الظلام والباطل وخلق لهما أهلاً. فأهل الظلام يفتح لهم في الظلام ومعرفته وجميع ما يتعلق به.

وأهل الحق يفتح لهم في الحق ومعرفته وجميع ما يتعلق به. والحق هو الإيمان بالله تعالى والإقرار بربوبيته والتصديق بأنه يخلق ما يشاء ويختار مع الإيمان بالأنبياء والملائكة وجميع ما يتعلق برضاه سبحانه.

والظلام هو الكفر وكل قاطع عن الله سبحانه ومنه الدنيا والأمور الفانية والحوادث التي تكون فيها، وكفاك دليلاً على ذلك لعن النبي ﷺ لها حيث يقول: الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه.

وإن الحق نور من أنوار الله سبحانه تسقى به ذوات أهل الحق فتتشعشع أنوار المعارف في ذواتهم.

وإن الباطل ظلام تسقى به ذوات أهل الباطل ويفتح عليهم في مشاهدة هذا العالم سمائه وأرضه ولا يشاهدون فيه إلا الأمور الفانية المتعلقة بالأجرام الحادثة وهيآتها، مثل ما يذكرونه في أحكام النجوم مثل النجم الفلاني موضعه في الفلك كذا وإذا قارنه نجم كذا كان كذا وكذا.

وأما قبر النبي ﷺ والنور الممتد منه إلى قبة البرزخ وذوات الأولياء العارفين بالله تعالى وأرواح المؤمنين الكائنة بأفنية القبور والحفظة الكرام الكاتبين والملائكة الذين يتعاقبون فينا وغير ذلك من أسرار الحق الموصلة إلى الله تعالى التي وضعها في أرضه فلا يفتح لهم في معرفتها، ولا تقع في عقولهم أبداً لأن الله تعالى سقاهم بالظلام وقطعهم عن معرفته بالكلية، وكذلك لا يشاهد الظلام شيئاً من أسرار الحق سبحانه التي وضعها في سمائه، ولا الملائكة ولا الجنة ولا القلم ولا اللوح، ولا يعرفون الحق سبحانه الذي هو خالقهم، فقد حجبهم عن نفسه وعن كل ما يوصل إليه، وفتح عليهم في غير ذلك مما يضرهم ولا ينفعهم، فأخبار الفلاسفة لعنهم الله عن العالم العلوي من هذا الوادي، وأخطأوا في الكثير منه. وأما أهل الحق فلهم فتح في أول الأمر وفي ثاني الأمر.

أما الفتح في أول الأمر فجميع ما سبق فتحه لأهل الظلام في هذا العالم سمائه وأرضه، فيشاهد صاحب هذا الفتح الأرضين السبع وما فيهن، والسموات السبع وما فيهن، ويشاهد أفعال العباد في دورهم وقصورهم، لا يرى ذلك ببصره وإنما يراه ببصيرته التي لا يحجبها ستر ولا يردها جدار. وكذلك يشاهد الأمور المستقبلة مثل ما يقع في شهر كذا وسنة كذا وهؤلاء وأهل الظلام في هذا الفتح على حد سواء، ولذا يقال الكشف أضعف درجات الولاية، أي لأنه يوجد عند أهل الحق ويوجد عند أهل الباطل وصاحبه لا يأمن على نفسه من القطيعة واللحوق بأهل الظلام حتى يقطع مقامه ويتجاوزه.

وأما الفتح في ثاني الأمر فهو أن يفتح عليه في مشاهدة أسرار الحق التي حجب عنها أهل الظلام، فيشاهد الأولياء العارفين بالله تعالى ويتكلم معهم ويناجيهم على بعد المسافة مناجاة الجليس لجليسه، وكذا يشاهد أرواح المؤمنين فوق القبور، والكرام الكاتبين والملائكة والبرزخ وأرواح الموتى التي فيه، ويشاهد قبر النبي ﷺ وعمود النور الممتد منه إلى قبة

البرزخ، فإذا حصلت له مشاهدة ذات النبي ﷺ في اليقظة حصل له الأمان من تلاعب الشيطان لاجتماعه مع رحمة الله تعالى وهي سيدنا ونبينا ومولانا محمد ﷺ، ثم اجتماعه مع الذات الشريفة سبب إلى معرفته بالحق سبحانه ومشاهدة ذاته الأزلية لأنه يجد الذات الشريفة غائبة في الحق هائمة في مشاهدته سبحانه فلا يزال الولي ببركة الذات الشريفة يتعلق بالحق سبحانه ويترقى في معرفته شيئاً فشيئاً إلى أن تقع له المشاهدة وإسرار المعرفة وأنوار المحبة، فهذا الفتح الثاني هو الفاصل بين أهل الحق وأهل الباطل، ثم ذكر علامة إدراك العبد مشاهدة النبي ﷺ في اليقظة بأن يشتغل الفكر به ﷺ اشتغالاً إلى آخر العبارة التي نقلتها سابقاً للمناسبة من هذا الباب التاسع إلى فوائد الباب الرابع فراجعها هناك.

ثم قال ابن المبارك في هذا المعنى وسمعته رضي الله عنه يقول: سألني الشيخ سيدي عبد الله البرناوي وهو أحد شيوخه أتعلم شيئاً في الدنيا هو أحسن من دخول الجنة؟ وشيئاً في الدنيا هو أقبح من دخول جهنم؟

فقلت: أعرف ما سألت عنه، أما الذي هو أفضل وأعز من دخول الجنة فهو رؤية سيد الوجود ﷺ في اليقظة، فيراه الولي اليوم كما رآه الصحابة رضي الله عنهم فهي أفضل من الجنة.

وأما الذي هو أقبح من جهنم فهو السلب بعد الفتح. قال رضي الله عنه: فما شعرت بالشيخ سيدي عبد الله حتى اكب على رجلي وجعل يقبلها تقبيلاً كثيراً فقلت له: ما السبب في هذا التقبيل؟ فقال: لقد سألت عنها نحواً من ثمانين شيخاً فما أجاب فيها واحد نحو جوابك.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[البرزخ وروح سيد الوجود ﷺ]

وهي أول الفوائد التي أخذتها من الباب العاشر الذي ذكر فيه البرزخ وصفته وكيفية حلول الأرواح، فيه قول ابن المبارك رحمه الله تعالى: سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول في البرزخ: إنه على صورة محل شيق من أسفله ثم مادام يطلع يتسع، فلما بلغ منتهاه جعلت قبة على رأسه مثل قبة الفنار

أما في القدر والعظم فإن البرزخ أصله في السماء الدنيا، ولم يخرج منها إلى ما يلينا ثم جعل يتصاعد عالياً حتى خرق السموات السبع، ثم تصاعد إلى ما لا يحصى، وقد جعلت قبته عليه هذا طوله والقبة أشرف ما فيه إذ ليس فيها إلا روح سيد الأولين والآخرين عليه أفضل

الصلاة وأزكى التسليم ومن أكرمه الله بكرامته، كأزواجه الطاهرات وبناته وذريته الذين كانوا في زمانه، وكل من عمل بالحق بعده من نذريته إلى يوم القيامة، وأرواح الخلفاء الأربعة والشهداء الذين ماتوا بين يدي النبي ﷺ في زمانه وبذلوا نفوسهم ليحيى ﷺ ويبقى ولهم قوة وجهد لا يوجد في غيرهم إثابة لهم على حسن صنيعهم رضي الله عنهم، وأرواح ورثته الكاملين ﷺ كالغوث والأقطاب رضي الله عنهم فأشرف ما في البرزخ القبة المقصورة.

وأما عرض البرزخ فحسبك أن الشمس في السماء الرابعة لا تدور إلا به على هيئة الطائف به فتقطعه في عام وكله ثقب وفيها الأرواح.

أما روح سيد الوجود ﷺ ومن أكرمه الله بكرامته ممن سبق ذكره فهي في القبة كما تقدم ولكن روحه ﷺ لا تدوم فيها لأنها وغيرها من المخلوقات لا تطيق حمل تلك الروح الشريفة لكثرة الأسرار التي فيها وإنما يطيق حمل تلك الروح الشريفة ذاته الطاهرة الزكية الزاهرة ﷺ، فلذا كانت روحه ﷺ في البرزخ غير مقيمة في محل معين لأنه لا يطيقها شيء والأرواح التي في البرزخ من السماء الرابعة فصاعداً لها أنوار خارقة، ومن الثالثة فسافلاً غالبها محجوب لا نور لها، وهذه الثقب التي في البرزخ كانت قبل خلق آدم معمورة بالأرواح، وكان لتلك الأرواح أنوار ولكنها دون الأنوار التي لها بعد مفارقة الأشباح، فلما هبطت روح آدم عليه السلام إلى ذاته بقي موضعها خالياً، وهكذا كلما هبطت روح بقيت تثبتها خالية منها، فإذا رجعت الروح بعد الموت إلى البرزخ لا ترجع إلى الموضع الذي كانت فيه بل تستحق موضعاً آخر غيره، قال ابن المبارك قلت: كأنه يقول: بل تستحق منزلاً أعلى إن كانت مؤمنة وأسفل إن كانت كافرة. ثم قال: قال الشيخ رضي الله عنه، وعند فراغ الأرواح التي لم تخرج إلى الدنيا واستكمالها الخروج إليها حتى لا تبقى روح إلا وخرجت حينئذ تقوم القيامة. قال ابن المبارك قلت فيلزم أن يعلم أرباب هذا الكشف بالساعة ومتى تقوم وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية.

وقال النبي ﷺ: «في خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى»[1]. فقال رضي الله عنه إنما قال ذلك النبي ﷺ لأمر ظهر له في الوقت وإلا فهو ﷺ لا يخفي عليه شيء من الخمس المذكورة في الآية الشريفة، وكيف يخفى عليه ذلك والأقطاب السبعة من أمته الشريفة يعلمونها وهم دون الغوث، فكيف بالغوث فكيف بسيد الأولين والآخرين الذي هو سبب كل شيء ومنه كل شيء. ثم قال رضي الله عنه: وكم مرة أنظر إلى مقابر فاس فأرى الأنوار خارجة من الأرض

---

(١) رواه ابن حجر في فتح الباري (١: ١١٤).

ذاهبة إلى البرزخ على هيئة القصب النابت من الأرض فأعلم أن أصحاب تلك الأنوار أولياء أخيار.

وكم مرة يقول هٰهنا ولي كبيرفي موضع من المواضع هٰاهو نوره خارج إلى البرزخ، وكذلك هو في قبر نبينا ومولانا محمد ﷺ، فعمود نور آيمانه ﷺ ممتد من القبر الشريف إلى قبة البرزخ التي فيها روحه الطاهرة وتأتي الملائكة زمراً زمراً وتطوف بذلك النور الشريف الممتد وتتمسح به وتتطارح عليه تطارح النحلة على يعسوبها، فكل عجز عن سر أو عن تحمل أمر حصل له كان أو وقوف في مقام، فإنه يجيء إلى النور الشريف ويطوف به، فإذا طاف به اكتسب قوة كاملة وجهداً عظيماً من نوره ﷺ، فيرجع إلى موضعه وقد قوى أمره ولا يفرغ من طوافه حتى تجيء جماعة أخرى من الملائكة كل واحد منهم يبادر الطواف.

وقال لي مرة: لما أراد الله أن يفتح عليَّ وأن يجمعني برحمته نظرت وأنا بفاس إلى القبر الشريف، ثم نظرت إلى النور الشريف فجعل يدنو مني وأنا أنظر إليه فلما قرب مني خرج منه رجل وإذا هو النبي ﷺ فقال لي سيدي عبد الله البرناوي: لقد جمعك الله يا سيدي عبد العزيز مع رحمته وهو سيد الوجود ﷺ فلست أخاف عليك تلاعب الشياطين، وذكر في الإبريز فوائد كثيرة مهمة تتعلق بالبرزخ فراجعها إن شئت.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[زيارته ﷺ لأمته في الجنة حباً بهم]

وهي أول الفوائد التي أخذتها من الباب الحادي عشر وهو في الجنة وما يتعلق بها قول ابن المبارك رحمه الله تعالى سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول في جنة الفردوس: إن جميع النعم التي يسمع بها في دار الدنيا والتي لا يسمع بها، موجودة فيها.

ثم قال رضي الله عنه: والناس يظنون إن جنة الفردوس هي أفضل الجنان وأعلاها وليست كذلك، بل هناك جنة أخرى هي أفضل منها وأعلى وليس فيها من النعم شيء ولا يسكنها إلا أهل مشاهدة الله عز وجل من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ومن أوليائه رضي الله عنهم.

قال رضي الله عنه: وغالب من يسكن جنة الفردوس أمة نبينا ومولانا محمد ﷺ، ولسيدنا محمد ﷺ محبة عظيمة في أمته فهو يحب أن يزورهم في الجنة، ويصلهم كما يصل ذو الرحم رحمه، فلذلك جمع الله له بين وسط الجنة العالية ذات المشاهدة السابقة، وبين

وسط جنة الفردوس ذات النعم الفاخرة، فجعل ذلك مسكن النبي ﷺ، ولم يعط هذا واحداً من الخلائق غيره، فيصل لله جميع أمته من أهل المشاهدة وغيرهم جعلنا الله من أمته ولا عدل بنا عن سنته وطريقته ﷺ.

قال: وليست الجنة العالية التي ذكرها هي عليين، ولكنها تسمى دار المزيد وليس فيها شيء من النعم سوى مشاهدة الله سبحانه وهي عند أهلها أعز من كل نعيم لأن فيه لذة جميع النعم التي في الجنة ولذة أهلها لذة الروح ولذة غير أهل هذه الجنة لذة ذواتهم الباقية، ومن له لذة من أحد النوعين لا يطيق الأخرى ولا يقدر على الجمع بينهما إلا مخلوق واحد وهو سيد الأولين والآخرين نبينا ومولانا محمد ﷺ فهو يطيق من لذة المشاهدة وأسرارها ما لا يطيقه أحد، ويلتذ بذاته أيضاً في نعيم الجنة ما لا يلتذ منه أحد ولا تشغله هذه عن هذه فسبحان من قواه على ذلك وأقدره عليه ﷺ.

ومن جواهر سيدي عبد العزيز الدباغ أيضاً

[الجنة أصلها من نوره ﷺ وتزيد بالصلاة عليه]

قوله رضي الله عنه: إن الجنة تزيد بالصلاة على النبي ﷺ لأن أصلها من نور النبي ﷺ فهي تحن إليه حنين الولد إلى أبيه، وإذا سمعت بذكره انتعشت وطارت إليه لأنها تسقى منه ﷺ.

ثم ضرب مثلاً بدابة اشتاقت إلى قوتها وعلفها وشعيرها فجيء إليها بالشعير وهي أجوع ما كانت فإذا شمت رائحته فإنها تقرب منه، وإذا بعد عنها تبعته دائماً حتى تدركه، فكذا حال الملائكة الذين في أطراف الجنة وأبوابها يشتغلون بذكر النبي والصلاة عليه ﷺ فتحن الجنة إلى ذلك وتذهب نجومهم، وهم في جميع نواحيها، فتتسع من جميع الجهات، قال رضي الله عنه ولولا إرادة الله ومنعه لخرجت إلى الدنيا في حياة النبي ﷺ وتذهب معه حيث ذهب وتبيت معه حيث ربيت إلا أن الله تعالى منعها من الخروج إليه ﷺ ليحصل الإيمان به ﷺ على طريق الغيب.

قال رضي الله عنه: وإذا دخل النبي ﷺ الجنة وأمته فرحت بهم الجنة، واتسعت بهم وحصل لها من السرور والحبور ما لا يحصى فإذا دخلها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأممهم تنكمش وتنقبض فيقولون لها في ذلك فتقول: ما أنا منكم ولا أنتم مني حتى يقع الفصل بواسطة استمداد أنبيائهم من النبي ﷺ.

قال وسمعته رضي الله عنه يقول في قولهم: إن الصلاة على النبي ﷺ مقبولة قطعاً من كل أحد لاشك أن الصلاة على النبي ﷺ أفضل الأعمال وهي ذكر الملائكة الذين هم على أطراف الجنة، ومن بركة الصلاة على النبي ﷺ أنهم كلما ذكروها زادت الجنة في الاتساع، فهم لا يفترون عن ذكرها والجنة لا تفتر عن الاتساع فهم يجرون والجنة تجري خلفهم ولا تقف الجنة عن الاتساع حتى ينتقل الملائكة المذكورون إلى التسبيح، ولا ينتقلون إليه حتى يتجلى الحق سبحانه لأهل الجنة في الجنة، فإذا تجلى لهم وشاهده الملائكة المذكورون أخذوا في التسبيح فإذا أخذوا فيه وقفت الجنة واستقرت المنازل بأهلها ولو كانوا عندما خلقوا أخذوا في التسبيح، لم تزد الجنة شيئاً، فهذا من بركة الصلاة على النبي ﷺ، ولكن القبول لا يقطع به إلا الذات الطاهرة والقلب الطاهر، لأنها إذا خرجت من الذات الطاهرة خرجت سالمة جميع العلل مثل الرياء والعجب، والعلل كثيرة جداً ولا يكون شيء منها في الذات الطاهرة والقلب الطاهر، وهذا معنى ما في الأحاديث الأخر «من قال لا آله إلا الله دخل الجنة»[1] يعني به إذا كانت ذاته طاهرة وقلبه طاهراً فإن قائلها حينئذ يقولها لله تعالى مخلصاً. وهذه آخر الفوائد التي نقلتها من الباب الحادي عشر ولم أجد في الباب الثاني عشر وهو آخر أبواب الإبريز كلاماً يناسب ما نحن فيه. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين.

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٢٠٣). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ١٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٢٥).

ومنهم الإمام العلامة الشيخ محمد بن عبد الباقي الزرقاني(١) شارح المواهب اللدنية المتوفى سنة ١١٢٢ هـ

فمن جواهره

[معنى الحقيقة المحمدية]

رحمه الله تعالى قوله في شرح المواهب عند قول المصنف في أوائل المقصد الأول: إعلم أنه لما تعلقت إرادة الحق بإيجاد خلقه وتقدير رزقه أبرز الحقيقة المحمدية هي الذات مع النعت الأول كما في التوقيف.

وفي لطائف الكاشي يشيرون بالحقيقة المحمدية إلى الحقيقة المسماة بحقيقة الحقائق الشاملة لها، أي للحقائق، والسارية بكليتها، في كلها سريان الكلي في جزئياته.

قال: وإنما كانت الحقيقة المحمدية هي صورة لحقيقة الحقائق لأجل ثبوت الحقيقة المحمدية في خلق الوسطية هي عين النور الأحمدي المشار إليه بقوله ﷺ أول ما خلق الله نوري، أي قدر على أصل الوضع اللغوي، وبهذا الاعتبار سمي المصطفى بنور الأنوار، وبأبي الأرواح، ثم إنه آخر كل كامل إذ لا يخلق الله بعده مثله ﷺ

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[تفسير ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...﴾]

قوله في شرح المقصد الأول أيضاً في تفسير آية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١] قال البغوي: اختلف في معنى الآية، فقيل أخذ الميثاق من النبيين، أن يبلغوا كتاب الله ورسالاته، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وأخذ العهد على كل نبي أن يؤمن بمن يأتي بعده وينصره أن أدركه،

---

(١) هو محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن محمد بن علوان الزرقاني المصري الأزهري المالكي، أبو عبد الله نسبته إلى زرقان من قرى منوف بمصر ولد سنة ١٠٥٥ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ١١٢٢ هـ.

وأن يأمر قومه بنصره، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد.

وقيل إنما أخذ الميثاق عليهم في محمد ﷺ. واختلف على هذا فقيل: الأخذ على النبيين وأممهم، واكتفى بذكر الأنبياء، لأن العهد على المتبوع عهد على التابع، وهو معنى قول علي وابن عباس.

وقال مجاهد والربيع: أخذ الميثاق، إنما هو على أهل الكتاب الذين أُرسل منهم النبيون، ألا ترى قوله ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم الخ... وإنما كان مبعوثاً لأهل الكتاب دون النبيين، يدل عليه قراءة ابن مسعود وأبي: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وأما القراءة المعروفة فالمراد منها أن الله أخذ عهد النبيين أن يأخذوا الميثاق على أممهم بذلك. ثم قال عند قول صاحب المواهب «فإذا عرف هذا فالنبي ﷺ نبي الأنبياء، ولهذا ظهر في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه» كما قال ﷺ في حديث أنس عند أحمد: «وبيدي لواء الحمد آدم فمن دونه تحت لوائي»[1] وهو معنويّ، وهو انفراده بالحمد يوم القيامة وشهرته به على رؤوس الخلائق كما جزم به الطيبي والسيوطي، أو حقيقي مسمى بذلك، وعند الله علم حقيقته ودونه تنتهي جميع المقامات. ولما كان المصطفى ﷺ أحمد الخلق في الدارين أعطيه ليأوي إليه الأولون والآخرون، ولذا قال آدم فمن دونه الخ... كما قاله التور بشتى والطبري.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[فضل البقعة التي ضمت أعضاءه ﷺ]

قوله في المقصد الأول أيضاً في شرح قول المواهب عند الكلام على هجرته ﷺ: وقع الإجماع على أن أفضل البقاع الموضع الذي ضم أعضاءه الكريمة صلوات الله وسلامه عليه حتى من الكعبة لحلوله فيه، بل نقل التاج السبكي عن ابن عقيل الحنبلي أنه أفضل من العرش وصرح الفاكهاني بتفضيله على السموات، بل قال البرماوي: الحق أن مواضع أجساد الأنبياء وأرواحهم أشرف من كل ما سواها من الأرض والسماء ومحل الخلاف في أن السماء أفضل أو الأرض؟ في غير ذلك كما كان شيخنا شيخ الإسلام البلقيني يقرره. يعني وأفضل تلك المواضع القبر الشريف بالإجماع.

واستشكله العز بن عبد السلام بأن معنى التفضيل أن ثواب العمل في أحدهما أكثر من

(١) رواه أحمد في المسند (١: ٢٨١). والعجلوني في كشف الخفا (١: ١٦).

الآخر وكذا التفضيل في الأزمان، وموضع القبر الشريف لا يمكن العمل فيه لأن العمل فيه محرم فيه عقاب شديد.

ورد عليه تلميذه العلامة الشهاب القرافي بأن التفضيل للمجاورة والحلول كتفضيل جلد المصحف على سائر الجلود فلا يمسه محدث ولا يلابس بقذر، لا لكثرة الثواب وإلا لزمه أن يكون جلد المصحف بل ولا المصحف نفسه أفضل الثواب من غيره لتعذر العمل فيه، وهو خلاف المعلوم من الدين بالضرور، وأسباب التفضيل أعم من الثواب، فإنها منتهية إلى عشرين قاعدة وبينها في كتابه الفروق، ثم قال بل إنها أكثر وإنه لا يقدر على إحصائها خشية الإسهاب.

وقال التقي السبكي قد يكون التفضيل بكثرة الثواب وقد يكون لأمر آخر وإن لم يكن عمل، فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة وله عند الله من المحبة ولساكنه ما تقصر العقول عنه، فكيف لا يكون أفضل الأمكنة؟ وأيضاً فباعتبار ما قيل كل أحد يدفن في الموضع الذي خلق منه، وقد تكون الأعمال مضاعفة فيه باعتبار حياته ﷺ فيه وأن أعماله مضاعفة أكثر من كل أحد.

قال السمهودي: والرحمات النازلات بذلك المحل يعم فيضها الأمة وهي غير متناهية لدوام ترقياته ﷺ.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[إن الله أدبني فأحسن تأديبي]

قوله في المقصد الثالث عند ذكر المواهب في الشمائل النبوية قوله ﷺ: «**إن الله عز وجل أدبني فأحسن تأديبي**»[1] أي علمني رياضة النفس ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة، بأفضله عليَّ، بالعلوم الوهبية، مما لم يقع نظيره لأحد من البرية.

قال بعضهم أدبه بآدات العبودية، وهذبه بمكارم أخلاق الربوبية، لما أراد إرساله ليكون ظاهر عبوديته مرآة للعالم، كقوله: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[2] وباطن أحواله مرآة للصادقين في متابعته وللصديقين في السير إليه «**فاتبعوني يحببكم الله**».

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٧٢). والشوكاني في الفوائد المجموعة (٣٢٧). والفتني في تذكرة الموضوعات (٨٧).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٦٢). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٣٤٥). وابن عبد البر في التمهيد (٥: ١١٧).

وقال القرطبي: قد حفظه الله من صغره وتولى تأديبه بنفسه، ولم يكله في شيء لفي ذلك لغيره ولم يزل الله يفعل ذلك به حتى كره إليه أحوال الجاهلية وأسماه منها فلم يجر عليه شيء منها، كل ذلك لطف به وعطف عليه وجمع للمحاسن لديه.

وقال بعضهم: أدب الله روح رسوله ورباها في محل القرب قبل اتصالها ببدنه باللطف والهيبة، فتكامل له الأنس باللطف والأدب بالهيبة، واتصلت بعد ذلك بالبدن ليخرج من اتصالها كمالات أخرى من القوة إلى الفعل، وينال كل من الروح والبدن بواسطة الآخر من الكمال ما يليق بالحال، ويصير قدوة لأهل الكمال.

والأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً. أو الأخذ بمكارم الأخلاق. أو الوقوف مع المستحسنات. أو تعظيم من فوقه مع الرفق بمن دونه. وقيل غير ذلك.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[كان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً]

قوله في المقصد الثالث أيضاً عند قول المواهب: وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، لأن الناس مأمورون بالتأسي به والاقتداء بهديه فلو ترك الطلاقة والبشاشة ولزم العبوس لأخذ الناس أنفسهم بذلك على ما في مخالفة الغريزة من المشقة والعناء، فمزح ليمزحوا. قاله ابن قتيبة.

وقال الخطابي سئل بعض السلف عن مزاحه ﷺ فقال: كانت له مهابة فلذا كان ينبسط للناس بالدعابة ﷺ.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[كان ﷺ يؤخذ عن الدنيا حالة الوحي]

قوله في المقصد الرابع عند ذكر المواهب خصائصه ﷺ قوله ومنها أنه كان يؤخذ عن الدنيا حالة الوحي وحديث شأن الوحي في الصحيحين صريح في أنه ﷺ كان ينتقل من حالته المعروفة إلى حالة تستلزم الاستغراق والغيبة عن الحالة الدنيوية حتى ينتهي الوحي ويفارقه الملك.

قال السراج البلقيني: وهي حالة يؤخذ فيها عن حال الدنيا من غير موت، فهو مقام برزخي يحصل له عند تلقي، ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأحوال خص

الله نبيه ببرزخ في الحياة يلقى الله فيه وهو مشتمل على كثير من الأسرار، وقد وقع لكثير من الصلحاء عند الغيبة بالنوم، أو غيره، إطلاع على كثير من الأسرار وذلك مستمد من المقام النبوي ويشهد لذلك حديث رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. انتهى.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[غين الأخيار لا غين الأغيار]

قوله في المقصد الرابع أيضاً عند قول المواهب ذكر الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه لطائف المنزل: إن الشيخ أبا الحسن الشاذلي قال: رأيت النبي ﷺ في النوم، فسألته عن هذا الحديث «**إنه ليغان على قلبي**»[1] فقال لي: يا مبارك ذلك غين الأنوار لا غين الأغيار، قال المحاسبي خوف المقربين من الأنبياء الملائكة خوف إجلال وإعظام وإن كانوا آمنين عذاب الله.

وقال السهروردي لا نعتقد أن الغبن حالة نقص، بل هو كمال أو تتمة كمال، ثم مثل ذلك بجفن العين حين يسبل ليدفع القذى عن العين مثلاً فإنه يمنعها من الرؤية فهو صورة نقص من هذه الحيثية وفي الحقيقة هو كمال هذا محصل كلامه بعبارة طويلة.

قال: فهكذا بصيرة النبي ﷺ معترضة للأغبرة الثائرة من أنفاس الأغيار فدعت الحاجة إلى الستر على حدقة بصيرته صيانة لها ووقاية عن ذلك انتهى.

وقد استشكل وقوع الاستغفار من النبي ﷺ وهو معصوم، والاستغفار يستدعي وقوع معصية.

وأجيب بأجوبة منها ما تقدم في تفسير الغبنِ. ومنها قول ابن الجوزي: هفوات الطباع البشرية لا يسلم منها أحد، والأنبياء وإن عصموا من الكبائر لم يعصموا من الصغائر. كذا قال. وهو مفرع على خلاف المختار والراجح من عصمتهم من الصغائر أيضاً. ومنها قول ابن بطال الأنبياء أشد الناس اجتهاداً في العبادة لما أعطاهم الله من المعرفة، فهم دائبون في شكره معترفون له بالتقصير.

ومحصل جوابه: أن الاستغفار من التقصير في أداء الحق الواجب له تعالى، ويحتمل أن يكون لاشتغاله بالأمور المباحة من أكل وشرب وجماع، ونوم، وراحة، ومخاطبة الناس،

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الذكر: ٤١). وأبو داود في السنن (١٥١٥). وأحمد في المسند (٤: ٢١١).

والنظر في مصالحهم، ومحاربة عدو تارة، ومداراته أخرى وتأليف المؤلفة، وغير ذلك مما يحجبه عن الاشتغال بذكر الله والتضرع إليه ومشاهدته ومراقبته، فيرى ذلك ذنباً بالنسبة إلى المقام العلي، وهو الحضور في حظيرة القدس.

ومنها: أن استغفاره تشريع لأمته أو من ذنوبهم فهو كالشفاعة لهم. وقال الغزالي: كان ﷺ دائم الترقي فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها ذنباً فاستغفر من الحال السابق، وهذا مفرع على أن القدر المذكور في استغفاره كان مفرقاً بحسب تعدد الأحوال، وظاهر ألفاظ الحديث يخالف ذلك إذ ليس فيها ما يدل على افتراق واجتماع.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[خطاب الله له ﷺ]

قوله في المقصد الرابع أيضاً عند قول المواهب: ومنها، أي من خصائصه ﷺ أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا زكريا، يا يحيى، يا عيسى، ولم يخاطبه إلا بيا أيها النبي، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، مشى هنا على قول السهيلي ليس المزمل والمدثر باسم من أسمائه ﷺ يعرف به، وإنما هو مشتق من حالته التي كان متلبساً بها حالة الخطاب، ملاطفة على عادة العرب، كقوله ﷺ لعلي: «قم يا أبا تراب»[(١)] وقوله لحذيفة: «قم يانومان»[(٢)] لا على القول بأنهما من أسمائه لأشكاله، اللهم إلا أن يكون لم يرد الأسماء ما يراد به مجرد الذات الشريفة، وأراد بغير الذات ما يراد به الذات مع صفة بها ومنه المزمل والمدثر، ثم لا يخفى أن الخطاب نداء فخرج به ذكره بلا نداء في: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢] لأنه للتعريف بأنه الذي أخذ الله عهده على الأنبياء وبالإيمان به، ولو لم يسمه لم يعرفوه.

وأما قول الله سبحانه يوم القيامة: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع إلى آخره فتنويه بذكر اسمه الدال على الصفة التي يحمد بها جميع الخلائق فانظر إلى هذا التعظيم يناديه في كل مقام

---

(١) رواه ابن حجر في فتح الباري (٧: ٧٢). والقرطبي في التفسير (١٩: ٣٣).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (الجهاد: ٣٦). والبيهقي في السنن الكبرى (٩: ١١٩). والسيوطي في دلائل النبوة (٣: ٤٥٠).

بأشرف تعظيم يناسب ذلك المقام، ففي الدنيا بالنبوة والرسالة ليشهد له بهما.

وفي الآخرة لما تحققت الحقائق ناداه باسمه لما اشتمل عليه من المعنى المناسب لذلك اليوم، وليفجأه سبحانه بما يدل على صفة يحمده بها الخلق، ليستدل بالنداء بها على قبول شفاعته، ثم عقب ذلك بقوله قل تسمحع وسل تعط، فهو تكريم بعد تكريم، وتعظيم بعد تعظيم.

زاد في الأنموذج وخاطبه بألطف مما خاطب به الأنبياء، أي كقوله لداود: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وقال للمصطفى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم:٣] تنويهاً له على ذلك بعد الإقسام عليه.

وقال عن موسى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء:٢١]، وقال عن نبينا ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال:٣٠] فكنى عن خروجه وهجرته بأحسن العبارات، ولم يذكره بالفرار الذي فيه نوع غضاضة.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[حرمة دعائه باسمه ﷺ]

قوله في المقصد الرابع أيضاً: ومنها، أي من خصائصه ﷺ، أنه حرم على الأمة نداءه باسمه، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣] أي لا تجعلوا دعاءه وتسميته ﷺ كنداء بعضكم بعضاً ورفع الصوت والنداء من وراء الحجرات، ولكن قولوا يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، وقيل لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جوار الإعراض والمساهلة في الإجابة فإن المبادرة إلى إجابته واجبة قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] والرجوع بلا إذن حرام كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور:٦٣] الآية.

وكره الشافعي أن يقال في حقه ﷺ الرسول لأنه ليس فيه من التعظيم ما في الإضافة. قال ابن حجر وعلى هذا فلا ينادي ﷺ بكنيته. قال تلميذه الشيخ زكريا، بل هو ممنوع إذ الكنية تعظيم باتفاق ولذا احتيج للجواب عن تكنية عبد العزى في تبت يدا أبي لهب، مع أنه لا يستحق الكنية لأنها تعظيم، فالأوجه جواز ندائه لكنيته ﷺ وإن كان نداؤه بوصفه أعظم.

وعقب بأن مقتضى آية النور المذكورة أنه لا ينادى بكنيته لأنهم كانوا يدعون بعضهم بعضاً بها، والحافظ لم يعلل الحكمة بترك التعظيم حتى يتوجب عليه ذلك.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[النبي ﷺ حي في قبره]

قوله في المقصد الرابع أيضاً عند قول المواهب: منها، أي من خصائصه، ﷺ أنه حي في قبره.

قال البيهقي: لأن الأنبياء بعد ما قبضوا ردت إليهم أرواحهم فهم أحياء عند ربهم كالشهداء، وقد رأى نبينا ﷺ جماعة منهم، وأمهم في الصلاة، وأخبر ﷺ وخبر صدق أن صلاتنا معروضة عليه. وأن سلامنا يبلغه، وإن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

قال السيوطي: وقلّ نبي إلا وقد جمع مع النبوة وصف الشهادة، فيدخلون في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآية.

وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبراني والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لأن أحلف تسعاً أن رسول الله ﷺ قتل قتلاً، أحب إلي من أن أحلف واحدة أنه لم يقتل ذلك أن الله اتخذه نبياً واتخذه شهيداً.

وأخرج البخاري والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها كان ﷺ يقول في مرضه الذي توفي فيه: «لم أزل أجد ألم الطعام من حين أكلت بخيبر، فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السم»(١) اهـ.

وهذا هو مراد ابن مسعود في الأثر السابق بقوله قتل قتلاً أي بتأثير السم الذي وضعته اليهودية في ذراع الشاة يوم خيبر فأكل منه ﷺ.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[النبي ﷺ حي في قبره كما سائر الأنبياء]

ما ذكره عند قول المواهب في المقصد الرابع أيضاً، فإن قلت القرآن ناطق بموته ﷺ، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال: «إني امرؤ مقبوض»(٢).

---

(١) رواه السيوطي في الحاوي للفتاوي (٢: ٢٩٧). وابن حجر في تغليق التعليق (١١٩١).

(٢) رواه الساعاتي في منحة المعبود (٧٦). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ١٢٦).

وقال الصديق، ومن كان يعبد محمداً قد مات. وأجمع المسلمون على الإطلاق ذلك.
فأقول أجاب الشيخ تقي الدين السبكي: بأن ذلك الموت غير مستمر، وأنه ﷺ أحيي بعد الموت حياة أخروية، ولا شك إنها أعلى وأكمل من حياة الشهداء، وهي ثابتة للروح بلا إشكال، وقد ثبت أن أجساد الأنبياء لا تبلى، وعود الروح إلى الجسد ثابت في الصحيح لسائر الموتى، فضلاً عن الشهداء، فضلاً عن الأنبياء، وإنما النظر في استمرارها في البدن، وفي أن البدن يصير حياً كحالته في الدنيا، أو حياً بدونها وهي حيث شاء الله تعالى، فإن ملازمة الروح للحياة أمر عادي لا عقلي، فهذا مما يجوزه العقل، فإن صح به سمع اتبع وقد ذكره جماعة من العلماء ويشهد له صلاة موسى في قبره، كما ثبت في الصحيح، فإن الصلاة تستدعي جسداً حياً.

وكذلك الصفات المذكورة في الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب وغير ذلك من صفات الأجسام التي نشاهدها، بل يكون لهم حكم آخر فليس في العقل ما يمنع من إثبات الحقيقة لهم. وأما الإدراكات كالعلم والسماع فلا شك أن ذلك ثابت لهم بل ولسائر الموتى كما ورد في الأحاديث. حكى جميع ذلك الشيخ زين الدين المراغي وقال أنه مما يعز وجوده في مثله يتنافس المتنافسون.

قال الزرقاني في أنباء الأذكياء: حياة النبي ﷺ في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علماً قطعياً، لما قام عندنا من الأدلة في ذلك وتواترت به الأخبار وألف البيهقي في ذلك جزءاً.

وفي تذكرة القرطبي عن شيخه الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا في الشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى.

وقد صح أن الأرض لا تأكل أجسادهم وأنه ﷺ اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء ورأى موسى قائماً يصلي في قبره، وأخبر ﷺ بأنه يرد السلام على كل من يسلم عليه إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء ولا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصه الله تعالى بكرامة من أوليائه انتهى.

ولا تدافع بين رؤية موسى يصلي في قبره، وبين رؤيته في السماء، لأن لأنبياء مراتع

ومسارح يتعرفون في ما شاءوا ثم يرجعون، أو لأن أرواحهم بعد فراق الأبدان في الرفيق الأعلى ولهذا إشراف على البدن وتعلق فيتمكنون من التعرف والتقرب بحيث يرد السلام على المسلم، وبهذا التعلق رآه يصلي في قبره ورآه في السماء، ورأى الأنبياء في بيت المقدس وفي السماء. كما أن نبينا التحق بالرفيق الأعلى وبدنه في قبره يرد السلام على من يسلم عليه، ولم يفهم من قال رؤيته يصلي في قبره منامية أو تمثيل أو إخبار عن وحي لا رؤية عين فكلها تكلفات بعيدة.

وأخرج البيهقي في كتاب «حياة الأنبياء» والحاكم في تاريخه عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال إن الأنبياء لا يتركون في قبورهم بعد أربعين ليلة، ولكن يصلون بين يدي الله تعالى حتى ينفخ في الصور، قال الحافظ في سنده محمد ابن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى سيئ الحفظ.

قال: وأما ما أورده الغزالي والرافعي بلفظ أنا أكرم على ربي أن يتركني في قبري بعد ثلاث فلا أصل له إلا أن أخذ من رواية ابن أبي ليلى هذه وليس الأخذ بجيد إذ تلك قابلة للتأويل.

قال البيهقي: إن صح فالمراد أنهم لا يتركون يصلون إلا هذا المقدار ويكونون مصلين بين يدي الله تعالى.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[الوسيلة مختصة به ﷺ]

قوله في المقصد الرابع أيضاً عند قول المواهب: ومنها، أي من خصائصه ﷺ، الوسيلة وهي أعلى درجة في الجنة: لما في مسلم مرفوعاً: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»[1] (وهي أعلى فرجة في الجنة) كما قال ﷺ الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة، فسلوا الله لي الوسيلة رواه أحمد.

قال ابن كثير: الوسيلة علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش. وقال غيره فعيلة من وصل إذا تقرب، وتطلق

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الصلاة: ١١). وأبو داود في السنن (٥٢٣). والنسائي في السنن (٢: ٢٥).

على المنزلة العلية كما في الحديث، فإنها منزلة في الجنة. على أنه ممكن ردها إلى الأول، فإن الواصل إلى تلك المنزلة قريب من الله فتكون كالقربة التي يتوسل بها، ولما كان ﷺ أعظم الخلق عبودية لربه وأعلمهم به وأشدهم له خشية وأعظمهم له محبة كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله.

وأمر أمته أن يسألوها لينالوا بهذا الدعاء الزلفي وزيادة الإيمان. وأيضاً فالله قدرها له بأسباب منها دعاء أمته له بما نالوه على يده من الهدى.

وأما الفضيلة فهي المرتبة الزائدة على سائر الخلائق ويحتمل أنها منزلة أخرى وتفسير للوسيلة.

ولابن أبي حاتم عن علي أن في الجنة لؤلؤتين إحداهما بيضاء واسمها الوسيلة لمحمد ﷺ وأهل بيته والصفراء لإبراهيم وأهل بيته.

قال ابن كثير: هذا أثر غريب ذكره المصنف في المقصد الأخير. وقال عبد الجليل القصري في شعب الإيمان: الوسيلة هي التوسل به ﷺ إلى الله، وذلك أنه في الجنة بمنزلة الوزير من الملك بغير تمثيل لا يصل إلى أحد شيء إلا بواسطته، وهذا كما قال بعض وإن كان حسناً لكنه تفسير للشيء بخلاف ما فسره به صاحبة على أنه يحتاج إلى توقيف.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[المعراج]

قوله في المقصد الخامس عند ذكر المواهب: حديث المعراج وقول آدم عليه السلام فيه مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح.

وفي رواية شريك فقال: مرحباً وأهلاً بابني نعم الابن أنت، والصالح القائم بما يلزمه من حقوق الله وحقوق العباد، فهي صفة جامعة لمعاني الخير، فوصفه به مكرراً مع النبوة والبنوة إشارة إلى أنه جمع بين صلاح الأنبياء وصلاح الأبناء، كأنه قال: مرحباً بالنبي التام في نبوته، والابن البار في بنوته، وفيه افتخار بأبوته عليه السلام للنبي ﷺ.

ولجمع الصلاح لخلال الخير اقتصر الأنبياء عليهم السلام على وصفه ﷺ بالصالح، وتوارد على ذلك وكررها كل منهم عند كل صفة، يعني في حديث المعراج، ولم يقولوا مرحباً بالنبي الصادق أو الأمين.

قال بعضهم وصلاح الأنبياء غير صلاح الأمم فصلاح الأنبياء صلاح كامل لأنهم يزول

بهم كل فساد، فلهم صلاح خاص لا يتناول عموم الصالحين، لأن كثيراً من الأنبياء تمنى أن يلحق بالصالحين، ولا يتمنى إلا على أن يلحق بالأدنى فهذا يحقق أن صلاح الأنبياء غير صلاح الأمم، ومن دونهم الأمثل فالأمثل فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر ما زال به أو منه من الفساد.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[المراد بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾]

قوله في المقصد السادس عند قول المواهب وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [البقرة:٢٥٣] يعني محمد ﷺ رفعة الله تعالى من ثلاثة أوجه بالذات في المعراج، وبالسيادة على جميع البشر، وبالمعجزات لأنه ﷺ أوتي المعجزات ما لم يؤت بنبي قبله.

قال الزمخشري: وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ﷺ ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه ﷺ العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس انتهى. فهو ﷺ وإن عبر عنه بالبعض المقتضي لإبهامه معلوم متميز عن سائر من عداه ومتعين.

قال التفتازاني: في التعبير عنه ﷺ باللفظ المبهم على أنه من الشهرة لا يذهب الوهم إلى غيره في هذا المعنى ألا ترى أن التنكير الذي يشعر بالإبهام كثيراً مما يجعل علماً على الإعظام والإفخام، فكيف اللفظ الموضوع لذلك اهـ.

وقد أحسن الزمخشري في عبارته لكنه أساء في قوله ويجوز أن يريد إبراهيم أو غيره من أولي العزم من الرسل.

وقد قال بعض المحققين: لم يصب الزمخشري في تجويزه. إن المراد بالبعض غيره ﷺ لأن المستحق للتفضيل على الوجه المذكور هو أفضل الأنبياء بإجماع المسلمين، وتأييده بخبر ابن عباس تذاكرنا فضل الأنبياء فذكرنا نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى فقال ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يكون خيراً من يحيى بن زكريا»[1]. وتأييده، أي تجويز الزمخشري، مدفوع بأن المراد في كل نبي نوع فضيلة تخصه فلا وجه لتخصيص بعضهم بالامتياز من تلك الجهة، فالمنفي في قوله لا ينبغي إلى آخره الخيرية من جميع الوجوه.

ثم قال الزمخشري عند قول المواهب وقال قوم: آدم أفضل لحق الأبوة ليس هذا بشيء

---

(١) رواه أحمد في المسند (١: ٤٤٠).

لأنها، أي الأبوة بمجردها لا تقتضي فضله عليهم مطلقاً وكم من فرع فضل أصله بخصوصيات شرف بها على الأصل بل كثيراً ما تشرف الأصول بفروعها:

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علا برسول الله عدنان

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[أنا أكرم ولد آدم]

قوله في المقصد السادس عند ذكر المواهب حديث: «أنا أكرم ولد آدم يومئذٍ على ربي ولا فخر»[1] إخبار بما منحه ﷺ من السؤدد والإكرام وتحدث بمزيد الفضل والأنعام.

وقوله: «ولا فخر» حال مؤكدة، أي أقول ذلك غير مفتخر به فخر تكبر أتى به ﷺ دفعاً لتوهم إرادة لا افتخار به.

قال القرطبي إنما قال ذلك لأنه مما أمر بتبليغه عليه من وجود اعتقاد ذلك، وإنه حق في نفسه وليرغب في الدخول في دينه ويتمسك من دخل فيه ولتعظم محبته ﷺ في قلوب متبعيه فتكثر أعمالهم وتطيب أحوالهم ويحصل لهم شرف الدنيا والآخرة لأن شرف المتبوع متعد لشرف التابع.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[المراد بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ...﴾]

قوله في المقصد السادس عند قول المواهب: واستدل له الفخر الرازي في المعالم بأنه تعالى وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠][2] فأمره أن يقتدي بأثرهم، فيكون إتيانه به واجباً، وإلا فيكون تاركاً للأمر، أي وهو محال.

وإذا أتى بجميع ما أتوا به من الخصال الحميدة فقد اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم فيكون أفضل منهم، لأن الواحد إذا فعل مثل فعل الجماعة كان أفضل منهم، قيل لا شك أنه أفضل من

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور (٦: ١١٩). والبغوي في شرح السنة (٤: ١٧٨). والقرطبي في التفسير (٣: ٢٦٣).

(٢) وردت في الأصل: ﴿أولئك هداهم الله﴾ في حين أن هذا اللفظ غير وارد في القرآن بهذا الترتيب، بل كما أثبتناه في المتن.

كل واحد منهم ومن الجميع أيضاً، لكن في هذا الدليل خفاء لا يلزم من إتيانه بكل ما أتى به كل واحد منهم إلا مساواته للمجموع، لا أفضليته عليهم وكأنه الداعي للعز بن عبد السلام، على قوله إنه أفضل من كل واحد منهم لا من جميعهم فتمالأ جماعة من علماء عصره على تكفيره، فعصمه الله، بل قد يتوقف في المساواة أيضاً لأنك لو أنعمت على أربعة فأعطيت واحداً ديناراً وآخر ثلاثة أو دينارين وآخر أربعة، لزاد صاحب الأربعة على كل واحد دون جميع ما لغيره، ولو أعطته ستة لساواهم، ولو أعطيته عشرة زاد عليهم، فينبغي أن يقال: بأنه ﷺ ساواهم في العمل، وزاد عليهم بأنه أعلم منهم بالله وأكثر من جميعهم خصائص ومعجزات.

وهذا التفضيل في القرب والمنزلة، وهو أكثر ثواباً، وأمته ﷺ أكثر من جميع الأمم وأجرهم له إلى يوم القيامة، ولو كانت للناس مساكن بعضها فوق بعض لكان الذي فوق الأخير أعلى من الجمع. وفي آية: ﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ [البقرة:٢٥٣] إيماء لهذا، حيث أبهم برفع الدرجات دون أن يسميه ويقول إنه أعظم وأفضل ﷺ.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[من علامات الحب له ﷺ]

قوله في المقصد السابع عند قول المواهب: ومن علامات الحب المذكور لرسول الله ﷺ أنه يعرض الإنسان على نفسه أن لو خير بين فقد غرض من أغراضه أو فقد رؤية النبي ﷺ، إن لو كانت ممكنة، فإن كان فقدها أشد عليه من فقد غرض من أغراضه، فقد اتصف بالمحبة المذكورة لرسول الله ﷺ، ومن لا، فلا. وهذا ذكره والحافظ ابن حجر، وزاد، وليس ذلك محصوراً في الوجود والفقد، بل يأتي مثله في نصرة سنته، والدفع شريعته، وقمع مخالفيها.

ويدخل فيه باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال، أي ابن حجر: وفي هذا الحديث إيماء إلى فضيلة التفكر. فإن الأحبية المذكورة تعرف به، وذلك أن محبوب الإنسان إما نفسه، وإما غيره. فهو إن يريد دوام بقائها سالمة من الآفات، هذا هو حقيقة المطلوب.

وأما غيره، فإذا حقق الأمر فيه، فإنما هو بسبب تحصيل نفع ما على وجوهه المختلفة حالاً ومالاً فإذا تأمل النفع الحاصل لخ من جهة رسول الله ﷺ، إما بالمباشرة، وإما بالسبب، علم ﷺ سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات، فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره، لأن النفع

الذي يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره ولكن الناس يتفاوتون في ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[فضيلة الصلاة عليه ﷺ]

قوله في المقصد السابع عند قول المواهب: وأما فضيلة الصلاة عليه ﷺ فقد ورد التصريح بها في أحاديث قوية. منها تكفير الخطايا، وتزكية الأعمال، ورفع الدرجات، ومغفرة الذنوب، وصلاة الملائكة، واستغفارهم لقائلها، وكتابة قيراط مثل أحد من الأجر والكيل بالمكيال الأوفى، وكفاية أمر الدنيا والآخرة لمن جعل صلاته كلها صلاة عليه ﷺ، ومحق الخطايا وفضلها على عتق الرقاب والنجاة من الأهوال وشهادة الرسول بها، ووجوب الشفاعة، ورضى الله ورحمته، والأمان من سخطه، والدخول تحت ظل العرش ورجحان الميزان، وورد الحوض، والأمان من العطش، والعتق من النار، والجواز على الصراط، ورؤية المقعد المقرب من الجنة قبل الموت، وكثرة الأزواج في الجنة، ورجحانها على أكثر من عشرين غزوة، وقيامها مقام الصدقة للعسر وإنها زكاة وطهارة وينمو المال ببركتها، وتقضى بها مائة من الحوائج، بل أكثر وأنها عبادة، وأحب الأعمال إلى الله تعالى، وتزين المجالس وتنفي الفقر وضيق العيش، ويلتمس بها مظان الخير، وإن فاعلها أولى الناس به ﷺ وينتفع هو وولده ووالده بها، ومن أهديت في صحيفته بثوابها وتقرب إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ، وأنها نور، وتنصر على الأعداء، وتطهر القلب من النفاق والصدأ، وتوجب محبة الناس ورؤية النبي ﷺ في المنام، وتمنع من اغتياب صاحبها، وهي من أبرك الأعمال وأفضلها وأكثرها نفعاً في الدين والدنيا أو غير ذلك من الثواب.

هكذا ترجم، أي الحافظ السخاوي في القول البديع. ثم ذكر الأحاديث في ذلك كله. وقد استوفيت نقل جميع ما ذكره الحافظ السخاوي في القول البديع من أحاديث الصلاة على النبي ﷺ وفوائدها مع نقول كثيرة لغيره في كتابي «سعادة الدارين» الذي لم يؤلف في هذا الشأن نظيره فليراجعه من شاء.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[صدق الله وكذب أخوك]

قوله في المقصد الثامن عند ذكر المواهب: حديث أبي سعيد الخدري في الصحيحين:

أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال إن أخي يشتكي بطنه، وفي رواية استطلق بطنه فقال: «اسقه عسلاً». فسقاه فقال: إني سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً.

قال: «صدق الله وكذب بطن أخيك» حيث لم يصلح لقبول الشفاء لكثرة المادة الفاسدة فيه، ، ولذا أمره بمعاودة شرب العسل لاستفراغها. فلما كرر ذلك برأ، كما في الرواية الأخرى أنه سقاه الثانية والثالثة.

وفي رواية أخرى عند البخاري: إن أخي يشتكي بطنه فقال: «اسقه عسلاً». ثم أتى الرجل الثانية فقال: «اسقه عسلاً». ثم أتاه الثالثة، فقال: «اسقه عسلاً»، ثم أتاه فقال: فعلت فلم يبرأ. فقال: «صدق الله وكذب بطن أخيك»[1]، فسقاه فبرأ. فبين في هذه الرواية أن قوله ﷺ صدق الله إنما كان بعد أن جاءه ثلاث مرات.

ثم قال الزرقاني: قال القرطبي في المفهم: اعترض بعض زنادقة الأطباء هذا. فقال: أجمع الأطباء على أن العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال؟ وهذا كلام جاهل بصدق النبي ﷺ وبصناعة الطب التي ينتمي إليها.

الأول: أما فلأن من علم صدقه ﷺ بدليل المعجزة حقه إذا وجد من كلامه ما يقصر عن إدراكه، أن يعلم أن قوله ﷺ حق في نفسه، وينسب القصور في فهمه إلى نفسه، ثم كان الصادق ﷺ بين كيفية العمل بذلك الشيء فليبحث عنه، فإذا انكشف له علم أن ذلك هو الذي أراد الصادق ﷺ، وهذا إنما يخاطب به علماء الطب المسلمون.

وأما بيان جهل هذا المعترض بصناعة الطب، فإنه حاد في النقل حيث أطلق في محل التقييد ونقل إجماعاً لا يصح. وبيان ذلك ما قاله الإمام المازري: الأشياء التي يفتقر فيها إلى تفصيل قلما يوجد فيها مثلما يوجد في صناعة الطب، فإن المريض قد يجد الشيء دواء له في ساعة، ثم يصير داء له في الساعة التي تليها، العارض يعرض له من غضب يحمي مزاجه، فينتقل علاجه إلى شيء آخر بسبب ذلك، وذلك مما لا يحصى كثرة، وقد يكون الشيء شفاء في حالة وفي شخص فلا يطلب الشفاء به في سائر الأحوال ولا في كل الأشخاص، والأطباء يجمعون على أن العلة الواحدة يختلف علاجها باختلاف السن.

قال: وبه علم جهالة المعترض، ولسنا نستدل على صدقه ﷺ بصدق الأطباء، بل لو كذبوه كذبناهم وكفرناهم؛ وإنما خرجنا على ما يصح من قواعدهم لأنه ﷺ لا يكذب وإنما بينا

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٧: ١٥٩). ومسلم في الصحيح (السلام: ٣١). والترمذي في السنن (٢٠٨٢). وأحمد في المسند (٣: ١٩).

أي بهذا الجواب، جهالة المعترض بالصفة التي ينتمي إليها.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[كان يصلي ﷺ فعرض له الشيطان]

قوله في المقصد التاسع عند قول المواهب وكان ﷺ يصلي فعرض له الشيطان ليقطع عليه صلاته فأخذه ﷺ وخنقه حتى سال لعابه على يديه الحديث في الصحيحين والنسائي ولفظ البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة أو كلمة نحوها. ليقطع عليّ الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٨] فرددته خاسئاً».

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[الشفاعة]

قوله في المقصد العاشر عند ذكر المواهب حديث الشفاعة، وفيه: فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»، ولم يذكر نبأ في رواية أبي هريرة.

وفي رواية ابن عباس قال إني اتخذت إلٰهاً من دون الله نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» يعني أنه ﷺ غير مؤاخذ بذنب لو وقع.

قال الحافظ ابن حجر: يستفاد من قول عيسى نبينا هذا، أو من قول موسى: إني قتلت نفساً وأن يغفر لي اليوم حسبي مع أن الله قد غفر له بنص القرآن التفرقة بين من وقع منه شيء ومن لم يقع منه شيء أصلاً، فإن موسى مع وقوع المغفرة لم يرتفع إشفاقه من المؤاخذة بذلك، ورأى في نفسه تقصيراً عن مقام الشفاعة مع وجود ما صدر منه بخلاف نبينا ﷺ في ذلك كله، ومن كمّ احتج عيسى بأنه صاحب الشفاعة لأنه غفر ما تقدم من ذنبه وما تأخر. بمعنى أن الله أخبر أن لا يؤاخذه بذنب لو وقع منه، قال وهذا من النفائس التي فتح الله بها في فتح الباري فله الحمد.

وقال القاضي عياض: يحتمل أنهم علموا أن صاحبها محمد ﷺ معيناً، وتكون إحالة

كل واحد منهم على الآخر على تدريج الشفاعة في ذلك إليه، إظهاراً لشرفه ﷺ في ذلك المقام العظيم.

وإنما خص الخمسة بالمجيء إليهم، وهم آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام دون باقي الأنبياء، لأنهم مشاهير الرسل، وأصحاب شرائع عمل بها مدداً طويلة مع أن آدم والد الجميع، ونوح الأب الثاني، وإبراهيم مجمع على الثناء عليه عند جميع أهل الأديان وهو أبو الأنبياء بعده، وموسى أكثر الأنبياء آتباعاً بعد المصطفى وعيسى، لأنه ليس بينه وبينه نبي، ولأنه من أمته ﷺ ولم يلهم الناس المجيء إليه ﷺ من أول وهلة، لإظهار فضله وشرفه. قال الحافظ المذكور ولا شك أن في السائلين يستحضره إذ ذاك أحد منهم وكأن الله تعالى أنساهم ذلك للحكمة المذكورة، انتهت عبارة الزرقاني.

لكن قال الإمام الشعراني في كتابه «اليواقيت والجواهر»، وقال الشيخ محيي الدين رضي الله عنه: وإنما أخبرنا ﷺ بأنه أول شافع، وأول مشفع شفقة علينا لنستريح من التعب الحاصل بالذهاب إلى نبي بعد نبي في ذلك اليوم العظيم، وكل منهم يقول نفسي فأراد ﷺ إعلامنا بمقامه يوم القيامة لنصير في مكاننا مستريحين حتى تأتي نوبته ﷺ ويقول: «أنا لها». فكل من لم يبلغه هذا الحديث أو بلغه ونسيه لا بد من تعبه وذهابه إلى نبي بعد نبي بخلاف من بلغه ذلك ودام معه إلى يوم القيامة، فـ ﷺ ما أكثر شفقته على الأمة.

وإنما قال في الحديث: «لا فخر». أي لا أفتخر بكوني سيد ولد آدم من الأنبياء فمن دونهم وإنما قصدت بذلك راحتكم من التعب يوم القيامة بحكم الوعد السابق لي من الله عز وجل، أن أكون أول شافع وأول مشفع، فما زكى ﷺ نفسه إلا لغرض صحيح، وكذلك جميع الأمة لأنفسهم، لا يكون إلا لغرض صحيح، فإنهم منزهون عن رؤية فخر نفوسهم على أحد من الخلق انتهى كلامه.

ومن جواهر الإمام الزرقاني أيضاً

[جميع ما مدح به ﷺ ليس فيه إطراء]

وقد نقلت هذه العبارة في أول كتابي «الفضائل المحمدية» وقلت بعدها ما نصه: ولهذه الحكمة خص سيادته ﷺ في الحديث السابق بيوم القيامة وإلا فهو ﷺ سيد الناس، بل وسيد جميع خلق الله تعالى في الدنيا والآخرة، ولكن سيادته على الخلائق إنما تظهر ظهوراً تاماً للعالمين يوم القيامة، فيسلم بها ويشاهدها الموافق والمخالف من أمته وسائر الأمم ﷺ، ومع ذلك كان ﷺ في بعض الأحيان يقول، خوفاً من أن يعتقد أحد فيه الألوهية، لكثرة فضائله ومعجزاته ﷺ، كما اعتقدوها في غيره: «إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما

يأكل العبد»[١] وتارة يقول: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى قولوا عبد الله ورسوله**»[٢] وخيره الملك بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً.

وقال: «**أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا جعت سألت الله، وإذا شبعت شكرت الله**»[٣]، وما أشبه ذلك من الأحاديث التي بين ﷺ فيها حقيقة عبوديته لله تعالى، وإنه سيد المتواضعين كقوله لامرأة خافته: «**هوني عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**» واعلم أنه ليس في ما وصف به ﷺ نفسه الكريمة، وما وصفه به غيره من أصحابه ومن بعدهم من الأوصاف الجميلة والنعوت الجليلة، شيء من الإطراء الذي نهى عنه ﷺ بقوله: «**لا تطروني**»، فإن معنى الإطراء مجاوزة الحد في الثناء، وليس في شيء مما وصف به ﷺ من الثناء الجميل مجاوزة الحد. فهو جميعه عبارة عن حكاية أحواله الصحيحة، وذكر أوصافه الحقيقية، والإخبار بالواقع في شؤونه الشريفة ﷺ، وليس ذلك من الإطراء في شيء. قال الإمام البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعربَ عنه ناطق بفم

والإطراء الذي نهى عنه ﷺ هو أن يدعوا الألوهية فيه كما ادعاها النصارى في المسيح عليه السلام، ولذلك قال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى**» لم يوجد أحد ادعى فيه الألوهية ﷺ مع كمال فضائله وكثرة معجزاته إلى الغاية التي لم توجد في أحد من خلق الله تعالى، حماية من الله له ولكونه دائماً كان يكرر لهم عبوديته لله، ويقول: «**إنما أنا عبد إنما «أنا مسكين**»، «**اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين**»[٤].

مع أن بعض الفرق الضالة ادعوا الألوهية في بعض أصحابه ومن بعدهم كسيدنا علي رضي الله عنه وكرم وجهه.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٢٤). وأحمد في المسند (٢: ٢٩٨). والبغوي في شرح السنة (٣: ٢٦٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٩٨٧).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٢١٤). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ١٨٨).

(٣) رواه الدارمي في السنن (٢: ٣٢٠).

(٤) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ٣٩٦).

ومنهم العارف بالله تعالى الشيخ عبد الغني النابلسي[1] المتوفى سنة ١١٤٣ هـ رضي الله عنه

فمن جواهره

[شرح صلوات القطب عبد السلام بن مشيش]

قوله في خطبة شرحه على الصلاة المشيشية: الحمد لله الذي جعل الصلاة على سيدنا محمد ﷺ سيد العجم والعرب، من أعظم الرتب وأفضل القرب، ووفق إليها أهل العناية، وجعلها تعالى معراجاً إلى الولاية، ودليلاً على صحة الهداية وبلوغ النهاية، وسبباً لتكفير كل جناية، ولم يزل المحبون من أمته، وأهل القرب من أهل ملته، من شدة الحب، ودنو القرب، تفيض على قلوبهم أنوار المحبة، وتهز أرواحهم عواطف الدنو والقربة، فتنطق ألسنتهم بمعاني ما جعل في بواطنهم من شهود النور المحمدي، وما انكشف لأرواحهم من كمال السر الأحمدي، وما رام أحد منهم بذلك بلوغ معرفة قدر الرسول الكريم، ذي القدر العظيم، وما يعلمه إلا الخبير العليم، هيهات أن يبلغ من الخلق بمقاله وإن وفى، بعض أحوال الرسول اصطفى، وإنما يحومون حول الحمى، ولا يلحق أحد بيده السماء، إيه وممن خاطب بهذا المعنى بأفصح خطاب.

ونطق فيه بالصواب، وسلك في الصلاة على رسول الله ﷺ مسالك أولي الألباب، ودل خطابه على تحققه في مقام الاقتراب، وقربه من الجناب، بتحرير مقاله، والأدب بين يدي إرساله، هو الشيخ الإمام القطب العارق بالله تعالى الدال عليه ذو الطريقة السنية المستقيمة، والأحوال السنية العظيمة، وشريف النسب، وأصيل الحسب، سيدي عبد السلام بن مشيش الحسيني أدام الله علينا من بركاته بمنه وكرمه، ولما كانت التصلية لمنسوبة إليه تضمنت حقائق شريفة، ومعاني دقائق لطيفة، برزت من عالم غيب رب العالمين، إلى سماء قلوب العارفين.

---

(١) هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي شاعر وعالم بالدين والأدب، ولد ونشأ في دمشق سنة ١٠٥٠ هـ ورحل إلى بغداد وعاد إلى سورية فتنقل في فلسطين ولبنان واستقر في دمشق وتوفي بها ١١٤٣ هـ.

سألني شرح بعض تصلية الشيخ المذكور حفيده السيد العابد، الصالح الزاهد، مبين الطريقة، الباعث على تحقيق رسوم الحقيقة، الجبل الثابت، البحر الصامت، أبو حفص عمر بن عيسى بن عبد الوهاب الشريف الحسيني نفعنا الله تعالى به، وبصالح نسبه، آمين بمنه وكرمه فلم يسعني إلا إجابة داعيه، وتلبية مناديه، ثم ذكر ترجمة المصنف.

ومن جواهر العارف النابلسي أيضاً

[انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار]

قوله رضي الله عنه في شرح اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار فقوله: اللهم توجه للمطلوب، وطلب لحصول المرغوب، بالتوسل بالاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وقوله: صل، طلب من الله تعالى ودعاء أن يصلي على نبيه محمد ﷺ، والصلاة من الله على نبيه ﷺ زيادة تكرمة وإنعام ومن الملائكة رحمة واستغفار ومن العباد دعاء.

فتكريم الله عز وجل لرسوله ﷺ زيادة في تشريفه له وتقريبه منه، والصلاة على رسوله ﷺ من العبد وسيلة للقرب منه ﷺ، كما جعلت هدايا الفقراء إلى الأمراء وسائل ليتقربوا إليهم، وليعود نفعها عليهم، إذ هو ﷺ بعد صلاة الله عليه لا يحتاج إلى صلاة أحد، وإنما شرعت تعبداً لله وقربة إليه ووسائل للتقرب إلى جنابه المنيع، ومقامه الرفيع، ﷺ وهي من العبيد، على سبيل التأكيد، لا على سبيل التأسيس، كما هي من الله تعالى، فافهم أن صلاة الله تعالى على رسوله ﷺ سبقت صلاة غيره، ولا يحتاج الله صلاة غير الله تعالى بعد صلاته، ولكن جعلها العبادة سبباً للوصول لمرضاته، وباباً للدخول عليه سبحانه وتعالى، ومعراجاً للكرامات، ومفتاحاً لباب الخيرات، وسبيلاً لنيل البركات، وحصول الكرامات، وهي أفضل عبادات المتعبدين، وأعظم قربات السالكين، وأدل دليل على إرادات المريدين، وعلاقات على صدق المحبين، وكهف لإيواء الواصلين، وهي وإن اختلفت مواردها وتنوعت مصادرها، فمرجعها إليه، وحقيقتها منه عليه، إذ صلى على محمد إلا محمد ﷺ، لأن صلاة العبيد عليه ﷺ صدرت منهم بأمره ﷺ وبالتحقيق، ما صلى على رسول الله ﷺ إلا الله إذ هو تعالى ما صلى عليه بنفسه أو بفعله.

وقوله: على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار: يريد سيدنا ومولانا محمداً ﷺ، والأسرار، جمع سر، والمراد بها، أسرار الذات، وأسرار الصفات، وأسرار الأفعال، فهذه الأسرار كلها كانت مبطنة لما تجلى عليها من اسمه الباطن حجب عنها خلقه بنور كبريائه،

فكانت كذلك حتى جاء ﷺ، فحولها باسمه تعالى الظاهر، وأظهرها باسمه المبين ورفع عن بصائر المؤمنين الحجاب، فظهرت الأسرار لائحة الأنوار، فكان ﷺ هو المظهر لها وكاشف الحجاب عنها، فبنوره ظهرت الأسرار، وبسره أشرقت الأنوار، والمراد بالأنوار الأنوار الإيمانية التي أشرقت على قلوب المؤمنين.

وقد كانت قبل بعثه ﷺ مستورة بظلم الكفر، ودخان الشرك، فلما جاء النور المحمدي أشرقت في سماء قلوب من أراد الله تعالى به هدايته، فكشف عنها ظلم الكفر، وأشرقت فيها أنوار الإيمان وإلى هذا المعنى أشار الشيخ ﷺ رضي الله عنه بقوله منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار، أي منه ظهرت وعنه صدرت فمنه مبدؤها وعنه مصدرها، وما قلنا من انكشاف الأسرار فذلك بحسب المقامات فكل ذي مقام ينكشف له من الأسرار ما يليق بمقامه.

ثم قال: وبالجملة فجميع ما أودع الله سبحانه في مكوّناته من الأسرار فهو ﷺ المظهر لها بعدما كانت القلوب غافلة، والأرواح جاهلة بها، فنبه ﷺ القلوب لما كانت منه غافلة، وعلم الأرواح ما كانت له جاهلة.

وقال عند قوله: «وفيه ارتقت الحقائق» أي أنه ﷺ ارتقت فيه حقائق جميع الأشياء العلوية والسفلية والمعنوية والحسية اللطيفة والكثيفة، فجميع حقائق هذه ارتفعت فيه وتجلت في باطنه حتى صار قلبه معدناً لها، وباطنه مرساها، فقلبه ﷺ معدن الحقائق والأسرار، وباطنه مهبط العلوم والأنوار.

وإنما خص قلبه ﷺ لاتساعه بذلك، فما وسعه لا يسعه غيره، فكل ما اجتمع فيه ﷺ افترق في غيره من المرسلين والنبيين والعارفين والصديقين، ولهذا قيل محمد ﷺ اجتمع فيه ما افترق في غيره، وأنما كان قلبه ﷺ معدن الحقائق العرشية، والأسرار الكرسية، العلوم اللوحية، والأنوار الملكوتية، لأن قلبه وباطنه ﷺ من تلك العوالم العلوية والشيء قد يألف الشيء لنسبة بينهما.

ومن جواهر العارف النابلسي أيضاً

[شرح وتنزلت علوم آدم]

قوله رضي الله عنه في شرح: وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق. فنبينا محمد ﷺ مفيد لا مستفيد، فأرواح العلماء وقلوب العارفين من المرسلين والنبيين وعباد الله الصالحين تتلقى من روحه ﷺ العلم والحكمة والمعارف الربانية والأسرار الملكوتية، ولهذا سمّى روحه ﷺ

أبا الأرواح، فعلوم العلماء ومعارف العارفين وحكم الحكماء كلها من استفادة علومه ﷺ ومعارف حكمه، وكل ما علمه العالمون، واستفاده العارفون، وفهمه الحكماء من علوم ومعارف وحكم، نقطة من بحره ﷺ، فهو بحر العلوم ومنبعها، وقلبه معدنها، وباطنه مهبطها ومرساها.

فظهر من هذا أنه ﷺ وارث في الوجود الذاتي، موروث في الوجود الروحاني، ولهذا قيل إذا لقي آدم عليه السلام نبينا ﷺ يقول آدم لنبينا عليه الصلاة والسلام: «يا ولد ذاتي، ووالد معناي»، مشيراً إلى أن روحه ﷺ أبو الأرواح.

وقال رضي الله عنه عند قوله: تضاءلت الفهم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، أشار رحمه الله تعالى إلى خفي مسره، وروحانيته الأحمدية، ورفع قدر صورته المحمدية، إذ حقيقة ذلك لم يدركها أحد بفهمه، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما يشاء الله من ظواهر الأمور دون بواطنها وجليها دون خفيها، فالفهوم كلت والعقول وقفت، وتضاءلت عن درك خفي سره الوقوف على حقيقته ﷺ في هذه الدار، بل عن فهم حقيقة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فكيف سيدهم وإمامهم ﷺ؟

وما أدرك الناس من حقيقة أمره وخفي سره، إلا على قدر عقولهم اليسيرة، فما ظهر لهم من ذلك أنعم به عليهم ليعرفوا قدره ويعظموا أمره وما خفي عنهم منه فرحمة من الله بهم، إذ لو ظهر لهم مع عدم قيامهم بالحقوق لكان فتنة لهم، والله تعالى أرسله رحمة للعالمين، فكانت النعمة في ما ظهر، والرحمة في ما استتر، ثم إن الناس في اطلاعهم على سر نبوته وخصوصية رسالته ﷺ بحسب مقاماتهم ومنازلهم، فكل أحد كشف له من ذلك بحسب مقامه، وعلى قدر قرب روحه ﷺ، وأعظم الناس كشفاً لذلك، وأكثرهم عليه اطلاعاً الصديق رضي الله عنه، فما كشف له من خصوصية الرسالة المحمدية وحقيقة السر الأحمدي لم يكشف لأحد غيره تعظيماً واحتراماً، إذ كان أول المؤمنين بنبوته والمصدقين برسالته ﷺ من غير طلب دليل، ولم يعتره توقف ولا تأويل.

ومن جواهر العارف النابلسي أيضاً

[قوله عند قول المصنف : رياض الملكوت]

قوله رضي الله عنه عند قول المصنف: فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة. الملكوت عبارة عن حضرة الأرواح، والجبروت عبارة عن حضرة الأسرار، وهو ﷺ ظهر في حضرة الأرواح بجماله فتألقت. وفي حضرة الأسرار بنوره فأشرقت.

وقال: عند قوله: «ولا شيء إلا وهو به منوط» إشارة إلى تعلق الأشياء به ﷺ منها ما هو متعلق به تعلق استناد، ومنها ما هو متعلق به تعلق استمداد، فكل شيء إليه استناده ومنه استمداده، «إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط».

يشير إلى اعتبار وجوده ﷺ في الوجود، إذ لولا وجوده ﷺ لما وجد الوجود، فنسبته منه كنسبة الواسطة إلى الموسوط.

قال عند قوله: «اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك»: ضمن الشيخ في كلامه هذا حصول ثلاث مقامات لنبينا ﷺ: **الأول**: كونه ﷺ سر الله الجامع. **الثاني**: كونه دالاً عليه. **الثالث**: كونه حجابه الأعظم القائم بين يديه.

فهذه مقامات ثلاثة أقامه الحق فيها واختاره لها وأهله لها وأمده فيها بالمعونة والتأييد، والتيسير والتسديد، وهذه المقامات، وإن شاركه فيها غيره من المرسلين عليهم الصلاة والسلام، فلم يبلغ أحد منهم مبلغه ﷺ، ولا ترقى أحد إلى مقامه، فأما كونه ﷺ سر الله الجامع، لأنه ﷺ مجمع جميع أسرار أسماء الصفات.

وأما أسرار الأفعال فهو مُظهرها ومَظهرها، وهو سر الله تعالى الذي أودعه في مكوناته العلوية والسفلية، فهو السر الذي به ظهرت الأسرار، وهو النور الذي به أشرقت الأنوار، فلا مكون إلا هو سره، الذي قام به أمره، فلولا السر المحمدي الذي أودعه الله المكونات الملكوتية، والسر الأحمدي الذي أودعه الله المكونات الملكية، لما قامت بها أسماء الصفات وأسماء الأفعال، ولما كانت أثراً يقوم بها الاستدلال.

وأما كونه ﷺ دالاً على الله تعالى فلأنه الدليل الأعظم بعثه الله ليدل عليه، ويعرف الطريق إليه، بعثه في زمان قد عمت به الضلالة، وكثرت فيه الجهالة، الخلق فيه عن الله معرضون، وعن بابه حائدون شاردون، فدلهم على الله تعالى وعرفهم الطريق إليه وردهم إلى بابه الكريم، ونهج بهم الصراط المستقيم، فكانت رسالته ﷺ عامة، ودلالته تامة، فدل على الله بأقواله وأفعاله، وأيقظ الأرواح إلى ملاحظة جلاله وجماله، فكل داع إلى الله تعالى فإنما يدعو بدعوته وكل دليل فإنما يدل بدلالته، وكانت دعوته ﷺ إلى الله تعالى ودلالته عليه بسياسة محمدية، وتعريفه إياهم له تعالى بحكمة أحمدية، فلم يخرق حجاب العظمة والوقار.

وإنما رفع عن بصائر العارفين حجب الأغيار، وظلم سحائب الآثار، وأما كونه ﷺ حجابه القائم له تعالى بين يديه فلأنه ﷺ حجب العقول عن النظر في حقائق الذات والتفكر

فيها، فعقل العقل عن النظر إلى ما ليس له إليه سبيل بهذا أرسل ﷺ، وبه أمر فكان حجاب الله الأعظم القائم له بين يديه تعالى.

ومن جواهر العارف النابلسي أيضاً

[قوله عند قول المصنف اللهم ألحقني بحسبه]

قوله عند قول المصنف اللهم ألحقني بحسبه وحققني بنسبه وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل وأكرع بها من موارد الفضل: المعرفة الحقيقية لله ورسوله ﷺ هي ما أثمرت ثمرة، وأنتجت نتيجة، وكل معرفة لا ثمرة لها ولا نتيجة فليست بمعرفة على الحقيقة، فالشيخ رضي الله تعالى عنه طلب من الله تعالى أن يعرفه برسول الله ﷺ معرفة تثمر له ثمرة وتنتج له نتيجة، وذكر ذلك فقال: أسلم بها من موارد الجهل وأكرع بها من موارد الفضل ولا شك أن من عرف رسول الله ﷺ حق المعرفة أثمرت له معرفته به ﷺ ثمرات، وأنتجت له نتائج منها: أن يسلم من موارد الجهل ويكرع من موارد الفضل، وحق لمن تحقق بمعرفته ﷺ أن يكون بهاتين الخصلتين العظيمتين، لأن معرفته ﷺ تقتضي ذلك، وكيف لا وقد قرب سر العارف من سر معروفه، وتألفت روحه مع روحه، والقرب والائتلاف يقتضيان المتابعة والاقتداء وذلك سبب لأن يرد التابع موارد متبوعه، وينهل مناهله فينكشف لسر العالم ولروحه العلوم اللدنية، والأسرار العرفانية ما يزحزحه عن موارد الجهل، ويتصف بمقتضى العلم، فيصير القلب عارفاً والروح عالماً، ويرد هذا العالم من موارد الصفاء التي وردها المقربون، وينهل المناهل التي شرب منها العارفون، والكرع عبارة عن شرب المتعطش اللهفان المشتاق إلى الورود الراغب في الازدياد، وموارد الفضل، أي مشارب أرواح المقربين وموارد أسرارهم التي لا تدرك بالطلب، ولا تنال بسبب، بل بمجرد الفضل الإلٰهي والعناية الربانية، ولهذا قيل موارد الفضل.

ومن جواهر العارف النابلسي أيضاً

[قوله عند قول المصنف واحملني على سبيله]

قوله عند قول المصنف واحملني على سبيله إلى حضرتك حملاً محفوفاً بنصرتك: هذا مطلب الصديقين القاصدين إلى حضرة مولاهم جل جلاله إذ غاية مقصودهم وأقصى مرادهم ومطلبهم الوصول إلى الحضرة الربانية، على كاهل السنة المحمدية، والحمل على السبيل هو الجواذب الربانية، التي تجذب السالك إلى حضرة الله تعالى جذباً على سبيل السنة المحمدية.

فإذا أراد الله سبحانه أن يبلغ السالك إلى حضرته الكريمة حمله إليها على سبيل الاقتداء

بالدليل الأعظم، والرسول الأكرم، نبينا ومولانا محمد ﷺ، فيكون في سلوكه متبعاً له ﷺ في أقواله وأحواله وأفعاله، وفي حركاته وسكناته محفوفاً في جميع ذلك بنصرة الله تعالى له، فيكون في سلوكه بربه لا بنفسه.

وهذا من علامات الوصلة، وإمارات القربة، والحضرة مأخوذة من الحاضرة، وكثيراً ما يجري ذكرها على لسان القوم، وكثير من المتصوفة لا يعلمون لها حقيقة، وهي عبارة عن موطن من مواطن القرب والمشاهدة، فإذا كان العبد على بساط الحق مشاهداً لصفاته تعالى فيسمى ذلك الموطن حضرة الصفات، وإذا كان مشاهداً للأفعال فيسمى ذلك الموطن حضرة الأفعال.

ومن جواهر العارف النابلسي أيضاً

[قوله عند قول المصنف واجعل لهم الحجاب]

قوله عند قول المصنف: واجعل اللهم الحجاب الأعظم حياة روحي وروحِه سرَّ حقيقتي وحقيقتَه جامعَ عوالمي.

المراد بالحجاب الأعظم ما تقدم ذكره من أنه ﷺ حجاب الله الأعظم القائم له بين يديه، وتقدم أنه إنما كان كذلك لأنه ﷺ حجب العقول، وعقلها بعقال شرعه المستقيم، عن النظر في حقائق الذات العظيمة، إذ ليس لها إلى ذلك سبيل، وأودع الله تعالى لنبيه ﷺ هذا السر العظيم ليكون رحمة ونعمة للوجود، وحياة للأرواح حيث حجبها عما فيه استهلاكها وفناؤها ولا قوة لها على كشف حقائقه، ولو كشف لها عن ذلك في هذه الدار، ورفع عنها الحجاب، لتفرقت الموجودات، وتمزقت وتدكدكت، كما تدكدك الجبل للكليم عليه الصلاة والسلام.

ولهذا اتفق أهل المعرفة إن الله سبحانه لا يتجلى لأحد من أوليائه، ولا ينظر إليه أحد منهم في هذه الدار، إلا من وراء الحجب التي حجبهم بها عن إدراك كنه ذاته العظيمة، ولولا تلك الحجب لتلاشى الوجود وماتت الأرواح، فكان الحجاب الأعظم حياتهم، فطلب الشيخ أن يكون الحجاب الأعظم حياة روحه، إشارة إلى ما قلناه فافهم.

قوله: «وروحه سرّ حقيقتي» أراد أن يكون الروح المحمدي سر حقيقته فيكون حقيقة محمدية.

قوله: «وحقيقته جامع عَوالمي» أراد الحقيقة المحمدية. إذ هي جامع العوالم اللطيفة الإنسانية، انتهى ما نقلته من شرح العارف بالله سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه على صلاة سيدي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه.

ومن جواهر العارف النابلسي أيضاً

[شرح فص الحكمة المحمدية]

قوله رضي الله عنه في شرحه على فصوص الحكم للشيخ الأكبر رضي الله عنه في شرح فص الحكمة المحمدية وهو خاتمة الفصوص، ذكره بعد حكمة خالد بن سنان عليه السلام، لأنه كان قريباً من زمانه، ولأنه ﷺ آخر الأنبياء، وخاتم المرسلين، فناسب أن يختم به الكتاب، كما بدأ بآدم عليه السلام، ولأنه ﷺ جامع لمشارب النبيين، والمرسلين كلهم عليهم السلام، فكان ذكره بعد تمام ذكرهم كالإجمال بعد التفصيل، وكالفذلكة في الحساب الطويل.

ثم قال في شرح قوله: فص حكمة فردية في كلمة محمدية: إنما اختصت حكمة محمد ﷺ بكونها فردية لانفراده ﷺ بالفضيلة التامة، والكرامة العامة، والمرتبة السامية على الجميع، والمزية التي من انتسب إليها بالمتابعة لا يضيع، والشرف العالي في الدارين، والقدر الرفيع الذي نصبت أعلامه في الخافقين، ولقول المصنف: ولم يعلل حكمة غيرها إفراداً لها بالاعتناء والاهتمام بشأنها إنما حكمته ﷺ فردية لأنه أكمل موجود في هذا النوع الإنساني، ولهذا بدئ به الأمر وختم، فكان نبياً وآدم بين الماء والطين.

ثم كان بنشأته العنصرية خاتم النبيين ولهذا بدئ به الأمر، أي الإلٰهي فهو أول مخلوق من حيث كونه نوراً كما ورد في حديث جابر الذي أخرجه عبد الرزاق في مسنده: يا رسول الله أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء قال: **«يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره»**. الحديث.

ثم قال عند قوله: **«فكان نبياً وآدم بين الماء والطين»**[١]. ورد في الحديث. وفي رواية: **«كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»**[٢] رواه الطبراني عن ابن عباس.

وفي رواية **«كنت أول الناس في الخلق، وآخرهم في البعث»**[٣] رواه ابن سعد عن قتادة مرسلاً.

وفي رواية: **«كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»**[٤] رواه الحاكم في

---

(١) رواه السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (١٢٦). وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢: ٣٤١).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٠٩). وابن أبي شيبة في المصنف (١٤: ٢٩٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٧).

(٣) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٦). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٣: ٩١٩).

(٤) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢١٢٦). وأبو نعيم في دلائل النبوة (١: ٦). والسيوطي في الدر المنثور (٥: ١٨٤).

مستدركه، يعني أنه ﷺ كامل الخلقة، شريف المقام والمرتبة، من حيث خلقه الله تعالى نوراً إلى أن فصّل مجمله ظهوراً، فخلق له القالب الآدمي واستعمله في ظهور صورته العظيمة، ثم صفاه في مصافي قوالب الكاملين من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام حتى أخرجه هذا الوجود، وأفاض به إناء المكارم والوجود، فكان في الآخر كما كان في الأول، فهو الفرد الكامل الذي عليه المعول.

ومن جواهر سيدي عبد الغني النابلسي أيضاً

[قوله فكان ﷺ أول دليل على ربه]

قوله رضي الله عنه عند قول الشيخ الأكبر قدس سره في الفص المذكور: فكان عليه السلام أول دليل على ربه، أوتي جوامع الكلم التي هي مسميات أسماء آدم عليه السلام. فقد علم الله تعالى آدم الأسماء كلها، يعني أسماء كل شيء، وعلم محمداً ﷺ مسميات تلك الأسماء، فكان آدم عليه السلام مظهر الأسماء، ومحمد ﷺ مظهر الذوات والأسماء داخلة في الذوات، فآدم عليه السلام حافظ الأسماء على الذوات ومحمد ﷺ حافظ الذوات مع الأسماء واسم آدم من جملة الأسماء وذاته من جملة الذوات، كما أن اسم محمد من جملة الأسماء، وذاته من جملة الذوات، فآدم عليه السلام أبو الأسماء ومحمد ﷺ أبو الذوات.

والأسماء صور الكلمات والذوات معانيها، والأسماء عالم الأجسام والذوات عالم الأرواح، والأجسام من الأرواح والأرواح من نور محمد ﷺ وهو من نور الله تعالى. قال تعالى: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور:٣٥] وهذا هو الأصل: ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ [النور:٣٥] أي الذي خلق الله تعالى منه كل شيء كما ورد في الحديث السابق وهو نور محمد ﷺ ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ [النور:٣٥] هي آدم عليه السلام ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور:٣٥] هو روحانية محمد ﷺ ﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ [النور:٣٥] هي روح العبد المؤمن.

قال الله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣] وفي الحديث القدسي: «ما وسعني سمواتي ولا أرضي، ووسعني قلب عبدي المؤمن».

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر:١] وهو نهر في الجنة، وهو الكثرة في الوحدة وهي جوامع الكلم التي قال تعالى عنها: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف:١٠٩] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان:٢٧].

ومن جواهر سيدي عبد الغني النابلسي

[مسألة صدور العصيان من الأنبياء]

قوله رضي الله عنه في كتابه الفتح الرباني والفيض الصمداني في الباب الأول منه: نظرت مرة في كلام العلماء من أهل الرسوم في مسألة صدور العصيان من الأنبياء عليهم السلام نحو قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وقوله لمحمد ﷺ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، [الشرح: ٢ - ٣] وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] وقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١ - ٢]، وقوله عن آدم وحواء عليهما السلام: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]، وقوله عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله عنه: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، وقوله عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ [ص: ٢٤]، وعن سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ﴾ [ص: ٣٤]، وقوله عنه: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، وقول يوسف عليه السلام: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقول الله تعالى عنه: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، وقوله إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وكان هو الفاعل بدليل قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ﴾ [الأنعام: ٧٦]، إلى غير ذلك مما ورد عن الأنبياء عليهم السلام من وقوع العصيان منهم، فرأيت طائفة شددت في الاعتراف بجميع ذلك، وفي وجوب اعتقاد نسبة العصيان إليهم عليهم الصلاة والسلام، لضرورة الإيمان بكتاب الله تعالى بجميع ما أخبر الله تعالى عنهم فيه، باعتبار صدقه تعالى في جميع ما أخبر به حتى قالوا كل من قال إن الأنبياء لم يعصوا قبل النبوة، ولا بعدها كفر، لإنكاره النصوص وعدم إيمانه بها.

وطائفة أخرى شددت في تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن نسبه العصيان إليهم قبل النبوة وبعدها، وقالوا: ومن التزم ظواهر النصوص أفضت به إلى تجويز الكبائر عليهم وخرق الإجماع، وما لا يقول به مسلم، وبالغوافي تأويل جميع ما ورد صرفه عن ظاهره.

فوقفت على كلام هاتين الطائفتين وتأملت فيه، فعظمت عندي الحيرة فقمت إلى الصلاة وركعت ما يسره الله تعالى طالباً من الله تعالى الهداية إلى ما هو الصواب في الإيمان بذلك والاعتقاد، ونشر ما هو الحق بين العباد، فجاء في الوارد وأنا في الصلاة قبل الفراغ منها بالسلام، بمعاني يتلى عليك من الكلام، وذلك أن الذي هو مذهبي في هذه المسألة أن

النصوص القرآنية والأحاديث النبوية منقسمة إلى نوعين: منها المحكم، ومنها المتشابه.

والمتشابه على قسمين: متشابه به وارد في حق الله تعالى، ومتشابه وارد في حق الأنبياء عليهم السلام. ولا شك أن حقيقة الله مجهولة للأنبياء عليهم السلام، ومعرفتهم به تعالى إنما هي معرفة عجز عنه، وتنزيه تام، والإلزام أن يكون شيء منهم قديماً أو شيء منه حادثاً وهذا محال.

وكذلك معرفتنا بحقيقة الأنبياء عليهم السلام معرفة عجز وتنزيه تام، وإلا كان فينا من نبوتهم شيء، أو فيهم من عدم نبوتنا شيء، فيلزم ثبوت النبوة في غيرهم عليهم السلام، أو عدم ثبوتها لهم وذلك محال. فالحقيقتان مجهولتان لنا، حقيقة الله تعالى، وحقيقة الأنبياء عليهم السلام. ولكل من الحقيقتين صفات ثابتة في النصوص يجب الإيمان بها كلها على حسب ما هي عليه في نفس الأمر لا على حسب ما نعقله نحن منها. والمتشابه وارد في وصف كلتا الحقيقتين، والصواب في كيفية الإيمان به مذهب السلف رضي الله عنهم، وهو تسليم معنى ذلك إلى الله ورسوله مع كمال اليقين به، وصحة الإطلاق والتسمية على حسب ما هو وارد ألفاظ النصوص من غير تأويل لشيء من ذلك، ولا صرفه عن ظاهره، ولا الإيمان به على ما يظهر لنا منه.

فنطلق على الله تعالى جميع ما أطلقه على نفسه من الوجه واليد والاستواء والمجيء ونحو ذلك على المعنى الذي يعلمه الله تعالى لا على المعنى الذي نعلمه نحن.

وكذلك نطلق على الأنبياء عليهم السلام جميع ما أطلقه الله عليهم، وأطلقوا على أنفسهم أو أطلق بعضهم على بعض من العصيان، والغي والذنب والفتنة، وعدم براءة النفس، والوزر إلى غير ذلك، ولكن على المعنى الذي يعلمه الله تعالى وتعلمه أنبياؤه عليهم السلام، لا على المعنى الذي نعلمه نحن ونفهمه من هذه الألفاظ عند إطلاقها، فإنا لا نعلم ولا نفهم إلا ما نحن عليه من الأحوال والأخلاق، ونحن غير معصومين، وإن أيدنا بالحفظ، والأنبياء عليهم السلام معصومون، ونحن لا نعقل كيف تنسب هذه الأشياء إليهم لأنا لسنا في أطوارهم عليهم السلام، وإنما نعقل كيف تنسب هذه الأشياء إلينا، ونحن دون مقاماتهم بيقين، فلا نعلم كيف تنسب إليهم بيقين. وليس هذا موضع الكلام على المتشابه، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله مفصلاً. انتهى وهو كلام نفيس جداً ولم أره لغيره في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومن جواهر العارف النابلسي أيضاً

[المتشابه في ذات الله وصفاته وهو غاية النفاسة]

كلام العارف النابلسي في ذات الله تعالى وصفاته وكلامه على المتشابه منها. وحيث كان

كلامه الذي أشار إليه في حق المتشابه، بقوله سيأتي الكلام عليه هو في غاية النفاسة والاتقان، ومعرفته من أهم المهمات لأهل الإيمان، ولم أره لغيره من العلماء وأهل العرفان، وهو عقيدة الشيخ رضي الله عنه وقد أحسن فيها كل الإحسان، رأيت من الصواب أن أنقله هنا حباً بنفع المسلمين ونشر عقيدة هذا الإمام، المتفق على جلالته بين أئمة الإسلام.

قال رضي الله عنه في كتابه المذكور في الباب الثالث منه: اعلم يا أيها الإنسان المطلق، والباب المرتج المغلق، والسر المكتوم في الأكوان، وبالله المستعان، إن الأكوان جميعها في القلوب وليست القلوب في الأكوان، والبواطن أوعية الظواهر وليست الظواهر أوعية البواطن، فمن نظر إلى الظواهر نظر إلى المظروفات ومن نظر إلى البواطن نظر إلى الظروف، وأنت إنما جئت من باطنك إلى هذا العالم لا من ظاهرك إليه فاحذر من تلبيس الشيطان، واخرج من حيث جئت، لا من حيث أنت.

فإن هذا باب الأزلية وحيث علمت مزية الباطن على الظاهر، فاعلم أن هذا سبب اختصاصه بالعقيدة بخلاف اللسان فأنصت بإذن قلبك لما أفرغ عليك مما في إنائي من العقائد الصحيحة لتغسل بذلك نجاسة الشكوك والأوهام وترفع أحداث البدع والزيغ والضلالات.

فأقول وبالله التوفيق أشهدني ربي بمنته وفضله عليَّ، فشهدت بحوله وقوته لا بحولي وقوتي أنه هو الله الذي لا إله إلا هو ذات قديمة أزلية لا تشبه الذوات، ولا تماثل شيئاً من ذرات الموجودات، وجودها عين ذاتها لا قدر زائد عليها، ليست هي من شيء من الأشياء، لا هي من قسم الأجسام، ولا من قسم الأعراض، ولا من قسم النفوس، ولا من قسم العقول، ولا من قسم الأرواح، ولا من قسم العلوم، ولا من قسم الأوهام، ولا من قسم الخواطر، ولا من قسم الأفهام، ولا من قسم التخيلات، ولا من قسم الأنوار، ولا من قسم الظلمات، ولا من قسم اللمحات، ولا من قسم القوى، ولا من قسم الاستعدادات، وليست فوق شيء من جميع ما ذكرنا، ولا تحت شيء من جميع ما ذكرنا، ولا عن يمين شيء من جميع ما ذكرنا، ولا عن يسار من جميع ما ذكرنا، ولا قدام شيء من جميع ما ذكرنا، ولا خلف شيء من جميع ما ذكرنا، ولا من جهات شيء من جميع ما ذكرنا، ولا داخلة في شيء من جميع ما ذكرنا ولا خارجة عن شيء من جميع ما ذكرنا، ولا يخلو عنها شيء من جميع ما ذكرنا، وليست بعيدة عن شيء من جميع ما ذكرنا، ولا قريبة إلى شيء من جميع ما ذكرنا، وهي متنزهة عن جميع ما يخطر في العقول والنفوس الكاملة المكملة فضلاً عن العقول القاصرة، ومتنزهة عن هذا التنزيه أيضاً، لأنه حادث، فلا يليق أن يكون وصفاً للقديم، وكذلك هي عن كل تنزيه يحكم به العقل السليم، وصفات هذه الذات المنزهة قديمة أيضاً، أزلية ليست عينها، ولا أمر زائداً عليها،

والعالم جميعه مقتضاها لا مقتضى الذات، وهي منزهة أيضاً مثل تنزيه الذات المذكور، ولولا أنه تعالى وصف نفسه بها لما جسرنا أن نصفه بشيء منها لأنا لا نعرفه تعالى إلا من حيث عرفنا بنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

واعلم أن جميع الصفات التي وصف الله بها نفسه، إما في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، معان قديمة أزلية قائمة بذاته العلية، فكما أنها ليست عين الذات ولا غير الذات، كذلك كل صفة منها ليست عين الصفة الأخرى ولا غيرها، فذاته تعالى لها الوحدانية والأحدية وهي وصفاتها لا تركيب فيها بوجه من الوجوه، وإنما الصفات كلها نسب بين الله تعالى وبين العالم من العدم إلى الوجود عن تلك الذات القديمة إلا بواسطة اتصافها بهذه الصفات القديمة أيضاً.

والله تعالى قد تعرف إلينا من حيث الشرع بترجمة تلك المعاني القديمة القائمة بذاته التي هي صفاته باللسان العربي في كلامه القديم وعلى لسان رسوله ﷺ. فجميع تلك الألفاظ العربية التي ترجمت لنا بها تلك المعاني التي هي صفاته تعالى حقائق موضوعة لتلك المعاني التي هي صفاته تعالى حقائق لتلك المعاني لا مجازات.

وأما الذي فهّمنا الله تعالى إياه من تلك الألفاظ العربية وخلقه فينا وسماه لنا بتلك الألفاظ فهو مجاز في اللسان العربي. فالقدرة مثلاً معناها الحقيقي في اللسان العربي الذي نزل به القرآن العظيم ما الله تعالى متصف به.

وأما ما خلقه فينا من القدرة الحادثة لنا على بعض الأشياء وفهمنا إياه من معنى القدرة، فهو معنى مجازي للفظ القدرة وفي اللسان العربي، وكذلك على هذا المنوال جميع ما سنذكره من الصفات.

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤] فاللسان العربي الذي نزل به القرآن على صدر محمد ﷺ جميع كلماته حقائق مستعملة في معانيها الحقيقية بالنسبة إلى الله تعالى.

وقد خلقنا الله تعالى متصفين بتلك الكلمات العربية المنزلة لكن بطريق المجاز وهو استعمال اللفظ في معنى آخر غير ما وضع له، ولهذا قال: خلق الإنسان، وفي الحديث أن الله خلق آدم على صورته.

وفي رواية خلق آدم على صورة الرحمٰن، والمعنى أن الوصف الذي وصف الله تعالى به نفسه حقيقة في كلامه المنزل على رسوله ﷺ خلقنا متصفين به، لكن مجازاً لا حقيقة.

ثم إنه سبحانه وتعالى علمنا تلك المعاني المجازية التي خلقنا متصفين بها ولم يعلمنا

المعاني الحقيقية لتلك الألفاظ العربية التي هو سبحانه وتعالى متصف بها لعدم إمكاننا فهم ذلك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦] فإذا آمنا به تعالى نظرنا إلى ما وصف به نفسه في كلامه القديم على لسان رسوله ﷺ فوصفنا الله تعالى بجميع ذلك على حسب المعنى الحقيقي الذي هو في علم الله تعالى لا على حسب المعنى المجازي الذي وضعه الله فينا وعلمنا إياه من تلك الكلمات العربية.

وصل في بيان الأوصاف التي وصف الله تعالى بها نفسه في كلامه القديم المنزل على محمد ﷺ.

وذلك أنه تعالى وصف نفسه بأنه رب العالمين، وإنه مالك أو ملك ليوم الدين، وإنه ليستهزئ بالمنافقين، فقال ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥]، وإنه يمد المنافقين فقال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[البقرة:١٥]، وإنه يذهب بنورهم ويتركهم في ظلمات، وإنه ﴿مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:١٩]، وإنه ﴿كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]، ، وأنه ﴿هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]، وإنه ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٩٥]، وإنه ﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦]، وإنه ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، وإنه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧].

وإنه تعالى له وجه فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص:٨٨]، وإن وجهه أينما نولي قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ﴾ [البقرة:١١٥]، وإنه ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧]، وإنه ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]، وإنه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩]، وإنه يوفي العهد لمن وفى بعهده فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، وإنه ﴿بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣]، وإنه يذكر من ذكره فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة:١٥٢]، وإنه ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، وإنه ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨]، وإنه ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وإنه يبين ﴿آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧]، وإنه ﴿لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]، وإنه ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤]، وإنه ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، وإنه ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:٢٠٢]، وإنه ﴿لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وإنه ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وإنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، وإنه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣]، وإنه ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة:٢٤٥]، وإنه ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وإنه ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وإنه ﴿وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وإنه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وإنه ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧]، وإنه ﴿عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤]، وإنه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨]، وإنه مالك

الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير، وإنه ﴿ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧]، وإنه ﴿ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران:٩٨]، وإنه ﴿ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران:١٢٠]، وإنه ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤١]، وإنه ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣٢]، وإنه ﴿ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٠]، وإنه ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وإن له ﴿ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران:١٨٠]، وإنه ﴿ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران:١٨٢].

وإنه رقيب علينا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء:١]، وإنه عليٌّ كبير قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[النساء:٣٤]، ، وإنه ﴿ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[النساء:٣٦]، وإنه ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [النساء:٨٥]، وإنه ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء:٨٦]، وإنه ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت:٥٤]، وإن ﴿ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٣٩]، وإنه ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة:٤٢]، وإنه ﴿ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ [البقرة:١٣٧]، وإنه ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:٣]، وإنه ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٨]، وإنه ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:١٢]، وإنه ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾ [الأنعام:٥٧]، أو يقضي الحق على القراءتين ﴿ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام:٥٧]، وإنه ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه:٩٨]، وإنه ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الأنعام:٩٥]، وإنه ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وإنه ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام:١٤١]، وإنه متصف بالصدق قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام:١٤٦]، وإن له رحمة وبأساً قال تعالى: ﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

وإنه ليس بغافل قال تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[هود:١٢٣]، وإنه ليس بغائب قال تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾[الإعراف:٧]، وإنه مستو على العرش قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[الأعراف:٥٤]، وإن له مكراً قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾[آل عمران:٥٤]، وإن له كلمة قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾[الأنعام:١١٥]، كلاماً قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٦]، وكلمات قال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾[الأعراف:١٥٨].

وإن له عندية قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، وإنه ﴿ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال:٢٤]، وإنه ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال:٥٨]، وإن له نوراً.

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ ﴾[الصف:٨]، وإنه نور قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور:٣٥]، وإنه يسخر من المنافقين.

قال تعالى: ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾[التوبة:٧٩]، وإن له رضى. قال تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾[المائدة:١١٩]، وله غضب. قال تعالى: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[الفتح:٦]، وإنه يأخذ الصدقات قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[التوبة:١٠٤]، وإنه ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام:١٠٢].

وإن له أعيناً قال تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[هود:٣٧]، وله عين قال تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾[طه:٣٩]، وإنه ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود:٥٧]، وإنه ﴿ قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود:٦١]، وإنه ﴿ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [هود:٦٦]، وإنه ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل:٢٣]، وإنه يمسك الطير.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النحل:٧٩]، وإنه يمسك السموات قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾[فاطر:٣٥]، وإنه ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [النحل:٩٣]، وإنه ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

وإن له روحاً قال تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[الحجر:٢٩]، ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾[مريم:١٧]، وله نفس قال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨]، ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه:٤١].

وإنه لا يضل ولا ينسى قال تعالى: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾[طه:٥٢]، وإنه ﴿ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج:٣٨]، وإنه ﴿ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج:٣٨]، وإنه ﴿ يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل:٢٥]، وإنه ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص:٧٦]، وإنه ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب:٥٢].

وإنه يحصل له أذى من الكافرين قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾[الأحزاب:٥٧]، وإنه ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة:١١٧]، وإنه ﴿ يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [سبأ:٤٨]، وإن له يدين قال تعالى: ﴿ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[ص:٧٥]، وإن له يداً. قال تعالى: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح:١٠]، وله أيد. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات:٤٧]، وإنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، وإنه ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩].

وإنه نسي المنافقين قال تعالى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[التوبة:٦٧]، وإنَّ له كيداً. قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾[الأعراف:١٨٣]. وقال تعالى: ﴿ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾[الطارق:١٥ - ١٦]، ، وإنه موصوف بأنه ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الرحمن:٢٩]، وإنه تعالى في السماء قال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك:١٧] وإنه جاء قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢] . إلى غير ذلك من الأوصاف التي وصف الرب سبحانه بها نفسه في كتابه العزيز.

ومن جواهره أيضاً

[ما وصف الله به نفسه على لسانه ﷺ]

وصل في ما وصف الله تعالى به نفسه على لسان رسوله محمد ﷺ: فمن ذلك أن له قدماً، روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يزال يلقي فيها، يعني النار، وتقول: هل من مزيد حتى يضع رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قط قط بعزتك وكرمك ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله خلقاً فيسكنهم فضل الجنة، وإن يده تعالى ملأى وبيده الأخرى الميزان»[1].

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار»[2].

وقال: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يده وكان عرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان ويخفض ويرفع»[3]، وإنه تعالى له أصابع.

روى البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إنَّ الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ: «﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[الأنعام: ٩١]».

وزاد فيه فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن عبد الله: فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً له. وورد في حديث آخر عن رسول الله ﷺ: «أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف شاء»[4]. وإنه يوصف بالإتيان في صورة ويوصف بالضحك.

روى البخاري في صحيحه وكل ذلك في كتاب التوحيد منه عن أبي هريرة رضي الله عنه وذكر الحديث إلى أن قال: «فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٩: ١٤٣). وابن حجر في فتح الباري (١٣: ٣٦٩).

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٦: ٩٢). وابن حجر في فتح الباري (٨: ٣٥٢). والمنذري في الترغيب والترهيب (٢: ٤٨).

(٣) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٢: ٣٦٢).

(٤) رواه الترمذي في السنن (٢١٤٠). وابن ماجه في السنن (٣٨٣٤). وأحمد في المسند (٣: ١١٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٢١٦).

فيتبعونه». وفي الحديث طول، ومنه في الرجل المقبل بوجهه على النار فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك منه قال له أدخل الجنة، وإنه يوصف بالصوت.

روى البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئاً فإذا فزع عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحق ونادوا ماذا قال ربكم قالوا الحق.

وعن عبد الله بن أنيس قال سمعت النبي ﷺ يقول: «**يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان**»[١]. وإنه يوصف بالنزول إلى السماء الدنيا كل ليلة.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فاستجيب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له**»[٢]. وإنه تعالى يوصف بأنه سمعُ من تقرب إليه بالنوافل وبصره ويده ورجله.

روى البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله تعالى قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولإن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته**»[٣]. وإنه تعالى يوصف بالفرح. روى البخاري في صحيحه في أوائل كتاب «الدعوات» عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعير قد أضله في أرض فلاة**»[٤].

وإنه تعالى له ظل. روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة**

---

(١) رواه ابن حجر في فتح الباري (١: ١٧٤).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٣١).

(٣) رواه البخاري في الصحيح (٨: ١٣١). والبيهقي في السنن الكبرى (٣: ٣٤٦). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢١٣٢٧).

(٤) رواه البخاري في الصحيح (٨: ٨٤). وابن ماجه في السنن (٤٢٤٩). وأحمد في المسند (٢: ٥٠٠). والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ١٩٦). =

الله عزَّ وجل ورجل ذكر الله ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله عزَّ وجل، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفقه يمينه»[1]. إلى غير ذلك مما ثبت في وصف الله تعالى في الأحاديث الصحاح عن النبي ﷺ.

وصل لإيضاح هذا الأصل

إنقسمت علماء الإسلام في جميع ما ورد من أوصاف الله تعالى في القرآن وفي السنة على قسمين السلف والخلف.

أما السلف فقد آمنوا بجميع ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ على حسب المعنى الحقيقي لذلك الوصف، وهو المعنى الذي يعلمه الله تعالى ويعلمه رسوله ﷺ لا على حساب المعنى المجازي لذلك الوصف، وهو ما تتخيله عقول المؤمنين وهو مذهب التسليم وهو أسلم فتقر بواطنهم بالعجز عن فهم المعنى الحقيقي من ذلك الوصف ويكلون علم ذلك إلى الله ورسوله فيكون إيمانهم بتلك الأوصاف إيماناً بالغيب عند العقل وقد مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة:٣] فيصفون الله تعالى بجميع ما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ويؤمنون بجميع ذلك لكن على حسب المعنى الذي عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ لا على حسب المعنى الذي عند عقولهم ولم يتحاشوا من إطلاق ذلك على الله تعالى، لأن الله تعالى أطلق ذلك على نفسه وأطلقه عليه رسوله ﷺ، فهم في ذلك الإطلاق تابعون لله ولرسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧].

ولا شك أن هذه الأوصاف في حقه تعالى ما ورد النهي عن إطلاقها عليه تعالى في كتاب ولا سنة، وإنما وردت هي بنفسها مطلقة على الله تعالى في الكتاب والسنة كما رأيت في ما ذكرنا.

ثم قال رضي الله عنه: والمذهب الحق إطلاق المتشابه على الله تعالى كما أطلقه على نفسه وأطلقه عليه نبيه ﷺ، وهو مذهب السلف والخلف رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وإنما الخلاف في صرف ذلك المتشابه إلى معنى من المعاني مما يحتمله ذلك اللفظ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ١٦٨). ومسلم في الصحيح (الزكاة: ٣). والترمذي في السنن (٢٣٩١). والنسائي في السنن (٨: ٢٢٢). وأحمد في المسند (٢: ٤٣٩).

يسمى بالتأويل، وهو مذهب الخلف مع عدم القطع به وهو الأحكم لأن فيه زيادة على مذهب السلف باعتبار فهم معنى وتسليم بقية المعاني المحتملة إلى الشارع فهو تسليم وزيادة، والسلف مذهبهم التسليم فقط من غير فهم شيء من محتملات اللفظ وهو الأسلم، وحيث أجمع السلف والخلف على صحة الإطلاق.

فنقول في وصف الله تعالى: إنه ذات قديمة تقدم الكلام على تنزيهها متصفة بصفات قديمة يفترض علينا الإيمان بجميعها إما على المعنى الذي هي عليه من غير علم منا بشيء من بعض محتملاتها أو مع علم منا بشيء من بعض ذلك والأول هو التسليم والثاني هو التأويل، والحق أن صفات الله تعالى كلها متشابهة إذ قدرته وإرادته لا نعقل لهما معنى وجميع ما نفهمه من ذلك تأويل له، فنؤمن أن الله تعالى له روح، وله نفس، وله عين، وله أعين وله يد، وله يدان، وله أيد، وله قدم، وله أصابع، وله وجه، وله ظل، وله استهزاء، وله سخرية، وله ضحك، وله فرح، وله غضب، وله رضى، وله كلام، وله كلمة، وله كلمات، وله مكر، وله كيد، وله مجيئ، وله نزول، وله نسيان... إلى غير ذلك من الأوصاف القديمة التي لا نفهم منها إلا ما نحن عليه من المعاني المجازية لها دون المعاني الحقيقية التي هي من أوصافه سبحانه وتعالى على حسب ما أخبرنا بذلك في كتابه العزيز وعلى لسان نبيه ﷺ.

وكذلك له تعالى قدرة، وإرادة، وعلم، وحياة، وسمع، وبصر، وقول، ورحمة، ورأفة، ولطف، ومحبة، وعداوة، وبأس، ونفخ وما أشبه ذلك من الأوصاف القديمة الأزلية التي هي بالأصالة على طريق الحقيقة له تعالى وهي لنا ولفهمنا بطريق الاستعارة من قبل المجاز والعلاقة السببية بينهما.

قال رضي الله عنه بعدما ذكر: ولنا كتاب مستقل في صفات الله تعالى أوصلناها إلى أربعمائة صفة وزيادة واستوفينا فيه هذا البحث واسمه «قلائد المرجان في عقائد الإيمان».

وصل فيه رجوع إلى الأصل

ونشهد أنه تعالى لم يحل في شيء من مخلوقاته، ولا حل فيه شيء من مخلوقاته، لأن الحلول إنما يتصور بين الشيئين اللذين يجمعهما وصف واحد. ولا مناسبة بين العبد والرب في شيء من الأشياء ولا في مجرد الوجود، فكيف يتصور أن يحل أحدهما في الآخر، فإن وجود العبد وجود في ذاته وهو بالنسبة إلى وجود الرب عدم محض وكذلك سمع العبد وبصره موجودان بالنسبة إلى العبد وهما بالنسبة إلى سمع الله تعالى وبصره محض الصمم والعمى، وعلى هذا جميع صفات العبد. فالعالم جميعه موجود بالنسبة إلى نفسه وعدم محض بالنسبة

إلى الرب سبحانه وتعالى فكيف يمكن أن يختلط أحدهما بالآخر؟

أما ترى أن الليل موجود في نفسه، وهو بالنسبة إلى وجود النهار معدوم، فهل يتصور أن يكون النهار حالاً في الليل أو متحداً به أو بالعكس.

فمن قال لنا: أين الله؟ كلمة يستفهم بها عن المكان والله تعالى خلقها وخلق معناها وخلق قائلها وخلق سؤاله وخلق جميع الأماكن، وهو تعالى لا يوصف بالصفات الحادثة المخلوقة فلا يليق به تعالى أن يقال عنه أين؟

ومن قال: كيف الله؟ قلنا له: كيف؟ كلمة يسأل بها عن كيفية الشيء والله تعالى خلق هذه الكلمة وخلق معناها وخلق قائلها وخلق سؤاله وخلق جميع الكيفيات فلا يتصور أن يوصف بشيء خلقه فلا يقال عنه تعالى كيف هو.

ومن قال لنا: في أيّ شيء هو؟ قلنا له في معناها الظرفية الحقيقية نحوز يد في المسجد أو المجازية نحو النجاة في الصدق والله تعالى خلق هذه الكلمة وخلق معناها وخلق قائلها وخلق الظرفية الحقيقية والمجازية فكيف يليق به تعالى أن يقال عنه في أيّ شيء هو؟

ومن قال لنا: على أيّ شيء هو قلنا له على كلمة معناها الاستعلاء والله تعالى خلق هذه الكلمة وخلق معناها الذي هو الإستعلاء وخلق قائلها وخلق قوله فلا يقال عنه تعالى على أي شيء هو. وهكذا جميع السؤالات التي يسألها الإنسان يقال له سؤالاتك هذه كلها مخلوقة ومعانيها التي سألت عنها مخلوقة أيضاً وأنت مخلوق والله خالق لكل شيء والخالق لا يوصف بشيء من خلقه فلا يتصور السؤال عنه بشيء خلقه أن له مثله.

أرأيت أن الصورة المنقوشة في الجدار إذا سألتها عن الذي نقشها هل له يد مثل يدها من مداد ونحوه ماذا يقال لك مع أن بين الصورة والناقش مناسبة ما في أن كلا منهما حادث من عدم والله تعالى لا مناسبة بينه وبين خلقه بوجه من الوجوه فهو فوق ذلك بمراتب يقيناً من غير شبهة.

وصل

من قال لنا: إذا كان الله تعالى بهذه المثابة من الغيب المطلق عن سائر العقول فكيف أمكن العقل أن يؤمن به؟ قلنا له: العقل يستدل بوجود كل شيء من هذه المخلوقات على وجوده تعالى المنزه على حسب ما ذكرنا وزيادة، وذلك أن وجود كل شيء محسوس أو معقول لا بد أن يكون صادراً عن وجود آخر لا يشبه هذا الوجود الحادث، وإلا كان حادثاً مثله

والحادث ليس في قوته إحداث نفسه ولا مثله فمن رأى شيئاً من هذا الوجود الحادث سواء كان محسوساً أو معقولاً علم بالضرورة العقلية أن هناك وجوداً آخر قديماً صدر عنه هذا الوجود الحادث بالإرادة والاختيار لا بالكره والاضطرار والإلزام أن يدخل تحت إكراه غيره فيكون حادثاً وهو قديم تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وذلك الوجود القديم هو الله تعالى.

فالإيمان بالله تعالى حينئذٍ على حسب ما هو عليه من التنزيه التام لا يتصور أن يغيب عن العقل إلا في أوقات غفلته التي يفرط فيها لأن وجود كل شيء دليل على وجود الله تعالى على حسب ما ذكرنا قال رضي الله عنه، وفي ذلك أقول:

قل لمن هام تابعاً أوهامه ... كل شيء على الإله علامَهْ
أيّ عقل لا يستدل عليه ... بالإشارات وهو فيها أقامه
ذاك عقل من غيه في عقال ... ليس يدري الهدى ولا الاستقامة
هذه الكائنات علواً وسفلاً ... ترجمت لي عن الإله كلامه

وصل مهم

إذا قيل لنا ما السبب في أن العقل التام لا يمكنه أن يدرك الرب سبحانه وتعالى مع أنه يقدر أن يدرك كل شيء.

قلنا له: الله تعالى في غاية اللطافة والعقل بالنسبة إليه تعالى في نهاية الكشافة، واللطيف يدرك الكثيف، والكثيف لا يدرك اللطيف، ولهذا ترى الجسم لا يمكنه أن يدرك العقل لشدة لطافة العقل بالنسبة إليه، وأما العقل فيدرك الجسم.

وقد قسم الله تعالى هذا العالم إلى كثيف ولطيف وحجب الأول عن الثاني ولم يحجب الثاني عن الأول حتى يكون عبرة تامة في معرفة الرب سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣] وهذا لف ونشر على الترتيب فعدم إدراك الإبصار له تعالى لكونه لطيفاً وإدراكه للأبصار لكونه خبيراً.

انتهى ما اخترت نقله من كتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني للعارف الكبير الشهير سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه فاغتنم أيها المطلع عليه هذه التحقيقات النفيسة والفوائد الجليلة في توحيد الله تعالى التي لعلك لا تجدها لغير الشيخ رضي الله عنه ونفعنا ببركاته وعلومه في الدنيا والآخرة.

ومنهم العارف بالله تعالى سيدي السيد مصطفى البكري[1] المتوفى سنة ١١٦٢ هـ

فمن جواهره رضي الله عنه

[الحجاب الأعظم]

قوله في شرحه على صلوات سيدي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه عند قوله: «واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي وروحه سر حقيقتي»: إن روحه المحمدية ﷺ هي الممدة لسائر الحقائق، على قدر استعداد كل واحد من الخلائق. ثم قال عند قوله «وحقيقته جامع عوالمي»: واجعل حقيقته المحمدية، حقيقة الحقائق، وينبوع الرقائق، ومجموع الدقائق، جامع عوالمي الظاهرة والباطنة لتستمد منه ﷺ كل ذرة من ذرات وجودي، فيسمو بهذا الاستمداد شهودي، واعرف نفسي فأعرف مقصودي، وأطلق من جسمي وأفك من قيودي، إذ حقيقته ﷺ دائرتها جمعت الأواخر والأوائل، وأحاطت بكل محاط إمداداً وإسعاداً بغير حاجب مانع وحائل، وأمدت كل شخص بما تقتضيه حقائقه وعوالمه فشقي من شقي وسعد الذي لجنابه مستند ومائل، فكل من أرشد ودعا فعن واسطته وعن فيضه ﷺ متكلم وقابل وقائل.

وهذا الشرح سماه «اللمحات الرافعات للتدهيش على معاني صلوات ابن مشيش». وقد ذكر في خطبته أنه شرحها بثلاثة شروح قبله الأول: كبير: واسمه «الروضات العرشية».

في الكلام على الصلوات المشيشية، والثاني: وسط اسمه «كروم عريش التهاني في الكلام على صلوات ابن مشيش الداني» وهذا الفه في الديار الإسلامبولية، والثالث: مختصر واسمه «فيض القدوس السلام على صلوات سيدي عبد السلام ولما ظهر له من المعاني ما لم يكن ظهر له من قبل شرحها بهذا الشرح الرابع رضي الله عنه وعن مؤلفها.

---

(١) هو مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري الصديقي، الخلوتي طريقه الحنفي مذهباً أبو المواهب: متصوف من العلماء. كثير التصانيف والرحلات والنظم ولد في دمشق ورحل إلى القدس سنة ١٠٢٢هـ وتوفي سنة ١١٦٢ هـ.

ومن جواهر السيد مصطفى البكري أيضاً

[حزب النووي]

قوله رضي الله عنه في آخر شرحه على حزب الإمام النووي رضي الله عنهما: محمد هو أشهر أسمائه ﷺ ولم يقسم به أحد قبله لكن لما قرب زمان ظهور نوره وفشا ذكره وانتشر سمى به أهل الكتاب أولادهم رجاء النبوة وعدتهم خمسة عشر، وأسماؤه ﷺ قيل ألف، وقيل ألفان وعشرون، ولكن ألذها للأسماع، وأشرفها لتسكين لاعج الإلتياع، هذا الاسم الكريم، وإن كانت كل أسمائه ﷺ بهذا المنزل العظيم.

قال شارح الدلائل قريباً من الأوائل: هو أشهر أسمائه ﷺ وأخصها وأعرفها وبه يناديه الله تبارك وتعالى ويسميه في الدنيا والآخرة، وهو المختص بكلمة التوحيد، وبه كني آدم عليه الصلاة والسلام، وبه تشفع وعليه صلى في مهر حواء، وبه كان يسمي نفسه ﷺ، فيقول: «أنا محمد بن عبد الله»، «والذي نفس محمد بيده»، و«فاطمة بنت محمد»، ويكتب من محمد رسول الله، وبه يصلي عليه الملائكة، وبه يسميه عيسى عليه السلام في الآخرة حين يدل عليه للشفاعة، وبه سماه جبريل في حديث المعراج وغيره، وبه سماه إبراهيم عليه السلام في حديث المعراج أيضاً.

وبه سماه جده عبد المطلب حين ولد وبه كان يدعوه قومه، وبه ناداه ملك الجبال، وبه صعد ملك الموت إلى السماء باكياً لما قبض روحه الشريفة ينادي وامحمداه، وبه يسمي نفسه ﷺ لخازن الجنان حين يستفتح فيفتح له إلى غير ذلك مما لم يحضرني الآن.

وقال عند شرح أسمائه ﷺ وهو اسم علم على ذاته ﷺ قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وهو منقول من الصفة إذ أصله اسم مفعول من حمد المضاعف ثم نقل وجعل علماً عليه ﷺ، وهو من صيغ المبالغة معنى إذ الثلاثي تضعف عينه لقصد المبالغة فكان الأصل محموداً من حمد المبني للمفعول، ثم ضعف فصار الفعل حمّد بالتضعيف، والمفعول محمد كذلك وذلك للمبالغة لتكرار الحمد له مرة بعد مرة، فالمحمد في اللغة هو الذي يحمد حمداً بعد حمد، ولا يكون مفعل مثل مضرب وممدح إلا لمن تكرر عليه الفعل مرة بعد أخرى فهو اسم مطابق لذاته ومعناه ﷺ إذ ذاته محمودة على ألسنة العوالم من كل الوجوه حقيقة وأوصافاً، وخَلْقاً، وخُلُقاً، وأعمالاً، وأحوالاً، وعلوماً، وأحكاماً، وجميع عوالمه المتنزل لها والظاهر بها فهو محمود في الأرض وفي السماء وهو أيضاً محمود في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بما هدي إليه ونفع به من العلم والحكمة.

وفي الآخرة بالشفاعة فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ ومع ذلك هو الحامد إذ حمده أحد إلا بما علمه إياه إذ هو نبي الجميع فهو الحامد، وإن شئت قلت هو الحامد لله تعالى على الإطلاق بالتحقيق ويحمده لله تعالى حمده الله على ألسنة عباده، فهو الحامد المحمود إلا أنه أخص من حيث تنزل الأمر.

ومبدأ الفاعلية بالأحمدية ومن حيث بلوغ الأمر ومنتهى المفعولية بالمحمدية فكان اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمداً فهو ﷺ خير من حمد وأفضل من حمد وعلى التحقيق لم يحمد، ولم يحمد من الخلق إلا هو ﷺ، وكيف ولواء الحمد بيده وهو صاحب المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والأخرون اهـ.

قال يعني الفاسي في شرح الدلائل وغالب هذا الكلام للشيخ أبي عبد الله البكي في شرح الحاجبية ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان أحمداً، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس، وكذلك وقع في الوجود، فإن تسميته أحمداً وقعت في الكتب السالفة، وتسميته محمداً وقعت في القرآن، وأحمد أيضاً منقول من الصفة التي معناها التفضيل بمعنى أحمد الحامدين لربه وكذلك هو في المعنى لأنه يفتح عليه في المقام المحمود بمحامد لم تفتح على أحد قبله فيحمد ربه بها ولذلك يعقد له لواء الحمد، ثم قال قال الشيخ أبو عبد الله البكي، ولهذا الاسم، أعني محمداً، إشارات لطيفة من حيث صورته ومادته، أي من جهة حروفه المادية ومن جهة هيئته الصورية.

أما الأول: فلما اشتمل عليه باعتبار حروفه من ميم الملكوت الأعلى، وحاء الحياة، والحفظ الذي به وفيه كتب القلم الأسنى وميم الملكوت الباطن في ميم الملك الظاهر، ودال الدوام والاتصال الماحية لو همي الانقطاع والانفصال.

وأما الثاني: فإن صورة هذا الاسم على صورة الإنسان فالميم الأولى، رأسه والحاء جناحاه، والميم الثانية بطنه، والدال رجلاه اهـ.

وقال الشيخ عبد الرحمٰن البسطامي رحمه الله تعالى في كتاب «درة الظنون في رؤية قرة العيون» في الفصل الثاني منه.

ثم إن هذا الاسم الأقدس لم يتسم به على الحقيقة أحد قبله ولا بعده ﷺ وإنما وقع للناس مشاركات في جهات من جهات لفظه لا من جهات معناه إذ ما من مخلوق سواه إلا ويلحقه نقص ما لو عدم التناهي في الكمال إلى رتبته ﷺ فلا يكون محمداً على الإطلاق فإن الوصف بعدم بلوغ الغاية في الكمال نوع من الذم ومن يلحقه الذم بوجه ما فليس محمداً على

الحقيقة فلا محمداً إلا محمد ﷺ ولهذا المعنى لما أراد المشركون هجوه ﷺ بالكلام الموزون صرف الله تعالى عنه ذلك لأن حقيقته ﷺ لا تقتضيه بوجه من الوجوه، فكانوا يهجون مذمماً، وهو الشيطان.

فإن هذا الاسم أجمع أسماء الشياطين لاشتماله على ما يتضمن نقصاً مع بلوغ الغاية وللمباينة الواقعة بين هذين الاسمين وعدم الاشتراك بينهما في وصف من الأوصاف لم يمكن للشيطان أن يتمثل على صورته ﷺ.

فإن قيل إذا كان اشتقاق اسم محمد من اسمه عزَّ وجل محمود كما قال حسان رضي الله عنه، أي في قوله:

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

فلم بولغ في هذا دون ذلك فالجواب أنه ﷺ لما كان بشراً وليس من شأن البشر الكمال في الأوصاف ولا بلوغ الغاية فيها احتيج إلى المبالغة في اسمه ﷺ للإعلام بأنه ليس مثلهم في هذا الوصف بل مرآته قابلة لجميع حقائق الأسماء والصفات اهـ.

وقال سيدي أبو المواهب الشاذلي رضي الله عنه في قوانين الإشراق قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [البقرة: ٣٤].

فإن قلت: السجود لغير الله حرام فكيف جاز السجود؟ قلنا: هذا السجود معناه خضوع تواضع الأصغر للأكبر، لا إنه سجود المربوب للرب. لأن آدم عليه السلام عبد لا رب، لكنه أكرم في الصورة الآدمية بظهور السمة المحمدية، فهذا هو الذي أوجب السجود في المحراب، «يا أولي الأذواق والألباب».

وذلك أن رأس آدم ميم، ويده حاء، وسرته ميم، وباقيه دال. وكذلك كان يكتب في الخط القديم. قال أبو المواهب رحمه الله، ويؤيد مقالنا ما قاله أستاذنا، أي سيدي علي وفا رضي الله عنه:

لو أبصر الشيطان طلعة نوره ... في وجه آدم كان أول من سجد

وهو ﷺ نور جميع الرسل والأنبياء وكل أهل الصلاح من الأتقياء كما قال:

عيسى وآدم والصدور جميعهم ... هم أعين هو نورها لما ورد

وذلك أنه ﷺ جمع الله تعالى له نور الأنبياء وإرشاد الرسل وهداية الأولياء ثم اختصه بنور الختم.

وهٰهنا لطيفة وهي أن اسم محمد الميم الأولى منه، إذا قلت ميم، كانت ثلاثة أحرف

والحاء حرفان، حاء والف والهمزة لا تعد لأنها الألف، والميمان المضعفان ستة أحرف، والدال ثلاثة دال والف ولام، فإذا عددت حروف اسمه كلها ظاهرها وباطنها حصل لك من العدد ثلاثمائة وأربعة عشر، الثلاثمائة وثلاثة عشر على عدد الرسل الجامعين للنبوة ويبقى واحد من العدد هو لمقام الولاية المفرق على جميع الأولياء التابعين للأنبياء وله عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وهٰهنا دقيقة وهي كونه لم يبق من العدد المفرق على الأولياء إلا الفرد، لأن فيهم الأفراد الذين اختصوا من التحقيق بالانفراد، أولٰئك الواحد منهم يجعله الحق في كيانه، جامعاً لنور زمانه، وهذه الدقيقة الفردانية، من الحقيقة الجامعة المحمدية، كما قال:

وليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

اهـ. ونقل الشيخ شهاب الدين أحمد بن العماد الأفقهسي في كتاب «كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار» أن لاسمه الشريف عشرة خصائص إلى أن قال: والرابع كتب اسمه ﷺ على ساق العرش.

ويروى أن الله تعالى لما خلق العرش اضطرب فلما كتب عليه اسم محمد ﷺ سكن. وفيه تنبيه على أنه ﷺ هو المخلوق الأكبر، وقال في حروف اسمه ﷺ: قال قوم: إنَّ معنى الميم محو الكفر بالإسلام أو محو سيئات من اتبعه، وقيل الميم منَّ الله تعالى على المؤمنين، وقيل: ملك أمته أو المقام المحمود.

وأما الحاء فقيل حكمه بين الخلق بأحكام الله تعالى قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] وقيل حياة أمته، وأما الميم الثانية فمغفرة الله تعالى لأمته، وقيل منادي الموحدين.

وأما الدال فهو الداعي إلى الله تعالى قال الله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] فهو ﷺ دليلهم في الدنيا والآخرة إلى الجنة ذكره النيسابوري اهـ. وما أحسن قول الأمام البوصيري رضي الله تعالى عنه في بردته:

فإن لي ذمة منه بتسميتي   محمداً وهو أوفى الخلق في الذمم

قال العلامة شهاب الدين أحمد القسطلاني رحمه الله تعالى في شرحه عليها: وفي كلامه دليل على الترغيب في التسمية باسمه ﷺ، وقد جاء في ذلك أحاديث. فمنها وذكر سنده إلى حميد الطويل عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يوقف عبدان بين يدي الله عزَّ وجل فيأمر بهما إلى الجنة فيقولان ربنا بِمَ استأهلنا الجنة ولم نعمل عملاً يجازينا الجنة، فيقول الله

عزَّ وجل: عبديّ أدخلا الجنة فإني آليت على نفسي لا يدخل النار من اسمه أحمد ولا محمد»[١]. وعن نبيط بن شريط قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجل وعزتي وجلالي لا عذبت أحداً تسمى باسمك في النار»[٢].

رواه أبو نعيم وعنه أبو علي الحداد وعنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسنده مرفوعاً وقال متصل الإسناد.

وروي عن جعفر بن محمد: «**إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من اسمه محمد فيدخل الجنة**»[٣]. لكرامة اسمه ﷺ، وفي لفظ آخر: «**ينادى يوم القيامة يا محمد فيرفع رأسه في الموقف من اسمه محمد فيقول الله جلَّ جلاله: أشهدكم أني قد غفرت لكل من اسمه على اسم محمد نبيي**»[٤]. وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: من ولد له مولود فسماه محمداً تبركاً كان هو ومولوده في الجنة. رواه صاحب الفردوس وابنه منصور.

ورويا أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله تعالى ذلك المنزل كل يوم مرتين.

قال، أي القسطلاني، قلت: وأنا ولله الحمد لي منه ﷺ ذمة بتسميتي أحمد كاسمه الشريف وأسأل الله من فضله كما منَّ عليَّ بذلك أن ينظمني في سلك محبيه وورثته بمنه وفضله ورحمته اهـ.

قال السيد مصطفى البكري: قلت وقد صح لي بحمد الله ذمة من المقتفى، بتسميتي كاسمه الشريف مصطفى. وأخبرني مكاشف من أهل الوفا، «راشف كأس عين صفا». أن بعض الفقراء له حقائق كثيرة، مسماة بأسماء كبيرة، وقد سميت واحدة منها بهذا الاسم الكريم، ولكن الحاكم هو الاسم الظاهر وله بحسب المقام وصف التقديم، وفي شرح البردة للأفقهسي زيادة على بعض ما تقدم عن الحسن البصري أن الله تعالى يوقف عبداً بين يديه يوم القيامة اسمه أحمد أو محمد فيقول: يا جبريل خذ بيد عبدي فأدخله الجنة، فإني استحييت أن أعذب بالنار من اسمه على اسم حبيبي محمد ﷺ، وعن علي بن موسى عن أبيه عن جده قال: «**قال رسول الله ﷺ إذا سميتم محمداً فعظموه ووقروه وبجلوه ولا تذلوه ولا تقهروه ولا تردوا له**

---

(١) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (١: ١٥٧). وابن عراق في تنزيه الشريعة (١: ١٧٣).

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور (١: ٢٩٦). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٢١١). والمتقي الهندي في كنز العمال (٥٨٧٨).

(٣) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٦٦٨).

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧: ٢٠٦).

قولاً تعظيماً لمحمد ﷺ». وعن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: **من ولد له ثلاثة من الولد ولم يسم أحداً منهم محمداً فقد جهل**».

وعن علي رضي الله عنه: ما اجتمع قوم في مشورة مع رجل منهم اسمه محمد فلم يدخلوه في مشورتهم إلا لم يبارك لهم. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: **لا يدخل الفقر بيتاً فيه اسمي**» اهـ. قال السيد مصطفى البكري بعد ما ذكر وهذا الاسم الشريف يوافق عدده من الأسماء الحسنى باسط ودود فيناسب من كان اسمه محمداً أن يذكر هذين الإسمين. وأفادنا شيخنا الشيخ محمد الخليلي القاطن الآن في البيت المقدس أنه تلقى عن بعض مشايخه اسم أمان وإن هذا اسم إلٰهي موافق عدد اسم محمد ﷺ، وله كان الله له رسالة في الاسم المحمدي الشريف، وأخبرني أنه يريد أن يشرحها ليفوز بظل الأجر الوريف، وهو أحد من أجازني بمشيخته، حباه الله جزيل منته، وقال اليافعي رحمه الله تعالى في الدر النظيم في خواص القرآن العظيم، حكى لي بعض أصحابنا عن بعض مشايخه أن الشيخ محيي الدين ابن العربي قال: من أخذ عدد حروف اسمه بالجمل ونظر تلك الجملة في أي شيء من أسماء الله تعالى الحسنى اتفق فإن وجده في اسم وإلا طلبه في اسمين أو في ثلاثة أو في أربعة، ، مثاله محمد عدده اثنان وتسعون نظرنا موافقته في اسم فلم نجده، وفي اسمين وجدناه في عدد أول دائم وفي ثلاثة فلم نجده ووجدناه في أربعة أسماء من أسماء الله الحسنى جلَّ وعلا، وهي حي وهاب، وأجد ولي فقال. إنَّه يقرأ الفاتحة اثنتين وتسعين مرة عدد الإسم، ثم آية الكرسي والمعوذتين كذلك وسورة ألم نشرح العدد المذكور وبعد ذلك يذكر الأسماء الأربعة العدد المذكور ويتخذ ذلك رياضة ويقول في آخر الذكر عند انقضاء العدد يا حي أحيي ذكري وارزقني، أو ما شاء يا وهاب هب لي كذا، يا واجد أوجد كذا، يا ولي تولني وقس على هذا.

وعن بعض المشايخ أن اسمه تعالى سلام إذا أضيف إليه واحد كان عدد اسم محمد ﷺ، فإن عدده إذا قلنا بأن الميم المشدد بحرفين مائة وإثنان وثلاثون ولهذا الاسم مناسبة باسم محمد ﷺ فإنه قلب العالم، وياسين قلب القرآن ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] قلب ياسين، والسلام الأمان وهو ﷺ أمان لقوله ﷺ: «**أنزل الله تعالى عليَّ أمانين لأمتي** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، **فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة**»[١].

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٣٠٨٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٠٨١). والقاضي عياض في كتاب الشفا (١: ١١٨). والسيوطي في جمع الجوامع (٤٥٢٢)، وفي الدر المنثور (٣: ١٨١).

ومنهم العارف بالله سيدي السيد عبد الرحمٰن العيدروس[1] المتوفى سنة ١١٩٢ هـ

[فمن جواهره]

[شرح صلاة أحمد البدوي]

وهو من أجل مشايخ السيد مرتضى الزبيدي شارح الأحياء قال في شرح صلاة أبي الفتيان القطب الأكبر الأشهر سيدنا السيد أحمد البدوي رضي الله عنه عند قوله: اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا معشر الخلائق، إذ هو ﷺ المفضل على جميع المخلوقين فيكون كل ذلك من الله بحسب قدره عنده، ولا يعرف قدره حقيقة غير مولاه عزَّ وجل، وبالجملة فالإحسان من الجليل العظيم على جليل عظيم عنده لا يكون إلا جليلاً عظيماً، وفضل الصلاة والسلام عليه ﷺ لا يحصى وهو مشهور ومذكور في مظانه، فلا نطيل بذكره.

وقد قال بعض العارفين نفع الله بهم: يعدم المربون في آخر الزمان، ويصير ما يوصل إلى الله تعالى إلا الصلاة على النبي ﷺ، وبها ما يحصل الاجتماع به ﷺ مناماً ويقظة، وحسبك أنه اتفق العلماء على أنَّ جميع الأعمال منها المقبول والمردود إلاَّ الصلاة على النبي ﷺ فإنها مقطوع بقبولها إكراماً له ﷺ. وأما شاهد كونه ﷺ أفضل الكل فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] فما بعث الله نبياً إلا وأخذ عليه الميثاق، لأن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ليكون محمد ﷺ إماماً ومقدماً عليه متبوعاً لا تابعاً، هذا مع علمه سبحانه وتعالى أن محمداً ﷺ خاتم النبيين والمرسلين.

وإنما أراد الله سبحانه تعريفهم بفضله، وبتقدمه عليهم، وبجلالة قدره وعلو شأنه ﷺ وعليهم أجمعين وأنه المقدم عليهم وأنه نبيهم ورسولهم، كما سنبين ذلك ويمكن أن يكون فيه

(١) هو عبد الرحمٰن بن مصطفى العيدروس الحسيني: فاضل، من أهل حضرموت. ولد بها في «تريم» وتوفي بمصر.

حكم أخرى ولا يلزم علينا أن نعلمها وقد ظهر ذلك في الدنيا بكونه أمهم ليلة الإسراء، ويظهر في الآخرة بأنهم كلهم تحت لوائه، وفي آخر الزمان ينزل عيسى عليه السلام ويكون حاكماً بشريعته ﷺ وقد وقع البليغ أيضاً منه ﷺ لهم عليهم الصلاة والسلام ليلة الإسراء.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ثم لقي أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم، ثم إن محمداً ﷺ قال: «كلهم أثنى على ربه وأنا مثن على ربي فقال: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كل شيء وجعلني فاتحاً وجعلني خاتماً، فقال إبراهيم عليه السلام، بهذا فضلكم محمد». وأقروا بما أثنى هو على ربه وبما قاله إبراهيم وهو تفضيله ﷺ فهذا هو التبليغ لهم والإيمان منهم به والنصرة منهم به والنصرة منهم لقوله ﷺ فتحقق مجيئه ﷺ، وتحقق منهم عليهم السلام الوفاء بالميثاق الغليظ الذي أخذه الله تعالى منهم حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٨١] الآية وحينئذٍ لا يتوجه قول القائل: إنَّ الله سبحانه وتعالى إذا كان عالماً في الأزل إنه لا يجتمع معهم ﷺ في هذا الميثاق الغليظ، ولا يحتاج بعد تسليم هذا لما قرره الإمام السبكي رحمه الله في الآية.

وإن كان ذلك لما ادعاه تاماً وهو ثبوت الرسالة إليهم أيضاً وإن لم يتحقق التبليغ لمانع منهم لا منه لعدم مجيء صورته البشرية في زمانهم، وذلك مثل الساكنين في شواهق الجبل فإنه مرسل إليهم اتفاقاً وإن لم يحصل التبليغ لهم فالمانع منهم لأمته ﷺ، ولله در سيدي القطب محمد وفا حيث قال:

فأنت رسول الله أعظم كائن وأنت لكل الخلق بالحق مرسل

وهذا كله من حيث صورته البشرية ﷺ وإلا فقد آمنت به جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأزل، ولهذا كان هو نبيهم وهم نوابه ووراثه ﷺ لأنه المظهر التام والواسطة العظمى، والحجاب الأرفع الأجمع للأسماء، الذي نال بها المقر الأجمل الأكمل الأحمى، فهو صاحب البرزخية الكبرى، التي هي عبارة عن شهود الذات المعبر عنها بالآية الكبرى، فللأنبياء وورثتهم قاب قوسين وخص بأدنى، فما عرف أحد الحق كمعرفته، ولا أحب أحد الحق ولا أحبه كمحبته، فله ﷺ التفرد في كل مقام، ولهذا كان هو الممد للخاص والعام، وحيث كان نبيهم فهو واسطتهم وممدهم والكل نوابه وخلفاؤه. ولله در سيدي سالم شيخان العلوي رحمه الله حيث قال:

لك ذات العلوم والأسماء يا نبياً نوابه الأنبياء

وفي «الفتوحات المكية» للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي رحمه الله ونفع به ما صورته مستمد جميع الأنبياء والمرسلين من روح محمد ﷺ إذ هو قطب الأقطاب فهو ممد

لجميع الناس أولاً وآخراً فهو ممد كل نبي وولي سابق على ظهوره، حال كونه في الغيب وممد أيضاً لكل ولي لاحق فيوصله بذلك إلى مرتبة كماله في حال كونه موجوداً في عالم الشهادة، وفي حال كونه منتقلاً إلى الغيب الذي هو البرزخ والدار الآخرة، فإن أنوار رسالته ﷺ غير منقطعة عن العالم من المتقدمين والمتأخرين. ثم قال: فكل نبي تقدم على زمان ظهوره فهو نائب عنه في بعثته بتلك الشريعة انتهى.

ومما تقدم وما سيأتي يتضح المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨] وكذلك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وإنَّ الحصر والعموم على حقيقته وتحقق إرساله للكل.

ومما يؤيد ذلك أيضاً قول الشيخ محيي الدين نفع الله به في رسالته الأنوار ما ملخصه، واعلم أن محمداً ﷺ هو الذي أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في عالم الأرواح حتى بعث بجسمه ﷺ فأولياء الأنبياء الذين سلفوا يأخذون من أنبيائهم وهم يأخذون من محمد ﷺ.

وفي كلام الأستاذ سيدي حاتم الأهدل وتلميذه الإستاذ عبد القادر العيدروس نفع الله بهما ما هو صريح في تأييد كلام الشيخ محيي الدين الذي ذكرناه عنه هنا، نفع الله بالجميع.

وأما المهيمون من طوائف الملائكة عليهم السلام فإنهم لما كانوا في شدة الاستغراق في شهود الحضرة جعلوا كأنهم لا يعقلون غير الذات فكمال الاستغراق أدمج لهم الحضرة المحمدية، ولا يلزم من هذا نفي كونه ﷺ واسطة لهم كغيرهم، ومن المناسبات المؤيدة لما تقدم في الجملة قوله ﷺ: **«أنا يعسوب الأرواح»**.

وقوله ﷺ: **«نحن الأولون والآخرون»**. وقوله ﷺ: **«بعثت إلى الأحمر والأسود»**. وفي حديث جابر رضي الله عنه المصدر: **«أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»**. وفي حديث ثابت: **«كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»**. وفي الحديث الصحيح: **«أنا سيد ولد آدم»**. وفي رواية: **«أنا أكرمهم على ربي»**. وفي حديث الترمذي: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلاَّ تحت لوائي»**. وهو صريح في دخول آدم، وقال سيدي أبو المواهب الشاذلي قدس سره وقع بيني وبين شخص من الجامع الأزهر مجادلة في قول صاحب البردة:

فمبلــغ العلـم فيـه أنــه بشـر وأنــه خيـر خلــق الله كلهــمِ

وذلك أنه قال ليس له دليل على ذلك فقلت قد انعقد الإجماع على ذلك فلم يرجع فرأيت النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالساً عند منبر الجامع الأزهر وقال لي مرحباً

بحبيبنا، ثم قال لأصحابه: ما تدرون ما حدث اليوم قالوا: لا يا رسول الله، فقال: «فلان التعيس يعتقد أن الإجماع لم يقع على تفضيلي».

أما علم أن مخالفة المعتزلة لأهل السنة لا تقدح في الإجماع. وقال أيضاً: رأيته ﷺ مرة أخرى، فقلت: يا رسول الله قول البوصيري: فمبلغ العلم فيه أنه بشر. معناه منتهى العلم فيك أنك بشر عند من لا علم عنده بحقيقتك وإلا أنت من وراء ذلك بالروح القدسيّ والقالب النبوي.

فقال ﷺ صدقت وفهمت مرادك. وفي الحديث الشريف: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا اتباعي».

وفي البخاري وغيره: «أنا سيد الناس يوم القيامة». وحديث: «أنا سيد العالمين». صححه الحاكم، وبما تقدم يعلم أفضليته على الملائكة لأن آدم أفضل منهم وهو ﷺ أفضل منه، ويؤيده الحديث الآتي على الأثر «ليس أحد من الملائكة».

وحديث الترمذي الحسن كما بينه البلقيني في فتاويه: «وأنا أكرم الأولين والآخرين». وهذا صريح في شمول الأنبياء والملائكة جميعهم. وصح عن ابن عباس وله حكم المرفوع: «ولولا محمد ما خلقت آدم ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن».

وعن ابن عساكر: «هبط جبريل على النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيباً وما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك ولولاك ما خلقت الدنيا».

وفي رواية أخرى «ولولاه ما خلقت السماء ولا الأرض ولا الطول ولا العرض، ولا وضع ثواب ولا عقاب، ولا خلقت جنة ولا ناراً ولا شمساً ولا قمراً». وصح «أنا أول من تنشق عنه الأرض فألبس الحلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الملائكة يقوم ذلك المقام غيري».

وفي رواية ذكرها السراج البلقيني: «إنه تعالى قال: مننت عليك بسبعة أشياء أولها أني لم أخلق في السموات والأرض أكرم عليّ منك». وفي أخرى ذكرها أيضاً: «إنَّ جبريل عليه السلام قال له: أبشر فإنك خير خلقه وصفوته من البشر حباك الله بما لم يحب به أحداً من خلقه لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً».

وصح عن بحيرا وهو من علماء أهل الكتاب الذين لا يقولون شيئاً إلا عنه هذا سيد العالمين. وصح أيضاً عن عبد الله بن سلام الصحابي الجليل إمام أهل الكتاب بشهادته ﷺ أنه ذكر بالمسجد يوم الجمعة أموراً منها: وإن أكرم خلق الله على الله أبو القاسم ﷺ فقيل له: فأين الملائكة؟ فضحك وقال للسائل: هل تدري ما الملائكة؟: إنما الملائكة خلق كخلق السموات والأرض والرياح والسحاب والجبال وسائر الخلق التي لا تعصى الله شيئاً وإن أكرم الخلق على الله أبو القاسم، قال البلقيني إن هذا له حكم المرفوع؛ وهو كذلك فإنه من أجلاء الصحابة فلا يقوله إلا عنه ﷺ أو عن ما صح في التوراة.

وعن جابر رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قال: **أنا قائد المرسلين ولا فخر وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع، وأول مشفع ولا فخر**». رواه الدارمي.

وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، ، وأنا مستشفعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي يطوف عليَّ الف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور**». رواه الدارمي.

وعن أبيّ بن كعب رضي الله عن النبي ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر**». رواه الترمذي. إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة التي تركناها خوف الإطالة كحديث الشفاعة المطول المشهور وكونه أول من يشفع ولذلك كان مشي الأمم إلى نبي بعد نبي في يوم القيامة بطلب الشفاعة خاصاً بغير الأمة المحمدية، لأنه ﷺ قد أعلمهم بذلك وعالم الآخرة لا نسيان فيه، فاعلم ذلك.

فإن قلت: إنه قد صح عن الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره وهو من أجلاء أهل الكشف إنه قال خواص الملائكة أفضل من خواص البشر وهذا خلاف ما قررت.

فالجواب: صحيح صح عنه هذا ولكنه قد صح عنه الرجوع عنه والذهاب إلى ما قررنا، وحينئذ فلا إشكال وكذلك قد صرح في الباب الثالث والثمانين وثلاثمائة من «الفتوحات المكية» بأن نبينا محمداً ﷺ أفضل من الملائكة وسائر الرسل وسكت عما عداه.

وفي الجملة فالذي عليه أسلافنا الجامعون بين الشريعة والطريقة والحقيقة السادة الأشراف بنو علوي وخلاصتهم العيدروسيون نفع الله بهم هو تفضيل خواص البشر على خواص الملائكة مع عدم إنكار أنه يوجد في المفضول مزية أو مزايا ليست توجد في الفاضل وأجمعوا على تفضيله ﷺ على جميع الخلق.

وما أحسن ما نقله العلامة ابن زكرى في شرح الصلوات المشيشية عن سيدي الشريف القطب عبد القادر الجيلاني قدس الله سره بعد كلام له في قضية الإسراء: ثم عاد إلى معالمه وأهل عالمه، ورؤساء الملائكة تضع أجنحتها في مواطئ قدميه، والروح بين يديه، ويحمل غاشية فخره، ويطوف به بين الملائكة تعظيماً لقدره، وآدم يرفع ألوية جلالته، وإبراهيم ينشر أعلام مهابته، وموسى يناجي حبيبه، من جانب غربي صفحات وجه نظرت عيناه محبوبه، ويسأله عودة بعد عودة عسى نظرة بعد نظرة، فنادى القدر من جانب الطور قضينا الأمر، وعيسى يتألى بالمولى، لينزلن وليخبرن أهل الأرض بما شاع في أرجاء السماء من أخبار قاب قوسين أو أدنى، ثم أنه نقل عن ابن حجر الهيثمي عن بعض المحققين أن سجود الملائكة لأجل نور محمد ﷺ في جبين آدم عليه السلام ثم ذكر قول سيدي علي وفا:

لو أبصر الشيطان طلعة نوره ... في وجه آدم كان أول من سجد

انتهى ما نقله عن ابن زكري. ثم قال السيد العيدروس:

فائدة: قال الإمام البلقيني نفع الله به، وأما اختيار الباقلاني والحليمي أفضلية الملائكة فيمكن حمله على غير نبينا، وبهذا جزم بعض أجلاء تلامذته كالبدر الزركشي أو على تفضيل في نوع خاص أي لأنه قد يوجد في المفضول مزية بل مزايا لا توجد في الفاضل.

ثم قال أي البلقيني: ولا يظن بأحد من المسلمين أنه يتوقف في أفضلية نبينا ﷺ على جميع الملائكة وكذلك سائر الأنبياء، وأطال في الحط والرد على من توقف في ذلك، وزعم أن هذا ليس مما كلفنا بمعرفته وهذا الزعم باطل، فإن هذا من مسائل الدين الواجبة الاعتقاد على كل مكلف وقد صح في الحديث المشهور: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[1]. فتأمل قوله مما سواهما تجده ظاهراً بل صريحاً في كل ما ذكرنا. انتهى كلام البلقيني قال العيدروس بعده ويرحم الله القائل:

وما أقول إذا ما جئت أمدح من ... جبريل خادمه والله مادحه

ثم قال رضي الله عنه: لما كان نوره ﷺ هو الأصل في تكوين جميع الأشياء عبر عنه، يعني البدوي رضي الله عنه بقوله قدس سره: (شجرة الأصل النورانية) وشاهده حديث عبد الرزاق بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل خلق الأشياء، قال: يا جابر إنَّ الله خلق قبل خلق الأشياء نور نبيك».

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الإيمان: ٦٧). والنسائي في السنن (٨: ٩٤). وأحمد في المسند (٣: ١٠٣).

ثم ساق حديث جابر إلى آخره وقد تقدم، وقال بعده وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **«يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله عزَّ وجل أول كل شيء نوري فسجد لله فبقي في سجوده سبعمائة عام فأول كل شيء سجد لله نوري ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا أنا الذي خلق الله العرش من نوري والكرسي من نوري واللوح والقلم من نوري والشمس والقمر ونور الأبصار من نوري والعقل من نوري ونور المعرفة في قلوب المؤمنين من نوري ولا فخر»**.

فإن قيل ما معنى من نور الله أن أريد نور حادث كان قبله نافٍ إنه أول المخلوقات وإن الأنوار من نوره وغير هذا لا يعقل.

فالجواب: ما قاله بعضهم رحمه الله أنَّ الإيجاد إظهار، فالمعنى والله أعلم أظهره من ظهوره، أي أظهره بلا واسطة بخلاف غيره، إذ معنى اسمه النور الظاهر المظهر للأشياء وفي ما تقدم من الحديثين بيان السبقية والتقدم، فإن ذلك يفيد الاعتناء بشأن المقدم وبيان أنه أول من صدر منه السجود لله تعالى ومن ثَمَّ خرج ﷺ من بطن أمه ساجداً قد رفع سبابته إلى السماء كالمتضرع المبتهل المسبح قابضاً أصابعه، وكل ما ورد في أنه أول مخلوق مما يشعر بخلاف ما ذكر فيحمل عليه بالوصف اللائق بتلك الحضرة أو يقال الأولية في غير نوره ﷺ إضافية، وفيه حقيقية، كما نبه على ذلك الأستاذ الشريف شيخ بن عبد الله العيدروس في كتاب السلسلة العيدروسية وغيره من العارفين نفع الله بهم، ثم قال رضي الله عنه عند قول المصنف (ولمعة القبضة الرحمانية) هي المشار إليها في حديث جابر المتقدم وإليها يشير قول سيدي القطب الإلٰهي محمد البكري الصديقي سبط آل الحسن نفع الله به:

قبضة النور من قديم أرتنا ... في جميع الشؤون قبضاً وبسطاً

قال بعضهم: واعلم أنَّ الرحمة رحمتان: رحمة خاصة وهي التي تدارك الله بها عباده في أوقات مخصوصة، ورحمة عامة وهي حقيقة محمد ﷺ، وبها رحم الله حقائق الأشياء كلها فظهر كل شيء في مرتبته في الوجود، فلذلك أول ما خلق الله روح محمد ﷺ، فرحم الله به الموجودات الكونية.

ثم قال السيد العيدروس رضي الله عنه وبالجملة فنعمتان ما خلا موجود عنهما، ، ولا بد لكل مكون منهما نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد كما في الحكم العطائية، وهو ﷺ الواسطة فيهما إذ لولا سبقية وجوده ما وجد موجود، ولولا وجود نوره في ضمائر الكون إلى أن برز لتهدمت دعائم الوجود، فهو الذي وجد أولاً وله تبع الوجود وصار مرتبطاً به لا استغناء له عنه، ولله در القطب البكري أبيض الوجه محمد حيث قال:

ما أرسل الرحمٰن أو يرسل ... من رحمة تصعد أو تنزل

فــي ملكــوت الله أو ملكــه مــن كـل مـا يختـص أو يشمـل
إلا وطــه المصطفــى عبــده نبيــه مختــاره المــرســل
واسطــة فيهــا وأصــل لهــا يفهــم هــذا كـل مـن يعقـل

ثم قال رضي الله عنه عند قول المصنف (وأفضل الخليقة الإنسانية) أي أعدلها وأحكمها وأتقنها وأحسنها وأشرفها وأكملها. ومن شواهد ذلك ما ذكر في حليته الشريفة مما هو معروف ومشهور ومذكور في مظانه. ومن ذلك قول الشيخ محيي الدين قدس سره في «الفتوحات المكية» في الباب الثامن والأربعين ومائة:

وهذا الباب ذكر فيه فراسة أهل الكشف وفراسة الحكماء، وأنَّ الأولى لا تخطئ أبداً بخلاف الثانية. فإنها قد تخطئ. وذلك قوله قالت الحكماء: إنَّ أعدل الخلقة وأحكمها أن تكون نشأة صاحبها معتدلة ليس بالطويل ولا بالقصير، لين اللحم رطبه بين الغلظ والرقة، أبيض مشرب بحمرة وصفرة معتدل الشعر طويله ليس بالسبط ولا بالجعد القطط في شعره حمرة ليس بذلك السواد أسيل الوجه أعين مائلة عينه إلى الغور والسواد معتدل عظم الرأس سائل الأكتاف في عنقه استواء، معتدل اللبة ليس في وركه ولا صلبه لحم، خفي الصوت صافي ما غلظ وما رق مما يستحب غلظه أو رقته في اعتدال طويل البنان ترفه سبط الكف قليل الكلام والضحك إلا عند الحاجة ميل طباعه إلى الصفراء والسوداء في نظره فرح وسرور قليل الطمع في المال لا يريد التحكم والرياسة على أحد ليس بعجل ولا بطيء، قال وفي هذه الصورة خلق نبينا محمد ﷺ فصح له الكمال في النشأة، كما صح له الكمال في الرتبة، وكان أكمل الناس من جميع الوجوه ظاهراً وباطناً.

ثم قال العيدروس عند قول المصنف (وأشرف الصورة الجسمانية) أي أحسنها: لأنه ﷺ أعطي الحسن كله، وأما سيدنا يوسف عليه السلام فإنما أعطي شطر الحسن. ومن ثَمَّ قال سيدنا علي رضي الله عنه: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ، وإنما ستر حسنه بالهيبة والوقار لتستطيع رؤيته الإبصار.

ومع ذلك فقد قال سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه: لما نظرت إلى أنواره ﷺ وضعت كفي على عيني خوفاً من ذهاب بصري. ومن ثَمَّ للطافته ونورانيته ﷺ لم يكن له ظل. ويرحم الله من قال:

دخــل العــالــم فــي ظـل الــذي مــالــه ظـل ولــلأغيـار يمحــو

هذا ولولا أن الله تعالى ستر جمال صورته بالهيبة والوقار لما استطاع أحد النظر إليه بهذه الأبصار الدنيوية الضعيفة.

ومن ثَمَّ قال بعضهم: ما أدرك الناس منه ﷺ إلا على قدر عقولهم البشرية فما ظهر لهم من ذلك فهو من نعمة الله عليهم ليعرفوا قدره ويعظموا أمره وما خفي عليهم من أمره فهو رحمة الله تعالى بهم، إذ لو ظهر لهم مع عدم قيامهم بالحقوق لكان فتنة لهم والله تعالى أرسله رحمة للعالمين، فكانت النعمة في ما ظهر والرحمة في ما استتر، وما أحسن ما قيل فيه ﷺ:

وأجمل منك لم تر قط عيني ... وأكمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

وهذا من قبيل صورته الظاهرة، وأما حقيقته فلا يعلمها إلاَّ الله تعالى كما قال ﷺ لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه: والذي بعثني بالحق لم يعلمني حقيقة غير ربي، ومن ثَمَّ قال سيد التابعين أويس القرني رضي الله عنه: ما رأى أصحاب النبي من النبي ﷺ إلاَّ ظله فقيل: ولا ابن أبي قحافة.

وقال عند قول المصنف (ومعدن الأسرار الربانية): لأنه مرآة لتجلي أسرار الذات العلية، وأنوار الصفات السنية، وقد أودع الله خزانة أسراره أسراراً لا تبدو إلا لديه، ولا تجلي عرائسها إلا عليه، قال ﷺ: **«أورثني ربي علوماً فعلم أخذ عليّ كتمانه، وعلم خبرني فيه، وعلم أمرني بتبليغه إلى الخاص والعام»**.

وقال ﷺ: الذي من علومه علم اللوح والقلم: **«إنَّ الله خلق ألف ألف أمة لم يطلع عليها اللوح المحفوظ ولا صريف الأقلام، وكل أمة من هذه الأمم لم تعلم أن الله خلق سواها»**.

وقال ﷺ: **«أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد العلم فليأت الباب»**(١).

وقال الحافظ السيوطي في الخصائص: إنه ﷺ أوتي علم كل شيء إلا الخمس التي في آخر لقمان، وقيل: إنَّه أوتي علمها في آخر الأمر لكنه أمر فيها بالكتمان، وهذا القيل هو الصحيح، ومع هذا فقد قال ﷺ: **«أحمد ربي بمحامد يوم القيامة لا أعلمها الآن»**.

هذا وقد أمره الله تعالى بأن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فبان بذلك أنه لم يزل في كل نفس مترقياً في الكمالات والعلوم التي لا تتناهى.

ثم قال رضي الله عنه عند قوله: (وخزائن العلوم الاصطفائية) وذلك أنه لما كانت الروح المحمدية مشتملة على الخلافة بالتبعية كان لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣: ١٢٦). والسيوطي في جامع الفتاوى (٢: ١١٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦: ٢٤٤). وابن حجر في لسان الميزان (١: ٥١٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٩٧٨).

السماء من حيث مرتبته، وإن كان يقول أنتم أعلم بأمور دنياكم من حيث بشريته، فهو ملكوتيّ الباطن بشريّ الظاهر، وهذه الرتبة لها الإحياء والإماتة واللطف والقهر والرضا والسخط وجميع الصفات لتتصرف في العالم وفي نفسها وبشريتها أيضاً لأنها منه. وبكاؤه ﷺ وضجره وضيق صدره لا ينافي ما ذكرته فإنه بعض مقتضيات ذاته وصفاته. ثم قال ومما يحسن كتابته هنا قوله ﷺ: «وضع يده ربي بين ثدييّ من غير تكييف ولا تحديد فوجدت بردها بين كتفي، فأورثني علم الأولين والآخرين».

وقول بعض ذريته وورثته وهو سيدي عبد القادر الجيلاني: أن النبي ﷺ فتح فاه ليلة الإسراء فقطرت فيه قطرة من بحر العلم الأزلي فعلم بها ما هو كائن أو كان.

ثم قال عند قول المصنف رضي الله عنه(صاحب القبضة الأصلية): إشارة إلى المقام المحمدي الخاص به ﷺ وهو المسمى بمقام أو أدنى، وهو ولايته الخاصة ﷺ والمقام المحمدي الثاني يسمى بمقام قاب قوسين وهو ولايته العامة. فلولايته العامة ﷺ الفيض بواسطته على النبيين والمرسلين والملائكة والأولياء عموماً وخصوصاً بحسب مرتبة كل واحد منهم وقابليته.

ومن هذا الإشارة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وإنّه مرسل للكل وذلك ظاهر في المكلفين، وأما غيرهم فمن حيث حقيقته التي هي حقيقة الحقائق ومبدأ البدايات:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم
فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للنّاس في الظلم

فولايته الخاصة به التي لا يشاركه فيها أحد وجوباً ولا بالإستخلاف أيضاً، هي أو أدنى ولا يتصف بها غيره بل ولا يطيقها على تقدير الفرض والتقدير لا استخلافاً ولا غيره، قال ﷺ: «لي حال مع ربي أو وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل».

ثم قال: واعلم أن منزلة القرب المشار إليها في الآية بأو أدنى ثابته له ﷺ ليلة الإسراء من حيث ذاته، وفي غير ذلك من حيث روحه وسره وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني وإلى ذلك يشير قول القطب محمد البكري الكبير:

ومن بالعين أبصره فعنه قط لا يحجب

قال رضي الله عنه ولنذكر هنا ما ذكره عبد القادر العيدروس في كتابه «الزهر الباسم» حيث فيه ذكر الولاية الخاصة والعامة قال نفع الله به، روي عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى محمد بن أحمد البلخي قدس سره قال: سافرت من بلخ إلى بغداد وأنا شاب لأرى الشيخ

عبد القادر رحمه الله فوافيته يصلي العصر بمدرسته، وما كنت رأيته ولا رآني قبل ذلك، فلما سلم وهرع الناس للسلام عليه، تقدمت إليه فصافحته فأمسك بيدي ونظر إليَّ مبتسماً وقال: مرحباً بك يا بلخي يا محمد قد رأى الله مكانك وعلم نيتك، قال: فكان كلامه دواء الجريح وشفاء العليل وذرفت عيناي خيفة وارتعدت فرائصي هيبة وخفقت أحشائي شوقاً ومحبة واستوحشت نفسي من الخلق ووجدت في قلبي أمراً لا أحسن أعبر عنه ثم ما زال ذلك ينمو ويقوى وأنا أغالبه فلما كان ذات ليلة قمت إلى وردي وكانت ليلة مظلمة فبرز لي من قلبي شخصان بيد أحدهما كأس وبيد الآخر خلعة.

فقال لي صاحب الخلعة: أنا علي بن أبي طالب وهذا أحد الملائكة المقربين وهذا كأس شراب المحبة وهذه خلعة من خلع الرضى، ثم ألبسني تلك الخلعة وناولني صاحبه الكأس فأضاء بنوره المشرق والمغرب، فلما شربته كشف لي عن أسرار الغيوب ومقامات أولياء الله تعالى وغير ذلك من العجائب.

فكان مما رأيت مقاماً تزل أقدام العقول في سره وإفهام الأفكار في حاله وتخضع رقاب الأولياء لهيبته وتذهل أسرار السرائر في بصائره وتدهش أبصار البصائر لأشعة أنواره، ولم يبق طائفة من الملائكة الكروبين والروحانيين والمقربين إلا حنت ظهورها على هيئة الراكع تعظيماً لقدر ذلك المقام.

ويتحقق الناظر إليه أن كل مقام لواصل أو حال لمحدث أو سر لمحبوب أو علم لعارف أو تصريف لولي أو تمكن لمقرب فمبدؤه وجملته وتفصيله وكله وبعضه وأوله وآخره فيه استقر ومنه نشأ وعنه صدر وبه كمل فمكثت مدة لا أستطيع النظر إليه ثم طوقت النظر إليه ومكثت مدة لا أستطيع مسامته ثم طوقت مسامته، ومكثت مدة لا أعلم بمن فيه ثم بعد مدة علمت بمن فيه فإذا فيه رسول الله ﷺ عن يمينه آدم وإبراهيم وجبريل وعن شماله نوح وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين،، وبين يديه أكابر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين والأولياء قدس الله أرواحهم قياماً على هيئة الحلقة كأن على رؤوسهم الطير من هيبته ﷺ، وكان ممن عرفت منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة والعباس رضي الله عنهم أجمعين وممن عرفت من الأولياء معروف الكروخي وسري السقطي والجنيد وسهل التستري وتاج العارفين أبو الوفا والشيخ عبد القادر، والشيخ عدي والشيخ أحمد الرفاعي رحمهم الله.

وكان من أقرب الصحابة إلى النبي ﷺ أبو بكر، ومن أقرب الأولياء إليه الشيخ عبد القادر، فسمعت قائلاً يقول: إذا اشتاقت الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون والأولياء المحبوبون إلى رؤية محمد ﷺ ينزل من مقامه الأعلى عند ربه الذي لا يستطيع النظر إليه أحد

في هذا المقام فتضاعف أنوارهم برؤيته، وتزكو أحوالهم بمشاهدته، ويعلو مكانهم ومقاماتهم ببركته، ثم يعود إلى الرفيق الأعلى قال: فسمعت الكل يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ثم بدت لي بارقة من القدس الأعظم فغيبتني عن كل مشهود واختطفتني عن كل موجود وأسقطت مني التمييز بين مختلفين فأقمت على هذه الحال ثلاث سنين فلم أشعر إلا وأنا في سامرّا والشيخ عبد القادر رضي الله عنه قابض على صدري وإحدى رجليه عندي والأخرى في بغداد وقد عاد اليّ تمييزي وملكت أمري فقال لي: يا بلخي قد أمرت أن أردك إلى وجودك وأملكك حالك، وأسلب عنك ما قهرك.

ثم أخبرني بجميع مشاهداتي وأحوالي من مبدأ أمري إلى ذلك الوقت إخباراً يدل على إطلاعه عليّ في كل نفس.

وقال لي: سألت رسول الله ﷺ سبع مرات حتى طوقت النظر إلى ذلك المقام وسبع مرات حتى طوقت مسامته، وسبع مرات حتى أطلعت على ما فيه، وسبع مرات حتى سمعت المنادي وقد سألت الله فيك سبع مرات وسبع مرات وسبع مرات حتى لاحت لك تلك البارقة وكنت من قبل سألته فيك سبعين مرة حتى سقاك كأساً من محبته وألبسك خلعة من رضوانه يا بني اقض جميع ما فاتك من الفرائض.

ثم قال عند قوله رضي الله عنه: (والبهجة السنية) أي في ذاته وصفاته وأفعاله كيف لا وهو رحمة للعالمين والرحمة خير محض.

قال سيدنا الأستاذ أبو العباس المرسي نفع الله به جميع الأنبياء عليهم السلام: خلقوا من الرحمة ونبينا هو عين الرحمة وإذا كان عين الرحمة، فهو أصل الرحمات وينبوعها ولا رحمة خارجة عنه وكل مرحوم مسهوم منه.

ثم قال عند قوله: (من اندرجت النبيون تحت لوائه فهم منه وإليه) إذ لا غنى لأحد عن وساطته ﷺ ولأنهم في الحقيقة أبناؤه وخلفاؤه ونوابه الحاكمون ببعض شرائعه وطرقه ﷺ فهو آدم الأكبر الحقيقي ومن ثم يقول آدم عليه السلام: إذا لقيه يا ولد ذاتي ووالد معناي وقد نبه على هذا المعنى سيدي عمر بن الفارض قدس سره بقوله يعني على لسان النبي ﷺ:

وإنـي وإن كنـت ابـن آدم صـورة ... فلـي فيـه معنـى شـاهـد بـأبـوتـي

ونحوه قول السيد سالم شيخان العلوي الحسيني قدس سره في همزيته:

فـإلـى المـرسليـن أنـت رسـول ... منـك حقـاً غشتهـم الأضـواء

أنت أصل لكل أصل فكل ... عنك فرع وإنهم آباء

ومن ثم كان آدم عليه السلام وارثاً منه علم الأسماء وإن كان نبينا ﷺ ورثه منه في الظاهر. ولله در البوصيري حيث قال:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهمِ

فإنهم شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للنّاس في الظلمِ

قال العلامة ابن مرزوق، أي في شرح البردة: يعني أن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل، فإنما اتصلت بكل واحد منهم من نور محمد ﷺ، وما أحسن قوله فإنما اتصلت من نوره بهم، فإنه يعطي أن نوره ﷺ لم يزل قائماً ولم يزل قائماً ولم ينقص منه شيء ولو قال: فإنما هي من نوره لتوهم أنه وزع عليهم، وقد لا يبقى منه شيء.

وإنما كانت آيات كل واحد من نوره ﷺ لأنه شمس فضل هم كواكب تلك الشمس يظهرن أي تلك الكواكب أنوار تلك الشمس للناس في الظلم، فالكواكب ليست مضيئة بالذات.

وإنما هي مستمدة من الشمس، فهي عند غيبة الشمس تظهر نور الشمس وكذلك الأنبياء قبل وجوده ﷺ كانوا يظهرون فضله:

فإن جاء بعد الأنبياء مؤخراً ... لقد كان قبل الأنبياء مقدما

وكانوا له الحجّاب في موكب الهدى ... ولا غرو للحجاب أن تتقدما

أقام قناة الدين بعد اعوجاجها ... فمن بعده ما اعوج ما كان قوما

قال رضي الله عنه: وإلى بعض ذلك يشير ما ورد من قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: إنَّ الله تعالى أمرني أن أصلي عليك هكذا السلام عليك يا أول السلام، عليك يا آخر السلام، عليك يا باطن السلام، عليك يا ظاهر.

وبهذا كان يسلم على النبي ﷺ في المواجهة المدينة المنورة سيدي القطب الصفي القشاشي وشيخه الشناوي قدس سرهما.

ومما يفصل بعض إجمال ما تقدم ما قاله في كتاب «السلسلة العيدروسية» نفع الله به بعد إيراده كلاماً يتعلق بما ذكرناه في الجملة.

والدليل على ذلك قوله ﷺ: «كنت نبياً». أي مستفيضاً من الله ومفيضاً على خلقه، ولذا لم يقل كنت إنساناً ولا موجوداً، بل أخبر أنه صاحب النبوة قبل وجود الأنبياء والمرسلين، فهو صاحب الشرع أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً. والذي نسخه من شرعه المتقدم ما أراد الله أن ينسخ

منه وأبقى ما أراد الله أن يبقي منه كما ثبت بعد وجوده ﷺ وكان المنسوخ من الأحكام خاصة لا من الأصول فاعتقاد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين متحد في التوحيد لكنهم مختلفون في الشرائع لاختلاف أمزجة الأمم، وذلك لا يقدح في وجود الأصل وظهوره ﷺ في آخر الزمان جسماً وروحاً لأنه لو كان موجوداً بجسمه من لدن آدم لكان من بعده تحت شريعته فيلزم أن لا يبعث أحد من الأنبياء والمرسلين فتقدم ﷺ روحاً لا بدناً وبعث الأنبياء والمرسلين إلى أقوام مخصوصة لظهور حكمة إلٰهية في ذلك، ولم تعم رسالتهم لتحقق نيابة كل واحد منهم، يعني عن النبي ﷺ.

ولذا يحكم عيسى عليه السلام حين ينزل آخر الزمان بشرعه ﷺ فيقرر شرعه الشريف في الظاهر، لكن لما لم يتقدم في عالم الحس أولاً وجوده ﷺ نسب كل شرع إلى من بعث به وهو في الحقيقة شرعه ﷺ قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] ولم يقل فبهم أقتده، لأن هداهم من الله تعالى وهو شرع رسول الله ﷺ، فالمعنى إلزم شرعك الذي ظهر به نوابك قبل ظهور جسدك الشريف وقال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [النساء: ١٢٥] فهو ﷺ مأمور باتباع الدين، لأنَّ أصله من الله تعالى لا باتباع أحد من الأنبياء. ثم قال:

تنبيه: ظاهر قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١] وقوله ﷺ في الصحيح: «وأرسلت إلى الخلق كافة» كونه ﷺ مبعوثاً إلى كل مخلوق من الحيوانات والنباتات والجمادات ولا مانع من إجرائهما على ظاهرهما وما ذاك إلا أن كل مخلوق دلت ظواهر الكتاب والسنة على أنه حي عالم قادر مريد. ناطق.

وإن تفاوتت مراتب حياتها وإدراكاتها وبقية كمالاتها، فصح أن يكلف تكليفاً بحسب عالمه وطوره ومرتبة كمالاته فإن الإنسان المكلف بالإجماع أيضاً يختلف تكليف أفراده بحسب اختلاف أحوالهم في الوسع اختياراً واضطراراً، فيباح لهذا ما يحرم على ذلك وعلى هذا فقس بقية الأحكام وما صيد صيد، ولا عضدت عضاة ولا قطعت وشيجة إلا بقلة التسبيح يدل على أن التكليف لسائر الأشياء كثرة التسبيح، فمن قصر في ما كلف به جوزي بما يقتضيه العدل الإلٰهي ويعفو عن كثير.

ومن شواهد الدلائل في ذلك قول الشيخ محيي الدين قدس سره في الفتوحات المكية تحت قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤] ما ملخصه وليس هذا التسبيح بلسان الحال كما يقوله أهل النظر مما لا كشف له، بل هو بلسان القال فالعالم كله في مقام العبادة والشهود. وساق باقي كلام سيدي محيي الدين في ذلك. ثم قال:

تنبيه: : قيل أن عيسى عليه السلام كان أزهد الأنبياء وأنه يجوز أن يكون في المفضول

خصلة لا يوجد مثلها في الفاضل قال بعض أهل التحقيق وفيه بحث يعني أنه عليه الصلاة والسلام أزهد من سيدنا عيسى عليه السلام، لأنَّ نبينا محمداً ﷺ عرضت عليه الدنيا بحذافيرها فلم يلتفت إليها وما زاغ بصره وما طغى لديها حتى منع بعضهم من إطلاق الزهد عليه ﷺ معللاً بأنَّ لا قيمة للدنيا عنده حتى يزهد فيها، وفي كتاب الشفا وغيره: «**إنَّ جبريل عليه السلام قال: إنَّ الله تعالى يقول لك أتحب أن نجعل لك هذه الجبال ذهباً، وتكون معك حيث كنت فأطرق ساعة ثم قال: يا جبريل مالي والدنيا، الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، وقد يجمعها من لا عقل له. فقال له جبريل عليه السلام: ثبتك الله بالقول الثابت**».

وفي رواية أخرى: «**أريد أن أجوع يوماً فأصبر وأشبع يوماً فأشكر**» فأختار الغنى والفقر فكلاهما له اختيار لا اضطراراً، وما ذالك إلاَّ لأنه ﷺ مظهر للكمال، والجامع بين مطلع الجلال والجمال، فكان معتدلاً في الأحوال، متوسطاً بين الخوف والرجاء، كما يقتضيه مقام الرضا بالقضاء، وعيسى عليه السلام كان الغالب عليه الخوف ولذا كان يمتنع عن كثير من تمتعات الحلال، وأيضاً كان مبعوثاً إلى جمع محصور من أرباب الجاه والمال، فأظهر كمال الزهد فيهم ليقتدوا به ولذا ظهرت الرهبانية فيهم، لكنهم ابتدعوها وما رعوها حق رعايتها.

وأما نبينا ﷺ فكان مبعوثاً لعامة الخلق وهو الرحمة للعالمين وقد أمره الحق أن يقول للخلق: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] فاختار طريقاً جامعاً ومسلكاً واسعاً يسع الخلق كلهم أن يتبعوه صغيرهم وكبيرهم وضعيفهم وقويهم وغنيهم وفقيرهم وملوكهم وصعلوكهم، فتارة كان يأكل خبز الشعير اليابس والتمر الردي، وتارة أخرى يأكل الرطب الجني العيش الطري، وتارة يلبس الثوب الفاخر، وأخرى يلبس الكساء الخلق الطاهر، وتارة يرقد على السرير وفرش الثياب، وتارة على الحصير والتراب، وتارة يلبس القلنسوة مع العمامة وأخرى يكتفي بالقلنسوة، وتارة يركب الجمل والفرس وأخرى يركب البغل والحمار، وربما يردف، وتارة يمشي منفرداً وأخرى مع جماعة، وتارة يصوم حتى يظن أنه لا يفطر وأخرى يفطر حتى يظن أنه لا يصوم.

وكذا في صلاة الليل تارة يصلي حتى يظن أنه لا يرقد وأخرى ينام حتى يظن أنه لا يصلي، ومع هذا ما أحيا الليل كله، وربما رقد عن صلاة التهجد فأداها في النهار. وما ذلك كله إلا تسهيلاً للملة وتهويناً لمتابعة جميع الأمة، وتارة يعطى عطاء الملوك استغناء بغنى الحق، وأخرى يقترض من يهودي إظهاراً للإفتقار وتواضعاً مع الخلق، كل ذلك لتكون شريعته سهلة وطريقته سمحة لا فيها عوج ولا حرج.

ومن ثَمَّ كان التشدد في العبادة منهياً عنه كالتراخي عنها قال ﷺ: «أما أنا فأقوم وأنام وأصوم وأفطر». قال رضي الله عنه بعد ما ذكر.

مهمة: ينبغي التنبيه عليها نقل سيدي القطب الشعراني في درر الغواص عن سيدي على الخواص نفع الله بهما أنه قال: لا تجعل بينك وبين الله واسطة أبداً من نبي أو غيره فقلت له كيف, قال: لأن الرسول واسطة بين العبد وربه في الدعوة إلى الله تعالى لا إلى نفسه، فإذا وقع الإيمان الذي هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب إذ ذاك وصار الحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه ومن رسوله، ولم يبق للرسول إلا حكم الإفاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع كما في حال المناجاة في السجود سواء فنفس الرسول تغار من أمته أن يقفوا معه دون الله تعالى فإنه يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك كما أشار إليه قوله ﷺ: «من سن سنة حسنة، فله أجرها وأجر من يعمل بها إلى يوم القيامة.

الحديث وانظر يا أخي إلى غيرة الحق تعالى على عباده بقوله لمحمد ﷺ: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أُجيب دعوة الداعي إذا دعاني»، فأعلمنا الحق تعالى أنه أقرب إلينا من أنفسنا ومن رسولنا الذي جعله لنا واسطة في كل خير، مع أنه تعالى بالغ في مدحه ﷺ حتى كاد أن يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال في نحو قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ومع ذلك قال ليس لك من الأمر شيء، فأخرجه عن حال الخلق ونفاه عنهم.

قال العلامة ابن زكرى في شرح المشيشية بعد نقله ذلك ما ملخصه: لا يهولنك أمر هذا الكلام مع ما حققناه من أن الاستغناء عن واسطته ﷺ لا سبيل لأحد إليه، وإن وصل ما وصل كما سبق تفصيله وبيانه في كلام الشيخ المحقق سيدي عبد الرازق العثماني قدس سره، وهذا سيدنا الشيخ أبو العباس المرسي الذي لا شك في قطبانيته كما شهد الشيخ أبو الحسن الشاذلي وغيره بذلك قال: لو احتجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين.

وقد تقدم غير مرة عن غير واحد ما معناه أن كل من حصلت له رحمة في الوجود وخرج له قسم من رزق الدنيا والآخرة والظاهر والباطن والعلوم والمعارف والطاعات فإنما خرج له ذلك على يديه وبواسطته ﷺ، وهو الذي يقسم الجنة بين أهلها. ولهذا عدوا من خصائصه ﷺ أنه أعطي مفاتيح الخزائن.

قال بعض العلماء نفع الله بهم وهي خزائن أجناس العالم فيخرج لهم بقدر ما يطلبون وكلما ظهر في هذا العالم فإنما يعطيه سيدنا محمد ﷺ الذي بيده المفاتيح فلا يخرج من

الخزائن الإلٰهية شيء إلا علي يديه ﷺ، وهو معنى اسم الخليفة، وخليفة الله.

وقد سبق أنه لا طاقة لأحد بالتلقي والشهود بدون واسطته ﷺ، وإنه المرآة الكبرى والمجلى الأعظم وإن أقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف به. والمعرفة لا نهاية لها، فما دام الإنسان يترقى فيها، فهو يغترف من بحره ﷺ ويستمد منه، حتى الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم:

وكلهـــم مـــن رســـول الله ملتمـــس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

غاية الأمر أن صاحب الفناء لا يشعر بذلك وقت فنائه في الله لغيبته في ما فنى فيه، فالمنتفي إنما هو شعوره، وأما استمداده منه وتوجه الفتح له على يديه ﷺ فثابت في نفس الأمر فنافيه، لذلك بعد إفاقته اعترف به، وبدليل ما مر أنه لا يخرج شيء من الخزائن إلا على يديه. وسبق في كلام غير واحد من أئمة الطريقة المقتدى بهم، أن الأشتغال بالصلاة عليه ﷺ طريق الفتح، وإنها من ذكر الله تعالى، وكون الله تعالى أقرب إلى العبد من نفسه ومن رسوله ﷺ مما لا إشكال فيه، ولا ينافي شيئاً مما ذكرناه، وبعد ثبوت الإيمان للعبد لا يستغنى عن خلفائه ووسائطه ﷺ من المشايخ المهتدين في التوصل إلى المعرفة. نعم، بعد الوصول التام يستغنى عنهم، ولا يستغنى عنه ﷺ.

وقد سئل الشيخ أبو الحسن الشاذلي نفع الله به فقيل له: من هو شيخك يا سيدي؟ فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد، بل أعوم في عشرة أبحر، خمسة من الآدميين النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وخمسة من الروحانيين جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل والروح.

وقد سبق في كلام أويس القرني وكلام الشيخ أبي الحسن الشاذلي أن الخلفاء الأربعة تفاوتوا في معرفته ﷺ، وأن معرفتهم بالله على حسب ذلك، ولعل مقصود هذا الكلام الذي قاله سيدي على الخواص التنبيه على الاحتراز من الغلط في شهوده ﷺ بأن يجعل الشاهد الواسطة كالمقصد فيقف عندها ولا ينفذ إلى المقصد، وهذا في ما يقع لبليد قاصر إذ الدلالة لأحواله وأقواله وأفعاله ﷺ ثابتة فالوقوف عند الدال مع عدم فهم دلالته في غاية القصور والجهل بالدال. ولا يستغرب هذا، فإن مصائب الجهل لا تنحصر.

وقد حكي عن بعض المشايخ أن مريداً صدق في محبته والاقتداء به لكنه توغل في التمسك به والوقوف معه، فصار ذلك كالحجاب، فيصعد معه يوماً على سطح فأمر بطرحه من فوق السطح، فجاء يلوذ به فدفعه عنه، فطرحوه، فحين كان نازلاً في الهواء انقطع رجاؤه منه ففتح له. وكثير يقع لهم الغلط في صحبة المشايخ فيرون النفع والضرر منهم غافلين عن جانب

الربوبية حتى أن بعضهم ينقطع عنهم عند ظهور عجزهم له عن قضاء ما يريده.

وبالجملة فليحترز كل الاحتراز عن حال من يقع له الغلط في شهود الواسطة حتى يجعلها كالمقصد وليستحضر انه لولا تعريف الله لنا به ﷺ ما عرفناه ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] اللهم لولا أنت ما اهتدينا اهـ.

قال الشيخ العيدروس رضي الله عنه: بعدما ما ذكر قلت، وإلى الإشارة إلى بعض ما نقلناه هنا يشير قول سيدي أبي الحسن الشاذلي قدس سره: قرأت ليلة: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩] فرأيت النبي ﷺ يقول: أنا ممن يعلم ولا أغني عنك من الله شيئاً. وفي الحديث الصحيح: «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، ، فعم وخص، وطلب منهم أن ينقذوا أنفسهم من النار، إلى أن قال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلاها».

واخرج الشيخان عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سر يقول: «إنَّ آل أبي فلان ليسوا بأوليائي إنما وليي الله وصالحو المؤمنين لكن لهم رحم سأبلها ببلاها»، يعني سأصلها بصلتها.

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد»: «إنَّ أوليائي يوم القيامة المتقون، وإن كان نسب أقرب من نسب لا يأتي الناس بالأعمال وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم فتقولون يا محمد، فأقول: هكذا وهكذا وأعرض في كلا عطفيه».

فإن قلت: هذه أحاديث تنافي الأحاديث الواردة في فضلهم. قلت: لا تنافي كما قاله المحب الطبري وغيره من العلماء رحمهم الله تعالى، أنه ﷺ لا يملك لأحد شيئاً لا نفعاً ولا ضراً، لكن الله عزَّ وجل يملكه نفع أقاربه بل وجميع أمته بالشفاعة العامة والخاصة فهو لا يملك إلا ما يملكه له مولاه، كما أشار إليه بقوله: «غير أن لكم رحماً سأبلها ببلاها».

وكذا معنى قوله: «لا أملك لكم من الله شيئاً»، أي بمجرد نفسي من غير ما يكرمني الله به منه من نحو شفاعة ومغفرة وخاطبهم بذلك رعاية لمقام التخويف، والحث على العمل والحرص على أن يكون أولى الناس حظاً في توقى الله تعالى وخشيته، ثم أومأ إلى حق رحمه إشارة إلى إدخال نوع طمأنينة فيه.

وقيل هذا قبل علمه بأن الانتساب إليه ينفع وبأنه يشفع في إدخال قوم الجنة بغير حساب، ورفع درجات آخرين، وإخراج قوم من النار.

ولما خفي طريق الجمع على بعضهم حمل حديث: «كل نسب وسبب» على أن المراد: أن أمته ﷺ ينسبون إليه، بخلاف أمم الأنبياء لا ينسبون إليهم وهو بعدي، وإن وجه شيخ الإسلام النووي رحمه الله وجهاً له في الروضة ويرده ما سنذكره عن عمر رضي الله عنه في إسناده إليه في الحرص على تزوجه بأم كلثوم رضي الله عنها، وإقرار علي والمهاجرين والأنصار رضي الله عنهم له على ذلك وكأن هذا القائل لم يطلع على ذلك ويرده أيضاً ذكر الصهر والحسب مع السبب والنسب، كما سيجيء. وغضبه ﷺ لما قيل إن قرابته لا تنفع، على أن في حديث البخاري ما يقتضي نسبة جميع بقية الأمم إلى أنبيائهم، فإن فيه: «يجيء نوح عليه السلام وأمته فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: أي رب نعم. فيقول لأمته: هل بلغكم؟» الحديث. وكذا غيره.

واعلم أنه استفيد من قوله ﷺ في الحديث: «إنَّ أوليائي منكم المتقون»، وقوله: «إنَّ وليي الله وصالحو المؤمنين»، إن نفع رحمه وقرابته وشفاعته للمذنبين من أهل بيته وإن لم ينتف، لكن ينتفي عنهم بسبب عصيانهم ولاية الله ورسوله لكفرانهم نعمة قرب النسب إليه بارتكابهم ما يسوؤه ﷺ عند عرض عملهم عليه، ومن ثمة يعرض عمن يقول له منهم في القيامة «يا محمد» كما في الحديث السابق وكفى بذلك بلاء ونقمة، فواسوأتاه من الله ورسوله وإن حصل الغفران ودخول الجنان، وحينئذٍ ينبغي لأهل هذا البيت المطهر أن يسلكوا على طريقة مشرفهم عليه الصلاة والسلام وسنته اعتقاداً وعملاً وعبادة وزهادة وتقوى ناظرين إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] وإلى قوله ﷺ وقد سئل أيّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». إلى غير ذلك من الأخبار.

ولنذكر ما سبق الوعد به من ذكر حديث سيدنا عثمان رضي الله عنه، وهو أنه لما قال ﷺ: «ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع؟ إن كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي، وإن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة».

قال سيدنا عمر: فتزوجت بأم كلثوم بنت فاطمة الزهراء رضي الله عنها لما سمعت عن رسول الله ﷺ، فأحببت أن يكون بيني وبينه سبب ونسب ولما خطبها إلى علي كرم الله وجهه اعتل بصغرها. وقال: أعددتها لابن أخي جعفر الطيار رضي الله عنه: فقال عمر رضي الله عنه: والله إني ما أردت الباه، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي.

وفي رواية: ما حملني على كثرة ترددي إليك إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل حسب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا حسبي ونسبي وصهري.

وفي رواية أخرى: والله ما حملني على الإلحاح على علي في ابنته إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي وصهري وإنهما يأتيان يوم القيامة فيشفعان لصاحبهما.

هذا وقد أنجر بنا الكلام هنا حتى خرجنا عن المقصود، أو كدنا أن نخرج عنه، وعلى كل حال فالمدار على الفائدة والأعمال بالنيات.

ما أردت نقله من شرح صلاة سيدنا أحمد البدوي للإمام العلامة العارف بالله سيدي عبد الرحمٰن العيدروس وقد ترجمه المرادي في «سلك الدرر» فمما قاله فيه هو الأستاذ العارف الكامل العالم العامل أحد الأولياء الراسخين والأصفياء العارفين العلامة الحبر المحقق النحرير صاحب الكرامات والمكاشفات مربي المريدين ومرشد السالكين، قطب العارفين، أبو الفضل وجيه الدين.

ولد باليمن سنة ١١٣٥ وبها نشأ وقرأ، وارتحل إلى مصر وتوطنها ثم قدم إلى دمشق، وارتحل إلى القسطنطينية وحصل له اعتبار وإقبال ثم رجع إلى مصر فخرج من ساحل صيدا، فاستقبله واليها الوزير أحمد باشا الجزار، وعادا إلى مصر.

وله تآليف ذكر منها عدة من جملتها هذا الشرح «فتح الرحمٰن بشرح صلاة أبي الفتيان». ثم ذكر شيئاً من شعره، وقال: وبالجملة فقد كان نادرة عصره وفريد دهره، وكانت وفاته بمصر سنة ١١٩٢، ودفن بها، قدس الله سره.

انتهى باختصار، وإنما ذكرت ذلك لتعلم أيها الواقف على كتابي هذا علو منزلة هذا السيد الأصيل العارف الولي الكبير الإمام النحرير لتقابل ما نقلته عنه بالمقبول، على أنه لا يحتاج لهذا التعريف، فإنه بين العارفين إمام مشهور غير مجهول رضي الله عنه ونفعنا ببركاته وبركات أسلافه الطاهرين وأعقابهم أجمعين والحمد لله رب العالمين.

ومنهم الإمام العلامة الشيخ سليمان الجمل الشافعي(١) صاحب حواشي الجلالين والمنهج وشرح دلائل الخيرات المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ

فمن جواهره رحمه الله تعالى

[معاني أسماء النبي ﷺ]

ما ذكره في أوائل شرح الدلائل من الكلام على أسماء النبي ﷺ وها أنا أنقله هنا لما فيه من كثرة الفوائد المهمة في هذا الشأن. قال رضي الله عنه: «أسماء سيدنا ومولانا محمد ﷺ وهي مائتان وواحد» اعلم أن الله قد سمى نبيه محمداً ﷺ بأسماء كثيرة في القرآن العظيم وغيره من الكتب السماوية، وعلى ألسنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

وفي أحاديث رسول الله ﷺ، وفي ما أطلقته عليه أمته مما اشتهر وتلقى بالقبول وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، ولا سيما وهي أوصاف مدح دالة على ذلك بمعانيها، وقد تعرض قوم لتعداد أسمائه ﷺ، فمنهم من أكثر، ومنهم من اقتصر كل على حسب وسعه واطلاعه واجتهاده في اقتصاره على الألفاظ التي رآها أسماءً دون غيرها. أو ذكره لجميع ما أطلق عليه ﷺ وإن كان وصفاً.

وقال بعض الصوفية: لله تعالى ألف اسم وللنبي ﷺ ألف اسم. وقال ابن فارس في ما حكي عنه: أن أسماءه ﷺ ألفان وعشرون. وفي المواهب وشرحها للزرقاني: والمراد بهذه الأسماء الأعم من الأعلام والصفات المشتقات، إو المضافة أو نحو ذلك، وكثيراً ما يطلق الاسم على الصفة للتغليب أو لاشتراكهما في تعريف الذات وتمييزها عن غيرها، وإذا كان كذلك فله ﷺ من كل وصف اسم.

قال ابن عساكر: وإذا اشتقت أسماؤه ﷺ من صفاته كثرت جداً، ويمكن أن هذا مستند

---

(١) هو سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل فاضل من أهل منية عجيل توفي سنة ١٢٠٤ هـ.

من قال من الصوفية أنها ألف اسم أو ألفان وعشرون. ثم إنَّ منها ما هو مختص به وما هو غالب عليه، وما هو مشترك بينه وبين غيره، وكل ذلك بيّن في المشاهدة كما لا يخفى. قال السيوطي: وكثير منها لم يرد بلفظ الاسم بل بصيغة المصدر أو الفعل.

ونقل الغزالي الاتفاق وأقره في الفتح على أنه لا يجوز لنا أن نسميه ﷺ باسم لم يسمه به أبوه ولا سمى به نفسه ولا سماه الله به في كتبه، ولا ورد ما يؤخذ منه تسميته به من مصدر أو فعل، فلا يجوز لنا أن نخترع له علماً وإن دل على صفة كمال، والحال أنه لم يرد بخصوصه ولا ورد ما يؤخذ منه بطريق الإشتقاق أو الإضافة.

واختار المؤلف، يعني الجزولي صاحب دلائل الخيرات، رضي الله عنه من ذلك ما جمعه الشيخ أبو عمران الزناتي رحمه الله تعالى، وتبعه على ترتيبه ولفظه فقال وهي هذه:

«محمد»: هذا الاسم سماه به جده عبد المطلب، ولما سماه به قيل لِمَ سميته محمداً وليس اسماً لأحد من آبائك؟ فقال: إني لأرجو أن يحمده أهل السماء والأرض. وذكر أبو طالب العابد: أنه سماه محمداً لرؤيا رآها.

فقال: إنه رأى كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض وطرف بالمشرق وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، فإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها. فقصها، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتعلق به أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض.

وقد سمعت آمنة أمه ﷺ أيضاً قائلاً يقول لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وضعتيه فسميه محمداً.

وقد سماه الله تعالى بهذا الاسم الذي هو محمد قبل أن يخلق آدم عليه السلام، بل قبل أن يخلق الخلق بألفي ألف عام، ولم يسم أحداً قبله بهذا الاسم إلا بقرب زمنه لتبشير أهل الكتاب بقربه، فسمي قوم أولادهم به، وعدتهم خمسة عشر، رجاء النبوة لهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وأما أحمد فلم يتسم به أحد قبله كما في حديث مسلم وأحمد والترمذي الحكيم في نوادر الأصول. وهذا الاسم خصت به كلمة التوحيد لأنه أنسب لما له من مقام المحبوبية. وقال بعضهم هذا الاسم المبارك هو أشهر هذه الأسماء بين العالمين، وألذها سماعاً عند جميع المسلمين، وأشوقها إلى الصلاة والسلام على سيد المرسلين. انتهى.

وهو اسم علم على ذاته ﷺ قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩] وهو منقول من

الصفة، إذ أصله اسم مفعول من حمد المضعف، ثم نقل وجعل علماً عليه ﷺ، وهو من صيغ المبالغة معنى. إذ الثلاثي تضعف عينه، أي تشدد، وهي هنا الميم لقصد المبالغة، والأصل محمود من حمد مبنياً للمفعول مخففاً ثم ضعف، أي شددت ميمه، فصار الفعل حمد بالتضعيف، أي التشديد واسم المفعول منه محمد بالتشديد أيضاً للمبالغة لتكرار الحمد له أي وقوعه عليه المرة بعد المرة، فالمحمد في اللغة هو الذي يحمد حمداً بعد حمد. ولا يكون مُفَعَّل مثل: مضرَّب وممدَّح إلا لمن تكرر له الفعل ووقع عليه المرة بعد المرة فذاته ﷺ محمودة من كل الوجوه حقيقة وأوصافاً وخلقاً وخلقاً وأعمالاً وأحوالاً وعلوماً وأحكاماً، فهو محمود في الأرض وفي السماء، وهو أيضاً محمود في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا بما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة وفي الآخرة بالشفاعة، فقد تكرر له معنى الحمد كما يقتضيه اللفظ، وفي هذا الاسم الكريم إشارات لطيفة من حيث صورته ومادته أي من جهة حروفه المادية ومن جهة هيئته الصورية.

أما الأول: فلما اشتمل عليه في اعتبار حروفه من ميم الملكوت الأعلى، وحاء الحياة والحفظ، وميم الملكوت الباطن في ميم الملك الظاهر، ودال الدوام والإتصال الماحية لوهم الإنقطاع والانفصال.

وأما الثاني: فإن صورة هذا الاسم على صورة الإنسان، فالميم الأولى رأسه، والحاء جناحاه، والميم الثانية بطنه، والدال رجلاه.

«أحمد»: اسمه ﷺ المشهور به في الإنجيل وفي السماء، وهو صيغة تفضيل سمي به لوجود معناه فيه.

وهو أنه أزيد الناس وأكثرهم حمداً، لربه، فهو أحمد الحامدين فهو صيغة مبالغة في وصف الحامدية كما أن محمداً صيغة مبالغة في وصف المحمودية فهو ﷺ أجل من حمد وأكثر الناس حمداً فهو أحمد الحامدين، أي أزيدهم وأكثرهم حمداً ثم إنه لم يكن محمداً، أي لم يكثر الثناء عليه حتى كان أحمد الناس، أي أزيدهم وأكثرهم حمداً لربه، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس وكذلك وقعت التسمية في الوجود بمحمد بعد أن سمي بأحمد فإن تسميته أحمد وقعت في الكتب السالفة وتسميته محمداً وقعت في القرآن.

«حامد»: هذا يرجع في المعنى لأحمد، فهو بمعناه، لكن أحمد أبلغ من حامد، لأن معناه كما أزيد الناس حامدية.

«محمود»: وهذا الاسم يرجع في المعنى لمحمد، لأن كلاً منهما اسم مفعول من الحمد، لكن محمداً أبلغ، لأن معناه كما مر الذي وقع عليه الحمد كثيراً بخلاف محمود، فلا

يدل على كثرة، وقد وقعت تسميته بمحمود في زبور داود عليه السلام.

وهذا الاسم مما سمي به الله تعالى نفسه، لأن من أسمائه تعالى الحميد. ومعناه المحمود. لأنه حمد نفسه وحمده عباده، ويكون الحميد في حقه تعالى أيضاً بمعنى الحامد لنفسه ولأعمال الطاعات من عباده.

«أحيد»: سمي به في التوارة، والمشهور في نسخ هذا الكتاب ضبطه بفتح الهمزة وسكون المهملة وفتح المثناة التحتية ودال مهملة بوزن أفضل.

قيل: إنه غير عربي وقيل عربي، وعلي كل فهو ممنوع من الصرف، فلا ينون للعلمية والعجمة على الأول، أو العلمية ووزن الفعل على الثاني.

ويوجد في بعض نسخ هذا الكتاب ضبطه بفتح الهمزة وكسر المهملة وسكون التحتية بوزن أبيع، وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف أيضاً للعلمية، ووزن الفعل هذا محصل ما في نسخ هذا الكتاب.

ووجد في بضعها ضبطه بالتنوين فلعله لمشاكلة ما بعده، وضبطه في نسخة من الشفا بضم الهمزة وكسر المهملة وسكون التحتية بوزن أريد فهو ممنوع من الصرف أيضاً للعلمية ووزن الفعل، وقيل هو بضم الهمزة وسكون المهملة وفتح التحتية وكسرها، فهو بوزن المضارع المبني للمجهول على الأول كأكرم بفتح الراء، والمبني للفاعل على الثاني كأكرم بكسر الراء، وعليهما فهو ممنوع من الصرف. وقيل هو بضم الهمزة وفتح المهملة وسكون التحتية بوزن عمير مصغر عمر وعلى هذا الضبط فهو مصروف إذ ليس فيه إلا علة واحدة وهي العلمية.

وضبطه الماوردي بفتح الهمزة ممدودة وكسر الحاء وسكون التحتية بوزن قابيل، وعلى هذا، فهو مصروف أيضاً فتلخص أن فيه سبعة وجوه اثنان منها في نسخ هذا الكتاب وخمسة في غيره، وإنه على خمسة منها ممنوع من الصرف وعلى اثنين مصروف وهما الأخيران. روى ابن عدي في الكامل وابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «اسمي في القرآن محمد وفي الإنجيل أحمد وفي التوراة أحيد، وإنما سميت أحيداً لأني أحيد عن أمتي نار جهنم».

وقوله: «وإنما سميت أحيد». هكذا بالتنوين في الرواية ولعله جاء على لغة بعض العرب الذين يصرفون ما لا ينصرف مطلقاً وقد نقل القسطلاني هذه اللغة في شرح البخاري.

«وحيد»: يقال فلان وحيد، أي منفرد وهو ﷺ الوحيد في مقامه وحاله وعلوه وأسراره

وأنواره وأخلاقه وسيره وشمائله وفضائله وحسنه وإحسانه ومعراجه وارتقائه إلى حيث لم يبلغه سواه وشريعته وعقله وجاهه وتعلق سائر الخلق به، لا ثاني له في شيء من ذلك كله وهو أول مخلوق فكان واحداً أيضاً لا ثاني له قبل خلق الخلق والله أعلم.

«ماح»: هذا اسمه ﷺ المشهور به في البحار، والمناسبة ظاهرة لأن البحار تمحى وتزال بها الأدران والأوساخ الحسية، كما أنه ﷺ محيت به الأدران والأوساخ المعنوية، وقد فسره ﷺ بأنه الذي يمحو الله به الكفر، أي يزيله. وفسره أيضاً بأنه الذي تمحى به سيئات من اتبعه أي آمن به فيمحى عنه ذنب كفره وسائر ما عمل فيه ولم يمح الكفر بأحد كما محي به ﷺ، فإنه بعث وأهل الأرض كلهم كفار ما بين عباد أوثان ويهود ونصارى وعباد كواكب وعباد نار ودهرية لا يعرفون رباً ولا معاداً، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء ولا يقرون بها فمحيت برسول الله ﷺ حتى ظهر دينه على كل دين وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار فابتدأ ﷺ يمحو الكفر من وقت مبعثه، ولم يزل يمحوه مدة حياته، ثم اشتاق إلى لقاء مولاه فانتقل إلى دار الكرامة وبقي نور ذاته في أمته، فلا يزال نوره يمحو الكفر بواسطة خلفائه في الأرض حتى ينتهي الأمر إلى السيد عيسى والسيد المهدي فيمحو الله بهما بواسطة نوره ﷺ وشريعته دين إبليس وأتباعه قاطبة من الأرض، ثم بعدهما يعود الكفر برمته حتى لا يبقى في الأرض من يقول لا إله إلاَّ الله وسبب ذلك أن الله تعالى يقبض نور اسمه ﷺ الماحي من الأرض، ويرسل ريحاً من تحت العرش تقبض من الدنيا الأولياء لإقامة القيامة.

ثم يوجه الله نور اسمه الماحي إلى الدار الآخرة ليمحو الله به الكفر منها ويهلك أهله فلا يبقى إلا المؤمنون في دار سعادتهم التي أعدها الله لهم إكراماً له ﷺ.

«حاشر»: هذا الاسم يدل على عظيم فضله ﷺ وكرمه الذاتي والفعلي الذي لا يدانيه كرم، والحشر الجمع والاجتماع أبداً لا يكون إلا على عظيم القوم، ولأمر عظيم مهم وقد قال ﷺ: أنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي أي بعدي وعلى أثري إذ القدم المتقدم.

ودخلت الألف واللام في اسمه الحاشر للتعريف به في اليوم العظيم الذي لا يتجرأ أحد فيه، ولا يطمع أن يحشر إليه أحد لشغله وخوفه على نفسه، فهو ﷺ يحشرهم إليه لمقامه وفضله الكريم، إذا لا يجدون من يجتمعون إليه وعليه إلا هو ﷺ فهم يقصدون من كل مكان وناحية وجهة مقامه ومحله وهو مع مولاه يخلع عليه خلعات حلل الجود والكرم ويناجيه بأسراره والناس يحشرون إليه من كل مكان يستظلون في ظل جاهه، ويلوذون به فهو ﷺ سلطان ذلك الموقف العظيم يرغب إليه فيه الخلائق كلهم حتى إبراهيم الخليل وبيده لواء

الحمد، تحته آدم فمن دونه فتلخص أن الحاشر معناه الذي يجمع الله الناس عليه ومن أجله، فالإسناد مجازي وهو أيضاً سبب في حشر الناس لأنه أول من تنشق عنه الأرض وقت النفخة الثانية فيخرج من قبره معه سبعون ألفاً من الملائكة يزفونه إلى المحشر وهو راكب على البراق، ثم يخرج بعده الأنبياء، ثم أهل بيته ثم بقية أمته، ثم سائر الأمم.

وهو أول من يدخل المحشر، وبعده تلوذ الخلق به وتهرع إليه وتقفو أثره من كل ناحية وجهة، فالفضل له ﷺ في ذلك اليوم على سائر الخلق حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

«عاقب»: هذا الاسم اسمه ﷺ في النار ومعناه الآتي بعد الأنبياء، فلا نبي بعده لأن العاقب هو الآخر الذي يعقب غيره ويأتي بعده ومنه العقب بمعنى الولد، وهذا الاسم في أوصاف النبي ﷺ من أكرم الأوصاف وأعظمها وأدلها على فضله العظيم وذلك أن الله عزَّ وجل خلق الخلق في الدنيا وأرسل إليهم الرسل يدعونهم إلى العاقبة والعقبى الحسنة، وإلى كل ما يعقب الخير من أمور الدين والدنيا والآخرة، فبعث ﷺ بعد الأنبياء إلى الأمم موافقة لاسمه فاشتدت به الدعوة وقويت به النبوة، كما تقول عقبت الشيء شددته فهو في نفسه يعقب كل خير، ففعل كل عقبى حسنة وشد ظهور الأنبياء وقد انتهى في عواقب الخيرات إلى تمامها فحازها وأكملها كلها فلم يبق لأحد موضع مبعث معه قدر حبة فدرجته فوق كل درجة ليس بعده أحد إلا الواحد الأحد.

«طه»: معناه طاهر أو طيب هاد فالطاء من الأول والهاء من الثاني، فجعل الحرفان اسماً واحداً على طريق الرمز والإشارة إلى المعنيين، أي: الطهارة والهداية. وعلى هذا فهو معرب بحركات على الألف إعراب المقصور.

«يس»: معناه إنسان بلغة طيء وقيل بلغة الحبشة، وقيل بالسريانية، وقيل معناه يا محمد، وقيل يا سيد البشر، لكن هذان القولان إنما يناسبان يس الذي في القرآن لصحة ملاحظة النداء فيه وتقديره.

أما هنا فالمقصود ذكر الأسماء المسرودة الخالية عن التركيب مع العوامل، فالأولى أن معناه هنا سيد البشر من غير تقدير حرف النداء، وفيه من تعظيمه وتمجيده ما لا يخفى، وهو غير مصروف للعلمية والعجمة في الأصل، لأنه في الأصل يس سبط هارون أخي موسى بعث بعده، أي بعد هارون، كما ذكره في شرح المواهب فيكون من أسماء الأنبياء وكلها ممنوعة من الصرف إلا ما استثني وهذا ليس منه.

«طاهر»: أي في نفسه حساً ومعنىً، والطهارة النظافة والنقاء والنزاهة والخلوص من العيب.

أما الطهارة الحسية، فكل شيء منه ﷺ طاهر. وقد نص العلماء على طهارة النطفة التي تكوّن منها ﷺ وأخرجوها من الخلاف، الذي في طهارة المني.

ونصوا أيضاً على أن جسده الظاهر الشريف طاهر بعد الموت، وأخرجوه من الخلاف الذي في طهارة جسد الآدميين بعد الموت.

ونصوا أيضاً على طهارة جميع فضلاته وأخذوا ذلك من تقريره ﷺ لمالك بن سنان وعبد الله بن الزبير على شرب دمه وأم أيمن وأم يوسف على شرب بوله. وأما الطهارة المعنوية فقد برأه الله تعالى من كل خلق ذميم ونزهه عنه وأكرمه بكل خلق كريم وأثنى عليه به وعصمه في اعتقاداته وأقواله وأفعاله وجميع أحواله من كل ما لا يرضاه له.

«مطهر»: هو في النسخ المعتمدة بفتح الهاء، اسم مفعول، فهو بمعنى اسمه الطاهر، إلا أن الطاهر منظور فيه إلى طهارته ﷺ في نفسه ومخبر فيه بذلك من غير نظر إلى الذي فعل به ذلك، والمطهر منظور فيه إلى الذي طهره، ومفيد أن تلك الطهارة بفعل فاعل أرادها منه وخصه بها إظهاراً للعناية به، وذلك الفاعل لا تمتري العقول في أنه الله سبحانه ومشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فطهارتهم من طهارته ﷺ.

ووقع في بعض النسخ ضبطه بالكسر على أنه اسم فاعل ومعناه المطهر لغيره من الكفر والجهالات والمعاصي والضلالات والإصرار عليها والمؤاخذة بها. والله أعلم.

«طيب»: أي هو صاحب الطيب الحسي والمعنوي المتصف به، فلا ريب أنه ﷺ أطيب الطيبين ولا أطيب منه، وحسبك أن عرقه كان أطيب الطيب، وكان من ظفر به يجعله في طيبه، ومن تطيب به عبقت رائحته وشمها أهل المدينة وعلموا به ولا يجدون له شبهاً في الطيب.

وكان لا يمر في طريق فيمر بعده أحد إلا عرف أنه سلكه مما يعبق بذلك الطريق من ريحه ﷺ، يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريح كفه ويضعها على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان أن النبي ﷺ وضع يده عليه مما يعلق به من طيبه.

وكان إذا قضى حاجته انشقت الأرض فابتلعت ما يخرج منه وشمت من مكانه رائحة المسك ولم يطلع على ما يخرج منه بشر قط، وشرب دمه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فتضوع فمه مسكاً وبقيت رائحته فيه إلى أن قتل.

ولما مات ﷺ لم يظهر منه شيء يستكره مما يظهر على الأموات، بل كان طيباً حياً وميتاً ﷺ. وكان لا يتسخ له ثوب لأنه كان لا يبدو منه إلا طيب.

وبالجملة فهو ﷺ طيب الله نفحه في الوجود فتعطرت به الكائنات وسمت واغتذت به

القلوب فطابت وتنسمته الأرواح فنمت وقد سلم من خبث القلب حين أزيلت منه العلقة السوداء فليس للشيطان فيه نصيب وسلم من خبث القول فهو الصادق المصدوق وسلم من خبث الفعل، فهو كله طاعة فأي طيب أطيب منه ﷺ.

«سيد»: السيد الذي يسود قومه، أي يتقدم عليهم بما فيه من خصال الكمال والشرف التام. وقيل هو الكامل المحتاج إليه على الإطلاق أو العظيم المحتاج إليه غيره.

وقيل: هو الذي يرأس قومه. وقيل هو المالك الذي تجب طاعته، ولهذا يقال سيد الغلام ولا يقال سيد الثوب. وقيل هو الحليم، وقيل السخي، ويطلق على الزوج ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] هذا قول أهل اللغة في السيد.

وأما أهل التفسير فقال ابن عباس السيد هو الكريم على ربه عزَّ وجل، وقال قتادة السيد العابد الورع الحليم.

وقال عكرمة: السيد الذي لا يغلبه غضبه، وسيادته ﷺ أجلى وأظهر وأوضح من أن يستدل عليها، فهو سيد العالم بأسره من غير تقييد ولا تخصيص في الدنيا والآخرة.

وقد كان ﷺ معلوماً بالسيادة نسباً وطبعاً وخلقاً وأدباً إلى غير ذلك من المكارم قبل ظهوره بالنبوة يعرف ذلك من اعتنى بالسير وتعرف أحواله من الصغر إلى الكبر صلوات الله وسلامه عليه.

«رسول نبي»: النبي إنسان خصه الله بسماع وحيه بملك أو دونه. وقال القرافي: النبوة ليست هي مجرد الوحي كما يعتقده كثير لحصوله لمن ليس بنبي، كريم فليست بنبية على الصحيح، بل النبوة عند المحققين إيحاء الله لرجل بحكم شرعي ليعمل به.

ثم اختلفوا في ما يفترق به مع الرسول وما يزيد به الرسول عليه. فقيل: إن الرسول هو النبي المأمور بتبليغ ما أوحي إليه، فهو أخص من مطلق النبي لزيادته عليه بالأمر بالتبليغ. وقيل إن حكم الإرسال والتبليغ يعمهما وإنما يفترقان في أمر آخر من كون الرسول يأتي بشرع جديد أو نسخ لبعض شرع من قبله، أو له كتاب مخصوص، والنبي إنما يأتي مؤكداً لشرع غيره، كيوشع بن نون، فإنه بعث مؤكداً لشريعة موسى عليهما السلام.

وعلى هذا فبينهما التباين، وعلى الأول بينهما العموم والخصوص المطلق كما يعلم مما سبق. ثم النبي والرسول إذا أطلقا في القرآن أو السنة فإنما المراد بهما نبينا محمد ﷺ، فهو الرسول المطلق لكافة الخلق من الأولين والآخرين فرسالته عامة ودعوته تامة ورحمته شاملة وكل من تقدم من الأنبياء والرسل قبله فعلى سبيل النيابة عنه، فهو الرسول على الإطلاق فاتجه اختصاصه ﷺ باسمي النبي والرسول والله أعلم.

«رسول الرحمة»: أي هو السبب في رحمة الله تعالى لخلقه قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» فبعثه الله تعالى رحمة لأمته ورحمة للعالمين، حتى للكفار بتأخير العذاب، وللمنافقين بالأمان، فمن اتبعه رحم به في الدنيا بنجاته فيها من العذاب والخسف والمسخ والقتل وذلة الكفر والجزية، ورحم الله قلبه بالإيمان بالله ونجي من نيران القطيعة عن الله في الآخرة بنجاته فيها من العذاب المخلد والخزي المؤبد وبتعجيل الحساب وتضعيف الثواب وحصوله على الخير الكثير والملك الكبير. وهذا الاسم من أخص أسمائه ﷺ.

«قيم»: بفتح القاف وكسر المثناة التحتية وتشديدها وهو الذي في النسخة السهلية وغيرها ويقع في بعضها.

«قثم»: بضم القاف وفتح المثلثة وهما ثابتان معاً عند غيره فما من أسمائه ﷺ. فمعنى الأول الجامع الكامل، أي الجامع لمكارم الأخلاق النفيسة الكامل فيها، أو الجامع لشمل الناس بتأليفه بينهم وجمع شتاتهم، أو معناه المستقيم الحال، أو الجامع للخير كله، أو المقيم للسنة، أو القائم بأمور الخلق ومدبر العالم في جميع أمورهم.

وقيم الدار هو الذي يمون أهلها ويقوم بشأنهم ومصالحهم ويراعي احتياجهم إلى النفع والدفع فيوصل ذلك إليهم على مقتضى النظر.

ومعنى الثاني الجموع للخير والكثير العطاء وفي المصباح. قثم له من المال أعطاه قطعة جيدة، واسم الفاعل قثم مثل عمر على غير قياس، وبه سمي الرجل وهو معدول عن قائم تقديراً، ولهذا لا ينصرف للعلمية والعدل التقديري.

وقد كان ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة، وجامعاً للفضائل وجميع الخيرات والمناقب. فمعنى الاسمين واحد أو متقارب.

«جامع»: أي لما تفرق من خصال الكمال في غيره من الأنبياء والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وكذا الأولياء والعلماء رضي الله عنهم، كيف لا؟ وهم خلفاؤه فما منهم أحد إلا وهو سابح في نوره وممتد من بحره كل على حسب مقامه وكل خير وبركة قلت أو كثرت منه حصلت وبطلعته ظهرت وعنه امتد الوجود كله كما امتدت الشجرة عن البذرة فهو بذرة الوجود، وأقرب موجود من الملك المعبود، ويعسوب الأرواح وهو الروح الأعظم وآدم الأكبر.

وهو ذو الكلمة الجامعة والرسالة المحيطة، وهو الجامع للخلق على الله، والجامع لشملهم بتأليفه بينهم وجمع شتاتهم. فهذا يرجع للاسمين قبله من حيث المعنى.

«مقتف»: بالفوقية بين القاف والفاء وإسقاط التحتية من آخره في النسخ الكثيرة المعتمدة ووقع في نسخة بالتحتية آخره وعلى النسختين فهو اسم فاعل.

«مقفى»: بتشديد الفاء المسكورة وتحتية ساكنة بعدها وهو اسم فاعل أيضاً، ومعنى الاسمين واحد، وهو التابع لغيره، فالمقتفي التابع لغيره والمقفى من قفى بتشديد الفاء، أي تبع غيره وهو قد تبع الأنبياء قبله في هديهم وسننهم وجاء آخرهم وعلى أثرهم فهو خاتمهم وكل شيء تبع شيئاً فقد قفاه واقتفاه وفي ذلك من تشريفه ﷺ أنه قد اطلع على أحوالهم وشرائعهم فاختار الله له من كل شيء أحسنه. وكان في قصصهم له ولأمته عبر وفوائد.

«رسول الملاحم»: الملاحم جمع ملحمة وهي الحرب والقتال، أو مكانهما، أو الحرب الشديدة والوقعة العظيمة، وهو مأخوذ من اختلاط المقاتلين واشتباكهم كاشتباك لحمة الثوب بسداه.

وهي من كثرة اللحم لكثرة لحوم القتلى فيها، وهو أشارة إلى ما بعث به ﷺ من القتال والسيف لأنه ﷺ فرض عليه القتال وأحلت له الغنائم ونصر بالرعب ووقع له في الحرب والجهاد والنصرة ما لم يتفق لغيره من الرسل ولم يجاهد نبي ولا أمته قط، ما جاهد هو ﷺ وأمته. والملاحم التي وقعت بين أمته وبين الكفار لم يعهد مثلها قبله قط، ولا يزالون يقاتلون الكفار في الأقطار على تعاقب الأعصار حتى يقاتلوا الأعور الدجال وينزل عيسى بن مريم عليه السلام، فلاختصاصه ﷺ بذلك أضيف إليه الملاحم بالجمع للكثرة إشارة إلى أنه اختص بكثرتها، وقد كان ﷺ يغزو الكفار ويجاهدهم منذ استوطن المدينة وأذن له في القتال إلى أن توفاه الله تعالى، تارة يخرج بنفسه الشريفة، وتارة يبعث البعوث والسرايا، ولم يكن له ولا لأصحابه راحة ولا شغل إلا ذلك، وبسبب ذلك أذل العرب واستفتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وقد كانت مغازيه التي خرج فيها بنفسه سبعاً وعشرين على الأشهر. ومذهب الأكثر وسراياه وبعوثه سبعاً وأربعين، وقيل أقل وقيل أكثر، والله أعلم.

«رسول الراحة»: أي هو الذي أراح الله به الخلق وأزال عنهم التعب الدنيوي والأخروي فهو ﷺ راحة للمؤمنين في الدنيا لما رفع عنهم مما كان في الأمم السالفة من الأصر والمشاق بما في شريعته من الرخص والتخفيفات وفي الآخرة راحتهم العظمى لأمنهم وفوزهم، وراحة

للكافرين بترك قتلهم وسبي ذراريهم إذ قبلوا الجزية فنزلوا في حرم الإيمان آمنين. وهذا الاسم من معنى رسول الرحمة ولازم له، لأن من رحمه الله فقد أراحه.

«كامل»: أي في العبودية لله تعالى وفي الأوصاف بتكميل الله فهو متصف بكل كمال، متحل بجميع الفضائل ومحاسن الخصال على الإطلاق من علوم وأعمال وأخلاق وأحوال وأوصاف جليلة.

«إكليل»: هو اسمه ﷺ في الزبور والإكليل بكسر الهمزة وسكون الكاف وكسر اللام وسكون التحتية كل ما يدور بالشيء من جوانبه.

واشتهر لما يوضع على الرأس فيحيط به شبه عصابة تزين بالجواهر، وهو من ملابس الملوك كالتاج ويسمى إكليلاً، والنبي ﷺ هو تاج الوجود بأسره وإكليله وزينته وبهجته وسره وروح وجوده.

«مدثر مزمل»: أصلهما متدثر ومتزمل فقلبت التاء دالاً في الأول وزاياً في الثاني ثم ادغمت في الدال في الأول وفي الزاي بالثاني.

والمدثر المتلفف بالدثار وهو الثوب. والمزمل بمعناه. وسمي ﷺ بذلك لما روي أنه كان يفزع ويخاف من جبريل عليه السلام ويتزمل ويتدثر بالثياب، أي يتغطى بها أول ما جاءه.

وقيل: هما اسمان من الحال التي كان عليها حين نزول الآيتين، فقد روي أنه أتاه جبريل وهو ﷺ في قطيفة.

وقيل معناهما يا أيها النائم، وكان متلففاً في ثوب نومه فكان ثوب نومه على هذا هو القطيفة، وقيل: إن في هذا الخطاب ملاطفة وتأنيساً له من الروع وتنشيطاً له على فعل ما أمر به، كما تقول لمن أرسلته لأمر فتخوف منه وأنت تريد تنشيطه: يا أيها المتخوف إمض لأمرك.

قال السهيلي: وليس المزمل من أسمائه ﷺ التي يعرف بها، وإنما هو مشتق من حالته التي كان قد تلبس بها حالة الخطاب والعرب إذا قصدت الملاطفة بالمخاطب بترك المعاتبة نادوه باسم مشتق حالته التي هو عليها كقوله ﷺ لعلي رضي الله عنه وقد نام في المسجد ولصق جنبه بالتراب قم أبا تراب، إشعاراً بأنه ملاطف فقوله: يا أيها المزمل، فيه تأنيس وملاطفة.

«عبد الله»: هذا الاسم أحب الأسماء إلى الله تعالى وإليه ﷺ فكان يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى، ولكن قولوا عبد الله ورسوله».

والإطراء المبالغة في المدح، فأثبت ما هو ثابت له، وأسلم لله ما هو له لا لسواه وليس للعبد إلا إسم العبد.

ولما خير ﷺ بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، إختار أن يكون نبياً عبداً، فاختار ما هو الأتم والأحب إلى الله تعالى وما يضاف إليه لأن النبي والعبد تصح إضافتهما إلى الله تعالى إذ يقال: نبي الله وعبد الله بخلاف الملك إذ لا يحسن أن يقال ملك الله لما يوهمه من عكس النسبة. وإن الله من رعيته تعالى الله عن ذلك. وقد شرفه الله تعالى بهذا الاسم فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

وفي هذه الإضافة غاية التفضيل والتشريف والتكريم حيث أضافه تعالى لنفسه فتشرف ﷺ بهذه الإضافة، فالعبد يقتضي رباً يستعبده فمن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه، فشهود العبودية مستلزم لشهود الربوبية ومن لا يغفل عن العبودية بالكلية فهو العبد علماً وحالاً ووجداناً وتحققاً فعدم الغفلة عن العبودية بالكلية كمال الإنسان. ولما كان لسيدنا محمد ﷺ كمال الرسالة وجب أن يكون له كمال العبودية. ومقام العبودية أشرف المقامات إذ لأجلها كان الإيجاد. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦] فكان ﷺ أكمل الكمل على الإطلاق وعبوديته أكمل كل كمال.

«حبيب الله»: حبيب فعيل بمعنى مفعود، لأنه محبوب لله تعالى أو بمعنى فاعل، لأنه محب لله تعالى. قال القاضي: المحبة الميل إلى ما يوافق مراد المحبوب. وهذا في حق المخلوق. أما في حقه تعالى فمعناها إرادة سعادة العبد وعصمته وتوفيقه وإعطاؤه ذلك وإفاضته عليه ومزيد تقريبه وتخصيصه ويعطى من هذا المقام كل من أهل له على قدر مرتبته عند ربه نبياً كان أو ولياً.

«صفي الله»: أصل معنى الصفي هو الذي يختاره كبير الغزاة لنفسه من الغنيمة فعيل بمعنى مفعول. كما كان ﷺ مخصوصاً بأن يختار لنفسه من الغنيمة صفيها أي خالصها وأحسنها من جارية أو دابة أو سيف أو غيرها وسمي ﷺ بهذا الاسم لأن الله اصطفاه واختاره لمزيد القرب من بين سائر الخلق.

«نجي الله»: هو فعيل بمعنى مفعول من المناجاة، والإسم النجوى وهو المحادثة سراً وهو بمعنى ما بعده.

«كليم الله»: أي مكلم الله بفتح اللام، وقد كلمه ليلة المعراج على الصحيح من الخلاف.

«خاتم الأنبياء»: بكسر التاء وفتحها، أي الذي ختمهم، أي جاء آخرهم وختموا به فهو كالخاتم والطابع فلا نبي بعده بل ولا معه، ومن وجوه المدح بهذا الاسم أن فيه إشارة إلى دوام

شرعه والعمل به فلا ينسخ ولا يتغير لعدم نبي تتجدد نبوته بعده لدوام نبوته ﷺ ورسالته إلى آخر الزمان.

قال بعضهم قال أهل البصائر: لما كان فائدة الشرع دعوة الخلق إلى الحق وإرشادهم إلى مصالح المعاش والمعاد وإعلامهم الأمور التي تعجز عنها عقولهم وتقرير الحجج القاطعة، وقد تكفلت هذه الشريعة الغراء بجميع هذه الأمور على الوجه الأتم الأكمل بحيث لا يتصور عليه مزيد كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فلم تبق بعده حاجة للخلق إلى بعث نبي، فلذلك ختمت به ﷺ النبوة. وأما نزول عيسى عليه السلام ومتابعته لشريعته ﷺ فهو مما يؤيد كونه خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وفي «شعب الإيمان» للشيخ عبد الجليل القصري في هذا الاسم تقول ختم يختم ختماً إذا طبع، والختم الطبع، وخاتمه كل شيء آخره بالكسر، وخاتمه بالفتح ما يوضع على الخاتم كالطين الذي يختم به. وتقول ختم زرعه سقاه، كأنه سقاه في الأول سقياً ينهيه إلى آخر نهاية.

وهذا كله من أوصاف المصطفى عليه الصلاة والسلام ومخصوص به دون سائر الخلق فضله بذلك تفضيلاً على الجميع. فإذا قلت ختم بمعنى طبع فإن الله طبعه على خلق وطباع وأوصاف ما طبع عليها أحداً لقبول جوهره الشريف ذلك الطبع الذي لم يقدر طبع غيره أن يقبله وإذا قلت ختم زرعه بمعنى سقاه أول سقيه فإن محمداً عليه الصلاة والسلام أدرجت فيه في أول القدر السابق جميع النبوات وأخفي فيه بالقدر من تخصيصات الفضائل ما يظهر ويعلو أبد الآبدين على كل موجود. وفي القدر السابق حصل لكل أحد ما قسم له وإذا قلت خاتم بالفتح وهو ما يوضع على الخاتم، أي الطين الذي يختم به، فإن نبينا محمداً ﷺ وعاء جعلت فيه النبوة كلها بجميع أجزائها لأنها أجزاء كثيرة، وغيره أعطي من أجزائها على قدر ما يحتمل ولم يحتمل الجميع إلا محمد عليه الصلاة والسلام، فلما أكملت فيه كان هو الخاتم على الكمال كما يطبع الكتاب ويختم إذا أخفي وطوي على ما فيه ولم يختم غيره من الأنبياء لأنه لم تكمل فيه النبوة وبقي له شيء لم ينله بالإرتقاء أبداً.

ثم قال وجه آخر: وإذا قلنا خاتم بالكسر في التاء فإنه الآخر وروح المعنى فيه أنه تمام الشيء وكماله ولم يكن لظهر النقص في الشيء المكمل المتمم فكان عليه السلام هو المكمل المتمم فأعطي روح المعنى بالرتبة والدرجة في التتميم والتكليل، فزين الجميع وكمل الكامل وتمم التمام، ولهذا المعنى عدده ﷺ في فضائله التي أعطيها دون الأنبياء فقال وختم بي النبيين، وأنا خاتم النبيين، ، فساقها في معرض المدح من الله له والتفضيل.

وجه آخر: في الختم كان الأنبياء قبله في أوقاتهم يبعثون جماعات جماعات إلى أقوام متفرقين في زمان واحد، ويعين بعضهم بعضاً ومع كثرتهم ما لقي الكل الرجاء من التبليغ، ولم ينقذوا من الخلق إلا اليسير، ومنهم من لم ينقذ شيئاً.

وخاتم النبيين ﷺ بعث في الآخر غريباً من أبناء جنسه وأخوته، وهم الأنبياء، لم يعنه منهم أحد، فنهض بذاته الفاضلة في ذات الله تعالى وشمر عن ساقه فأدخل في دين الله ما لم يدخله الجميع ولا قدر عليه أحد. فهذا فضل لا يدانيه فضل انتهى.

وإذا كان ﷺ خاتم: النبيين فهو خاتم المرسلين لا محالة، لأن ختم الأعم يستلزم ختم الأخص دون عكس، وقد أغنى هذا عن إعادة الكلام على الاسم بعده وهو: «خاتم الرسل».

«محيي»: سمي به ﷺ لأنه أحيا الموتى حياة حسية وحياة معنوية، فأحيا أبويه ﷺ بإذن الله عزَّ وجل حتى آمنا به، وأحيا ابنة رجل دعاه إلى الإسلام فقال حتى تحيي ابنتي فحييت وشهدت له بالرسالة، وأحيا شاة جابر بعد طبخها وضع يده عليها ثم تكلم بكلام فقامت تنفض أذنيها. ولأن الله تعالى بعثه إلى العرب وهم أعداء يسفك بعضهم دماء بعض فألف به بين قلوبهم وكفوا عن سفك دمائهم، فكان في بعثه حياة وإبقاء لهم ولحياة قلوب المؤمنين به ﷺ وهو الواسطة بين الله وبين خلقه والرابطة بين الحدوث والقدم والجامع على الله والدال عليه، وبه تكون حياة أمته الدائمة في أعلى درجات الجنان. وهو الأصل في نجاتهم من دركات النيران. ولحياة جميع الكون به ﷺ فهو روحه وحياته وسبب وجوده وبقائه.

«منجي»: بإثبات الياء وتركها، وبالتشديد والتخفيف بسكون النون. ففيه أربعة وجوه سمي به ﷺ لأنه سبب نجاة أمته في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فنجوا من الكفر والعقوبة عليه في الدنيا، ومن الهلاك بسنة عامة. ومن أن يجمع عليهم سيفان: سيف منهم وسيف من عدوهم. وفي الحديث: «أنزل عليَّ أمانين لأمتي ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة» وهو ﷺ الذي علم أمته الاستغفار. وفي الآخرة نجوا من الخلود في النيران.

«مذكر»: بتخفيف الذال اسم فاعل من التذكير، وهو الوعظ والتخويف والترهيب والترغيب، وذكر نعم الله وتوحيده. وقد كان هذا شأنه ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم، فكانت عامة مجالسه تذكيراً بالله تعالى وترغيباً وترهيباً، إما بتلاوة القرآن، أو بما آتاه الله زائداً على القرآن من الحكمة والموعظة الحسنة وتعليم ما ينفع من الدين، كما أمره الله تعالى فكانت تلك

المجالس توجب لأصحابه رقة القلوب والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وتوقية اليقين وتجديد الإيمان وتصحيح النظر وعلو الهمة وما زال ﷺ يذكر أمته بما ترك فيهم من كتاب وسنة. والتذكير باب عظيم لنفع الخلق فإن الله يحب أن تذكر آلاؤه ونعمه للخلق ليتذكروها فينقادوا لأحكامه.

«ناصر»: أي لله ولدينه بإعلاء كلمته وإظهار دينه وتبليغه ونشره والقتال عليه. وللمؤمنين ببذل النصيحة لهم وتعليمهم العلم والدين وأخذه بحجزهم عن النار وإنقاذه إياهم منها. وللكافرين أيضاً بدعائهم إلى الله تعالى وجهادهم حتى يقولوا لا إله إلاّ الله.

«منصور»: أي في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فلما أمده به مولاه من القوة والظهور على الأعداء ونصره بالصبا وبالرعب مسيرة شهر ونصر أمته على الأمم ودينه على الأديان ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وأما في الآخرة فبقبول شفاعته ودفع الأسواء عن أمته وظهور مزيته وعلو مكانته بين أكابر الأنبياء وأولي العزم من الرسل وشهود أهل الجمع كلهم.

وقد آتاه الله قبول الشفاعة واستجابة الدعاء في الدنيا والآخرة لرفعة مكانته ولطف منزلته وعظم كرامته واتساع وجاهته وعزة اصطفائيته ومحبوبيته، فلا يرده في شفاعته ولا يخيبه في سؤال، بل يسارع في قضاء حوائجه وتنجيز أوطاره، أي شيء كانت، وفي أي وقت كانت ﷺ.

«نبي الرحمة»: أي هو الذي رحم الله بسببه الخلق في الدنيا والآخرة، فهو بمعنى رسول الرحمة وقد تقدم. وقيل أن معنى نبي الرحمة أنه الذي حصل بسببه التراحم بين الأمة ببركته ﷺ. قال تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] الآية وقال: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

«نبي التوبة»: سمي به ﷺ لأن الأمم رجعت بهدايته ﷺ بعدما تفرقت بها الطرق إلى الصراط المستقيم. ولأنه ﷺ أصل التوبة، وبه فتح بابها، ففي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند البيهقي في دلائله، والحاكم وصححه: إن آدم عليه السلام لما رأى اسمه ﷺ مكتوباً مع اسم ربه تعالى تشفع به فتاب عليه وغفر له. فتلك أول توبة وقعت في هذا النوع الإنساني، فهي أم الباب ينبني عليها ما بعدها، وكانت بسببه ﷺ، فهو نبي التوبة المفتوح بوجاهته ﷺ بابها، ولأن أمته موصوفة بالتوابين لأنهم كلما أذنبوا تابوا، فهو نبي التوبة لأن كل فضل في أمته فهو بسببه. أو نبي أهل التوبة لأن توبتهم مقبولة في كل زمان ومكان، وحال بالقول والعمل والاعتقاد من غير حرج عليهم ولا تكليف قتل أو أسر حتى تطلع الشمس من

مغربها، أو تحصل الغرغرة وإن تكررت مع تكرر الذنوب إذا كانت بشروطها.

وبه فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]. وكانت الأمم السالفة منهم من لا تقبل توبته أصلاً ومنهم من تقبل توبته بشرط أمور شاقة، كما لم تقبل توبة بني إسرائيل من عبادة العجل إلا بقتل أنفسهم.

ثم إن الرسل عليهم الصلاة والسلام نواب عنه ﷺ، فهو نبي كل توبة طلبت من الخلق أو وقعت منهم. ولأنه ﷺ كان لا يرد تائباً ويقبل عذر المعتذر.

وقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[1].

وعنه ﷺ أنه قال: «إنه ليغان»، أي ليغطي على قلبي فاستغفر الله في اليوم سبعين مرة، وهذا الغين غين أنوار لا غين أغيار فهو ﷺ في ترق دائماً، وعروج متصل كلما جاوز مقاماً وترقى عنه تاب منه واستغفر فهو دائم التوبة والاستغفار فقد تمكن أن يكون ذلك معنى نبي التوبة فتوبته على قدر ترقيه.

«حريصٌ عليكم»: الحرص شدة الرغبة في الشيء وقوة الطلب له، وقد كان ﷺ أحرص شيء على هداية الخلق، فلقد كان يدعوهم إلى الله فرادى وجماعات، في منازلهم ومواسمهم ومواضع اجتماعهم ويجمعهم لذلك، فيكذبونه ويضربونه ويستهزؤون به ويسخرون منه ويهمزونه ويلمزونه ويحذرون منه ويحرضون عليه، ومع ذلك لا يبالي بذلك منهم بل يعود لدعائهم ونصحهم ويدعو لهم ويدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً.

ثم دعاهم إلى الإيمان والجنة بالسيف كرهاً حتى أنجاهم وأسعدهم وأدخلهم الجنة وهم كارهون.

فائدة: في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:١٢٨] إلى آخر السورة بشارة عظيمة، وهي أن من قرأها صباحاً ومساء لم يقتل في يومه وليلته. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ في كل يوم الآيتين من آخر سورة التوبة من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] لم يمت ذلك اليوم».

وفي رواية: «لم يقتل ولا يقربه أحد بحديد وإن قرأها في ليلة» فكذلك ذكر هذا الحديث

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٨: ٨٣). وأحمد في المسند (٢: ٣٤١). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٣: ١٠٤٧).

بعض الصالحين وكان يستعمله في مرضه وأظنه كان ابن تسعين سنة فبقي يقرأ الآيتين المذكورتين إلى أن وصل المائة والثلاثين قراءة الآيتين فمات رحمه الله.

«معلوم»: أي متقرر حاله في العقول بحيث لا يحتاج إلى تعريف، وشهرته تغني عن تعريفه، وهو الشهير في المشارق والمغارب وسائر أقطار الأرض لعموم دعوته وانتشارها وبلوغها سائر نواحيها وأرجائها، وهو المعلوم الشهير عند الأمم الماضية في القرون الخالية، وفي السموات والأرض وفي الدنيا والآخرة في عرصات القيامة وعند أهل الجنة والنار.

«شهير»: أي مشهور ظاهر عند العقلاء فهو بمعنى معلوم.

«شاهد»: أي على من بعث وأرسل إليهم بتبليغ الرسالة أو بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم أو شاهد للأنبياء بالبلاغ وعلى أممهم بالجحود. روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء فيطالبهم الله ببينة التبليغ، وهو أعلم بهم، إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم. من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بأخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق. فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته فيشهد بعد التهم.

«شهيد»: فعيل بمعنى فاعل، فهو بمعنى شاهد، وقد تقدم. وإنما جمع بينهما استيفاء للوارد لأن الله سماه بهما فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] وقال: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] وبمثل هذا يعتذر عن الجمع بين كل اسمين معناهما واحد كما تقدم ويأتي.

«مشهود»: أي تشهده الملائكة، أي تحضر عنده حياً وميتاً فقد كانت كثيرة الحضور عنده في حياته وكذلك يكثر حضورها له في قبره كما ورد أن الله وكل بقبره الشريف سبعين ألف ملك بالليل ومثلهم بالنهار يتعاقبون عليه كما تقدم.

«بشير»: فعيل بمعنى فاعل من بشره مخففاً ومشدداً، أخبره بما يسره وإذا أطلقت البشارة فإنما تصرف للخير، أي الأخبار بما يسر وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة به كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

والمعنى أنه بشير أي مبشر للمتقين برضى رب العالمين وللخائفين بالأمن يوم الدين وللمشتاقين بالنظر إلى وجه الملك الحق المبين، ومبشر لأهل الطاعة بالثواب والمغفرة وبالجنة وبالشفاعة.

«مبشر»: بمعنى بشير وقد تقدم.

«نذير»: فعيل بمعنى فاعل أي منذر لأهل المعصية بالنار أو بالعذاب، أو معناه محذر من الضلالات. والإنذار الإخبار بالأمر المخوف ليحذر ويكف عما يوصل إليه ويعمل بما يحجز عنه.

«منذر»: أي مخوف من عذاب الله تعالى فهو بمعنى نذير وقد تقدم.

«نور»: أي نور الله الذي لا يطفأ وحقيقة النور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره وهو ﷺ كذلك.

«سراج»: السراج هو النور في نفسه المنير لغيره وهو ﷺ كذلك فهو السراج الكامل في الإضاءة لوضوح أمره وبيان نبوته وقد نور قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به، ونوره ﷺ منه اقتبست جميع الأنوار السابقة على ظهوره الصوري واللاحقة له من غير مانع ولا حجاب ولا كلفة.

وفي غيبته الصورية لم يغب الاستمداد من نوره، بل هو موجود في الفروع المقتبسة منه سابقة ولاحقة، قال البوصيري رحمه الله تعالى.

أنت مصباح كل فضل فما تصـ ـــدر إلا عن ضوئك الأضواء

«مصباح»: أي نير في نفسه منير لغيره فهو بمعنى سراج وقد تقدم.

«هدى»: بضم ففتح، وأصل هدى مصدر، يقال هداه هدى وهداية أي أرشده ودله على طريق الخير، فسمي ﷺ بالمصدر مبالغة، أي أنه لكثرة هدايته للخلق وإرشادهم وإنقاذهم من الضلال صار كأنه نفس الهدى، أي الإرشاد والدلالة. والمعنى أنه هاد للخلق ومرشد لهم ودال لهم على طريق السعادة.

«مهدي»: بضم الميم في النسخة السهلية وبفتحها في غيرها مع الاتفاق على إثبات الياء في آخره مشددة على الثانية وساكنة على الأولى.

فأما الأول: فهو من أهدى رباعياً، فهو اسم فاعل بمعنى أنه دال على الله تعالى وداع إليه ومبين لطريق السعادة.

وأما الثاني: فهو اسم مفعول كمرمى، والمعنى أنه ﷺ هو المهدي الرشيد بإرشاد الله له وتوفيقه لطرق السعادة وخلق الاهتداء فيه، فهو أجل من هداه الله وأرشده.

«منير»: اسم فاعل من النور وهو الظاهر في نفسه المظهر لغيره فهو ﷺ منير، أي نير في ذاته لما ورد أنه كان لا يظهر له ظل، لأن ذاته نور يغلب شعاعها على الشمس وغيره. وهو

أيضاً منير أي مظهر ومبين وموضح لما خفي من طرق الرشاد ومن أسرار القلوب والعرفان.

«داع»: من الدعاء بمعنى أنه كثير الدعاء والتضرع والابتهال إلى الله تعالى في جميع أموره، أو من الدعوة بمعنى أنه داع للخلق ليقبلوا على الله تعالى وعلى توحيده وعبادته. وقد دعا ﷺ الخليقة في عالم الأرواح والذر فدعت روحه الشريفة جميع الأرواح ودلتها على الله تعالى وعلى توحيده، وعرفتها بربها ودعت ذرته الشريفة جميع الذريات، وأرشدتها وعرفتها بربها.

ودعا الخليقة أيضاً في عالم الأجساد بعد أن ظهر جسداً إنسانياً آدمياً، فدعا الإنس والجن وعرفهم بربهم، فقد أنذر الخليقة جميعاً وآمن الكل به في الأولية والآخرية.

وقد تكلم الشيخ تقي الدين السبكي على هذا المعنى ثم قال وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خافيين عنا.

أحدهما: قوله ﷺ: «بعثت إلى الناس كافة» كنا نظن أنهم من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنهم جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثاني: قوله ﷺ «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد». كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك، وإنه نبي في عالم الأرواح والذر وأرسل إليها بالفعل ودعاها ودلها.

ثم نبئ وأرسل ثانياً في عالم الأجساد بعد بلوغه أربعين سنة من عمره، فامتاز عن الأنبياء والرسل بأنه نبئ مرتين وأرسل مرتين، الأولى: في عالم الأرواح للأرواح، والثانية: في عالم الأجساد للأجساد. فقد دعا ﷺ على الله في كل من الحالتين كما تقدم، والإشارة إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨].

والأنبياء والرسل وجميع أممهم وجميع المتقدمين والمتأخرين داخلون في كافة الناس، وكان هو داعياً بالأصالة وجميع الأنبياء والرسل يدعون الخلق إلى الحق عن تبعيته ﷺ وكانوا خلفاءه ونوابه في الدعوة وفي بردة المديح:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهمِ
فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم

«مدعو»: أي دعاه ربه وطلبه للقرب فقد خاطبه تعالى في القرآن وناداه بيا أيها النبي، ويا أيها الرسول، تكريماً وتشريفاً له حيث لم يخاطبه باسمه كيا محمد كما كان يخاطب الأنبياء بأسمائهم. كيا عيسى، يا إبراهيم.

وقد شرف الله أمته بتشريفه فناداهم بيا أيها الذين آمنوا، ونوديت الأمم في كتبها بيا أيها

المساكين. وشتان ما بين الخطابين. وهو أيضاً مدعو ومطلوب للعروج إلى السماء ومدعو أيضاً لحضرة الخطاب والمكالمة حين زج به في النور زجاً فخرق به سبعون ألف حجاب ليس فيها حجاب يشبه حجاباً وانقطع عنه حس كل ملك وأنسي.

فإذا النداء من العلي الأعلى: «أدن يا خير البرية، أدن يا أحمد، أدن يا حبيب». وهو أيضاً مدعو إلى لقاء ربه عزَّ وجل، ففي الدلائل للبيهقي قول جبريل: «إنَّ الله قد اشتاق إلى لقائك». وذلك عند مجيء ملك الموت إليه ﷺ بالتخيير فقال له ﷺ فامض يا ملك الموت لما أمرت به. انتهى.

قال البيهقي ومعنى أن الله قد اشتاق إلى لقائك قد أراد الله لقاءك بأن يردك من دنياك إلى معادك زيادة في قربك وكرامتك.

«مجيب»: الإجابة مترتبة على الدعاء، فما فسر به مدعو يكون مجيب تابعاً له، فهو مجيب لما دعي إليه ومسارع في الإمتثال، ولم يتوان ولم يتوقف ولم يتأخر عن الإجابة وهو ﷺ أول مجيب لربه تعالى يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢] فهو أول من قال: «بلى»، وأول مجيب لطاعة ربه وعبادته وتوحيده ومعرفته والإيمان به، وقد كان يجيب الوليمة ويجيب دعوة من دعاه من أصحابه، ولو دعاه إلى كراع أو إلى خبز الشعير، وينطلق معهم في حوائجهم حتى يقضيها إليهم. وما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا أجابه لبيك تواضعاً منه وكرم أخلاق وحسن عشرة ﷺ.

«مجاب»: هذا في المعنى مرتب على اسمه داع وتقدم أنه داع لربه وخلقه فقد كان مجاب الدعاء عند ربه تعالى وقد ظهرت إجابة دعائه في أمور لا تحصى ونوازل لا تستقصى وقد كان مجاب الدعوة من الخلق فقد أجاب دعوته الأمة الكثيرة حيث صارت أكثر من جميع من أجاب من الأمم السابقة.

«حفي»: مأخوذ من الحفاوة، وهي الاعتناء بالشيء والاهتمام به والمبالغة في السؤال عنه فهذا الاسم مأخوذ من تحفيه واعتنائه ﷺ بأصحابه وأهل بيته وأولاده والوافدين عليه ومبالغته في إكرامهم وبرهم أو من تحفيه أي اعتنائه بأمته وبذل الوسع في إرشادهم وإنقاذهم من الهلاك وحرصه على هدايتهم فيرجع معنى الحفي إلى المعتني، والمهتم بأمر غيره مروءة وكرم أخلاق ﷺ.

«عفو»: العفو صيغة مبالغة من العفو، أي أنه ﷺ كان شأنه الترك للمؤاخذة بالجنايات والإعراض والتجاوز عن الزلات، أي إن صدرت من أحد في جانبه ﷺ زلة عفا عنه بترك

المؤاخذة وصفح عن زلته لأن من شيمته كف الأذى واحتمال الأذى وما لعن مسلماً قط ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه أو يغضب لنفسه إلا أن ينتهك شيئاً من محارم الله فينتقم لله، ويغضب له حتى لا يقوم لغضبه شيء.

وقد كسر المشركون رباعيته يوم أحد وجرحوا شفته وشجوا جبهته، وجرحوا وجنته وهشموا البيضة على رأسه ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه في بعض الحفر والدم يسيل على وجهه. كل ذلك في ذلك اليوم وهو يدعو ويقول: اللهم اغفر لقومي واهد قومي فإنهم لا يعلمون.

«ولي»: له معنيان: أحدهما بمعنى ناصر للحق وأهله. والثاني: بمعنى القريب من الولي وهو القرب والدنو من حضرة الحق. فمعنى ولي على هذا ولي الله، أي القريب منه، أي الذي قربه الله وتولى أمره فلم يكله إلى نفسه طرفة عين فهو فعيل بمعنى مفعول، وعلى الأول بمعنى فاعل، أي الناصر لدين الله وشرعه.

واعلم أن النبي ﷺ اجتمعت فيه النبوة والرسالة والولاية إلا أنه اختلف في أيها أفضل فيه. فقيل نبوته أفضل من رسالته لأن النبوة توجه إلى الحق والرسالة توجه إلى الخلق.

وقيل: رسالته أفضل من نبوته لأن الرسالة أمر باطني يعطاه النبي زائد على نبوته. وقيل أيضاً: إن نبوته ورسالته أفضل من ولايته لأن الرسالة وساطة بين الحق والخلق في قيام مصالحهم في الدارين مع ما في ذلك من شرف مشاهدة الملك وسماع الخطاب.

وقيل: ولايته أفضل من نبوته ورسالته لما في الولاية من معنى القرب والاختصاص الذي يكون في النبي في غاية الكمال.

وهذا الخلاف مبني على تفسير النبوة والرسالة والولاية. فمن فسر النبوة بمجرد الخبر عن الله تعالى، وفسر الرسالة برفعة النبي ﷺ إلى أقصى درجات المخلوقين وتصييره كاملاً في نفسه مكملاً لغيره متولياً لسياسة الخلق بالتبليغ والإصلاح، وفسر الولاية بحضور الولي إلى بساط المشاهدة في الحضرة المقدسة فضل الرسالة والولاية على النبوة.

ومن فسر الرسالة بمجرد استتباع الخلق، أي طلب أن يتبعوه وفسر النبوة بتوجه النبي إلى الحق وكذلك الولاية فضل النبوة والولاية على الرسالة.

ومن رأى أن النبوة والرسالة فيهما ما في الولاية من القرب والاختصاص مع زيادتهما عليها بإصلاح الخلق وسياستهم وإرشادهم فضلهما على الولاية.

وهذا الخلاف إنما هو في نبوة النبي وولايته لا في مطلق الولاية، فلا يطلق ذلك لما فيه من الإيهام، بل لا بد من التقييد، فالنبوة والرسالة من حيث هما أفضل من الولاية من حيث هي، أي بقطع النظر عن كونها في شخص مخصوص باتفاق.

«حق»: معناه هنا ضد الباطل من حق الشيء ثبت أي هو الثابت المتقرر حاله وصدقه ونبوته ورسالته، بحيث لا يتبدل ولا يتغير ولا يعلو عليه الباطل، وهذا بخلاف الحق في أسمائه تعالى فهو بمعنى الثابت المتقرر وجوده أزلاً وأبداً جل جلاله.

«قوي»: أي في حاله وذاته، قادر على متابعة أوامر الله واجتناب نواهيه وتنفيذ أحكامه، وعلى الجمع بين الشريعة والحقيقة والمحو والإثبات.

«أمين»: في ما جاء به ربه من أمره ونهيه ووعده ووعيده وهو أمين أيضاً على الأسرار التي أودعها الله فيه

قد كان ﷺ معروفاً ومشهوراً بهذا الاسم قبل النبوة وبعدها. فكان يسمى في الجاهلية الأمين لثقته وأمانته ونزاهته عن الخيانة.

وحفظ بعد النبوة ما أوحي إليه وما كان علمه وتبلغه. وهو أمين أيضاً في نفسه، أي آمن من عقاب ربه كما بشره ربه بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

«مأمون»: المأمون هو الذي لا يخاف من جهته شر ولا غدر ولا إخلاف أو هو بمعنى المؤتمن فيرجع لبعض معنى الأمين.

«كريم»: الكريم هو الجامع لأنواع الشرف وأوصاف الكمال اللائقة به. والكرم على وجهين:

الأول: كرم الذات والصفات وهو جلالتها ورفعتها، وكرم الذات هنا هو كرم الأصل.

والثاني: كرم الأفعال. وفسر الكريم على هذا بالكثير الخير وبالمتفضل المعطي بغير وسيلة ولا سؤال وبالعفو الصفوح وكلها صحيحة في حقه ﷺ، فهو المخصوص بالشرف وهو أكرم بني آدم على الإطلاق من الأنبياء وغيرهم بسائر الوجوه والاعتبارات، فهو أكرم بني آدم أصلاً ووصفاً وخلقاً وخُلُقاً وقدراً وفعلاً ﷺ.

«مكرم»: بتشديد الراء المفتوحة، وهو بمعنى الكريم إلا أنه منظور فيه إلى الذي كرمه وصيره كريماً وهو الله عزّ وجل، فكأنه قال هو الذي كرمه ربه أي جعله كريماً.

«مكين»: المكانة المنزلة الخاصة والقرب وعظمة الجاه، وهو ﷺ المكين بعلو مكانته

عند ربه تعالى، ومن ذلك أن قرن سبحانه ذكره بذكره فأعلن فيه في السابقة على ساق العرش وأذن به في اللاحقة على منار الإيمان.

«متين»: هو من متن الشيء بالضم، متانة صلب واشتد فهو بمعنى اسمه قوي المتقدم فكان ﷺ قوياً شديداً في دين الله أخذ فيه بالجد والصدق مؤيداً منصوراً على أعدائه من الكافرين.

«مبين»: معناه البين أمره ورسالته لعظيم آياته الظاهرة ومعجزاته الباهرة، فهو من أبان اللازم أو المبين عن الله تعالى ما بعثه به كما قال تعالى: ﴿لتبين للنّاس ما نزل إليهم﴾ [:] فهو من أبان المتعدي، فإن أبان الرباعي يستعمل لازماً ومتعدياً كما في المصباح، أو بمعنى أنه عربي اللسان وهو أفصح العرب ﷺ.

«مؤمل»: بكسر الميم المشددة فهو من أمل الشيء بالتشديد، بمعنى ترجاه، وهو المؤمل لمولاه الراغب في ما عنده الراجي لفضله وإحسانه وضبط أيضاً بفتح الميم المشددة، فهو المؤمل لأصحابه وأمته، أي يؤملونه ويعولون ويعتمدون عليه في إصلاح حالهم وإرشادهم وشفاعته فيهم دنيا وأخرى وكل خير وبركة، إنما يؤملون من قبله بواسطته واتساع جاهه ﷺ.

«وصول»: بفتح الواو فعول بمعنى فاعل صيغة مبالغة من الصلة، أي أنه كان كثير الصلة للرحم رحم القرابة ورحم الإيمان وكان يتعهد أصدقاء خديجة بعد موتها ويهدي إليهم وينبسط معهم ويكثر السؤال عنهم.

«ذو قوة»: أي صاحب قوة عظيمة، فهو بمعنى اسمه القوي وقد تقدم والتنكير فيه وفي الأسماء بعده للتعظيم.

«ذو حرمة»: أي صاحب حرمة بضم فسكون وبضمتين وبضم وفتح ومعناها الاحترام والمهابة، وذلك لعظم شأنه وجلالة قدره ﷺ.

«ذو مكانة»: أي صاحب مكانة، أي تمكن وقوة وبأس فهو بمعنى اسمه المكين وقد تقدم.

«ذو عز»: أي صاحب عز فهو بمعنى العزيز وسيأتي. ومعناه الجليل القدر، أو الذي لا نظير له، أو المعز لغيره قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وإنما كانت العزة للمؤمنين بالتبع له، فهو العزيز بالأصالة والأولية، وهم بالفرع والتبعية وعزتهم من عزته فاتجه اختصاصه بالعزة. والله أعلم.

«ذو فضل»: أي صاحب فضل، والفضل في الأصل نوع كمال يزيد به المتصف به على غيره، وهو ﷺ له الزيادة التامة على جميع العالمين في سائر أنواع الكمالات.

«مطاع»: قد كان ﷺ مطاعاً لأصحابه وأمته لقوة محبتهم وتعظيمهم له، فكانوا لا يخرجون عن مراده ولا يخالفون أمره ولا نهيه فيرجع في المعنى لاسمه مجاب وقد تقدم.

«مطيع»: قد كان ﷺ مطيعاً لله تعالى، منقاداً لحكمه، ممتثلاً لأمره على الدوام، وفي ما بينه وبين خلقه. وفي تبليغ شريعته وإنذار خليقته لا يغفل عن ذلك طرفة عين لعصمته، وكمال محبته وعبوديته، فيرجع في المعنى لاسمه مجيب وقد تقدم.

«قدم صدق»: أي هو إمام الصادقين والصديقين، الشفيع المقبول الشفاعة، والقدم واحدة الإقدام ويطلق على التقدم، لأنه يكون بها. يقال لفلان قدم أي تقدم، وهو المراد هنا لكن على حذف المضاف أي ذو قدم، أي صاحب قدم، أي تقدم وهو ﷺ يتقدم على أمته فيشفع لهم لأن من عادة الشافع تقدمه على من يشفع له والمعنى هو ﷺ المتقدم على أمته للشفاعة لهم وتقدمه صدقه أي لا يرد في شفاعته بل يكون مقبولها.

«رحمة»: أي مولده ونفسه رحمة وأمان وكذا شاعت وظهرت في الوجوه وتظهر في أول الإيجاد إلى آخره إنما ذلك بسببه ﷺ فجعل عين الرحمة مبالغة وإلا فهو سبب فيها لا عينها. إذ الرحمة إحسان الله ونعمه المتوالية على خلقه وليس هو ﷺ عينها بل هو سببها. وكذا يقال في الآية الشريفة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

«بشرى»: أي بشر به جميع الأنبياء أممهم فهو مبشر به، لا نفس البشرى، إذ هي الإخبار السار، ففي الكلام مبالغة، وتجوز. وهو أيضاً مبشر للمؤمنين بالرحمة والرضوان والنجاة من النيران والفوز بالجنان. فتلخص أن بشرى بمعنى اسم المفعول وبمعنى اسم الفاعل، أي أنه مبشر به الأنبياء أممهم، وبشر هو أيضاً أمته بكل خير.

«غوث»: أي مغاث به فهو بمعنى اسم المفعول، أي أغاث الله به الخلق بعد أن كانوا غرقى في بحار الضلالات والجهالات فاستخلصهم تعالى به وأنقذهم وأنجاهم وأعاذهم.

«غيث»: الغيث في الأصل هو المطر الذي هو رحمة وحياة للبلاد والعباد وزينة وإصلاح لهم بما ينشأ عنه من النبات والأشجار والثمار والأزهار وجري العيون والأنهار فسمي ﷺ غيثاً على سبيل التشبيه، فشبه ﷺ من حيث ما جاء به من الهدى والنور والرحمة، وإنقاذ الخلق من الهلكة وهدايتهم من الضلالة وحياة قلوبهم وتزيينها بالإيمان بعد موتها وخرابها بقحط الكفر وجدبه وقسوته بالغيث، بجامع مطلق الأحياء والإصلاح والإنقاذ من الهلكة، فكان ﷺ غيثاً

بهذا الاعتبار، بل هو أنفع من الغيث، إذ نفعه يعود لعمارة القلوب والأرواح ونفع الغيث، أي المطر يعود لإصلاح الأجساد والبلاد وشتان ما بينهما.

«غياث»: بكسر الغين اسم مصدر من الإغاثة، والنبي ﷺ قد أغاث الله به الخلق وقد كانوا غرقى في الضلالة تتلاعب بهم أمواج الجهالة. فالأسماء الثلاثة متقاربة المعنى فهو ﷺ غوث وغياث للوجود وغيث مغاث به المحتاجون.

«نعمة الله»: أي على عباده، فإن النعمة ما ينتفع بها العبد في دنياه وآخرته ونفعنا بسيدنا محمد في الدارين لا تحصى ولا تعد جهاته فهو أكبر نعم الله علينا ﷺ.

«هدية الله»: بفتح الهاء وكسر الدال وتشديد الياء الهدية ما يعطى على سبيل الإكرام والمحبة فأكرمنا الله تعالى بهذا الرسول العظيم فضلاً منه ونعمة، لا في مقابلة عمل منا ولا سعي ولا جد ولا تشمير.

قال أبو العباس المرسي رضي الله عنه: «الأنبياء إلى أممهم عطية، ونبينا ﷺ لنا هدية». وفرق بين العطية والهدية، لأن العطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين. قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمةٌ مهداة»[1].

«عروة وثقى»: بتنكير الكلمتين كما هو في النسخ المعتمدة، وفي بعضها بتعريفهما. وعلى هاتين النسختين فالوثقى صفة للعروة، وفي بعضها بتعريف الوثقى بأل وإضافة العروة إليها إضافة الموصوف إلى صفته، والعروة في الأصل موضع الإمساك وشد اليد من الشيء، ومنه عروة الغرارة وعروة الكوز وغير ذلك للموضع المتميز منه المعد للإمساك والأخذ به.

ويقال: له المقبض فاستعير لفظ العروة واستعمل في سيدنا محمد ﷺ، فسمي عروة لأنه العقد الوثيق المحكم في الدين والسبب الموصل لرب العالمين، لأن من اتبعه لا يقع في مهاوي الضلال كما أن من تمسك بحبل متين صعد به وارتفع من حضيض المهالك، والوثقى فعل من وثق الشيء بالضم قوي وصلب.

والمعنى: أنه ﷺ الواسطة القوية التي لا يعتريها ضعف ولا انقطاع، والمتمسك به يصل لمطلوبه ولا يعتريه سقوط ولا ضياع.

«صراط الله»: أي طريق الله الموصل إليه وسبيل الهداية، الذي من ضل أو حاد عنه تاه

(١) رواه ابن كثير في التفسير (٥: ٣٨١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢١٣). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢٨٠٠).

في أودية الغي والخسران واستحوذ عليه الشيطان. عصمنا الله من طريقه وأماتنا متمسكين بالنبي وفريقه بمنه وفضله. والصراط بالصاد والسين، الطريق المستوي أو الواضح أو المستقيم الذي لا اعوجاج فيه. فاستعير له ﷺ لأن التابع له واصل لسعادة الدارين وناج والمنحرف عنه ضال غير مهتد.

«صراط مستقيم»: هو بمعنى ما قبله وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] هو محمد ﷺ.

«ذِكْرُ الله»: في الكلام مبالغة وتجوز إذ ليس هو نفس الذكر وإنما المراد أنه مذكر لله لأن من رآه ﷺ أو سمع باسمه أو أحواله أو أخلاقه الحميدة ذكر الله وحمده وأثنى عليه بما هو أهله فكان وجوده سبباً في ذكر الله لأن ذاته توجب ذكر الله، وصفاته توجب توحيد الله، وأفعاله تدل على الله وأقواله تأمر بذكر الله، فكان ﷺ ذكر الله في كل أفعاله وأحواله وصفاته ونومه ويقظته.

أو المراد: أنه كثير الذكر لله فذكر بمعنى ذاكر. أو المراد مذكر لله فالمصدر بمعنى اسم المفعول لذكر الله سبحانه وتعالى له قبل الخلق، فإنه أول ما جرى في الذكر ذكره، وأول مذكور في اللوح، ولأنه مكتوب على العرش وعلى السموات وجميع مواضعها والجنان وجميع ما فيها. وقرن تعالى اسمه مع اسمه، واشتق اسمه من اسمه فكان ﷺ ذكر الله بكل حال.

«سيف الله»: هو كناية عن جده ﷺ في تبليغه دين الله وقتاله عليه وجهاده لأعداء الله ونصرته عليهم ورعبهم منه.

«حزب الله»: في الكلام مبالغة، فإن حزب الله جنده وأنصاره وأتباعه وأهله الذين يأوون ويتبعون أمره ويجتنبون نهيه.

وتسميته ﷺ بذلك متجهة ظاهرة، فإنه فعل ما يفعله الجند من قهر العدو ورده عن الكفر جبراً، وإنما بعثه الله وحده ولم يكن بالأرض من هو على الدين القيم والحنفية السمحة غيره، ثم إنه لم يزل يدعو الناس طوعاً وكرهاً، وكان له الظفر والنصر لأنه جند الله وحزبه وحزب الله هم الغالبون.

«النجم الثاقب»: الثاقب المضيء الوهاج، كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه. والكلام على سبيل التشبيه والاستعارة، أي أنه ﷺ يهتدي به كما يهتدي بالنجم الشديد الإشراق، بل الاهتداء به ﷺ أتم وأنفع من الاهتداء بالنجوم والكواكب.

«مصطفى»: هذا الاسم في النسخ المعتمدة بالتنوين منكراً بفتحتين على الفاء من غير

ألف في الفظ، وإن كانت ثابته في الخط مرسومة ياء ومثله الاسمان بعده وإعراب الثلاثة بضمة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين على النسخة الأولى أو على الألف الثابتة على النسخة الثانية.

والمصطفى المختار المستخلص يقال: صفا الشيء صفاء خلص وهو ﷺ مصطفى الله تعالى ومختاره ومستخلصه من خلقه وهو صفة الخلق وخيرتهم عنده. وقيل: معنى المصطفى المصفى من جميع أدران أوصاف البشرية، فسمي بما ناسب وصفه ﷺ. وقيل: معناه المختار لغاية القرب فسمي بما ناسب منزلته عند ربه لأن الاصطفائية عبارة عن غاية القرب.

«مجتبى»: أي مختار فهو بمعنى مصطفى.

«منتقى»: أي منتقى مهذباً مصفى فهو بمعنى مصطفى أيضاً.

«أمي»: الأمي هو الذي لا يقرأ الكتاب ولا يكتبه، وهو منسوب إلى الأم إذ الغالب من أحوال الأمهات أنهنَّ لا يكتبن ولا يقرأن مكتوباً، فلما كان الابن بصفتها نسب إليها، كأنه مثلها أو لأنه باق على أصل ولادتها لم يقرأ ولم يكتب، والأمية وصف ذم ونقص في حق غيره ﷺ، أما في حقه ﷺ فهو وصف مدح وكمال، بل هي معجزة له دالة على صدق نبوته قال البوصيري رحمه الله:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة ... في الجاهلية والتأديب في اليتم

لأنه مع كونه لا يقرأ ولا يكتب ولم يدارس ولم يتلق ممن قرأ وكتب ظهر منه من العلوم والمعارف اللدنية ومعرفته بأخبار الأمم السالفة وشرائعهم وإطلاعه على علوم الأولين والآخرين، بل وأحكامه لسياسة الخلق على تنوعهم، وإحاطته بجميع مصالح الدين والدنيا وتخلقه بكل خلق حسن واتصافه بكل كمال للخلق على الإطلاق ما أعجز به جميع الخلق وظهر اختصاصه به لكافتهم فكان ذلك آية ظاهرة وحجة باهرة ودليلاً واضحاً من دلائل نبوته ﷺ.

وكانت أميته كمالاً بيناً لا خفاء به، والمقصود من القراءة والكتابة هو ما ينشأ عنهما من العلم، لأنهما آلة وواسطة له غير مقصودة في نفسها. فإذا حصلت الثمرة المقصودة منهما استغني عنهما.

ولو كان يحسن القراءة والكتابة لوقعت الريبة. وقالوا إنما عرف هذه العلوم من قراءته للكتب السالفة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

«مختار»: هو اسمه في التوراة وهو بمعنى مصطفى وقد تقدم.

«أجير»: بالجيم على وزن أمير فعيل بمعنى فعيل، أي بمعنى مجير، أي أنه يجير أمته ويحميها ويحفظها من النار وهذا اسمه في بعض الصحف المنزلة.

«جبار»: هذا اسمه في زبور داود وهو بالجيم أيضاً. وكتب المصنف رضي الله عنه في طرة هذين الاسمين من النسخة السهلية، أي في هامشها ما نصه وفي أخرى خير خيار. انتهى يعني بالخاء المعجمة فيهما وبالمثناة التحتية المخففة في الثاني.

والجبار في حقه ﷺ معناه المصلح لإصلاحه لأمته بالهداية والتعليم، مأخوذ من جبر الطبيب العظم المنكسر إذا أصلحه وسوّاه.

ومعناه أيضاً القاهر من الجبر بمعنى القهر لقهره أعداءه وجبرهم بالسيف على الحق والمنفي عنه في القرآن بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۚ﴾ [ق:٤٥] إنما هو جبرية التكبر التي لا يليق به: أبو القاسم أبو الطاهر أبو الطيب أبو إبراهيم من المعلوم أن الكنية من جملة الأسماء وكني ﷺ بهذه الكنى الأربع بأولاده الثلاثة أو الأربعة على الخلاف في الطاهر والطيب، هل هما لقبان لواحد يسمى بعبد الله ويلقب بالطيب والطاهر لولادته في الإسلام؟ وهو الصحيح أو هما اسمان لولدين غير عبد الله أحدهما اسمه الطاهر والآخر الطيب؟ وهو قول ابن إسحاق.

«مشفع»: بفتح الفاء المشددة اسم مفعول ومعناه المقبول الشفاعة فإنه يرغب ويتوجه إلى الله تعالى في أمر الخلق وإراحتهم من طول الموقف وتعجيل الحساب فيقبل ذلك منه ويكرم بذلك غاية الكرامة بأن يقال له: قل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، وهو المقام المحمود أعني الشفاعة العظمى التي خص بها ﷺ في ذلك اليوم.

«شفيع»: أي شفيع في الخلق وهو صيغة مبالغة بمعنى كثير الشفاعة وهو التوسط في القضاء.

«صالح»: من الصلاحية فالمراد به المتأهل لحضرة الله بتحرره من رق الأشياء ولهذا التحرر مراتب فبقدر ما يكون فيه من التحرر يكون فيه من الصلاح وحريته ﷺ لا منتهى لعظمها، فصلاحه لا يحوم أحد حوله ولا يتصور فهمه.

«مصلح»: أي للخلق بإرشادهم وهدايتهم إلى ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم وتحسين ظواهرهم وبواطنهم وتطهير سرائرهم والمصلح ذات بينهم.

ووجد على بعض الحجارة القديمة محمد تقي مصلح وسيد أمين قيل لأنه ألف بين قلوب الناس وأزال ما بينهم من الضغائن كما كان بين العرب والعجم وبين قبائل العرب كما

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

«مهيمن»: بضم ميمه الأولى وكسر الثانية وروى فتحها ومعناه في حقه ﷺ الشاهد أو القائم على الخلق أو الأمين قاله ابن قتيبة.

«صادق»: أي في جميع أقواله وأفعاله بمعنى أن كلا منهما موافق لنفس الأمر ولما يرضاه الله تعالى وصدقه ﷺ واجب لوجوب عصمته واستحالة الكذب عليه كبقية الأنبياء.

«مصدق»: هو في النسخ المعتبرة بفتح الدال المشددة اسم مفعول سمي به لكثرة تصديق الله تعالى له بالقول والفعل أو لكثرة تصديق الخلق إياه وقد صدقه الوجود أجمع وصدقت بنبوته الأرواح كلها قبل ظهور الأجساد وفي بعض النسخ بكسر الدال المشددة اسم فاعل سمي به لأنه صدق ربه بقوله وفعله وصدق الأنبياء والكتب التي قبله.

«صدق»: الصدق مصدر وهو مطابقة الخبر للواقع ونفس الأمر سمي به ﷺ مبالغة في صدقه والمراد من هذا المصدر اسم الفاعل أو المفعول فيرجع في المعنى إلى الاسم قبله باعتبار النسختين المذكورتين فيه.

«سيد المرسلين»: أي رئيسهم وزعيمهم والمتقدم عليهم وعظيمهم وشريفهم وكريمهم ﷺ.

«إمام المتقين»: أي المتقدم عليهم وقدوتهم وقائدهم إلى الصراط المستقيم. وأصل الإمام المتبع والهادي لمن تبعه والمتقدم بين أيدي القوم والشفيع لمن خلفه والتقوى جعل النفس في وقاية الشرع وما يحفظها من الأسواء في الدارين والتقي كذلك والمتقي هو المتمثل لأوامر الله المجتنب لنواهيه ثم يتقي الشبهات ثم الشهوات وكل ما يوجب النقص أو البعد عن الله ثم يتقي غير الله أن يساكنه باعتماد أو ميل أو استناد وهو ﷺ أتقى الخلق لله وأعرفهم به وأشدهم له خشية وأكثرهم له طاعة وأجهدهم في عبادته وتقواه ﷺ لا تدرك ولا يبلغها التعبير.

«قائد الغر المحجلين»: قائد اسم فاعل من القوة والقيادة، وهو تقدمه على من يتبعه باختياره وهو يقودهم إلى الجنة برضاهم وفي المصباح، فإذا الرجل الفرس قوداً من باب قال وقياداً بالكسر، وقيادة قال الخليل: القود أن يكون الرجل أمام الدابة آخذاً بقيادها وهو مقودها بالكسر أي زمامها والسوق أن يكون خلفها انتهى.

والغر جمع مأخوذ من الغرة وهي في الأصل بياض الوجه. والمحجلون جمع محجل اسم مفعول من التحجيل، وهو في الأصل بياض في قوائم الفرس. والمراد بها هنا مطلق بياض الأعضاء.

وفي الصحيح أن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء وفيه تشريف لهم. وذلك إكراماً لنبيهم الذي هم له متبعون وإليه ينتسبون.

«خليل الرحمٰن»: الخليل من صحت صحبته لمحبوبه، مأخوذ من التخلل وهو اشتباك البعض بالبعض. وفي القاموس الخليل الصديق أو من أصفى المودة وأصحها.

والخلة الصداقة المحضة لا خلل فيها. وهذا ضابط الخلة الحقيقية الكاملة وقد تطلق على مطلق الصحبة كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقد اختلفوا في الخلة والمحبة هل هما شيء واحد؟ أو شيئان؟ وعلى الثاني أيهما أبلغ؟ وبماذا تمتاز إحداهما عن الأخرى ومحل ذلك المطولات وقد استوفينا الكلام على ذلك في ختم البخاري.

«بر»: بفتح الموحدة معناه المتصف بالبر بكسر الموحدة، وهو اسم جامع لأنواع الخير من سائر الطاعات وحسن الخلق ولين الجانب ومواساة الناس وغير ذلك.

«مبر»: بفتح الميم الموحدة مأخوذ من البر بكسر الباء وتقدم معناه ومبر بهذا الضبط اسم مصدر سمي به مبالغة أو اسم مكان أي هو محل البر، ووقع في بعض النسخ بضم فكسر، اسم فاعل من أبر الرجل إذاً صار ذابر وأبر في يمينه إذا صدق فيها.

ووقع في بعضها بضم ففتح اسم مفعول من أبره إذا لم يحنثه في يمينه أو جعله براً بفتح الباء أي صاحب بر بكسرها ومعنى الكل أنه ﷺ متصف بأنواع البر فهذا الاسم يرجع للذي قبله.

«وجيه»: أي صاحب وجاهة والوجاهة والجاه الشرف والرفعة والمنزلة في الدنيا والآخرة وفي المصباح وجه بالضم وجاهة إذا كان له حظ ورتبة.

«نصيح»: صيغة مبالغة من النصح والنصح والنصيحة استفراغ الوسع والطاقة في تصحيح النيات والأقوال والأعمال، وهي أيضاً فعل الشيء الذي به الصلاح فمعناه يرجع إلى الخلوص وضدها الغش والتدليس وكتمان الحق ونصيحته ﷺ لله سبحانه وتعالى ولكتابه ولعباده قد بلغت ووصلت إلى الغاية القصوى.

«ناصح»: أي مخلص في معاملة الخلق والخالق وهذا الاسم يرجع إلى الذي قبله.

«وكيل»: فعيل بمعنى اسم الفاعل، أي حافظ لما استأمنه الله عليه وحافظ للشريعة

ولأمته مما يضرهم ومن هذا المعنى الوكيل في حقه تعالى فهو بمعنى الحافظ للأشياء والمراقب لها، ويحتمل أنه بمعنى اسم المفعول، بمعنى أنه الموكول والمفوض إليه جميع الأمور والقائم بها، ويكون على هذا فيه إشارة إلى تولية الله تعالى له التصرف في الكون على سبيل الخلافة والنيابة وذلك أمر ثابت قطعاً لا شك في ثبوته وحصوله للنبي ﷺ على وجه أخص مما ثبت منه لغيره، وإنما ثبت ما ثبت منه لغيره كسيدي أحمد البدوي بتوليته ﷺ والتبعية له كيف وهو ﷺ الخليفة الأكبر والواسطة في الدارين والرابطة للمخلوقين.

«متوكل»: المتوكل هو الذي يكل أمره إلى الله تعالى ويعتصم به ويتعلق به على كل حال، وقيل التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع عن الحول والقوة وهو فرع التوحيد والمعرفة، وهو ﷺ سيد العارفين بالله على الإطلاق ورئيس الموحدين على الشمول والاستغراق.

«كفيل»: أي متكفل وضامن لأمته الشفاعة يوم الحسرة والندامة.

«شفيق»: معناه الخائف على أمته شفقة عليهم مما يسوؤهم في الدارين، ويشق عليهم. ومن ذلك شفقته على أهل الكبائر من أمته وأمره إياهم بالستر، وأمر أمته أن يستغفروا للمحدود ويترحموا عليه، ومن ذلك ما في حديث الشفاعة من اهتمامه بأمته: «كل الناس يقول يا رب نفسي نفسي وهو يقول يا رب أمتي أمتي».

وفي «المصباح» وأشفقت من الشيء حذرته وخفت منه وشفقت على الصغير حنوت عليه ورقيت له والاسم الشفقة.

«مقيم السنة»: المراد بالسنة الطريقة، أي طريقة من قبله من الأنبياء عليهم السلام والمراد بإقامتها تقويمها وتعديلها وتسويتها حتى تعود إلى ما كانت عليه، يعني بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الشرائع وهو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحمل على مكارم الأخلاق، كصلة الرحم ومواساة الفقراء وغير ذلك. والمراد بالسنة سنته هو أيضاً، أي شريعته التي جاء بها عن الله أصلية وفرعية والمراد بإقامتها حمل الناس على العمل بها وملازمتها والتمسك بها وظهورها واستقامتها وخفض الباطل وأهله.

«مقدس»: بفتح الدال المشددة اسم مفعول أي مطهر من الذنوب لعصمة الله تعالى له ﷺ من التدنس بها ومطهر أيضاً من الأخلاق الذميمة والأوصاف الدنية التي لا تليق بجنابه ﷺ.

«روح القدس»: أي الروح المقدسة من النقائص فهو من إضافة الموصوف إلى صفته والقدس بضمتين وقد يسكن ثانيه تخفيفاً الطهارة.

«روح الحق»: يحتمل أن يكون المراد بالحق الدين والإيمان فهو ﷺ روح الإيمان الذي قام به وجوده فلولا هو لم يكن له وجود ولا ظهور في الخلق وهو أصله وعنصره ومنه يتفرع ويصل إلى غيره من الخلق ويحتمل أن يكون المراد بالحق الله تعالى لأنه من أسمائه وإضافته إليه إضافة تشريف، أي الروح المخلوقة لله والمملوكة له على وجه أتم وأكمل من غيرها من حيث أنه ﷺ أصل الكائنات وأرفعها رتبة عند الله تعالى.

«روح القسط»: القسط العدل وهو ﷺ روحه الذي به قوامه، ولولا هو لم يكن له قيام ولا وجود.

«كافٍ» هذا الاسم في النسخة السهلية وغيرها من النسخ الصحيحة بدون ياء آخره. وفي بعضها بالياء، وكذلك مكتفٍ بعده وشافٍ في الإثبات والحذف أي كافٍ من اتبعه عن الكتب السالفة والأنبياء المتقدمة فهو كاف لكتابه وشريعته وشفاعته والتوسل به والتعلق بأذياله والتخلق بأخلاقه واتباع سنته ﷺ.

«مكتفٍ»: أي بالله مستغن به عما سواه بتوجهه إليه وانقطاعه عن غيره فلا يشهد إلا إياه وهو أصل هذا الخلق الشريف ومعدنه، ومنه اقتبس كل أحد بين العالمين ما قدر له منه وقد كان ﷺ مكتفياً من الدنيا بالدون في عيشه ولباسه ومسكنه وأموره كلها ﷺ.

«بالغ»: أي إلى الله تعالى وواصل إليه بالعلم والقرب فهو أعلم الناس بربه وأقربهم منه منزلة ومكانة إذ لا حجاب يحجبه عن الله تعالى في سائر أحواله ﷺ بل هو دائماً في مقام الشهود والمراقبة كما قال العارف، اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك.

«مبلغ»: أي عن الله ما أمره بتبليغه ومبلغ من شاء الله هدايته من الخلق إلى الله تعالى وإلى مراتب السعادة.

«شافٍ»: أي من الضلالة والكفر والجهالة والأمراض والإسقام ببركته ودعائه ولمسه ﷺ. وهو الشافي أيضاً في العلوم والحكم والأخبار والشافي برأيه ومواعظه ﷺ.

«واصل»: أي إلى الله تعالى، فهو بمعنى بالغ وقد تقدم، أو معناه أنه يصل رحمه وقد تقدم هذا في وصول.

«موصول»: اسم مفعول من الوصل الذي هو الجمع وعدم القطع والهجر يعني أنه موصول بمولاه وصلاً خاصاً به لائقاً بعلي مقامه لا يزاحمه غيره، وهذا الاسم هو هكذا في النسخ الكثيرة الصحيحة بواو ساكنة بعد الصاد.

ووقع في بعضها بدله موصل بوزن مكرم بفتح الراء وهو على هذا اسم مفعول أيضاً ووجدته في بعض النسخ مضبوطاً بكسر الصاد بوزن مكرم بسكر الراء فهو اسم فاعل ومعناه أنه يوصل إلى أمته ما أمر بتبليغه إليهم أو يوصل من اتبعه إلى الله وإلى الجنة فيكون بمعنى مبلغ وقد تقدم.

«سابق»: أي في الخلق وإلى الله تعالى وإلى كل خير من الفضل والعز والسعادة والسيادة والنبوة والرسالة وهو السابق في الخطاب والسابق بالجواب يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والسابق بالشفاعة ودخول الجنة وسائر الخصال الحميدة التي اختص بها ولم يشاركه غيره فيها وذلك عناية من الله تعالى ﷺ.

«سائق»: أي سائق للناس ومرشد لهم إلى كل خير فيسوق الأبرار إلى دار القرار ويسوق الأشرار طاعة الله بإنذاره لهم ودعوته.

«هادٍ»: أي مرشد لعباد الله بدعائهم إلى الله وتعريفهم طريق نجاتهم. والهداية على أنواع: منها خلق الاهتداء في العبد يوصف بها الله سبحانه وتعالى خاصة لأنه الخالق لكل شيء. ومنها البيان والدلالة بلطف وهو أصل معنى الهداية وهذه يوصف بها الله تعالى والنبي أيضاً. ولا تستعمل الهداية إلا في الخير.

وأما قوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] فوارد على طريق التهكم والسخرية بهم وهدايته ﷺ لما فيه صلاح المعاش وصلاح المعاد ظاهرة لا تخفى.

«مهدٍ»: بضم الميم وكسر الدال وحذف الياء باتفاق النسخ فهو اسم فاعل أي مهد للخلق ودالهم على الله تعالى، فهو بمعنى هاد فظهرت المغايرة بين هذا الاسم والاسم المتقدم بعد قوله هدي إذ ذاك بإثبات الياء باتفاق النسخ كما تقدم. وهذا بحذفها كما علمت.

«مقدم»: بفتح الدال المشددة، أي في كل خير وجميع مراتب الكمال فهو بمعنى اسمه سابق بالباء الموحدة، وقد تقدم.

لكن هذا منظور وملاحظ فيه من قدمه وهو الله تعالى، أي مقدم بتقديم الله، وأما سابق فالملحوظ فيه اتصافه بالسبق من غير ملاحظة فاعل يصيره سابقاً. كما تقدم نظير هذا.

«عزيز»: أي غالب على أعدائه، أو لا نظير له من الخلق فهو بمعنى اسمه ذو عز وقد تقدم.

«فاضل»: من الفضل وهو الزيادة، أي زائد على سائر خلق الله في جميع وجوه الشرف والكمال، فهو بمعنى اسمه وفضل وقد تقدم.

«مفضل»: بفتح الضاد اسم مفعول أي بتفضيل الله تعالى له على سائر الخلق، فخصه تعالى بالفضل وكرمه وشرفه واختاره على العالمين خصوصاً الأنبياء والرسل والملائكة عليهم السلام.

ولا خلاف في ذلك فأفضليته ﷺ على جميع الخلق لا خلاف فيها بين الأمة، وإنما تكلموا بعد اتفاقهم على أفضليته على الكل جملة وتفصيلاً في أنه هل يسوغ تعيين المفضول في الذكر والإطلاق اللساني عملاً بما هو المعتقد، كان يقال: هو أفضل من عيسى، أو لا يسوغ ذلك تأدباً فلا يقال: هو أفضل من عيسى مثلاً وإن كان هو المعتقد، بل يقال: هو أفضل الخلق أو الأنبياء ولا يذكر واحد منهم بخصوصه ويدل على هذا قوله ﷺ: «لا تفضلوني على موسى ولا يقل أحد أنا خير من يونس بن متى». القول الثاني المختار عند الجمهور إعمالاً للدليلين (كذا قال).

«فاتح»: أي لكل خير فقد فتح الله به باب الهدى بعد أن كان مغلقاً، وفتح الله به أيضاً أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، وهو ﷺ فاتح أيضاً لأبواب الرحمة على أمته ولبصائرهم لمعرفة الحق والإيمان بالله، وفاتح أيضاً باب الشفاعة لسائر الشفعاء، وباب الجنة لداخليها وفاتح أيضاً طرق العلم النافع الصالح وفتح الله به أيضاً الأمصار والدنيا والآخرة ﷺ.

«مفتاح»: هو بمعنى فاتح مع ما فيه من الدلالة على كثرة الفتح به لأنه صيغة مبالغة والمفتاح في الأصل اسم آلة الفتح، وهو المفتاح ذو الأسنان، والمراد أنه ﷺ مفتاح مغاليق الأمور.

«مفتاح الرحمة»: أي الذي ما رحم أحد في الدنيا ديناً أو دنيا ظاهراً أو باطناً ولا يرحم في الآخرة إلا على يديه وبما خرج من عنده وبمتابعته ﷺ.

«مفتاح الجنة»: أي كالمفتاح الحقيقي الذي هو آلة الفتح من حيث أنه ﷺ أول من يدخلها ولا تفتح لأحد قبله، أو المراد أنه لا يدخل الجنة إلا من آمن به فكان مفتاحاً من حيث توقف دخولها على متابعته ﷺ.

«علم الإيمان»: المراد أنه العلم، أي العلامة على الإيمان وعلى معرفة الله. فهو الدليل إلى الله والدال عليه لا دليل ولا دال عليه سواه.

وهو باب الله الأعظم، وصراطه الأقوام، بعثه الله دليلاً يدل عليه، ويعرف الطريق إليه،

فكانت دعوته عامة، ورسالته تامة، فدل على الله بأقواله وأفعاله، وأيقظ الأرواح إلى ملاحظة جلاله وجماله، فكل داع إلى الله تعالى فإنما يدعو بدعوته، وكل دليل فإنما يدل بدلالته.

وأيضاً هو ﷺ علم الإيمان بمعنى أن محبته علامة الإيمان فمن وجدت فيه فهو مؤمن وإلا فلا.

«علم اليقين»: يرجع معناه إلى الاسم قبله من أنه بمعنى العلامة والدليل عليه واليقين أعلى الإيمان ووصف خاص فيه، وهو بمعنى العلم الحقيقي والتحقيق وضده الشك ثم قد يكون علماً مجرداً وقد يكون مع كشف وشهود وتجل واتضاح ثم ذلك يختلف بالقوة والضعف، فانقسم بحسب ذلك إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

«دليل الخيرات»: أي الدال عليها والموصل اليها وبه يهتدي اليها وبنوره يستضاء في السعي فيها.

«مصحح الحسنات»: أي الطاعات والعبادات والقربات بمعنى أنه لا يقبل من الأعمال ولا يصح منها الا المصحوب بمتابعته ومحبته والدخول في ملته ﷺ، فلا يتقبل الله عمل من لم يؤمن به، وهذا معلوم ضرورة.

«مقيل العثرات»: بفتح المثلثة جمع عثرة بسكونها، وهي السقوط والوقوع في الشر، وإقالتها جبرها والمسامحة فيها والتجاوز عنها مع استحقاق الجاني للمؤاخذة بها، لكنه يتركها كرماً منه وفضلاً لاتصافه بالحلم، وقد كان هذا وصفه ﷺ.

«صفوح عن الزلات»: يقال صفح عن الشيء وصفحاً أعرض عنه، صفح عن الذنب عفا عنه، والزلات جمع زلة وهي السقطة أي انه ﷺ كان شأنه الترك للمؤاخذة بالجنايات والإعراض والتجاوز عن الزلات، أي ان صدرت من أحد في جانبه ﷺ زلة عفا عنه بترك المؤاخذة بها وصفح عن زلته لأن من شيمته كف الأذى واحتماله، وقد تقدم هذا في اسمه عفو.

«صاحب الشفاعة»: اعلم أن شفاعته ﷺ في الآخرة ثابتة سنة وإجماعاً وله شفاعات أعظمها الشفاعة في كافة الخلق لا راحتهم من الموقف وهي مختصة به بالاجماع لأنه أعظم الشفعاء وأوسعهم جاهاً ويحتمل أن تكون هي المرادة هنا فتكون «أل» للعهد لأن هذا الاسم عند غير المصنف صاحب الشفاعة الكبرى وخصت بالذكر لفخامة امرها لاختصاصه ﷺ بها.

الثانية: في إدخال قوم الجنة بغير حساب.

الثالثة: في من استحق النار من أهل المعاصي أن لا يدخلها.

الرابعة: في أخراج من دخل النار من المؤمنين حتى لا يبقى فيها منهم أحد.

الخامسة: في زيادة الدرجات لأقوام الجنة. السادسة: شفاعته لجماعة من صلحاء المسلمين ليتجاوز عنهم في تقصيرهم في الطاعات، وزاد بعضهم شفاعته في الموقف تخفيفاً عمن يحاسب، وشفاعته في تخفيف العذاب عن بعض من خلد في النار من الكفار كأبي طالب مطلقاً وأبي لهب في كل يوم اثنين لسروره بولادته ﷺ وإعتاقه ثويبة حين بشرته به، وشفاعته في أطفال المشركين أن لا يعذبوا وشفاعته في أصحاب الأعراف أن يدخلوا الجنة وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وزاد بعضهم شفاعته ﷺ في التخفيف من عذاب القبر لحديث القبرين في الصحيحين وغيرهما إلا أن هذه في البرزخ لا في القيامة، وجاءت أحاديث بالوعد بالشفاعة على عمل وكلها راجعة إلى الشفاعات المتقدمة فيشفع لكل أحد ممن وعده بها في ما يليف به ويحتاج اليه.

«صاحب المقام»: بفتح الميم المراد به المقام المحمود وهو الشفاعة في فصل القضاء فهو بمعنى الاسم قبله.

«صاحب القدم»: بفتحتين أي التقدم والسبق والرسوخ في كل من أمر من أمور الكمال فهو بمعنى اسمه سابق وقد تقدم.

«مخصوص بالعز مخصوص بالمجد مخصوص بالشرف»: معنى الثلاثة واحد أو متقارب وهو جلالة القدر وعلو الشأن ورفعة المنزلة والمكانة وجميع ذلك مخصوص به ﷺ على الكمال وبلوغ النهاية والحقيقة فكل من نال شيئاً من الأوصاف المذكورة فإنما ناله باتباعه وإمداده فهو بالحقيقة وبالأصالة ﷺ.

«صاحب الوسيلة»: قد تقدم الكلام على الوسيلة في فصل الفضائل وإن الراجح انها أعلى مكان في الجنة.

«صاحب السيف»: أي ملازمه والمداوم على حمله والتقلد به وهذا كناية عما بعث به من الجهاد والقتال أو كثرة ذلك مع ما فيه من الإشارة إلى شجاعته وقوة ثباته فلم يقاتل نبي من الأنبياء كقتاله ﷺ.

«صاحب الفضيلة»: فعيلة من الفضل ضد النقص وهو الكمال والفضيلة واحدة الفضائل وأصلها الصفة الجميلة والمعاني الحميدة مثل العلم والحياء والشجاعة والكرم وذكاء العقل وحسن السمت إلى غير ذلك من الخصال المحمودة والأوصاف الحسنة العديدة فكل واحدة من هذه الخصال تسمى فضيلة لفضلها وشرفها عند العقلاء، وفضل من اتصف بها عند النبلاء فصاحب الفضيلة هو الجامع لاشتات الفضائل.

ويحتمل أن الفضيلة خصوصية اختص بها ﷺ في الدار الآخرة من المعاني العجيبة والأوصاف الغريبة التي ادخرها له مولاه سبحانه وتعالى مما لا يخطر بالعقول ولا يحصل لأكابر الفحول.

«صاحب الإزار»: الإزار ما يستر به أسفل البدن، وهو من ملابس العرب دون غيرهم، فكان ﷺ يلبسه كثيراً على عادة العرب، فصاحب الإزار كناية عن كونه من صميم العرب، وبهذا الاعتبار ظهر المدح بهذا الاسم وإلا فمجرد لبس الإزار لامزية فيه.

«صاحب الحجة»: الحجة هي الدليل الذي يحج به الخصم أي يمنع ويغلب والمراد بها المعجزة أو ما يقوم مقامها، ومعجزاته كثيرة وبراهينه قوية غزيرة لا تعد ولا تحصر، وقد قيل أن ما حفظ منها يبلغ ألفاً، وقيل: ثلاثة آلاف سوى القرآن، وهو أعظمها وأن فيه ستين ألف معجزة تقريباً وهو المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق وليس لنبي معجزة باقية سواه ﷺ.

«صاحب السلطان»: بضم السين وسكون اللام وقد تضم ويذكر ويؤنث، وله معان: منها البرهان والحجة ومنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] أي حجة ظاهرة، ومنها قدرة الملك وسطوته وقهره لرعيته وكل هذه المعاني حاصلة له ﷺ، وسمي بهذا الاسم في كتاب شعيا وبعض الكتب القديمة.

«صاحب الرداء»: كناية عن كونه عربياً إذ الرد ما يستر أعلى البدن دون أسفله، وهو من ملابس العرب خاصة كالإزار.

«صاحب الدرجة الرفيعة»: المراد بها المرتبة الزائدة في الرفعة والشرف على سائر مراتب الخلق.

«صاحب التاج»: المراد به العمامة ولم تكن العمائم إلا للعرب والعمائم تيجان العرب أي قائمة في التزين بها مقام تيجان العجم المعهودة لملوكهم، إذ لم تكن للعرب، ولكون العمائم معروفة للعرب دون غيرهم سمي ﷺ صاحب التاج كما سمي صاحب العمامة فكني به عن أنه من صميم العرب وأشرافهم حسباً ونسباً وروى عنه ﷺ أنه لم يلبس العمامة غيره من االأنبياء.

«صاحب المغفر»: بكسر الميم وسكون الغين المعجمة وفتح الفاء وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس أو هو ما يجعل من فضل درع الحديد على الرأس مثل القلنسوة أو الخمار وكان ﷺ يلبسه في حروبه، فهذا كناية عن شجاعته وكثرة قتاله للأعداء.

«صاحب اللواء»: بكسر اللام، والمد المراد به لواء الحمد الذي يعطاه يوم القيامة كما

هو مصرح به عند بعضهم وهو راية كبيرة تكون في يده ﷺ في المحشر ليعرف الناس مكانه فيأتونه ويأوون إليه ويستظلون تحت هذا اللواء.

وقد يحمل على اللواء الذي كان يعقده لحروبه فيكون كناية عما بعث به من الجهاد فإنه محل اللواء، واللواء الراية، أو قريب منها وفرق بينهما بأن اللواء العلم الصغير والراية العلم الكبير، وقال أبو ذر الخشيني: اللواء ما كان مستطيلاً والراية ما كان مربعاً.

«صاحب المعراج»: المعراج اسم آلة العروج، أي الصعود والارتقاء وهو السلم ولم يصعد عليه في الدنيا بجسده أحد غيره ﷺ وقد أكرمه ربه تعالى بكرامة الإسراء وما تضمنه من العروج إلى السموات والرؤية والمناجاة وإمامة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما رآه من الآيات.

«صاحب القضيب»: معناه السيف، ويحتمل أن المراد به القضيب الممشوق الذي كان يأخذه عليه الصلاة والسلام في يده ويتوكأ عليه وهو الآن عند الخلفاء، أي السلاطين يمسكونه تبركاً به، فكان لهم واحداً بعد واحد ومعنى الممشوق الطويل الممدود الرقيق، فإن كان المراد بالقضيب السيف فهو كناية عن جهاده وكثرة غزوه وقتاله وفتوحاته وغنائمه، وقضيب على هذا قيل: بمعنى فاعل من قضبه، بمعنى قطعه يعني أنه بلغ في القطع إلى حد لم يصل إليه سواه فهو عبارة عن شجاعته وكثرة جهاده، وإن كان المراد به العصا، فهو عبارة عن كونه من صميم العرب وخطبائهم وقضيب على هذا فعيل بمعنى مفعول لأنه مقطوع من الشجر.

«صاحب البراق»: بضم الباء هو من المخلوقات العلوية وهو دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، ورويَ أن وجهه كوجه الإنسان وجسده كالفرس وعرفه كعرف الفرس، وذنبه كذنب الغزال أو الثور، قولان، وخفه كخف البعير وصدره ياقوتة حمراء وظهره درة بيضاء، وعليه رحل من رحال الجنة، وله جناحان يطير بهما كالبرق وليس بذكر ولا انثى وسمي به لسرعته أو لبياضه وصفائه، أو لما فيه من قليل سواد، من قولهم شاة برقاء إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود وركبه ﷺ لما أسريَ به ويحشر يوم القيامة عليه في سبعين ألف ملك واختلف فيه هل ركبه غيره من الأنبياء أم لا، والأول هو الصحيح.

«صاحب الخاتم»: المراد به خاتم النبوة وهو بفتح التاء وكسرها، والكسر أشهر وأفصح، كما في المناوي على الشمائل، ومثله الخاتم الذي يختم به، ففيه الوجهان والكسر أفصح كما في المصباح، وهو غير مختص به ﷺ بل كان لغيره من الأنبياء أيضاً، إلا أن الأنبياء كان الخاتم في إيمانهم، ونبينا ﷺ كان الخاتم في ظهره بإزاء قلبه، حيث يدخل الشيطان، فهذا مما اختص به ﷺ، وفي صفة الخاتم أحاديث متقاربة المعنى ومؤداها أنه قطعة لحم بارزة

في جسده عند كتفه الأيسر قدر بيضة الحمامة، وأثر المحجمة حولها شعرات متراكمة عليها وفيه خيلان أي نقط سود والأصح أنه وجد ونبت وقت شق صدره المرة الأولى عند حليمة، وقيل أنه ولد به.

«صاحب العلامة»: أي جنسها، أي العلامات التي كان أهل الكتاب يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم مما يرجع إلى ذاته أو صفاته أو اسمه أو نسبه أو شريعته أو زمانه أو مكانه أو لباسه أو دابته أو غير هذا مما يتعلق به من كل ما يحصل العلم بنبوته ﷺ، وهو أكثر من أن يحصى.

«صاحب البرهان»: أي الحجة والدليل والجنس فيشمل الأدلة والحجج المنتفع بها في محاجة المنكرين ويشمل أيضاً الحجج البالغة القاطعة والبراهين الواضحة الساطعة الدالة على صدقه وصحة نبوته ورسالته واتصافه بأنواع الكمالات التي خصه الله تعالى بها دلالة واضحة من الآيات البينات والمعجزات الباهرات كانشقاق القمر وتسليم الحجر والشجر وحنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ وتسبيح الحصا في كفه ومجيء الشجر لدعوته.

«صاحب البيان»: أي هو المبين للناس ما نزل إليهم من القرآن والشرائع وطرق المراشد في المعاش والمعاد والحق من الباطل والهدي من الضلال، والإيمان من الكفر، والطاعة من المعصية، والحلال من الحرام، وما فيه الثواب مما فيه العقاب من سائر الأقوال والأفعال وطريق النجاة من طريق الهلاك وبه انجلى الظلام عن النور وبان للناس ما هم عليه وأي طريق يسلكون وقد كانوا قبل بعثته تائهين في الضلال عاملين من غير معمل متساقطين دائماً في نار جهنم قائمين على شفا حفرة منها فأنقذهم منها ببيانه وهدايته، وهو أيضاً ﷺ صاحب البيان بما أوتيه من قوة الفصاحة ونهاية البلاغة والنطق بالحكمة والنظر بالنور وصدق الفراسه، فيبلغ إلى كل أحد ما تقدم عليه الحجة وتنفتح له المحجة ويخاطبه على قدر عقله وقابليته وما تسعه دائرته وتحتمله طاقته.

«فصيح اللسان»: المراد باللسان اللغة أي فصيح الكلام قال ﷺ **«أنا أفصح العرب»** وإن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد ﷺ وقال ﷺ **«كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءني بها جبريل فحفظتها»**.

«مطهر الجنان»: بفتح الهاء المشدودة وبفتح الجيم والجنان بالفتح القلب وكأنه إشارة إلى تطهير قلبه حين شقه الملائكة واستخرجوا منه علقة سوداء فرموا بها، وقالوا: هذا حظ الشيطان منك ثم غسلوه بماء زمزم ثم ختموه بخاتم من نور ثم أعادوه مكانه، أو هو إشارة ووصف لحالة قلبه من غير اعتبار بما ذكر وقد كان قلبه ﷺ مظهراً من أوصاف البشرية من كل

خلق ذميم وكل وصف مناقض للعبودية، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن الله نظر إلى قلوب العباد فاختار منها قلب محمد فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته.

«رؤوف»: الرأفة أرق من الرحمة وشفقة زائدة وتلطف بالمنعم عليه.

«رحيم»: الرحمة هي الشفقة والعطف والحنان وتقدم أن الرأفة نهايتها فالإسمان متقاربان معنى.

«أذن خير»: بضمتين معناه مستمع خير وصلاح لا مستمع شر وفساد فهو وصف كمال ورحمة فهو مدح له بكرمه وحسن خلقه ﷺ فلا يستمع ولا يصغي إلا للكلام الصدق دون غيره، كالغيبة والنميمة فلا يصغي له ولا يقرع سمعه بل ينفر منه بالطبع.

«صحيح الإسلام»: أي إسلامه في غاية القوة والكمال فإن كان أراد به إسلام نفسه ﷺ فلا ريب أنه أقوم الخلق إسلاماً وأكملهم إيماناً وأتمهم عبودية لربه واستسلاماً وإن كان المراد ملته وما شرعه لأمته فهو أكمل الأنبياء شريعة وأفضلهم منهاجاً وطريقة.

«سيد الكونين»: الكونان الدنيا والآخرة وقيل السموات والأرض وأحدهما كون بمعنى محدث تقول كون الله العالم، أي أحدثه فتكون ومعنى سيد الكونين سيد أهلهما، وهذا في فن الأصول من دلالة الاقتضاء لتوقف صحة الكلام على هذا المضمر الذي هو الأصل وهو في فن البيان من مجاز الحذف.

«عين النعيم»: عين الشيء ذاته ونفسه وحقيقته والنعيم التنعم والتمتع والتلذذ بالنعم والنعيم كله منوط به ﷺ ومجموع فيه ولا نعيم إلا بالإيمان به والدخول في حرز ملته والنعيم هو هكذا في نسخ معتبرة بالياء بعد العين وفي غيرها من النسخ المعتبرة أيضاً النعم جمع نعمة وعلى كل حال ففي الكلام مبالغة إذ ليس هو نفس النعيم ولا النعم وإنما المراد أنه السبب فيهما فلا نعيم في الدنيا والآخرة ولا نعم تصل للخلق فيهما إلا بسببه ﷺ وبواسطته.

«عين الغر»: بضم الغين المعجمة بعدها راء مهملة على ما في النسخة السهلية وجل النسخ والغر بالغين المعجمة جمع أغر من الغرة وغرة كل شيء أكرمه وأوله وخِيارهُ العين تطلق بمعنى العين الباصرة وبمعنى خِيار الشيء ورئيس القوم وهو ﷺ عين الغر وخيرهم ورئيسهم وسيدهم ﷺ. والغر يحتمل أن المراد بهم هنا هذه الأمة المشرفة لأنها أكرم الأمم وخيرها وإسبقها أو لأنهم يبعثون يوم القيامة غراً محجلين، ويحتمل أن المراد بهم خِيار الخلق وأكرمهم وصدورهم من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين وجميع عباد الله الصالحين صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين.

ويوجد في بعض النسخ عين العز بكسر المهملة ثم زين منقوطة وعلى هذه فمعناه أن العز كله منوط ومجموع فيه ﷺ فلا عز إلا بعزه ﷺ.

«سعد الله»: أي الذي أسعد الله به خلقه فكل سعيد في الوجود سواء كان سابقاً على ظهور شخصه أو لاحقاً له، فإنما سعادته بواسطته ﷺ على حسب استمداده منه.

«سعد الخلق»: أي هو الذي سعد به الخلق أي هو حظهم وبركتهم فيرجع هذا الاسم للاسم قبله.

«خطيب الأمم»: الظاهر والله أعلم أن خطبته هي ما ينبع من قلبه على لسانه من الثناء مما لم يسمع به أحد خلق الله في شفاعته لفصل القضاء بعد تقدمه على جميع الأنبياء والمرسلين فيسمعونه وإممهم فيعترفون له بفضله عليهم والإضافة علي معنى اللام أي الخطيب للأمم، بل وللأنبياء والمراد بخطبته حمد الله والثناء عليه الذي يلهمه وقت الشفاعة على رؤس الأشهاد كما علمت.

«علم الهدى»: العلم بمعنى العلامة فهو ﷺ العلامة والدليل على الهدى فمن أحبه ﷺ واتبعه واقتدى به فقد اهتدى ومن عصاه وحاد عنه فقد غوى واعتدى.

«كاشف الكرب»: بضم الكاف وفتح الراء وجمع كربة ومعنى كاشفها أنه مذهبها ومفرجها وشمل ذلك كرب الدنيا والآخرة وكشفها بشفاعته والالتجاء إليه والاستغاثة به والتعلق بأذياله والتوسل بجاه والإكثار من الصلاة ﷺ، وفي المصباح كربه الأمر كرباً من باب قتل شق عليه حتى ملأ قلبه غيظاً والكربة بضم الكاف اسم منه، والجمع كرب مثل غرفة وغرف.

«رافع الرتب»: بضم الراء وفتح المثناه جمع رتبة والمراد أنهٔ يرفع رتب المتبعين ومنزلتهم وقدرهم عند الله في الدنيا والآخرة وفي العلم والعمل والأخلاق والمقامات والأحوال.

«عز العرب»: أي معزهم ومشرفهم فإن العرب كانوا قبله ﷺ في جهد شديد وضيق عظيم، يمصون النوى من الجوع ويأكلون الجلود والميتة ويعبدون الشجر والحجر مشتة آراؤهم متفرقة أهواؤهم لا يدينون بدين، ولا يتقادون لملك، يغير بعضهم على بعض ويسفك بعضهم دماء بعض ويسبون نساءهم وأبناءهم ويستبيحون حريمهم ويهتكون حرمتهم ويأسرون رجالهم قد عمتهم الجهالة لا يعرفون نبوة ولا كتاباً منذ زمان إسماعيل عليه الصلاة، وكان غيرهم من الأمم يستضعفونهم ويحتقرونهم ولا يقيمون لهم وزناً يتطاولون عليه بالنبوة

والكتاب والملك والظهور وكثرة الأموال فجاءهم الله بسيد أهل النبوات والرسالات وخيرة أهل الأرض والسموات، عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات رسولاً من أنفسهم فصلح به حالهم واستقام دينهم وظهروا به على سائر البلاد والعباد واستولوا على الأمم وشرفوا عليهم فانقادوا لهم ودانوا بدينهم وحازوا ملك كسرى وقيصر وغيرهما وظفروا بعز الدنيا والآخرة وصار الناي يحجون بلادهم ويتعلمون لغتهم ويأخذون بلسانهم ويتنافسون في ذلك.

والذي في النسخ الصحيحة عو العرب، كما ذكرنا وفي غيرها من النسخ المعتمدة أيضاً عز. القرب بالقاف المضمومة بدل العين مضبوطاً في بعضها بفتح الراء جمع قربة، وهي ما يتقرب به إلى الله تعالى أي يطلب به القرب إليه فيعزه الله وسلم وشرفه تصح القربات أي الطاعات فيرجع لمعنى اسمه مصحح الحسنات، وقد تقدم وهو في بعضها مضبوط بسكون الراء، أي عز القرب ضد البعد فبعزه ﷺ ينال القرب من الله تعالى ومنه ﷺ فهو من إضافة السبب للمسبب.

«صاحب الفرج»: أي هو الذي يفرج الله، أي يكشف ويزيل كربات الدنيا والآخرة بشفاعته والاستغاثة به والالتجاء إليه والتعلق بأذياله والتوسل بجاهه والإكثار في الدنيا من الصلاة ﷺ فهذا الاسم يرجع لمعنى اسمه كاشف الكرب وقد تقدم.

وهذا الاسم الذي هو آخر الأسماء هو هكذا في النسخة السهلية وغيرها من النسخ المعتبرة وفي بعضها بدله كريم المخرج وفي بعضها بزيادة رفيع الدرج قبل كريم المخرج فأما رفيع الدرج فالدرج جمع درجة وهي في الأصل المرقاة والسلم والمراد بها هنا المرتبة فهو ﷺ صاحب المراتب والمنازل العالية التي لا رتبة فوقها وأما كريم المخرج فالمخرج بفتح الميم والراء وسكون الخاء بينهما والمراد به أصله ﷺ ونسبه الشريف فهو كريم الأصل والعنصر، ويصح أن يراد به بلده التي خرج منها وهي مكة شرفها الله تعالى، ولا شك أنها أكرم بلاد الله تعالى على الله وعلى عباده.

ومنهم الإمام العلامة السيد مرتضى الزبيدي[١] شارح الإحياء المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ

فمن جواهره رحمه الله تعالى

[الله أرسل محمدا ﷺ خاتم النبيين]

قوله عند قول الإمام الغزالي في عقيدته قواعد العقائد «الأصل العاشر أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل محمداً ﷺ خاتماً للنبيين وناسخاً لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر وتسبيح الحصى إلى آخره.

إن الله سبحانه وتعالى قد أرسل محمداً ﷺ إلى الخلق أجمعين بالهدى ودين الحق والمراد من الخلق المخلوق لأن إرساله إلى من يعقل من الجن والإنس، قال بعض العلماء وإلى الملائكة نقل ذلك التقي السبكي.

وصرح الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] بعدم دخول الملائكة في عموم من بعث ﷺ إليهم. ثم اعلم أن العلم بثبوت الشيء فرع تصور ذلك الشيء وتصور ذلك الشيء إن كان بحسب اسمه فلا يتوقف على وجوده، وان كان بحسب حقيقته وماهيته فيتوقف على وجوده والتصديق المفروض هو أن محمداً ﷺ رسول الله المفهوم من سياق المصنف، ولا بد لحصول هذا من العلم بوجود هذا الموضوع وتعيينه إذ هو شخص وتصور الشخص إنما هو بتعييناته الشخصية، فلا بد من الكلام على ما به يتعين شخصاً وذلك بالاستقرار من حيث نسبه ومولد، ووفاته، وزمانه، وأسماؤه الموجبة لشهرته، وشمائله التي امتاز بها عن غيره فإذا كان كذلك فلا بد من ذكر ذلك على الايجاز والاختصار ليكمل المعتقد من كل الوجوه.

---

(١) هو محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي أبو الفيض الملقب بمرتضى علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب من كبار المصنفين ولد بالهند سنة ١١٤٥ هـ، وتوفي سنة ١٢٠٥ هـ.

وقد ذكر القرافي في ذخيرته، وأشار إليه في شرح الأربعين أن جميع الأحوال المتعلقة بالرسول كلها فضلاً عما به يتعين ترجع إلى العقائد لا إلى العمل فيجب البحث عن ذلك لتحصيل كمال المعتقد بذلك.

أما وجوده ﷺ فمعلوم بالضرورة تواتراً عند أهل البرهان وكشفاً عند أولي العيان، فإن الصوفي يقول: العلم بوجود ﷺ من قبيل المحسوسات المرئية بالإبصار ويقظه عند المقربين ونوماً عند غيرهم، وقد قال ﷺ: «من رآني فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بصورتي» إذ معنى الحديث عن الأكثر أن من رآه نوماً فتلك الرؤية مساوية للرؤية الحسية يقظة، بل معنى كما نبه عليه علماء الحديث فانظره.

وأما تعيينه فأما من حيث نسبه فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان.

وإليه انتهى النسب الصحيح، وما فوق عدنان فمختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وكنيته ﷺ أبو القاسم وهو الأشهر، وأمه آمنة ابنة وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهنا تجتمع مع أبيه في النسب، وأما مولده ﷺ، وأما من حيث المكان فهو مكة بإجماع في شعب أبي طالب. وأما من حيث الزمان فيوم الإثنين لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول وذلك بعد قدوم الفيل بشهر بأربعين يوماً وقيل بخمسين يوماً، ومات والده عنه ﷺ وهو حمل وقيل ابن سبعة أشهر، والأول الصحيح، وماتت أمه بالأبواء ولم يستكمل له سبع سنين، وكفله جده عبد المطلب ولرسول لله ﷺ ثمان سنين، وبعث ﷺ لثمان مضين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة وقيل عشر سنين والأول أشهر، وقدم المدينة يوم الإثنين وهو الثاني من شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين من عام الفيل ومكث بها عشر سنين، وتوفي ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة في بيت عائشة رضي الله عنها يوم نوبتها يوم الإثنين أول يوم من شهر ربيع الأول ودفن ليلة الأربعاء.

وأما صفته ﷺ وشمائله الزكية فليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ولا بالأبيض الأمهق ولا الآدم ولا بالجعد القطط ولا بالسبط.

وكان رجل الشعر أزهر اللون مشرباً بحمرة في بياض كأن وجهه القمر حسن العنق ضخم

الكراديس أهدب الأشفار أدمج العينين حسن الثغر ضليع الفم حسن الأنف إذا مشي يتكفأ كأنما ينحط من صبب وإذا التفت التفت معاجل نظره إلى الأرض كانت له جمة لم تبلغ شحمة أذنيه ﷺ.

وأما أسماؤه ﷺ فهي كثيرة بلغت ألفاً وقد ألف الحافظ ابن دحية في ضبطها كتاباً سماه «المستوفي» فيه مقنع لمن أراد التضلع بها، ومنها المنقول توقيفاً فقد روى مالك وغيره رفعه أن رسول الله ﷺ قال: «**لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب**» ومن أسمائه في القرآن طه ويس والمدثر والمزمل وعبد الله والرؤوف والرحيم، ومن أسمائه أيضاً المقفي ونبي التوبة ونبي الملاحم والمتوكل ﷺ تسليماً.

ثم قال في شرح قول الغزالي: «ونعتقد أنه ﷺ أرسله الله تعالى خاتماً للنبيين» وهذا مما أجمع عليه أهل السنة وثبت بالكتاب والسنة، فالكتاب قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] والسنة فما روي: «**وإني لخاتم النبيين وآدم منجدل بين الماء والطين**» وفي الصحيحين: «**أن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بني داراً فكملها وأحسنها وترك فيها موضع لبنة، فصار يقال ما أحسنها لو تمت فأنا اللبنة التي تم بها الأنبياء**».

ويروى أيضاً «**لأني بعدي**» فقد جاء حديث الختم من طرق كثيرة بألفاظ مختلفة والإجماع فقد اتفقت الأمة على ذلك وعلى تكفير من ادعى النبوة بعده وبه يستدل المحدث.

وأما الصوفي فيقول بذلك ويزيد بما يعطيه ذوقه ويشير إليه وجده ويلوح بأن بعثته ﷺ جامعة لمعاني العلو بالظهور على ما هو فوق ذلك بإحاطته بكلية الكون أعلاه وأدناه وأوله وآخره وكان له حظ من نبوة كل نبي فكان بنبوته الجامعة لخصوص أحوال الأنبياء بمنزلة الفطرة الإنسانية الجامعة لخصوص أحوال الحيوان فكانت احاطته بنبوته بظهور كمال كلية الأمر فلم يبق وراءه أعلى فانجمعت طرفاً سلسلة النبوة والرسالة، فكان خاتماً لا نبي بعده إذ لا مرقي وراء أمره وهذا هو حقيقة الختم.

تنبيه: يقال: خاتم بفتح التاء وبكسرها وقد قرئ بهما فالفتح بمعنى الختام والانتهاء، والمعنى أنه انتهاء المرسلين، لما تقدم من أن كل رسول نبي ورفع الأعم يستلزم رفع الأخص والكسر بمعنى أنه ختمهم أي جاء آخر هم فلم يبق بعده نبي وبالجملة فبه انتهت النبوة والرسالة.

[و] أنه ﷺ بعث ناسخاً لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين: أي رافعاً تلك الاحكام ومزيلاً لها ومبيناً لانتهاء أمدها وأهل النسخ الإزالة، واليهود والنصارى فرقتان

معروفتان من اتباع سيدنا موسى سيدنا عيسى عليهما السلام والصابئون قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام، وقبلتهم مهب الشمال عند منتصف النهار، وإنما خص هؤلاء مع أن شريعته ﷺ نسخت سائر الشرائع المتقدمة لشهرة ذكرهم.

تنبيه: من أكبر الجاحدين لنبوة نبينا ﷺ اليهود، وقد ورد فيهم أنهم قوم بهت كما في الصحيح، وهم فرقتان:

الأولى: امتنعت من تصديقه لما تضمنت شريعته ﷺ من نسخ بعض أحكام شريعة موسى عليه السلام، فمنهم من زعم استحالة النسخ عقلاً لما فيه من البداء على زعمهم والبداء محال على الله تعالى. ومنهم من زعم أن موسى عليه السلام نص على أن شريعته لا تنسخ، وأنه قال تمسكوا بالسبت أبداً.

الفرقة الثانية: العيسوية اتباع أبي عيسى الأصبهاني قالوا: هو رسول لكن إلى العرب خاصة، وكذا قولهم إن عيسى عليه السلام مبعوث في قومه، وبمثل هذا القول قال أيضاً بعض النصارى.

أما من زعم إحالة النسخ لما فيه من البداء، فإن عني به ان الله تعالى ظهر له من الحكمة ما كان خافياً، فذلك محال على الله تعالى ولا نسلم أن النسخ مستلزم، لذلك فإنه لو استلزم تصرفه في أن يمنع ما أطلقه في وقت ما وإطلاق ما منعه في وقت آخر، ذلك للزم منع تصرفه فيهم بأفعاله من نقلهم من الصحة إلى المرض ومن الغنى إلى الفقر ومن الحياة إلى الموت وعكس ذلك البداء. وإذا لم يدل شيء من ذلك على البداء فكذلك لا يدل تصرفه فيهم بالقول عليه.

ثم إن من المعلوم أنه لا يمتنع في الحكمة يأمر الحكيم مريضاً باستعمال دواء في وقت ثم ينهاه عنه في وقت آخر لتعلق صلاحه بذلك في الحالين إن روعيت قاعدة الصلاح والتزم في تصرفات الباري تعالى ذلك وإلا فالله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم نقول وقوع الخارق على وفق دعوى المتحدي مع العجز عن معارضته لا يخلو، أما أن يدل على صدق مدعي الرسالة أولا فإن لم يدل وجب أن لا تقوم دلالة على صدق موسى عليه السلام، وإن دل وجب تصديق محمد ﷺ وتصديق عيسى عليه السلام وقد جاء بالنسخ فيثبت، ثم من نص التوراة أن الله عز وجل قال لنوح عليه السلام حين خرج من السفينة: «إني جاعل كل دابة مأكلاً لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ماخلا الدم وقد حرم بعد ذلك في التوراة كثيراً منها. وفي التوراة أن من شريعة آدم عليه السلام جواز نكاح الأخت وقد حرمتم ذلك. وقد كان في شرع يعقوب عليه السلام الجمع بين الأختين وقد حرمتم ذلك.

وقد كان العمل في السبت قبل شريعة موسى عليه السلام مباحاً وقد حرمتم ذلك. ولم يكن الختان واجباً لدى الولادة وقد أوجبتموه.

وأما من ادعى منع ذلك بطريق النقل فهو مالقنه لهم ابن الراوندي ولو كان ذلك النقل حقاً لأحتج به اليهود على النبي ﷺ وقد بالغوا في طمس آياته بكل وجه حتى غيروا صفته في التوراة ولو احتجوا به لنقل وحيث لم ينقل دل على انتفائه.

وأما العيسوية ومن رأى رأيهم من النصارى فإذا سلموا أنه نبي فقد سلموا صدقة وقد أخبر بعموم رسالته وأنه مبعوث إلى الأحمر والأسود مع قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ:٢٨] وقوله: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقد تحدى بمعجزته جميع الإنس والجن (وأيده) الله سبحانه (بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة) معنى الآية العلامة على صدقه والعجزة هي الآية مع التحدي بها فكل معجزة آية لا العكس. ثم المعجزة مأخوذة من العجز المقابل للقدرة وحقيقة الإعجاز إثبات العجز فاستعير لإظهاره ثم اسند مجازاً إلى ما هو سبب العجز ثم جعل اسماً له فقيل معجزة والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما في الحقيقة أو للمبالغة كما في العلامة.

وحقيقة المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي موافق للدعوى سالم من المعارض على يد مدعى النبوة.

قولنا: أمر يتناول الفعل كانفجار الماء من بين أصابعه وعدمه كعدم إحراق النار. وقيد إمام الحرمين المعجزة بفعل الله تعالى وإليه مال المصنف كما سيأتي في سياقه قريباً.

وقد أورد عليهما أنها لا تحصر في الفعل بل كما أنها تكون بفعل غير المعتاد قد تكون بالمنع من الفعل المعتاد مع سلامة البنية بعدم خلق الضرورة والداعي إلى الفعل. ومن اقتصر على الفعل فهو: إما لأن العدم المضاف عنده فعل وأثر للقدرة، وإما لأنه جعل المعجزة كون النار برداً وسلاماً على إبراهيم أو بقاء جسمه ﷺ على ما كان عليه، لكن هذه الأجوبة كلها بحسب العادة. وقولنا خارق للعادة يخرج المعتاد إذ لا دلالة فيه لاتحاد نسبته فلا يدل.

وقولنا: مقرون بالتحدي أي المجاراة والمغالبة لغة والمراد منه ربط الدعوى بالمعجز عند دعوى النبوة وبهذا القيد تخرج كرامات الأولياء لأنه لا تتحدى بالكلية أو لا يتحدى بها على دعوى النبوة والرسالة، وإن جاز للولي أن يتحدى على ولايته وهو الصحيح.

وأما خروج الإرهاصات فلأنها تكون قبل النبوة، فلم تكن مقرونة بالتحدي إذ الإرهاص

إحداث خارق في العادة يدل على بعثة نبي قبل بعثته، كأنه تأسيس لقاعدة نبوته.

قال السعد: والقوم يعدون أمثال هذه، أي كشق الصدر وإظلال الغمامة وتسليم الحجر معجزات على سبيل التشبيه والتغليب. وقولنا مع الموافقة للدعوى معناه أن يكون ما يأتي به موافقاً له في دعوى النبوة، بحيث لا يقتضي تكذيبه، وقولنا: والسلامة من المعارض، أي في دعواه بأن يدعي أحد نقيض دعواه كما إذا ادعى أحد أنه نبي وقارن دعواه خارق، ثم ادعى آخر إنه نبي وإن ذلك المدعي أولا ليس نبي وقارن دعواه خارق.

وقولنا: على يد مدعي النبوة معناه أن يكون الخارق قائماً بالنبي كبياض يد موسى عليه السلام أو وجوده عند توجهه لوقوعه عازماً عليه وطالباً إياه كانقلاب العصا حية، فخرج ما إذا اتخذ الكاذب معجزة من يعاضده من الأنبياء لنفسه وكذا يخرج ما إذا تقدم الخارق من المدعي ثم يدعي ويقول: معجزتي ما ظهر في الزمن الماضي، فإنه وإن كان خارقاً إلا أنه لم يكن على يد مدعي النبوة في ذلك الزمن إذ الفرض أنه لم يدع نبوة. وإذا علمت ذلك فارف أنه ﷺ ادعى النبوة مقرونة بالمعجزة فهو رسول الله قطعاً.

أما الصغرى وهو أنه ادعى الرسالة فبالضرورة حساً للمعاصر وتواتر الغيرة. وأما أن تلك الدعوى كانت مقرونة بالمعجزة فبالمشاهدة للمعاصر ولغيره بالتواتر لفظاً ومعنى مما نقلته الآحاد. وبالجملة فمعجزاته ﷺ على قسمين باقية دائكة، يشاهدها من كان وسيكون وذلك هو القرآن العظيم. وغير دائمة وهو ما صدر عنه ﷺ من الخوارق الفعلية أو الغيوب القولية مما يتعلق بماض أو حال أو مستقبل وهي لا تحصى عدة بالتحقيق.

أما القسم الأول: الذي هو القرآن وأحد قسمي القسم الثاني الذي هو الغيوب القولية فسيذكرها المصنف في ما بعد. ويقي القسم الأول من القسم الثاني وهو الأفعال الخارقة للعادة، فذلك أيضاً لا يحصى كثرة، وقد فصلت في دلائل النبوة لكل من البيهقي وأبي نعيم لكن بعضها إرهاصاً ظهر قبل دعوة النبوة، وبعضها تصديقاً ظهر بعدها. وهي تنقسم إلى أمور ثابتة في ذاته، وأمور متعلقة بصفاته. وأمور خارجة عنها راجعة إلى أفعاله:

فالأول: كالنور الذي كان ينتقل في آبائه إلى أن ولد وكولادته مختوناً مسروراً واضعاً إحدى يديه على عينيه والأخرى على سرته، وكذلك ما كان من خاتم النبوة بين كتفيه، وطول قامته عند الطويل ووساطته عند الوسط ورؤيته من خلف كما كان يرى من قدام، ورؤيته في الظلمة كما يرى في الضوي، ورؤيته البعيد كما يرى القريب، وكون جسمه شفافاً فلم يقع له ظل على الأرض ولم يمنع رائي الشمس مع حيلولته.

والثاني: ما يرجع إلى صفاته وذلك ما استجمعه مما هو في الغاية القصوى وغاية الكمال

في ذلك من الصدق والأمانة والعفاف والشجاعة والعدل والحكمة والفصاحة والزهد والتواضع لأهل المسكنة والشفقة على الأمة والمصابرة على مصاعب الرسالة، والمواظبة على مكارم الأخلاق، وبلوغه النهاية في العلوم الإلهية، ومهيد قواعد المصالح الدينية والدنيوية وما كان عليه من استجابة الدعوة، دعا لابن عباس بقوله «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[1] فكان بحراً وإما للمفسرين. ودعا على عتبة بوله «**اللهم سلط عليه كلباً من كلابك**»[2] فافترسه الأسد. وعلى سراقة حين لحقه فساخت قوائم فرسه.

والثالث: ما هو خارج عن ذاته وصفاته وهو كانشقاق القمر إلى آخره...

ومن جواهر السيد مرتضى الزبيدي أيضاً

[زيارة المدينة المنورة وآدابها]

ما ذكره عند قول الإمام الغزالي في آخر كتاب الحج، الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها قال ﷺ: «**من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي**». وقال ﷺ: «**من وجد سعة ولم يفد اليّ فقد جفاني**». وقال ﷺ: «**من جاءني زائرا لا يهمه إلا زيارتي كان حقاً على الله سبحانه أن أكون له شفيعاً**».

قال الزبيدي رحمه الله: أما مسجد المدينة وفضله والصلاة فيه فقد تقدم طرف من ذلك في أول الباب. منها حدث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد وقد تقدم الكلام عليه.

ومنها عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى قال: «**مسجدكم هذا مسجد المدينة**» أخرجه مسلم.

وعن ابن عباس أن امرأة شكت شكوى فقالت إن شفاني الله تعالى لأخرجن فلأصلين في بيت المقدس، فبرئت ثم تجهزت تريد الخروج فجاءت ميمونة زوج النبي ﷺ فأخبرتها ذلك فقالت أجلسي فكلي ما صنعت وصلي في مسجد رسول الله ﷺ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**صلاة فيه أفضل من ألف صلاة في سواه من المساجد إلا مسجد الكعبة**» أخرجه مسلم.

وقد روي ذلك من حديث الأرقم بن أبي الأرقم عن النبي ﷺ ولفظه قال: «**قلت**

---

(١) رواه القاضي عياض في الشفا (١: ٢٦٩). وابن حجر في فتح الباري (١: ١٧). والقرطبي في التفسير (١: ٣٣).

(٢) رواه القاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٦٣٢). وابن حجر في فتح الباري (٤: ٣٩). والقرطبي في التفسير (١٧: ٨٢).

يارسول الله إني أريد أن أخرج إلى بيت المقدس، قال: فلم؟ قلت: للصلاة فيه، قال: الصلاة هنا أفضل من الصلاة هناك بألف مرة أخرجه ابن الجوزي في مثير الغرام.

وعن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ قال: صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في ما سواه إلا المسجد الحرام» فإن رسول الله ﷺ آخر الأنبياء وإن مسجده آخر المساجد أخرجاه.

وقد روي ذلك من حديث عائشة عن النبي ﷺ قال: «أنا خاتم الأنبياء ومسجدي آخر المساجد أحق أن يزار وتركب إليه الرواحل» أخرجه ابن الجوزي في مثير الغرام. وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «من صلى في مسجدي أربعين صلاة كتب له براءة من النار وبراءة من العذاب وبرئ من النفاق» أخرجه أحمد وقال ابن حبان في التقاسيم الأنواع: ذِكرُ الخبر الدال على أن الخارج من منزله يريد مسجد المدينة من أي بلد تكب له بكل خطوة حسنة وتحط الأخرى عنه سيئة، إلى أن يرجع إلى بلده.

وأخرج فيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: إن من حين يخرج أحدكم من منزله إلى مسجدي فرجل تكتب له حسنة ورجل تحط عنه خطيئة حتى يرجع.

والحديث الأول حجة على من قال المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء. وقول ميمونة للتي نذرت أن تصلي في بيت المقدس حجة لأصحاب الشافعي: على أن المكي والمدني أن نذر الخروج إلى بيت المقدس والصلاة فيه لا يزلمهما ذلك، لأن مكانهما أفضل. وقوله: إلا المسجد الحرام اختلف في المراد بهذا الاستثناء فعند الشافعي أن المراد إلا المسجد الحرام فإنه أفضل من مسجدي، فعلى هذا فتكون مكة أفضل من المدينة.

وقال عياض: أجمعوا على أن موضع قبره ﷺ أفضل بقاع الأرض وأن مكة والمدينة أفضل بقاع الأرض بعده، ثم اختلفوا في أيهما أفضل فذهب عمر وجماعة من الصحابة إلى تفضيل المدينة، وهو قول مالك وأكثر المدنيين وحملوا الاستثناء المذكور على أن مسجدي يفضله بدون الألف.

وذهب أهل الكوفة إلى تفضيل مكة، وبه قال ابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك وإليه، ذهب الشافعي. وقد وردت أحاديث في فضل زيارته ﷺ أو رد المصنف منها الأحاديث المذكورة أولاً:

ومن جواهر السيد مرتضى

[فضيلة الصلاة على عليه ﷺ]

قوله في شرح كتاب الأذكار الإحياء عند الكلام على فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ

فصل: سئل المصنف، يعني الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، ما معنى قوله ﷺ من صلى عليه واحدة صلى الله عليه عشراً وما معنى صلاة الله على من صلى عليه، وما معنى صلاتنا عليه، وما معنى استدعائه من أمته الصلاة عليه أيرتاح لذلك أم هو شفقة على الأمة؟

فأجاب: أما صلاة الله على نبيه وعلى المصلين عليه فمعناه إفاضة أنواع الكرامات ولطائف النعم. وأما صلاتنا عليه وصلاه الملائكة فهو سؤال وابتهال في طلب تلك الكرامة ورغبة في إفاضتها عليه كقول القائل غفر الله له ورحمه فإن ذلك يختص بالرحمة وطلب العفو بالستر ولذلك تختص الصلاة به ودونه قولك رضي الله عنه فتختص الصلاة بالأنبياء وطلب الترضي بالصحابة والأولياء والعلماء وطلب الرحمة والمغفرة بالعوام. وأما استدعاؤه الصلاة من أمته فلثلاثة أمور:

أحدها: أن الأدعية مؤثرة استدرار فضل لله ونعمته ورحمته، لاسيما في الجمع الكثير كالجمعة وعرفات والجماعات فإن الهم إذا اجتمعت وانصرفت إلى طلب ما في الإمكان وجود على قرب، فالمطر ورفع الوباء وغيره فاض مافي الإمكان من الفيض الحق بوسائط إلى روحانيات المترشحين لتدبير العالم الأسفل المقتضي لتقهرهم. وإنما أثرت الهمم لما بين الأرواح البشرية والروحانية العالية من المناسبة الذاتية فإن هذه الأرواح مجانسة لتلك الجواهر، وإنما يقطع مجانستها التدنس بكدورات الشهوات، ولذلك تكون همة القلوب الزكية الطاهرة أسرع تأثيراً أو تكون في حالة التضرع والابتهال أنجح، لأن حرقة التضرع تذيب كدورات الشهوات عن القلب في الحال وتصفيه وتكشفه من الظلمة ولذلك لا يخطئ دعاء الجمع، ولا يخلو الجمع من قلوب طاهرة يزيدون التعاون تأثيراً، وإنما كان يوم الجمعة فقد يستجاب فيه الدعاء منهم لأن الحال الذي يجتمع فيه على قلوب صافية واحد لا يدري متى هو، لكن الغالب أن اليوم لا يخلو عنه وهو وقت النفحات التي يتعرض لها وربما كان اجتماع الهمم يوم الجمعة عند الأسباب الجامعة كابتداء الخطبة وابتداء الصلاة، لكن الأول أن لا يجزم القول بتعيين وقته بل يبهم.

وكذلك يتوقع لك النفحات في الأسحار لصفاء القلوب فإذا كانت الأدعية مؤثرة في استجلاب موائد الفضل وكان ما وعد رسول الله ﷺ من الحوض ومرتبة الشفاعة وغير ذلك من المقامات المحمودة غير محدود على وجه لا تتصور الزيادة فيها، فاستمداده من الأدعية إستزادة لتلك الكرامات.

الأمر الثاني: ارتياحه به كما قال ﷺ إني أباهي بكم الأسم وكما لا يبعد أن يطلع النائم منا على الغيب من أحوال الموتى مع كوننا في هذا العالم المظلم فلا يبعد أن تحصل للأرواح

معرفة بمجاري أحوالنا مع أنهم في عالم القدس والصفاء ودار الحيوان ووجه اطلاع النائم على أحوال الموتى واطلاع الموتى على أحوال الناس بطول ذكره.

الثالث: الشفقة على الأمة فحرضهم على ما هو حسنة في حقهم وقربة لهم. وإنما تضاعف الصلاة لأن الصلاة ليست حسنة واحدة بل حسنات إذ فيها تجديد الإيمان بالله أولاً ثم بالرسول، ثانياً بتعظيمه ثالثاً، ثم بالعناية بطلب الكرامة رابعاً، ثم بتجديد الإيمان باليوم الآخر وأنواع كرامات خامساً، ثم بذكر آله سادساً.

وعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ثم بتعظيم آله ونسبتهم إليه سابعاً، ثم بإظهار المودة لهم ثامناً، ولم يسأل ﷺ من أمته إلا المودة في القربى ثم الابتهال والتضرع في الدعاء تاسعاً والدعاء مخ العبادة ثم بالاعتراف عاشراً بان الأمر كله لله إن النبي وإن جل قدره فهو محتاج إلى رحمة الله عز وجل فهذه عشر حسنات سوى ما ورد الشرع به من أن الحسنة الواحدة بعشر أمثالها وإن السيئة بمثلها فقط وسره إن الجوهر الإنساني حنان إلى ذلك العالم العلوي وهبوطه إلى العالم الجسماني غريب في طبعه والسيئة تبطئه عن الترقي إلى ذلك العالم على خلاف طبعه والحسنة ترقية إلى موافقة الطبع والقوة التي تحرك الحجر إلى فوق هي نفسها إن استعملت في تحريكه إلى أسفل تحرك عشرة أذرع أو زيادة فلهذا كانت الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف اهـ. قال ولما فرغ المصنف من ذكر فضيلة الصلاة عليه ﷺ شرع في ذكر فضله ﷺ ولنقدم قبل ذلك كلاماً مختصراً يكون كالتتمة لما يذكره المصنف فأقول، من فضائله ﷺ تعالى أقسم بحياته ولم يقسم بحياة نبي قبله فقال عز وجل: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]، وأيده بالملائكة، وقرن اسمه، ورفع ذكره في التأذين مع ذكره عز وجل قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤]. وأعطاه اسمين من أسمائه فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١٠٥] الآية فجعل الأمر إليه لطهارته عند الله وأمانته على عباده. ووضع به الأغلال والآصار التي كانت عليهم فقال: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وجعله رحمة للعالمين وأماناً من المسخ والقوارع والعذاب، وخاطب الأنبياء بأسمائهم وخاطبه بالنبوة والرسالة فقال يا أيها النبي يا أيها الرسول، وقال أنس رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء صنعته لِمَ صنعته؟ ولا قال لي لشيء تركته لِمَ تركته؟ وكان ﷺ أحسن الناس حقاً وما مسستُ شيئاً قط ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت ريحاً إطيب من ريح رسول الله ﷺ.

ويروى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال كان رسول الله ﷺ يعقل البعير ويعلف الناضح ويقم البيت ويخصف النعل ويرفع الثوب ويحلب الشاة ويأكل مع الخادم ويضحى معها إذا أعيت (ومعنى يضحي يظهر) وكان لا يحمله الحياء أن لا يحمل بضاعته من السوق إلى أهله وكان يصافح الغني والفقير ويسلم مبتدئاً وكان لا يستحي إذا دعي ولا يحتقر ما دعي إليه ولو إلى حشف التمر وكان هين المؤنة لين الخلق جميل المعاشرة، طلق الوجه بساماً من غير ضحك، متواضعاً من غير مذلة، جواداً من غير سرف. رقيق القلب دائم الإطراق، رحيماً بكل مسلم لم يبشم قط من شبع ولا مديده إلى طمع ﷺ.

ومن جواهر السيد مرتضى

[شمائله الشريفة ﷺ]

ما ذكره عند ذكر الإمام الغزالي في الشمائل النبوية حديثاً مطولاً قال في آخره وكان ﷺ يقول: «**أنا أشبه الناس بآدم وكان أبي إبراهيم أشبه الناس بي خُلُقاً وخلقاً**» قد أورد البيهقي في الدلائل الحديث المذكور بتمامه كسياق المصنف وفيه زيادات من طريق هذا الرجل أي صبيح الفرغاني ولم أجد له ذكراً في كتب الضعفاء والمتروكين، وهذا نص البيهقي في الدلائل.

قال: وقد روى صبيح بن عبد الله الفرغاني وليس بالمعروف حديثاً آخر في صفة النبي ﷺ، وأدرج فيه تفسير بعض ألفاظه ولم يبين من قال تفسيره في ما سمعنا إلا أنه يوافق جملة ما روينا في الأحاديث الصحيحة فرويناه والاعتماد على ما مضى أخبرناه أبو عبد الله الحافظ قال: أخبرناه أبو عبد الله محمد ﷺ يوسف المؤذن قال: حدثنا محمد بن النسوي حدثنا أحمد بن زهير حدثنا صبيح بن عبد الله الفرغاني حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه وهشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت كان من صفة رسول الله ﷺ في قامته أنه لم يكن بالطويل البائن ولا المشذب الذاهب. المشذَّب الطويل نفسه إلا أنه المخفف.

ولم يكن ﷺ بالقصير المتردد وكان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس، ينسب إلى الطول الإطالة ﷺ وربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسب رسول الله ﷺ إلى الربعة ويقول نسب الخير كله إلى الربعة كان لونه ليس بالأبيض الأمهق الشديد البياض الذي يضرب بياضه الشهبة ولم يكن بالآدم وكان ازهر اللون، والأزهر الأبيض الناصع البياض الذي لا تشوبه حمرة ولا صفرة ولاشيء من الألوان وكان ابن عمر كثيراً ما ينشد في مسجد رسول الله ﷺ نعت عمه أبي طالب إياه في لونه حيث يقول:

وأبيـــضَ يُستسقـــى الغمـــامُ   كأنه ثمالُ اليتامى عصمة للأراملُ

ويقول من سمعه هكذا كان النبي ﷺ وقد نعته بعض من نعته بأنه كان مشرب حمرة وقد صدق من نعته بذلك، ولكن إنما كان المشرب منه حمرة ما ضحى للشمس والرياح فقد كان بياضه من ذلك قد أشرب حمرة وما تحت الثياب فهو الأبيض الأزهر لا يشك فيه أحد فمن وصفه بأنه أبيض أزهر فعنى ما تحت الثياب، فقد أصاب ومن نعت ما ضحى للشمس والرياح بأنه أزهر مشرب حمرة فقد أصاب ولونه الذي لا يُشك فيه الأبيض الأزهر وإنما الحمرة من قِبل الشمس والرياح وكان عرقه في وجهه مثل اللؤلوء أطيب من المسك الأذ فرو كان رجل الشعر حسناً ليس بالسبط ولا الجعد القطط كان إذا مشطة بالمشط كأنه حُبُك الرمل أو كأنه المبثوث الذي يكون في الغدر إذا اسفتها الرياح، فإذا مكث لم يُرجّل أخذ بعضه بعضاً وتحلق حتى يكون متحلقاً كالخواتم وكان أول مرة سدل ناصيته بين عينيه كما تسدل نواصي الخيل ثم جاءه جبريل عليه السلام بالفرق ففرق فكان شعره فوق حاجبيه، ومنهم من قال: كان يضرب شعره منكبيه وأكثر ذلك إذا كان إلى شحمه أذنية وكان ﷺ ربما جعله غدائر أربعاً يخرج الأذن اليمنى من بين غديرتين يكتنفانها ويخرج الأذن اليسرى من بين غديرتين يكتنفانها وتخرج الأذنان بياضهما من بين تلك الغدائر كأنها توقد الكواكب الدرية من سواد شعره.

وكان أكثر شيبة في الرأس في فَوْرَيّ رأسه. والفودان حرفا الفرق، وكان أكثر شيبه في لحيته فوق الذقن وكان يُشَبِه كأنه خيوط الفضة يتلألأ من بين ظهر سواد الشعر الذي معه وإذا مس ذلك الشيب الصفرة وكان كثيراً ما يفعل، صار كأنه خيوط الذهب يتلألأ بين ظهر سواد الشعر الذي معه.

وكان أحسن الناس وجهاً وأنورهم لوناً لم يصفه واصف قط بلغتنا عنه صفته إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر، ولقد كان يقول من كان يقول: منهم لربما نظرنا إلى القمر ليلة البدر فنقول هو أحسن في أعيننا من القمر أزهر اللون نير الوجه يتلألأ تلالؤ القمر يعرف رضاه وغضبه من سروره بوجهه كان إذا رضي أو سر فكأن وجهه المرآة وإنما الدر يلاحك وجهه وإذا غضب تلون وجهه واحمرت عيناه قال: وكانوا يقولون هو ﷺ كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

أميــنٌ مصطفــى للخيــر يــدعــو   كضــوء البــدر زايلــه الظــلام

ويقولون كذلك كان، وكان ابن عمر كثيراً ما ينشد قول زهير بن أبي سلمى يقول لهرم بن سنان)

لــو كنــتَ مــن شــيء سـوى بشـر   كنــتَ المضــيء بليلــة البــدر

فيقول عمرو من سمع ذلك كان النبي ﷺ كذلك ولم يكون كذلك غيره، وكذلك قالت عمته عاتكة بنت عبد المطلب بعدما سار من مكة مهاجراً فجزعت عليه بنو هاشم فانبعثت تقول:

أعينيّ جودا بالدموع السواجم ... على المرتضى كالبدر من آل هاشم
على المرتضى للبر والعدل والتقى ... وللدين والدنيا بهيج المعالم
على الصادق الميمون ذي الحلم والنهى ... وللفضل والداعي لخير التراحُم

تشبه بالبدر ونعتته بهذه النعوت ووقعت في النفوس لما ألقى الله تعالى منه في الصدور وقد نعتته وأنها لعلي دين قومها وكان ﷺ أجلى الجبين إذا أطلع جبينه من بين الشعر أو طلع في فلق الصبح أو عند طَفل الليل أو طلع بوجهه على الناس تراه، أي جبينه، كأنه ضوء السراج المتوقد يتلألأ وكانوا يقولون هو ﷺ، كما قال شاعره حسان بن ثابت رضي الله عنه:

متى يبد في الداجي البهيم جبينه ... يلح مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد ... نظامٌ لحق أو نكالٌ لملحد

وكان النبي ﷺ واسع الجبهة أزج الحاجبين سابغهما والحاجبان الأزجان هما الحاجبان المتوسطان اللذان لا تعدو شعرة منهما شعرة في النبات والاستواء من غير فرق بينهما وكان أبلج ما بين الحاجبين حتى كأن ما بينهما الفضة الخلصة بينهما عرق يدره الغضب، لا يرى ذلك العرق، إلا أن يدره الغضب، والأبلج النقي ما بين الحاجبين من الشعرة وكانت عيناه ﷺ نجلاوين أدعجهما والعين النجلاء الواسعة والدعج شدة سواد الحدقة لا يكون الدعج في شيء إلا في سواد الحدق.

وكان في عينيه تمزج من حمرة وكان أهدب الأشفار حتى تلتبس من كثرتها أقنى العرنين، والعرنين الأنف المستوى من أوله إلى آخره، وهو الأشم وكان أفلج الأسنان أشنبها قال والشنب أن تكون الأسنان متفرضة فيها طرائق مثل تفرض المشط إلا أنها حديدة الأطراف وهو الأثر الذي يكون أسفل الأسنان كأنه ماء يقطر في تفتحه وطرائفه وكان يتبسم عن مثل البر والمنحدر من متون الغمام فإذا أفترض حكى أفتر عن مثل سنا البرق إذا تلألأ وكان أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم سهل الخدين صلتهما قال والصلت الخد الأسيل هو الخد المستوى الذي لا يفوت بعض لحمه بعضاً، ليس بالطويل الوجه ولا بالمكلثم، كث اللحية والكث الكثير منابت الشعر وكانت عنفقته بارزة وفنيكاه حول العنفقة كأنهما بياض اللؤلؤ، في أسفل عنفقته شعر منقاد حتى يقع انقياده على شعر اللحية حتى يكون كأنه منها، والفنيكان هما مواضع الطعام حول العنفقة من جانبيها جميعاً.

وكان أحسن عباد الله عنقاً لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ما ظهر من عنقه للشمس والرياح كأنه إبريق فضة مشرب ذهباً يتلألأ في بياض الفضة وحمرة الذهب وما غيبت الثياب من عنقه تحتها فكأنه القمر ليلة البدر وكان عريض الصدر ممسوحة كأنه المرآة في صفائها واستوائها لا يعدو بعض لحمه بعضاً على بياض القمر ليلة البدر موصول ما بين لبنه إلى سرته بشعر منقاد كالقضيب لم يكن في صدره ولا بطنه شهرة وغيره وكان له ﷺ عكن ثلاث يغطي الإزار منها واحدة وتظهر ثنتان.

ومنهم من قال: يغطي الإزار منها ثنتان وتظهر واحدة، تلك العكن أبيض من القباطي المطوية وألين مساو كان عظيم المنكبين أشعرهما ضخم الكراديس، والكراديس عظام المنكبين أشعرهما ضخم الكراديس، والكراديس عظام المنكبين والمرفقين والركبتين والوركين وكان جليل الكتد، قال والكتد مجتمع الكتفين والظهر، واسع الظهر بين كتفيه خاتم النبوة وهو مما يلي منكبة الأيمن وفيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنهن من عرف فرس ومنهم من قال كانت شامة النبوة بأسفل كتفه خضراء متحفرة في اللحم قليلاً وكان طويل مسربة الظهر.

والمسربة الفقار الذي في الظهر من أعلاه إلى أسفله، وكان ناعم الأوصال ضابط العصب الضابط القوي شثن الكف رحب الراحة سائل الأطراف كأن اصابعه قضبان فضة كفه ألين من الخز وكأن كفه كف عطار طيباً مسها بطيب أو لم يمسها، يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها ويضعها على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان من ريحها على رأسه، وكان عبل ما تحت الإزار من الفخذين والساق شثن القدمين غليظهما ليس لهما خمص، ومنهم من قال في قدمه شيء من خمص يطأ الأرض بجميع قدميه معتدل الخلق بدن في آخر زمانه، وكان بذلك البدن متماسكاً وكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن.

وكان فخماً مفخماً في جسده كله إذا التفت التفت جميعاً وإذا أدب أدبر جميعاً وكان ﷺ فيه شيء من الصرر، والصرر الرجل الذي كأنه يلمح الشيء ببعض وجهه وإذا مشى فكأنه يتقلع من صخر وينحدر في صبب يخطوة تكفياً ويمشي الهوينا بغير عثر، والهوينا تقارب الخطا والمشي على الهينة فيذر القوم إذا سارع إلى خير أو مشي إليه ويسوقهم إذا لم يسارع إلى شيء بمشية الهوينا وترفعه فيها وكان ﷺ يقول «أنا أشبه الناس بأبي آدم عليه السلام وكان إبراهيم خليل الرحمن أشبه الناس بي خُلُقاً وخلقاً» ﷺ وعلى جميع أنبياء الله.

ومنهم العارف بالله سيدي السيد عبد الله الميرغني[1] المتوفى سنة ١٢٠٧ هـ

[ترجمته]

وهو أحد مشايخ الإمام العلامة السيد مرتضى الزبيدي شارح الأخبار والقاموس ولكون شهرته في بلادنا أقل من شهرة سيدي عبد العزيز الدباغ وسيدي عبد الغنى النابلسي وسيدي مصطفى البكري رضي الله عنه وعنهم أردت أن أذكر شيئاً من ترجمته تنويها بقدره ولأجل أن يتلقى بالقبول ما انقله عنه من الفوائد الجليلة المتعلقة بعلو قدر رسول الله ﷺ فأقول ذكره الجبرتي في تاريخه في وفيات سنة ١٢٠٧ فقال: في هذه السنة مات السيد الإمام العارف القطب عنفيف الدين أبو السيادة عبد الله بن إبراهيم بن حسن بن محمد أمين بن علي مير غني، وساق باقي نسبه الشريف الحسيني المتقي المكي الطائفي الحنفي الملقب بالمحجوب، ولد بمكة وبها نشأ وحضر في مباديه دروس بعض علمائها كالشيخ النخلي وغيره واجتمع بقطب زمانه السيد يوسف المهدلي.

وكان إذ ذاك أوحد عصره في المعارف فانتسب اليه ولازمه حتى رقاه وبعد وفاته جذبته عناية الحق وأرته من المقامات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فحينئذ انقطعت الوسائط وسقطت الوسائل فكان أو يسيا تلقيه من حضرة جده ﷺ كما أشار إلى ذلك شيخنا السيد مرتضى عندما اجتمع به بمكة في سنة ١١٦٣ وأطلعه على نسبه الشريف وأخرجه إليه من صندوق قال وطلبت منه الإجازة وإسناد كتب الحديث فقال عني عنه قال فعلمت أنه أويسي المقام، ومدده من جده ﷺ، وانتقل إلى الطائف بأهله وعياله في سنة ٦٦ وشرف تلك المشاهد، ومآثره شهيرة ومفاخره كثيرة وكراماته كالشمس في كبد السماء وكالبدر في غيهب الظلماء وأحواله في احتجابه عن الناس مشهورة وأخباره في زهده في الدنيا على ألسنة الناس مذكورة.

ومن مؤلفاته كتاب «فرائض وواجبات الإسلام» شرحها السيد مرتضى. ومنها «سواد

---

(١) هو عبد الله بن إبراهيم بن حسن بن محمد أمين أبو السيادة عفيف الدين ميرغني متصوف حنفي من أهل مكة توفي سنة ١٠٢٧ هـ.

العين في شرف النسبين»، ومنها «السهم الداحض في نحر الرافض»، ومنها «الفروع الجوهرية في الأئمة الاثني عشرية»، ومنها «الدرة اليتيمة في بعض فضائل السيدة العظيمة»، ومنها «الكوكب الثاقب وشرحه»، وله ديوانان أحدهما «العقد المنظم في حروف المعجم»، والثاني «عقد الجواهر في نظم المفاخر»، ومنها «المعجم الوجيز في أحاديث النبي العزيز ﷺ» وشرحه الشيخ محمد الجوهري، ومنها «شرح صيغة القطب ابن مشيش»، ومنها «مشارق الأنوار في الصلاة والسلام على النبي المختار». انتهى ما نقلته من ترجمته باختصار. وها أنا أذكر بعض فوائد شرحه المذكور الذي سماه «النفحات القدسية من الحضرة العباسية في شرح الصلاة المشيشية» قال في مقدمته.

إعلم أن الصلاة على النبي ﷺ من أشرف القربات وأعظم الطاعات ومن أكمل ما يصلي به عليه هذه الصلاة فإنها صلاة جليلة المقدار عظيمة الأسرار والأنوار دالة على كمال صاحبها وتمام عرفانه إذ كل إناء ينضح بما فيه، وكل كلام عليه كسوة القلب الذي صدر منه، وناهيك بصلاة حازت نهاية الصلاة عليه ﷺ، بما هو مقدور البشر مع مساعفة العناية والقدر وملاحظة الفيوضات الإلهية وإلا فليس في قدرة البرية الثناء بتلك القضية.

وقال الشيخ العارف العلامة أحمد بن محمد النخعي رحمه الله تعالى في كتابه بغية الطالبين: وفي قراءتها من الأسرار والأنوار مالا يعلم حقيقته إلا الله تعالى وبقراءتها يحصل المدد الإلهي والفتح الرباني ولم يزل قارئها بصدق وإخلاص مشروح الصدر ميسر الأمر، محفوظاً بحفظ الله تعالى من جميع الآفات والبليات الظاهرة والباطنة، منصوراً على جميع الأعداء، مؤيداً بتأييد الله العظيم في جميع أموره ملحوظاً بعين عناية الله الكريم الوهاب، وعناية رسول الله ﷺ، وعلى آله والأصحاب وتظهر فائدتها بالمداومة عليها مع الصدق والإخلاص والتقوى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وذكر النخعي أنه أخذها عن البابلي، عن سالم السنهوري، عن النجم الغيطي، عن شيخ الإسلام زكريا، عن العز بن الفرات، عن التاج السبكي، عن والده التقي السبكي، عن ابن عطاء الله، عن المرسي، عن الشاذلي، عن مؤلفها سيدي عبد السلام.

ومن جواهر سيدي السيد عبد الله الميرغني رضي الله عنه

[شرحه على الصلاة المشيشية]

ما ذكره وفي مقدمة شرحه على الصلاة المشيشية وهو قصة جليلة سمعها من بعض مشايخه الأجلاء، وهي ما حكى عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه كان نائماً

ذات ليلة ببيت المقدس فلما مضى بعض الليل إذ رأى السقف قد انفرج، وإذا كراسي من ذهب وفضة مرصعة نزلت منه، ورتبها رجل، وإذا ابتخت عظيم مرصع بأنواع الجواهر يحير الواصفون في نعته، وإذا بملأ من الناس نزلوا وقعدوا كل واحد على كرسي، وإذا رجل لم ير مثله في الحسن والأنوار نزل فقعد فوق التخت منفرداً لم يشاركه فيه غيره قال: فقلت لمن في جانبي: من هؤلاء؟ قال: الأنبياء. قلت: والذي على التخت.

قال: نبينا محمد ﷺ. قلت: لمن جاؤوا. قال: جاؤوا يستشفعون الرسول ﷺ في الحلاج حيث خالف ظاهر الشرع. قال: ثم بعد ذلك قال موسى عليه السلام للرسول ﷺ: بلغني أنك تقول علماء أكتي كأنبياء بني إسرائيل، فأحب أن تريني واحداً منهم، فأشار ﷺ إلى رجل فإذا هو الغزالي، فقال: يا رسول الله إئذن لي أن أتكلم معه، فسأله عن مسألة فأجابه بعشرة أجوبة، فقال: سبحان الله سألتك عن شيء واحد فأجبتني بأجوبة، فقال له: يا سبحان الله ربك لما قال لك: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٧ - ١٨].

قال: ثم إني لم أزل متعجباً في كون آدم أبي البشر، ونوح، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى كلهم تحت التخت والرسول وحده منفرد به مع كونهم أباه وكبار الأنبياء، وبينما أنا في ذلك وإذا واحد يرفسني، ويقول قم أما علمت أنه أصل الكل وسيدهم المنفرد بسائر الكمالات، فكيف يشاركونه فيه ﷺ قال السيد عبد الله الميرغني بهذا المعنى: سمعت القصة من بعض مشايخي الأجلاء.

ومن جواهر سيدي السيد عبد الله الميرغني أيضاً

[لما خلق الله آدم]

يروى أن الله تعالى لما خلق آدم قال: يا رب لم كنيتني أبا محمد، قال: ارفع رأسك، فرفعه فرأى نور محمد ﷺ في سرادقات العرش. فقال: يا رب ما هذا النور؟ قال: هذا نور محمد نبي من ذريتك اسمه في السماء أحمد، وفي الأرض محمد، ولو لاه ما خلقتك، ولا خلقت سماء ولا أرضاً.

قال رضي الله عنه ففي قوله ولولاه خلقتك إلى آخره إيماء إلى خروج جميع الموجودات منه وإشعار بانشقاق جميع الأسرار عنه، إذ لولا الأصل لما وجد الفرع وبغير الواسطة لا يكون الموسوط، ولأنه لما تعلقت إرادته تعالى بإيجاد الخلق أبرز الحقيقة المحمدية من محض نوره المشار إليه بقوله ونفخت فيه من رواحي، ثم سلخ منها العوالم كلها علويها وسفليها على ما

سبق في سابق إرادته، ثم أعلمه تعالى بنبوته وبشره برسالته هذا وآدم لم يكن إلا كما قال ﷺ: «بين الروح والجسد، ثم انبجست منه» ﷺ عيون الأرواح، فظهر في الملأ الأعلى أصلاً ممد للعوالم كلها، وبيان ذلك وتوضيحه أنه لما كان تعالى كنزاً مخيفاً فأحب أن يُعرف توجهت الذات إلى الأسماء والصفات فاستفزت بكمالها. وانتهضت لإظهار جمالها وجلالها.

فأظهرت الذات الإلٰهية النبوية، وخلعت الأسماء والصفات الربانية، الكرامات والكمالات الاصطفائية، فبرزت من ذلك الحقيقة المحمدية، قبل وجود شيء من البرية، كما جاء بذلك الأخبار الصحيحة المروية.

إذا أخبر ﷺ: «أن أولُ ما خلق الله درة بيضاء» الحديث وتلك الدرة هي العقل الذي أخبرته ﷺ فيما رواه جابر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى، فقال: «هو نور نبيك يا جابر حلقه الله، ثم خلق فيه كل خير وخلق بعده كل شيء وحين خلقه قدامه في مقام القرب اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزانة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام فخلق القلم من قسم واللوح من قسم والجنة من قسم وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء فخلق الملائكة من جزء وخلق الشمس من جزء وخلق القمر والكواكب من جزء.

وأقام الجزء الرابع الرجاء في اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء خلق العقل من جزء، والحلم والعلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثني عشر ألف سنة، ثم نظر الله عز وجل إليه فترشح النور عرقاً فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألفاً وأربعة آلاف قطرة من النور فخلق الله سبحانه من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسهم نور الأولياء، والشهداء، والسعداء، والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، فالعرش والكرسي من نوري والكروبيون من نوري، والروحانيون من الملائكة نوري، وملائكة السمٰوات السبع من نوري، والجنة ما فيها من النعيم من نوري والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل والعلم والتوفيق من نوري وأرواح الأنبياء والرسل من نوري والأولياء والشهداء والصالحون من نتائج نوري، ثم خلق الله اثني عشر حجاباً فأقام الله نوري.

وهو الجزء الرابع فيْ كل حجاب ألف سنة وهي مقامات العبودية وهي حجاب الكرامة والسعادة والهيبة والرحمة والرأفة والعلم والحلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين، فعبد الله تعالى ذلك النور في كل حجاب ألف سنة.

فلما خرج النور من الحجب ركبه الله في الأرض فكان يضيء منه ما كان بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم ثم خلق الله من الأرض آدم فركب فيه النور في جبينه، ثم انتقل منه إلى شيث وكان ينتقل من طاهر إلى طيب ومن طيب إلى طاهر إلى أن أوصله الله تعالى إلى صلب عبد الله بن عبد المطلب ومنه «الى رحم أمي آمنة ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمة للعالمين وقائد الغر المحجلين هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر» هكذا نقل هذا الحديث الكازروني في سيرته.

قال السيد عبد الله الميرغني رضي الله عنه: بعده ولا مانع من حيث القدرة الإلهية مما ذكر فقد روي في حديث ابن القطان: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر الف عام».

ورويَ في التشريفات عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام «كم عمرت من السنين؟» قال: والله لا أدري غير أن كوكباً في الحجاب الرابع يظهر في كل سبعين ألف سنة مرة رأيته اثنين وسبعين ألف مرة، فقال النبي ﷺ: «يا جبريل وعزة ربي أنا ذاك الكوكب».

قال رضي الله عنه فهذا وأشباهه لا يستحيل على قدرة العزيز الجليل وقد تبين بما تقدم أنه ﷺ كل العالم وإن كان جزءمن العالم مظهراً له وجزءاً منه وهو بعضه من حيث اتحاده وغيره من حيث امتيازه وانفراده إذ نوره ﷺ الذي هو العقل أصل العالم كما ترى.

وبهذا تبين لك أن سائر الأسرار الشرعية والحقيقية والعرفية مشتقة منه ﷺ وبارزة من نوره المحمدي، فلذا كان عين الوجود ومظهر تجلى الواحد المعبود، ولذا إذا منح الله تعالى عبده المحبة والعرفان وجذبه إلى أعلى مقامات الإحسان وتجلى له بكمال الشهود لا يرى إلا الإله المقصود ورسوله الذي هو عين الوجود ويتحقق في مقام الفناء سر كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان وينشق له في مقام البقاء ان الرسول ﷺ كان ولم يكن معه شيء من الموجودات سوى رب الأرض والسموات وهو ﷺ الآن على ما عليه كان مخصوصاً بالتجلي الحقيقي من الله تعالى، كما أنه سبحانه مخصوص بالوجود المشار إليه بلا إله إلا الله أي موجود أبد الآباد إلا رب العباد وما سواه فان.

وإن أبرزه الإيجاد فسبحان من تفرد بالوجود في سائر الأزمان، وتنزه بكمال استغنائه عن المكان والزمان، وصلى الله وسلم على المخصوص بالتجلي الأعظم في سائر الأحيان، صلاة وسلاماً يليقان بحلاله وجماله وكماله، قال رضي الله عنه بعد ما ذكر: فإن قلت اذا كانت جميع الموجودات منفصلة عنه ﷺ ومن ذلك النار والكفار والفخار ونحوها ويبعد أن تكون

هذه الأشياء الخسيسة منفصلة من عين الكمالات، ونور الجلالات، لكن بعد النقل، لا تعويل على العقل، فما حكمة ذلك وما وجه انفصاله.

فاعلم أنه لما كان سبحانه وتعالى منفرداً بذاته، وموصوفاً بكثرة صفاته، وأراد إحداث حادث محبوب أبرز الذات المحمدية، مفردة عن الذات الفردانية، لتكون ملجأ لكل البرية، وخلع عليها من صفاته الكثيرة الإلهية، وصفاته سبحانه وتعالى ممدة للخلق أجمعين، ولا يضر انفصال تلك الأشياء منه ﷺ لأن ذلك من تكميل الله تعالى له لأنها مظاهر الجلال والجمال، وغيرها مظاهر الجمال والجلال، والجمع عين الكمال، والحمد لله ذي الأفضال، والصلاة والسلام على النبي والآل.

ومن جواهر سيدي السيد عبد الله الميرغني أيضاً

[انفلاق الأنوار]

قوله رضي الله عنه في شرح قول المصنف و«انفلقت الأنوار»: جمع نور وهي حسية ومعنوية.

فالحسية: بجميع أنواعها متفلقة من نوره، ومنفجرة من كمال بطونه وظهوره ﷺ وهي غير منحصرة.

وأما المعنوية: فما كان إلى الشريعة فظاهره، وما كان إلى الحقيقة فكذلك إذ لا يحصل لأحد من الأنبياء والملائكة والعارفين شيء من التجليات الإلهية، والأنوار الربانية، إلا وهي متفلقة منه، وصادرة عنه، ﷺ، وبيان ذلك أنه لما كان ﷺ مخصوصاً بالتجلي الأعظم لما إنه روح سر العالم والمقصود من الوجود كان تجلى الله تعالى له خاصة، وكان مهبط التجليات الإلهية فكل عارف لا يحصل له من ذلك إلا ما ترشح من حماه وانفلق من نوره وبهاه، ولا يمكنه السير إلى ماوراء ذلك. إذ هو ممنوع مما هنالك، لاختصاصه بسيد الوجود، لأنه حبيب الإله المعبود، وما سواه بالنظر اليه معدوم ومفقود، ولله در الشرف البوصيري حيث قال في همزيته:

أنـت مصبـاح كـل فضـل فمـا تصـ ـــدر إلا عــن ضـوئـك الأضـواء

وقال في بردته.

وكلهـم مـن رسـول الله ملتمـس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم
وواقفـون لـديـه عنـد حـدهـم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

ومن جواهر سيدي السيد عبد الله الميرغني أيضاً

[ارتقاء الحقائق فيه ﷺ]

قوله رضي الله عنه في شرح قول المصنف «وفيه ارتقت الحقائق»: أي وفي ذاته وصفاته ﷺ علت الحقائق، وارتقت الدقائق، فكانت وراء طور نهي الخلائق، لما أن استعداده ﷺ لا يقاس، وامداده قصر عن سمته سائر الناس، فحقائقه به تترقى، ودقائقه تعالت لحوقاً وسبقاً، وقد قال ﷺ أوتيت جوامع الكلم وخواتمه، وقال جبريل عليه السلام: «قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد ﷺ. ورحم الله البوصيري حيث قال:

وأنسب إلى ذاته ما شئت من شرف وأنسب إلى قدره ما شئت من عظم

فـإن فضـل رسـول الله ليـس لـه حـد فيُعـربَ عنـه نـاطـق بفـم

ومن جواهر سيدي السيد عبد الله الميرغني أيضاً

[تنزيل علوم آدم عليه السلام]

قوله رضي الله عنه في شرح قول المصنف: «وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق»، أي وفيه ﷺ تنزلت من عند الله تعالى علوم أبينا آدم، يعني حقائق العلوم التي علم آدم أسماءها الثابتة بقوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] وهذه العلوم هي علوم القرآن كما قال تعالى ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:٣٨] وقال تعالى ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل:٨٩].

وذكر في ذلك كثيراً من الأحاديث والآثار ثم قال: قد قال العلماء المحققون أنه تعالى أعلم نبيه ﷺ الغيب كله حتى الخمس المستثناة في آخر عمره ﷺ، لكن أمر بكتم البعض وإفشاء البعض وشتان بين العلم بحقائق الأشياء وبين العلم بأسمائها وبين إدراك المقصود وإدراك وسائله ولكن لما كان ﷺ هو المقصود، منح حقائق الوجود، ولما كان آدم عليه السلام هو الوسيلة، أوقف على الوسيلة، فسبحان من حكمته تبهر العقول، وأسرار عجائبه تطول، ولله در الشرف البوصيري حيث يقول:

لـك ذات العلـوم مـن عـالـم الغيـب ومنهـا لآدم الأسـمـاء

ولهذا قال بعض المحققين إنما سجدت الملائكة لآدم لأجل نور محمد ﷺ الذي في جبينه.

ومن جواهر سيدي السيد عبد الله الميرغني أيضاً

[إعجاز الخلائق]

قوله رضي الله عنه عند قول المصنف: فأعجز الخلائق بما حواه ﷺ من الحقائق، والعلوم والدقائق، وبما تجلي به من الأنوار الربانية والرقائق، التي في بحرها يغرق كل بحر رائق، فسبحان من خصه بما شاء من العلوم، وأعجز جميع خلقه بمنطوقه والمفهوم، ورحم الله العارف الأبوصيري حيث قال:

وتلقى من ربه كلمات ... كل علم في شمسهن هباء

زاخر بالعلوم يغرق في قطـ ... ـراتها العالمون والحكماء

وتحدى فارتاب كل مريب ... أو يبقى مع السيول الغثاء

وكيف لا يعجز الخلائق كنهه ووصفه وهو المتصف بسائر الكمالات، والتحقق بأعلى المقامات. كلام الميرغني، وهذه الأبيات الثلاثة الثابت منها في همزية البوصيري البيت الثالث فقط. فالظاهر أنه رضي الله عنه اطلع على نسخة منها فيها البيتان المذكوران والله أعلم:

ومن جواهر السيد عبد الله الميرغني أيضاً

[تضاؤل الفهوم عن الإدراك]

قوله رضي الله عنه عند قول المصنف «وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق» أي ولأجل كماله ﷺ وعظمته تصاغرت الفهوم فلم تدرك شيئاً من حقيقته، وتحاقرت الإدراكات فلم تفهم شيئاً من كمال حاله وصفته، فكل من رام شيئاً من ذلك، رجع خاسيء الطرف عما هنالك، وكل من قصد ذوق أنواره، عاد معترفاً بعجزه واحتقاره، وكل من نوى شم تلك الرائحة الطيبة، انحلت نياته وعزماته الصيبة، فالكل في بحر عجزه ونقصه غارق، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، وكيف يدرك من كان خلقه القرآن، وذاته من نور ذات الرحمن. ومن له كل مراتب الإحسان، وهو الحبيب الأكرم، والمخصوص بالتجلي الأعظم.

ومن هنا قال بعض العارفين، رحمهم الله أجمعين: لو انكشفت حقيقته ﷺ للخلق لارتدوا جميعاً إذ من كانت صفاته صفات الرحمن، وذاته من نور ذات المنان، وهو مدرك بالحواس والعيان، لا يختلف في معبوديته اثنان.

ومن هنا اختلف الناس في الأديان، لما ظهر لهم من تجلية تعالى في الجمادات والحيوان. ولكن سبحان الحنان المنان، الذي حفظ من شاء من عباده بالدليل والبرهان،

وحجز من أحب باليقين والعيان، وإذا كان الأمر كذلك فليس إلى إدراكه ﷺ من سبيل، بل ولا إلى شم رائحة حقيقة السيد النبيل، ولكن غاية التحقيق والإدراك. أنه سيد المرسلين والأملاك. ﷺ، وما أحسن قول صاحب البردة رحمه الله تعالى:

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى ... لقرب والبعد فيه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك في الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

ومن كان هذا شأنه وصفاته، كيف يمكن وصفه ونعته؟ أم كيف يمدح حاله وذاته؟ ولذا لما رأى بعض الأخيار سلطان العشاق العارف بالله سيدى عمر بن الفارض. أمده الله لمدده الفائض. فقال له: لم مدحت النبي ﷺ، أي بالتصريح والإلا فنظمه ليس هو إلا في الحضرة الإلهية أو المكانة النبوية فقال رضي الله عنه:

أرى كل مدح في النبي مقصراً ... وإن بالغ المثني عليه وأكثرا
إذا الله اثنى بالذي هو أهله ... عليه فما مقدار ما تمدح الورى

وقال ابن خطيب الأندلس يعني لسان الدين رحمه الله تعالى:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على عُلياك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً ... كان القصور قصار كل فصيح

فعلم بهذا أنه لو بالغ الأولون والآخرون في إحصاء مناقبه، لعجزوا عن استقصاء ما حباه به مولاه الكريم من مواهبه، ولكان الملم يساحل بحرها، مقصراً عن حصر بعض فخرها، ولقد صح لمحبيه، أن أنشدوا فيه ﷺ:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وإنه لجدير بقول القائل:

فما بلغت كف امرئ مُتَنَاوَلا ... من المجد إلا والذي نال أطول
ولا بلغ المهدون في القول مدحة ... ولا صفة إلا الذي فيه أفضل

وقال البدر الزركشي: ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء المتقدمين كأبي تمام والبحتري وابن الرومي مدحه ﷺ. وكان مدحه عندهم من أصعب ما يحاولونه، فإن المعاني وإن جلت فهي دون مرتبته والأوصاف وإن كملت دون وصفه وكل غلو في حقه تقصير فيضيق على البليغ النطاق فلا يبلغ إلا قُلاّ من كثر. وإذا تقرر ذلك فاعلم أن من أعظم الواجبات على كل مكلف أن يتيقن أن كمالات نبينا ﷺ لا تحصى.

وإن فضائله وصفاته الجميلة لا تستقصى، وإن خصائصه ومعجزاته لم تجتمع قط في مخلوق، وإن حقه ﷺ على الكمل فضلاً عن غيرهم أعظم الحقوق، وانه لا يقوم ببعض ذلك إلا من بذل وسعه في إجلاله وتوقيره وإعظامه، واستجلاء مناقبه ومآثره وحكمه وأحكامه.

وإن المادحين لجنابه العلي، والواصفين لكماله الجلي ﷺ لم يصلوا إلا إلى بعض من كل لاحدّ لنهايته، وغيض من فيض لا وصول إلى غايته، بل في الحقيقة لم يمدحوه بوصف إلا بحسب فهمهم ذلك. وجلت أوصافه ﷺ أن تكون إلا وراء كل ما هنالك. فوصف العجز والتقصير، عم الجليل والحقير.

ومن جواهر سيدي السيد عبد الله الميرغني أيضاً

[أنواره ﷺ غامرة الوجود]

قوله رضي الله عنه في شرح قول المصنف: «فرياض الملكوت بزهر جماله مونقه. وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقه. كل هذا كناية عن كون أنواره ﷺ غامرة الوجود بأسره. وكل عظيم في الوجود إنما عظمه بظهور كماله وفخره. وبيان ذلك أنه إذا كشف عن عين الحقيقة، بسبب اتباع كمال الطريقة رؤي بعين البصيرة تحقيقاً، ومشاهدة أن أسراره ﷺ متصلة بالوجود بأسره وأنواره غامرة لفرعه وأصله. «ولا شيء إلا وهو به منوط»: أي متعلق لكونه ممداً للعوالم كلها، وروح علوها وسفلها، وواسطة بينها وبين ربها فكل من ذواتها ومدد حياتها به منوط، اذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط، بل لا يوجد الموسوط بدون ما به منوط، وفي قوله سبحانه لنبيه آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام: «لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضاً» أدل دليل، بأنه الأصل في الإجمال والتفصيل، والواسطة حتى في النقير والفتيل، فسبحان من جعل مددنا من ذلك النور العظيم، وقوامنا بواسطة النبي الحبيب الكريم، فله الحمد العظيم على ذلك والثناء الفخيم.، وعلى نبيه منه له به أفضل الصلاة والتسليم.

ومن جواهر سيدي السيد عبد الله الميرغني أيضاً

[عبوديته لله ﷺ]

قوله رضي الله عنه في شرح قول المصنف «صلاة تليق بك منك إليه» أي إلى حضرة صاحب الرسالة، وقطب دائرة الجلالة، ومقصودك من الوجود، والمخصوص منك بكمال

الشهود، روح تجلياتك الذاتية، وعين مظاهر صفاتك الإلهية، والصلاة التي بهذه الكيفية، لا يعلم قدرها أحد من البرية، لعجزهم عن فهم تلك القضية «كما هو أهله» أي كالذي هو أهله يعني كما هو مستأهل له لكمال انكساره، وتمام افتقاره ﷺ، وذلك موجب لتمام الرحمة والمنة إذ هو، أي الانكسار والافتقار، وقوف على حقيقة العبودية التي هي أحوال العبد، ولذا لم يوصف ﷺ في علي المقامات إلا بها كقوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] إلى غير ذلك. . .

ومن جواهر سيدي السيد عبد الله الميرغني أيضاً

[النبي ﷺ سر الخالق وجامع الأدلة]

قوله رضي الله عنه عند قول المصنف: اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك اللهم إنه سرك الذي انفردت به من الوجود، وخصصته بالمحبة والشهود، الجامع لجميع الفضائل والأسرار، والحاوي لسائر التجليات والأنوار، الدال عليك بظاهره وباطنه وقلبه وقالبه وذاته وصفاته إذ هو ﷺ أقوى الدلائل على الله، وأرجح البراهين على توحيد الله، إذ فيه ﷺ من الآيات الباهرة ما لم يوجد في غيره منها مثقال حبة من خردل، بل ولا مقدار جوهر فرد من الرمل، بل في الحقيقة هو الدال على مولى الموالي كما يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف فبي عرفوني». وقوله ﷺ: **«إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل»**(١).

إذ المراد بالنور هو ﷺ لأن أول مخلوق سيد الوجود ﷺ، ومنه انشقت العوالم كلها كما تقدم. وهل يكون لها دلالة؟ إلا بما فيها من أنوار قطب الجلالة، فهو الدال في الحقيقة، على من له الشريعة والطريقة، إذ أسراره ﷺ أعظم الحجب كلها لأن كل حجاب سواه يمكن الف حجاب من نور وظلمة وهو ﷺ أعظم الحجب كلها لأن كل حجاب سواه يمكن زواله للسالك وذهابه، إلا هو ﷺ، فإنه الحجاب الذي لا يمكن قطعه ولا إزالته وعنده ينتهي سير كل نبي وولي ولا يتعدون إلى ماوراء ذلك كما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤].

وبيان ذلك وتوضيحه أن السالك الصادق إذا توجه بكمال السير، وفني عن السوى

---

(١) الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ٣٩٦).

والغير، انكشف له أنه ﷺ قائم بين يدي الله تعالى، وأنه سبحانه متوجه إليه بالتجليات كلها لأنه مقصوده من الوجود وما سواه إنما يحصل له رشحات من ذلك تتميماً لفيض فضله، وتكميلاً لعموم رحمته فكل من رام حقيقة التجليات، انحجب عنها بسيد السادات، فهو الحجاب الأعظم الذي لا يمكن قطعه وهو رحمة من الله تعالى على عباده، لأنهم غير أهل لاستعداده، وكل ما فيهم من استعداد، إنما هو من الأمداد الحاصل لهم منه، والنور البارز لهم عنه، ﷺ ومن هنا يظهر له في حال كماله في الشهود أنه ﷺ بمنزلة العالم السفلي، ومولاه بمنزلة العالم العلوي، وهذا تشبيه تقريب والأمر وراء ذلك وفي الإشارة، ما يغني عن العبارة، فجاهد تشاهد وجد، تجد، ويفهم من هنا معنى صلاة بعض السادة وهي، **أللهم صل على سيدنا محمد عرش رحمانيتك، المستوي عليه ذات ربوبيتك**، ما اخترت نقله من كلام سيدي العارف بالله السيد عبد الله الميرغني في شرح الصلاة المشيشية رضي الله عنه وعن مؤلفها ونفعنا ببركاتهما وبأولياء الله أجمعين:

ومنهم الإمام العارف بالله سيدي محمد البكري الكبير المتوفى سنة ٩٩٢ هـ رضي الله عنه

ومن جواهره

[رسالته في حكمة شدة سكرات الموت]

رسالته في حكمة شدة سكرات الموت على رسول الله ﷺ وهي:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد الله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، هذا ما دعت اليه حاجة السائل عن وجه الحكمة في ما نزل برسول الله ﷺ من سكرات الموت حين قال: واكرباه، وقال لا إله إلا الله إن للموت لسكرات، وجعل يمسح وجهه الشريف بالماء، فأقول: لا شك أن مزاجه الشريف النبوي ﷺ، هو من الاعتدال بالوصف الأعظم، والحال الأكرم، فلا جرم كان إحساسه بالألم أكثر، ووجد أنه لآثاره أكبر، ومن ثمة قال: **«إني أوعك كما يوعك رجلان منكم فإذا اعتدلت كفتا ميزان فحصل في واحدة منهما أيسر شيء ظهر الميل»**.

هذا مع ما ينضم إلى ذلك المزاج الشريف من قوة تشبث الحياة الإنسانية به كيف؟ وهو كمادتها الأصلية، وقوام حقيقتها العلية...

فلما أحست بالترحال من روضة جسمه المقدسة، وحظيرة ذاته المكرمة، عز عليها ذلك فظهر ما ظهر من الألم، مما وقع له ﷺ، مع ما ينضم إلى ذلك من أنه تعالى إذا أجرى مثل ذلك الوصف على رسوله ﷺ كان ذلك مسلاة لما تناله أمته من تلك الشدائد، ومحسمة لعرق القلق المتزايد، فإنه ﷺ وهو حبيب الله وأعز خلقه عليه إذا جعل طريق نزوحه عن الدنيا على هذه الصورة، يسهل على كل أحد ما يحصل له من الشدة والضرورة، مع ما ينضم إلى ذلك من أن الله تعالى جعله ﷺ طاوياً لأفراد أمته في حقيقته الشريفة، بل لأفراد جميع الكائنات ضرورة أنه سبب قيامها، وملاك قوامها، وسابق عليها، والحق تعالى ناظر منه إليها، وهو علتها الأصلية، ومنشأ وجوداتها الفرعية، فإن الكون جواهره وأعراضه مستمد من حضرته، وهو ﷺ

سائر فيه سريان حكمته تعالى في خليقته، وبراهين ذلك تضيق عنها الطوامير، والله ولي التيسير، فنشأ من ذلك أن فراق روحه ﷺ لجسده كأنه فراق كل روح لكل جسد وكل حياة لكل حي من كافة مادارت عليه منطقة الوجود، وأحاط به اسم الموجود، فإذا لم يحصل له ﷺ إلا ذلك الكرب المشاهد فهو بالنسبة إلى الحال الذي سطرناه نزر يسير، ونز من غدير، وغيض من فيض وقُل من جُل، مع ما ينضم إلى ذلك من تحمله ﷺ بما ناله في ذلك الوقت من الشدة أعباء هذا الأمر عن أمته لتكفله بحمل قوة هذا الإصر عنهم، أو ما سمعت الله تعالى يقول: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] بالوقف على عزيز وما بعده مبتدأ وخبر كما قال: كثير.

وما جاء في السنة كنا إذا اشتد الحرب وحمي الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ، مع ما ينضم إلى ذلك مما يستدل له بالعادات المستقرة، كمن فوض إليه الملك أمر مملكة من الممالك واستحفظه عليها واستخلفه فيها ثم أراد نقله عنها فإنه يستعرض عند ذلك جميع ما أحاط به نظره من أموره أيام ولايته عليها ويستعد لما يُسأل عنه من أمورها ليكون على بصيرة لما يُطلب منه هذا مع كثرة وفور رسل الملك إليه بنقله إلى مملكة أخرى فيصير بين أمرين من رعاية أحوال الوافدين ورعاية ما سبق شرحه، وانظر أي مملكة كان فيها وأي دائرة واسعة كان متولياً عليها ﷺ، مع ما ينضم إلى ذلك مما هو فذلكة هذه القضايا وزبدة مخض هذه الأسقية وهو ما من الله تعالى واتحف به رسوله ﷺ في ذلك الوقت من تنزلات أحدية، وتجليات صمدية، وأسرار كانت مستكنة في قدس الذات، ومشاهدات كانت متبرقعة بالأسماء والصفات، ولا شك في ثقل أعباء تلك التنزلات، وعضيم ما يطرق من تلك المفاجآت أو ليس كان ﷺ يعالج من التنزيل شدة أو ليس الصديقة رضي الله عنها قالت: لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم البارد فيُفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً، كيف والله تعالى يقول ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] . مع ما ينضم إلى ذلك من كون موته ﷺ هو الحياة الأبدية، بالإفاضات الإلهية، فله سكرات، بأعظم مشاهدات تبرز لأجل ضرورة ضيق نطاق الجثمان. من محض عالم العيان، وهي مجاهدات، بصورة سكرات، مع ما ينضم إلى ذلك من إحساسه ﷺ باللقاء الخاص بالحق سبحانه على ماعنده ﷺ من فريد الخشية، وعظيم الهيبة، وتوفر الإجلال، على قدر معرفة ربه ذي الجلال، وما يناسب حالة من العبودية بالقرب من حظيرات قدسه عز وجل، فلهذه المعرفة وهذا الاستشعار، وما أدركه من ملاحظة ذلك الجلال، وادّكار عزة الملك المتعال، ظهر به عليه ما ظهر من ذلك الحال.

ولذلك قال ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه». مع ما ينضم إلى ذلك من استطارة الشوق للإسراع إلى حضور ذلك اللقاء الروحي، والمقام السبوحي. حق كأنه يريد أن تخرج

روحه إخراجاً، ويدرجها بسرعة للحصول على ذلك القرب الخاص إدراجاً، فلا جرم ينشأ من قهر عالم الطبيعة وضغط مزاج البشرية ما تقوى به حركة الانتقال، ويظهر به سلطان ذلك الحال، ومن هنا وصف ﷺ الميت بأنه عند حضور الموت تتهوع نفسه.

وقال ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**» مع ما ينضم إلى ذلك من تعلق أهل عالم الدنيا بمن له اتصال بالحضرة العلية، «وهو الذات المحمدية»، فهم يحبون بقاءه ﷺ في هذا الوجود، لأنهم قد أمدتهم حياته التي هي حياة كل موجود، وهو ﷺ المرآة التي لا أسطع مع شعاع صفائها ولا ابداع من جميل صفاتها، فتنطبع تلك التعلقات من حضرته الشريفة بمرآتها، ويقتضي ما ذكر من انطباع تعلق العالم بمثاله. وتشبثه بأذيال ترحاله وانتقاله، اشتداد تلك السكرات من انعكاس هذه التعلقات، فإنهم يريدون بقاء حياته ﷺ ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنافقون: ٦٣] مهما اشتد أمر، فتفاعلا على طرفي نقيض وإن كان أمره سبحانه وتعالى لا يقهره أمر، وإنما حصل ذلك لأعطائه الأشياء مقتضاها، ولإظهاره سلطنة حبيبه ﷺ بقوة تعلق الكائنات به، وبما منحه من تلك المرتبة الشريفة وأعطاها، مع ما ينضم إلى ذلك من إجراء الله تعالى رسوله ﷺ على أوصاف العبودية، التي هي أشرف أوصاف البرية، أو ليس قد خيره بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً فاختار الثاني، وقال «**أجوع يوماً وأشبع يوماً**» وأمثاله.

ومقتضى مزاج العبودية منازلة المكاره ومعاناة الشدائد في جنب أوامر السيد. وقد قال ﷺ في فقد ولده: «**إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[1] ولا بد من حصول الآلام البشرية، تحقيقاً لما أحبه ﷺ من أوصاف العبودية، والافتقار للحق والانكسار بين يديه تعالى ليظهر سلطان الربوبية، وتقوم النواميس الإلهية، والله تعالى أعلم.

انتهت الرسالة ولم يذكر من الحكم مضاعفة الثواب الثابت في الأحاديث الصحيحة لظهوره.

تم الجزء الثاني من جواهر البحار بتصحيح مؤلفه

في العاشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢٥ هـ.

ويليه الجزء الثالث

أوله كلام الإمام الغزالي.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٢: ١٠٥). والبغوي في شرح السنة (٥: ٤٢٩). والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٧٢٢). والأذكار النووية ١٣٤. وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ١: ٨٩).

فهرس المحتويات